

الأستاذ الدكتور وهيب الزحيلي

التفسير المنير

في الحقيقة والشرع والهج

المجلد الخامس عشر

آفاق معرفة متعددة



www.fikr.com

دار الفكر للطباعة والنشر

بيروت - دمشق - القاهرة



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
مُطَبَّل ٢٩ / ٨

التفسير المنير

في العقيدة والشرعية والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الخامس عشر
الجزءان ٢٩ - ٣٠





دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

<http://www.fikr.com/>

c-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ. د. وهبة الزحيلي

المجلد الخامس عشر

الرقم الاصطلاحي: ١٥ - ١٦٩٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٩٠٤ ص، ٢٥ × ١٧ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ط ٢ / ٢٠٠٣م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير المنير

في العقيدة والشرعية والمنهج

المجلد الخامس عشر

الجزءان ٢٩ - ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُلْكِ

مكية، وهي ثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة «الْمُلْكُ»؛ لافتتاحها بتقديس وتعظيم الله نفسه الذي بيده الْمُلْكُ - ملك السماوات والأرض - وله وحده مطلق السلطان، والتصرف في الأكوان كيفما يشاء، يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع. وتسمى السورة أيضاً (الواقية) و (المنجية) لأنها تقي وتنجي من عذاب القبر، وتشفع لصاحبها كما سأبين. وكان ابن عباس يسميها (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها في القبر.

مناسبتها لما قبلها:

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها من وجهين:

أ - وجه عام: وهو أن هذه السورة تؤكد مضمون السورة السابقة في جملتها، فالسورة المتقدمة تبين مدى قدرة الله وهيئته وتأيدته لرسوله محمد ﷺ في مواجهة احتمال ظهور تأمر امرأتين ضعيفتين من نساءه عليه، وهذه السورة توضح بصيغة عامة أن بيد الله ملك السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه القدير على كل شيء.

٢ - وجه خاص : وهو أنه تعالى ذكر في أواخر (التحريم) مثالين فريدين متمثلين بامرأتَي نوح ولوط للكافرين، وبامرأة فرعون المؤمنة، ومريم العذراء البتول للمؤمنين، وهذه السورة تدل على إحاطة علم الله تعالى وتدبيره، وإظهاره في خلقه ما يشاء من العجائب والغرائب، فإن كفر امرأتَي نوح ولوط لم يمنع اتصالهما بنبيين كريمين، وإيمان امرأة فرعون، لم يضر بها اتصالها بفرعون الطاغية الجبار العنيد، كما لم يزعزع إيمان مريم حملها غير المعهود بعيسى عليه السلام.

ما اشتملت عليه السورة:

سورة الملك كسائر السور المكية تعنى بأصول العقيدة الأساسية، وهي إثبات وجود الله، وعظمته، وقدرته على كل شيء، والاستدلال على وحدانيته، والإخبار عن البعث والحشر والنشر.

بدئت بالحديث عن تمجيد الله سبحانه، وإظهار عظمته، وتفرد به بالملك والسلطان، وهيمته على الأكوان، وتصرفه في الوجود بالإحياء والإماتة (الآيات: ١-٢).

ثم أكدت الاستدلال على وجود الله عز وجل بخلق السماوات السبع، وما زينها به من الكواكب والنجوم المضيئة، وتسخيرها لرجم الشياطين، ونحو ذلك من مظاهر قدرته وعلمه (الآيات: ٣-٥) مما يدل على أن نظام العالم نظام محكم لا خلل فيه ولا تغاير.

ومن مظاهر قدرته تعالى: إعداد عذاب جهنم للكافرين، وتبشير المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير، وذلك جمع بين الترهيب والترغيب على طريقة القرآن الكريم (الآيات: ٦-١٢).

ومن مظاهر علمه وقدرته ونعمه: علمه بالسر والعلن، وخلق الإنسان

ورزقه، وتذليل الأرض للعيش الهني عليها وحفظها من الخسف، وحفظ السماء من إنزال الحجارة المحرقة المدمرة للبشر، كما دمرت الأمم السابقة المكذبة رسلها، وإمساك الطير ونحوها من السقوط، وتحدي الناس أن ينصرهم غير الله إن أراد عذابهم (الآيات: ١٣-٢٠).

وأردفت ذلك في الخاتمة بإثبات البعث، وحصر علمه بالله تعالى، وإنذار المكذبين بدعوة الرسول ﷺ، وتحذيرهم من إيقاع العذاب بهم، وإعلان وجوب التوكل على الله، والتهديد بتغيير الماء الجاري في الأنهار والينابيع دون أن يتمكن أحد بإجرائه والإتيان ببديل عنه (الآيات: ٢٥-٣٠).

والخلاصة: إن السورة إثبات لوجود الله تعالى ووحدانيته ببيان مظاهر علمه وقدرته، وإنذار بأهوال القيامة، وتذكير بنعم الله على عباده، وربط الرزق بالسعي في الأرض ثم التوكل على الله تعالى.

فضل السورة:

وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه السورة، منها: ما أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها، غفر له: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾». .

ومنها: ما أخرجه الطبراني والحافظ الضياء المقدسي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾». .

ومنها: ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس في تسمية سورة الملوك بالواقية والمنجية، قال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر». .

بعض أدلة القدرة الإلهية

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَتَكْفُرُونَ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِسَبْصِيعٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤

القراءات:

﴿تَفَوُّتٍ﴾.

وقرأ حمزة، والكسائي (تَفَوُّت).

الإعراب:

﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ «طِبَاقًا» صفة «سَبْعَ» و«طِبَاقًا»: إما جمع (طبق) كجمل وجمال، أو جمع (طبقة) كَرَحْبة وِرْحَاب: ويصح أن تكون (طباقًا) مصدرًا أو حالًا.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ «كَرَّتَيْنِ»: منصوب في موضع المصدر، كأنه قال: فارجع البصر رجعتين، ويراد بالثنية هنا الكثرة: لا حقيقة الثنية، بدليل قوله: «يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ» والبصر لا ينقلب خاسئًا حسيراً بمجرد مرتين، وإنما يصير كذلك بمرار جهة، مثل قولهم: لبيك وسعديك، أي إلباباً بعد إلباب، وإسعاداً بعد إسعاد، يعني: كلما دعوتني أجبتك إجابة بعد إجابة، من قولهم: ألبَّ بالمكان: إذا أقام به.

البلاغة:

﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ استعارة تمثيلية، أو في لفظ (اليد) مجاز، ويكون قوله «الْمُلْكُ» على الحقيقة.

﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ استعارة تمثيلية، شبه معاملة الله لعباده بالابتلاء والاختبار.

﴿الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ﴾ بينهما طباق.

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وضع الموصول للتفخيم والتعظيم، أي له السلطان والتصرف المطلق.

﴿فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ﴾ «ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرْنَيْنِ» إطناب بتكرار الجملة مرتين لزيادة التنبيه والتذكير.

﴿قَدِيرٌ﴾، «حَسِيرٌ»، «السَّعِيرُ» سجع مرصع، وكذا قوله: «الْفَقُورُ»، «فُطُورٌ».

المفردات اللغوية:

﴿تَبَرَّكَ﴾ تعاضم وتعالى بالذات عن كل ما سواه، وكثر خيره وإنعامه، من البركة: وهي النماء والزيادة الحسية أو المعنوية. «بِيَدِهِ الْمُلْكُ» المالك المطلق وصاحب السلطان المتفرد، و«بِيَدِهِ» نؤمن باليد كما جاء على مراد الله، والظاهر هنا بيان قدرة الله وسلطانه ونفاذ تصرفه في ملكه. «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ» أوجده أو قدره أزلاً، و«الْمَوْتَ» عدم الحياة المعروفة، «وَالْحَيَوَةَ» ما به الإحساس والحياة. «لِيَبْلُوكُمْ» ليختبركم في حقل الحياة، أي ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم. «أَحْسَنُ عَمَلًا» أخلصه الله وأطوعه. «الْعَزِيزُ» القوي الغالب الذي لا يغلبه شيء، ولا يعجزه عقاب المسيء. «الْفَقُورُ» الكثير المغفرة والستر لذنوب عباده إذا تابوا.

﴿طِبَاقًا﴾ متطابقاً بعضها فوق بعض، بحيث يكون كالجزم منه، وكالقبة على الأخرى. «تَفَنُّونَ» تباين وتناقض وعدم تناسب. «فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ» أعده إلى السماء. «فُطُورٍ» شقوق وصدوع، جمع فُطْر. «كَرْنَيْنِ» مرة بعد مرة أو كرة بعد كرة، والمراد بذلك التكرار والتكثير. «يَقْلِبُ» يرجع. «حَاسِبًا» صاغراً

ذليلاً عن أن يرى شيئاً من العيب أو الخلل في خلق السماوات. ﴿حَسِيرٌ﴾
كليل منقطع، لم يدرك المطلوب بعد كثرة المراجعة.

﴿السَّمَاءُ الدُّنْيَا﴾ أقرب السماوات إلى الأرض. ﴿بِمَصَيِّحٍ﴾ بنجوم
وكواكب مضيئة، جمع مصباح. ﴿رُجُومًا﴾ راجحات أو مراجم يرمم ويرمي
بانقضاض الشهب عليها، جمع رَجَمَ. ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ شياطين الجن والإنس.
﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ هيأنا. ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ عذاب النار المستعرة الموقدة.

التفسير والبيان:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) يمجّد الله تعالى نفسه
الكرمة للتعليم والإرشاد، ويخبر أنه سبحانه المتصرف في جميع المخلوقات بما
يشاء، وأنه التام القدرة على كل الأشياء، لا يعجزه شيء، بل هو يتصرف في
ملكه كيف يريد، من إعزاز وإذلال، ورفع ووضع، وإنعام وانتقام، وإعطاء
ومنع، لا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لحكمته وعدله وإطلاق سلطانه.
وكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ تعالى وتعظيم، وهي تدل على غاية الكمال ومنتهى التعظيم
والإجلال، ولذا لا يجوز استعمالها في حق غير الله تعالى.

تدل الآية على أمور ثلاثة: أن الله تعالى تعظيم عن كل ما سواه من
المخلوقات، وأنه المالك المتصرف في السماوات والأرض في الدنيا والآخرة،
وهو صاحب القدرة التامة والسلطان المطلق على كل شيء.

ومن مظاهر قدرته وعلمه قوله سبحانه:

أ - ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٢)
أي إنه تعالى موجد الموت والحياة ومقدرهما من الأزل، وهو الذي
جعلهم عقلاء ليدركوا معاني التكليف ويقوموا به، وليعاملهم معاملة المختبر
لأعمالهم، فيجازيهم على ذلك، وليعرفهم أيهم أطوع وأخلص لله وخير

عملاً، وهو القوي الغالب القاهر الذي لا يغلبه ولا يعجزه أحد، الكثير المغفرة والستر لذنوب من تاب وأتاب بعدما عصاه وخالفه، فهو سبحانه مع كونه عزيزاً منيعاً يغفر ويرحم، ويعفو ويصفح، كما في آية أخرى: ﴿يَقْنُ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) [الحجر: ٤٩/٥٠-٥٠].

والآية دليل على أن الموت أمر وجودي؛ لأنه مخلوق. والموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها له، والحياة: تعلق الروح بالبدن واتصالها به، وإيجاد الحياة معناه: خلق الروح في الكائنات الحية، ومنها إيجاد الإنسان. والمقصد الأصلي من الابتلاء: هو ظهور كمال إحسان المحسنين.

روى ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أذلّ بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة، ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء».

وقدم الموت على الحياة في الآية؛ لأنه أقوى داعياً إلى العمل.

٢ - ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُتُورٍ﴾ (٢) أي إنه تعالى الذي أوجد وأبدع السماوات السبع، المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء منفصلة عن الأخرى كما جاء في حديث الإسراء وغيره، يجمع بينها نظام الجاذبية، ما تشاهد أيها الناظر التأمل في مخلوقات الرحمن من تناقض وتباين وعدم تناسب، واردد طرفك في السماء، وتأمل: هل تشاهد فيها من شقوق وصدوع؟! وهذا دليل على تعظيم خلقها، وسلامتها من العيوب، وكون خالقها ذا قدرة تامة وعلم دقيق شامل محكم متقن.

ونظير الآية: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ١٣/٢].

والسما: مادة لا يعلم حقيقتها إلا الله، تبعد عن الأرض مسيرة خمس مئة عام بالقياسات القديمة، وتتحدد الآن بالأميال حسبما تدل عليه برامج غزو الفضاء. وقيل: إنها مدارات الكواكب، ويرى العلماء الفلكيون أنها فراغ يدور فيها الكوكب، وإذا عرفنا أن الكواكب ذات أبعاد متفاوتة ومسافات مختلفة، أدركنا تصور كرات السماوات السبع. وتكوّن المجموعة الشمسية والمجموعات النجمية ما يعرف باسم (الكون). والمجموعة الشمسية (أو النظام الشمسي) تطلق في علم الفلك على الشمس والكواكب السيارة وتوابعها، وهي بترتيب بعدها عن الشمس: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، أورانوس، نبتون، بلوتو. والمجموعات النجمية شمس نائية البعد تتغير ألوان بعضها لعدة أيام أحياناً.

﴿ثُمَّ أُنْجِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي ثم اردد البصر ودقق مرة بعد مرة مهما تكاثرت المرات، يرجع إليك البصر صاغراً ذليلاً عن رؤية شيء من الخلل أو العيب في خلق السماء، وهو كليل عمي من كثرة التأمل ومعاودة النظر. ومعنى الآية بعبارة أخرى: إنك أيها الإنسان المخاطب لو كررت البصر مهما كررت، لا تنقلب إليك أو رجع إليك البصر ذليلاً عن أن يرى عيباً أو خللاً.

والمراد بقوله: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تكثير النظر لمعرفة الخلل.

٣ - ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي ولقد زيننا أقرب السماوات إلى الناس بكواكب ثوابت وسيارات، فصارت في أحسن خلق وأبهج شكل، وسميت الكواكب مصابيح؛ لأنها تضيء كإضاءة السراج، وجعلنا تلك الكواكب بما ينقض منها من الشهب أو من دونها راجحات يرمم بها الشياطين، وأعدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب النار المستعرة الموقدة بسبب فسادهم وإفسادهم.

ورجم الشياطين يعدّ فائدة أخرى للكواكب، غير كونها زينة للسماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَأْتِجُمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦/١٦].

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة السماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر، فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وتكلف ما لا علم له به.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ [١] وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ [٧] لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمًا لَّاغَلَىٰ وَيُقَدَّرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ [٨] دُخُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ [٩] إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [١٠] [الصافات: ١٠-٦/٣٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - تعظم الله بالذات عن كل ما سواه، وهو مالك السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، والقادر على كل شيء من إنعام وانتقام.

٢ - الله هو الذي أوجد الموت وأوجد الحياة ليعامل العباد معاملة المختبر، ويقيم الدليل عليهم أيهم أطوع وأخلص لله، وهو سبحانه القوي الغالب في انتقامه ممن عصاه، الغفور لمن تاب.

قال ابن عمر: تلا النبي ﷺ: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَدْرِي أَلْمَلِكُ﴾ حتى بلغ ﴿أَبْنُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فقال: أروع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله.

والابتلاء: هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي؟

٣ - الله هو الذي أوجد أيضاً السماوات السبع متطابقة بعضها فوق

بعض، ما ترى في خلقها من اعوجاج وصدوع، ولا تناقض ولا تباین، بل هي مستقيمة مستوية، دالة على خالقها، لا عيب ولا خلل فيها.

٤ - إذا كرر الإنسان النظر في السماوات مرات كثيرة، لا يرى فيها عيباً؛ بل يتحير بالنظر إليها، ويرجع إليه بصره خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك، وقد بلغ الغاية في الإعياء.

٥ - زين الله السماء الدنيا وهي القربى أقرب السماوات إلى الناس بكواكب مصابيح لإضاءتها، وجعل منها شهياً تنقض على مرده الشياطين، وأعد الله للشياطين أشد الحريق بسبب الكفر والضلال والإفساد.

والآيات كلها دليل على كونه تعالى كامل القدرة والعلم.

تعذيب الكفار العصاة

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ①﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ② تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ③ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ④ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑤ فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥﴾

القراءات:

﴿وَبِئْسَ﴾:

وقرأ السوسي، وورش، وحمة وقفاً (وبيس).

﴿فَسُحْقًا﴾:

وقرأ الكسائي (فَسُحْقًا).

الإعراب:

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ المراد بذنوبهم، ووحد لوجهين:

أحدهما - أنه أضافه إلى جماعة، والإضافة إلى الجميع تغني عن جمع المضاف، كما أن الإضافة إلى التثنية تغني عن تثنية المضاف.

والثاني - أن (ذنب) مصدر، والمصدر يصلح للواحد والجمع.

﴿فَسُحْقًا﴾ منصوب على المصدر، وجعل بدلاً من الفعل، أو منصوب بتقدير فعل، تقديره: ألزمهم الله سحقا.

البلاغة:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ استفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ زيادة لهم في العذاب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ مقابلة، قابله بقوله بعدئذ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾.

﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ استعارة مكنية، شبه شدة استعارها وحسبها بصوت

الحمار.

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ استعارة مكنية، شبه جهنم في شدة غليانها

ولهبها، بإنسان شديد الغيظ والحق على عدوه مبالغة في إيصال الضرر إليه، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الغيظ الشديد.

﴿الْمَصِيرُ﴾، ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿كَبِيرٌ﴾، ﴿السَّعِيرُ﴾ سجع مرصع لمراعاة رؤوس

الآيات.

﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ إطناب بتكرار

الجملة مرتين لزيادة التنبيه.

المفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من شياطين الإنس والجن. ﴿وَيَنْسُ الْمَصِيرُ﴾ ساء المرجع هي. ﴿أَلْقُوا فِيهَا﴾ طرحوا فيها. ﴿شَهيقًا﴾ صوتاً منكراً شديداً كصوت الحمار، والشهيق: تنفس يسبق الزفير، وهو هنا كتنفس المتغيظ. ﴿تَقَوُّرٌ﴾ تغلي بهم كغلي المرجل. ﴿تَمَيُّزٌ﴾ أي تميز بمعنى تتقطع وتتفرق غضباً عليهم. ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ غضباً على الكفار، والغَيْظ: شدة الغضب، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم. ﴿فَوْجٌ﴾ جماعة أي من الكفار. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ سؤال توبيخ، والخزنة: الأعوان وهم مالك وأعوانه، جمع خازن. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي رسول ينذركم عذاب الله، ويخوفكم منه، والاستفهام يراد به التوبيخ والتبكي.

﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ ما أنتم. ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ خطأ بعيد عن الصواب والحق. وهذا القول إما من الملائكة للكفار حين اعترفوا بالكذب، أو من كلام الكفار للنذر من الرسل. ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ سماع تفهم. ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عقل تفكر. ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ في عدادهم ومن جملتهم. ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ أقرؤا بذنوبهم حين لا ينفعهم الاعتراف، والاعتراف: إقرار عن معرفة. ﴿فَسُحْقًا﴾ أي أسحقهم الله سحقاً، أي أبعدهم الله من رحمته.

للمناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى ما أعد للشياطين من عذاب السعير في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا، عمم الوعيد، وأوضح أن هذا العذاب معد أيضاً لكل كافر جاحد بربه، ثم ذكر أوصاف النار وأهوالها الشديدة.

التفسير والبيان:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَنْسُ الْمَصِيرُ ۝﴾ أي وأعدنا لكل

الجاحدين برهم، المكذبين رسله من الجن والإنس عذاب نار جهنم، وبشس المال والمرجع وما يصيرون إليه، وهو جهنم.

ثم ذكر صفات النار الأربع وهي:

١، ٢ - ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ۖ﴾ أي إذا طرح الكفار في نار جهنم، كما يطرح الخطب في النار العظيمة، سمعوا لها صوتاً منكراً كصوت الحمير أول نهيقها، أو كصوت المتغيظ من شدة الغضب، وهي تغلي بهم غليان الرجل.

٣ - ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تكاد أو تقترب تتقطع، ويفصل بعضها من بعض، من شدة غضبها على الكفار، وحنقها بهم.

٤ - ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي كلما طرح في جهنم جماعة من الكفار، سألهم أعوانها وزبانيتهما سؤال تفرغ وتوبيخ: أما جاءكم في الدنيا رسول ينذركم هذا اليوم ويخوفكم ويحذركم منه؟

فيجيهم الكفار بقولهم من ناحيتين:

أ - ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝﴾ أي أجاب الكفار قائلين: بلى جاءنا رسول من عند الله ربنا، فأنذرنا وخوفنا، لكننا كذبنا ذلك النذير، وقُلْنَا له: ما نَزَّلَ الله من شيء على لسانك، ولم يوح إليك بشيء من أمور الغيب وأخبار الآخرة والشرائع التي أمرنا الله بها.

وما أنتم أيها الرسل إلا في ذهاب عن الحق، وبعد عن الصواب. فهذا على الأظهر من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أُنُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ

خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿الزمر: ٣٩﴾
[٧١] .

وهذا دليل على عدل الله في خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة
عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥/١٧] .

٢ - ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي إننا
نلوم أنفسنا ونندم على ما فعلنا، فلو كنا نسمع ما أنزل الله من الحق سماع من
يعي، وسماع هداية، أو نعقل عقل من يميز وينظر ويتفهم، وعقل هداية، ما
كنا من أهل النار، وما كنا عليه من الكفر بالله والضلال، ولكن لم يكن لنا
فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم،
والإيمان بما أنزل الله تعالى، والاستماع إلى الرسول ﷺ. وقدم السمع على
العقل والتفهم؛ لأن المدعو إلى شيء يسمع كلام الداعية أولاً ثم يتفكر فيه.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي فأقروا معترفين بما
صدر عنهم من ذنب استحقوا به عذاب النار، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء،
فبعداً لهم من الله ومن رحمته. وهذا بيان بالجرمة ثم العقاب.

أخرج الإمام أحمد عن أبي البحري الطائي قال: أخبرني من سمعه من
رسول الله ﷺ أنه قال: «لَنْ يُهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» وفي حديث
آخر: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - للكافرين الجاحدين وجود الله ووحدانيته، المكذبين رسله عذاب

جهنم في الآخرة، وبش المرجع والمنقلب. وظاهر الآية يقتضي القطع بأن الفاسق المصر لا يبقى في النار.

٢ - للنار أوصاف أربعة مرعبة رهيبة: هي سماع شهيق أي صوت منكر لها، والفوران فهي تغلي بالكفار غليان المرجل، والغضب فهي تكاد تنقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى، وتعنيف الزبانية فكلما ألقى فيها جماعات منهم يسألهم خزنتها وهم مالك وأعوانه من الزبانية سؤال توبيخ وتقريع زيادة لهم في العذاب: ألم يأتكم رسول نذير في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا؟!

قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها؛ تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تَرْفِرُ زفرة لا يبقى أحد إلا خاف.

٣ - يعترف الكفار بأنه قد جاءهم رسول أنذرهم وخوفهم، فكذبوه، وقالوا: ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بُعْدٍ عن الحق والصواب.

٤ - وبعد أن اعترفوا بتكذيب الرسل، اعترفوا أيضاً بجهلهم، وهم في النار، وقالوا: لو كنا نسمع من الرسل النذر سماع تدبر ووحي، وتعمل وفهم ما جاؤوا به، ما كنا من أهل النار.

قال ابن عباس: لو كنا نسمع الهدى أو نعقله، أو لو كنا نسمع سماع من يعي ويفكر، أو نعقل عقل من يميز وينظر.

ودلّ هذا على أن الكافر لم يُعط من العقل شيئاً.

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد ندم الفاجر يوم القيامة، قالوا - أي الفجار -: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، فقال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ أي بتكذيبهم الرسل.

٥ - يقال للكفار حينئذ: سحقاً لكم، أي بعداً من رحمة الله، سواء اعترفوا أو جحدوا، فإن ذلك لا ينفعهم.

٦ - احتجوا بآية ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ على أن الدين لا يتم إلا بالتعليم؛ لأن السمع يقتضي إرشاد المرشد وهداية الهادي. واحتجوا بها أيضاً على تفضيل السمع على البصر؛ لأن الآية دلت على أن للسمع مدخلاً في الخلاص من النار والفوز بالجنة، فالسمع مناط الفوز، والبصر ليس كذلك، فوجب أن يكون السمع أفضل.

وعد المؤمنين بالمغفرة وتهديد الكافرين مرة أخرى

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢) وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَذَاتُ السُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)

الإعراب:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ «مَنْ»: في موضع رفع فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾ والمفعول محذوف، أي ألا يعلم الخالق خلقه.

البلاغة:

﴿وَأَسِرُوا﴾ و﴿أَجْهَرُوا﴾ بينهما طباق.

﴿كَبِيرٌ﴾، ﴿الْخَبِيرُ﴾ سجع، وكذا قوله: ﴿السُّدُورِ﴾ و﴿النُّشُورِ﴾.

للفردات اللغوية:

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاينوه بعد، أو في

حال غيبتهم عن أعين الناس، فيطيعونه سرّاً وعلانية. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾^(١٢) لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ثواب عظيم وهو الجنة، يصغر دونه للذاث الدنيا. ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في الضمائر أو النفوس.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء على وفق حكمته. ﴿اللطيف﴾ العالم بدقائق الأمور وخفاياها التي لا يدركها العالمون. ﴿الخبير﴾ المطلع على ظواهر الأشياء وبواطنها. ﴿ذُلُومًا﴾ سهلة متقادة لينة يسهل لكم السير فيها والانتفاع بها. ﴿مَتَّكِهَا﴾ جوانبها وطرقها، جمع منكب: وهو في الأصل مجتمع ما بين العضد والكتف. ﴿النُّشُورُ﴾ الخروج من القبور، والحياة بعد الموت، والرجوع إلى الله بعد البعث للجزاء.

سبب نزول الآية (١٣):

﴿وَأَسْرُوا﴾: قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فخبّره جبريل عليه السلام بما قالوا فيه ونالوا منه، فيقول بعضهم لبعض: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد.

المناسبة:

بعد وعيد الكفار بعذاب النار، ذكر الله تعالى للمقابلة وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير، ثم عاد إلى تهديد الكافرين والناس جميعاً بأنه عليم بكل ما يصدر عنهم في السر والعلن، وأقام الدليل على ذلك بأنه هو الخالق والقادر الذي ذلّل الأرض للعالم، وأذن لهم بالانتفاع بما فيها من خيرات وكنوز ظاهرة وباطنة كالزروع والثمار والمعادن.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١٣) أي إن الذين يخافون عذاب ربهم ولم يروه، فيؤمنون به خوفاً من عذابه، ويخافون الله

في السر والعلن، فيخشون ربهم إذا كانوا غائبين عن الناس، بالكف عن المعاصي والقيام بالطاعات، حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى، هؤلاء لهم مغفرة عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم، وثواب جزيل، وهو الجنة.

ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله.. منهم: ورجل دَعَتْهُ امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثم نبَّه الله تعالى على أنه مطلع على الضمائر والسرائر، فقال:

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) أي سواء أخفيتم كلامكم أو جهرتم به، فالله عليم به، يعلم ما يختر في القلوب وما تكنه الضمائر، لا يخفى عليه منه خافية، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد، فالله عليم به، فاحذروا من المعاصي سرّاً كما تحترزون عنها جهراً، فإن ذلك لا يتفاوت بالنسبة إلى علم الله تعالى. وقدّم السر على الجهر؛ لأنه مقدم عليه عادة، فما من أمر إلا وهو يبدأ أولاً في النفس ثم يجهر به، وللتحذير من التكم والسر الذي قد يظن عدم العلم به. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كالعلة لما قبله.

والآية خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال، وتشمل ما كانوا يسرون به من الكلام في أمر رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل، فقال بعضهم لبعض: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ﴾ لئلا يسمع إله محمد، فأنزل الله هذه الآية.

ثم أقام الله تعالى الأدلة على سعة علمه، فقال:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) أي ألا يعلم الخالق خلقه، فهو الذي خلق الإنسان وأوجد السرّ ومضمرات القلوب؟ فهو تعالى الذي

خلق الإنسان بيده، وأعلم شيء بالمصنوع صانعه، وهو العليم بدقائق الأمور، وما في القلوب، والخبير بما تسره وتضمهره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية. والمراد: ألا يعلم الشر من خلق الشر؟

وقيل: معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ قال ابن كثير: والأول (أي ألا يعلم الخالق) أولى لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. والواقع أن كلا المعنيين محتمل، فيمكن جعل ﴿مَنْ﴾ اسماً للخالق جل وعز، ويكون المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه؟ كما يمكن جعلها اسماً للمخلوق، ويكون المعنى: ألا يعلم الله من خلق. ولا بد من أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه.

ثم أقام الله تعالى الدليل على قدرته، ونبّه إلى تمام نعمته، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥) أي إن الله هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، وجعلها سهلة لينة قابلة للاستقرار عليها، لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وفجر فيها الينابيع، وشق الطرق، وهباً المنافع، وأنبث فيها الزروع وأخرج الثمار، فسيروا في جوانبها وأقطارها وأرجائها حيث شئتم بحثاً عن المكاسب والتجارات والأرزاق، ولا يغني السعي شيئاً عن تيسير الله، لذا قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أي مما رزقكم وخلق لكم في الأرض، ومكنكم من الانتفاع بها، وأعطاكم القدرات على تحصيل خيراتها، ثم اعلموا أنكم في النهاية صائرون إليه، فاله النشور، أي البعث من قبوركم، لا إلى غيره، وإليه المرجع يوم القيامة، فاحذروا الكفر والمعاصي في السر والعلن.

والآية دليل على قدرة الله ومزيد إنعامه على خلقه، وعلى أن السعي واتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل على الله، وعلى أن الاتجار والتكسب مندوب إليه. أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله،

لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خفاصاً، وتروح بطاناً» فأثبت لها عُذُوءاً ورواحاً، لطلب الرزق، مع توكلها على الله عز وجل، وهو المسخر المسير المسبب.

وأخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قرة قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم، فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، قال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض، وتوكل على الله عز وجل.

ويكون المراد من الآيتين هذه وما قبلها تهديد الكافرين بأن الله عالم بسرهم وجهرهم، وأنه هو المنعم المتفضل عليهم بما يسر لهم من خيرات الأرض، فاحذروا عقابه، فكأنه تعالى قال: أيها الكفار اعلموا أني عالم بسرهم وجهرهم، فكونوا خائفين مني، محترزين من عقابي، فقد أسكنتكم في هذه الأرض التي ذلللتها لكم، وجعلتها سبباً لنفعتكم ورزقكم، وإني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

أ - إن خشية الله، والخوف من عذابه وعقابه، ومجاهدة الشيطان واجب كل إنسان، وإن الذين يخافون الله، ويخافون عذابه الغائب عنهم وهو عذاب يوم القيامة، ويراقبون الله في سرهم وعلنهم، لهم مغفرة لذنوبهم، وثواب كبير وهو الجنة.

ب - إن الله تعالى عالم على السواء بالجهري والسر، وبما في الصدور من خطرات وخفايا وبما في القلوب من الخير والشر. وعليه يكون ما أخفاه المشركون من الكلام في أمر محمد ﷺ، وما جهروا به معلوماً تمام العلم لله عز

وجل. كذلك كل ما يكيد به الناس للإسلام وقرآنه ونبيه ﷺ وأهله في كل عصر، دولاً وأفراداً، يعلم به الله، ويعاقب أهل الكيد والمكر والشر والضلال عليه.

٣ - الدليل على كونه تعالى عالماً بجميع الأشياء السرية والعلنية أنه هو الخالق للإنسان وأفعاله وأقواله، ومن خلق شيئاً لا بد وأن يكون عالماً بمخلوقه.

٤ - إن الأرض وما فيها من خيرات ومنافع وكنوز مسخرة للإنسان هي من نعمة الله وفضله، وهي حقل التجارب، ومرصد السلوك الإنساني، والله الذي ذللها ويشر لعباده الأرزاق فيها قادر أيضاً على أن يخسفها بأهلها وسكانها، ويكون المصير والمرجع إليه بعد البعث من القبور للحساب والجزاء، فما على الناس إلا استعمال الأرض في الخير، والبعد عن الشر والمنكرات والكفر والمعاصي.

أنواع من الوعيد والتهديد والعبرة بالأمم السابقة

﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١١) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَوَاتٍ وَيَقْضِيْنَ مَا يُسْكِنُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩)

الإعراب:

﴿أَن يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ «أن»: في موضع نصب على البدل من «مَن فِي السَّمَاءِ» وهو بدل اشتمال. وكذا قوله: ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ بدل من «مَن».

﴿صَفَوَاتٍ﴾ حال منصوب؛ لأن المراد بالرؤية في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ رؤية

العين، لا رؤية القلب. وقوله: ﴿وَيَقِضَنَّ﴾ عطف على ﴿صَفَّتْ﴾ والجملة في موضع الحال، وتقديره: قابضات، وعطف هنا الفعل المضارع على اسم الفاعل؛ لما بينهما من المشابهة.

البلاغة:

﴿صَفَّتْ وَيَقِضَنَّ﴾ بينهما طباق؛ لأن المعنى صافات وقابضات.

﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿نَكِيرٌ﴾، ﴿بَصِيرٌ﴾ سجع مرصع مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿ءَأْمَنُكُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين، أو بقلب الهمزة الأولى واوًا، أو بتسهيل الثانية مع الفصل، أو بلا فصل، أو مع إدخال ألف بينهما، أو بإبدال الثانية ألفًا، والأمن: ضد الخوف. ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ هو الله، على زعم العرب أنه تعالى في السماء. ﴿أَنْ يَخْفِيفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ أن يغور بكم الأرض، ويغيبكُم فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿لَحَسَفْنَا بِهٖ وَيَدَارِيهِ الْأَرْضَ﴾ [الفصل: ٢٨/٨١].

﴿تَمُورٌ﴾ ترتج وتتحرك وتضطرب.

﴿حَاصِبًا﴾ ريحاً شديدة فيها حصباء ترميكم بها وتهلككم. ﴿فَسَتَمَوْنُ﴾ عند معاينة العذاب. ﴿كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أي إنذاري بالعذاب أنه حق، وتخويفي به. ﴿مِنْ قَلْبِهِمْ﴾ من الأمم. ﴿نَكِيرٍ﴾ إنكاري عليهم بإنزال العذاب، وهو تسلية للرسول ﷺ، وتهديد لقومه المشركين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا. ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء. ﴿صَفَّتْ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها. ﴿وَيَقِضَنَّ﴾ أي وقابضات يضممنها تارة أخرى. ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ عن الوقوع في حال البسط والقبض. ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ بقدرته، الشامل رحمته كل شيء. ﴿إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب. والمعنى: ألم يستدلوا بطيران الطير في الهواء على قدرتنا أن نعذبهم كما عذبنا الأمم المتقدمة؟

المُنَاسِبَةُ:

بعد بيان الأدلة على علم الله وقدرته لترهيب الكافرين وتخويفهم، أورد تعالى أدلة أخرى بقصد الوعيد والتهديد، من إمكان الخسف العاجل بأهل الأرض، أو إرسال الريح الحاصب التي تدمر كل شيء، مع التذكير بيهلاك الأمم السابقة كعاد وحمود وقوم نوح وفرعون وجنوده، وإقدار الطير على الطيران في جو السماء.

التفسير والبيان:

﴿أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝﴾ أي هل تأمنون أن يخسف أو يغور ويقلع الله بكم الأرض، كما خسف بقارون بعدما جعلها لكم ذلولا تمشون في مناكبها، فإذا هي تضطرب وتتحرك وتموج بكم؟ والمراد بهذا الاستفهام الوعيد والإخبار بأنه تعالى قادر على تعذيب من كفر بالله وأشرك معه إلها آخر. قال ابن عباس: أأمتم من في السماء إن عصيتموه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥/٦].

ولكن من لطفه ورحمته تعالى بخلقه أنه يخلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝﴾ [فاطر: ٤٥/٣٥].

ثم أتبع الله تعالى ذلك بوعيد آخر:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي بل هل أمتم ربكم الله الذي هو في السماء كما تزعمون، وهل أمتم سلطانه وملكوته وقهره أن يرسل عليكم ريحا مصحوبة بحجارة من السماء، كما

أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل في مكة، وحينئذ تعلمون إذا عايتم العذاب كيفية إنذارى وعقابي لمن خالف وكذب به، ولكن لا ينفعكم هذا العلم!؟

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَابَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٨/١٧).

ثم ذكر الله تعالى بعذاب الأمم المتقدمة مؤكداً تخويف الكفار بالمثل والبرهان، أما المثال فهو:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (١٨) أي إن الكفار الذين كانوا قبلهم، والذين كذبوا الرسل، شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم، كعاد وثمود وكفار الأمم، فحاق بهم سوء العذاب، وانظروا كيف كان إنكارى عليهم بما أوقعته بهم من العذاب الشديد؟

وأما البرهان فقد ذكر تعالى عدة براهين على كمال قدرته، مما يدل على كونه تعالى قادراً على إيقاع جميع أنواع العذاب بالكفار.

وهذا هو البرهان الأول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (١٩) أي أو لم ينظروا إلى الطير فوقهم في الجو أو الهواء، وهن باسطات أجنحتهن تارة، وقابضات ضامات لها تارة أخرى، ما يمسكهن في الهواء عند الطيران والقبض والبسط إلا الإله الرحمن القادر على كل شيء، بما سخر هن من الهواء برحمته ولطفه، إنه سبحانه عليهم بصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، لا يخفى عليه شيء من دقائق الأمور وعظائمها.

ونظير الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ١٦/٧٩).

قالوا: وفي الآية دليل على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله تعالى؛ لأن استمساك الطير في الهواء فعل اختياري لها، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أ - الله تعالى هو القادر على أن يخسف بالكافرين والظالمين الأرض، عقوبة على كفرهم، كما خسف بقارون وبيداره الأرض، فإذا الأرض تذهب وتحية وتغور بهم وتبتلعهم.

وإنما خصَّ الله تعالى هنا السماء في قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ فللتنبية على سلطان الذي تنفذ قدرته في السماء، فضلاً عما يعظمونه في الأرض، مع العلم بأنه تعالى إله في السماء وفي الأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤/٤٣].

وقد احتج المشبهة على إثبات المكان لله تعالى بقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ وأجابهم الرازي بأن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين؛ لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطة به من جميع الجوانب، فيكون أصغر من السماء، والسماء أصغر من العرش بكثير، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً أصغر من العرش، وذلك محال باتفاق أهل الإسلام؛ لأن العرش أكبر المخلوقات في السماء والأرض. ولأنه تعالى قال: ﴿قُلْ لِمَنِ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ﴾ [الأنعام: ١٢/٦] فوجب صرف الآية عن ظاهرها إلى التأويل. وللتأويل وجوه أولاهها: تقدير الآية: أأمتتم من في السماء سلطانه وملكه وقدرته؟ والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣/٦] فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين^(١).

(١) تفسير الرازي: ٧٠/٣٠

٢ - إن الله تعالى هو الذي أنعم على عباده بتذليل الأرض، وجعلها سهلة للاستقرار عليها، وامتن عليهم، فأباح لهم السير في نواحيها وأقطارها وآكامها وجبالها بحثاً عن الرزق وللالتجار والتكسب، وأذن لهم بالأكل مما أحله لهم، ثم هم في النهاية مرجعهم إلى الله، فإن الذي خلق السماء لا تفاوت فيها، والأرض ذلولاً، قادر على أن يبعثهم وينشرهم من قبورهم أحياء.

٣ - إن الله عز وجل هو القادر أيضاً على تعذيب الكفار بإرسال حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وحين وقوع العذاب يعلمون كيف إنذار الله بالعذاب أنه حق.

٤ - أكد الله تعالى تخويفات الكفار بضرب المثل بمن كانوا قبلهم، فإنهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم، وكفار هذه الأمم المتقدمة، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأصحاب الرّسّ وقوم فرعون.

٥ - من البراهين الدالة على قدرته تعالى: أنه كما ذلّل الأرض للإنسان، ذلّل الهواء للطيور، وما يمسك الطير في الجو وهي تطير إلا الله عز وجل، وهو عليم بصير بكل شيء وبما يصلح كل شيء من مخلوقاته.

توبيخ المشركين على عبادة الأصنام وإثبات قدرة الله واختصاصه بعلم البعث

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ يَمِشُ مُمِيبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿صِرَاطٍ﴾ :

وقرأ قنبل (سراط).

﴿سَيِّئَتْ﴾ :

بإشمام كسرة السين الضمة قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي. وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿وقيل﴾ : بإشمام كسرة القاف الضمة، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أم: حرف عطف،

وَمَنْ: في موضع رفع بالابتداء، وَهَذَا: مبتدأ ثانٍ، وَالَّذِي: خبره، وَهُوَ جُنْدٌ لَكُمْ: صلته، وَبِضْرُكُم: جملة فعلية في موضع رفع صفة لـ «جُنْدٍ». والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول. وجواب الشرط في قوله: «إِنْ أَمْسَكَ» محذوف دلّ عليه ما قبله، أي فمن يرزقكم؟ «أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» خبر مَنْ محذوف دلّ عليه خبر (مَنْ) في الجملة السابقة وهو أهدى.

«قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» «قَلِيلًا»: نعت لمصدر محذوف، وَ«مَّا»: زائدة، وَ«تَشْكُرُونَ»: مستأنف أو حال مقدرة، أي تشكرون شكراً قليلاً. «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» «هَذَا»: في موضع رفع بالابتداء، وَ«الْوَعْدُ»: صفة له، أو بدل، وَ«مَتَى»: خبره، وفيه ضمير يعود على «الْوَعْدُ»

البلاغة:

«أَمَّنْ هَذَا الَّذِي» استفهام إنكار.

«أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾» استعارة تمثيلية، مثل المؤمن بمن يمشي سويًّا على صراط مستقيم، ومثل الكافر بمن يمشي مكبًّا على وجهه إلى طريق جهنم.

«غُرُورٍ»، «وَنُفُورٍ» سجع مرصع لمراعاة رؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

«أَمَّنْ هَذَا» أي من هذا. «جُنْدٌ لَكُمْ» أعوان لكم. «بِضْرُكُم» يدفع العذاب عنكم. «مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ» أي غيره يدفع عنكم عذابه، أي لا ناصر لكم. «إِنَّ الْكَافِرِينَ» أي ما الكافرون. «إِلَّا فِي غُرُورٍ» غرهم الشيطان بأن العذاب لا ينزل بهم، والمراد أنه لا معتمد لهم.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ من هذا الذي يرزقكم غير الله؟ ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ إن منع عنكم رزقه، بإمساك المطر وسائر أسباب المعيشة، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله تقديره (فمن يرزقكم) أي لا رازق لكم غيره. ﴿لَجُؤًا﴾ تَمَادَوْا واستمروا. ﴿فِ عُنُوتٍ﴾ أي تكبر وعناد عن قبول الحق. ﴿وَنُفُورٍ﴾ إعراض وتباعد عن الحق.

﴿مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ واقعاً على وجهه من حين لآخر. ﴿سَوِيًّا﴾ معتدلاً متصب القامة. ﴿عَلَى صِرَاطٍ﴾ طريق. ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ قويم مستوي الأجزاء أو الجهة، والمراد تمثيل المؤمن المتدين والمشارك الكافر.

﴿أَنشَأَكُمْ﴾ خلقكم. ﴿وَالْأَفْنَادَةَ﴾ القلوب والعقول لتتفكروا وتعتبروا. ﴿فَلَيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمال الحواس فيما خلقت من أجله، وما: مزيدة، والجملة مستأنفة. ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم متكاثرين موزعين. ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للحساب والجزاء.

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي الحشر أو إيقاع العذاب من الخسف والخاصب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه أيها النبي والمؤمنون به. ﴿إِنَّمَا أَلِمْهُمُ﴾ العلم بوقته وبمجيئه. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطلع عليه غيره. ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ رسول منذر بين الإنذار.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ رأوا الوعد الموعود به. ﴿زُلْفَةً﴾ أي ذا زلفة، أي قريباً منهم. ﴿سَيِّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسودّت وعلتها الكآبة وساءتها رؤية العذاب. ﴿وَقِيلَ﴾ قال لهم الخزنة. ﴿هَذَا﴾ العذاب. ﴿تَدْعُونَ﴾ تطلبون وتستعجلون استهزاء واستنكاراً. وهذه حكاية حال ستأتي، عبر عنها بلفظ الماضي للدلالة على تحقق وقوعها.

البناسبة:

بعد أن أورد الله تعالى البرهان الأول على كمال قدرته وهو تمكين الطيور من الطيران، ويُنحّ المشركين على عبادة الأصنام، وردّ على اعتقادهم شيئين أو

أمرين: وهما القوة في الأعوان، وجلب الخير من الأصنام، ثم أورد تعالى برهانين آخرين على كمال قدرته: وهما خلق الناس وحواسهم، وتكاثر الخلق واستمرارهم وتوزيعهم في الأرض ثم حشرهم إليه. ثم ذكر شيئين قالهما الكفار لمحمد ﷺ لما أمره ربه بتخويفهم بعذاب الله، وهما مطالبة بتعيين وقت العذاب، ودعائهم عليه وعلى المؤمنين بالهلاك، وهذا الأخير موضع الفقرة التالية.

فتكون البراهين الثلاثة على كمال قدرة الله هي الاستدلال أولاً بأحوال الطيور من الحيوانات، ثم الاستدلال بصفات الإنسان وهي السمع والبصر والعقل وحدث ذاته، ثم الاستدلال بضمان تكاثر الخلق وحفظ النوع الإنساني وتوزيعه في أنحاء الأرض والحشر يوم القيامة.

التفسير والبيان:

يرد الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، يبتغون عندهم النصر والرزق، فيقول منكرأ عليهم ما اعتقدوه، ومخبرأ أنهم لن يحصلوا على ما أمَلَوْه:

أ - ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَصُرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠﴾ أي بل من هذا الجند أو العون الذي يعينكم ويمنعكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءاً؟! الواقع أنه ليس لكم من دون الله من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا فإن الكافرين هم في خداع وغرور عظيم من جهة الشيطان، غرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

والتعبير بقوله: ﴿مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ إشارة إلى أن بقاء الناس في الأرض مع كفرهم وظلمهم هو برحمة الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء.

والآية ردّ على الكفار الذين كانوا يمتنعون من الإيمان، ويعتمدون في

زعمهم واعتقادهم المخطئ على القوة من جهة الإخوة والأعوان، مخبراً إياهم أنه لا ناصر لهم سوى الله سبحانه.

ثم ردَّ الله تعالى على ادعائهم وجود رازق غير الله، وأن الأصنام مصدر جميع الخيرات لهم، ودفع كل الآفات عنهم، فقال:

٢ - ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ بَلْ لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۚ﴾
أي بل من هذا الذي إذا منع الله عنكم رزقه، رزقكم بعده بالأمطار وغيرها؟ والمعنى أنه لا أحد يعطي ويمنع، ويرزق وينصر إلا الله عز وجل، وحده لا شريك له، وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره، لذا وصفهم تعالى بقوله: ﴿بَلْ لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل تمادوا واستمروا في عناد واستكبار عن الحق، ونفور عنه، وتابعوا طريقهم في طغيانهم وإفكهم وضلالهم، ولم يعتبروا ولم يتفكروا.

فدلت الآيتان على أنه لا ناصر ينصر من عذاب الله، ولا رازق يرزق غير الله إن حجب رزقه عن مخلوقاته.

ثم ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر أو الموحّد والمشرّك، فقال:

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ﴾
أرأيتم حال المؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه، أي يمشي متعثراً في كل وقت، منحنيّاً غير مستوٍ، لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل هو تائه حائر ضال.

أهذا أهدى أم ذلك المؤمن الذي مثله كمن يسير معتدلاً ناظراً أمامه على طريق مستوٍ، لا اعوجاج به ولا انحراف فيه؟ فهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، سواء في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا إذ يسير على منهج الله يكون على هدى وبصيرة، وفي الآخرة يحشر على طريق مستقيم يؤدي به إلى الجنة.

وهذا الاستفهام لا تراد حقيقته، بل المراد منه أن كل سامع يجب بأن الماشي سويّاً على صراط مستقيم أهدى.

ثم ذكر الله تعالى البرهان الثاني الدال على كمال قدرته قائلاً:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣) أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إن الله ربيكم هو الذي ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، وأوجد لكم حاسة السمع لسماع المواعظ به، وحاسة البصر لرؤية بدائع خلق الله، والقلوب والعقول للتأمل والتفكير في مخلوقات الله وإدراك حقائق الأشياء، ولكن قلماً تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتنال أوامره، وترك زواجه، وفيما خلقت لأجله من الخير، وذلك هو الشكر الحقيقي لهذه الطاقات، لا مجرد ترداد الشكر باللسان، وملازمة العصيان؛ لأن شكر نعمة الله تعالى: هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه، فإذا لم تستعمل هذه القوى في طلب مرضاة الله، فأنتم ما شكرتم نعمته مطلقاً.

فقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أعطاهم هذه القوى العظيمة، ولكنهم ضيعوها في غير ما خلقت لأجله.

وإنما خصت هذه الجوارح بالذكر؛ لأنها أداة العلم والفهم.

ثم ذكر الله تعالى البرهان الثالث على كمال قدرته، فقال:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) أي وقل لهم أيضاً: إن الله هو خلقكم وبشكم ووزعكم في أنحاء الأرض، مع اختلاف ألستكم في لغاتكم، واختلاف ألوانكم وأشكالكم، ثم إليه تجميعون بعد هذا التفرق والشتات، فهو يجمعكم كما فرقكم، ويعيدكم كما بدأكم للحساب والجزاء.

وبعد أمر الله محمداً ﷺ بتخويف الكفار بعذاب الله، ذكر مقالة الكفار ومطالبتهم بتعيين وقت البعث استهزاء واستنكاراً، فقال:

﴿وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) أي ويقول المشركون لمحمد والمؤمنين تهكماً واستهزاء: متى يقع ما تعدنا به من القيامة والحشر والعذاب والنار في الآخرة، والحسف والحاصب في الدنيا؟ إن كنتم يا محمد والمؤمنون به صادقين فيما تدعون، فأخبرونا به، أو فبينوه لنا.

فأجابهم الله بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٦) أي قل لهم أيها النبي: إنما علم ذلك عند الله، فلا يعلم وقت الساعة والعذاب على التعيين إلا الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة، فاحذروه، وإنما أنا منذر لكم، أنذركم وأخوفكم عاقبة كفركم، فعليّ البلاغ وقد أدبته لكم.

ثم وصف تعالى حال أولئك الكفار عند رؤية العذاب، فقال:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ (٢٧) أي فلما رأوا العذاب الموعود به قريباً في الدنيا، وقامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً؛ لأن كل ما هو آت قريب وإن طال زمنه، اسودت وجوههم، وعلتها الكآبة، وغشيتها الذلة والمهانة، وقالت لهم ملائكة العذاب الحزنة على وجه التقريع والتوبيخ: هذا الذي كنتم في الدنيا تطلبونه وتستعجلون به استهزاء، في قولكم لرسول الله ﷺ: ﴿فَأَنذَانَا بِمَا تَعُدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الاحقاف: ٢٢/٤٦].

ونظير الآية: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٢٨) [الزمر: ٣٩/٤٧-٤٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

أ - لا ناصر ولا رازق للمؤمن والكافر في الحقيقة والواقع إلا الله عز وجل، ولكن الكافرين في غرور من الشياطين تغرهم بأن لا عذاب ولا حساب، وفي تمادٍ واستمرار في طغيانهم وضلالهم ونفورهم عن الحق.

ب - مثل الكافر في ضلاله وحيرته كالرجل المنكس الرأس الذي لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله، والذي لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه، ومثل المؤمن في هدايته وتبصره كالرجل السوي الصحيح البصير الماشي في الطريق المستقيم المهتدي له. ولا شك بأن الثاني أهدى من الأول.

ج - هناك براهين ثلاثة على كمال قدرة الله تعالى: وهي تمكين الطيور من الطيران في الهواء، وخلق الإنسان وتزويده بطاقات السمع والبصر والفؤاد أو العقل، وخلق الناس موزعين مفرقين على ظهر الأرض ثم حشر الناس يوم القيامة، لمجازاة كلٍّ بعمله؛ لأن القادر على البدء أقدر على الإعادة.

د - غالب الناس لا يشكرون نعم الله باستعمال حواسهم فيما خلقت لأجله، ولا يوحدون الله تعالى.

ه - طالب الكفار بعد تخويفهم بعذاب الله بتعيين الوقت الموعود به استهزاء وإنكاراً.

و - الجواب عن تساؤلهم واستعجالهم: أن علم وقت قيام الساعة عند الله وحده، فلا يعلمه غيره. وما مهمة الرسول إلا البلاغ المبين والإنذار والتخويف البين من العذاب.

دعاء كفار مكة على النبي ﷺ والمؤمنين بالهلاك

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

للقرءات:

﴿أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾:

وقرأ حمزة (أهلكني الله).

﴿مَعِيَ أَوْ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، وابن عامر (معي أَوْ). وقرأ الباقون (معي أَوْ).

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾:

وقرأ الكسائي (فسيعلمون).

الإعراب:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ إنما جاءت الفاء في قوله: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ﴾ جواباً للجملة؛ لأن معنى ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ انتبهوا، وتقديره: انتبهوا فمن يجير، كما تقول: اجلس فزيد جالس، وليست جواباً للشرط. وجواب الشرط ما دلَّ عليه ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. ويجوز أن تكون الفاء زائدة، ويكون الاستفهام قائماً مقام مفعول. ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ مثل: أرايت زيدا ما صنع. وهكذا الكلام على الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ﴾. ومنهم من قال: الفاء جواب الشرط.

﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً، وهو خبر ﴿أَصْبَحَ﴾. وقوله: ﴿مَعِينٍ﴾ إما فاعيل من (معن) الماء: إذا كثر، فتكون الميم أصلية، أو يكون مفعولاً من (العين) وأصله (معيون) فاستثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فبقيت الياء ساكنة، والواو ساكنة، فحذفت الواو لسكونها وسكون ما قبلها، وكسر ما قبل الياء مناسبة لها؛ لأنه ليس في كلامهم ياء قبلها ضمة.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿أَهْلَكْنِي﴾ أمتني. ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين. ﴿أَوْ رَحْمَةً﴾ بتأخير آجالنا. ﴿فَمَنْ يُجِئُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لا ينجيهم أحد من العذاب، و﴿يُجِئُ﴾ ينجي أو يمنع. ﴿غَوْرًا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء ونحوها. ﴿مَعِينٍ﴾ جار كثير، سهل التناول. والمراد: لا يأتي به إلا الله تعالى، فكيف تنكرون أن يبعثكم؟!

ويستحب أن يقول القارئ عقب قوله ﴿مَعِينٍ﴾: الله رب العالمين، كما ورد في الحديث.

سبب النزول:

روي أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فنزلت الآية.

المناسبة:

هذا هو الأمر الثاني الذي حكاه الله عن الكفار بعد تخويفهم بعذاب الله، فطالبوا أولاً بتعيين وقت الحشر والبعث والعذاب، ثم دعوا على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٢٥]. وقال: ﴿بَلَى ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِبَ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢/٤٨].

التفسير والبيان:

أجاب الحق سبحانه وتعالى عن دعاء الكافرين بهلاك النبي ﷺ والمؤمنين من وجهين:

الوجه الأول - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله، الجاحدين لنعمه: أخبروني عن أي فائدة أو منفعة لكم أو راحة، فيما إذا أهلكني الله بالإماتة أو رحمني بتأخير الأجل، أنا ومن معي من المؤمنين، فلو فرض أنه وقع بنا ذلك، فلا ينجي الكافرين أحد من عذاب الله، سواء أهلك الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين معه، كما كان الكفار يتمنونوه أو ينتظرونه، أو أمهلهم.

والمراد بالآية تنبيه الكفار وحثهم على طلب النجاة والإنقاذ بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله بالإيمان والإقرار بالتوحيد والنبوة والبعث، وإعلامهم بأنه لا ينفعهم وقوع ما يتمنون للنبي ﷺ والمؤمنين من العذاب والتكال، فسواء عذبهم الله أو رحمهم، فلا مناص لهم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بهم.

الوجه الثاني - ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢٩﴾ أي قل لهم: إن الذي نجتنا نحن هو الإيمان بالله الرحمن الذي آمنا به وحده، لا نشرك به شيئاً، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، لا على غيره. والتوكل: تفويض الأمور إليه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣/١١]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي ستدركون من هو في خطأ واضح منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة. وفيه تعريض بالكفرة أنهم متكلمون على الرجال والأموال. وإذا كان هذا حالهم فكيف يقبل الله دعاءهم على المؤمنين؟

ثم ذكر الله تعالى الدليل على وجوب التوكل عليه لا على غيره، فقال مظهراً الرحمة في خلقه:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٢٠) أي قل لهم يا محمد: أخبروني إن صار ماؤكم الذي جعله الله لكم في العيون والآبار والأنهار لمنافعكم المتعددة غائراً ذاهباً في الأرض إلى أسفل بحيث لا ينال بالدلاء وغيرها، فمن الذي يأتيكم بماء كثير جار لا ينقطع؟ أي لا يأتيكم به أحد إلا الله تعالى، وذلك بالأمطار والثلوج والأنهار، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض لتحقيق حاجة الناس قلة وكثرة.

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه، ليريهم قبح ما هم فيه من الكفر. فإذا كان لا بد من أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في المعبودية؟ والآية دليل على وجوب الاعتماد على الله تعالى في كل حاجة، مع أنه برهان آخر على كمال قدرته ووحدانيته، وإشارة إلى أن الفتوح العقلي لا يتيسر إلا بإعانة الله تعالى.

ونظير الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ (٦٩) [الواقعة: ٦٨-٦٩] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - لا فائدة ولا جدوى من دعاء الكفار على النبي ﷺ والمؤمنين؛ لأنه لا يستجاب دعاؤهم، ولأنه إن مات المؤمنون أو رُحِموا فأخّر الله تعالى آجالهم، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم؟ فلا حاجة بهم إلى توقع السوء وانتظاره بمن آمنوا، ولا إلى استعجال قيام الساعة، وما عليهم لتخليص نفوسهم من العذاب إلا إعلان الإيمان والإقرار بالتوحيد والنبوة والبعث.

ب - يجب الاعتماد والتوكل على الله تعالى في كل حاجة، بعد اتخاذ

الأسباب والوسائل المقدورة للبشر، وشأن المؤمنين أن يتكلموا على الله سبحانه، أما الكفار فيتكلمون على رجالهم وأموالهم.

٣ - إن الله تعالى هو القادر على إمداد خلقه بالأرزاق والأمطار والمياه النابعة، ولا أحد غير الله عز وجل يقدر على ذلك، والله برحمته وفضله ومَنه وكرمه يمدّ عباده بما يحتاجون، وإن كفروا وجحدوا به.

يحكى أن بعض المتجبرين على الله قرئت الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٢٠) عنده، فقال: تأتينا به الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينه وهذا من الإعجاز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَلَمِ

مكية، وهي اثنتان وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة القلم لافتتاحها بما أقسم الله تعالى به وهو ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وأقسم بالقلم تعظيماً له؛ لما له في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف، كما قال صاحب الكشف. والمراد بالقلم عند الأكثرين: الجنس، أقسم الله سبحانه بكل قلم يكتب به في السماء وفي الأرض.

وقيل: سورة ﴿تَّ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

هناك وجهان لتعلق السورة بما قبلها:

أ - ذكر الله تعالى في آخر سورة ﴿بَرَكَ﴾ ﴿أَلْمَلِكُ﴾، تهديد المشركين بتغيير الماء، وذكر في هذه السورة دليلاً على ذلك وهو إذهاب ثمر البستان في ليلة بطائف طاف عليه، وهو نار من السماء أحرقتة، وهم نائمون، فلم يجدوا له أثراً.

٢ - ذكر الله تعالى في سورة الملك أدلة قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأثبت البعث، وهدد المشركين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وحثهم على الإيمان بالله وحده لا شريك له وبالبعث وبالرسول محمد ﷺ، ثم برأ الله نبيه ﷺ في مطلع هذه السورة من أباطيل المشركين ونسبتهم رسول الله ﷺ إلى السحر أو الشعر أو الجنون، وأثنى عليه بالخلق العظيم.

ما اشتملت عليه السورة:

عنيت هذه السورة المكية كسابقتها بأصول العقيدة الإسلامية الصحيحة وهي هنا إثبات النبوة والرسالة، والبعث والآخرة، وبيان مصير المسلمين والمجرمين في القيامة.

بدئت السورة بالقسم بالقلم تعظيماً له لنفي تهم المشركين ومزاعمهم الباطلة، ووصف النبي ﷺ بالخلق العظيم: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) إلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

وأردفت ذلك ببيان سوء أخلاق بعض الكفار واقترائهم على الرسول ﷺ وتهديدهم بما أعد الله لهم من العذاب الأليم: ﴿فَسَبِّحْهُ وَخُسِّرْهُ وَبِصْرُورَةٍ﴾ (٣) إلى قوله: ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُطُوبِ﴾ (٤).

ثم ضربت المثل لكفار مكة بأصحاب الجنة (البستان) بإحراقه وإتلافه، بسبب كفرهم وجحودهم نعمة الله، وعزمهم على منع حقوق الفقراء والمساكين: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وقارنت بين المؤمنين والمجرمين، ووجخت المشركين على أحكامهم الفاسدة، وفندت دعاويهم، وأقامت الحجج عليهم، وأبانت أحوالهم في الآخرة وموقفهم المخزي: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْسَّالِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٥) إلى قوله: ﴿وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾.

ثم هددت المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ يَهْدِنَا اللَّهُ﴾ (٦) إلى قوله: ﴿سَنَسِفُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧).

وختتمت السورة بأمر النبي ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وحذرت من التبرم والتضجر في تبليغ دعوته، حتى لا يكون مثل يونس عليه السلام: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الثَّوَّتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٦٨﴾ وأعلنت حمايته من أذاهم، ودحضت افتراءهم بأنه مجنون، وردت عليهم بأن القرآن عظة وعبرة للعالمين، فكيف يكون المنزل عليه مجنوناً: ﴿وَإِنْ يَكَادُ ۝ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ.

فضلها:

هذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن بمكة، فقد نزلت على ما روي عن ابن عباس: ﴿أَقْرَأَ بِأَسِيرِ رَبِّكَ﴾ ثم هذه، ثم المزمل، ثم المدثر.

كمال الدين والخلق عند النبي ﷺ

﴿تَ ۝ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ۝ غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ بِأَيِّكُمْ ۝ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۝ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

الإعراب:

﴿تَ﴾ في موضع نصب إما بتقدير: اقرأ نون، أو بتقدير: أقسم بنون، فحذف حرف القسم، فاتصل الفعل به، فنصبه، وعلى هذا يكون: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝١﴾ جواب القسم. وقال أبو حيان: ﴿تَ﴾ من حروف المعجم، نحو ﴿صَ﴾ و﴿قَ﴾، وهو غير معرب كبعض الحروف التي جاءت مع غيرها مهملة من العوامل، والحكم على موضعها بالإعراب تخرص.

﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أي بأيكم الفتنة، كما يقال: ما له معقول، أي عقل، وقيل: الباء في ﴿بِأَيِّكُمْ﴾ زائدة، وتقديره: أيكم المفتون، أي المجنون.

البلاغة:

﴿يَمَجْنُونَ﴾ ﴿مَمْنُونَ﴾ جناس ناقص بينهما لاختلاف الحرف الثاني.
﴿فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ وَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعيد وتهديد، وحذف
المفعول للتحويل.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿يَمَجْنُونَ﴾ ﴿مَمْنُونَ﴾ ﴿الْمَقْتُولُ﴾ إلخ سجع مرصع.
﴿صَلِّ﴾ و﴿يَا مُهْتَدِينَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿ت﴾ إما اسم للسورة، أو الغرض منه التحدي، مثل: ق، وص بأن
يأتوا بمثل القرآن أو بعضه، ما دام مكوناً من حروف اللغة العربية التي بها
ينطقون ويكتبون وينظمون الشعر، ويدتجون الخطب البليغة ﴿وَالْقَلَمِ﴾ أكثر
المفسرين على أن المراد به جنس القلم الذي يكتب به، أقسم الله سبحانه بكل
قلم يكتب به في السماء وفي الأرض. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يكتبون، فإن التفاهم
يحصل بالكتابة كما يحصل بالعبرة.

﴿مَا أَنْتَ بِغَفَّارٍ لِّكَ يَمَجْنُونَ﴾ (٢) أي ما أنت يا محمد في حالة جنون
بسبب إنعام ربك عليك بالنبوة وغيرها، وهذا رد لقول مشركي قريش: إنه
مجنون ﴿عَبْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ﴿وَأَنَّكَ لَ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣) إذ تحتمل من
قومك ما لا يحتمله أمثالك ﴿الْمَقْتُولُ﴾ المجنون، أو الفتون أي الجنون، أي
أبك أم بهم؟ من فتن: إذا أصيب بفتنة، أي محنة أو بلاء من ذهاب عقل أو
مال أو موت ولد، فابتلي بالجنون. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
أعلم بمعنى عالم، فالله عالم بهم، وهم المجانين على الحقيقة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الفائزين بكمال العقل.

سبب النزول:

نزل الآية (٢) ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾:

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: إنه مجنون، ثم شيطان، فنزلت: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

نزل الآية (٤) ﴿وَأَنَّكَ لَکَلِّ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾:

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه، فقالت: كان خلقه القرآن، ألسنت تقرأ القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات [المؤمنون: ١/٢٣-١٠].

التفسير والبيان:

﴿تَ وَالْقَلِيرَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴿تَ﴾: من الحروف المقطعة مثل: ﴿صَ﴾، ﴿قَ﴾ التي يبدأ بها في بعض السور للتنبيه والتحدي. ومعنى الآية: أقسم بالقلم الذي يكتب به، وبما يكتبه الناس بالقلم من العلوم والمعارف، إنك يا محمد، لست بسبب النعمة أو بوساطة النعمة التي أنعم الله بها عليك وهي النبوة والإيمان والحصافة والخلق بالمجنون، كما يزعمون. وهذا ردّ على افتراء وزعم أهل مكة أنه مجنون، فهو استبعاد ما كان ينسب إليه كفار مكة عداوة وحسداً، وإنه ذو منزلة عالية ومكانة رفيعة من إنعام الله عليه بحصافة العقل وسائر الأخلاق الفاضلة المؤهلة للنبوة. فقلوه: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هو المقسم عليه.

والقسم بالقلم وما يكتب به إشارة إلى عظم النعمة بهما، وأنها من أجلّ النعم على الإنسان بعد النطق والبيان، فهما طريق التثقيف وانتشار العلوم والمعارف بين الجماعات والأمم والأفراد، ودليل على تقدم الأمم والشعوب ونبوغها.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب، قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة، ثم خلق النون» أي الدواة.

وروى ابن عساكر عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق النون وهو الدواة، ثم قال: اكتب ما هو كائن من عمل أو أثر أو رزق أو أجل، فكتب ما هو كائن وما كان إلى يوم القيامة، ثم ختم على القلم، فلم يتكلم إلى يوم القيامة».

وروى الطبراني مرفوعاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم والحوت، قال للقلم: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة» ثم قرأ: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١).

ثم ذكر تبة المقسم عليه، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (٢) أي وإن لك لثواباً عظيماً على ما تحملت من مهام النبوة، وقاسيت في إيلاج الدعوة من أنواع الشدائد، وذلك الثواب غير مقطوع وإنما هو مستمر، أو لا يئمن به عليك من جهة الناس.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣) أي وإنك لصاحب الخلق العظيم الذي أمرك الله به في القرآن، لما تحملت من قومك ما لم يتحمله أمثالك، ففيك الأدب الجَمِّ والحياء والجود والشجاعة والحلم والصفح وغير ذلك من محاسن الأخلاق. وقد امثلت تأديب الله تعالى إياك في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤) [الأعراف: ١٩٩/٧].

روى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة: أنها سئلت عن خلق النبي ﷺ، فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. أو كان خلقه القرآن، أما تقرأ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٥).

يدل عليه قوله ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق»^(١) ومكارم الأخلاق: هي صلاح الدنيا والدين والمعاد. وروي عنه ﷺ أنه قال فيما رواه ابن السمعاني في أدب الإماء عن ابن مسعود: «أدبني ربي فأحسن تأديبي؛ إذ قال: ﴿حُذِ الْمَقَوِّ وَأَمْرِ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾» [الأعراف: ١٩٩/٧] فلما قبلت ذلك منه، قال: ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾» [١].

وثبت في الصحيحين عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، ما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟».

وأخرج أحمد عن عائشة قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خيّر بين شيئين قط، إلا كان أحبهما إليه أيسرهما، حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً، كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤق إليه إلا أن تنتهك حرّمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل».

وبعد وصفه بأنه على خلق عظيم أوعد الله تعالى المشركين وهددهم بقوله:

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ ۝ يَأْتِيَكُمُ الْمَقْتُولُ﴾ أي ستعلم يا محمد، وسيعلم الكفار المشركون مخالفوك ومكذبوك في الدنيا، يوم القيامة، من المفتون المجنون الضالّ منكم ومنهم؟ وهذا ردّ على زعمهم أن محمداً ﷺ كان مفتوناً ضالاً. فالمراد بالمفتون: الذي فتن بالجنون. وهو أسلوب رفيع من الخطاب، فيه البعد عن الإثارة، ولفت النظر والعقل.

وهذا التهديد كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْآثِرِ﴾ [القمر:

(١) هذه رواية، وفي رواية أحمد والبخاري في الأدب والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة: ((إنما

بعثت لأتمم صالح الأخلاق)).

[٢٦/٥٤] . وقوله سبحانه: ﴿وَلَيْتَآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤/٣٤] .

ثم أكد الله تعالى الوعيد والوعد بقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٧) أي إن الله ربك يعلم من هو في الحقيقة الضال، أنت أم من اتهمك بالضلال، ومن هو المهتدي من الفريقين منكم ومنا، هداية موصلة إلى السعادة العاجلة والآجلة؟ والمعنى: بل هم الضالون، لخالفتم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل، واختيارهم ما فيه ضرهم، وسيجازي الله كل فريق بما يستحق من العقاب والثواب.

والمراد بالضلال: ضلال الدين والعقيدة، وبالاhtداء: الهداية إلى الدين. وفيه تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأمثالهما.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - القسم بالقلم وبالمكتوب إشارة إلى خطرهما، وعظيم أثرهما ونفعهما في ميادين العلم والمعرفة والتقدم والحضارة.

٢ - المقسم عليه ثلاثة أمور: نفي الجنون عن النبي ﷺ كما زعم الكفار، واستمرار الثواب الجزيل والعطاء العظيم له، وكونه صاحب الخلق العظيم، وهو خلق القرآن، وهو أصح الأقوال كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عائشة.

ووجود هذه النعم الكثيرة على النبي ﷺ من الله عز وجل، وظهورها في حقه من الفصاحة وكمال العقل والاتصاف بكل مكرمة، يتنافى حصول الجنون، وكلام الأعداء نوع من الهديان.

وَالْخُلُقُ: ملكة نفسانية يقدر معها على الإتيان بالفعل الجميل بسهولة، فإذا وصف بالعظم وهو كونه على النهج الأفضل، لم يكن خلق أحسن منه.

روى الترمذي عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالَقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ»، وروى أيضاً عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُغْضِ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

وروى أيضاً عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنُ الْخُلُقِ»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الْفُحْمُ وَالْفَرْجُ».

٣ - هدد الله تعالى وأوعد الكفار بأنهم سيعلمون حين يتبين الحق والباطل في الدنيا والآخرة من هو الذي فتن بالجنون، ومن الذي يتبين رجحان عقله، وسلامة منهجه، وصحة دينه واعتقاده؟

ويؤكد ذلك أن الله تعالى هو العالم بمن حاد عن دينه، والذين هم على الهدى والصواب والحق، فيجازي كلّاً يوم القيامة بعمله.

الأخلاق الذميمة عند الكفار

﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ ۝٨ وَدُّوْا لَوْ تَدَّهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّهِينَ ۝١٠ هَمَزَ مَسَامٍ يَمِيمٍ ۝١١ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَتِيسُ عَلَى الْفَرْطُولِ ۝١٦﴾

القراءات:

﴿أَن كَانَ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحزة (أَن كَانَ).

الإعراب:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١٤) ﴿أَن كَانَ﴾: مفعول لأجله، تقديره: لأن كان ذا مال وبنين، واللام تتعلق بفعل محذوف، تقديره: أي كُفِرَ أن كان ذا مال. ولا يجوز أن تتعلق بـ ﴿تُثَلَّى﴾ لأن ﴿إِذَا﴾ مضافة إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف ولا فيما قبل المضاف، كما لا يجوز أن تتعلق بـ ﴿قَالَ﴾ لأنه جواب الشرط، وجواب الشرط لا يعمل فيما قبله.

﴿قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٥) ﴿أَسْطِيرُ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه أساطير الأولين.

البلاغة:

﴿حَلَّافٍ﴾، ﴿هَمَّازٍ﴾، ﴿مَشَّامٍ﴾، ﴿مَنَاعٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فَعَالٍ، وكذلك ﴿أَنِيمٍ﴾، ﴿زَنِيمٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فَعِيلٍ.

﴿سَتِمْمُ عَلَى الْفُرُطُومِ﴾ (١٦) استعارة، استعار خرطوم الفيل لأنف الإنسان، للاستهانة والاستخفاف.

للفردات اللغوية:

﴿فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٧) تهيج للتصميم على مخالفتهم. ﴿وَدَّوْا﴾ تمنوا، و﴿لَوْ﴾: مصدرية، ﴿تُدْهِنُ﴾ تلين لهم بأن تدع نهيهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً، من الإذهان: وهو المداهنة واللين والمصانعة. ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فيلينون لك بترك الطعن والموافقة، والفاء للعطف على ﴿تُدْهِنُ﴾ أي تمنوا الملاينة، ولكنهم آخروا ذلك حتى تلين، أو للسببية، أي ودَّوا لو تُدْهِنُ، فهم يدهنون حيثئذٍ. وفي بعض المصاحف: (فيدهنوا) على أنه جواب التمني المفهوم من ﴿وَدَّوْا﴾. وعلى قراءة (يدهنون) يقدر قبله بعد الفاء: هم.

﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل. ﴿مَهِينٍ﴾ حقير الرأي. ﴿هَمَّازٍ﴾ عِيَاب طعان مغتاب. ﴿مَشَّامٍ بَنِيْمٍ﴾ يمشي بين الناس بالنسيمة والسعاية للإفساد بينهم. ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ﴾ بحيل بالمال، ويمنع الناس من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح. ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم، يتجاوز الحق إلى الباطل. ﴿أَثِيمٍ﴾ آثم، أو كثير الإثم والذنب. ﴿عُتْلٍ﴾ غليظ جاف. ﴿زَنِيمٍ﴾ دعي في قريش، أي يلحق بهم في النسب وليس منهم، وهو الوليد بن المغيرة، ادّعاء أبوه بعد ثماني عشرة سنة، قال ابن عباس: لا نعلم أن الله وصف أحداً بما وصفه به من العيوب، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وقيل: هو الذي يعرف بالشر واللؤم.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لأن كان، والمعنى: أيكفر لأن كان ذا مال. ﴿مَا يَسْتَنَّا﴾ القرآن. ﴿أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هي خرافات وأباطيل الأقدمين. ﴿سَيَسْمُو عَلَى الْفَرْطُورِ﴾ سنجعل على أنفه سمة وعلامة يتميز بها ما عاش، فخطم أنفه بالسيف يوم بدر، أي أصيب أنف الوليد بجراحة يوم بدر، فبقي أثرها. والوسم: وضع علامة على الشيء لتمييزه بها من غيره.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي في قوله: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١٧) قال: نزلت في الأخنس بن شريق، وأخرج ابن المنذر عن الكلبي مثله وهو قول الشعبي وابن إسحاق. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: نزلت في الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود.

والمشهور أن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١٧) هَمَّازٍ مَشَّامٍ بَنِيْمٍ (١١) فلم نعرفه، حتى نزل عليه بعد ذلك: ﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ (١٢) فعرفناه، له زَعْمَةٌ كَزَعْمَةِ الشَّاهِ (١).

(١) أي الجزء المسترخي من أذنها حين تشق، ويبقى كالجزء المعلق.

المناسبة:

بعد بيان ما عليه الرسول ﷺ من كمال الدين والخلق، بين ما عليه الكفار من الأخلاق الذميمة، والدعوة إلى التشدد معهم ومخالفتهم، مع قلة عدد المؤمنين، وكثرة الكفار.

التفسير والبيان:

﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي داوم على مخالفة الكفار المكذبين لرسالتك، وتشدد في ذلك. وهذا نهي صريح من الله سبحانه عن ملاينة المشركين رؤساء مكة؛ لأنهم كانوا يدعونهم إلى دين آبائهم، فنهاه الله عن طاعتهم أو مجاملتهم في شيء من العقيدة بقصد ترغيبهم في الإسلام. والمراد من النهي: التحميس والتهيج والتشدد في مخالفتهم. قال المفسرون: إن المشركين أرادوا من النبي ﷺ أن يعبد الله مدة وألتهم مدة، وهم يعبدون الله مدة، وألتهم مدة، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فِدْهَنُوهُمْ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم، فيلينون لك، بأن تركز إلى ألتهم، وتقربها، وتترك ما أنت عليه من الحق، فيعترفون بعبادة إلهك.

ونظير الآية: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ إذا لاذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴿الإسراء: ٧٤-٧٥﴾.

ثم خصص تعالى من جميع المكذبين الكفار من اتصف بالأوصاف المذمومة العشرة التالية غير الكفر، فقال:

١ - ٢: ﴿وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ أي ولا تطع كل شخص كثير الخلف بالباطل حقير الرأي والفكر. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ

عُرْضَةً لِإِيْمَانِكُمْ» [البقرة: ٢٢٤/٢] . وفيه إشارة إلى أن عِزَّة النفس منوطة بتصحيح نسبة العبودية، ومهانة النفس مربوطة بالغفلة عن سرِّ الربوبية، وأيضاً الخلاف يكذب كثيراً، والكذاب حقير عند الناس.

٣ - ٤: ﴿هَآؤِ مَشَآءِ نَبِيْمٍ﴾ أي عِيَاب طَعَّان يذكر الناس بالشرِّ في وجوههم، يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. أما اللَّمَّاز: فهو الذي يذكر الناس في مغيبهم. روى الجماعة إلا ابن ماجه عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قَتَات» أي غام.

٥ - ٦: ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيْمٍ﴾ أي بخيل، يمنع الخير عن الناس من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح، ظالم متجاوز الحق وحدود الله من أمر ونهي، كثير الآثام والذنوب. كان للوليد بن المغيرة عشرة بنين، وكان يقول لهم ولن قاربهم: لئن تبع دين محمد منكم أحد، لا أنفعه بشيء أبداً. فمنعهم الإسلام، وهو الخير الذي منعهم.

٧ - ٨: ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيْمٍ﴾ أي هو بعد ما ذكر من معاييه غليظ جاف فظ، شديد الخلق، فاحش الخلق، دعي في قريش ملصق بالقوم وليس هو منهم، مشهور بالشر والسوء.

أخرج الإمام أحمد وأصحاب الكتب الستة إلا أبا داود عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف^(١)، لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عُتْلٍ جَوَّاطٌ^(٢) مستكبر» .

(١) روي بكسر العين وفتحها، والمشهور الفتح، ومعناه: يستضعفه الناس ويحتقرونه، وبالكسر: المتواضع المتذلل.

(٢) الجَوَّاط: الجماع المَنَاع، الذي يجمع المال ويمنعه.

ثم ذكر الله تعالى بعض دوافع ومظاهر كبره وكفره، فقال:

٩ - ١٠: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ﴾ أي أيكفر بالله تعالى ورسوله ﷺ لأن الله أنعم عليه بالأموال والبنين، حيث جعل جزاء النعم الكفر والجحود؟ فذلك لا ينفعه عند ربه. وهذا تقريع وتوبيخ على مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين بالكفر بآيات الله تعالى والإعراض عنها. وقال الزمخشري: متعلق بقوله: ﴿وَلَا تُطْعَمُ﴾ يعني: ولا تطعمه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال، أي ليساره وحظه من الدنيا.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإنه إذا تليت عليه آيات القرآن، زعم أنها كذب مأخوذ من قصص وأباطيل القدماء، وليس هو من عند الله تعالى.

وهذا كقوله تعالى حكاية عن هذا الطاغية الجبار: ﴿ذَرَىٰ وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَنِينَ شُهُودًا ۚ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۚ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۚ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۚ سَاءَ هَقْمُ صَعُودًا ۚ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرُوا ۚ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ نَظَرُوا ۚ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ثُمَّ أَدْبَرَ ۚ وَاسْتَكْبَرَ ۚ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْمَرُ ۚ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ﴾ [المدثر: ١١/٧٤-٢٥].

ثم ذكر الله تعالى عقابه في الدنيا أو الآخرة، فقال:

﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ أي سنجعل له وسماً بالسواد على أنفه، فإنه قاتل يوم بدر، فحُطِمَ بالسيف في القتال، قال المبرد: الخرطوم ههنا الأنف. وعبر به إذلالاً له واستخفافاً به وإهانة له؛ لأن السمة على الوجه أو الأنف شين. وقال جماعة: ﴿سَنَسِفُهُ﴾ سمة أهل النار، يعني نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم، فيسود وجهه بالنار قبل دخولها، فيكون له عليه أو على أنفه علامة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - نهى الله تعالى نبيه - والنهي يقتضي التحريم - ومثله المؤمنون، عن ممايلة المشركين المكذبين لرسالته، وكانوا يدعونهم إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه، فبين الله تعالى أن ممايلتهم كفر.

٢ - تمنى الكفار ملاينة النبي ﷺ ومصانعتهم ومجاملتهم في أديانهم، فيلبنون له في دينه، فإنهم طلبوا أن يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا إلهه مدة، ولكن الله نهاه عن ذلك.

٣ - خصص الله من بين المكذبين النهي عمن اتصف بصفات عشر: هي الخلاف: الكثير الحلف، المهيئ: الحقير الرأي والتميز والتفكير، الهماز: الذي يذكر عيوب الناس في وجوههم، وهو غير اللماز: الذي يذمهم في مغيبهم، النمام: الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، المناع للخير: للمال أن ينفق في وجوهه، ويمنع الناس عن الإسلام، المعتدي: أي الظالم، المتجاوز الحد، صاحب الباطل، الأثيم: الكثير الإثم والذنوب، العتل: الغليظ الجافي الشديد في كفره، الشديد الخصومة بالباطل، الزنيم: الملتصق بالقوم الدَّعي، وكان الوليد بن المغيرة المخزومي دَعِيًّا في قريش، ليس من أصلهم، ادَّعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده، كما تقدم، [الطاغية المفترى].

٤ - وَبَّخَ الله الوليد على مقابله الإحسان والنعمة بالإساءة، فقد أنعم الله عليه بالمال والبنين، فكفر واستكبر. ويكون تقدير الآية: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾: «الآن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر؟ ويجوز أن يكون التقدير: الآن كان ذا مال وبنين تطيعه؟ ويجوز أن يكون التقدير: الآن كان ذا مال وبنين يقول: ﴿إِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِ، إِئِنَّنَا قَالِ اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾».

ة - هدد الله الوليد بالوسم على أنفه في الدنيا، وبالعلامة الظاهرة على أنفه في الآخرة. قال ابن عباس: ﴿سَتِمْهُ﴾: سنخطمه بالسيف، وقد حُطِمَ الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف، فلم يزل مخطوماً إلى أن مات. وقال قتادة: سنسمه يوم القيامة على أنفه سِمة يُعرفُ بها، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦/٣] فهذه علامة ظاهرة. وقال تعالى: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢/٢٠]، وهذه علامة أخرى ظاهرة. فأفادت هذه الآية: ﴿سَتِمْهُ عَلَى الْخَرْطُومِ﴾ (١) علامة ثالثة وهي الوسم على الأنف بالنار. والراجح لدي أن هذا الوسم كان في الدارين.

وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة. ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه؛ فالحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة؛ كالوسم على الخرطوم^(١).

قال ابن العربي بمناسبة قوله تعالى: ﴿سَتِمْهُ﴾: كان الوسم في الوجه الذي المعصية قديماً عند الناس، حتى إنه رُوي أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني، اعتاضوا عنه بالضرب وتحميم الوجه^(٢)، وهذا وضع باطل.

ومن الوسم الصحيح في الوجه: ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور علامة على قبح المعصية، وتشديداً لمن يتعاطاها لغيره، ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته. وقد كان عزيزاً بقول الحق، وصار مهيناً بالمعصية، وأعظم الإهانة: إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سبباً لحياة الأبد، والتحريم له على النار؛ فإن الله قد حرّم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود حسبما ثبت في الصحيح^(٣).

(١) تفسير القرطبي: ٢٣٧/١٨

(٢) تحميم الوجه: تسخينه بالفحم.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي: ١٨٤٥/٤

قصة أصحاب الجنة

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَنَابُ وَالْعَنَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

القرءات:

﴿أَنِ اغْدُوا﴾:

قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمة (أَنِ اغْدُوا)، وقرأ الباقون (أَنْ اغْدُوا).

﴿أَن يُبَدِّلَنَا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (أَن يُبَدِّلَنَا).

الإعراب:

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ كالشيء المصروم، وهو فاعل بمعنى مفعول، مثل عين كحيل، وكفت خضيب، ولحية دهين، أي عين مكحولة، وكفت مخضوبة، ولحية مدهونة.

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ تفسير لـ ﴿فَتَنَادُوا﴾ أو ﴿أَنِ﴾ مصدرية، أي بأن. وكذا قوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَهَا﴾.

﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿عَلَى حَرِّ﴾: جار ومجرور، في موضع نصب على الحال، وتقديره: وعدوا حاردين قادرين.

البلاغة:

﴿طَافَ عَلَيْهَا طَافٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُوَ نَافِيُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿بَلَوْتَهُمْ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع وغيرهما من ألوان البلاء والآفات، أي عاملناهم معاملة المختبر. ﴿الْجَنَّةُ﴾ البستان، كان دون صنعاء بفرسخين، وكان لرجل صالح، ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المُنْجَل وألقته الريح، أو بعد عن البساط الذي ييسط تحت النخلة، فيجتمع لهم شيء كثير، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا، ضاق علينا، فحلفوا ليصرمها وقت الصباح خفية عن المساكين.

﴿يَصْرِمُهَا﴾ يقطعون ثمرتها. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح كيلا يشعر بهم المساكين، فلا يعطون منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها. ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ لا يقولون في عيبتهم إن شاء الله، وإنما سماه استثناء؛ لأن معنى: لا أخرج إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله، واحد، والجملة مستأنفة، أي وشأنهم ذلك. ﴿طَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنة. ﴿طَافٌ﴾ أي أصابها بلاء طارق أو نازل من عذاب ربك، وهو نار أحرقتها. ﴿كَالْقَصْرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء، أو كالليل في السواد بعد أن احترقت، أي سوداء.

﴿فَنَادَوْا﴾ نادى بعضهم بعضاً. ﴿أَنِ اعْدُوا﴾ اخرجوا في الغدوة مبكرين. ﴿عَلَى حَرْبِكُمْ﴾ بستانكم أو غلتكم. ﴿إِن كُنْتُمْ صَرِمِينَ﴾ مريدين قطع ثماره، وجواب الشرط دلّ عليه ما قبله. ﴿يَنْخَفِتُونَ﴾ يتسارون فيما بينهم ويتناجون حتى لا يسمعهم أحد. ﴿وَعَدُوا﴾ ساروا غدوة إلى حرثهم. ﴿عَلَى حَرِّ﴾ أي على منع للفقراء، وقيل: الحرد: القصد والسرعة. ﴿قَدِيرٍ﴾ على الصُّرْم في ظنهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ رأوا الجنة سوداء محترقة. ﴿لَضَالُونَ﴾ تائهون عنها، أي ليست هذه. ﴿مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون ثمرتها بمنعنا الفقراء. منها. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ خيرهم وأرجحهم رأياً. ﴿لَوْلَا شَيْحُونٌ﴾ هلا تذكرون الله وتسغفرونه من فعلكم وتوبون إليه من خبث نيتكم. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بمنع الفقراء حقهم.

﴿يَتَلَوْنَهُ﴾ يلوم بعضهم بعضاً على قصدهم وإصرارهم على منع المساكين. ﴿يَوْتِلُنَا﴾ يا هلاكنا، و(يا): للتنبيه. ﴿طُعِينٌ﴾ متجاوزين حدود الله. ﴿أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنَّا﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة، وقد روي أنهم بدّلوا خيراً منها. ﴿إِلَى رَبِّنَا رَعِبُونَ﴾ طالبون منه العفو والخير. ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي مثل ذلك العذاب لهؤلاء أصحاب الجنة عذاب الدنيا. ﴿الْعَذَابُ﴾ لمن خالف أمرنا من أهل مكة وغيرهم. ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو علموا عذابها لاحترزوا عما يؤدّهم إلى العذاب.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً، فاربطوهم في الحبال، ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي في قدرة أهل مكة على المؤمنين، كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عن الوليد بن المغيرة أو غيره أنه لأجل كونه ذا مال وبينين، جحد وكفر وعصى وتمرد، بطريق الاستفهام على سبيل الإنكار، بيّن في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان، ليعرف هل يصرفه في طاعة الله ويشكر نعم الله، فيزيده من النعمة، أم يكفر

بها فيقطعها عنه، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات؟ ومثله في هذا ومثل أهل مكة كمثل أصحاب الجنة ذات الثمار، كُلفوا أن يشكروا النعم ويعطوا الفقراء حقوقهم، فلما جحدوا النعمة وحرموا المساكين، حرّمهم الله الثمار كلها.

روي أن واحداً من ثقيف، وكان مسلماً، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من ناتجها عند الحصاد نصيباً وافراً للفقراء، فلما مات، ورثها منه بنوه، ثم قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين مثلما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُّصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴿١٨﴾﴾ أي إنا اخترنا كفار مكة وامتحناهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ، كما اخترنا أصحاب البستان المعروف خبرهم عند قریش، حين حلفوا أنهم سيقطعون ثمر الجنة (البستان) عند الصباح، حتى لا يعلم بهم الفقراء، فيأخذون ما كانوا يأخذونه، طمعاً في اقتناء كامل الغلة والزرع، ولم يقولوا: إن شاء الله، فالأكثر أنهم إنما لم يستثنوا فيما حلفوا به بمشيئة الله تعالى؛ لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة. وقال آخرون: بل المراد أنهم يصرمون كل الزرع، ولا يستثنون للمساكين نصيبهم أو القدر الذي كان أبوهم يدفعه إليهم.

والمقصود اختبار أهل مكة، لمعرفة حالهم، أيشكرون نعم الله عليهم، فيؤمنون بالرسول ﷺ الذي أرسله الله إليهم مبشراً ونذيراً، أم يكذبونه ويكفرون برسالته، ويحسدون حق الله عليهم؟ فيجازوا بما يستحقونه، كما جوزي أصحاب الجنة، وهو ما أخبر عنه في قوله تعالى:

﴿طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٨﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿١٩﴾﴾ أي طاف

على تلك الجنة من عند الله نار أحرقتها، أي أصابتها آفة سماوية، حتى صارت سوداء كالليل الأسود المظلم. ووجه التشبيه أنها ليست وذهبت خضرتها، أو لم يبق منها شيء.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ياكم والمعاصي، إن العبد ليزن الذنب، فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ ١٨ ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ ١٩ ﴿قَدْ حُرِّمُوا خَيْرَ جَنَّتِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ .

ولكنهم لم يدروا بما حدث، وانطلقوا مصممين على ما أرادوا، فقال تعالى:

﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ٢٠ ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٢١ أي فنادى بعضهم بعضاً وقت الصباح، ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع: أن اخرجوا مبكرين في الصباح إلى الثمار والزرع، إن كنتم قاصدين للصرام أي القطع. قال مجاهد: كان حرثهم عنياً.

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ﴾ ٢٢ ﴿أَن لَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ ٢٣ أي فبادروا مسرعين إلى حرثهم، وهم يتسارون ويتناجون ويقول بعضهم لبعض: لا تمكثوا اليوم فقيراً يدخل عليكم، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم.

﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْثٍ قَدِيرٍ﴾ ٢٤ أي وذهبوا في الغداة مبكرين، زاعمين أنهم قادرون على الصرام ومنع المساكين وحرمانهم. فقوله: ﴿عَلَىٰ حَرْثٍ﴾ على قصد المنع، وقيل: الحرد: القصد والجِدّ والسرعة. وقوله: ﴿قَدِيرٍ﴾ من باب عكس الكلام للتهكم. وفيه أنهم طلبوا حرمان الفقراء، فعورضوا بتقيض مقصودهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي فلما وصلوا إليها وشاهدوها وهي على الحالة المؤلمة من الاحتراق والسواد، قال بعضهم لبعض: قد أخطأنا ونهنا طريق جنتنا، وليست هذه.

ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا:

﴿يَلَّ نَحْنُ نَحْرُومُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي بل في الحقيقة والواقع حرمننا الله ثمر جنتنا، بسبب عزمنا على منع المساكين وحرمانهم من خيرها، فلا حظ ولا نصيب، ونحن نادمون على ما فعلنا، كما أخبر تعالى فيما يأتي:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْ قُلُوبُكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي قال أمثلهم وأعقلهم وأعدلهم وخيرهم رأياً وتديناً: هلا تسبحون الله وتذكرونه وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، وتستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها.

ولما صدموا بالحقيقة المرة ذكروا الله واعترفوا بذنبهم قائلين:

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي قالوا: تنزيهاً لله عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا، فإننا كنا ظالمين أنفسنا في حرماننا المساكين حقوقهم. ولكنهم أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع الندم. ثم لام بعضهم بعضاً كما قال تعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي ثم أخذ بعضهم يلوم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ أي القطف، ولم يجدوا سبيلاً إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، والدعاء على أنفسهم بالهلاك، فقال تعالى:

﴿قَالُوا يَوَيْلًا إِنَّا كُنَّا طُغْيَانًا﴾ أي قالوا: يا هلاكنا أقبل، فإننا كنا معتدين متجاوزين الحد، حتى أصابنا ما أصابنا.

ثم دعوا ربهم أن يعوضهم عما حلّ بهم، فقالوا:

﴿عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي لعل الله ربنا أن يعطينا بدلاً خيراً من جنتنا، فإننا راجون العفو والخير منه. قال مجاهد: إنهم تابوا فأبدلوا خيراً منها.

ثم ذكر الله تعالى العبرة من القصة، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَئِنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل الجنة من الحرمان، وأهل مكة من القحط والقتل عذاب الدنيا، وهو عذاب كل من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير، وإن عذاب الآخرة أشد وأعظم وأشق من عذاب الدنيا، فلو كان المشركون يعلمون ذلك، لعادوا إلى رشدهم، وبأدروا إلى الإيمان بدعوة النبي المصطفى ﷺ، وأقلعوا عن الغي والضلال، ولكنهم لا يعلمون. وهذا دليل على غفلتهم وجهلهم وبعدهم عن الحق والصواب.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت قصة أصحاب الجنة على ما يأتي:

أ - الدنيا دار ابتلاء واختبار، فقد ابتلى الله تعالى أصحاب الجنة (اليستان) وابتلى أهل مكة، بأن أعطاهم ربهم أموالاً ليشكروا، لا ليبتطروا، فلما يبتطروا، وعادى المشركون محمداً ﷺ، ابتلاههم بالجوع والقحط، كما ابتلى (اختبر) أهل الجنة المعروف خبرها عندهم؛ لأنهم من أهل اليمن القريبة منهم، على بعد ستة أميال من صنعاء.

٢ - قال بعض العلماء: على من حصد زرعاً أو جَذَّ ثمرة أن يواسي منها من حضره، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤١] وأنه غير الزكاة، لذا نهى عن الحصاد في الليل، لا خشية الحيات وهوام الأرض؛ لأن عقوبة أصحاب الجنة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين، كما ذكر الله تعالى.

٣ - دلّ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْبُوا لَبْرْمَتَهَا مُصْحِحِينَ﴾ على أن العزم مما يؤخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَامٍ يُظْلَمِ تُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٢/٢٥]. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

٤ - إن الإنسان ضعيف القوة والتدبير والرأي، فلقد أحكم أصحاب الجنة الخطة، وصمموا على صرام الزرع والثمر أو العنب في الصباح الباكر قبل أن ينتشر المساكين في البساتين، وذهبوا جادين مسرعين، متسارين، أي يخفون كلامهم ويسرونه لئلا يعلم بهم أحد، قائلين: لا يدخل علينا مسكين، أي لا تمكنوه من الدخول، وعزموا على حرمان المساكين، مع كونهم قادرين على نفعهم، وهم يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم، ففوجئوا بتدمير الله وإحراقه الحرث وإتلافه الغلة والثمر.

٥ - ولما رأوا الجنة محترقة لا شيء فيها، قد صارت كالليل الأسود وأضحت كالرماد، شكوا فيها، وقالوا: ضللنا الطريق إلى جنتنا، ثم لما تيقنوا منها قالوا: بل نحن محرومون، أي حُرمتنا جنتنا بما صنعنا. وهذا دليل على أن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل.

٦ - كان أوسطهم، أي أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم قد أمرهم بالاستثناء

وهو سبحانه الله أي تنزيهاً لله عز وجل، فقال لهم: هَلَّا تَسْبِّحُونَ اللَّهَ؛ أي تقولون: سبحانه الله، وتشكرونه على ما أعطاكم، وتعلقون الأمر بمشيئة الله، وتتوبون إليه من خُبث نِيَّتِكُمْ، فإن الله ينتقم من المجرمين، ولكنهم لم يطيعوه.

ثم تذكروا قوله، واعترفوا بالمعصية، ونزهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل، وإنما هم الظالمون أنفسهم في منعهم المساكين.

٥ - لام بعضهم بعضاً في تدبير الخطة، كشأن كل جماعة تخيب في أمرها، فقال أحدهم لغيره: أنت أشرت علينا بهذا الرأي، وقال الآخر: أنت خوّفتنا بالفقر، وقال الثالث: أنت الذي رغبتني في جمع المال.

٨ - أكد أصحاب الجنة اعترافهم بالمعصية، فقالوا: ﴿يَوْنِلَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء، وكان استثناءهم تسيحاً كما قال مجاهد وغيره، وهو في موضع: (إن شاء الله) لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته. والخلاصة في رأي الأكثرين أن معنى قوله: ﴿لَوْلَا تُسَيِّحُونَ﴾ هلا تستثنون، فتقولون: إن شاء الله.

٩ - أعلن أصحاب الجنة توبتهم وأخلصوا نيتهم في رأي الأكثرين، حين قالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ فإنهم تعاقدوا وتعاهدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنع كما صنعت آبائنا، فدعوا الله وتضرعوا، فأبدلهم الله، من ليلتهم تلك، ما هو خير منها. والإبدال: رفع الشيء ووضع آخر مكانه. قال مجاهد: إن هذه كانت توبة منهم، فأبدلوا خيراً منها.

١٠ - هدد الله المكلفين من أهل مكة وغيرهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَلْقَيْنَا﴾ أي عذاب الدنيا وهلاك الأموال، والمعنى: مثلما فعلنا بهؤلاء أصحاب الجنة، نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا. ثم خوَّف تعالى الكفار بعذاب أشد وهو عذاب الآخرة في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن عباس: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ليقتلن محمداً ﷺ وأصحابه، وليرجعن إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضرب القينات على رؤوسهم، فأخلف الله ظنهم، وأسرّوا وقتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة، لما خرجوا عازمين على الصّرام، فخابوا.

١١ - الأظهر كما قال القرطبي: أن الحق الذي منعه أهل الجنة المساكين كان واجباً عليهم. وقيل: يحتمل أنه كان تطوعاً.

جزاء المتقين وإنكار التسوية بين المطيع والعاصي

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ أَفْجَعَلُ السَّالِينَ كَالْجَرِيمِينَ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٢٩﴾ سَأَلَهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٣٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْفَعُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَاسُونَ ﴿٣٣﴾﴾

الإعراب:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ «مَا»: في موضع رفع مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾: خبره، و﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب على الحال بـ ﴿تَحْكُمُونَ﴾.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٢٨﴾﴾: إنفا كسرت «إِنَّ» لمكان اللام في «لَمَا» ولولا دخول اللام في «لَمَا» لكانت مفتوحة؛ لأنها مفعول «تَدْرُسُونَ» وهو كقولهم: علمت إن في الدار لزيداً.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿بِلِقَاءِ﴾: صفة لـ ﴿أَيْمَانٌ﴾. وقرئ: بالغة بالنصب على الحال من الضمير في «لَكُمْ».

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كسرت ﴿إِنَّ﴾ إما لمكان اللام كما كسرت فيما قبله، أو لأن ما قبله قسم، وهي تكسر في جواب القسم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب، وعامله إما ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ أو فعل مقدر، تقديره: واذكر يوم.

﴿خِشْيَةً أَنْصَرُّهُمْ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿خِشْيَةً﴾ حال من ضمير ﴿يُدْعَوْنَ﴾ أو من ضمير ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ و﴿أَنْصَرُّهُمْ﴾: مرفوع بفعله. و﴿رَهَقَهُمْ ذُلٌّ﴾: جملة فعلية إما منصوبة على الحال، وإما مستأنفة لا موضع لها من الإعراب.

للبلاغة:

﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿كَالْمُجْرِمِينَ﴾ بينهما طباق.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ أم لَكُمْ كُنْتُ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٧﴾؟ والجمل التي بعدها: تقريع وتوبيخ.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ تشبيه مقلوب ليكون أبلغ وأروع؛ لأن الأصل: أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والثواب؟

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ كناية عن شدة الهول يوم القيامة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ﴿٢٤﴾ أي في الآخرة. ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص. ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ أي في الدرجة والمنزلة في الجنان، وهو إنكار التسوية في نتيجة الإسلام والإجرام، أي بين أهل الطاعة وأهل المعصية، وهو إنكار لقول الكفرة، فإنهم كانوا

يقولون: إن صَحَّ أَنَا نَبِئْتُ كَمَا يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ، لَمْ يَفْضَلُونَا، بَلْ نَكُونُ أَحْسَنَ حَالاً مِنْهُمْ، كَمَا نَحْنُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٦) هذا الحكم الفاسد؟ وهو التفات فيه تعجب من حكمهم، واستبعاد له، وإشعار بأنه صادر من اختلال فكر واعوجاج رأي. ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ منزل من السماء. ﴿تَدْرُسُونَ﴾ تَقْرَؤُونَ، و﴿أَمْ﴾ أي بل لكم. ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (١٧) أي لما تختارونه وتشتبهونه. ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْتُنْ عَلَيْنَا﴾ عهود مؤكدة بالآيمان. ﴿يُلْفَئُ﴾ متناهية في التوكيد موثقة. ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَةِ﴾ أي ثابتة لكم علينا إلى هذا اليوم. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي تحكمون به لأنفسكم، وهو جواب القسم؛ لأن معنى ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْتُنْ عَلَيْنَا﴾: أم أقسمنا لكم.

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (١٨) أي سلمهم أيهم كفيل لهم بذلك الحكم الذي يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل من المؤمنين. ﴿أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي بل ألهم أي عندهم شركاء موافقون لهم في هذا القول يكفلون لهم به. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ أي فإن كان لهم شركاء كفلاء فليأتوا بشركائهم الكافرين لهم به. ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أي اذكر لهم حين شدة الأمر يوم القيامة للحساب والجزاء، أي يوم يشتد الأمر، يقال: كشفت الحرب عن ساق: إذا اشتد الأمر فيها. ﴿وَيَذْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ﴾ يطلب منهم السجود توبيخاً على تركهم السجود. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهاب وقته أو زوال القدرة عليه. ﴿خَشَعَةَ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي ذليلة لا يرفعون أبصارهم. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم وتلحقهم. ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي الدُّنْيَا﴾ (١٩) وأهم سليلون أصحاب متمكنون لا شيء يمنعهم.

المناسبة:

بعد تخويف الكفار بعذاب الدنيا في قوله تعالى: ﴿وَلَعَنَّا الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴿﴾ ذكر الله تعالى أحوال السعداء، وأبان أن للمتقين جنات النعيم، ثم ردَّ على الكفار الذين يزعمون المساواة في الآخرة بينهم وبين المسلمين من غير كتاب إلهي، ولا عهد ممنوح مؤكد بالآيمان، ولا كفلاء في يوم شديد الأهوال، عسير الحساب على الصلاة وغيرها.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ إن لكل من اتقى الله وأطاعه، في الدار الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص الذي لا يزول ولا ينقضي، ولا يكدره شيء.

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية، قال كفار مكة للمسلمين: إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا، فلا بدَّ أن يفضلنا عليكم في الآخرة، فإن لم يحصل التفضيل، فلا أقل من المساواة.

ثم أجاب الله تعالى عن هذا الكلام بقوله:

﴿أَفَجَعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي كيف نسوي بين الفريقين في الجزاء، فنجعل من يلتزم الطاعة كمن هو فاجر مجرم عاص لا يبالي بمعصيته؟ كلا فلا تسوية بين المطيع والعاصي.

ثم نفى الله تعالى وجود كل الأدلة العقلية أو النقلية التي تصلح لإثبات التسوية أو تحقيق الدعوى، فقال:

١ - ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي كيف تظنون ذلك، وتحكمون هذا الحكم الأعوج، كأن أمر الجزاء مفوض إليكم؟ إن أبسط مبادئ العقل وأصول الرأي يمنع مثل هذا الظن أو الحكم. وهذا نفي الدليل العقلي.

٢ - ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ مَا تُخَبِّرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي بل ألكم

أو بأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه، يتضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه، وتقرؤون فيه، فتجدون المطيع كالعاصي؟! وهل في ذلك الكتاب أن لكم في الآخرة ما تختارون وتشتهون؟ وهذا نفي الدليل النقلي.

٣ - ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي بل لكم أو معكم عهد عند الله موثقة مؤكدة ثابتة إلى يوم القيامة في أن يدخلكم الجنة، ويحصل لكم ما تريدون وتشتهون، ويُنفذ لكم الحكم الذي تصدرونه؟ وهذا نفي الوعد الإلهي بما توقعوا وظنوا.

٤ - ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِغِلَظِ كُفْرِهِمْ هُمْ سَاهُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي قل لهم يا محمد موجباً لهم ومقرّعاً: من هو المتضمن المتكفل بهذا، أو أيهم بذلك كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها؟

٥ - ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَمَاذَا أُشْرِكُوا بِشِرْكِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي بل لهم شركاء الله يزعمهم من الأصنام والأنداد قادرون على أن يجعلوهم مثل المسلمين في الآخرة؟ فإن كان لهم شركاء، فليأتوا بهم لمناصرتهم إن كانوا صادقين في دعواهم. وهذا نفي التقليد وإبطال جوهر الاعتقاد لدى المشركين.

والخلاصة: المراد من الآيات أنه ليس لهم دليل عقلي في إثبات مذهبهم، ولا نقلي، وهو كتاب يدرسون، ولا عهد لهم به عند الله، ولا كفيل لهم يتكفل بما يقولون، ولا لهم مؤيد يوافقهم من العقلاء، مما يدل على بطلان دعواهم.

ثم تحذاهم الله تعالى بالإتيان بالشركاء يوم اشتداد الأمر، فقال:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَافٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي فليأتوا بشركائهم لإنقاذهم يوم يشتد الأمر ويعظم الخطب في القيامة، وحين يدعى

هؤلاء الشركاء وأنصارهم من الكفار والمنافقين إلى السجود توبيخاً لهم على تركه في الدنيا، فلا يتمكنون من السجود؛ لأن ظهورهم تيسر وتصبح طبقة واحداً، فلا تلين للسجود.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً». والمراد بقوله: «يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ» شدة الأمر وعظم الخطب؛ لأن الله تعالى منزّه عن الجسمية وعن كل صفات الحوادث، فليس المراد بالساق الجارحة، وإنما ذلك مؤول بما ذكر.

﴿خَشِيعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ أي تكون أبصارهم ذليلة خاسئة منكسرة، تغشاهم ذلة شديدة، وحسرة وندامة، وقد كانوا في الدنيا مدعويين إلى الصلاة والسجود لله تعالى، فأبوا وتمردوا وامتنعوا، مع أنهم كانوا سالمين أصحاء، متمكنين من الفعل، لا علة ولا موانع تمنعهم من أداء السجود. قال النخعي والشعبي: المراد بالسجود: الصلوات المفروضة.

والخلاصة: أنهم لا يُدْعَوْنَ إلى السجود تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا، وبما أنهم تكبروا عن السجود في الدنيا مع صحتهم وسلامتهم، عوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلّى الرب عز وجل، فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا من المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهره طبقاً واحداً، كما ثبت في الحديث المتقدم.

فقه الحياة لو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - إن للمتقين المنتزمين أوامر الله المحتبين نواهيهِ في الآخرة جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص، لا يشوبه ما ينقصه كما يشوب جنات الدنيا.

٢ - لا تسوية في الجزاء الأخروي بين المسلمين والكفار، أو بين الطائعين والعصاة، وذلك بحكم الفضل والإحسان، لا من قبيل الاستحقاق على الله شيئاً.

٣ - استنكر الله تعالى حكم المشركين الأعوج في المساواة بينهم وبين المسلمين، كأن أمر الجزاء مفوض إليهم، حتى يحكموا بما شاؤوا أن لهم من الخير ما للمسلمين. واستنكر أيضاً وجود كتاب سماوي يجدون فيه المطيع كالعاصي، وأن لهم ما يختارون وما يشتهون.

ونفى أن يكون لهم عهود ومواثيق مؤكدة بالله تعالى، يستوثقون بها في أن يدخلهم الجنة، فليس الأمر كما يحكمون ويظنون.

٤ - أنكر الله تعالى عليهم كذلك أن يكون لهم كفيل بما زعموا، قائم بالحجة والدعوى، أو أن يكون لهم ناس شركاء، أي شهداء يشهدون على ما زعموا، إن كانوا صادقين في دعواهم.

٥ - من أنواع العذاب في الآخرة للكفار: أنهم يوم يشتد الأمر، ويعظم الخطب يوم القيامة، يطالبون تقيعاً وتوبيخاً بأداء الصلاة والسجود، فلا يتمكنون عقاباً لهم بنقيض ما كانوا عليه في الدنيا، وتكون أبصارهم ذليلة خاسئة منكسرة، وتغشاهم الذلة والمهانة، وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم، ووجوههم أشد بياضاً من الثلج، وتسود وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سواداً من القار.

تخويف الكفار من قدرة الله تعالى وأمر النبي ﷺ بالصبر والتذكير العالي بالقرآن

﴿قَدْزِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ
إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُمُونَ ٤٧﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْاُخْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨﴾ نُوَلِّ
أَنْ تَدَارِكُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّكُمْ لَئِنْ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُمُ مِنَ الصَّالِحِينَ
٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ٥١﴾ وَمَا
هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٥٢﴾

القراءات:

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾:

وقرأ نافع (لَيُزْلِقُونَكَ).

الإعراب:

﴿قَدْزِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (وَمَنْ): في موضع نصب؛ لأنه معطوف
على ياء المتكلم في ﴿قَدْزِي﴾.

﴿لَوْلا أَنْ تَدَارِكُمْ نِعْمَةً﴾ قال: ﴿تَدَارِكُمْ﴾ بالتذكير؛ لأن تأنيث النعمة غير
حقيقي، أو حملاً على المعنى؛ لأن النعمة بمعنى النعيم. وقرئ بالتأنيث
(تداركته نعمة) بالتأنيث حملاً على اللفظ ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الجملة حال.

﴿وَإِنْ يَكَادُ﴾ (وَإِنْ) مخففة من الثقيلة بدليل اللام.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ قرئ بضم الياء وفتحها، وهما لغتان، والضم أفضل.

المفردات اللغوية:

﴿فَدَرَبِي﴾ دعني و اتركني . ﴿وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ اتركه إلى فإني أكفيكه ،
والحديث: القرآن . ﴿سَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ نأخذهم تدريجاً أو قليلاً قليلاً .
والاستدراج: أن تنزل بالمرء درجة درجة إلى حيث تريد لتوريطه فيه ،
والمراد هنا: سندنيهم من العذاب تدريجاً بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد
النعمة . ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج ، وهو الإنعام عليهم ؛ لأنهم
حسبوه تفضيلاً لهم على المؤمنين .

﴿وَأُمْلِي لَهْمٌ﴾ وأمهلهم وأطيل لهم المدة . ﴿كَيْدِي﴾ تدبيري . ﴿مَتِينٌ﴾ شديد
لا يطاق ، ولا يدفع بشيء . ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ بل أنسأهم على تبليغ الرسالة .
﴿أَجْرًا﴾ أجرة على البلاغ . ﴿مَقَرَّمٍ﴾ غرامة مالية يعطونكها . ﴿مُتَقَلُّونَ﴾ محملون
أثقالاً ، فيعرضون عنك ، ولا يؤمنون بك .

﴿الْغَيْبُ﴾ الشيء المغيب الذي استأثر الله بعلمه ، أو اللوح المحفوظ الذي
فيه الغيب . ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أي يحكمون به ويستغنون به عن علمك ، ويكتبون
منه ما يقولون . ﴿لِحُكْرِ رَبِّكَ﴾ قضاؤه فيهم وإمهالهم وتأخير نصرتك عليهم .
﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو يونس عليه السلام في الضجر والعجلة .
﴿نَادَى﴾ دعا ربه في بطن الحوت . ﴿مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً وغماً ، مأخوذ من
كظم السقاء: إذا ملأه .

﴿تَذَكَّرْهُ﴾ أدركه . ﴿نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ رحمة من الله وهي التوفيق للتوبة
وقبولها . ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ الأرض الخالية عن الأشجار والزررع . ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ملوم
مطرود عن الرحمة والكرامة . ﴿فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاه ورد إليه الوحي والنبوة .
﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الأنبياء الكاملين في الصلاح . ﴿لَبِزْلُوكَ بِأَنْفَرِهِمْ﴾ ينظرون
إليك نظراً شديداً يكاد أن يصرعك ويسقطك من مكانك ، والمعنى: إنهم لشدة
عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك ويرمونك . ﴿لَنَا سَمْعُاُ

الَّذِي ﴿الَّذِكْرُ﴾ الْقُرْآنَ . ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسداً وعداوة . ﴿إِنَّهُمْ لَمُجْرُونَ﴾ بسبب القرآن الذي جاء به ، حيرة من أمره وتنفيراً عنه . ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة وتذكير . ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الجن والإنس ، فلا يحدث بسببه جنون . قال البيضاوي : لما جنتوه لأجل القرآن ، بين أنه ذكر عام ، لا يدرکه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً ، وأمتهم رأياً .

المناسبة :

بعد تخويف الكفار بأحوال يوم القيامة وشدائدها ، خوَّفهم تعالى وهددهم بما في قدرته من القهر ، ففيه الكفاية بالجزاء لمن يكذب بالقرآن ، ثم أمر نبيه ﷺ بالصبر ، ونهاه عن الضجر في أمر التبليغ كحال يونس عليه السلام ، ثم أخبر نبيه ﷺ عن حسد قومه ، وحرصهم على إيقاع المكروه به بعد أن صبره وشجعه ، ثم أعلم الناس قاطبة أن القرآن عظة للجن والإنس جميعاً ، يتلقاه أهل العقول والأفهام ، وليس المجانين كما زعموا .

التفسير والبيان :

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ يَهْدِ الْكِتَابُ سَبِيلَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥١) أي دعني وإياهم ، وخل بيني وبينهم ، واترك أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن ، فأنا أكفيك أمرهم ، وأعلم كيف أجازيهم ، فلا تشغل قلبك بشأنهم ، فإننا سنأخذهم بالعذاب على غفلة ، ونسوقهم إليه درجة فدرجة ، حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج ؛ لأنهم يظنونهم إنعاماً ، ولا يفكرون في عاقبته ، وما سيلقون في نهايته . وهذا تهديد شديد ، وإيناس للنبي ﷺ .

فهم لا يشعرون أن الإنعام استدراج ، بل يعتقدون أن ذلك من الله تعالى كرامة ، وهو في الأمر نفسه إهانة كما قال تعالى : ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّما تُبْدِئُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَتَنَبَّأُونَ﴾ (٥٥) سَأَرَجُ هُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) [المؤمنون : ٥٥-٥٦]

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤/٦].

وقال الله تعالى هنا:

﴿وَأَمَّا لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾ [١٥] أي أمهلهم وأوخرهم ليزدادوا إثماً، ويتورطوا، فإن تدييري وكيدي لأهل الكفر قوي شديد، فلا يفوتني شيء لكل من خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وسمى الله الجزاء كيداً - والكيد احتيال - لكونه في صورته، إذ نفعهم وهو يريد الضرر بهم، لما علم من خبثهم وتماديهم في الكفر.

جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢/١١].

ثم أخبر الله تعالى عن إزالة كل الموانع التي تمنعهم من قبول الإسلام والحق، فقال:

- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [٤٦] أي بل أطلب منهم أجرة على الهداية والتعليم وتبليغ رسالتك ودعوتك إياهم إلى الإيمان بالله تعالى؟ فهم من الغرامة المالية التي يتحملونها مثقلون بأدائها، لشحهم ببذل المال. والمراد: هل طلبت منهم أجراً، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب؟ الحقيقة أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم مع ذلك يكذبونك فيما جنتهم به من الحق جهلاً وكفراً وعناداً. وفي هذا إثبات النبوة؛ لأن النبي ينشد الخير لذاته، لا لمنفعة مادية.

- ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [٤٧] أي بل أعندهم علم الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون، ويستغنون بذلك عن إجابتك وامتنال قولك.

والمراد أنه ليس لهم حجة نقلية يعتمدون عليها في الإعراض عن قبول رسالة الإسلام.

ولما بالغ الله تعالى في تزييف منهج الكفار، وتفنيد شبهاتهم وإبطاها، وزجرهم عليها، أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وعلى تبليغ رسالته، فقال:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْحَوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۖ أَيُّ فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ قَضَاءِ رَبِّكَ وَحُكْمِهِ فِيكَ وَفِي هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ، وَعَلَىٰ أَذَىٰ قَوْمِكَ وَتَكْذِيبِهِمْ، وَامْضِ فِي تَبْلِيغِ دَعْوَتِكَ، دُونَ تَوَقُّفٍ أَوْ تَعَثُّرٍ بِمُعَارَضَتِهِمْ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِاتِّبَاعِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ولا تكن مثل يونس عليه السلام في الضجر والعجلة والغضب، حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان، من ركوبه البحر، والتقام الحوت له، وشروده في البحار، وندمه على ما فعل، فنادى ربه في الظلمات في بطن الحوت، وهو مملوء غيظاً وغماً على قومه، إذ لم يؤمنوا لما دعاهم إلى الإيمان، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

والمعنى: لا يوجد منك ما يوجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبتلى ببلائه، كما قال تعالى:

﴿لَوْلَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِصْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۖ أَيُّ لَوْلَا أَنْ تَدَارِكَهُ رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ، بتوفيقه للتوبة وقبولها منه، فتاب الله عليه، لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات، وهو ملوم بالذنب الذي أذنبه، مطرود من الرحمة والكرامة، لذا قال تعالى:

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ أي فاصطفاه ربه واستخلصه

واختاره للنبوّة والوحي، وجعله من الأنبياء المرسلين لقومه الكاملين في الصلاح، وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون، فأمنوا جميعاً. ويلاحظ أن كلمة ﴿فَلَوْلَا﴾ دلت على أن المذمومة لم تحصل. وهذا لا يتنافي قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمُسِيحِينَ﴾ (٢٣) - أي من المصلين - ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٢٤) [الصفات: ١٤٤/٣٧] أي عقوبة له وكان مذموماً، فهذا جزاء عدم التوبة، والنبد في العراء هنا (المكان الخالي من الشجر أو النبات) بعد التوبة حيث تداركه رحمة الله ونعمته.

ثم حذر الله تعالى نبيه ﷺ من عداوة المشركين، قائلاً:

﴿وَإِنْ يَكَاذِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرْسِلَنَّكَ بِأَصْرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١)
أي إنهم - كما قال الزمخشري - من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يُرْسِلُونَ قدمك، أو يهلكونك، وكان هذا النظر يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ القرآن، لشدة كراهيتهم، وحسداً على ما أوتي من النبوة، ويقولون: إنه مجنون، حيرة في أمره، وتفضيراً عنه، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم. والمعنى: أنهم جنتوه لأجل القرآن.

وقال بعضهم: المراد أنهم يكادون يصيبونك بالعين، روي أن العين كانت في بني أسد، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام، فلا يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله، إلا عانه، فأريد بعض العيَّانين على أن يقول في رسول الله ﷺ مثل ذلك، فقال: لم أر كاليوم رجلاً، فعصمه الله.

قال الهروي: أراد ليعتانونك بعيونهم، فيزيلوك عن مقامك الذي أقامك الله فيه، عداوة لك.

ورد ابن قتبية على ذلك قائلاً: ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك.

ورأى ابن كثير أن المعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحايته إياك منهم، وفي هذه الآية - على رأي البعض - دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة.

منها: ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد، والعين حق» أي بإرادة الله.

ومنها: ما أخرجه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تدخل الرجل العين في القبر، وتدخل الحمل القدر» وإسناد رجاله كلهم ثقات.

ومنها: ما أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتولع الرجل بإذن الله، فيتصاعد حالقاً، ثم يتردى منه» وإسناده غريب.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥٦) أي ويقولون عن محمد ﷺ: إنه لمجنون، أي لجحيته بالقرآن، وما القرآن إلا موعظة وتذكير للجن والإنس، فلا يتحملة إلا من كان أهلاً له من العقلاء، وفيه نسبة الجهل إلى من يقول هذا القول، وكيف يجن من جاء بمثله من الآداب والحكم وأصول كل العلوم والمعارف؟! قال الحسن البصري: دواء الإصابة بالعين أن يقرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - كفى بالله مجازياً ومنتقماً ممن يكذب بالقرآن العظيم، وإن الله

سيأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون، فعذبوا يوم بدر. وهذا استدراج من الله تعالى، والاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله النقل من حال إلى حال كاللتدرج.

٢ - إن الله يمهّل ولا يمهّل، فهو سبحانه يمهّل ويطيّل المدة للظالمين والكفار، ثم يعاقبهم، فلا يفوته أحد، وعذاب الله قوي شديد، وتديره محكم لا يمكن التفلت منه. جاء في البحر المحيط: ما يدل على أنه لم يصح خبر في مدة لبث يونس عليه السلام في بطن الحوت.

٣ - ليس للكفار والمشرّكين علم بالغيب الذي غاب عنهم، فيكون حكمهم لأنفسهم بما يريدون غلطاً محضاً، وتقولاً كاذباً.

٤ - الصبر على قضاء الله وحكمه مطلوب شرعاً، ولا ينبغي لمؤمن العجلة والتضجر والغضب، كما عجل صاحب الحوت يونس بن متى عليه السلام حين تضجر ثم تاب وندم، ودعا في بطن الحوت وهو مملوء غماً، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧/٢١].

فقبل الله بفضلِهِ ومَنِّهِ ورحمته ونعمته دعاءه، واصطفاه ربه واختاره وجعله من الأنبياء الصالحين، بأن أرسله إلى مئة ألف أو يزيدون هم أهل نينوى، ولولا قبول توبته، لنبذ في الأرض الخالية الفضاء مذموماً ملوماً. والذم واللوم بسبب ترك الأفضل، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولم يقع الذم بدليل كلمة ﴿تَوَلَّ﴾.

٥ - اشتدت عداوة الكفار للنبي ﷺ، فكانوا إذا سمعوه يقرأ القرآن، نظروا إليه نظرة شديدة ملؤها الحقد والعداوة والبغضاء، حتى لتكاد نظراتهم تسقطه وتزُلّ قدمه، أو تهلكه.

وينسبونه أيضاً إلى الجنون إذا رأوه يقرأ القرآن، مع أن القرآن لا يتحمّله إلا من كان أهلاً له من العقلاء، وهو شرف وتذكير وموعظة للعالمين، شرفوا باتباعه والإيمان به ﷺ، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن آتياً على يد مجنون؟ وكيف يمين من جاء بمثلِه؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَقْلَةِ

مكية، وهي اثنتان وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة الحاقة؛ لافتتاحها بالاستفهام عنها، تفخيماً لشأنها وتعظيماً لها، و﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ اسم من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظم الله أمرها بالسؤال عنها، أو هي الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المحيية، التي هي آية لا ريب فيها.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجهين:

أ - وقع في سورة ﴿ت﴾ ذكر يوم القيامة مجملًا، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [٤٢] وفي هذه السورة أوضح تعالى نبأ هذا اليوم وشأنه العظيم: ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾.

ب - هدد الله تعالى في السورة السابقة كل من كذب بالقرآن وتوعده بقوله: ﴿فَذَرْبِيَ وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٤] وفي هذه السورة ذكر أحوال الأمم التي كذبت الرسل وما عوقبوا به، للعظة والزجر والعبرة للمعاصرين.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كغيرها من السور المكية التي عنيت بأصول العقيدة، وتحدثت عن أهوال القيامة، وصدق الوحي، وكون القرآن كلام الله، وتبرئة الرسول ﷺ من افتراءات الكفار واتهامات الضالين.

بدأت بتفخيم شأن القيامة وتعظيم هولها، وتكذيب الأقوام السابقة بها، مثل نوح، وعاد، وقوم لوط، وفرعون وأتباعه، وقوم نوح، وإهلاكهم بسبب تكذيبهم بها وتكذيب رسلهم، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿أُذُنٌ وَعَيْةٌ﴾.

ثم وصفت وقائع عذاب الآخرة جزاء على إنكاره في الدنيا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفَخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) إلى ﴿لَا تَخَفَنَ مِنْكَ خَافِيَةٌ﴾.

وأردفت ذلك ببيان حال السعداء والأشقياء يوم القيامة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِسَيِّئِهِمْ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾ (١٤) ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِسَيِّئِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (١٧).

ثم أقسم رب العزة قسماً بليغاً على صدق الوحي والقرآن وأنه كلام الله المنزل على قلب رسوله ﷺ، وأنه ليس بقول شاعر ولا كاهن: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ﴾ (٢٨) إلى قوله: ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢).

وختمت السورة ببيان البرهان القاطع على صدق الرسول ﷺ وأمانته في تبليغ الوحي، وأن القرآن تذكرة وعظة وخبر حق لا مرية فيه، ورحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَتَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَابِلِ﴾ (٤٤) إلخ السورة.

تعظيم يوم القيامة وإهلاك الكاذبين به

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعِدِ الْفَارِعَةِ ٤﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَمْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَالِيَةٍ ٦﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ٧﴿ كَأَنَّهُمْ أَغْجَارُ نَضَلٍ خَاوِيَةٍ ٨﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٩﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ١٠﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ ١١﴿ فَخَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١٢﴿ إِنَّا لَنَّا طَعَا أَلْمَاءُ ١٣﴿ حَمَلْنَاهُ فِي الْغَارِيَةِ ١٤﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أُنْثَىٰ وَغِيَّةٌ ١٥﴾

القرءات:

﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾:

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (وَمَنْ قَبْلَهُ).

﴿أُنْثَىٰ﴾:

وقرأ نافع (أُنْثَى).

الإعراب:

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ الأولى: مبتدأ، و﴿مَا﴾ استفهامية، مبتدأ ثان، و﴿الْحَاقَّةُ﴾ الثانية: خبر المبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره: خبر عن المبتدأ الأول. وقوله ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ الأصل: الحاققة ما هي؟ أي شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع المضمرة للتخيم والتعظيم، فهو أهول لها. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ استفهامية مبتدأ، و﴿مَا﴾ الثانية: مبتدأ ثان، و﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ خبره، والمبتدأ الثاني وخبره في موضع نصب بـ ﴿أَدْرَاكَ﴾. و﴿أَدْرَاكَ﴾ والجملة المتصلة به: في موضع

رفع على أنه خبر المبتدأ الأول. و﴿أَذْرَكَ﴾ يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول: الكاف، والجملة بعده في موضع المفعول الثاني. ولم يعمل ﴿أَذْرَكَ﴾ في ﴿مَا﴾ الثانية؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

﴿بِالطَّاعِيَةِ﴾ إما مصدر كالعاقبة والعافية، وإما صفة لموصوف محذوف تقديره: بالصيحة الطاغية، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ استئناف أو صفة جيء به لنفي توهم كون الأمور طبيعية.

﴿سَبَّحَ لِلَّيَالِ وَتَمَنَّى أَنْيَامٍ حُسُومًا﴾ حذفت تاء التأنيث من ﴿سَبَّحَ﴾ وأثبتت في ﴿وَتَمَنَّى﴾ لأن الليالي جمع مؤنث والأيام جمع مذكر، و﴿حُسُومًا﴾: إما منصوب على الوصف لقوله: ﴿أَنْيَامٍ﴾ أو منصوب على المصدر، أي تباعاً. و﴿صَرَعْنِ﴾ حال من ﴿الْقَوْمَ﴾ لأن ﴿فَرَعْنَ﴾ من رؤية البصر، و﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾: في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿صَرَعْنِ﴾. وتقديره: مشبهين أعجاز نخل، و﴿خَاوِيَةً﴾: صفة لنخل، وقال ﴿خَاوِيَةً﴾ بالتأنيث؛ لأن النخل يجوز فيه التأنيث والتذكير مثل ﴿نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ يقرأ بالإدغام، لقرب التاء من مخرج اللام.

البلاغة:

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْخَاقَةُ ٢﴾ إطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم.

﴿كَذَبَتْ نُمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٣﴾ ثم قال: ﴿فَأَمَّا نُمُودٌ ٤﴾ وَأَمَّا عَادٌ ٥﴾ تفصيل بعد إجمال، وفيه لف ونشر مرتب.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تشبيه مرسل مجمل، فيه الأداة، وحذف وجه الشبه.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ استعارة، شبه ارتفاع الماء بطغيان الإنسان على الإنسان.

المفردات اللغوية:

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ أي الساعة الثابتة المحيية، الواجبة الوقوع، وهي القيامة، التي يحق، أي يثبت ويجب حدوثها وما اشتملت عليه من البعث والحساب والجزاء الذي أنكره المنكرون. ﴿مَا الْحَاقَّةُ ٢﴾ أي أي شيء هي؟ وضع الظاهر فيها موضع الضمير، تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ أي وأي شيء أعلمك ما هي؟ أي إنك لا تعلم كنهها، فإنها أعظم من أن يدري بها أحد، والجملة زيادة تعظيم لشأنها.

﴿يَالْقَارِعَةِ﴾ القيامة التي تفرع القلوب بالإفزع، وتمز النفوس بأهوالها، المواد بالانفطار والانتشار، وإنما وضعت موضع ضمير ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ زيادة في وصف شدتها.

﴿بِالْطَّائِفَةِ﴾ الواقعة التي جاوزت الحد في الشدة والقوة، وهي الصيحة أو الرجفة، أي الصاعقة، وسبب إهلاكهم: تكذيبهم بالقارعة، وطغيانهم بالكفر والمعاصي. ﴿يَبْرِجُ صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت والبرد، من الصَّرَّة أي الصيحة، أو من الصَّر أي البرد الذي يضرب النبات والحرج. ﴿عَايَتٍ﴾ شديدة القوة والعصف. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَلْطَهَا عَلَيْهِمْ بِقُدْرَتِهِ﴾. ﴿سَعَّ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ قال المحلى: أولها من صبح الأربعاء لثمان بقين من شوال، وكانت في عجز الشتاء وهي أيام العجوز أو العجائز، سميت عجوزاً؛ لأنها عجز للشتاء. ﴿حُسُومًا﴾ متابعات، أو من الحسم: وهو القطع والاستئصال.

﴿فَرَى الْقَوْمَ﴾ إن كنت حاضراً في مهابها أو في الليالي والأيام. ﴿صَرَخِي﴾ موقى مطروحين هالكين، جمع صريع. ﴿أَعْبَاجُ نَخْلٍ﴾ أصول نخل. ﴿حَاوِيَةٍ﴾ ساقطة فارغة. ﴿مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي من نفس باقية. أو بقاء، أو بقية،

أو باق، والتاء للمبالغة. ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ من تقدمه من الأمم الكافرة، وقرئ: (ومن قبله) أي أتباعه وجنوده. ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ المتقلبات وهي قرى قوم لوط، والمراد: أهلها. ﴿بِالْحَاطِطَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفعل ذات الخطأ. ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ عصت كل أمة رسولها. ﴿رَأَيْتُ﴾ زائدة في الشدة، زيادة أعمالهم في القبح، من ربا الشيء: زاد.

﴿طَغَا أَلْمَاءُ﴾ جاوز حدّه المعتاد، وارتفع وعلا فوق كل شيء من الجبال وغيرها زمن الطوفان. ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم. ﴿لِلْبَارِيَةِ﴾ السفينة التي تجري في الماء، وهي التي صنعها نوح عليه السلام بإلهام الله وتعليمه، ونجا بها هو ومن كان معه مؤمناً، وغرق الآخرون. ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُورًا﴾ لنجعل الفعل، وهي إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين. ﴿نَذْكُرُ﴾ عظة. ﴿وَنَعِيهَا﴾ وتحفظها. ﴿أُذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ حافظة لما تسمع، أي من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه لتذكره وإشاعته والتفكير فيه والعمل بموجبه. وتنكير كلمة ﴿أُذُنٌ﴾ للدلالة على قلتها.

التفسير والبيان:

افتتح الله سورة الحاقة بما يدل على تعظيم شأنها، وتضخيم أمرها، وتهويل يومها فقال:

﴿الْحَاقَّةُ﴾ ① ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ② ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ③ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ④ هي القيامة، سميت بذلك؛ لأن الأمور تُحَقُّ فيها، وثبت وتقع من غير شك ولا ريب، و﴿الْحَاقَّةُ﴾ ⑤ يوم الحق؛ لأنها تظهر فيها الحقائق.

والمعنى: القيامة التي يتحقق فيها الوعد والوعيد، والساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المحيية، أي شيء هي في حالها وصفاتها؟ فهي عظيمة الشأن، شديدة الهول، لا يدرك حقيقتها ولا يتصور أوصافها غير الله عز وجل. وأي شيء أعلمكم بها أيها النبي الرسول؟ فهي خارجة عن دائرة علم المخلوقين، لعظم شأنها، وشدة هولها.

قال يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء في القرآن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فهو مما لم يعلمه.

وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فإنه لم يخبر به.

ثم ذكر الله تعالى نوع العقاب الذي أوقعه بالأمم السابقة التي كذبت بالقيامة تخويفاً لأهل مكة وغيرهم، فقال:

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۚ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود قوم صالح، وقبيلة عاد قوم هود بالقيامة، وهي القارعة التي تفرع الناس بأهوالها، والمواد بالانفجار والانتشار. ثم فصل الله تعالى أنواع العقاب ونتائجها فقال:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَلَكَوْا بِالطَّاغِيَةِ ۚ﴾ أي فأما جماعة ثمود قوم صالح عليه السلام، فأهلكوا هلاكاً تاماً بالطاغية: وهي الصيحة أو الصاعقة أو الرجفة التي جاوزت الحد في الشدة، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧/١١] أي الصاعقة، وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨/٧، ٩١] أي الزلزلة، فالألفاظ مختلفة، ولكن معانيها واحدة.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَهَلَكَوْا بِرِيحٍ صَرْسَرٍ عَاتِيَةٍ ۚ﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا ۚ وأما قبيلة عاد قوم هود عليه السلام، فأهلكوا هلاكاً ساحقاً بريح شديدة الصوت، شديدة البرد، قاسية شديدة الهبوب، جاوزت الحد لشدة هولها، وطول زمنها وشدة بردها، عنت عليهم بغير رحمة ولا شفقة، وسلطها الله وأرسلها عليهم طوال مدة مستمرة هي سبع ليالٍ وثمانية أيام لا تنقطع ولا تهدأ، وكانت تقتلهم بالحصباء، متتابعات، تحسمهم حسوماً، أي تفنيهم وتذهبهم.

وكانت عادة القرآن تقديم قصة عاد على ثمود، إلا أنه قلب ههنا؛ لأن قصة ثمود بنيت على غاية الاختصار، ومن عادتهم تقديم ما هو أخصر.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (٨) ؟ أي فتشاهد إن كنت حاضراً أولئك القوم في ديارهم أو في تلك الأيام والليالي مصروعين بالأرض موتى، كأنهم أصول نخل ساقطة أو بالية، لم يبق منهم أحد، فهل تحس منهم من أحد من بقاياهم؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥/٤٦] .

وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلَكَتْ عاد بالدَّبُورِ» .

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ (٩) أي وأتى الطاغية فرعون ومن تقدمه من الأمم الكافرة وأهل المنقلبات قرى قوم لوط بالفعللة الخاطئة، وهي الشرك والمعاصي.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ (١٠) أي فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها، فأهلكهم الله ودمرهم، وأخذهم أخذة أليمة شديدة زائدة على عقوبات سائر الكفار والأمم.

ونظير مطلع الآية قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ (١١) [ص: ١٤/٣٨] وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: ١٤/٥٠] ومن كذب برسول فقد كذب الجميع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢) [الشعراء: ١٠٥/٢٦] ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣) [الشعراء: ١٢٣/٢٦] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤) [الشعراء: ١٤١/٢٦] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٥) [الشعراء: ١٦٠/٢٦] .

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعِيًا أُذُنٌ وَعِیَّةٌ ۚ ﴾ (٢٩)
 أي إننا لما تجاوز الماء حده وارتفع بإذن الله، وجاء الطوفان في زمن نوح عليه السلام، حملنا آباءكم المؤمنين وأنتم في أصلابهم، في السفينة التي تجري في الماء، لينجوا من الغرق، ولنجعل نجاة المؤمنين، وإغراق الكافرين عبرة وعظة، تستدلون بها على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه، وشدة انتقامه، ولتفهمها وتحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت. فقوله: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعِيًا ۚ ﴾ عائد إلى الواقعة المعلومة وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن مكحول مرسلًا قال: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿ وَنَعِيًا أُذُنٌ وَعِیَّةٌ ۚ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي أن يجعلها أذن علي» قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط، فنسيته. وأما خبر بريدة في أن الآية نزلت بسبب علي رضي الله عنه فهو غير صحيح.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

أ - تفخيم شأن القيامة، وتعظيم أمرها، والتخويف من أهوالها، ولا شك أنها تفرع الناس بالأفزع والأهوال، والسماء بالانشقاق، والأرض بالدك، والنجوم بالطمس إلى غير ذلك.

أ - وجوب الاتعاظ والاعتبار بمصير الأمم السابقة التي كذبت رسلها، وقد ذكرت الآيات هنا ثلاث قصص: قصة عاد وثمود الذين كذبوا بالقارعة وهي القيامة التي تفرع الناس بأهوالها، وقصة فرعون ومن تقدمه وقوم لوط، وقصة نوح عليه السلام مع قومه.

أما ثمود فأهلكوا بالصيحة الطاغية، أي المجاوزة للحد، حد الصيحات من

الهلول، وأما ثمود فأهلكوا بريح باردة تحرق ببردها كإحراق النار، شديدة الهبوب، غضبت لغضب الله عز وجل، أرسلها وسلطها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابة، لا تفتّر ولا تنقطع، فصار القوم في تلك الليالي والأيام موقّ هالكين، كأصول نخل بالية متأكلة الأجواف لا شيء فيها.

وأما فرعون وجنوده فأهلكوا بالإغراق في البحر، وأما المؤتفكات أهل قرى لوط، فدمروا بالريح التي ترميهم بالحصباء تدميراً شاملاً بعقوبة زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار، كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار، وهي الكفر والفواحش.

وأما قوم نوح فأغرقوا بالطوفان، ونجّى الله نوحاً ومن آمن معه بركوبهم في السفينة التي صنعها نوح بإلهام من الله تعالى، ليجعل الله ذلك تذكرة وعظة لهذه الأمة، وتحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله.

بعض أهوال القيامة

﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ۝١٥ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۖ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۖ ۝١٨﴾

القراءات:

﴿لَا تَخْفَى﴾:

وقراً حمزة، والكسائي (لا يخفى).

الإعراب:

﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ نائب فاعل، ووصفت ﴿نَفْخَةٌ﴾ بـ ﴿وَاحِدَةٌ﴾ وإن كانت

النفخة لا تكون إلا واحدة، على سبيل التأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١/١٦] وإن كان الإلهان لا يكونان إلا اثنين للتأكيد. وجاء تذكير ﴿تُفَخَّ﴾ لأن تأنيث النفخة غير حقيقي.

﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٥﴾ يومئذ: ظرف منصوب متعلق بـ ﴿وَقَعَتِ﴾، وكذلك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثانية يتعلق بـ ﴿وَاهِيَةً﴾ وكذلك يومئذ في ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ يتعلق بـ ﴿تُعْرَضُونَ﴾.

البلاغة:

﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ بينهما جناس اشتقاق، وكذلك مثله ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

للفردات اللغوية:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ١٣﴾ هي النفخة الأولى التي عندها خراب العالم، والصور: البوق. ﴿وُحِّلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعت من أماكنها. ﴿فَذُكِّنَا ذِكْرًا وَاحِدًا﴾ دقنا وضرب بعضها ببعض، فصارت أرضاً مستوية لا عوج فيها، وكتلة واحدة. والدك والدق متقاربان في المعنى، غير أن الدك أبلغ. ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٥﴾ أي فحيثما قامت القيامة، والواقعة: النازلة. ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ تصدعت وتشققت وتبددت. ﴿وَاهِيَةً﴾ مختلة ضعيفة مسترخية لا تماسك بين أجزائها.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الملائكة، فالمراد به الجنس. ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ جوانب السماء وأطرافها، جمع رجا أي جانب. ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء. ﴿ثَمَانِيَةَ أَمْلاكٍ﴾ ثمانية أملاك. ﴿تُعْرَضُونَ﴾ للحساب. ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا تخفى سريرة من السرائر.

المناسبة:

بعد أن بالغ الله تعالى في تهويل القيامة، وذكر القصص الثلاث لبيان مآل

المكذبين بها، تفخيماً لشأنها، وتنبيهاً على إمكانها، شرع سبحانه في بيان تفاصيل أحوال القيامة وأهوالها، وابتدأ بمقدماتها.

التفسير والبيان:

﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ﴾ أي فإذا نفخ إسرافيل النفخة الأولى التي يكون عندها خراب العالم. وهذا إخبار عن أهوال يوم القيامة.

﴿وُجِّلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكُّنَا ذَكَّةً وَاحِدَةً ۚ﴾ أي رفعت من أماكنها، وأزيلت من مواقعها بالقدرة الإلهية، فضرِب بعضها ببعض ضربة واحدة، حتى صارت كتلة واحدة، ورجعت كثيباً مهيلًا منشوراً، وتبددت وتغيرت عما هو معروف، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ بُدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۚ﴾ [إبراهيم: ٤٨/١٤]. والدك أبلغ من الدق.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ﴾ فحيث قامت القيامة، ووقعت النازلة.

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍ ۚ﴾ أي وتصدعت السماء، فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية غير متماسكة الأجزاء بعد أن كانت قوية محكمة البناء.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۚ﴾ أي وتكون الملائكة على جوانب السماء وحافاتهما على أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يأمرهم به الله عز وجل، ويحمل عرش ربك فوق رؤوس الملائكة الذين هم على الأرجاء ثمانية أملاك، وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل. والعرش: أعظم المخلوقات. وحل العرش مجاز؛ لأن حل الإله محال، فلا بد من التأويل، وهو أنه تعالى خاطبهم بما يتعارفون، وعلى سبيل الرمز، كإيجاد البيت (الكعبة) وجعل الحفظة على العباد، لا للسكنى في البيت، ولا بسبب احتمال النسيان.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (١٨) أي في ذلك اليوم يعرض العباد على الله لحسابهم، فلا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم وأقوالكم وأفعالكم وأموركم خافية كائنة ما كانت، فهو يعلم السر وأخفى، ويعلم بالظواهر والسرائر والضمائر، وتعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلاً، ليكتمل سرور المؤمنين ويعظم توبيخ المذنبين.

والعرض: عبارة عن المحاسبة والمساءلة، شبه ذلك بعرض السلطان العسكر، لتعرف أحواله، وقد صور الله تعالى تلك الصورة المهيبة، لا لأنه يقعد على السرير.

وفي هذا تهديد شديد، ووعد وزجر أكيد، وإخبار بخطورة الحساب العسير.

روى ابن أبي الدنيا عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾» (١٨).

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عَرْضَات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تَطَيَّرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي، فَأَخَذُ بِيَمِينِهِ، وَأَخَذُ بِشِمَالِهِ» لكن الترمذي رواه عن أبي هريرة. ورواه ابن جرير أيضاً عن عبد الله بن مسعود.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيات على ما يأتي:

أ - من مقدمات القيامة: نفخة إسرافيل في الصور (البوق). والمراد النفخة

الأولى، قال ابن عباس: هي النفخة الأولى لقيام الساعة، فلم يبق أحد إلا مات.

٢ - من أهوال القيامة ومخاوفها: صيرورة الأرض والجبال كالجملة الواحدة متفتتة متكسرة إما بقدرة الله من غير وساطة، وإما بالزلزلة التي تكون في القيامة، وإما بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو بملك من الملائكة.

٣ - بعد النفخة الأولى في الصور وتفتت الأرض والجبال تقوم القيامة، وتتصدع السماء وتفتطر، وتصبح ضعيفة واهية غير متماسكة الأجزاء، إيذاناً بزوالها وتبدلها وخرابها، بعدما كانت محكمة شديدة.

٤ - تكون الملائكة حين انشقاق السماء على أطرافها، بعد أن كانت السماء مكانهم، فإذا انشقت صاروا في أطرافها، ينتظرون ما يؤمرون به في أهل النار من السُّوق إليها، وفي أهل الجنة من التحية والكرامة.

٥ - يكون فوق أولئك الملائكة ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله يحملون العرش الذي أراده الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧/٤٠] وقوله: ﴿وَرَبَّى الْمَلَائِكَةَ حَافِئِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٣٩/٧٥]. ذكر الثعلبي عن النبي ﷺ: «أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين، فكانوا ثمانية». وخرجه الماوردي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحملة اليوم أربعة، وهم يوم القيامة ثمانية».

٦ - في يوم القيامة الرهيب يعرض العباد على الله للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨/١٨] وليس ذلك عرضاً يعلم به ما لم يكن عالماً به، بل معناه الحساب وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة، فلا يخفى على الله من أمورهم شيء، فالله عالم بكل شيء من الأعمال. وكل من

الحمل والعرض لا يعني التجسيم والتشبيه بال مخلوقات، وإنما للتصوير والرمز والتقريب إلى الأذهان.

حال الأبرار الناجين بعد الحساب

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ بِبَيِّنَةٍ، فَقَوْلٌ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ۖ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

الإعراب:

﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا، و﴿كِتَابَهُ﴾: مفعول منصوب لـ ﴿أَقْرَأُوا﴾ وفيه دليل على إعمال الفعل الثاني، ولو أعمل الأول لقال: «أقرووه» ففيه تنازع بين ﴿هَؤُلَاءِ﴾ و﴿أَقْرَأُوا﴾.

﴿هَنِيئًا﴾ حال، أي متهنين.

﴿كُلُوا﴾ إنما جمع الخطاب في ﴿كُلُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ لقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ﴾ و﴿مَنْ﴾ مضمّن معنى الجمع.

البلاغة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِبَيِّنَةٍ، فَقَوْلٌ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ۖ ﴿١٩﴾﴾ مقابلة مع ما بعده: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِبَيِّنَةٍ﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، ويسمى في علم البديع السجع المرصع.

الفردات اللغوية:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْكَّ كَتَبَهُ﴾ تفصيل للعرض على الله . ﴿فَيَقُولُ﴾ تفاخراً .
 ﴿هَآؤُمْ﴾ خذوا . ﴿ظَنَنْتُ﴾ تيقنت أو علمت . ﴿مُلَّتِي﴾ معاين . ﴿رَاضِيَةً﴾ ذات
 رضا ، يرضى بها أصحابها . ﴿عَالِيَةً﴾ مرتفعة المكان والدرجات . ﴿قُطُوفُهَا﴾
 ثمارها ، أي ما يجتنى من الثمر ، جمع قُطْف : وهو ما يجتنى بسرعة ، والقُطْف
 بالفتح : المصدر . ﴿دَائِيَةً﴾ قريبة ، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع .

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي يقال لهم : أكلًا وشرابًا هنيئًا ، أو هنتم هنيئًا ، أو
 متهنتين . ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضية في الدنيا .

المناسبة:

بعد الإخبار بأن جميع العباد يعرضون على الله للحساب والجزاء دون أن
 يخفى عليه شيء من أمورهم ، أخذ في تفصيل عرض الكتب ، ومردودها على
 أصحابها ، مبتدئاً بأهل اليمين ، ثم بأهل الشمال .

التفسير والبيان:

ينجز الله تعالى عن سعادة من يؤتي كتابه يمينه يوم القيامة وفرحه بذلك ،
 فقال :

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْكَّ كَتَبَهُ يَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ﴾ (١) أي فأما من
 أعطي كتابه الذي كتبه الحفظة عليه من أعماله يمينه ، فيقول من شدة فرحه
 وابتهاجه لكل من لقيه : خذوا هذا الكتاب فاقرؤوا ما فيه ، لعلمه أنه صار من
 الناجين ، بعد أن كان خائفاً مضطرباً شأن أهل المحشر ، كما قال تعالى :

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِي﴾ أي غلب على ظني أنني ألاقى حسابي ،
 فيؤاخذني الله بسيئاتي ، ولكنه تعالى تفضل علي بالعفو ، ولم يؤاخذني بها .

(١) أما : حرف تفصيل ، فصل بها ما وقع في يوم العرض .

والمعنى عند أكثر المفسرين: علمت وأيقنت في الدنيا أني أحاسب في الآخرة، وأن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦/٢]. قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك. وقال مجاهد: ظن الآخرة يقين، وظن الدنيا شك.

قال الزمخشري: وإنما أجري الظن مجرى العلم (اليقين) لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام، يقال: أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت.

ويؤيد المعنى الأول للآية ما ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُذْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقْرُؤُهُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨/١١].

ثم أبان الله تعالى مصير المؤمن التقي البار أو عاقبة أمره، فقال:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي فهو في عيشة مرضية خالية من المكدرات، غير مكروهة، في جنة مرتفعة المكان، رفيعة القدر، عالية المنازل، نعيمة الدور، دائمة الحبور، ثمارها قريبة تناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

روى الطبراني عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان: أدخلوه جنة عالية، قطوفها دانية». ورواه الضياء بلفظ: «يعطى المؤمن جوازاً على الصراط: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان: أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية».

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ﴾ (٢٤) أي ويقال لهم: كلوا يا أيها المتقون الأبرار في الجنة من طيباتها وثمارها، واشربوا من أشربتها أكلاً وشرباً هنيئاً، أي لا تكدير فيه ولا تنغيص، جزاء لما عملتم، وبسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا.

وهذا تفضل من الله عليهم وامتنان وإنعام وإحسان؛ لما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفَضْلٍ».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة، فيقول المؤمن الناجي ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته لكل من يلقاه من جماعته: هلموا وخذوا واقروا كتابي هذا، إني ظننت أن يؤاخذني الله بسيئاتي ويعذبني، ولكنه تفضل علي بعفوه ولم يؤاخذني بها. وقال ابن عباس وغيره عن قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ أي أيقنت وعلمت أنني ملاقٍ حسابي في الآخرة، ولم أنكر البعث، يعني أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب؛ لأنه تيقن أن الله يحاسبه، فعمل للآخرة. ذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: أول من يُعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب، وله شعاع كشعاع الشمس، قيل له: فأين أبو بكر؟ فقال: هيهات هيهات!! زفتة الملائكة إلى الجنة.

٢ - يكون الناجي في عيش يرضاه لا مكروه فيه، أو في عيشة مرضية، في جنة عالية، أي عظيمة في النفوس، ثمارها قريبة التناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع.

جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «أنهم يعيشون، فلا يموتون أبداً، ويصحبون فلا يمرضون أبداً، ويتنعمون فلا يرون بأساً أبداً، ويشربون فلا يهرمون أبداً» .

٣ - يقال للناجين من قبل ربهم، أو بوساطة الملائكة خزنة الجنة: كلوا واشربوا في الجنة أكلاً وشرباً هنيئاً لا تكدير فيه ولا تنغيص، بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة.

والآيات تعم جميع أهل السعادة، كما أن الآيات التالية تعم جميع أهل الشقاوة.

حال الأشقياء يوم القيامة

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بِإِيمَانِهِ فَيَقُولُ يَلْبِثُنِي لَوْ أَوْتِ كَيْفَ ۖ ﴿٢٥﴾ وَلَوْ أَدْرِي مَا حِسَابِي ۖ يَلْبِثُنَا كَأَنِ الْفَارِصَةِ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي ۖ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ ۖ فَنُلَوُّهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَنَحْجِمْ صَلْوَهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزُكُّونَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَخَافُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَلِيطُونَ ﴿٣٧﴾﴾

الإعراب:

﴿يَلْبِثُنِي﴾ يا: للتنبيه. ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ﴾ ﴿مَا﴾ إما استفهامية على سبيل الإنكار في موضع نصب؛ لأنها مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾. ﴿مَالِي ۖ﴾ فاعله، وتقديره: أي شيء أغنى عني ماليه؟ أو أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويكون مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوفاً، وتقديره: ما أغنى ماليه شيئاً، فحذفه. والهاء في ﴿مَالِي ۖ﴾ للسكت، وإنما أدخلت صيانة للحركة عن الحذف، وثبتت وفقاً ووصلاً اتباعاً لمصحف الإمام والنقل المتواتر.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنًا حَمِيمٌ﴾ (٢٥) ﴿حَمِيمٌ﴾ اسم ليس، وخبرها الجار والمجرور، وهو ﴿لَهُ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿الْيَوْمَ﴾ هو الخبر؛ لأن ﴿حَمِيمٌ﴾ جثة، واليوم ظرف زمان، وظروف الزمان لا تكون أخباراً عن الجثث، وإنما تدل على وجود حدث بعدها.

البلاغة:

﴿حُدُوهُ فَعْلُوهُ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ لَجَّيْمٌ صَلَوُهُ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٢٢) توافق الفواصل، مراعاة لرؤوس الآيات، ويسمى في علم البديع كما تقدم السجع المرصع.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كَيْبُهُ بِسَالِهِ فَيَقُولُ﴾ يقول لما يرى من قبح العمل وسوء العاقبة. ﴿يَلَيْتَهَا﴾ يا ليت المنة التي متها في الدنيا. ﴿كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمري وحياتي، فلم أبعث بعدها. ﴿مَالِيَّةٌ﴾ مالي من المال. ﴿سُلْطَانِيَّةٌ﴾ حجتني التي كنت أحتج بها في الدنيا، أو ملكي وسلطاني على الناس.

﴿حُدُوهُ﴾ خطاب لحزنة جهنم. ﴿فَعْلُوهُ﴾ شدوه في الأغلال، واجمعوا يديه إلى عنقه في الغلّ: وهو ما يكبل به الأسير أو المتهم من القيود والسلاسل. ﴿الْجَّيْمُ﴾ النار المحرقة. ﴿صَلَوُهُ﴾ أدخلوه وأوردوه إياها، يصلى نارها ويحترق بها. ﴿ذَرْعُهَا﴾ طولها. ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ المراد أنها سلسلة طويلة، والمراد ذراع الملك. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أدخلوه فيها بعد إدخاله في النار، بأن تلقوها على جسده كيلا يتحرك فيها. وتقدير الجحيم والسلسلة للدلالة على التخصيص، والاهتمام بذكر أنواع ما يعذب به، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بينهما في الشدة.

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٣) تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة، وذكر صفة ﴿الْعَظِيمِ﴾ للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة، فيجب

الإيمان به. ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ لا يبحث على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله. ﴿حِمِّمْ﴾ قريب مشفق يحميه أو صديق يتفجع به. ﴿غَسِّلِينَ﴾ صديد أهل النار وما يسيل منهم من قيح أو دم. ﴿الْحَاطُونَ﴾ الآثمون، أصحاب الخطايا، من خطئ الرجل: إذا تعمد الذنب، لا من الخطأ المضاد للصواب.

المناسبة:

بعد بيان حال السعداء في معاشهم وسكناهم في الجنة، بين الله تعالى للموازنة والمقارنة والعبرة حال الأشقياء الكفار في الآخرة، وتعرضهم لألوان العذاب في نار جهنم، مع بيان سبب ذلك: وهو عدم الإيمان بالله العظيم، والإعراض عن مساعدة المساكين البائسين.

التفسير والبيان:

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ شِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلِّتَنِي لِمَ أُوْتِ كِتَابِي﴾ أي وأما الشقي الذي يعطى كتابه بشماله أو من وراء ظهره، فيقول حزناً وكرهاً، وألماً وندماً لما رأى فيه من سيئاته وقبيح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي. وهذا دليل على وجود العذاب النفسي قبل العذاب الجسدي.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي﴾ يَلِّتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٦﴾ أي ولم أعلم أي شيء حسابي الذي أحاسب به؛ لأن كله وبال علي، ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاطعة نهاية الحياة، ولم أخفي بعدها، فهو يتمنى دوام الموت وعدم البعث، لما شاهد من سوء عمله، وما يصير إليه من العذاب. قال قتادة: تمئى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه. ونظير الآية: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلِّتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠/٧٨].

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٧﴾ أي ما أفادني مالي شيئاً،

ولم يدفع عني شيئاً من عذاب الله، وفقدت حجتِي، وذهب منصبي وجاهي ومُلْكِي، فلم يدفع عني العذاب، بل خلص الأمر إلي وحدي، فلا معين لي ولا مجير. قال أبو حيان: الراجح قول ابن عباس ومن ذكر معه أن السلطان هنا هو الحجة التي كان يحتج بها في الدنيا؛ لأن من أوتي كتابه بشماله ليس مختصاً بالملوك، بل هو عام في جميع أهل الشقاوة^(١). وحينئذ يقول الله عز وجل مبيناً مصيره وعاقبة أمره:

﴿حُدُوهُ فَعَلُوهُ ۖ ثُمَّ لَنَقْبِرَ صُلُوبَهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۚ﴾ أي يأمر الله الزبانية قائلًا: خذوه مكبلاً بالقيود والأغلال، بجمع يده إلى عنقه في العُلَّ، ثم أدخلوه الجحيم ليصل حرّها، ثم أدخلوه في سلسلة (حَلَقٌ مُنْتَظِمَةٌ) طولها سبعون ذراعاً تلفٌ على جسمه، لئلا يتحرك.

ثم بيّن الله تعالى سبب وعيده الشديد وعذابه قائلًا:

﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ﴾ أي إنه كان كافراً جاحداً لا يصدق بالله صاحب العظمة والسلطان، ولا يبحث على إطعام الفقير والمسكين البائس، فضلاً عن عدم بذله المال للبائسين، والمعنى أنه لا يؤدي حقوق الله من توحيده وعبادته وعدم الشرك به، ولا يؤدي حقوق العباد من الإحسان والمعاونة على البر والتقوى. وفي ذكر الحض دون الفعل تشنيع، يفيد أن تارك الحض كتارك الفعل. وفي الآية دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

والعذاب متعين لازم له، كما قال تعالى:

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِمِيمٌ ۚ﴾ أي ليس له يوم القيامة قريب ينفعه، أو صديق يشفع له، أو ينقذه من عذاب الله تعالى، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَا

(١) البحر المحيط: ٣٢٥/٨ وما بعدها.

لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ [غافر: ٤٠/١٨]. وقوله: ﴿هَٰهُنَا﴾ إشارة إلى مكان عذابهم.

وطعامه ما وصف تعالى:

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ﴾ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ أي وليس له طعام إلا ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ودم وقيح، لا يأكله إلا أصحاب الخطايا والذنوب. قال قتادة عن الغسلين: هو شر طعام أهل النار. والطعام: اسم بمعنى الإطعام، كالعطاء اسم بمعنى الإعطاء.

فقه الحياة لو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - إذا كان المؤمن يفاخر بكتابه ابتهاجاً وفرحاً، فإن الكافر الشقي يتمنى الموت، ويكره البعث والعودة إلى الحياة مرة أخرى، قال القفال: تمنى الموت حين رأى من الخجل وسوء المنقلب ما هو أشد وأشنع من الموت.

ب - ذكر الله تعالى سرور السعداء أولاً، ثم ذكر أحوالهم في العيش الطيب وفي الأكل والشرب، ثم ذكر هنا غم الأشقياء وحزنهم، ثم ذكر أحوالهم حينما يزج بهم في نار جهنم في الغلّ والقيد، وتناول طعام الغسلين، والتصلية^(١) في الجحيم (وهي النار العظمى) وإدخاله في سلسلة طولها سبعون ذراعاً بذراع الملك.

ج - سبب الظفر بالجنة للمؤمنين السعداء الإيمان والأعمال الصالحة في الدنيا، وسبب العذاب والوعيد الشديد للأشقياء: هو عدم الإيمان بالله العظيم وعدم بذل المال للمساكين.

(١) قال المبرد: أصله النار: إذا أوردته إياها، وصلّيته أيضاً، كما يقال: أكرمه وكرّمته.

٤ - دلت آية ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٢٤) على أن الكفار يعاقبون على ترك الصلاة والزكاة. وهو المراد من قول جمهور الأصوليين: إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة. عن أبي الدرداء: أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع النصف الباقي!

٥ - ليس للشقي في الآخرة حميم، أي قريب يدفع عنه العذاب، ويحزن عليه؛ لأنهم يتحامون ويفرون منه، كقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (المعارج: ١٠/٧٠) وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ٤٠/١٨].

٦ - طعام أهل النار الخاطئين (المذنبين): الغسلين: وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم وفروجهم، قال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه، وفي آية أخرى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (الغاشية: ٦/٨٨) والضريع: شيء في النار كالشوك مَرْمَتَن.

تعظيم القرآن وإثبات نزوله بالوحي

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٢٩) إِنَّمَا لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٣٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٣١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٣٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٣) وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٣٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٣٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ (٣٧) وَإِنَّكُمْ لَتَذْكُرُونَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٣٩) وَإِنَّكُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٤٠) وَإِنَّكُمْ لِحَقُّ الْيَقِينِ (٤١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)﴾

القراءات:

﴿تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿تَذْكُرُونَ﴾: قرئ:

١- (يؤمنون، يذكرون) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر، بخلف عن ابن ذكوان.

٢- (تؤمنون، تذكرون) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

٣- (تؤمنون، تذكرون) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ صفة للمفعول المطلق لـ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أي تصدقون تصديقاً قليلاً، و﴿مَّا﴾ مزيدة للتأكيد.

﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو تنزيل. ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ في موضع رفع، لأنه اسم ﴿فَمَا﴾ لأن ﴿مِّنْ﴾ زائدة لتأكيد النفي، و﴿مِنْكُمْ﴾ حال ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾، و﴿حَاجِزِينَ﴾ خبر ﴿فَمَا﴾. و﴿عَنْهُ﴾ في موضع نصب لأنه يتعلق بـ ﴿حَاجِزِينَ﴾ التقدير: فما منكم أحد حاجز عن الله. وجمع ﴿حَاجِزِينَ﴾ وإن كان وصفاً لـ ﴿أَحَدٍ﴾ لأنه في معنى الجمع، فجمع حلاً على المعنى، فإنه عام والخطاب للناس، ولأن أحداً في سياق النفي بمعنى الجمع، مثل ﴿لَا تَفَرَّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥/٢]. ولم يُبطل ﴿مِنْكُمْ﴾ عمل ﴿فَمَا﴾ لأن الفصل بالجار والمجرور والظرف لا يؤثر.

البلاغة:

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لا حاجة للقسم لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم،

أو إن المراد بهذه الصيغة القسم، أي فأقسم، وهو مستأنف، ولا: زائدة. ﴿يَمَا تُبْصِرُونَ﴾ من المشاهدات والمخلوقات. ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢٩) أي بما غاب عنكم، فهذا قسم بالمشاهدات والمغيبات، وذلك يتناول الخالق والمخلوقات بأسرها.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي القرآن. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي لقول جبرائيل أو محمد عليهما السلام، رسول كريم على الله، يبلغه عن الله تعالى، فإن الرسول لا يقول عن نفسه، والمراد به هنا النبي ﷺ في قول الأكثرين. وأما المراد به في سورة التكوين فهو جبريل عليه السلام في قول الأكثرين. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ﴾ كما يزعمون؛ لأن الرسول ليس بشاعر. ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ كما يزعمون تارة أخرى، والكاهن: من يدعي معرفة الغيب. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي تصدقون تصديقاً قليلاً، والقلة بمعناها الظاهر، وحمل الزمخشري القلة على العدم والنفي، أي لا تؤمنون البتة، وقال أبو حيان: لا يراد بـ ﴿قَلِيلًا﴾ هنا النفي المحض كما زعم الزمخشري، فإن هذا لا يكون في حال النصب، وإنما في حال الرفع ﴿مَا نَذْكُرُونَ﴾ تذكرون، و﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد.

والخلاصة: أنهم آمنوا بأشياء يسيرة، وتذكروها، مما أتى به النبي ﷺ من الخير والصلة والعفاف، فلم تغن عنهم شيئاً.

﴿نَزِيلٌ﴾ بل هو تنزيل. ﴿لَقَوْلٍ﴾ أي النبي، سمي الافتراء تقولاً؛ لأنه قول متكلف، والأقوال المفتراة أقاويل، تحقيراً بها. ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) لنلنا منه عقاباً بالقوة والقدرة. ﴿الْوَيْتَيْنِ﴾ نياط القلب، وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه. ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ أي لا أحد عن القتل أو عن النبي. ﴿حَاجِزِينَ﴾ مانعين أو دافعين، والمراد: لا مانع لنا عنه من حيث العقاب.

﴿وَإِنَّهُ لَنَذْكُرُهُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٤٨) أي وإن القرآن لموعظة لأهل التقوى؛ لأنهم

المنتفعون به. ﴿أَنْ يَنْكُرَ﴾ أيها الناس. ﴿مُكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن، ومنكم مصدقين. ﴿وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠)، وإن القرآن لحسرة عليهم إذا رأوا ثواب المؤمنين المصدقين به، وعقاب المكذبين به. ﴿وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١) وإن القرآن اليقين الحق الذي لا ريب فيه. ﴿فَسَيَحْكُمُ﴾ نزه الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه، وشكراً على ما أوحى إليك. وباء ﴿يَأْتِمُ﴾ زائدة.

سبب النزول:

نزول الآيات (٣٨ - ٤٠):

﴿فَلَا أُقِيمُ﴾: قال مقاتل: سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ (٣٨) أي أقسم.

المناسبة:

بعد الإخبار عن إمكان القيامة ووقوعها، وبيان أحوال السعداء والأشقياء فيها، ختم الكلام بتعظيم القرآن وإثبات كونه كلام الله تعالى المنزل على قلب رسوله محمد ﷺ.

التفسير والبيان:

﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا بُصِّرُونَ (٣٩) إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ أي أقسم لخلقى بما تشاهدون من المخلوقات الدالة على كمالى فى أسمائى وصفاتى، وبما غاب عنكم من المغيبات، أو أقسم بالأشياء كلها ما يُبَصَّرُ منها وما لا يُبَصَّرُ إن القرآن كلام الله ووحىه وتنزيله على عبده ورسوله الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وإنه لتلاوة رسول كريم، وقول يبلغه رسول كريم، مؤدّى عن الله بطريق الرسالة.

وإنما أضافه إلى الرسول على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل. وفي ذكر (الرسول) إشارة إلى أن هذا القرآن ليس قوله من تلقاء نفسه، وإنما هو قوله المؤدى عن الله بطريق الرسالة. وفي وصفه بالكرم إشارة إلى أمانته، وأنه ليس ممن يغير الرسالة طمعاً في أغراض الدنيا الخسيسة.

والأكثر على أن الرسول الكريم هنا هو محمد ﷺ؛ لأنه ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبرائيل بالشعر والكهانة، وإنما يصفون محمداً ﷺ.

وأما في سورة التكويد فالأكثر على أنه جبرائيل عليه السلام، لأن الأوصاف التي بعده تناسبه، كما سيأتي.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي ليس القرآن بقول شاعر، كما تزعمون؛ لأن محمداً ﷺ ليس بشاعر، ولأن آيات القرآن ليست من أصناف الشعر، وأنتم تؤمنون إيماناً قليلاً، وتصدقون تصديقاً يسيراً. والقلة على ظاهرها وهي إقرارهم إذا سئلوا: من خلقكم؟ قالوا: الله. ويحتمل أن يكون المتصف بالقلة هو الإيمان اللغوي؛ لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً؛ إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف ونحوه الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ هو حق صواب.

وإنما قال عند نفي الشعر عنه: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وعند نفي الكهانة: ﴿قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالبين المحسوس.

أما من حيث اللفظ فظاهر؛ لأن الشعر كلام موزون مقفى؛ وألفاظ القرآن ليست كذلك إلا النادر غير المتعمد. وأما من جهة التخييل فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق والبراهين والدلائل المفيدة للتصديق إذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاند.

وانتفاء الكهانة عنه يحتاج إلى تأمل، فإن كلام الكهان أسجاع لا معاني لها، وأوضاع تنبو عنها الطباع، وأيضاً في القرآن سب الشياطين وذم سيرتهم، والكهان إخوان الشياطين، فكيف رضوا بإظهار قبائحهم^(١).

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَّا نَذْكُرُونَ﴾ (٤٢) أي وليس القرآن بقول كاهن (وهو من يدعي الغيب في المستقبل) كما تزعمون، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين القرآن، ولأن القرآن ورد بسبب الشياطين، فلا يعقل أن يكون بإلهامهم، ولكنكم تذكرون تذكراً قليلاً، ولذلك يلتبس الأمر عليكم، فلا تذكرون كيفية نظم القرآن، واشتماله على شتم الشياطين، فقلتم: إنه كهانة. ثم صرح تعالى بالمقصود، فقال:

﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٣) أي بل هو تنزيل من الله رب الإنس والجن، نزل به جبريل الأمين على قلب رسوله محمد ﷺ، وهو قول هذا الرسول بمعنى أنه مبلغ له عن المرسل، وهو الذي أظهره للخلق، ودعا الناس إلى الإيمان به، وجعله حجة لنبوته.

روى الإمام أحمد عن شريح بن عبيد قال: قال عمر بن الخطاب: «خرجت أنعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَّا نَذْكُرُونَ﴾ (٤٢) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنْجَرِينَ (٤٧)﴾ إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع»، قال ابن كثير: فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) غرائب القرآن للحسن القمي النيسابوري: ٤٢/٢٩

ثم أكد الله تعالى أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يفعل القرآن، فقال:

﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَالِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي ولو افترى محمد أو جبريل شيئاً من الأقوال الباطلة، وجاء به من عند نفسه ونسبه إلى الله على سبيل الفرض، لأخذناه بالقوة، وعاجلناه بالعقوبة، وانتقمنا منه، أو لأخذنا بيمينه، كما يؤخذ الشخص عند إرادة قتله. فاليمين: القوة، كما قال الشماخ:

إذا ما راية رفعت لجد تلقاها عرابة باليمين
﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي ثم بترنا الوتين من قلبه، وهو عرق متصل من القلب بالرأس، إذا انقطع مات صاحبه. وهذا تصوير لإهلاكه بأفطع وأشنع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه.

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويمنعنا منه أو ينقذه منا، فكيف يجروا على تكلف الكذب على الله لأجلكم؟! وجمع: ﴿حَاجِزِينَ﴾ على المعنى؛ لأن قوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة، يقع في النفي العام على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥/٢] وقوله سبحانه: ﴿لَسْتَُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ الْنِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٢]. والمراد لا أحد يمنعنا عن الرسول أو عن القتل.

ثم ذكر الله تعالى أوصافاً ومنافع للقرآن، فقال:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وإن القرآن لعظة وتذكرة لأهل التقوى الذين يخشون عذاب الله بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه، كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢]. وخصَّ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بالذكر؛ لأنهم المنتفعون به. وناسب ذلك أنه تعالى أوعد المكذبين بقوله:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾ أي وإنا لنوقن أن بعضكم يكذب بالقرآن، كفراً وعناداً، ونحن نجازيهم على ذلك، وبعضكم يصدق به لاهتدائه إلى الحق. وفي هذا وعيد شديد للمكذبين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكُفْرِ ۝٥٠﴾ أي وإن هذا القرآن لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة إذا رأوا ثواب المؤمنين وفضل الله عليهم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥١﴾ أي وإن القرآن هو الخبر الصدق واليقين الحق الذي لا شك فيه ولا ريب؛ لكونه من عند الله، وليس من تقول محمد ﷺ.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٢﴾ أي نزه الله الذي أنزل هذا القرآن العظيم عما لا يليق به، بالتسبيح، وهو قول: سبحان الله، وعن الرضا بالتقول عليه، وشكراً لله على ما أوحى به إليك.

واسم الرب: كل لفظ يدل على الذات الأقدس، أو على صفة من صفاته كالله والرحمن الرحيم، وتنزيه الاسم الخاص تنزيه للذات، فتكون الباء في ﴿بِاسْمِ﴾ زائدة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أقسم الله تعالى بالأشياء المخلوقة كلها، ما يراه الناس وما لا يرونه على أن القرآن العظيم من قول الله عز وجل، وليس قول الرسول ﷺ في الحقيقة، لكن نسب القول في الظاهر إلى الرسول؛ لأنه تاليه ومبلغه والعامل به، كقولنا: هذا قول مالك.

٢ - ليس القرآن أيضاً بقول شاعر؛ لأنه مباين لصنوف الشعر كلها، ولا بقول كاهن؛ لأنه ورد بسبب الشياطين وشتهم، فلا يمكن أن يكون ذلك

بالهام الشياطين، إلا أن المشركين المعاندين لا يقصدون الإيمان، فلذلك أعرضوا عن التدبر، ولو قصدوا الإيمان لعلموا كذب قولهم: إنه شاعر؛ لمغايرة تركيب القرآن أنواع الشعر، وهم أيضاً لا يتذكرون كيفية نظم القرآن، واشتماله على شتم الشياطين، فقالوا: إنه نوع من أنواع الكهانة.

٣ - إنما القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين.

٤ - لو فرض جدلاً أن النبي ﷺ تكلف وأق بقل من عند نفسه، لأخذه الله بالقوة والقدرة، وعاقبه بالإهلاك، وتقطع نياط القلب، وحيث لا أحد من القوم على الإطلاق يحجز عنه العذاب ويمنعه عنه.

٥ - مهام القرآن: أنه تذكرة للمتقين الخائفين الذين يخشون الله، وقد أوعده الله على التكذيب به، وتكذيب القرآن سبب حسرة الكافرين في القيامة إذا رأوا ثواب المصدقين به، أو في الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين؛ لأن القرآن العظيم حق يقين لا ريب فيه، وحق لا بطلان فيه.

٦ - أمر الله نبيه بتسبيحه وتزيهه عما لا يليق به شكراً له على الإيحاء إليه، أو على أن عصمه من الافتراء عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَعْلَاجِ

مكية، وهي أربع وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة المعارج؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد إليه الملائكة وجبريل الأمين الذي خصه الله بنقل الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام، وخصه بالذكر لشرفه وفضل منزلته، وهو المسمى بالروح في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٣].

مناسبتها لما قبلها:

نزلت هذه السورة بعد ﴿الْحَاقَّةُ﴾ وهي كاللزمة لها في بيان أوصاف يوم القيامة والنار، وأحوال المؤمنين والمجرمين في الآخرة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كبقية السور المكية تتحدث عن أصول العقيدة الصحيحة، وفي قمتها إثبات البعث والنشور، والجزاء والحساب، وأوصاف العذاب والنار.

شرعت السورة ببيان موقف أهل مكة من دعوة رسول الله ﷺ واستهزائهم به، وسؤال الكفار عن عذاب الله واستعجالهم به استهزاء وسخرية وعناداً،

متمثلاً ذلك بالنضر بن الحارث بن كُلدَة حين طلب إيقاع العذاب، والعذاب واقع بهم: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَنَزَلْنَاهُ قُرْآنًا ﴿٧﴾﴾ [الآيات: ١-٧].

ثم وصف يوم القيامة وأهواله، والنار وعذابها، وأحوال المجرمين في ذلك اليوم الرهيب: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾ [الآيات: ٨-١٨].

وناسب ذلك الحديث الاستطراذي عن طبيعة الإنسان وصفاته التي أوجبت له النار، ومدارها الجزع عند الشدة، والبطر عند النعمة، والبخل والشح عند الحاجة والأزمة وعلاج الفقر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [الآيات: ١٩-٢١].

واستثنت من ذلك المؤمنين المصلين الذين يتحلون بمكارم الأخلاق، فيؤدون حقوق الله وحقوق العباد معاً فيستحقون الخلود في الجنان: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الآيات: ٢٢-٢٥].

ثم نددت السورة بالكفار، وهددتهم بالفناء والتبديل، وأوعدتهم بما يلاقونه يوم القيامة، ووصفت أحوالهم السيئة في الآخرة وقت البعث والنشور: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَبَلَّكَ مُهَيِّجِينَ ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهْقُهُمْ ذُلٌّ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الآيات: ٣٦-٤٤].

تهديد المشركين بعذاب القيامة وتأكيد وقوعه

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ② مِنْ أَفْئِدَةِ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ⑩ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجِزْمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنَهُ ⑪ وَصَنْجِبَتُهُ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّ ⑬ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑭ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى ⑮ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ⑯ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ⑰ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ⑱﴾

القراءات:

﴿سَأَلَ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (سال).

﴿تَعْرُجُ﴾:

وقرأ الكسائي (يعرج).

﴿يَوْمِيذٍ﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (يَوْمَيْذٍ).

﴿نَزَاعَةٌ﴾:

قرأ حفص (نزاعة) وقرأ الباقون (نزاعة).

الإعراب:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قرئ بالهمز على الأصل، وقرئ بترك الهمزة بإبدال الهمزة ألفاً على غير قياس.

﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ﴿خَمْسِينَ﴾: خبر كان، و﴿أَلْفَ﴾: منصوب على التمييز، وجملة كان مع اسمها وخبرها في موضع جر صفة ﴿يَوْمٍ﴾.

﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ﴿يُصْرَوْنَهُمْ﴾ ﴿يَسْتَلْ﴾ و﴿حِمِيمٌ﴾: فعل وفاعل، و﴿حِمِيمًا﴾: مفعول به، وقرئ (يُسأل) بالضم: فعل مبني للمجهول، تقديره: ولا يُسأل حميم عن حميمه. و﴿يُصْرَوْنَهُمْ﴾: أي يبصر الحميم حميمه، وأراد بالحميم الجمع، والضمير المرفوع في ﴿يُصْرَوْنَهُمْ﴾ يعود على المؤمنين، والهاء والميم تعود على الكافرين. والمعنى: يبصر المؤمنون الكافرين يوم القيامة، أي ينظرون إليهم في النار.

﴿إِنَّمَا لَطَىٰ، نَزَاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ ﴿لَطَىٰ﴾ بالرفع: خبر (إن)، و﴿نَزَاعَةً﴾: خبر ثان، أو ﴿لَطَىٰ﴾: خبر (إن)، و﴿نَزَاعَةً﴾: بدل من ﴿لَطَىٰ﴾، أو أن هاء ﴿إِنَّمَا﴾ ضمير القصة، و﴿لَطَىٰ﴾: مبتدأ، و﴿نَزَاعَةً﴾: خبره، والجملة: خبر (إن). ويصح كون ﴿لَطَىٰ﴾ بالنصب بدلاً من هاء ﴿إِنَّمَا﴾، و﴿نَزَاعَةً﴾ بالرفع خبر (إن). ونصب ﴿نَزَاعَةً﴾ على الحال المؤكدة، والعامل فيها معنى الجملة، مثل ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١/٢]، و﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ﴾: خبر ثالث، أو مستأنف.

للبلاغة:

﴿يَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ بينهما طباق.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ جناس اشتقاق، وكذا بين ﴿الْمَعَارِجِ﴾ و﴿تَعْرُجُ﴾.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل: عطف خاص على عام تنبيهاً على شرفه وفضله.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ تشبيه مرسل مجمل، لحذف وجه الشبه.

﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنِيهِ ، وَصَنِيَّتِهِ ، وَلِخِيهِ ﴿١٢﴾﴾ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٣﴾﴾ عموم بعد خصوص لبيان هول الموقف.

﴿إِنَّمَا لَطَى ، نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٤﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٥﴾﴾ إلخ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دعا داع به، بمعنى استدعاه، ولذلك عدي بالباء، أي يكون السؤال أحياناً بمعنى طلب الشيء واستدعائه، ويعدّى حينئذٍ بالباء، تقول: سألت بكذا، أي طلبته. والأصل في السؤال أن يكون بمعنى الاستخبار عن الشيء، ويعدّى حينئذٍ بعن أو بالباء، تقول: سألت عنه وسألت به وبجأله. والسائل استهزاء وتعتاً: النضر بن الحارث، فإنه قال: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْيَوْمِ﴾ [الأنفال: ٣٢/٨] أو أبو جهل، فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧/٢٦] أو الرسول ﷺ، استعجل بعذابهم.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب، أو صلة متعلقة بـ ﴿وَأَقْرَبَ﴾. ﴿لَيْسَ لَمْ دَافِعٌ﴾ مانع وواق، أي إنه واقع لا محالة. ﴿مَنْ اللَّهِ﴾ متصل بواقع. ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعد وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح، أو مراتب الملائكة، أو السماوات، والظاهر: ذي السماوات، وقيل: ذي النعم والفضائل التي تكون درجات متفاضلة. ﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد. ﴿وَالرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام. ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى مهبط أمره من السماء. ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَعْرُجُ﴾. ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هذا لبيان ارتفاع تلك المعارج وبُعْد مداها، بطريق التمثيل والتخييل، والمعنى: إنها بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان في زمان يقدر بخمسين ألف سنة من سني الدنيا. وهذا في الآخرة بالنسبة إلى الكافر، لما يرى فيه من الشدائد، وأما المؤمن فيكون عليه أخف من صلاة مكتوبة، كما جاء في الحديث النبوي الآتي بيانه.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ٥﴾ أي لا استعجال ولا جزع فيه، ولا اضطراب قلب، والكلام متعلق بـ ﴿سَأَلَ﴾ لأن السؤال كان استهزاءً أو تعتاً، وذلك مما يضجره، والمعنى: قرب وقوع العذاب، فاصبر، فقد اقترب موعد الانتقام. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ يرون العذاب أو يوم القيامة. ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان، غير واقع. ﴿وَنَزَلَهُ قَرِيبًا ٧﴾ قريباً من الوقوع. ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ ظرف لكلمة ﴿قَرِيبًا﴾ أو متعلق بمحذوف تقديره: يقع. ﴿كَالْهَلِّ﴾ هو مائع الزيت، أو دردي الزيت (ما يكون في قعر الإناء) أو هو مائع الفلزات (المعادن) المذابة، كذائب الفضة. ﴿كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المنفوش أو المندوف، أو كالصوف المصبوغ ألواناً. ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ١٠﴾ قريب قريبه، لا اشتغال كل واحد بحاله، فالحميم: القريب. ﴿يُصَرُّوهُمْ﴾ أي ينظر المؤمنون إلى الكافرين في النار. ﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ﴾ يتمنى الكافر أو المذنب. ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ أي يفتدي. ﴿وَصَلَّجَتِهِ﴾ زوجته. ﴿وَفَصَّلَتِهِ﴾ عشيرته، لفصله منها. ﴿تُؤَيِّدُ﴾ تضمه ويأوي إليها. وهو دليل على اشتغال كل مجرم بنفسه، بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس وأعلمهم بقلبه، فضلاً عن أن يهتم بحاله ويسأل عنها. ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين أو الخلائق. ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ عطف على ﴿يَفْتَدِي﴾ أي ثم لو ينجيه الافتداء، وثم للاستبعاد.

﴿كَلَّا ١١﴾ ردع للمجرم، وردّ لما يودّه، فهي كلمة تفيد الزجر عما يطلب. ﴿إِنَّمَا لَطَنُ﴾ أي إن النار هي النار الملتهبة أو جهنم؛ لأنها تتلظى، أي تلهب على الكفار. ﴿لِلنَّاسِ﴾ أعضاء الإنسان، أو جلدة الرأس، تتزعها، ثم تعود إلى ما كانت عليه. ﴿تَدْعُوا﴾ تجذب وتحضر. ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان والحق. ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة. ﴿وَجَمَعَ﴾ المال. ﴿فَأَوْعَى﴾ جعله في وعاء، وكنزه حرصاً وتأميلاً، ولم يؤد حق الله فيه.

سبب النزول:

نزول الآيتين (١، ٢):

أخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قال: هو النضر بن الحارث، قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢/٨]. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ قال: نزلت بمكة في النضر بن الحارث، وقد قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية. وكان عذابه يوم بدر. وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: نزلت ﴿سَأَلَ سَائِلٌ يَعْذَابِ وَقِعٍ﴾ فقال الناس: على من يقع العذاب؟ فأنزل الله: ﴿لِلْكَافِرِينَ يَعْذَابِ لَكُمْ دَافِعٌ﴾.

التفسير والبيان:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ يَعْذَابِ وَقِعٍ﴾ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَكُمْ دَافِعٌ ② أي دعا داع وطالب بعذاب واقع بلا شك، يقع في الآخرة، كائن للكافرين، نازل بهم، لا يمنع ذلك العذاب الواقع أحد إذا أَرَادَهُ اللهُ. والسؤال للاستهزاء والتعنت. والسائل: هو النضر بن الحارث بن كَلْدَةَ أو غيره حين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا يَعْذَابِ إِلَيْهِ﴾ [الأنفال: ٣٢/٨].

﴿مَنْ آتَى الْمَعَارِجِ﴾ ③ أي واقع من جهة الله سبحانه ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، قال ابن عباس: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾: أي ذي السماوات، وسماها معارج؛ لأن الملائكة يعرجون فيها. وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم؛ وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة.

والمراد: أن العذاب الذي طالب به الكفار واستعجلوه واقع بلا شك.

﴿تَقَرُّجُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٤)
أي تصعد إلى الله عز وجل في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليهم السلام في مدة يوم يقدر بخمسين ألف سنة من سنوات الدنيا لو أراد البشر الصعود إليها، ولكن الملائكة الروحانيين تصعد إليها في زمن قليل. وليس المراد من الخمسين التحديد بعدد معين، بل المقصود الكثرة المطلقة، وأن صعود الملائكة في مكان بعيد المدة. وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه أو حكمه، أو إلى حيث تهبط أوامره، أو إلى مواضع العز والكرامة، وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ في رأي الأكثرين متعلق بقوله: ﴿تَقَرُّجُ﴾ أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم، بقصد وصف اليوم بالطول مطلقاً.

والمراد باليوم في رأي آخر، وهو قول ابن عباس والحسن البصري: هو يوم القيامة تهويلاً وتخويفاً للكفار، والمراد أن موقفهم للحساب، حتى يفصل بين الناس، خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ثم يستقر أهل النار في دركات النيران. وسبب الربط بين سؤال العذاب وبين عروج الملائكة: المقارنة بين اليوم في نظرهم وبين اليوم عند الله، فهم يرون الدنيا طويلة الأمد، وأما عند الله فالدنيا قصيرة إذا قيس باليوم عند الله.

والجمع بين هذه الآية وبين آية السجدة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥/٣٢] أن القيامة مواقف ومواطن، فيها خمسون موطناً، كل موطن ألف سنة.

وهذا إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٥) [الفرقان: ٢٤/٢٥]، واتفقوا على أن ذلك المقيّل والمستقر هو الجنة، ولما أخرجه الإمام أحمد وابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله، ما أطول هذا اليوم؟!

فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة، يصلها في الدنيا» .

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي لا تأبه يا محمد بسؤالهم العذاب استهزاء وتعتأ وتكذيباً بالوحي، ولا تضجر، واحلم على تكذيبهم لك، وكفرهم بما جئت به، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، واصبر صبراً جميلاً: لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله، وهذا معنى الصبر الجميل.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ٦ ﴿وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾ ٧ أي إنهم يرون وقوع العذاب بعيداً، وقيام الساعة في اعتقاد الكفرة مستحيل الوقوع، ويرون أيضاً يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة مستبعداً محالاً، ونحن نعلمه كائناً قريباً ممكناً غير متعذر؛ لأن كل ما هو آت قريب.

ثم ذكر الله تعالى بعض أوصاف ومظاهر ذلك اليوم، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ ٨ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ٩ ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيماً﴾ أي إن يوم القيامة ذلك اليوم الذي تصير السماء فيه كعكر (دُرْدِي) الزيت، أو المذاب من النحاس، والرصاص، والفضة، أي تكون السماء واهية غير متماسكة الأجزاء، مبددة، وتكون الجبال كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح؛ ولا يسأل قريب قريه عن شأنه أو حاله في ذلك اليوم، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره، لما يرى من شدة الأهوال.

﴿يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمَعْجَمِ﴾ ١٠ ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ ١١ ﴿وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ ١٢ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ﴾ ١٣ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ١٤ أي يبصر كل حميم حيمه ويراها، ويعرفه، لا يخفى منهم أحد عن أحد، دون أن يكلم بعضهم بعضاً، ويتمنى الكافر وكل مذنب ذنباً يستحق به النار أن يفتدي نفسه من عذاب يوم القيامة الذي نزل به، بأعز ما يجده من المال أو بأعز الناس

وأكرمهم لديه، من أولاده وإخوته وزوجته، وقبيلته وعشيرته الأقربين الذين ينتمي إليهم في النسب، أو يضمونه عند الشدائد، ويأوي إليهم، وينصرونه، بل يودّ المجرم لو افتدى بمن في الأرض جميعاً من الثقلين وغيرهما من الخلائق، ولا يقبل منه الفداء، ولا ينجيه الافتداء من عذاب جهنم، ولو جاء بأهل الأرض.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣/٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨/٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١/٢٣]، وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينََ مِنْ أُخِيهِ﴾ [٣٤] وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ﴾ [٣٥] وَصَلْبِهِ وَنَبِيِّهِ﴾ [٣٦] لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧-٣٤/٨٠]. والخلاصة: أنه تعالى ذكر أربع صفات ليوم القيامة: تكون السماء فيه كالمهل، وتكون الجبال فيه كالعهن، ولا يسأل حميم حميماً، ويود المجرم الكافر الافتداء من عذاب ذلك اليوم بأعز الناس لديه وجميع من في الأرض.

ثم أكد تعالى رفض قبول الفداء منه واستبعاده قائلاً:

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَىٰ﴾ [١٥] نَزَاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [١٦] تَدْعُوا مِّنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [١٧] وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [١٨] أي لا يقبل الفداء من المجرم، ولو افتدى بأهل الأرض وبمال الدنيا جميعاً، إنها جهنم الشديدة الحر مأواه كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [١٩] [الليل: ١٤/٩٢]، والتي تنزع اللحم عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً، وتنزع جلدة الرأس وجلد أطراف اليدين والرجلين ولحم الساقين، ثم يعود كما كان، وتنادي جهنم كل من أدبر عن الحق والإيمان في الدنيا، وتولى عنه، وجمع المال فجعله في وعاء، فلم ينفق منه شيئاً في سبيل الخير، ومنع حق الله

فيه من الواجب عليه من النفقات وإخراج الزكاة. قال الحسن البصري: يابن آدم سمعت وعيد الله، ثم أوعيت الدنيا.

وكلمة «كَلَّا» ردع للمجرم عن تلك الأمانة، وبيان امتناع قبول الفداء منه، وضمير «إِنَّهَا» للنار، ولم يجر لها ذكر؛ لأن العذاب دلّ عليها، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر، أو ضمير القصة، أي إن القصة. والدعاء على حقيقته كما روي عن ابن عباس، أو هو مجاز حيث شبه تبيؤ جهنم وظهورها للمكذبين بالدعاء والطلب لهم، فهو مجاز عن إحضارهم، كأنها تدعوهم فتحضرهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أ - طلب كفار مكة تعجيل العذاب الموعود به استهزاء وتعتُّاً، والعذاب من الله صاحب معارج السماء أو معارج الملائكة واقع حتماً بالكفار في الآخرة، لا يدفعه عنهم أحد.

٢ - تصعد الملائكة وجبريل في المعارج التي جعلها الله لهم إلى المكان الذي هو محلهم، وهو في السماء؛ لأنها محل برّه وكرامته، فليس المراد من قوله «إِلَيْهِ» المكان، بل المراد انتهاء الأمور إلى مراده، وهو موضع العزّ والكرامة. وعروج الملائكة إلى المكان الذي هو محلهم في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة. وهذا هو الرأي الأصح في تقديري، وهو قول الأكثرين كما تقدم، وقيل: المراد باليوم هو يوم القيامة الموصوف بأنه بمقدار خمسين ألف سنة تهويلاً وتخويفاً للكفار. قال ابن عباس: هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار للاستقرار.

قال القرطبي عن قول ابن عباس: وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله، بدليل حديث أبي سعيد الخدري المتقدم، وحديث أبي هريرة فيما رواه البخاري ومسلم والموطأ وأبو داود والنسائي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما

من رجل لم يؤدّ زكاة ماله إلا جعل شجاعاً^(١) من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس فهذا يدل على أنه يوم القيامة^(٢).

وهذا كما تقدم بالنسبة للكافر، وأما بالنسبة للمؤمن فيكون يوم الحساب في القيامة بمقدار ما بين الصلاتين، كما ثبت في الحديث الصحيح.

٣ - أمر الله نبيه بالصبر الجميل على أذى قومه الذين يرون العذاب بالنار بعيداً، أي غير كائن، وهو في تقدير الله قريب الحصول؛ لأن ما هو آتٍ فهو قريب. والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله.

٤ - ذكرت الآيات أوصافاً أربعة: هي صيرورة السماء كدُرٍ الزيت وعُكره، أو كالمذاب من المعادن من الرصاص والنحاس والفضة، وجعل الجبال كالصوف المنفوش أو المصبوغ، ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه لشغل كل إنسان بنفسه، مع أن الرجل يرى أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه، لاشتغالهم بأنفسهم، ويتمنى الكافر أن يفتدي من عذاب جهنم بأعزّ من كان عليه في الدنيا من أقاربه، فلا يقدر، ويودّ لو فُدي بهم لافتدى، ثم يخلصه (ينجيه) ذلك الفداء.

٥ - كلاً، كما قال تعالى للزجر والردع، ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء، إن له جهنم تلظى نيرانها، وتزع جلدة الرأس، واللحم عن العظم في الأطراف والجسد، وتطلب إليها كل من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان، وجمع المال فجعله في وعائه، ومنع منه حق الله تعالى، فكان مجموعاً منوعاً؛ لأنه لم يؤدّ الزكاة والحقوق الواجبة فيه، وتشاغل به عن دينه، وزها باقتنائه وتكبر.

(١) الشجاع: الحية الذكر.

(٢) تفسير القرطبي ٢٨٢/١٨ وما بعدها.

الخصال العشر التي تعالج طبع الإنسان

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۚ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۚ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ۚ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۚ ﴾

القراءات:

﴿لأماناتهم﴾ وقرأ ابن كثير (لأمانتهم).

قرأ حفص (بشهاداتهم) وقرأ الباقون (بشهادتهم).

الإعراب:

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۚ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۚ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ۚ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۚ ﴾

﴿هَلُوعًا﴾ حال من ضمير ﴿خُلِقَ﴾ وفي ﴿إِذَا﴾ الأولى: (هلوع) وفي ﴿إِذَا﴾ الثانية: (منوع). و﴿هَلُوعًا﴾ حال من ضمير ﴿خُلِقَ﴾ وهذه الحال تسمى الحال المقدرة؛ لأن الهلوع إنما يحدث بعد خلقه، لا في حال خلقه. و﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾: خبر كان مقدرة، وتقديره: يكون جزوعاً ويكون منوعاً.

البلاغة:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أريد بالإنسان الناس، فلذلك استثنى منه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾. ﴿٧٧﴾.

﴿هَلُوعًا﴾ سريع الحزن والجزع، شديد الحرص قليل الصبر، قال الزمخشري: الهلع: سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير. ﴿الشَّرُّ﴾ أي الضر. ﴿جَزُوعًا﴾ كثير الجزع، والمراد أنه يؤوس قنوط، والجزع: حزن يصرف الإنسان عن مهمته. ﴿الْخَيْرُ﴾ السعة أو المال والغنى. ﴿مَنُوعًا﴾ كثير المنع، يبالغ في الإمساك. وهذه الأوصاف الثلاثة (الهلع والجزع والمنع) طبائع جبل الإنسان عليها.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٧٧﴾ أي المؤمنين، استثناء من الموصوفين بالصفات المذكورة. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ مواظبون لا يشغلهم عنها شاغل. ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ نصيب معين واجب كالزكاة والتدور. ﴿لِلسَّائِلِ﴾ الفقير الذي يستجدي. ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الفقير المتعفف الذي لا يسأل، فيظن أنه غني، فيحرم. ﴿يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ النَّبِيِّ﴾ يصدقون بيوم الجزاء تصديقاً قلبياً وعملياً، فيجتهد في العبادة، وينفق من ماله، طمعاً في المثوبة الآخروية. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ﴿٧٩﴾ غير مأمون النزول، وهي جملة اعتراضية تدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله، وإن بالغ في طاعته. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُعْرَضُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ يحافظون عليها من الحرام. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء الرقيقات حينما كان الرّق قائماً موجوداً.

﴿الْعَادُونَ﴾ المتجاوزون الحلال إلى الحرام، أو الحدود المسموح بها شرعاً. ﴿لَا مَسَّ لَهُمْ﴾ ما اهتموا عليه من أمور الدين والدنيا. ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ ما عاهدوا عليه والتزموا الوفاء به. ﴿رَعُونَ﴾ يحافظون. ﴿بَشَاهِدِهِمْ﴾ جمعت لاختلاف أنواعها. ﴿قَائِمُونَ﴾ يؤدون الشهادة ولا يكتُمونها. ﴿بِحَافِظُونِ﴾ يؤدونها في

أوقاتها، مراعين شرائطها وفرائضها وسننها. وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخرأً للدلالة على فضلها. ﴿تُكْرَمُونَ﴾ بثواب الله.

للناسية:

بعد بيان أوصاف يوم القيامة الرهيبة، نبّه الله تعالى إلى طبائع البشر واتصافهم بالهلع والجزع والمنع التي تجمع أصول الأخلاق الذميمة، ثم استثنى المؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال، ويتصفون بصفات عشر لعلاج أمراض النفس البشرية، وليكونوا قدوة للإنسانية ومثلاً أعلى يحتذى به.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝﴾ أي إن الإنسان جبل على الضجر، أو الهلع: وهو شدة الحرص، وقلة الصبر، فلا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء، وفتر ذلك بأنه إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك من الضر، فهو كثير الجزع أو الحزن والشكوى، وإذا أصابه الخير من الغنى والسعة أو المنصب والجاه أو القوة والصحة ونحو ذلك من النعم، فهو كثير المنع والإمساك والبخل على غيره.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ ما في رجل: شَحُّ هَالِع، وَجَبْن خَالع».

ثم استثنى الله تعالى من اتصف بالصفات العشر التالية، وهي:

أ - ٢: أداء الصلاة والمواظبة عليها: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝﴾ أي إن الناس يتصفون بصفات الذم إلا الموفقين المهديين إلى الخير، وهم الذين يؤدون صلاتهم، ويحافظون على أوقاتها وواجباتها، فلا

يتركونها في شيء من الأوقات، ولا يشغلهم عنها شاغل، ولا يخلون بشيء من فرائضها وسنتها، ويتمثلون حقيقتها من الصلة بالله والسكون والخشوع، فهؤلاء ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، وإنما هم بإيمانهم وكون دين الحق في نفوسهم على صفات محمودة وخلال مرضية.

وهذا دليل على وجوب المواظبة على العبادة، كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ» وفي لفظ «ما داوم عليه صاحبه» قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، أو أثبتته. فيكون المراد بالآية الذين يداومون على الصلوات في أوقاتها، وأما الاهتمام بشأنها فيحصل برعاية أمور سابقة على الصلاة كالوضوء، وستر العورة، وطلب القبلة وغيرها، وتعلق القلب بها إذا دخل وقتها، ورعاية أمور مقارنة للصلاة، كالخشوع، والاحتراز عن الرياء، والإتيان بالنوافل والمكملات. ورعاية أمور لاحقة بالصلاة، كالاحتراز عن اللغو وما يصاد الطاعة؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فارتكاب المعصية بعد الصلاة دليل على عدم قبول تلك الصلاة.

٣ - أداء الزكاة والواجبات المالية: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۖ لِّلسَّائِلِ وَالْمَرْغُورِ ۝١٥﴾ أي والذين في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات والبائسين، سواء سألوا الناس أو تعففوا، وذلك يشمل الزكوات المفروضة وكل ما يلزم الإنسان نفسه به، من نذر، أو صدقة دائمة، أو إغاثة مستمرة. وهذا دليل على وجوب العبادة المالية ذات الأهداف الاجتماعية، بعد وجوب العبادات البدنية ذات المغزى الأخلاقي المربي للنفس، والغاية الدينية السامية، فيكون المراد بالحق: الزكاة المفروضة، بدليل وصفه بأنه معلوم، واقتراحه بإدامة الصلاة. وقيل: هو ما سوى الزكاة، وإنه على طريق النذب والاستحباب.

٤ - التصديق بيوم الجزاء: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ أي والذين يوقنون بيوم القيامة أو بالمعاد والحساب والجزاء، لا يشكُّون فيه ولا يحدِّثونه، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب. وهذا دليل على أن العمل له غاية تدفع إلى تصحيح الاعتقاد والقول والفعل.

٥ - الخوف من عذاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٢٨) أي والذين هم خائفون وجلون من عذاب الله إذا تركوا الواجبات، واقتربوا المحظورات، فإن العذاب واقع حتماً، ولا ينبغي لأحد أن يأمنه، وعلى كل واحد أن يخافه، إلا بأمان من الله تعالى.

ونظير الآية: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢/٨]. وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠/٢٣).

وهذا دليل على أن الخوف من العقاب باعث على الطاعة وزاجر عن المعصية، وأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله، وإن بالغ في الطاعة.

٦ - العفة والبعد عن الفاحشة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٢٩) إلا على أزواجه أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) أي والذين يكفون فروجهم عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، وهو الزوجة ومثلك اليمين الذي هو الإماء، فلا لوم في الاستمتاع المشروع بهما، أما من قصد غير ذلك فهم المتجاوزون الحدود، المعتدون الذين يلحقون الضرر بأنفسهم وبأمتهم.

وهذا دليل على حرمة كل ما عدا الزواج ونحوه من الاستمتاع بالإماء، حينما كان الرق قائماً في العالم.

٧ - أ: أداء الأمانات والوفاء بالعهود: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ

﴿٣٢﴾ أي الذين يؤدون الأمانات التي يؤتمنون عليها إلى أهلها، ويوفون بالمعاهدات، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم، فإذا أوثقوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا. وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوثق خان» وفي رواية: «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» .

٩ - أداء الشهادة بحق: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ أي الذين يؤدون الشهادة عند القضاة بحق، ويحافظون عليها دون زيادة ولا نقصان، ودون مجاملة لقريب أو بعيد، أو رفيع أو وضع، ولا يكتُمونها ولا يغيرونها.

١٠ - الحفاظ على الصلاة الكاملة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ أي والذين يحافظون على مواقيت الصلاة وأركانها وواجباتها ومستحباتها، لا يخلّون بشيء منها، ولا يشتغلون بشاغل عنها، ولا يفعلون بعدها ما يتناقض أو يتعارض معها، فيبطل ثوابها ويحبط أجرها، فيدخلون في صلاتهم بحماس ورغبة، ويفرغون قلوبهم من شواغل الدنيا، ويفكرون فيما يقرؤون أو يرددون من الأذكار، وتحضر قلوبهم مع الله، ويفهمون آي القرآن الكريم.

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات السابقة، مستقرون في جنات الخلود، مكرمون بأنواع الكرامات، وألوان الملاذ والمساّر، كما جاء في الحديث الذي رواه البزار والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد: «في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - كل إنسان مخلوق بطبائع معينة أساسها الحرص والجزع، ويجمعها صفة

الهلل، وهو في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، فلا يصبر على خير ولا شر، حتى إنه يفعل فيهما ما لا ينبغي، فإذا مسّه الخير لم يشكر، وإذا مسّه الضر لم يصبر.

٢ - إن شأن المؤمنين المصلين البعد عن الصفات الذميمة المبنية على الهلل، فصلاهم الصحيحة الكاملة تربي فيهم الأخلاق الكريمة، وتمنعهم عن الأوصاف السيئة.

فتراهم يؤدون الصلاة المكتوبة على وجهها الصحيح، وفي مواقيتها المطلوبة شرعاً، ويدأومون عليها دون انقطاع ولا تضييع، ويؤدون الزكاة المفروضة للفقراء والمساكين، ويؤمنون بيوم الجزاء وهو يوم القيامة، ويخافون من عذاب ربهم، فهو العذاب الشديد الذي لا يأمنه أحد، بل الواجب على كل أحد أن يخافه ويشفق منه.

ويحافظون على فروجهم من الزنى أو الفاحشة، ولا يستمتعون بالنساء إلا من طريقين فقط، هما: الزواج والتسري بالإماء، ومن قصد غير ذلك فهو من المعتدين المتجاوزين حدود الله تعالى.

ويرعون الأمانات، ويوفون بالمواثيق والمعاهدات، ويؤدون الشهادات عند الأحكام بحق وصدق على من كانت عليه من قريب أو بعيد، ولا يكتُمونها ولا يغيرونها.

ويحافظون على كيفية الصلاة المقررة شرعاً، من وضوء وإتمام ركوع وسجود، وسكون وخشوع، دون اشتغال عنها بشيء من الشواغل، لا قبل الدخول فيها، ولا في أثنائها، ولا بعد الفراغ منها بالاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي.

وجزاء هؤلاء المتصفين بالصفات المذكورة، والذي وعد به الله عزّ وجلّ هو الظفر بالجنات، والإكرام فيها بأنواع المكرمات.

أحوال الكفار المكذبين بالرسول ﷺ في الدنيا والآخرة

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَبْطَغُ كُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ سِرَاطًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوفَضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿نُصَبٌ﴾:

قرأ حفص وابن عامر (نُصَب) وقرأ الباقر (نُصَب).

الإعراب:

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ما: في موضع رفع مبتدأ، وخبره: ﴿الَّذِينَ﴾ و﴿كَفَرُوا﴾: صلة (الذين)، و﴿قَبْلَكَ﴾: ظرف مكان في موضع الحال من ضمير ﴿كَفَرُوا﴾ أو من المجرور: ﴿الَّذِينَ﴾ أي كائنين قبلك. و﴿مُهْطِعِينَ﴾: حال بعد حال، و﴿عِزِينَ﴾: حال من ضمير ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أو ﴿الَّذِينَ﴾. و﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾: من صلة ﴿عِزِينَ﴾. و﴿عِزِينَ﴾ جمع عِزَّة، وأصلها عزوة أو عزمة مثل سنة، ثم حذفت اللام، وجعت بالواو والنون عوضاً عن المحذوف، مثل (سنون).

﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾، عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴿٤٠﴾: في موضع نصب، متعلق بـ

(قادرون) و﴿تَبَدَّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾: تقديره نبذلهم بخير منهم، فحذف المفعول الأول، وحرف الجر من الثاني.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بدل من قوله: ﴿يَوْمَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ أي حتى يلاقوا يوم يخرجون. و﴿سِرَاجًا﴾: حال من واو ﴿يَخْرُجُونَ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُؤْفُسُونَ﴾ حال من ضمير ﴿يَخْرُجُونَ﴾.

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ حال من واو ﴿يُؤْفُسُونَ﴾ وكذلك ﴿تَرَهَّقَهُمْ ذُلٌّ﴾.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ تقديره: ذلك اليوم الذي كانوا يوعدونه، فحذف المفعول العائد إلى الاسم الموصول وهو ﴿الَّذِي﴾ تخفيفاً، مثل: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١/٢٥] أي بعثه. و﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ وما بعده الخبر.

البلاغة:

﴿أَبْطَعَ كُلُّ أَمْرٍ﴾ استفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ.

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ كناية عن المني، مع نزاهة التعبير، وحسن التذكير.

﴿كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُؤْفُسُونَ﴾ تشبيه مرسل مجمل، وفي التشبيه تهكم بهم، وتعريض بسخف عقولهم، وتجهيل لهم بعبادة غير الله.

للفردات اللغوية:

﴿قَبْلَكَ﴾ حولك وناحيتك أو نحوك. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين مديمي النظر نحوك. ﴿عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين حلقات، جمع عِزَّة، وأصلها عزوة من

العزو، كأن كل فرقة تعتزي وتنتسب إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، وتستقل برأي خاص، وعزين من المنقوص الذي جاز جمعه بالواو والنون عوضاً من المحذوف، مثل عضين. ﴿أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ إنكار لقولهم: لو صحَّ ما يقوله محمد لكوننَّ فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا. ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن الطمع في الجنة. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي خلقناهم وغيرهم من نطف مهيئة، فمن لم يستكمل نفسه بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق بأخلاق الملائكة، لم يتأهل لدخول الجنة.

﴿فَلَا أَقِيمُ﴾ أي أقسم، ولا: زائدة. ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي للشمس والقمر وسائر الكواكب. ﴿عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم، أو نأتي بدلهم. ﴿يَسْتَبِقُونَ﴾ بعاجزين أو بمغلوبين. ﴿فَذَرَهُمْ﴾ اتركهم. ﴿يَحْوِضُوا﴾ يتحدثوا في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم. ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾ يلقوا. ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فيه العذاب.

﴿الْأَجْدَانِ﴾ القبور، جمع جَدَث. ﴿سِرَافًا﴾ مسرعين إلى الحشر، جمع سريع. ﴿نُصْبٍ﴾ والنُصْب جمع أنصاب، والنصب: كل شيء منصوب كالعلم أو الراية، والمراد هنا: ما ينصب للعبادة. ﴿يُوفُونَ﴾ يسرعون. ﴿خَنِيعَةً﴾ ذليلة كسيرة. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم. ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ﴾ أي يوم القيامة.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿أَبْطَحُ﴾: قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ولا يتفقون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة، لندخلنها قبلهم، وليكوننَّ لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله

تعالى هذه الآية: ﴿أَيُّطْعُ كُلُّ أَمْرِي مَتَّهْمٌ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٢٨) (١). وهذه قراءة الجمهور.

المناسبة:

بعد أن وعد الله تعالى المتصفين بصفات عشر بالجنات والإكرام، ذكر أحوال الكفار في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيسرعون إلى الكفر، لذا توعدهم الله بالإبادة والهلاك، وأمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم حتى يوم البعث، وأما في الآخرة فيخرجون من قبورهم مسرعين إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان، وتكون أبصارهم ذليلة، وتغشاهم المذلة بسبب تكذيبهم بيوم القيامة.

التفسير والبيان:

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا فَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (٣١) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٢٧﴾ أي ما بال هؤلاء الكفار حواليك أيها النبي مسرعين إلى الكفر والتكذيب والاستهزاء بك، وتراهم عن يمين النبي ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة، شاردين فرقاً فرقاً، وشيعاً شيعاً، فارين منه، متفرقين عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَهِزُوا مَعَهُمْ مَسْجِدَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنْ دَارِهِمْ لَمَّا كَذَبُوا﴾ (٥٠) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (٥١) [المدثر: ٧٤/٤٩-٥١].

وقيل: ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مَادِّي أعناقهم، مديعي النظر إليك.

ثم تهكم الله تعالى بتمنياتهم الجنة، وأياسهم من دخول الجنات، فقال:

﴿أَيُّطْعُ كُلُّ أَمْرِي مَتَّهْمٌ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٢٨)؟ أي أيطمع هؤلاء المشركون، وحالتهم هذه من الكفر والتكذيب والفرار من الرسول ﷺ

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٥٠

ونفرتهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم؟! كلا، بل مأواهم جهنم، كما قال تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) أي كلا، لا أمل في دخولهم الجنة، فإننا خلقناهم من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) [المسلمات: ٢٠/٧٧]. وهذا تقرير لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا حدوثه واستبعدوا وجوده، بدليل الخلق الأول أو البداءة التي يعترفون بها، فتكون الإعادة في تقدير البشر أهون منها، أما بالنسبة لله عز وجل فالبدء والإعادة سواء. وبما أنهم خلقوا من الشيء الضعيف، فهم ضعاف لا ينبغي منهم هذا التكبر.

أخرج أحمد وابن ماجه وابن سعد أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ مُهَيِّئْ لَنَا يَوْمَئِذٍ الْجَنَّةَ﴾ (٣٦) إلى قوله: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ثم بزق رسول الله ﷺ على كفه، ووضع عليها أصبعه، وقال: «يقول الله: ابن آدم، أتني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي أتني أوان الصدقة».

ثم أنذرهم الله تعالى بالهلاك إن داموا على الكفر، وهددهم بإيجاد آخرين مكانهم لكي يؤمنوا، فقال:

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمُسَرِّقِ وَالْمُزْزَبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (٤٠) على أن نبدل خيراً بغيرهم وما نحن بمُسَوِّفِينَ (٤١) أي فأقسم بمشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها كل يوم من أيام السنة، على أننا قادرون أن نخلق أمثلاً منهم، وأطوع لله ممن عصوه، ونهلك هؤلاء، ولن يعجزنا شيء، وما نحن بمغلوبين إن أردنا ذلك، بل نفعل ما أردنا، لكن اقتضت مشيئتنا وحكمتنا تأخير عقابهم.

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى على الإيجاد والإعدام مؤكداً بالقسم،

وأنه لا يعجزه شيء من الممكنات. وهو تهكم بهم وتنبية على تناقض كلامهم، حيث إنهم ينكرون البعث، ثم يطمعون في دخول الجنة، وهم يعترفون بأن الله خالق السماوات والأرض وخالقهم مما يعلمون، ثم لا يؤمنون بأنه قادر على خلقهم مرة ثانية.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالإعراض عنهم حتى يوم البعث زيادة في التهديد، فقال:

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَلْبُؤًا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٤١) أي اتركهم يا محمد يتحدثون في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم، ويعاندوا في تكذيبهم وكفرهم وإنكارهم يوم البعث، حتى يلقوا يوم القيامة وما فيه من أهوال، ويدوقوا وباله، ويمجازوا بما عملوا.

ومن أحوالهم في هذا اليوم:

- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوفَضُونَ﴾ (٤٢) أي اذكر يوم يقومون من القبور بدعوة الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، مسرعين، متسابقين، كأنهم في إسراعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون أو يسرعون إلى شيء منصوب، عَلم أو راية، والمراد بالنصب هنا: كل ما ينصب فيعبد من دون الله سبحانه. وقوله: ﴿يُوفَضُونَ﴾: يسرعون ويتسابقون إليه.

- ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ زَهْفُهُمْ ذُلٌّ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٤٣) أي وتكون أبصارهم ذليلة كسيرة، وتغشاهم المذلة الشديدة، لهول العذاب الذي يواجههم، وفي مقابلة استكبارهم عن الطاعة في الدنيا، ذلك اليوم المشتمل على الأهوال العظام هو اليوم الذي أوعدهم الله به، وأنذرهم بملاقاته، وكانوا يكذبون به، وليتهم آمنوا به، فنجوا من العذاب.

وعبر عن ذلك اليوم بلفظ الماضي؛ لأن ما وعد الله به يكون آتياً لا محالة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أنكر الله تعالى على الكفار حول النبي ﷺ مسارعتهم إلى الكفر والتكذيب برسالاته والاستهزاء به، فما بالهم يسرعون إليه ويجلسون حواله، ولا يعملون بأوامره، وتراهم عن يمينه وشماله حِلَقًا حِلَقًا، وجماعات متفرقين:

٢ - ثم أنكر عليهم تناقضهم وتعارض أقوالهم ومواقفهم، فهم يكذبون برسالة النبي ﷺ ويستهزئون بأصحابه، وينكرون البعث، ثم يقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه!! فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٢٨) أي إنهم منكرون للبعث، فكيف يطمعون في دخول الجنة؟

٣ - أيأسهم الله تعالى من دخول الجنة، فأخبر بأنهم لا يدخلونها، لاستكبارهم، فهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة؛ كما خلق سائر جنسهم، فلا يليق بهم هذا التكبر، وليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تُستوجب الجنة بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى.

روي أن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّحِير رأى المهلب بن أبي صُفْرة يتبختر في مُطَرَف^(١) خَزْ، وَجَبَّةَ خَزْ، فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟ فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أولئك نُطفة مَذْرَء^(٢)، وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العَذِرة، فمضى المهلب وترك مشيته.

٤ - أقسم الله لإثبات البعث والرد على المشركين المنكرين له بمشارك الشمس ومغاربها على أنه قادر على إهلاكهم والذهاب بهم، والنجيء بغير منهم

(١) المطرف: واحد المطارف: وهي أردية من خز مربعة لها أعلام.

(٢) مذرّة: فاسدة.

في الفضل والطوع والمال، لا يفوته شيء، ولا يعجزه أمر يريده، ولم يقع التبديل، وإنما هدد تعالى القوم بذلك ليؤمنوا.

٥ - أوعد الله تعالى المشركين وهددهم بعذاب القيامة، أمراً نبيه عليه السلام أن يتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم، على جهة الوعيد، وأن يشتغل بما أمر به، ولا يهمله شركهم، فإن لهم يوماً يلقون فيه ما وعدوا.

٦ - وصف الله حال المشركين يوم البعث بأنهم حين يسمعون الصيحة الآخرة إلى إجابة الداعي يخرجون مسرعين من القبور، كأنهم كما كانوا في الدنيا يسرعون ويتسابقون إلى النُصْب: أي ما نُصِب فعبد من دون الله.

ووصفهم أيضاً بأن أبصارهم تكون ذليلة خاضعة، لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله، وتغشاهم مذلة وهوان.

٧ - إن هذا اليوم وهو يوم القيامة الذي يكون فيه الكفار على تلك الأوصاف هو اليوم الذي كانوا يوعدونه في الدنيا أن لهم فيه العذاب، ووعد الله آتٍ لا محالة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ نُوحٍ

مكية، وهي ثمان وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة نوح باسم نبي الله نوح عليه السلام وقصته مع قومه من بداية دعوته إلى الطوفان، كما جاء في مطلع السورة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾.

مناسبتها لما قبلها:

هناك وجهان لاتصال هذه السورة بما قبلها:

١ - تشابه مطلع السورتين في ذكر العذاب الذي وعد به الكفار: قوم محمد ﷺ في سورة المعارج، وقوم نوح عليه السلام في هذه السورة.

٢ - لما قال تعالى في أواخر المعارج: ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [٤١] عقبه بقصة نوح المشتملة على إغراق قومه إلا من آمن، وتبديلهم بمن هم خير منهم، ف وقعت موقع الاستدلال وإثبات خبر القدرة على التبديل، كما وقعت قصة أصحاب الجنة في سورة ﴿ت﴾ موقع الاستدلال على ما ختم به ﴿تَبَرَّكَ﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كغيرها من السور المكية التي عنيت بغرس أصول العقيدة،

وتبيان عناصر الإيمان، من عبادة الله وطاعته، وإبطال عبادة الأصنام والأوثان، والاستدلال على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

افتتحت السورة ببيان إرسال الله تعالى نوحاً إلى قومه، وقيامه بإنذارهم ومطالبتهم بالإقلاع عن ذنوبهم، ليغفر الله لهم، وليمدهم بالأموال والبنين، وليجعل لهم جنات، يفجر فيها الأنهار، ولكنهم أبوا دعوته، وأمعنوا في الضلال والعصيان: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ [الآيات ١-١٤].

ثم أمرهم تعالى للاستدلال على وجوده ووحدانيته وقدرته والإقبال على طاعته وتعرف نعمه بالنظر في خلق السماوات والأرض، والتأمل في خلق الإنسان، وفيما أنعم به على الناس من تدليل الأرض وتسخيرها للنفع، وإيداع الكنوز والمعادن فيها، والتنقل في نواحيها، وسلوك السبل الواسعة فيها: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ إلى قوله: ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

وختمت السورة ببيان كفر قومه وإصرارهم على عبادة الأصنام، وعقابهم في الدنيا والآخرة، ودعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار بعد جهاد طويل في الدعوة دام تسع مئة وخمسين سنة، دون أن يقلعوا عن الشرك، ولم ينتفعوا بالإنذار والتذكير: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي نَجَّيْتُكَ وَآلِيَّ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [الآيات: ٢١-٢٨].

إرسال نوح عليه السلام إلى قومه

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾
 قَالَ يَتَقَوُّوا إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ ﴿١﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْفِرْ لَكُمْ
 مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ٤﴾

القراءات:

﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾:

كسر النون وصلًا: أبو عمرو، وعاصم، وحمة. وضمها الباقون.

﴿وَيُخْرِجَكُمْ﴾، ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾:

وقرأ ورش، وحمة وقفًا (ويوخركم، لا يؤخر).

الإعراب:

﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ «أَنْ»: إما مفسرة بمعنى (أي) لتضمن الإرسال معنى القول، فلا يكون لها موضع من الإعراب، وإما في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي بأن أنذر.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾ أي بأن أنذر، أو بإنذار. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ إن لم يؤمنوا.
 ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم، في الدنيا بالطوفان، وفي الآخرة بنار جهنم. ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾
 بين الإنذار. ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأن أعبدوا الله. ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ «مِنْ» زائدة،
 فإن الإيمان يغفر به ما قبله، أو تبعية لإخراج حقوق العباد. ﴿وَيُخْرِجَكُمْ﴾

بلا عذاب. ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أجل مقدر بوقت معلوم لا يتجاوزه، وهو أقصى ما قدر لكم، وهو أجل الموت. ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ إن الأجل الذي قدره. ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدر به أجلاً. ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير. ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك، ولأمتتم. وفيه دلالة على أنهم لانهماكهم في حب الحياة العاجلة، كأنهم شاكون في الموت.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) أي إنا بعثنا نوحاً أول رسول أرسله الله إلى قومه، وقلنا له: أنذر قومك بأس الله قبل أن يأتيهم عذاب شديد الألم، وهو عذاب النار، أو الإغراق بالطوفان، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢) قال نوح لقومه: إني منذر من عقاب الله وخوف لكم، بين الإنذار، واضح الإعلام، أبين لكم ما فيه نجاتكم، ومضمون الإنذار:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ (٣) أي أمركم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تؤدوا حقوقه، وتمثلوا أوامره، وتجنبوا ما يوقعكم في عذابه؛ وتطيعوني فيما أمركم به، فإني رسول إليكم من عند الله تبارك وتعالى.

والتقوى: امتثال الأوامر، واجتناب المحارم والمآثم.

والتكليف بهذه الأمور الثلاثة له ثمرتان:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يستر لكم بعض ذنوبكم، ويسامحكم فيما فرط منكم من الزلات، ويمد في أعماركم ويؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي قدره الله لكم، إن آمتتم وأطعتم، وهذا وعد

على العبادة والطاعة بشيئين: أحدهما - دفع مضار الآخرة: وهو غفران الذنوب، والثاني - تحقيق منافع الدنيا، وهو تأخير الأجل إلى أقصى الإمكان.

وقد استدلل العلماء بهذه الآية على أن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزداد بها في العمر حقيقة، كما ورد في الحديث الذي رواه أبو يعلى عن أنس: «صلة الرحم تزيد في العمر». قال الزنجشيري: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمّهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم، أهلكهم على رأس تسع مئة، فقليل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى، أي إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه، لا تتجاوزونه، وهو الوقت الأطول تمام الألف^(١).

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما قدره لكم إذا جاء، وأنتم باقون على الكفر، لا يؤخر بل يقع لا محالة، فبادروا إلى الإيمان والطاعة، لو كنتم تعلمون، لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر عن وقته. والمعنى: إن الأجل حتمي لا يؤجل، ولكن له تعلقاً وارتباطاً بشيء آخر، ففي حال الإيمان والطاعة يكون الأجل الأطول، ثم لا بد من الموت، وفي حال الكفر والمعصية يكون الأجل الأقصر، ثم يكون الموت.

والعاقل هو الذي يبادر إلى الطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بالعقاب لا يرد ولا يمانع. وأضاف تعالى الأجل إليه سبحانه؛ لأنه الذي أثبت.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - أرسل الله تعالى رسوله نوحاً عليه السلام إلى قومه، لينذرهم ويخوفهم إن أصروا على الكفر العذاب المؤلم وهو عذاب النار في الآخرة، وما نزل

عليهم من الطوفان في الدنيا. روى قتادة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أول رسول أُرسل نوح، وأُرسل إلى جميع أهل الأرض». فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً.

٢ - امثل نوح عليه السلام أمر ربه، فبلغ قومه رسالته قائلاً: يا قوم إني لكم نذير واضح الإنذار، فمن عصى الله دخل النار، وأمركم أن توحّدوا الله وتعبّدوه حق العبادة الخالصة له، وأن تخافوه، وأن تطيعوه فيما أمركم به، فإني رسول الله إليكم. والأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح. والأمر بالتقوى يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات، والطاعة تشمل إطاعة جميع المأمورات والمنهيات.

فإن التزمت العبادة والخوف من الله والطاعة لأوامره، غفر لكم بعض الذنوب، وهو ما لا يليق بحقوق المخلوقين، وينسى في أعماركم. والمعنى: أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا، بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب.

٣ - إذا جاء الموت المحتم وقوعه لا يؤخر، بعذاب كان أو بغير عذاب. ولو كنتم أيها الناس تعلمون، لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخر. وهذا زجر لهم عن حب الدنيا، والإعراض عن أحكام الدين وأوامره ونواهيه.

مناجاة نوح ربه وشكواه إليه

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِي أَفْئَادِهِمْ ﴿٧﴾ وَأَسْتَعْشُوا بَيْنَهُمْ وَأَصْرُوا ﴿٨﴾ وَاسْتَكَبرُوا اسْتِكَبَارًا ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿١٠﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَارًا ﴿١١﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْ أَفْعَاءَ ﴿١٢﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٣﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٥﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٧﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴿١٩﴾ نَبَاتًا ﴿٢٠﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ الْأَرْضِ بِسَاطًا ﴿٢٢﴾ لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿دُعَايَ إِلَّا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (دعائي إلا).

﴿إِنِّي أَعْلَنْتُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إني أعلنت).

الإعراب:

﴿جِهَارًا﴾ منصوب على المصدر بـ ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ لأن الجهار أحد نوعي الدعاء، فنصب به، مثل قعدت القرفصاء، أو صفة لمصدر دعا أي دعاء جهاراً، أو حال، أي مجاهرأ.

﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (١١) ﴿يُرْسِلُ﴾: مجزوم لأنه جواب الأمر، بتقدير إن، أي إن تستغفروا ربكم يرسل السماء عليكم مدراراً. و﴿مِدْرَارًا﴾: حال من السماء، ولم تؤنث مدراراً؛ لأن مفعال في المؤنث يكون بغير تاء، مثل: امرأة معطار ومذكار ومثناة؛ لأنها في معنى النسب، كقولهم: امرأة طالق وحائض وطامث، أي ذات طلاق وحيض وطمث. ﴿أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال.

﴿طَبَاقًا﴾ إما صفة لـ ﴿سَبْعَ﴾ أو منصوب على المصدر. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي في إحداهن.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٧) ﴿نَبَاتًا﴾: منصوب على المصدر، والعامل فيه إما مقدر، تقديره: والله أنبتكم من الأرض فنبتم نباتاً، أو يكون مصدر ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ على حذف الزائد.

البلاغة:

﴿لَيْلًا﴾ و﴿وَنَهَارًا﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿جَهَارًا﴾ و﴿إِسْرَارًا﴾ وبين ﴿أَعْلَنَتْ﴾ و﴿وَأَسْرَرَتْ﴾ وبين ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ و﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾.

﴿جَعَلُوا أَصْيَعُكُمْ فِي مَا كَانُوا فِيهِ﴾ مجاز مرسل، إذ المراد رؤوس أصابعهم، من إطلاق الكل وإرادة الجزء.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٧) استعارة تبعية في ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم أطواراً بالنبات الذي ينمو تدريجياً.

﴿وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ذكر المصدر للتأكيد، وهو ما يسمى بالإطناب. وبين ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ و﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ طباق.

﴿يَذَرَا﴾، ﴿أَنهَرَا﴾، ﴿وَقَارَا﴾، ﴿أَطْوَارَا﴾ إلخ سجع مرصع مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ أي إلى الإيمان. ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً متصلاً. ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ هرباً عن الإيمان والطاعة وتفلتاً منهما. ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان والطاعة. ﴿جَعَلُوا أَصْنَعُهُمْ فِي مَآذَانِهِمْ﴾ سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة. ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر إلي. والتعبير بصيغة الدعوة أو الطلب للمبالغة. ﴿وَأَصْرُوا﴾ وأكبوا على الكفر والمعاصي. ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان واتباعي. ﴿أَسْتَكْبَرَا﴾ عظيماً.

﴿جَهَارًا﴾ بأعلى صوتي. ﴿أَعْلَنْتُ﴾ صوتي. ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ الكلام، أي دعوتهم مرة بعد أخرى، وكرة بعد أولى، على أي وجه أمكنتني. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت الوجوه والتفتن في الأسلوب والدعوة. ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ اطلبوا المغفرة من الكفر أو الشرك، بالتوبة من ذلك. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا﴾ للتائبين. ﴿يُرْسِلُ السَّيْلَ﴾ أي المطر، وكان قد حبس الله عنهم المطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسائهم، فوعدهم بذلك على الاستغفار عما كانوا عليه، ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء. ﴿يَذَرَا﴾ غزيراً متتابعاً كثير الدور.

﴿جَنَّتْ﴾ بساتين. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ﴾ لا تخافون أو لا تأملون. ﴿وَقَارَا﴾ عظيمة وإجلالاً وتوقيراً، والمعنى على قوله: «لا تأملون»: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب. وإنما عبر عن الاعتقاد بالرجاء المشتمل على أدنى الظن مبالغة. ﴿أَطْوَارًا﴾ جمع طور أي أحوالاً وهيئات وعلى مراحل وأدوار في النمو والخلقة، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان به؟! خلقكم أولاً من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ثم خلق العظام واللحم، ثم أنشأكم خلقاً آخر، من طفولة، فشاب، فكهولة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تنظروا. ﴿طَبَاقًا﴾ متطابقة، بعضها فوق بعض. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي في السماوات، وهو في السماء الدنيا. ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ أي كالسراج وهو المصباح المضيء الذي يزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض. ﴿وَاللَّهُ أَتَبَتُّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا﴾ أي خلقكم وأنشأكم من الأرض إنشاءً، إذ خلق أباكم آدم منها، فاستعير الإنبات للإنشاء؛ لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض. ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالبعث والحشر، وأكده بالمصدر، كما أكد به قوله: ﴿أَتَبَتُّكُمْ﴾ للدلالة على أن الإعادة محققة كالبدء، وأنها تكون لا محالة.

﴿بِسَاطًا﴾ ممهدة منبسطة كالبساط، تتقلبون عليها، ﴿فَجَاجًا﴾ واسعة، جمع فج.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله تعالى عن إرسال نوح عليه السلام إلى قومه، وامتناله أمر ربه، ذكر مناجاته لربه وشكواه إليه، أنه دعاهم وأنذرهم، فعصوه وتمردوا عليه، بالرغم من تغيير أساليب الدعوة، والوعد بإنزال الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، وتخصيص الجنات والأنهار، وبالرغم من إقامة الأدلة على عظمة الله وقدرته، من خلق الإنسان على أطوار، وخلق السماوات السبع الطباق، وتزيينها بالشمس والقمر، وجعل الأرض ممهدة كالبساط.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى أنواع الشكوى من نوح عليه السلام على قومه، فقال:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۖ﴾ أي قال نوح مشتكيًا إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه وما صبر عليهم في مدة طويلة هي ألف سنة إلا خمسين عامًا: إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي إِلَى مَا أَمَرْتَنِي بِأَنْ

أدعوهم إليه من الإيمان، دعاء دائماً متصلاً في الليل والنهار، من غير تقصير، امتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً مما دعوتهم إليه، وبعداً عنه، أي كلما دعوتهم ليقربوا من الحق، فرّوا منه، وحادوا عنه. ثم ذكر أنهم عاملوه بأشياء:

- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِي إِذْعَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝﴾ أي وكلما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بك، والطاعة لك، سدّوا آذانهم برؤوس أصابعهم، لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، وغطوا بثيابهم وجوههم لئلا يروني، ولئلا يسمعوا كلامي، واستمروا على الكفر والشرك العظيم، واستكبروا عن قبول الحق استكباراً شديداً، أي استنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له.

- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ أي إنني نوّعت أساليب الدعوة، فدعوتهم إلى الإيمان والطاعة جهرة بين الناس، أي مجاهراً لهم بها، ثم جمعت في الدعوة بين الإعلان بها والإسرار. والمراد بالآيات أنه كان لدعوته ثلاث مراتب:

بدأ بالمناصحة في السر ليلاً ونهاراً، فقروا منه.

ثم تقي بالمجاهرة؛ لأن النصيح بين الملأ تقرّيع وتغليظ، فلم يؤثر.

ثم جمع بين الأمرين: الإسرار والإعلان، كما يفعل المجتهد المتحير في التدبير فلم ينفع. ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الدلالة على تباعد الأحوال، وتفاوت درجة الأسلوب، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

وهذا مشابه لمراحل الدعوة التي قام بها النبي ﷺ في مكة وجزيرة العرب، فكان موقف كفار قريش مماثلاً لموقف قوم نوح: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَىٰ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [نصلى: ٢٦/٤١].

ثم فسر الدعوة وأبان مضمونها بقوله:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٦ ﴾ أي فقلت لهؤلاء القوم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم السابقة بإخلاص النية، وتوبوا إلى الله من الكفر والمعاصي، إن ربكم الذي خلقكم ورباكم كثير المغفرة للمذنبين.

وفيه دلالة على أن الاستغفار يوجب زيادة البركة والنماء، لأن الفقر والقحط والآلام والمخاوف بشؤم المعاصي، فإذا تابوا واستغفروا، زال الشؤم والبلاء، وعاد الخير والنماء.

ثم وعدهم على التوبة من الكفر والمعاصي بخمسة أشياء، فقال:

١ - ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١٧ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٨ ﴾ أي إن استغفرتم ربكم يرسل المطر عليكم متتابعاً، كثير الدور والغزارة، فيكثر الخير والخصب والغلال والثمار، ويعم الرخاء والاطمئنان والسعادة والاستقرار، ومددكم بالأموال الكثيرة ويعطكم الخيرات الوفيرة، ويكثر لكم الذرية والأولاد بسبب الأمن والرفاه والشعور بالاستقرار والسعادة، ويجعل لكم البساتين النضرة الخضراء العامرة بالأشجار والثمار والفواكه، ويجعل لكم أنهاراً جارية بالماء العذب، التي يكثر بها الزرع والثمر والغلة.

وهذا دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق، لذا كان مأموراً به في صلاة الاستسقاء، كما أن الآية تدل على أن الإيمان بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة، الخصب والغنى في الدنيا.

وبعد الدعوة بالترغيب، وبجهم ولجأ إلى الدعوة بالترهيب قائلاً:

٢ - ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٩ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝٢٠ ﴾ أي ما لكم لا تخافون عظمة الله، فتحدوه وتطيعوه، في حين أنه هو الذي خلقكم على

أطوار مختلفة، بدءاً من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام فاللحم، ثم تمام الخلق وإنشائكم خلقاً آخر، تمرّون في دور الطفولة، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة، فكيف تقصرون في توفير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة؟

لكن لم يميز الرازي تفسير الرجاء بالخوف؛ لأن الرجاء في اللغة ضدّ الخوف، ورجح تفسير الزمخشري، وهو: ما لكم لا تأملون الله توقيراً أي تعظيماً، والمعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم. ﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقر.

وهذا دليل على وجود الله سبحانه ووحدانيته، معتمد على النظر في النفس الإنسانية، ثم أتبعه بدليل آخر من العالم العلوي، فقال:

٣ - ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ أي ألم تنظروا فوقكم كيف خلق السماوات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض، وجعل القمر في السماوات، وهو في السماء الدنيا منهن، منوراً لوجه الأرض، لا حرارة فيه، وجعل الشمس كالمصباح المضيء الذي يزيل ظلمة الليل، وينشر الحرارة والضياء.

وقدر للقمر منازل وبروجاً تدل على مضي الشهور، وتدل الشمس على مرور السنين كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس: ٥/١٠].

ثم ذكر الله تعالى دليلاً من العالم الأرض السفلي، فقال:

٤ - ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٨﴾﴾ أي والله أوجد أبابكم آدم من التراب، وجعله ينمو ويكبر كالنبات،

وجعل غوكم معتمداً على الغذاء من نتاج الأرض، وتحولها إلى نبات أو حيوان، ثم يعيدكم في الأرض، تموتون، وتتحلل أجزاءكم، حتى تعود تراباً مندجاً في الأرض، ثم يخرجكم أحياء منها بالبعث يوم القيامة، إخراجاً دفعة واحدة، لا إنباتاً بالتدرج كالمرّة الأولى. قال الزمخشري: استعير الإنبات للإنشاء ليكون أدل على الحدوث.

٥ - ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ أي ومن نعمه تعالى على الإنسان أنه جعل لكم الأرض ممهدة كالسباط، وثبتها بالجبال، وجعلكم تتقلبون في أنحائها بحثاً عن الرزق، وأوجد لكم طرقاً واسعة بين الجبال وفي الوديان والسهول.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - استمر نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً، لم يفتر ولم يكلّ ولم يملّ ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهراً، امتثالاً لأمر الله وابتغاءً لطاعته. ولكنهم بالرغم من هذه المدة الطويلة لم تزد هم دعوته للاقتراب من الحق إلا تباعداً عن الإيمان.

٢ - ذكر الرازي أن آية: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره.

٣ - صور الله تعالى نفور قوم نوح من دعوته إلى العبادة والتقوى والطاعة، لأجل أن يغفر الله لهم بصورة مادية محسوسة، وهي أنه كلما دعاهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بالله والطاعة له، سدّوا منافذ أسماعهم، لئلا يسمعوا دعاءه وطلبه، وغطّوا بشياهم وجوههم لئلا يروه، واستكبروا عن قبول الحق استكباراً عظيماً. وهذا دليل على وجود الحجاب الكثيف، والغطرسة النفسية

عن سماع دعوة الحق، وتلك مبالغة تتفق مع أوضاعهم، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى.

٤ - سلك نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى التوحيد وطاعة الله تعالى مراتب ثلاثاً: فبدأ بالمناصحة سرّاً، ثم ثنى بالمجاهرة، ثم جمع بين الإعلان والإسرار، وتلك سياسة ناجحة، وأسلوب ناجح استفد فيه كل جهوده، إذا توافر التجاوب مع الدعوة، والتفاعل مع كلام الداعية.

٥ - إن الاشتغال بطاعة الله سبب يوجب زيادة البركة والنماء، وانفتاح أبواب الخيرات، وإدراز الأمطار، وزيادة الغلال، ووفرة الثمار، وقد وعدهم الله على الطاعة بخمسة أشياء: إنزال المطر، والإمداد بالأموال، والبنين، وجعل الجنات (البساتين)، وجعل الأنهار.

عن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلاً شكاً إليه الجذب، فقال: استغفر الله، وشكاً إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أذاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَفَاً﴾.

ويلاحظ أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، لذا أطمعهم نوح بالخيرات في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ٦١/١٣].

٦ - آية الاستغفار هذه دليل على أن الاستغفار يستنزله الرزق والأمطار. قال الشعبي: خرج عمر يستسقي، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأمطروا، فقالوا: ما رأيك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت بمجاديع^(١)

(١) المجاديع: جمع مجدح: وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء. وجاء بلفظ الجمع ليشمل جميع الأنواء التي يزعمون أن من شأنها المطر.

السماء التي يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

٧ - رغبهم نوح بالعبادة والطاعة، فقال: ما لكم لا تخافون الله عظمة وقدره على أحدكم بالعقوبة؟ أي فلا عذر لكم في ترك الخوف من الله، وقد جعل لكم في أنفسكم آية دالة على توحيده. ثم هددهم ووبخهم بالعذاب إن أعرضوا عن دعوته، ثم استدل على وجود الله ووجوب طاعته بما يأتي.

٨ - أقام نوح عليه السلام الدليل على وجود الله وتوحيده وقدرته وعظمته بالنظر في النفس البشرية، والعالم العلوي من السماوات والشموس والأقمار، والعالم السفلي من التذكير بكنوز الأرض وخيراتها من معادن ونباتات وحيوانات.

فالله سبحانه هو الذي خلق الإنسان في الأصل من التراب، ثم جعل سبب بقاء نوع الإنسان بالتزاوج والتوالد، والعناية بالإنسان في أطوار حياته.

والله هو الذي خلق السماوات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب، وجعل القمر نوراً منيراً في سماء الدنيا، والشمس مصباحاً مضيئاً لأهل الأرض، للتمكن من العمل والتصرف من أجل المعاش.

وكما خلق آدم من أديم الأرض كلها، وتناسلت ذريته من بعده، يعيد الله الناس إلى الأرض موتى بالدفن في القبور، ثم يخرجهم منها بالنشور للبعث يوم القيامة. والعودة إلى دلائل الأنفس هنا كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

والله سبحانه جعل لعباده الأرض مبسوطة، لسلوك الطرق الواسعة الميسرة فيها.

وقد بدأ هنا بدلائل الأنفس؛ لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، وقد يبدأ بدلائل الآفاق؛ لأنها أبهر وأعظم.

والخلاصة: أورد الله تعالى على لسان نوح عليه السلام أربعة أدلة على التوحيد: الأول - ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (٢٤) والثاني - خلق السماوات والشمس والقمر، والثالث - الإنبات من الأرض، والرابع - جعل الأرض منبسطة ذات طرق واسعة.

أنواع من قبائح قوم نوح وأقوالهم وأفعالهم

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّيهِمْ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا (٢٨)﴾

القراءات:

﴿وَوَلَدَهُ﴾ : قرئ:

١- (وَوَلَدَهُ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي.

٢- (وَوَلَدَهُ) وهي قراءة الباقيين.

﴿وَدًّا﴾ :

وقرأ نافع (وَدًّا).

﴿خَطَبْتَنِيهِمْ﴾ :

وقرأ أبو عمرو (خطاياهم).

﴿يَتَى﴾:

قرأ حفص (بيتي) وقرأ الباقر (بيتي).

الإعراب:

﴿مَنْ لَّزَّ بَرْدَهُ مَالَهُمُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿وَوَلَدَهُ﴾ مفرد، وقرئ: (وُلْدُهُ) بضم الواو وسكون اللام إما جمع (ولد) أو لغة في (ولد) كُنْحَلٌ وَنَحْلٌ، وَحُزْنٌ وَحَزْنٌ، وَسُقْمٌ وَسَقَمٌ.

﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ممنوعان من الصرف للتعريف ووزن الفعل.

﴿لَا نَذَرَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ديار: فيعال، من (دار يدور) وأصله: (دَيَّوَار) فاجتمعت الياء والواو، والسابق منهما ساكن، فقلبت الواو ياء، وجعلتا ياء مشددة، ولا يجوز أن يكون (فَعَالًا) لأنه لو كان (فَعَالًا) لوجب أن يقال (دَوَّار) فلما قيل (دَيَّار) دلَّ على أنه (فيعال) لا (فَعَال).

البلاغة:

﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ إلخ فيها ذكر الخاص بعد العام. وعكسه ذكر العام بعد الخاص في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وكلاهما من باب الإطناب.

المفردات اللغوية:

﴿عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي مجموع القوم الأذنياء. ﴿مَنْ لَّزَّ بَرْدَهُ مَالَهُمُ وَوَلَدَهُ﴾ وهم الرؤساء أو القادة المنعم عليهم بذلك. ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ خسارًا في الآخرة. ﴿وَمَكْرُؤًا﴾ أي الرؤساء، عطف على ﴿مَنْ لَّزَّ بَرْدَهُ﴾ والضمير لمن جمعه للمعنى. ﴿كُتَبَارًا﴾ كبيراً في الغاية، عظيماً جداً؛ لأنهم كذبوا نوحاً وأذوه ومن اتبعه.

﴿وَقَالُوا﴾ للآدنياء السفلة. ﴿لَا تَذَرْن﴾ لا تترك. ﴿وَذًا﴾ صنم لكلب. ﴿وَلَا سَوَاعًا﴾ صنم لهذيل. ﴿وَلَا يَغُوث﴾ صنم لغطيف بالجرف عند سبأ، أو لمذبح. ﴿وَيَعُوق﴾ لهمدان. ﴿وَسَرَّا﴾ صنم لحِمَيْر آل ذي الكلاع. ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ الضمير للرؤساء بأن أمرهم بعبادتهم، أو للأصنام. ﴿وَلَا يُزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ عطف على ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أو على ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْكَ﴾.

﴿يَمَّا خَطِبْتَهُمْ﴾ أي من أجل ذنوبهم وآثامهم. ﴿أَغْرُقُوا﴾ أي بالطوفان. ﴿فَادْخُلُوا نَارًا﴾ وهو عذاب الآخرة أو عذاب القبر. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أي لم يجدوا غير الله أنصاراً يمنعون عنهم العذاب، وهو تعريض لهم باتخاذهم آلهة من دون الله لا تقدر على نصرهم. ﴿دَبَّارًا﴾ نازل دار، أي أحداً، وهو مما يستعمل في النفي العام. ﴿إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ من يفجر ويكفر، كان هذا الدعاء بعد الإيحاء إليه. ﴿وَلَوْلَدَيَّ﴾ وكنا مؤمنين. ﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بُيُوتَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفيني إذا كان مؤمناً. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة. ﴿نَبَارًا﴾ هلاكاً.

المناسبة:

بعد بيان أنواع الدلائل التي استدلت بها نوح عليه السلام على توحيد الإله، أعلن نوح عصيان قومه، وحكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم، ومحورها العكوف على عبادة الأصنام والأوثان. ثم ذكر ما يستحقونه من دخول النار في الآخرة، والهلاك في الدنيا بعد دعاء نوح عليهم بذلك، ودعائه بالمغفرة السابعة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات.

التفسير والبيان:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْكَ وَأَتَّبِعُوا مَا لَزِمَهُمْ وَلَا خَسَارًا﴾ أي دعا نوح عليه السلام ربه قائلاً: يا رب، إن قومي استمروا على عصياني،

ولم يجيبوا دعوتي، واتبع الجمهور الرؤساء والكبراء وأهل الثراء، الذين لم يزدتهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، فخسروا الدنيا والآخرة.

﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا﴾ أي مكروا مكراً عظيماً كبيراً، وهو صدّ الناس عن دعوة نوح إلى الدين الحق وتوحيد الإله، وإغراؤهم السفلة على إيذاء نوح وقتله.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي وقال الرؤساء للأتباع للإغراء بمخالفة نوح وعصيان أوامره وأقواله: لا تركوا عبادة آلهتكم، وتعبدوا رب نوح، ولا تركوا بالذات عبادة هذه الأصنام التي انتقلت عبادتها إلى العرب وهي ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر. فكان ودّ لكلب، وسواع لهذيل، ويغوث لغطفان، ويعوق لهمدان، ونسر الحُمَيْرَ آل ذي الكَلَّاع. وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى^(١) الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلما ماتوا وجاء آخرون، وسوس إليهم إبليس قائلاً: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَوْنَ المطر، فعبدوهم.

وكان عند العرب أصنام أخرى: أهمها اللات لثقيف بالطائف، والعزى لسليم وغطفان وجُشَم، ومناة لخزاعة بَقْدِيد، وأساف ونائلة وهُبَل لأهل مكة، وهبل أكبر الأصنام عندهم، فوضع فوق الكعبة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي وقد أضل كبرائهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس، وقيل: أضلت الأصنام كثيراً من الناس، فإنه

(١) الرُّوحِي: الإعلام في خفاء لأي شيء، من الأرض والإنسان والحيوان.

استمرت عبادتها في القرون بين العرب والعجم إلى عهد النبوة، كما قال إبراهيم الخليل في دعائه: ﴿وَأَجْتَبَيْتَنِي وَبَيَّتَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] .

وناسب ذلك أن يدعو عليهم نوح عليه السلام لإضلالهم وضلالهم وكفرهم وعنادهم، فقال: ولا تزد الكافرين إلا حيرة وبعداً عن الصواب، فلا يهتدوا إلى الحق والرشد، وذلك كما دعا موسى عليه السلام على فرعون وقومه في قوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ١٠/٨٨] .

ثم أبان الله تعالى جزاءهم وسبب الجزاء وهو إضلال الناس فقال:

﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذِلُّوْا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٥﴾
أي من أجل كثرة سيئاتهم وآثامهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم، أغرقوا بالطوفان، ثم أدخلوا نار الآخرة، فلم يكن أحد يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾
أي لما أيس نوح من إيمانهم، دعا عليهم بعد أن أوحى إليه ذلك، فقال: رب لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً يسكن الديار.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾
أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك الذين تخلقهم بعدهم عن طريق الحق، ولا يلدوا إلا كل فاجر في الأعمال بترك طاعتك، كثير الكفران في القلب لنعمتك، لخبرته بهم، ومكثه معهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم دعا نوح عليه السلام لأهل الإيمان، وأعاد الدعاء مرة أخرى على الكفار، قائلاً:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾ أي رب استر علي ذنوبي واستر علي والدي المؤمنين برسالي، واغفر لكل من دخل منزلي وهو مؤمن، ولكل المصدقين بوجودك ووحدانيتك ولكل المصدقات بذلك من الأمم والأجيال القادمة، ولا تزد الذين ظلموا أنفسهم بالكفر إلا هلاكاً وخسراناً ودماراً.

وقد شمل دعاؤه هذا كل مؤمن وكل ظالم إلى يوم القيامة.

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».

ويستحب مثل دعاء نوح اقتداء به لجميع المؤمنين والمؤمنات من الأحياء والأموات.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - لا تجوز الشكوى إلا إلى الله عز وجل، ولذا شكى نوح قومه إلى ربه، وأنهم عصوه ولم يتبعوه فيما أمرهم به من الإيمان، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، داعياً لهم، وهم على كفرهم وعصيانهم. قال ابن عباس: رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء؛ فيأتي بهم الولد بعد الولد، حتى بلغوا سبعة قرون، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا.

ب - يقلد الناس في العادة قاداتهم وكبراءهم، وقد اتبع قوم نوح رؤساءهم وأغنياءهم الذين لم يزدتهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالاً في الدنيا وهلاكاً في الآخرة؛ ومكروا مكرّاً عظيماً بصرف الناس الأتباع عن الدين والإيمان، وبإغراء السفلة على قتل نوح عليه السلام.

٣ - أصَرَ قوم نوح على الكفر والعناد والتمرد وعبادة الأصنام، وتواصوا بعبادة الأوثان وترك عبادة الله، ولا سيما عبادة وَدَّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهي أصنام وصور، كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب.

٤ - أكد نوح عليه السلام في شكواه أنه أضل كبراء قومه كثيراً من أتباعهم، لذا دعا عليهم بقوله: ولا تزد الظالمين الكافرين إلا عذاباً^(١) وخسراناً وضلالاً عن طريق أهل الجنة، أو ضلال مكرهم. وإنما دعا نوح عليهم بالضلال غضباً عليهم حين عرف بالقرائن المفيدة للجزم أنهم لا يكادون يؤمنون.

٥ - إن خطايا وذنوب قوم نوح هي السبب في الإغراق بالطوفان ودخول نار جهنم بعد إغراقهم، فلم يجدوا حيثئذ أحداً يمنعهم من عذاب الله.

٦ - استدل بعض أهل السنة وهو القشيري بآية ﴿أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ على إثبات عذاب القبر؛ لأن إدخال النار حصل عقيب الإغراق، فلا يحمل على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة الفاء على التعقيب، ولأنه قال: ﴿فَأَدْخِلُوا﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي، وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك.

ورد الرازي بأن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل؛ لأن المعنى صاروا مستحقين دخول النار، وأما التعبير بقوله: ﴿فَأَدْخِلُوا﴾ فهو عن المستقبل بلفظ الماضي، لتأكيد وقوعه وصحة وجوده^(٢).

٧ - قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ حجة على كل من عوّل على شيء غير الله تعالى؛ لأن الآية تعريض بالمشركين الذين واطبوا على

(١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ فِي صَلَاتِهِمْ شِدَّةٌ﴾ [القمر: ٥٤/٤٧] والضلال هنا: العذاب.

(٢) تفسير الرازي: ١٤٥/٣٠

عبادة الأصنام، لتكون دافعة للآفات عنهم، جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب الله لم يتنفعوا بتلك الأصنام، وما دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله.

٨ - دعا نوح على الكفار بالدمار والهلاك بعد أن يشس من أتباعهم إياه، وبعد أن أوحى الله إليه: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكِ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦/١١] فأجاب الله دعوته وأغرق أمته. وهذا كقول النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم».

قال ابن العربي: دعا نوح على الكافرين أجمعين، ودعا النبي ﷺ على من تحزب على المؤمنين وألب عليهم. وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة. وإنما خص النبي ﷺ بالدعاء عُتْبَةً وَشَيْبَةً وَأَصْحَابَهُمَا؛ لعلمه بمآلهم وما كُشف له من الغطاء عن حالهم، والله أعلم^(١).

٩ - دعا نوح أيضاً لنفسه ولوالديه، وكانا مؤمنين، ولكل من دخل منزله مؤمناً، أو دخل مسجده ومصلاه مصلياً مصداقاً بالله تعالى، وجميع المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات عامة إلى يوم القيامة.

ثم دعا أيضاً على الكافرين في مقابلة أهل الإيمان بقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بُرْءًا﴾ أي لا تزد الكافرين إلا هلاكاً، وهذا عام في كل كافر ومشرِك.

(١) أحكام القرآن: ١٨٤٨/٤ وما بعدها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْجِنِّ

مكية، وهي ثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة الجن؛ لتعلقها بأحوالهم، فإنهم لما سمعوا القرآن، آمنوا به، ثم أبانوا علاقتهم بالإنس، ومحاولتهم استراق السمع، ورميهم بالشهب المحرقة، وغير ذلك من حديث الجن العجيب الذين منهم المؤمن ومنهم الكافر، والجن عالم لا نراه، ولا طريق لمعرفة شيء عنه إلا بالوحي الإلهي. ويلاحظ أن تسميات السور تبعث على النظر والتفكير.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

١ - قال الله سبحانه في سورة نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ غَافَرًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝﴾ [١١-١٠] وقال تعالى في هذه السورة لكفار مكة: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقْتُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝﴾ .

٢ - ذكر في السورتين شيء يتعلق بالسماء، كما ذكر فيهما عذاب العصاة، فقال تعالى في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝﴾ [١٥] وقال عز وجل هنا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشَهَبًا ﴿٨﴾ [٨] وقال في السورة المتقدمة: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذِنُوا نَارًا﴾ [٢٥] وقال هنا: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [٢٣].

ما اشتملت عليه السورة:

هناك موضوعان بارزان في السورة هما: الإخبار عن حقائق تتعلق بالجن، وتوجيهات للنبي ﷺ في تبليغه الدعوة إلى الناس.

افتتحت السورة بالإخبار عن إيمان فريق من الجن بالقرآن العظيم حين سمعوا تلاوته من النبي ﷺ في صلاته في منى بعد عودته من الطائف قبيل الإسراء والمعراج: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الآيات: ١-٢] فهو كما قالوا كتاب يهدي إلى الرشد.

ثم أبانت تمجيدهم الله عز وجل وإفرادهم له بالعبادة وتزويهم له عن اتخاذ صاحبة الولد، وتسفيههم من جعل لله ولداً، وعلاقة الجن بالإنس: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ طَطَّبُوا كَمَا طَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ﴿٧﴾ [٧-٣].

وأعقبت ذلك بالإخبار عن محاولات الجن استراق السمع من السماء، للتعرف على خبر العالم العلوي، ومنعهم منه لإحاطة السماء بالحرس الملائكي، وإحراقهم بالشهب النارية بعد بعثة النبي ﷺ، وتعجبهم من هذا الحديث السماوي، وتساؤلهم: هل يراد به تعذيب أهل الأرض: ﴿وَأَنَّا لَسْنَا السَّمَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآيات: ٨-١٠].

وصرح الجن بعدئذ بانقسامهم إلى فريقين: مؤمنين وكفار، مع تبشير المؤمنين بخير الدنيا والآخرة وعزهما، وإنذار الكافرين المعرضين عن هدي الله

وكتابه بالعذاب الشديد: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الآيات: ١١-١٨].

ووصفوا تجمعهم حول النبي ﷺ حين سمعوه يتلو القرآن: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الآية: ١٩].

واشتمل القسم الثاني من السورة على توجيهات للنبي ﷺ بأمره بتبليغ دعوته إلى الناس وإخلاص العمل لله وكونه لا يشرك بربه أحداً، وإعلامه بأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وأنه لا ينجيه أحد من الله إن عصاه، وأنه لا يدري بوقت العذاب: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ إِن أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوَعَّدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِي رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ [الآيات: ٢٠-٢٥].

وختمت السورة ببيان استئثار الله واختصاصه بمعرفة علم الغيب، وإحاطته بجميع ما لدى الخلاق وإحصاء أعدادهم: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَيْبِهِمْ﴾ [٢٦-٢٨].

إيمان الجن وباللہ تعالیٰ

﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ سَمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُونَ سَفِهْنَاهُ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنْتُمْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿قُرْءَانًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وفقاً (قراناً).

﴿وَأَنْتُمْ تَقْلُونَ﴾، ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُونَ﴾، ﴿وَأَنَا ظَنَنْتُ﴾، ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا رِجَالًا﴾،
﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوا﴾:قرأ ابن عامر، وحفص، وحمة، والكسائي، وخلف، بفتح الهمزة في
المواضع كلها.

وقرأ الباقون بكسرها.

الإعراب:

﴿أَنَّهُ أَسْمَعَ﴾ في موضع رفع، نائب فاعل لـ ﴿أَوْحَى﴾ وعطف عليها جميع
ما ذكر بعدها، وهو اثنا عشر موضعاً من لفظ (أَنْ) فهو عطف على الموحى
به، ويصح الكسر في الجميع عطفاً على المقول.﴿كَذِبًا﴾ منصوب على المصدر؛ لأنه نوع من القول، أو صفة لمحدوف،
أي قولاً مكذوباً فيه.﴿أَنْ لَّنْ نَقُولَ﴾ ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، أي أنه. وكذا ﴿أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ﴾
مخففة من الثقيلة. ﴿أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ سد مسد مفعولي ﴿ظَنُّوا﴾.

البلاغة:

﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وصف بالمصدر للمبالغة، أي عجباً في إيجازه وإعجازه.

﴿فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ بينهما طباق السلب؛ لأن الإيمان ضد
الشرك ونفي له.

﴿الْإِنْسُ﴾ و﴿الْجِنُّ﴾ بينهما طباق.

﴿أَحَدًا﴾، ﴿وَلَدًا﴾، ﴿رَصَدًا﴾، ﴿رَشَدًا﴾، ﴿قَدَدًا﴾، ﴿صَعَدًا﴾،
﴿عَدَدًا﴾ إلخ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وهو ما يسمى في علم
البدیع بالسجع المرصع.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ﴾ أيها النبي للناس. ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أخبرني الله تعالى بالوحي. ﴿أَنَّهُ﴾
الهاء ضمير الشأن. ﴿أَسْتَمِعْ﴾ لقراءتي القرآن. ﴿نَفَرٌ﴾ نفر: ما بين الثلاثة إلى
العشرة. ﴿الْجِنُّ﴾ أجسام عاقلة خفية مخلوقة من النار، والمقصود بهم هنا جن
نصيين، وذلك في صلاة الصبح يبطن نخل: موضع بين مكة والطائف، وهم
المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩/٤٦]
﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم. ﴿قُرْآنًا﴾ كتاباً. ﴿عَجَبًا﴾ بديعاً في حسن
نظمه ودقة معناه، يتعجب منه من فصاحته وغزارة معانيه، مبين لكلام
الناس. و﴿عَجَبًا﴾: مصدر وصف به القرآن للمبالغة.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ الإيمان والحق والصواب. ﴿فَتَأْمَنَّا بِفِءٍ﴾ بالقرآن.
﴿وَلَنُشْرِكَ رَبَّنَا أَحَدًا﴾ لما نطق به من الأدلة القاطعة الدالة على التوحيد.
﴿وَأَنَّهُمُ﴾ الهاء ضمير الشأن. ﴿تَمَلَّكَ جَدُّ رَبِّنَا﴾ تزه جلاله وعظمته عما نسب
إليه من الصاحبة والولد، والمعنى: وصف بالتعالي عن الصاحبة والولد
لعظمته. والجَدُّ: العظمة. وقرئ: جَدًّا بالتمييز، وجَدَّ بالكسر، أي صدق
ربوبيته، كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك
واتخاذ الصاحبة والولد. ﴿صَلَحَةٌ﴾ زوجة. ويحتمل أن يكون المراد من الجَدِّ:
الملك والسلطان أو الغنى، جاء في الحديث: «لا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» قال
أبو عبيدة: لا ينفع ذا الغنى منك غناه. ﴿سَفِيْهُنَا﴾ السفية: الجاهل ومن عنده
خفة وطيش تنشأ عن حق وجهل. ﴿شَطَطًا﴾ غلواً في الكذب وتجاوزاً حد

العدل والحق بنسبة صاحبة الولد إليه. ﴿كَذِبًا﴾ بوصفه بذلك، حتى تبينا كذبهم فيما قالوا. ﴿يُؤْذُونَ﴾ يستعذون أو يطلبون النجاة والعون. ﴿رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ كان الرجل إذا أمسى بأرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ زادوا الجن باستعاذتهم بهم. ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً وكبراً وعتواً، وأصل الرهق: الإثم وارتكاب المعاصي. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الإنس. ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الجن. ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾: أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكَاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: ما هذا إلا لشيء قد حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، فانظروا هذا الذي حدث، فانطلقوا، فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة، إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فهناك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآناً عجباً، فأنزل الله على نبيّه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن.

نزول الآية (٦):

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُؤْذُونَ رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ابن حبان في العظمة عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة، وذلك أول ما

ذكر رسول الله ﷺ، فأوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل، جاء ذئب، فأخذ حَمَلًا من الغنم، فوثب الراعي، فقال: عامر الوادي، جارك، فنادى مناد، لا نراه يا سرحان، فأق الحَمَل يشد حتى دخل في الغنم، وأنزل الله على رسوله بمكة: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦) الآية.

وأخرج ابن سعد عن أبي رجاء العطاردي من بني تميم قال: بُعث رسول الله ﷺ، وقد رعت على أهلي، وكفيت مهتهم، فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هراباً، فأتينا على فلاة من الأرض، وكنا إذا أُمسينا بمثلها قال شيخنا: إنا نعوذ بعزير هذا الوادي من الجن الليلة، فقلنا ذاك، فقيل لنا: إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من أقر بها، أُمِن على دمه وماله، فرجعنا فدخلنا في الإسلام، قال أبو رجاء: إني لأرى هذه الآية نزلت في وفي أصحابي: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦).

التفسير والبيان:

حكى الله عن الجن ستة أشياء وهي:

أ - ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) أي قل يا محمد مخبراً أمتك وقومك بأن الجن استمعوا القرآن، فأمنوا به وصدّقوه وانقادوا له، فقد أوحى الله إلي على لسان جبريل عليه السلام أنه استمع عدد من الجن إلى قراءتي للقرآن، وهي سورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) [العلق: ١/٩٦] فقالوا لقومهم لما رجعوا إليهم: سمعنا كلاماً مقروءاً مشيراً للعجب في فصاحته وبلاغته، ومواعظه وبركاته. والإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء، كالإلهام وإنزال الملك، ويكون ذلك في سرعة.

والجنّ عالم مستتر عنا، لا نعرف عنه إلا ما أخبر به الوحي، فهم مخلوقون

من النار: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ۝٢٧﴾ [الحجر: ٢٧/١٥] ، ولم يرسل الله إليهم رسلاً منهم، بل الرسل جميعاً من البشر، وهم كالbشر منهم المؤمن المثاب، ومنهم الكافر المعاقب.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَعِجُونَ الْفُرْعَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩/٤٦] .

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢٨﴾ أي إن هذا القرآن يرشد إلى الحق والصواب ومعرفة الله تعالى، فصدقنا به أنه من عند الله، ولن نشرك مع الله إلهاً آخر من خلقه، ولا نتخذ إلهاً آخر، وهذا إعلان منهم للإيمان أمام قومهم حين رجعوا إليهم، كما جاء في تنمة آية الأحقاف السابقة: ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

وفي الآية دلالة أن أعظم ما في دعوة محمد ﷺ: توحيد الله تعالى، وخلع الشرك وأهله. وقد آمنت الجن أن القرآن كلام الله، بسماعه مرة واحدة، ولم يتنفع كفار قريش، ولا سيما رؤساؤهم، بسماعه مرات، مع كون الرسول ﷺ منهم يتلوه عليهم بلسانهم.

٢ - ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٢٩﴾ وأنه ارتفع عظمة ربنا وجلاله، أو فعله وأمره وقدرته، وأنه تعاظم عن اتخاذ صاحبة والولد، كما يقول الكفار الذين ينسبون إلى الله صاحبة والولد. والمعنى أنهم كما نفوا عن أنفسهم الإشراف بالله، نزهبوا الرب جلّ جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ صاحبة والولد. وبذلك أثبتوا وحدانية الله وامتناع وجود شريك له، ثم أثبتوا له القوة والعظمة، ونزهوه عن الحاجة والضعف باتخاذ صاحبة والولد، شأن العباد الذين يتعاونون على أمور الحياة بالزوجة للسكن والألفة، وبالولد للموازة والتكاثر والأنس.

٣ - ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُونَ سَفِهْنَاهُ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٣٠﴾ أي وإن مشركي الجن

وجهاهم كانوا قبل إسلامهم يقولون قولاً متجاوزاً الحد، بعيداً عن الصواب، غالباً في الكفر، فهم يكذبون على الله بدعوى الصاحبة والولد وغير ذلك. والشطط: مجاوزة الحد في الظلم والكفر وغيره من الباطل والزور.

٤ - ﴿وَأَنَّا طَنَّا أَنَّ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾ أي وأنا حسبنا أن الإنس والجن كانوا لا يكذبون على الله، حينما قالوا بأن له شريكاً وصاحبةً وولداً، فصدقناهم في ذلك، فلما سمعنا القرآن علمنا بطلان قولهم وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق، وعرفنا أنهم كانوا كاذبين.

وهذا - كما ذكر الرازي - إقرار منهم بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد، وأنهم إنما تخلصوا منها بالاستدلال والاحتجاج.

٥ - ﴿وَأَنَّهُمْ كَانُوا رِجَالًا مِّنَ الْإِنْسِ يَتَّبِعُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ﴾ أي كنا نرى أن لهم فضلاً علينا، فكان بعض الإنس يستعيز في القفار ببعض الجن، فزادوا رجال الجن طغياناً وسفهاً وغياً وضلالاً وإثمًا. وذلك أنه كان العرب إذا نزل الرجل بوادٍ قال: أعود بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فبييت في جواره حتى يصبح. وقد أدى هذا إلى اجتراء الجن على الإنس وظلمهم.

ونظير الآية: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنْسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٨/٦].

٦ - ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ﴾ أي وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن أنه لا بعث ولا جزاء، أو أنه لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً يدعو إلى التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر.

فقه الحياة لو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

أ - الإخبار عن قصص الجن له فوائد كثيرة أهمها بيان أنهم مكلفون بالتكاليف الشرعية كالإنس، وأن المؤمن منهم يدعو الكافر إلى الإيمان، وأن النبي ﷺ مبعوث إلى العالمين: الإنس والجن وإلى الملائكة تشریفاً، وأن يكون إيمانهم بالقرآن باعثاً كفار قريش وغيرهم إلى الإيمان به، وأنهم يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

لكن ظاهر القرآن يدل على أن النبي ﷺ ما رآهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ﴾. وفي صحيح البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ.. إلخ ما ذكر في سبب النزول المتقدم. ففي هذا الحديث دليل على أنه ﷺ لم يرَ الجن، ولكنهم حضروه، وسمعوا قراءته. وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تجسّسوا الخبر، بسبب الشياطين لما رُموا بالشهب، وكان المرميون بالشهب من الجن أيضاً، لقوله ﷺ في الحديث: «وأرسلت عليهم الشُّهْب».

ومذهب ابن مسعود أنه أمر النبي ﷺ بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم، ويدعوهم إلى الإسلام، وأن النبي ﷺ رأى الجن، قال القرطبي: وهو أثبت؛ روى عامر الشعبي قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلت: استُطير^(١) أو

(١) استطير فلان: ذعر.

اغْتِيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبح إذا هو بجيء من قِبَل جِراء، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك وطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال:

«أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن» فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ فقال: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه، يقع في أيديكم أوفرّ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ عُلِّقَتْ لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجن».

قال ابن العربي: وابن مسعود أعرف من ابن عباس؛ لأنه شاهده، وابن عباس سمعه، وليس الخبر كالمعاينة^(١).

وأصل الجن كما قال الحسن البصري: أن الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب. فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً، فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

٢ - حكى الله عن الجن أشياء:

أولاً - إنهم لما سمعوا القرآن العجيب في فصاحة كلامه وبلغ مواعظه الهادي إلى مرشد الأمور، قالوا: اهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله، ولن نشرك بربِّنا أحداً، أي ولن نعود إلى ما كنّا عليه من الإشراك به.

ثانياً - إنهم كما نفوا عن أنفسهم الشرك، نزّهوا ربّهم عن الصاحبة والولد، لذا قالوا: عَظُمَ الله سبحانه عن أن يكون له صاحبة أو ولد.

(١) أحكام القرآن: ٤/١٨٥٢

ثالثاً - استنكروا ما كان يقول إبليس والجن قبل إسلامهم من الكذب والغلو في الكفر ومجاوزة الحد في الظلم.

رابعاً - حسبوا أن لن يكذب الإنس والجن على الله، فلذلك صدقوهم فيما سلف في أن الله صاحبةٌ وولداً، فلما سمعوا القرآن تبيّنوا به الحق.

خامساً - كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال: أعود بسيد هذا الوادي، أو بعزير هذا المكان من شرّ سفهاء قومه، فبييت في جوار منهم حتى يصبح، فزاد الإنس الجنّ طغياناً وعتواً بهذا التعوذ، حتى قالت الجن: سُدْنَا الإنس والجن. وقيل: ازداد الإنس بهذا فرقاً وخوفاً من الجن، وقيل: زاد الجنّ الإنس رهقاً أي خطيئةً وإثمًا.

ويقال بدلاً من هذه الاستعاذة: ما جاء في حديث أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة عن ابن عباس، وقال غريب جداً: أنه ﷺ قال: «إذا أصاب أحد منكم وحشة أو نزل بأرض مجنّة^(١)، فليقل: أعود بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها برّ ولا فاجر من شرّ ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن النهار، ومن طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير».

سادساً - ظن الإنس كما ظن الجن أن لن يبعث الله الخلق، أو ظنت الجن كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه يقيم به الحجة، وكل هذا توكيد للحجة على قريش، فإذا آمن هؤلاء الجن بمحمد، فأنتم أحق بذلك. وعلى هذا يكون الكلام كلام الجن، وهو الظاهر.

ومحتمل أن يكون الكلام من قول الله تعالى للإنس، والمعنى: وأن الجن ظنوا كما ظننتم يا كفار قريش.

(١) أرض مجنة: أي ذات جنّ.

وعلى كلا التقديرين: دلت الآية على أن الجن كما كان فيهم مشرك ويهودي ونصراني، فيهم من ينكر البعث.

حكاية أشياء أخرى عن الجن

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ۝١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُنْجِزُهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ وَالْوَلَوِ اسْتَقْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۝١٦﴾ لَنَقِينَهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾

القرءات:

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا﴾، ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ﴾، ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي﴾، ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾، ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾، ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾، ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾:

قرأ ابن عامر، وحفص، وحمة، والكسائي، وخلف، بفتح الهمزة في المواضع كلها. وقرأ الباقر بكسرها.

﴿يَسْلُكْهُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (نسلكه).

الإعراب:

﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، وإما أن تجعل (وجد) متعدية إلى مفعولين، بمعنى علمناها، والها: المفعول

الأول، وجملة ﴿مُلِثْتُ﴾ المفعول الثاني، وإما أن تجعل متعدية إلى مفعول واحد، بمعنى أصبناها، وتجعل ﴿مُلِثْتُ﴾ في موضع الحال، بتقدير (قد)، و﴿حَرَسًا﴾: تمييز منصوب.

﴿أَنْ لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ ﴿أَنْ﴾: مخففة من الثقيلة: أنه.

﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ ﴿هَرَبًا﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال، تقديره: ولن نعجزه هارين.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ بالعطف على هاء ﴿وَأَمَّا يَدُ﴾ على تقدير حذف حرف الجر، لكثرة حذفه مع (أَنْ) علماً بأن العطف على الضمير المجرور لا يجوز. وبكسر (إنا) بالعطف على قوله: ﴿فَقَالُوا﴾ وما بعده في تقدير الابتداء والاستئناف، قال ابن بحر: كل ما في هذه السورة من (إن) المكسورة المثقلة، فهي حكاية لقول الجن الذين استمعوا القرآن، فرجعوا إلى قومهم منذرين، وكل ما فيها من (أن) المفتوحة، فهي وحي إلى رسول الله ﷺ.

﴿وَالْوِاسْتَقْلَامُ﴾ ﴿أَنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي وأنهم.

﴿يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ﴿عَذَابًا﴾ منصوب بتقدير حذف حرف الجر، تقديره: يسلكه في عذاب، فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به، فنصبه. و﴿صَعَدًا﴾: مصدر وصف به العذاب.

البلاغة:

﴿تَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَالِدَ لِّلْمَسْمُوعِ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ تأدب مع الله بنسبة الخير إلى الله، دون الشر، وبين لفظ (الشر) و (الرشد) طباق في المعنى.

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ استعارة، استعار الطرق للمذاهب المختلفة.
﴿الْمُسْلِمُونَ﴾ و﴿الْقَلَسِطُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طلبنا بلوغها واستماع أخبارها. ﴿حَرَسًا﴾ حراساً من الملائكة، وهو اسم جمع كالخدم، مفردة حارس. ﴿شَدِيدًا﴾ قوياً. ﴿وَشُهْبًا﴾ نجومًا محرقة، جمع شهاب: وهو الشعلة من نار ساطعة. ﴿نَقَعْدُ مِنْهَا مَقْعِدَ السَّمْعِ﴾ أي نحاول الاستماع والترصد. ﴿رَصَدًا﴾ أي أرصد وهيئ له ليرمى به. ﴿أَشْرُّ أُرِيدَ﴾ بعد استراق السمع. ﴿يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ بجراسة السماء. ﴿رَشَدًا﴾ خيراً وصلاًحاً.

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرار بعد استماع القرآن. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ومنا قوم دون ذلك، أي غير صالحين، فحذف الموصوف. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ﴾ ذوي طرائق، أي مذاهب. ﴿قِدَدًا﴾ متفرقة مختلفة، مسلمين وكافرين، جمع قِدَّة، من قَدَّ: إذا قطع. ﴿ظَنَنَّا﴾ علمنا. ﴿أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ لا نفوته ولا نفلت منه كائنين في الأرض، أينما كنا فيها، أو هاربين منها في السماء، إن طلبنا. ﴿الْمُهْدَى﴾ القرآن. ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي فهو لا يخاف. ﴿بَحْسًا﴾ نقصاً من حسناته. ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ظلماً بالزيادة في سيئاته.

﴿الْقَلَسِطُونَ﴾ الجاثرون عن طريق الحق وهو الإيمان والطاعة. ﴿تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ قصدوا وتوخوا طريق الحق والهداية ليلبغهم إلى دار الثواب. ﴿حَطَبًا﴾ وقوداً للنار. ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ هي طريق الإسلام. ﴿مَاءَ غَدَقًا﴾ كثيراً. ﴿لَقَيْنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرونه. ﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ تذكيره وهو الوحي أو القرآن، أو مواعظه. ﴿يَسْلُكُهُ﴾ ندخله. ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه.

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿وَالْوَيْحَةُ آتَتْهُمُ عَلَى الْطَّرِيقَةِ لَا تُفْقِدُهَا عَنْ يَدِكَ وَخَفَى حَقُّهَا﴾ قال: نزلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين.

التفسير والبيان:

يتابع الحق عز وجل حكاية أشياء أخرى وهي سبعة أنواع بالإضافة إلى الأنواع الستة المتقدمة، فيصير المجموع ثلاثة عشر نوعاً، والأنواع السبعة هي:

أ - ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (٨) أي لما بعث النبي ﷺ وأنزل عليه القرآن، طلبنا خبر السماء كما جرت به عادتنا، فوجدناها ملئت حُرَاساً أقوياء من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، ووجدنا أيضاً نيراناً من الكواكب تحرق وتمنع من أراد استراق السمع كما كنا نفعل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥/٦٧] . فالشهب: انقضاض الكواكب المحرقة للجن لمنعهم عن استراق السمع.

أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: كان للشياطين مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زاد فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ مُنعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين بمكة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا هو الحدث الذي حدث في الأرض.

والخلاصة: أن الشياطين منعت بعد بعثة النبي ﷺ من استراق السمع لثلاث
يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلبس الأمر ويختلط،
ولا يدري من الصادق.

٢ - ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمِعْ أَلاَّ نَحِيدَ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ۖ﴾
أي إننا كنا نقعد في السماء مقاعد لاستراق السمع، وسماع أخبار
السماء من الملائكة لالقاءها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه عند بعثة
رسول الله ﷺ بالشهب المحرقة، فمن يرم أن يسترق السمع اليوم، يجد له
شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يحرقه ويهلكه.

٣ - ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۖ﴾
أي وإننا لا نعلم بسبب هذه الحراسة للسماء، أشر أو عذاب أراده الله أن
ينزله على أهل الأرض، أم أراد بهم ربهم خيراً وصلاً، بإرسال نبي مصلح.
وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه
إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك».

٤ - ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۖ﴾ أي أخبر
تعالى عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم، لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان
بمحمد ﷺ: كنا قبل استماع القرآن: مِنَّا المؤمنون الأبرار الموصوفون
بالصلاح، وَمِنَّا قوم دون ذلك، أي غير صالحين أو كافرين، كنا جماعات
متفرقة، وأصنافاً مختلفة، وأهواء متباينة. والمراد أنهم كانوا أقساماً، فمنهم
المؤمن ومنهم الفاسق ومنهم الكافر، كما هي حال الإنس. قال سعيد بن
المسيب: كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً.

٥ - ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن تَعَجَّرَ هَرَبًا ۖ﴾ أي
وأننا علمنا أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نفلت من قدرة الله ولا نفوته إن
طلبنا وأراد بنا أمراً، سواء كنا كائنين في الأرض أو هاربين منه إلى السماء،
فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا.

٦ - ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا مُهْدًىءً مَأْمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصَ وَلَا رَهَقًا﴾ (١٣) أي وأنا لما سمعنا القرآن، صدقنا أنه من عند الله، ولم نكذب به، كما كذبت به كفرة الإنس، فمن يصدق بربه وبما أنزله على رسله، فلا يخاف نقصاناً من حسناته، ولا عدواناً وظلماً وطغياناً بالزيادة في سيئاته.

٧ - ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (١٤) أي وأن بعضنا مؤمنون مطيعون لربهم يعملون الصالحات، وبعضنا جائرون ظالمون حادوا عن طريق الحق والخير ومنهج الإيمان الواجب، فمن آمن بالله وأسلم وجهه لله بطاعة شريعته، فأولئك قصدوا وتوخوا الطريق الموصل للسعادة، وطلبوا لأنفسهم النجاة من العذاب، وهذا ثواب المؤمنين.

ويلاحظ أن القاسط: الجائر عن الحق الناكب عنه؛ لأنه عادل عن الحق، بخلاف المقسط وهو العادل؛ لأنه عادل إلى الحق، والقاسطون: الكافرون الجائرون عن طريق الحق، من قسط أي جار، والمقسط: القائم بالعدل، من أقسط، أي عدل.

ثم ذم الجن الكافرين بقولهم:

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥) أي وأما الجائرون الحائدون عن منهج الإسلام فكانوا وقوداً للنار توقد أو تسعر بهم، كما توقد بكفرة الإنس.

وبعد بيان النوع الأول من الموحى به إلى رسوله، ذكر تعالى النوع الثاني الموحى به إليه، فقال:

﴿وَالْوَلَوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (١٦) لِنَفْنِئَهُمْ فِيهِ أي وأوحى إلي أنه لو استقام الجن والإنس على طريقة الإسلام، لأسقيناهم ماءً كثيراً، ولآتيناهم خيراً كثيراً واسعاً، لنختبرهم أي لنعاملهم معاملة المختبر،

فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم، فإن أطاعوا ربهم أثبتناهم، وإن عصوه عاقبناهم في الآخرة، وسلبناهم النعمة، أو أمهلناهم ثم أهلكناهم، كما أبانت الآية التالية:

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن القرآن أو عن الموعظة، فلا يأتمر بالأوامر ولا يتنهي عن النواهي، يدخله عذاباً شاقاً صعباً لا راحة فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - تغير الحال بعد البعثة النبوية عن الجن، فإنهم كعادتهم طلبوا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها، فوجدوها ملئت حَفَظَةً، أي ملائكة، ورموا بالشهب: وهي الكواكب المحرقة لهم، منعاً من استراق السمع.

قال الرازي: والأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث، إلا أنها زيدت بعد المبعث، وجعلت أكمل وأقوى، وهذا هو الذي يدل عليه لفظ القرآن؛ لأنه قال: ﴿فَوَجَدْنَهَا مَلِيئَةً﴾ وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة، وكذلك قوله: ﴿نَقَعُ مِنْهَا مَقْعِدًا﴾ أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها^(١).

٢ - لم يفهم الجن القصد من تشديد الحراسة على أخبار السماء، فهل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً، أو يُرسل إليهم رسولاً؟ وهل المقصود من المنع من الاستراق هو إرادة الشر بأهل الأرض، أم الصلاح والخير؟!

(١) تفسير الرازي: ١٥٨/٣٠

٣ - أخبر الجن عن حقيقتهم قبل البعثة النبوية، فقال بعضهم لبعض لما دَعُوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: إنا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون، فكنا فرقاً شتى، وأدياناً مختلفة، وأهواء متباينة. والمعنى: لم يكن كل الجن كفاراً، بل كانوا مختلفين: منهم كفار، ومنهم مؤمنون صالحاء، ومنهم مؤمنون غير صالحاء. قال سعيد بن المسيب: كنا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً.

٤ - علم الجن وأيقنوا أنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه أو يفلتوا منه، سواء أكانوا في الأرض أينما وجدوا فيها، أم صاروا هاربين منها إلى السماء.

٥ - بادر الجن عند سماع القرآن إلى الإيمان بالله تعالى، والتصديق بمحمد ﷺ على رسالته. وهذا دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الإنس والجن. قال الحسن البصري: بعث الله محمداً ﷺ إلى الإنس والجن، ولم يبعث الله تعالى قط رسولاً من الجن، ولا من أهل البادية، ولا من النساء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩/١٢]. وفي الصحيح: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(١) أي الإنس والجن.

وجزاء الإيمان: أنه لا يخاف أن يُنْقَصَ من حسناته، ولا أن يزداد في سيئاته.

٦ - كذلك كان الجن بعد استماع القرآن مختلفين، فمنهم من أسلم، ومنهم من كفر، فمن أسلم، فقد طلبوا لأنفسهم النجاة، وقصدوا طريق الحق وتوَحَّوه، ومن جار عن طريق الحق والإيمان، فإنهم في علم الله تعالى وقود جهنم.

(١) تفسير القرطبي: ١٦/١٩

أنواع أخرى من الموحى به إلى النبي ﷺ وبيان أصول رسالته

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعف ناصراً وأقلَّ عُدداً ﴿٢٤﴾

القرءات:

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ﴾:

وقرأ نافع (وانه لما قام).

﴿قُلْ إِنَّمَا﴾:

قرأ عاصم، وحمة (قُلْ إِنَّمَا) وقرأ الباقون (قال إِنَّمَا).

الإعراب:

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾: ﴿وَأَنَّ﴾: إما في موضع رفع عطفاً على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَسْمَعَ نَفَرًا﴾ أو في موضع جر، بتقدير حذف حرف الجر، وإعماله بعد الحذف، أي فلا تدعوا مع الله أحداً؛ لأن المساجد لله، أو في موضع نصب، بتقدير حذف حرف الجر، فلما حذف اتصل الفعل به، فنصبه.

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ (أن): إما الفتح عطفاً على (أن) المفتوحة بـ ﴿أَوْحَى﴾ أو بالكسر عطفاً على (إن) المكسورة بعد (قالوا) والضمير للشأن.

﴿إِلَّا بَلَّغًا﴾ إما منصوب على المصدر، ويكون الاستثناء متصلاً، وتقديره: إني لن يجيرني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً، إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغاً. وإما منصوب؛ لأنه استثناء منقطع، أي لن يجيرني أحد، لكن إن بلغت، رحماني بذلك. ﴿خَلِيدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿وَمَنْ﴾ في قوله: ﴿لَهُ﴾ رعاية للمعنى.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا﴾ ﴿مَنْ﴾: إما استفهامية في موضع رفع مبتدأ، و﴿أَضَعَفَ﴾: خبره، و﴿نَاصِرًا﴾: تمييز منصوب، وإما بمعنى الذي، في موضع نصب على أنها مفعول ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ و﴿أَضَعَفَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: من هو أضعف.

البلاغة:

﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ مواضع الصلاة مختصة بالله. ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدوا فيها غيره، بأن تشركوا كما يفعل اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم. ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ هو محمد ﷺ باتفاق الجميع. ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبد به بطن نخلة. ﴿كَادُوا﴾ كاد الجن المستمعون لقراءته. ﴿لَيْدًا﴾ جماعات، جمع لَيْدَة، والمراد أنهم صاروا متزاحمين حرصاً على سماع القرآن. يقال: تلبد القوم: إذا تجمعوا، ومنه قولهم: لبدت الأسد للشعر المتراكم حول عنقه.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٠﴾ أعبد ربي إلهاً واحداً من غير إشراك، فلا داعي للإنكار أو التعجب. ﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ غياً وضرراً، ولا نفعاً وخيراً. ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ﴾ لن ينفعني ويدفع عني من عذابه شيء إن عصيته. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من غيره. ﴿مُلْتَحِدًا﴾ ملتجأ أو ملجأ ألتجئ إليه. ﴿إِلَّا

بَلِّغًا» تبليغاً لرسالاته، وهو استثناء من مفعول «أَمْلِكُ» أي لا أملك لكم إلا البلاغ إليكم أي التبليغ والرسالات، وما بين المستثنى منه والاستثناء اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة، أو مستثنى من قوله «مُلْتَحَدًا» أي إن لم أبلغ بلاغاً لا أجد ملجأ «مَنْ أَلَّه» أي عن الله. «وَرَسَلْتَنِيَّ» معطوف على «بَلِّغًا».

«وَمَنْ يَعْصِ أَلَّهَ وَرَسُولَهُ» أي في توحيد الله، فلم يؤمن؛ لأن الكلام فيه. «فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» أي يدخلونها مقدار خلودهم فيها، وجمع كلمة «خَالِدِينَ» رعاية لمعنى الجمع في «وَمَنْ يَعْصِ». وقوله: «لَهُ» مراعاة للفظ «حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ» أي ما يوعدون به من العقاب في الدنيا كوقعة بدر، أو في الآخرة بعذاب النار، و«حَتَّى» ابتدائية، فيها معنى الغاية لشيء مقدر قبلها، أي لا يزالون على كفرهم إلى أن يروا، أو أنها متعلقة بقوله: «يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا» أي يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره. «فَسَيَعْلَمُونَ» عند حلول العذاب بهم يوم بدر، أو يوم القيامة «مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا» من أضعف أعواناً وأقل أعداداً، هو أم هم.

سبب النزول:

نزل الآية (١٨):

«وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ»: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قالت الجن: يا رسول الله، ائذن لنا، فنشهد معك الصلوات في مسجدك، فأنزل الله: «وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» (١٨). وروي ذلك أيضاً عن الأعمش.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: قالت الجن للنبي ﷺ: كيف لنا أن نأتي المسجد، ونحن ناوون عنك أي بعيدون عنك، أو كيف نشهد الصلاة، ونحن ناوون عنك، فنزلت: «وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ» الآية.

نَزُولُ الْآيَةِ (٢٠):

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾: سبب نزولها كما ذكر الشوكاني: أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عادت الناس كلهم، فارجع عن هذا فنحن نجرك.

نَزُولُ الْآيَةِ (٢٢):

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي﴾: أخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر أن جنياً من الجن من أشرافهم ذا تبع قال: إنما يريد محمد أن يغيره الله، وأنا أجیره، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ الآية.

التفسير والبيان:

أخبر الله تعالى عن النوع الثالث في هذه السورة من جملة الموحى به، فقال:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي وأوحى إلي أن المساجد مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غير الله أحداً، ولا تشركوا به فيها شيئاً.

قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحد وحده. وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ إضافة تشريف وتكريم، فإن نسبت المساجد لغير الله، فتنسب إليه تعريفاً، فيقال: مسجد فلان.

وهذا دليل على أن الله تعالى أمر عباده أن يوحدوه في أماكن عبادته، ولا يدعى معه أحد، ولا يشرك به.

وقال الحسن البصري: أراد بالمساجد البقاع كلها، قال ﷺ فيما رواه الشيخان والنسائي عن جابر: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» كأنه تعالى قال: الأرض كلها مخلوقة لله تعالى، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها. وقال

أيضاً: من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول: لا إله إلا الله؛ لأن قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ في ضمنه أمر بذكر الله وبدعائه.

ثم ذكر الله تعالى النوع الرابع من جملة الموحى به، فقال:

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ﴾ (١٩) أي وأنه لما قام النبي محمد ﷺ يدعو الله ويعبده، كاد الجن يكونون عليه جماعات متراكمين من الازدحام عليه، لسماع القرآن منه، وتعجباً مما رأوا من عبادته؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله، فالضمير في ﴿كَادُوا﴾ للجن، وقيل: الضمير للمشركين.

وقال جماعة^(١): لما قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله، ويدعو الناس إلى ربهم، كادت الإنس من العرب الكفار والجن يتزاحمون عليه متراكمين جماعات ليطفئوا نور الله، ويبطلوا هذا الأمر، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره ويظهره على من ناوأه، فالضمير في ﴿كَادُوا﴾ للإنس والجن. وهذا اختيار ابن جرير وقول قتادة، والأظهر كما ذكر ابن كثير، لقوله تعالى بعده:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۖ﴾ (٢٠) أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تجمعوا عليك لإبطال دينك: إنما أدعو ربي، وأعبده وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكل عليه، ولا أشرك في العبادة معه أحداً.

ثم فوض أمر هدايتهم إلى الله، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۖ﴾ (٢١) أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضرراً، ولا أجلب لكم نفعاً في الدنيا أو الدين، إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله

(١) هم ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وابن زيد والحسن البصري وقتادة.

إلى الله عز وجل. وفي هذا بيان وجوب التوكل على الله تعالى، والمضي في التبليغ دون مبالاة لتظاهرهم عليه، وتهديده لهم إن لم يؤمنوا به.

وأكد الله تعالى ذلك المعنى وهو عجز نبيه عن هدايتهم بإعلان عجزه عن شؤونهم وقضاياءه، فقال:

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا ۝٢٣﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً ۝ أَيُّ قُلٍّ يَا مُحَمَّدٌ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ: لا يدفع عني أحد عذاب الله إن أنزله بي، ولا نصير ولا ملجأ لي من غير الله أحد، ولا يجيرني من الله ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي، فأبلغ عن الله، وأعمل برسالاته، أمراً ونهياً، فإن فعلت ذلك نجوت، وإلا هلكت، وهذا كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧/٥].

ويصح كون الاستثناء: ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ أي لا أملك لكم إلا البلاغ إليكم.

ثم ذكر جزاء العصاة الذين لا يمثلون موجب التبليغ عن الله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ أي أنا أبلاغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك، فله جزاء خطير، وهو نار جهنم، ماكنين فيها أبداً على الدوام، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك.

ثم هدد الله تعالى المشركين الذين كانوا أقصر نظراً من الجن في عدم الإيمان، بالهزيمة والمذلة، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٥﴾ أي ما يزالون على كفرهم، حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا، أي جنداً ينتصر به، وأقل عدداً، أهم، أم المؤمنون الموحدون لله

تعالى؟ أي بل المشركون لا ناصر لهم إطلاقاً، وهم أقل عدداً من جنود الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - إن المساجد أو مواضع الصلاة وذكر الله، ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين يجب أن تتميز بإخلاص العبادة فيها لله، وبالتوحيد، لذا وبخ الله المشركين بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام، والتوبيخ يشمل كل من أشرك مع الله غيره.

قال مجاهد: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن يخلصوا لله سبحانه الدعوة، إذا دخلوا المساجد كلها.

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ: كان إذا دخل المسجد قَدَّمَ رجله اليمنى، وقال: «وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾» اللهم أنا عبدك وزائرُك، وعلى كل مَزُور حق، وأنت خير مَزُور، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار. فإذا خرج من المسجد قَدَّمَ رجله اليسرى؛ وقال: «اللهم ضَبِّ علي الخير صَبًّا، ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً، ولا تجعل معيشتي كدًّا، واجعل لي في الأرض جَدًّا» أي غنى.

٢ - لما قام النبي ﷺ داعياً إلى الله تعالى، وعابداً ناسكاً، كاد الجن يركب بعضهم بعضاً ازدحاماً، حرصاً على سماع القرآن. وكاد المشركون من العرب يركب بعضهم بعضاً تظاهراً على النبي ﷺ وعلى عداوته، واجتمعوا وتظاهروا على إطفاء النور الذي جاء به.

٣ - قصر النبي ﷺ أصول دعوته على ثلاثة أمور:

الأول - عبادة الله وحده دون إشراك أحد معه.

الثاني - تفويض أمر الهداية إلى الله تعالى، وإعلان كونه عاجزاً عن دفع ضرر عن قومه، أو جلب خير لهم، فلا يملك الكفر والإيمان، ومرد ذلك كله إلى الله تعالى.

الثالث - كونه لا مجير له من عذاب الله إن استحقه، ولا ملجأ يلجأ إليه ولا نصير له إن عصى ربه.

٤ - إن طريق الأمان والنجاة للنبي ﷺ هو تبليغ وحي الله، وما أرسل به إلى الناس.

٥ - إن جزاء العاصين لله تعالى ورسوله ﷺ في التوحيد والعبادة هو نار جهنم خالدين فيها أبداً على الدوام. والعصيان: هو الشرك، لقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾.

٦ - إذا شاهد المشركون ما أوعدهم الله من عذاب الدنيا، وهو في الماضي القتل بيدر، أو عذاب الآخرة وهو نار جهنم، فسيعلمون حيثل من أهل الجند الأضعف نصرة وأقل عدداً، أهم أم المؤمنون؟

علم تعيين الساعة مختص بالله عالم الغيب

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمِ رَبِّ أَمَدًا ۖ﴾ (٢٥) عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

القراءات:

﴿رَبِّي أَمَدًا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (رَبِّي أَمَدًا).

﴿لَدَيْهِمْ﴾:

وقرأ حمزة (لديهم).

الإعراب:

﴿أَقْرَبُ مَا تُوعِدُونَ﴾ «أَقْرَبُ» مبتدأ، و﴿مَا﴾ فاعل «أَقْرَبُ» بمعنى الذي، وقد سدت مسد خبر المبتدأ، كقولهم: أقائم أخوك؟ وأذهب الزيدان؟ وعائد «مَا» محذوف، تقديره: أقرب ما توعِدونه، ولكن حذف الهاء. ويجوز أن تكون «مَا» مصدرية، فلا عائد لها.

﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ «مِنْ»: إما في موضع رفع بالابتداء، وخبره «فَإِنَّهُمْ يَسْلُكُ» وإما في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ «أَنْ»: مخففة من الثقيلة، أي أنه.

﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ «عَدَدًا»: منصوب على التمييز، وليس بمصدر؛ لأنه لو كان مصدرًا، لكان مدغمًا: (عدًا). وأجاز القرطبي نصبه على المصدر، أي أحصى وعدَّ كل شيء عددًا، أو نصبه على الحال، أي أحصى كل شيء في حال العدد.

المفردات اللغوية:

﴿إِنْ أَدْرَيْتَ﴾ أي ما أدري. «مَا تُوعِدُونَ» من العذاب. «أَمَدًا» غاية وأجلًا لا يعلمه إلا هو، والأمد: الزمن البعيد. «عَلِمُ الْقَيْبِ» ما غاب

عن العباد. ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ لا يطلع. ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ أَمَدًا﴾ على الغيب المخصوص به علمه. ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ أي إن الرسول يطلعه الله على بعض الغيب معجزة له. ﴿يَسْأَلُ﴾ يجعل ويقيم. ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من بين يدي المرتضى الرسول. ﴿رَصَدًا﴾ حراساً وحفظة من الملائكة يحفظونه حتى يبلغه مع بقية الوحي. وأما كرامات الأولياء في المغيبات فتكون تلقياً من الملائكة.

﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي ليظهر معلوم الله كما هو الواقع من غير زيادة ولا نقص، أو ليعلم محمد النبي الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة معه الوحي بلا تحريف وتغيير، و﴿أَبْلَغُوا﴾ على المعنى الأول: هم الرسل، وعلى الثاني هم الملائكة، وروعي بجمع الضمير معنى من^(١). ﴿رَسَلَتْ رِجَالَهُمْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ اللَّهِ كَمَا هِيَ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أحاط علماً بما عند الرسل، وهو عطف على مقدر، أي فعلم ذلك. ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي أحصى عدد كل شيء.

سبب النزول:

قال مقاتل: إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ قال النضر بن الحارث: متى يكون هذا اليوم الذي توعدنا به؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا﴾ ﴿١٥﴾ إلى آخر الآيات.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا﴾ ﴿١٥﴾ أي قل أيها الرسول: لست أعلم قرب العذاب الذي يعدكم الله به، فما أدري أقرب

(١) أي إن قوله تعالى: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مع قوله: ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ كقوله: ﴿فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ من الحمل على اللفظ تارة، وعلى المعنى أخرى.

وقت الساعة أم بعيد، وهل جعل الله له غاية ومدة؟ فلا يعلم متى يوم القيامة إلا الله وحده. ومضمون الآية أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة، أي تفويض علم تعيين الساعة إلى الله؛ لأنه عالم الغيب.

ويؤكد ما جاء في حديث مسلم عن عمر حينما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ قائلاً: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝﴾ أي إن الله وحده هو العالم بالمغيبات، فلا يُطلع على الغيب (وهو ما غاب عن العباد) أحداً منهم، إلا من ارتضى من الرسل، فإنه يطلعهم على بعض المغيبات، ليكون معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم. وهذا يشمل الرسول الملكي والبشري، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥]. ومن أمثلة إخبار الرسل عن المغيبات قول عيسى عليه السلام: ﴿وَأَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/٤٩].

ثم إن الله تعالى يجعل بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً وحفظة من الملائكة، يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره الله عليه من الغيب، لضبط الوحي، ومنعون الشياطين من استراق الغيب، لإلقائه إلى الكهنة. وفي الكلام إضمار وتقدير: إلا من ارتضى من رسول، فإنه يطلعه على غيبه بطريق الوحي، ثم يجعل بين يديه ومن خلفه حرساً من الملائكة أي الرصد. والرصد: الحفظة يحفظون كل رسول من تعرض الجن والشياطين.

والآية دليل على إبطال الكهانة والتنجيم والسحر؛ لأن أصحابها يدعون علم الغيب من غير دليل، وهي دليل أيضاً على أن الإنسان المرتضى للنبوّة قد يطلعه الله تعالى على بعض غيوبه، أما علم الكهنة والمنجمين فهو ظن وتخمين،

فلا يدخل في علم الغيب. وأما علم الأولياء وظهور الكرامات على أيديهم، فهو إلهامي متلقى من الملائكة، لا يرقى إلى درجة علوم الأنبياء.

وتأول الرازي الآية بأنه لا أدري وقت وقوع القيامة، والله عالم الغيب، فلا يطلع أحداً على وقت وقوع القيامة، فهو من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد، ثم قال الرازي: لا بدّ من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية ألا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل، للأدلة الآتية:

أحدها - أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد ﷺ قبل زمان ظهوره، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم، حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا محمد ﷺ، فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من الغيب.

والثاني - أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة علم التعبير، وأن المعبر قد يخبر عن وقوع الوقائع الآتية في المستقبل، ويكون صادقاً فيه.

والثالث - أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان، وسألها عن الأحوال الآتية في المستقبل، فذكرت أشياء، ثم وقعت على وفق كلامها.

والرابع - أنا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة، وليس هذا مختصاً بالأولياء، بل قد يوجد في السحرة أيضاً من يكون صادقاً في أخباره، وإن كان يكذب في أكثر الأخبار، وقد تُطابق الأحكام النجومية الواقع وتوافق الأمور. وإذا كان ذلك مشاهدًا محسوساً، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه، مما يجبر إلى الطعن في القرآن الكريم، وذلك باطل، فعلمنا أن التأويل الصحيح ما ذكرنا^(١).

وفي رأيي أن علم الغيب الشامل مقصور على الله عز وجل، حتى إن

(١) تفسير الرازي: ١٦٩/٣٠

الملائكة كما في سورة البقرة في بدء الخلق، والجن كما في سورة سبأ، والإنس كما في أواخر سورة لقمان جردوا من علم الغيب، واعترفوا بعدم علمهم بالغيب، وأما هذه الوقائع التي أوردها الرازي فقد تقع بالإلهام سواء للصالح أو غير الصالح.

ثم ذكر الله تعالى علة حفظه الرسل، فقال:

﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رِبِّهِمْ﴾ أي إنه تعالى يحفظ رسله بالملائكة، ليعلم الله علم ظهور وانكشاف في الواقع القائم أن هؤلاء الرسل قد بلغوا الرسائل الإلهية كما هي دون زيادة ولا نقصان. ويصح أن يكون المعنى: ليعلم نبي الله أن جبريل ومن معه من الملائكة قد بلغت عن الله الوحي تماماً من غير تغيير ولا تبديل، وأن الملائكة حفظوا الوحي حتى أوصلوه تماماً إلى الرسل من البشر.

ويكون المراد بالمعنى الأول أن الله يحفظ رسله بملائكته، ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] وكقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النكبات: ١١/٢٩] إلى أمثال ذلك من العلم، بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة، فيكون القصد بما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله، إنما هو علم ظهور لا علم بقاء، فإنه تعالى عالم بالأشياء أزلاً، وإنما يظهر علمه لعباده^(١). لذا أكد تعالى هذا المعنى بقوله:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي إنه تعالى أحاط علماً بما

(١) تفسير ابن كثير: ٤٣٣/٤

عند الرصد من الملائكة، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته، وبما لديهم من الأحوال، فهو عالم بكل شيء كان أو سيكون، وعالم بكل الأحكام والشرائع، ثم عمم العلم بقوله: ﴿وَأَخَصَّى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي ضبط كل شيء معدوداً محصوراً، دون مشاركة أحد من الملائكة وسائط العلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - لا يعلم الغيب أحد سوى الله تعالى، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأطلعهم الله على ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم ممن ارتضاه من رسول. أما المنجم ونحوه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير، فهو كافر بالله، مفترٍ عليه مجدسه وتخمينه وكذبه.

لكن قد يصادف الواقع إخبار هؤلاء المنجمين ونحوهم عن بعض الوقائع في المستقبل، اعتماداً على بعض الدلالات والقرائن والحسابات، ولكن هذا لا يصلح قاعدة عامة، ولا مبدأ مطرداً لا يخطئ؛ فإن العلم بالغيب المختص بالله هو العلم الشامل الصادق في كل الأحيان. كما أن الله تعالى يظهر أحياناً بعض الكرامات بالإلهام على يد بعض أوليائه المخلصين، فيخبرون عن وقوع بعض الوقائع في المستقبل. وهذا ثابت بالأمثلة الكثيرة قديماً وحديثاً، وأيده العلم الحديث، ولكن لا يصح اعتبار ذلك صنعة أو حرفة أو حكماً في الأمور؛ لأن مرجع ذلك كله إلى الله تعالى ومشيتته ومراده، لا إلى خبرة ثابتة أو إلى تصرف الإنسان حسبما يريد.

٢ - يحفظ الله رسله ووحيه من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة، قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة المَلَك، فإذا جاءه شيطان في صورة المَلَك قالوا: هذا شيطان فاحذره. وإن جاءه المَلَك قالوا: هذا رسول ربك.

٣ - لقد أخبر الله تعالى نبيه محمداً بحفظه الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق، أو ليعلم أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه.

وقال الزجاج: أي ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢/٣] أي ليعلم الله ذلك علم مشاهدة، كما علمه غيباً.

٤ - أحاط علم الله سبحانه بما عند الرسل وما عند الملائكة، وأحاط بعدد كل شيء، وعرفه وعلمه، فلم يخف عليه منه شيء، فهو سبحانه المحصي المحيط العالم الحافظ لكل شيء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

مكية، وهي عشرون آية

تسميتها:

سميت سورة المزمّل أي المتلفف بشيابه؛ لأنها تتحدث عن النبي ﷺ في بدء الوحي، ولأنها بدئت بأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يترك التزمّل: وهو التغطي في الليل، وينهض إلى تبليغ رسالة ربه عز وجل.

مناسبتها لما قبلها:

يظهر تعلق السورة بما قبلها من وجهين:

١ - ختمت سورة الجن ببيان تبليغ الرسل رسالات ربهم، وافتتحت هذه السورة بأمر خاتمهم بالتبليغ والإنذار، وهجر الراحة في الليالي.

٢ - أخبر الله تعالى في السورة المتقدمة عن ردود فعل دعوة النبي ﷺ بين قومه والجن في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا كَانَتْ أُولَئِكَ قَالُوا إِنَّهُ يَدْعُنَا إِلَى أَنْ نَكْفُرَ بِمَا كُنَّا نَعْبُدُ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ ثم أمره الله تعالى في مطلع هذه السورة بالدعوة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ أَتْلُ لَكُمْ قِيلًا وَقِيلًا﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

تناول السورة الإرشادات الإلهية الموجهة للنبي ﷺ في مسيرته أثناء تبليغ دعوته، وتهديد المشركين المعرضين عن قبول تلك الدعوة.

وقد ابتدأت بأمره ﷺ بقيام الليل إلا قليلاً منه، وبترتيل القرآن لتقوية روحه: ﴿يَأْتِيهَا الْفُرْقَانُ ① قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② يَصْفَهُ ③ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ⑤ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ⑥﴾ [١-٤] فكان ذلك بياناً لمقدار ما يقوم به في تهجده الذي أمره الله به بقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ⑦﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩] .

ثم أخبرت عن ثقل الوحي وتبعة رسالته العظمى التي كلف بها، وأمره بذكر ربه ليلاً ونهاراً، وإعلان توحيده، واتخاذهِ وكيلاً في كل أموره: ﴿إِنَّا سَأَلْنِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑧﴾ [الآيات ٥-٩] .

وأردفت ذلك بالأمر بالصبر على أذى المشركين، من القول فيه بأنه ساحر أو شاعر، أو في ربه بأن له صاحبة وولداً، وبالهجر الجميل إلى أن ينتصر عليهم، ويتهددهم بسوء العاقبة: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ⑨﴾ [الآيات ١٠-١٩] .

وختمت السورة بإعلان تخفيف القيام لصلاة الليل عن الرسول ﷺ إلى مقدار الثلث، وجعله الحد الأدنى رحمة به وبأتمته ليتمكن هو وأصحابه من الراحة والتفرغ في النهار لشؤون الدعوة والتبليغ، والاكتفاء بتلاوة ما تيسر من القرآن، وأداء الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة، ومداومة الاستغفار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ⑩﴾ [الآية ٢٠] .

إرشاد النبي ﷺ في بدء الدعوة

﴿يَأْتِيهَا الْفُرْقَانُ ① قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② يَصْفَهُ ③ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ⑤ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ⑥﴾ ① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿

القراءات:

﴿أَوْ أَنْقُصْ﴾:

قرأ عاصم، وحمة (أو انقص) وقرأ الباقر (أو انقص).

﴿الْقُرْآنَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وقفاً (القرآن).

﴿وَطَاءً﴾:

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر (وطاء).

﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص (ربّ المشرق)، وقرأ الباقر (ربّ المشرق).

الإعراب:

﴿يَأْتِيهَا الْمَرْمِلُ ①﴾ أصله (المتزمل) إلا أنه أبدلت التاء زايًا، وأدغمت الزاي في الزاي، وذلك أولى من إبدالها تاء؛ لأن الزاي فيها زيادة صوت، وهي من حروف الصغير، وهم أبدأ يدغمون الأنقص في الأزيد.

﴿قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ يَصْفُهُ الليل في رأي الكوفيين مفعول به، وفي رأي البصريين: ظرف لفعل القيام، ولو استغرقة الحدث، أي إرادة جميع أجزاء الليل حتى يصح الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإن الاستثناء معيار العموم، و﴿يَصْفُهُ﴾: بدل من الليل، أو ظرف آخر، و﴿قَلِيلًا﴾: استثناء منه، وقد قدّم المستثنى على المستثنى منه، وهو قليل، وتقديره: قم الليل نصفه إلا قليلاً.

﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ تمييز منصوب.

﴿وَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿تَبْتِيلًا﴾ : منصوب على المصدر من غير فعله؛ لأن ﴿تَبْتِيلًا﴾ تفعيل إنما تحيى في مصدر فَعَّلَ، مثل رَتَّلَ تَرْتِيلًا، وقتل تَقْتِيلًا، وهنا جاء ل (تَفَعَّلَ) وقياسه أن يحيى على وزن التفعُّل وهو التبتل، إلا أنهم قد يجرون المصدر على غير فعله، لمناسبة بينهما.

﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ﴿رَبِّ﴾ : يقرأ بالجر على البدل من ﴿رَبِّكَ﴾ وبالرفع على تقدير مبتدأ محذوف تقديره: هو رب المشرق.

البلاغة:

﴿انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿النَّهَارِ﴾ و﴿الَّيْلِ﴾ وبين ﴿الْمَشْرِقِ﴾ و﴿الْمَغْرِبِ﴾.

﴿وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿وَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ فيهما تأكيد الفعل بالمصدر.

المفردات اللغوية:

﴿الْقُرْمَلُ﴾ المتزمل: المتلف بشابه. ﴿قُرَّ اللَّيْلُ﴾ أي قم إلى الصلاة، أو داوم عليها. ﴿يُصَفِّهِ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ أي انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، والمراد به التخيير بين قيام النصف والناقص منه والزائد عليه. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ إلى الثلثين، و﴿أَوْ﴾ للتخيير. ﴿وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ اقرأه على تودة وتثبت في تلاوته، مع تبين الحروف بحيث يتمكن السامع من عدّها.

﴿قَوْلًا نَقِيلًا﴾ قرآنًا شاقاً شديداً أو مهيباً، لما فيه من التكاليف الشاقة، لكن مشقة معتادة مألوقة، لا مشقة زائدة غير معتادة. ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ ما ينشأ فيه ويحدث ويتجدد، وهو القيام إلى الصلاة بعد النوم. ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي مواطأة وموافقة، يوافق السمع فيها القلب على تفهم القرآن. ﴿وَأَقُومُ قِيْلًا﴾

أبين وأسد مقالاً، أو أثبت قراءة لحضور القلب وهدوء الأصوات. ﴿سَبَّحًا طَوِيلًا﴾ تقلباً في مهامك واشتغالاتها، فعليك بالتهجد؛ لأن مناجاة الحق تستدعي فراغاً، ولا تفرغ في أثناء النهار لتلاوة القرآن والعبادة. ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي دم على ذكره ليلاً ونهاراً، وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي انقطع إلى الله بالعبادة، وجرّد نفسك عما سواه. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فوض كل أمورك إليه. ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ اصبر على أذى كفار مكة. ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تجانبهم وتداريهم ولا تعاتبهم، وفوض أمرهم إلى الله، فالهجر الجميل: هو ما لا عتاب معه.

سبب النزول:

نزول الآيتين (١، ٢):

﴿يَأَيُّهَا النَّازِلُ ۖ قُرْ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾: أخرج الحاكم عن عائشة قالت: لما أنزلت ﴿يَأَيُّهَا النَّازِلُ ۖ قُرْ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ قاموا سنة حتى ورمّت أقدامهم، فأنزلت: ﴿فَافْرُؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس غيره.

وقال ابن عباس: كان هذا في ابتداء الوحي إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه، أخذته الرعدة، فأتى أهله، فقال: «زملوني زملوني».

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي، فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فإذا الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئت (اقتلعت) منه رعباً، فرجعت فقلت: دثروني

دَثْرُونِي». وفي رواية: «فجئت أهلي، فقلت: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ①﴾ وقال جمهور العلماء: وعلى إثرها نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ②﴾.

وعلى هذا يكون سبب النزول هو ما عراه ﷺ من الرعب والفرع عند رؤية الملك، وتكون حادثة التزمل هي حادثة التدثر بعينها.

وقيل: إن تزمله ﷺ كان لأسفه وحزنه، لما بلغه ما كان من المشركين وما دبروه من القول السيئ يدفعون به دعوته، فقد أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سُمِّوا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ③﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ④﴾.

التفسير والبيان:

خاطب الله تعالى النبي ﷺ بالآيات التالية حينما كان يتزمل بثيابه أول ما جاءه جبريل بالوحي خوفاً منه، فإنه لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: «زَمِّلُونِي، دَثْرُونِي» ثم بعد ذلك خاطب بالنبوة والرسالة، وأنس بجبريل.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ①﴾ فَرِ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نَصْفَهُ ③ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ⑤ أي يا أيها النبي المتزمل المتلفف بثيابه، انقص لصلاة الليل وهي صلاة التهجد بمقدار نصف الليل، بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. وهذا تخيير بين الثلث والنصف والثلثين. والليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وفيه دليل على أن أكثر المقادير الواجبة كان الثلثين.

أخرج أحمد ومسلم عن سعد بن هشام قال: «قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: أأست تقرأ هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْيَلُ ۝﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه».

وبعد الأمر بقيام الليل أمره تعالى بترتيل القرآن قائلاً:

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي اقرأ القرآن على تمهل، مع تبيين الحروف، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وقوله: ﴿تَرْتِيلاً﴾ تأكيد في الإيجاب، وأنه لا بد للقارئ منه، ليستحضر المعاني. والترتيل: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع. وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة، فيرتها حتى تكون أطول من أطول منها. وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مدأ، ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ بمد بسم الله، ومد الرحمن، ومد الرحيم.

ووردت أحاديث كثيرة صحيحة تدل على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، منها ما رواه الحاكم وغيره عن البراء: «زينا القرآن بأصواتكم» وحديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وحديث البخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى «لقد أعطي هذا زمزماً من زمزماير آل داود» يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبّرت لك تحبيراً.

وروى البغوي عن ابن مسعود قال: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه (لا تسرعوا به) هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم

أحدكم آخر السورة. وروى العسكري في كتابه المواعظ عن علي كرم الله وجهه مثل هذه العبارة. وسئلت عائشة عن قراءة النبي ﷺ فقالت: لا كسر دكم هذا، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه لعدّها^(١).

ثم نبّه الله تعالى إلى عظمة القرآن وما جاء فيه من تكاليف لتأكيد الأمر بالترتيل، فقال:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي إنا سنوحى إليك القرآن وسننزله عليك، وفيه التكاليف الشاقة على البشر، والأوامر والنواهي الصعبة على النفس، من الفرائض والحدود، والحلال والحرام، وهو قول ثقیل يثقل العمل بشرائعه. قال ابن زيد: هو والله ثقیل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وقال الحسين بن الفضل: ثقیلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد. وقد يراد أنه ثقیل في الوحي، ففي الموطأ والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة أنه ﷺ سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

ثم أبان الله تعالى علة الأمر بقيام الليل (التهجد) فقال:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي إن قيام الليل، وهو الذي يقال له: ناشئة إذا كان بعد نوم، أشد موافقة ومصادقة للخشوع والإخلاص وتوافق القلب واللسان، فذلك يتجلى في هدوء الليل أكثر من أي وقت آخر، وهو أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها، وأشدّ مقالاً وأثبت

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٤٣٤

قراءة، لحضور القلب فيها، وأكثر اعتدالاً واستقامة على نهج الحق والصواب؛ لأن الأصوات فيها هادئة، والدنيا ساكنة، أما النهار فهو وقت الانشغال بالأعمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (٧) أي إن لك في وقت النهار قلباً وتصرفاً في حوائجك ومصالح الحياة، فلا تنفرغ فيه للعبادة، فصل بالليل.

ولكن لا ينبغي الانشغال عن ذكر الله بأي حال نهاراً أو ليلاً، فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) أي أكثر من ذكر الله، وداوم عليه إن استطعت ليلاً ونهاراً، وأخلص العبادة لربك، وانقطع إلى الله انقطاعاً بالاشتغال بعبادته، والتماس ما عنده إذا فرغت من أشغالك وحوائجك الدنيوية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) [الشرح: ٨-٧/٩٤] أي إذا فرغت من أشغالك فأتعب نفسك في طاعة ربك وعبادته، لتكون فارغ البال، واجعل رغبتك إلى الله وحده.

ثم أبان الله تعالى سبب الأمر بالعبادة، والباعث على التبتل، فقال:

﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩) أي إن ربك الذي تذكره، وتنفرغ لعبادته هو الجدير بالعبادة، فهو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة، فأفردته بالتوكل، واجعله وكيلاً لك في جميع الأمور، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣/١١] وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١٠) [الفاحة: ٥/١]. وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى كماله تعالى في ذاته، والكمال محبوب لذاته. وفيه دليل على أن من لم يفوض كل الأمور إلى ربه لم يكن راضياً بألوهيته، ولا معترفاً بربوبيته. وفيه تسلية للنبي ﷺ أنه سيكفيه شر الكفار وأعداء الدين.

ثم أمره ربه بالصبر على الأذى فقال:

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَنْجِزْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠) أي اصبر أيها الرسول على أذى قومك وما ينالك من السب والاستهزاء، ولا تجزع من ذلك، ولا تتعرض لهم ولا تعاتبهم ودارهم، كما جاء في آيات أخرى منها: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩) [النجم: ٥٣/٢٩] .

فقه الحياة نو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - فرضية التهجد: يدل ظاهر توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ خاصة، وأمره بقيام الليل، ووصفه بالتزمل أن التهجد كان فريضة عليه، وأن فرضيته كانت خاصة به. وهذا رأي أكثر العلماء؛ لأن الندب والحض لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً بوقت دون وقت. وهو الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩] فإن قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ بعد الأمر بالتهجد ظاهر في أن الوجوب من خصائصه ﷺ. وليس معنى النافلة في هذه الآية: التطوع، فإنه لا يكون خاصاً به عليه الصلاة والسلام، بل معناه أنه شيء زائد على ما هو مفروض على غيره من الأمة.

وقيل: كان التهجد فرضاً على النبي ﷺ وعلى أمته، ثم نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج.

وقيل: إن التهجد كان نافلة، لا مفروضاً، لقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ ولأن حمل الأمر: ﴿فَرُ اللَّيْلِ﴾ على الندب أولى؛ لأنه متيقن، فإن أوامر الشريعة تارة تفيد الوجوب، وتارة تفيد الندب، فلا بد من دليل آخر على الوجوب كالشروع على الترك ونحوه، وليس هذا متوفراً هنا. ويرد عليه بأن المختار في علم الأصول في الأوامر حملها على الوجوب أو الإلزام إلا بقريضة تصرفه عن ذلك إلى الندب أو الإباحة. ولأنه تعالى ترك تقدير قيام الليل إلى النبي ﷺ وخيره

بين النصف أو أقل منه أو أكثر، ومثل هذا لا يكون في الواجبات. ويرد عليه بأنه قد يكون الواجب مخيراً بين أمور ثلاثة كالكفارة.

والراجح هو أن التهجد نسخ عن الأمة وحدها، وبقي وجوبه على النبي ﷺ، بدليل آية الإسراء: «وَمَنْ أَلْبَسَ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ». وربما كان العمل بحديث سعد بن هشام بن عامر السابق صحيحاً: وهو نسخ الوجوب مطلقاً، وصيرورة التهجد (أو قيام الليل) تطوعاً، تخفيفاً وتيسيراً، والناسخ هو الصلوات الخمس، وأما آخر سورة المزمل الذي نزل بعد أولها بنحو عام كما في بعض الآثار، فقد نسخ المقدار الذي بيّن في أولها، دون نسخ أصل وجوب التهجد. والمقدار المذكور في أول السورة: هو نصف الليل أو أنقص منه قليلاً إلى الثلث، أو الزيادة عليه إلى الثلثين.

٢ - وجوب ترتيل القرآن: لا خلاف في أنه يقرأ القرآن بترتيل على مهل، وتبيين حروف، وتحسين مخارج، وإظهار مقاطع، مع تدبر المعاني. والترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام.

والخلاف في التغني به وتلحينه، فقال بكراهته جماعة منهم الإمامان مالك وأحمد، وأجازاه جماعة آخرون منهم الإمامان أبو حنيفة والشافعي، ولكل فريق أدلة^(١).

استدل المجيزون بما يأتي:

أولاً - ما أخرجه أبو داود والنسائي عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

ثانياً - ما أخرجه مسلم من قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

(١) تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السابيس: ١٩٣/٤ وما بعدها.

ثالثاً - ما رواه البخاري عن عبد الله بن مُعْقِل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته، فرجع في قراءته.

رابعاً - ما روي أن رسول الله ﷺ استمع لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبّرت لك تحبيراً. وقال النبي ﷺ لما سمعه: «إن هذا أعطي مزاراً من مزامير داود».

خامساً - ما رواه مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء كأذنه - استماعه^(١) - لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن».

سادساً - إن الترنم بالقرآن من شأنه أن يبعث على الاستماع والإصغاء، وهو أوقع في النفس وأبلغ في التأثير.

واحتج المانعون بما يأتي:

أولاً - ما رواه الترمذي في نوادر الأصول عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق، فإنه يجيء من بعدي أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» فهذا نعي على الترجيع بالقرآن ترجيع الغناء والنوح.

ثانياً - ما روي عنه ﷺ أنه ذكر أشراط الساعة، وذكر أشياء، منها: أن يتخذ القرآن مزامير، وقال: «يقدمون أحدهم، ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ليغنيهم غناء».

ثالثاً - أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذن يَظْرَبُ، فقال النبي ﷺ: «إن الأذان سهل سمح، فإن كان أذانك سهلاً سمحاً،

(١) أذن له: استمع، وبابه طرب.

وإلا فلا تؤذن» فقد كره النبي ﷺ أن يطرب المؤذن في أذانه، مما يدل على كراهة التطريب في القراءة بالأولى.

رابعاً - أنكر أنس بن مالك على زياد النميري حينما قرأ ورفع صوته وطرب، وقال: يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون.

خامساً - إن التغني والتطريب يؤدي إلى أن يزداد على القرآن ما ليس منه؛ لأنه يقتضي مد ما ليس بممدود، وهمز ما ليس بمهموز، وجعل الحرف الواحد حروفاً كثيرة، وهو لا يجوز. كما أن التلحين يلهي النفس بنغمات الصوت، ويصرفها عن تدبر معاني القرآن.

والحق التوسط في الأمر، فإذا كان التلحين والتطريب يغير من ألفاظ القرآن، ويخل بطرق الأداء، أو كان تكلفاً وتصنعاً يشبه توقيعات الموسيقى، فهو ممنوع وحرام. أما إذا كان تحبيراً وترقيقاً وتحزيناً يؤدي إلى اتعاظ القارئ، وكمال تأثره بمعاني القرآن، فلا دليل على المنع، بل الأدلة تجيزه.

٣ - ثقل القرآن والوحي: القرآن ثقيل شديد بما اشتمل عليه من تكاليف شاقة على النفس، وفرائض وحدود صعبة على الإنسان. والوحي أيضاً ذو تأثير كبير على القلب والنفس، كما جاء في خبر عائشة رضي الله عنها المتقدم، وأخرج أحمد وابن جرير وغيرهما عن عائشة أيضاً: «أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه، وهو على ناقته، وضعت جرائنها - يعني صدرها - على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه» أي الوحي.

٤ - ناشئة الليل: إن أوقات الليل وساعاته أو العبادة الناشئة في الليل، أو النفس الناشئة في الليل الناهضة من مضاجعها للعبادة أشد وطناً، أي أشد موافقة بين السر والعلانية أو القلب واللسان، وأكثر مصادفة للخشوع والإخلاص، وأشدّ مقالاً وأثبت قراءة، بسبب سكون الليل، وراحة النفس من الضوضاء والعناء، والبعد عن الرياء والمباهاة، أو حبّ اطلاع الآخرين

على الطاعة والعبادة، وشدة الاستقامة والاستمرار على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه.

٥ - مشاغل النهار: الإنسان مشغول عادة بحاجاته ومصالحه المعيشية في النهار، فلا يتفرغ عادة للعبادة، وإنما الفراغ موجود في الليل.

٦ - ذكر الله والتبتل: المؤمن مأمور بالاستكثار من ذكر الله وأسمائه الحسنى، وبالمداومة على التسييح والتحميد والتهليل وقراءة القرآن، دون أن يشغله شاغل في الليل والنهار، وهو مطالب أيضاً بأن يجعل همه كله في إرضاء ربه، وتجرید نفسه عن التعلق بغيره، والاستغراق في مراقبته في جميع أعماله. ويكون أشرف الأعمال عند قيام الليل: ذكر اسم الرب، والتبتل إليه، وهو الانقطاع إلى الله بالكلية.

وليس المراد الانقطاع عن أعمال النهار، والعكوف على الذكر والعبادة، فهذا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ (٧) بل المراد التنبيه إلى أنه ينبغي ألا يشغله السُّبْحُ في أعمال النهار عن ذكر الله تعالى.

والتبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل، أي انقطاع الإنسان بعبادته إلى ربه، دون أن يشرك به غيره، وليس المعنى الانقطاع عن مشاغل الحياة لكسب المعيشة من طرق عزيزة كريمة، لا يكون فيها الإنسان عالة على غيره. فقد ورد في الحديث النهي عن التبتل بمعنى الانقطاع عن الناس والجماعات. وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧/٥] وهذا يدل على كراهة من تبتل، وانقطع عن الناس، وسلك سبيل الرهبانية.

والخلاصة: التبتل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٩٨/٥]. والتبتل المنهي عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع.

٥ - إفراد الله بالتوكل عليه: كما أن المؤمن مطالب بإفراد الله بالعبادة، مطالب أيضاً بإفراده بالتوكل عليه، فمن علم أن الله رب المشارق والمغارب، انقطع بعمله وأمله إليه، وفوّض جميع أموره إليه، فهو القائم بأمر العباد، الكفيل بما وعد.

٨ - الصبر على الأذى في سبيل الدعوة: أمر الله نبيه بأن يصبر من أجل دعوته على الأذى والسب والاستهزاء من سفهاء قومه الذين كذبوه، وبألا يتعرض لهم، ولا يعاتبهم ويداريهم. قال قتادة وغيره: وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك. وأرى أن هذا من منهج الدعوة الدائم وسياستها الثابتة التي يحتاج إليها الدعاة في كل عصر. قال أبو الدرداء: إنا لنكشُر في وجوه أقوام، ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتقلبهم أو لتلعنهم.

تهديد الكفار وتوعدهم

﴿وَدَرَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قِتْلًا ۖ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَامًا ۚ﴾
﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۚ﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۚ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۚ﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۚ﴾
﴿السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۚ﴾

الإعراب:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ﴾ «يَوْمَ»: منصوب على الظرف، والعامل فيه ما في ﴿لَدَيْنَا﴾ من معنى الاستقرار، كما تقول: إن خلقت زيداً غداً، والعامل في (غداً) الاستقرار الذي دلَّ عليه (خلقت).

﴿كَيْبًا مَّهِيلاً﴾ ﴿مَهِيلاً﴾: أصله (مهيولاً) على وزن مفعول، من (هلت)، فاستثقلت الضمة على الياء، فنقلت إلى الهاء قبلها، فبقيت الياء ساكنة والواو ساكنة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، وكسرت الهاء لتصحيح الياء.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ﴿يَوْمًا﴾: مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾ وليس منصوباً على الظرف، و﴿يَجْعَلُ﴾: جملة فعلية في موضع نصب؛ لأنه صفة ﴿يَوْمًا﴾.

﴿السَّمَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ إنما قال ﴿مُنْفَطِرٌ﴾ من غير تاء لثلاثة أوجه: إما بمعنى النسب، أي ذات انفطار، أو يجعل السماء في معنى السقف، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢/٢١]، أو لأن السماء يجوز فيها التذكير والتأنيث، فيقال: ﴿مُنْفَطِرٌ﴾ على التذكير، وهو قول الفراء.

البلاغة:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا﴾ ﴿١٢﴾ و﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٣﴾ إلخ: سجع مرصع.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ جناس اشتقاق.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للتقريع والتوبيخ على عدم الإيمان، والأصل أن يقال: إنا أرسلنا إليهم.

﴿فَأَخَذَتْهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ تأكيد الفعل بالمصدر.

الفردات اللغوية:

﴿وَدَّرَنِي وَالْكَذِّينَ﴾ اتركني وإياهم، فإني قدير على مجازاتهم. ﴿النَّعْمَةُ﴾ بفتح النون: التمتع والترفيه، وبكسر النون: الإنعام أو اسم الشيء المنعم به.

﴿وَمَهْلُهُمْ قَلِيلًا﴾ أتركهم زماناً قليلاً برفق ونأناً، أو أمهلهم إمهالاً. ﴿أَنكَالًا﴾ قيوداً ثقيلة، جمع نكل بكسر النون وفتحها: وهو القيد الثقيل. ﴿وَحَجِيمًا﴾ نار محرقة شديدة الإيقاد. ﴿ذَا عُصَّةٍ﴾ يغص به فلا يستساغ في الحلق، كالضريع والزقوم والغسلين والشوك من نار، فلا يخرج ولا ينزل. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً لا يعرف كنهه إلا الله، زيادة على ما ذكر.

﴿تَرْجُفٌ﴾ تضطرب وتترلزل. ﴿كَيْبًا﴾ رملاً متجمعاً بتأثير الريح. ﴿مَهِيلًا﴾ رخواً ليناً تغوص الأقدام فيه. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أرسلنا إليكم يا أهل مكة. ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالعصيان أو الإجابة للدعوة. ﴿وَبَيَلًا﴾ ثقيلًا شديدًا، ومنه طعام وبيل: لا يستمرأ لثقله، ووابل: وهو المطر العظيم. ﴿تَنْفَقُونَ﴾ تقون أنفسكم. ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ بقيتم على الكفر في الدنيا. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم أي بأي حصن تحصنون من عذاب يوم القيامة. ﴿شَيْبًا﴾ جمع أشيب، وجعلهم شيباً لشدة هوله، يقال لليوم الشديد: يوم يشيب الأطفال، وهو مجاز، أصله أن الهموم تضعف القوى وتسرع بالشَّيب. ﴿مُنْفِطِرٌ﴾ منشق متصدع. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا﴾ أي إن وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم كائن لا محالة.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿وَدَرَنِي﴾: روي أنها نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى إرشاداته لنبيه ﷺ في دعوته، هدد المشركين وأوعدهم على الإعراض عن قبول تلك الدعوة، وخوَّفهم عذاب يوم القيامة وكيفيته وأهواله، وعذاب الدنيا ومخاطره، ثم عاد إلى وصف عذاب الآخرة وتخويفهم به لشدة التي بلغت حدّاً تشيب الولدان، وتشقق السماوات منه.

التفسير والبيان:

هدد الله تعالى كفار مكة وأمثالهم وتوعدهم، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء، فقال:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قِيلًا ۝١١﴾ أي دعني وأولئك المكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإني أكفيك أمرهم، وأنتقم لك منهم، فلا تهتم بكونهم أرباب الغنى والسعة والترفة في الدنيا، وتمهل عليهم رويداً وزمناً قليلاً، أو تمهلاً قليلاً إلى انقضاء آجالهم، كما قال تعالى: ﴿تُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝١٢﴾ [لقمان: ٢٤/٣١]. وقد أهلك زعماءهم في موقعة بدر، قالت عائشة: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر.

ثم ذكر الله تعالى أنواعاً أربعة من عذابهم، فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٣﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٤﴾ أي إن عندنا القيود والأغلال لهؤلاء المكذبين بآياتنا وبرسولنا، وناراً مؤججة مضطربة، وطعاماً لا يستساغ، ينشَب في الحلق، فلا يدخل ولا يخرج كالزقوم والضريع، ونوعاً آخر من العذاب المؤلم الشديد، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى. وتنكير قوله ﴿وَعَذَابًا﴾ يدل على أن هذا العذاب أشد مما تقدم وأكمل.

وبعد وصف العذاب، أخبر تعالى عن زمانه متى يكون فقال:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٥﴾ أي إن ذلك العذاب الذي يعذب به الكفار هو في يوم تضطرب فيه الأرض والجبال وتزلزل بمن عليها، وتصير الجبال كالكتيب المهيل، أي الرمل المجتمع السائل الذي يسبح فيه الإنسان والحيوان، بعدما كانت حجارة صماء، ثم تنسف نسفاً، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب. والرجفة: الزلزلة والزعزعة الشديدة، والمهيل: هو الذي إذا وطته القدم زل ما تحتها، وإذا وصلت إلى أسفله انهار.

وبعد تخويف أهل مكة وأمثالهم بأهوال القيامة، هددهم وخوفهم تعالى بأهوال الدنيا التي تعرضت لها الأمم المكذبة المتقدمة، فقال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۖ﴾ أي يخاطب الله تعالى كفار قريش، والمراد سائر الناس، فيقول لهم: إنا أرسلنا إليكم رسولاً هو محمد بن عبد الله ﷺ يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم وبما يصدر عنكم من إجابة وامتناع، وطاعة وعصيان، كما أرسلنا موسى عليه السلام إلى الطاغية فرعون يدعوه إلى الحق والإيمان، فعصى فرعون الرسول المرسل إليه، وكذّبه ولم يؤمن بما جاء به، فأخذناه أخذاً شديداً ثقيلاً غليظاً، أي عاقبناه عقوبة شديدة وأهلكناه ومن معه بالغرق في البحر، فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذاً عزيزاً مقتدر، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتُم رسولكم الذي هو أشرف وأعظم من موسى بن عمران عليه السلام. وإنما عرّف كلمة الرسول ثانياً؛ لأنه ينصرف إلى المعهود السابق في الذكر.

ثم عاد الله تعالى إلى تخويفهم بعذاب الآخرة ذاكراً هولاء من وجهين، فقال:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ﴾ (٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۖ﴾ (٨) أي كيف تقون أنفسكم وتنعمون بالأمان والاطمئنان إن بقيتم على الكفر، من عذاب يوم يجعل الأطفال شيئاً يبض الشعور، لشدة هولاء؟ وهذا كناية عن شدة الخوف، وتصير السماء متشقة به متصدعة؛ لشدة وعظيم هولاء، وكان وعد الله بمجيء ذلك اليوم كائناً واقعاً لا محالة ولا محيد عنه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - هدد الله صنديد قريش وأمثالهم من المستهزئين والمترفين الطغاة والمكذبين بآيات الله والكفر برسالة نبيه ﷺ، وتوعدهم بأشد العذاب في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فعوقب رؤساء مكة في موقعة بدر، وأما في الآخرة فنار جهنم تنتظرهم.

٢ - إن أنواع العذاب الشديد في الآخرة هي الأنكال أي القيود، والنار المؤججة، والطعام الذي لا يستساغ، فلا هو نازل ولا هو خارج، وهو الغسلين والزقوم والضريع وهو شوك كالعوسج.

٣ - زمان هذا العذاب هو يوم القيامة، الذي تضطرب وتتحرك فيه الأرض والجبال بمن عليها، وتصيح الجبال فيه رملًا مجتمعاً سائلاً متناثراً غير متماسك.

٤ - التشابه في الجريمة والعقاب: اشترك أهل مكة في تكذيب النبي محمد ﷺ والاستخفاف به، مع فرعون وقومه الذين كذبوا موسى عليه السلام، قال مقاتل: ذكر - أي الله - موسى وفرعون؛ لأن أهل مكة ازدروا محمداً ﷺ واستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ازدري موسى؛ لأنه رباه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨/٢٦] فكان التشابه في الأحوال سبباً لذكر قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم.

لذا عوقب فرعون وأتباعه بالعقاب الثقيل الشديد وهو الغرق في البحر، وعوقب كفار مكة بالهلاك يوم بدر. ويكون الرسول ﷺ شاهداً على قومه يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم.

٥ - وبخ الله تعالى الكفار وقرعهم على كفرهم بطريق التساؤل بقوله: كيف تتقون عذاب يوم يجعل الولدان شياً إن كفرتم، وتنفطر فيه السماء؟ وهذا وصف لهول يوم القيامة بأمرين: الأول - يجعل الولدان شيئاً، وهذا مثل في

الشدة. والثاني- تتصدع فيه السماء. وكلاهما وصف لليوم بالشدة الشديدة، فهو يوم يشيب نواصي الأطفال، والسماء على عظمتها وقوتها تنفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟

٦ - إن وعد الله تعالى بالقيامة والحساب والجزاء كائن لا شك فيه ولا خُلف.

٧ - دلت آية: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ على أن القياس حجة؛ لأنه استقر عند العقلاء وعند المشركين في مكة وغيرهم أن الشيثين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظناً، يجب اشتراكهما في الحكم، وإلا لما أورد هذا الكلام على هذه الصورة.

تذكير وإرشاد بأنواع الهداية

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثُ طَائِفَةٍ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَءْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ تَابُوا عَنِ اللَّهِ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثُ﴾ :

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (ونصفه وثلثه).

الإعراب:

﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ طائفة مرفوع عطفاً على الضمير المرفوع في ﴿تَقُومُوا﴾. وإنما جاز العطف على الضمير المرفوع المستكن في ﴿تَقُومُوا﴾ لوجود الفصل، والفصل يقوم مقام التوكيد في تجويز العطف.

﴿وَضَعُفٌ وَثُلُثٌ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ثُلَاثِي اللَّيْلِ﴾ وبالنصب عطفاً على ﴿أَذَى﴾.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَضًى﴾ ﴿أَنَّ﴾ مخففة من الثقيلة، والسين عوض عن التشديد، وقد يقع التعويض بسوف وقد وحرف النفي، كما يعوض بالسين جبراً لما دخل الحرف من النقص.

﴿يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ﴾ ﴿خَيْرٌ﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿يَحْدُوهُ﴾ والهاء: هي المفعول الأول، و﴿هو﴾ ضمير فصل على قول البصريين، ولا موضع له من الإعراب، ويسميه الكوفيون عماداً، وله موضع من الإعراب.

البلاغة:

﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ استعارة، حيث شبه الترخيص بقبول التوبة؛ في رفع التبعة.

﴿فَأَقْرَءُوا مَا يَنْتَزِعُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ مجاز مرسل، أراد به الصلاة، من إطلاق الجزء وهو القراءة على الكل وهو الصلاة.

﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ يَحْدُوهُ﴾ عام بعد خاص، عمم بعد ذكر الصلاة والزكاة والإنفاق، ليشمل جميع أعمال الخير والصالح.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ استعارة تبعية، شبه التصديق على المحتاجين بإقراض الله تعالى؛ لأنه هو الذي يعطي الثواب المقابل.

﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ قال ذلك للتأكيد والمبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الآيات الموعدة أو المخوفة. ﴿تَذَكُّرٌ﴾ عظة. ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يتعظ. ﴿أَتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ طريقاً يتقرب به إلى الجنة، بالتزام الإيمان والطاعة أو التقوى والاحتراز عن المعصية. ﴿أَذُنٌ﴾ أقل منه. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعلم مقادير ساعاتهما. ﴿أَنْ لَّنْ تُحْصَوْهُ﴾ أي لن تستطيعوا تقدير الأوقات وضبط الساعات لتقوموا قيام الليل، فيحصل قيام الكل وهو أمر شاق عليكم. ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالتيشير والتخفيف والترخيص في ترك القيام. ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، عبر عن الصلاة بالقراءة.

﴿وَالْآخَرُونَ يَصْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسافرون للتجارة. ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يطلبون من فضله ورزقه بالتجارة وغيرها. ﴿وَالْآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجاهدون، وكل من الفئات الثلاث يشق عليهم قيام الليل، فخفف عنهم بقيام ما تيسر منه، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة. ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أنفقوا في سبيل الخيرات فيما عدا المفروض من المال، عن طيب نفس. ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ أفضل مما أنفقتم. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ومجالسكم، فإن الإنسان لا يخلو من تفریط.

الخاصية:

بعد بيان أحوال المؤمنين السعداء وترغيبهم، وأحوال الأشقياء وتهديدهم بأنواع العذاب في الآخرة، ختمت السورة بتذكيرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد، فمن أراد الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية، فليفعل، ثم خفف عن المؤمنين مقدار قيام الليل لما يطرأ لهم من أضرار المرض، أو السفر للتجارة ونحوها، أو الجهاد في سبيل الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي إن ما تقدم في هذه السورة من الآيات المخوفة موعظة لأولي الألباب، فمن أراد انعط بها، واتخذ الطاعة طريقاً توصله إلى رضوان الله في الجنة. وبعد نزول أوائل السورة استعد النبي ﷺ لقيام الليل، وترك الرقاد، ثم خفف الله عنهم قائلاً:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن الله يعلم أنك أيها الرسول تقوم ممثلاً أمر ربك أقل من ثلثي الليل أحياناً، أو تقوم نصفه أو ثلثه، وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك، والله سيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء.

﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يعلم الله مقادير الليل والنهار حقيقة، ويعلم القدر الذي تقومونه من الليل، ولكن الله علم أنكم لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به، ولن تتمكنوا من ضبط مقادير الليل والنهار ولا إحصاء الساعات، أو علم الله أنكم لن تطيقوا قيام الليل أو الفرض الذي أوجبه عليكم، فعاد عليكم بالعفو والترخيص في ترك القيام إذ عجزتم، ورجع بكم من العسر إلى اليسر. وأصل التوبة: الرجوع.

قال مقاتل: لما نزلت ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم، وامتنعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفف عنهم، فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾^(١). والمراد بقوله: ﴿لَّنْ نَّحْصُوهُ﴾ أي لن تطيقوه، لصعوبة الأمر، لا أنهم لا يقدرُونَ عليه.

﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي صلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، فالمراد بالقراءة الصلاة، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، كما تقدم بيانه.

وهذه الآية نسخت قيام الليل، ويؤكد الحديث الصحيح عند مسلم والنسائي والترمذي واللفظ له عن أنس بن مالك الذي فيه: قال السائل لرسول الله ﷺ: هل عليّ غيرها؟ يعني الصلوات الخمس، فقال: «لا، إلا أن تَطَوُّع» فهو يدل على عدم وجوب غير تلك الصلوات المفروضة، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته عن الأمة.

ثم ذكر الله تعالى أسباب التخفيف وأعداره أو حكمته قائلاً:

﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي علم الله عز وجل بطرء أعدار ثلاثة هي المرض والسفر والجهاد، فقد يكون منكم مرضى لا يطيقون قيام الليل، وآخرون يسافرون في الأرض للتجارة والربح، يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل، وقوم آخرون هم المجاهدون في سبيل الله لا يطيقون قيام الليل، فوجود هذه الأعدار المقتضية للترخيص سبب لرفع فرضية التهجد عن جميع الأمة.

ثم ذكر الحكم الدائم بعد الترخيص، فقال تعالى:

﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي فصلوا ما تيسر واقرؤوا ما تيسر من القرآن، وقد أعيد الأمر هنا لتأكيد الرخصة وتقريرها، وأدوا الصلاة المفروضة قائمة بفروضها وأركانها وشرائطها واحتضار الخشوع فيها دون غفلة عنها، وآتوا الزكاة الواجبة في الأموال، وأنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً على الأهل وفي الجهاد وعلى المحتاجين، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥].

ثم أكد الطلب على الصدقة ورغب فيها، فقال:

﴿وَمَا تَقْدِرُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَثَرًا﴾ أي وجميع ما تقدمونه من الخير المذكور وغير المذكور، فتوابه حاصل لكم، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، ومما تؤخرونه إلى عند الموت، أو توصون به ليخرج من التركة بعد موتكم.

أخرج البخاري والنسائي وأبو يعلى الموصلي عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ قالوا: يا رسول الله! ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: اعلّموا ما تقولون، قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله، قال: إنما مال أحدكم ما قدّم، ومال وارثه ما أخر» .

ثم ختم السورة بالأمر بالاستغفار فقال:

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي أكثروا من الاستغفار لذنوبكم وفي أموركم كلها، فإنكم لا تخلّون من ذنوب اقترفتموها، وإن الله كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن استرحمه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - كل ما جاء في سورة المزمل وفي آياتها عظة للمتعض، فمن أراد أن يؤمن ويتخذ إيمانه وطاعته طريقاً إلى رضا ربه ورحمته، فليرغب وليفعل، فذلك ممكن له؛ لأنه تعالى أظهر له الحجج والدلائل.

٢ - قام النبي ﷺ وصحابته بما أمروا به من قيام الليل في أول السورة: ﴿قُلْ أَلَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ۞ يَصْغُرُ ۖ أَوْ أَشْضَبُ ۖ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۖ ۞﴾ ثم نسخت فرضية القيام بهذا المقدار الثقيل بآخر السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾. وكان النسخ بإيجاب الصلوات الخمس.

٣ - خفف الله عن الأمة وعاد عليهم بالعفو. وهذا يدل - كما قال القرطبي - على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به. والأولى أن يقال: تاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم. قال أبو نصر القشيري: والمشهور أن نسخ قيام الليل كان في حق الأمة، وبقيت الفريضة في حق النبي ﷺ. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب، كقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَسْرَرَ مِنْ أَهْدِي﴾ [البقرة: ١٩٦/٢] فالهدي لا بد منه، كذلك لم يكن بُدُّ من صلاة الليل، ولكن فُوض قدره إلى اختيار المصلي. وهذا مذهب الحسن. ومذهب الشافعي: النسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلاً.

٤ - أمر الله بقراءة ما تيسر من القرآن، والمراد من هذه القراءة: الصلاة؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، أي فصلوا ما تيسر لكم، والصلاة تسمى قرآناً، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨/١٧] قال ابن العربي: وهو الأصح؛ لأنه عن الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول.

وقيل: المراد القراءة نفسها، أي فاقروا فيما تصلونه بالليل ما خفف عنكم. قال السدي: مئة آية، وقال الحسن: من قرأ مئة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليله مئة آية كُتِبَ من القانتين. وقال سعيد بن المسيب: خمسون آية. قال القرطبي: قول كعب أصح؛ لما أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتِبَ من المقنطين» أي أعطي من الأجر قنطاراً.

وصحح القرطبي القول الثاني حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الآخر مجاز، فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله.

٥ - أبان الله تعالى حكمة هذا النسخ، وذكر علة تخفيف قيام الليل؛ فإن

الْخَلْقُ مِنْهُمْ الْمَرِيضُ، وَيَشْقُ عَلَيْهِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَالْمَسَافِرُ فِي التَّجَارَاتِ قَدْ لَا يَطِيقُ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَكَذَلِكَ الْمُجَاهِدُ، فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنِ الْكُلِّ لِأَجْلِ هَؤُلَاءِ.

٦ - سَوَّى اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ دَرَجَةِ الْمُجَاهِدِينَ وَالْمُكْتَئِسِينَ الْمَالَ الْحَلَالَ لِلنَّفَقَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعِيَالِهِمْ، فَكَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ كَسْبَ الْمَالَ بِمَنْزِلَةِ الْجِهَادِ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَهُ مَعَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. رَوَى إِبْرَاهِيمُ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ جَالِبٍ يَجْلِبُ طَعَامًا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، فَيَبِيعُهُ بِسَعْرِ يَوْمِهِ إِلَّا كَانَتْ مَنَزَلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزَلَةَ الشَّهْدَاءِ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَخْرُونَ بِضُرْبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْبِغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٧ - إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنْ آيَةِ ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ هُوَ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ عَمَلًا بِظَاهَرِ اللَّفْظِ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَدْرِ مَا يُلْزِمُهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي الصَّلَاةِ.

فَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ: فَاتَحَةَ الْكِتَابِ لَا يَجْزِي الْعَدُولُ عَنْهَا، وَلَا الْاِقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهَا؛ لَمَّا رَوَاهُ السَّبْعَةُ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» وَظَاهَرِ النَّفْيِ انْعِدَامُ الصَّلَاةِ الشَّرْعِيَّةِ لِعَدَمِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِيهَا. وَرَوَيْتُ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً فِي مَعْنَى ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الْفَرَضُ مَطْلُوقُ قِرَاءَةٍ، وَهُوَ آيَةٌ وَاحِدَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ ثَلَاثُ آيَاتٍ قَصَارٍ؛ لِأَنَّهَا أَقَلُّ سُورَةٍ. وَدَلِيلُهُ مَا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ الْمَسِيِّ صَلَاتِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: «اقْرَأْ مَا تيسرُ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» فَلَوْ كَانَتِ الْفَاتِحَةُ بِمَخْصُوصِهَا رَكْنًا لَعَيَّنَهَا وَعَلِمَهُ إِيَّاهَا إِنْ كَانَ يَجْهَلُهَا، وَمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ إِلَّا بِقُرْآنٍ، وَلَوْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي عَدَمِ تَعْيِينِ الْفَاتِحَةِ.

٨ - أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِقَامَةَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَهِيَ الْخَمْسُ لَوْقَتِهَا، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ فِي الْأَمْوَالِ. وَالْمُرَادُ مِنَ الصَّلَاةِ: مَا كَانَ مَفْرُوضًا فِي النَّهَارِ أَوَّلَ

الأمر «ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي» والمراد بالزكاة: زكاة المال المفروضة التي فرضت في السنة الخامسة من البعثة على الراجع.

٩ - حث الله تعالى على القرض الحسن: وهو ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب. وذلك إشارة أيضاً إلى صدقة التطوع.

١٠ - أي عمل يقدمه العبد في الدنيا يبتغي به منفعة في الآخرة، سواء أكان متعلقاً بالمال أم بغيره، فإنه يلقي به عند ربه جزاء أحسن منه وأكثر نفعاً؛ لإعطائه بالحسنة عشرة. وهذا حث على الإنفاق مطلقاً.

١١ - طلب الله تعالى من عباده مداومة الاستغفار مما عسى أن يقع في الأعمال من الخلل أو التقصير، ووعد سبحانه بالرحمة والمغفرة لمن يلجأ إلى جنابه الكريم، إذ أخبر بأنه عظيم المغفرة واسع الرحمة. وهذا تحريض على الاستغفار في جميع الأحوال، وإن كانت طاعات، لما عسى أن يقع فيها من تفريط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

مكية، وهي ست وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة المدثر لافتتاحها بهذا الوصف الذي وصف به النبي ﷺ، وأصل المدثر المتدثر: وهو الذي يتدثر بثيابه لينام أو ليستدفع. والدثار: اسم لما يتدثر به.

مناسبتها لما قبلها:

صلة السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

- ١ - تتفق السورتان في الافتتاح ببدء النبي ﷺ.
- ٢ - صدر كلتيهما نازل في قصة واحدة. وقد نزلت المدثر عقب المزمل.
- ٣ - بدئت السورة السابقة بالأمر بقيام الليل (التهجد) وهو إعداد لنفسه ليكون داعية، وبدئت هذه السورة بالأمر بإنذار غيره، وهو إفادة لسواه في دعوته.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت السورة إرشادات للنبي ﷺ في بدء دعوته، وتهديدات لزعيم من زعماء الشرك، وأوصاف جهنم.

بدأت السورة بتكليف النبي ﷺ بالقيام بالدعوة إلى ربه، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ [الآيات: ١-٧].

ثم وصفت يوم القيامة الرهيب الشديد، لما فيه من الأهوال: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّافُورِ ﴿٨﴾﴾ [الآيات: ٨-١٠].

ثم انطلقت تهدد إنساناً في أقوى وأشد صور التهديد، وهو الوليد بن المغيرة الذي أقر بأن القرآن كلام الله تعالى، ثم من أجل الزعامة والرياسة، زعم أنه سحر، فاستحق النار: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الآيات: ١١-٢٦].

وناسب ذلك تعداد أوصاف النار، وعدد خزنتها وحكمة ذلك، وبروزها للناس: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَعْرُ ﴿٢٧﴾﴾ [الآيات: ٢٧-٣١].

وزاد الأمر تهويلاً قسم الله بالقمر والليل والصبح على أن جهنم إحدى الدواهي العظام: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ [الآيات: ٣٢-٣٧].

وأوضحت السورة مسؤولية كل نفس بما كسبت وتعلقها بأوزارها، وبشارة المؤمنين بالنجاة، والكفار بالعذاب، وتصوير ما يجري من حوار بين الفريقين: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الآيات: ٣٨-٤٨].

وختمت السورة ببيان سبب إغراض المشركين عن العظة والتذكر والإيمان: ﴿فَمَا لَكُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الآيات: ٤٩-٥٦].

فضلها:

ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ وخالفه الجمهور، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١/٩٦].

سبب نزولها:

أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ، فقال:

«جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى، هبطت، فتوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصُوبوا عليّ ماءً بارداً، قال: فدثروني وصوبوا عليّ ماءً بارداً، فنزلت: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾». ورواه مسلم بلفظ آخر يدل على أن أول ما نزل: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

وجه الجمع بين الرأيين: أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة، كما قال الإمام أحمد والشيخان عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عن فترة، فبينما أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئت - اقتلعت - منه قرعاً - أي خوفاً -، حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت لهم: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَبِابِكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالزُّجَرِ فَأْجُرْ ﴿٥﴾﴾ ثم حيي الوحي وتتابع.»

وأخرج الطبراني^(١) عن ابن عباس قال: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: ليس بساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ليس بكاهن، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم: بل سحر يؤثر، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحزن وقنع رأسه وتدنثر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾

﴿١﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِّرْ ﴿٢﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٣﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٤﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٥﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٦﴾

إرشادات للنبي ﷺ في بدء الدعوة

﴿بَيِّنَاتٍ الْمَذْمُورِ﴾ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْوَورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

القرءات:

﴿وَالرُّجْزَ﴾:

قرأ حفص (والرُّجْزَ)، وقرأ الباقون (والرُّجْزَ).

الإعراب:

﴿بَيِّنَاتٍ الْمَذْمُورِ﴾ أصله المندثر، فأدغمت التاء في الدال لتقارب مخرجيهما. ولم تدغم الدال في التاء؛ لأن التاء مهموسة، والدال مجهورة، والمجهور أقوى من المهموس، فكان إدغام الأضعف في الأقوى أولى من العكس.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ ﴿١﴾ ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال، أي ولا تمنن مستكثراً.

﴿إِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْوَورِ﴾ ﴿٨﴾ ﴿فِي الْأَقْوَورِ﴾ إما في موضع الرفع؛ لأنه قام مقام النائب للفاعل، وإما في موضع النصب؛ لأن المصدر قام مقام الفاعل، فاتصل الفعل به بعد تمام الجملة، فوقع فضلة، فكان في موضع نصب.

﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾﴾ ﴿فَذَلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ بدل منه، و﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، ولا يجوز أن يتعلق ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ بقوله: ﴿عَسِيرٌ﴾ لأن ما تعمل فيه الصفة لا يجوز تقدمه على الموصوف. والعامل في ﴿فَإِذَا﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِرَ﴾ ما دلت عليه الجملة، أي اشتد الأمر.

البلاغة:

﴿وَرَبِّكَ فَكَذَّبَ ﴿٢﴾﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهَّرَ ﴿٣﴾ وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرَ ﴿٤﴾﴾ تقديم المفعول به لإفادة الاختصاص.

﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّفُورِ ﴿٨﴾﴾ جناس اشتقاق.

﴿عَسِيرٌ﴾ و﴿سِيرٌ﴾ بينهما طباق، وجناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿الْمَذْذَرُ﴾ المتلفف بثيابه عند نزول الوحي عليه، وأصله: المتذر، وأجمعوا على أن المذر هو رسول الله ﷺ، وهو لابس الدثار: وهو الثوب الظاهر الذي يلبس فوق لباس داخلي يلاصق الجسد ﴿قُرُ﴾ من مضجعك، أو قيام عزم وجد ﴿فَإِذْ﴾ خوف أهل مكة وغيرهم النار إن لم يؤمنوا. ﴿فَكَذَّبَ﴾ عظم. ﴿فَطَهَّرَ﴾ أي طهر ثيابك من النجاسات، فإن التطهير واجب في الصلاة، محبوب في غيرها، وذلك بغسلها، أو بحفظها عن النجاسة، أو طهر نفسك من الأفعال والأخلاق الذميمة.

﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرَ ﴿٥﴾﴾ أي اترك الأسباب والمآثم المؤدية إلى العذاب، وداوم على هجرها، والرجز: بضم الراء وكسرها: العذاب، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كُشِّفَتْ عَنْكَ الرَّجَزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤/٧]. ﴿وَلَا تَمَنَّيَنَّ سَكَتًا ﴿٦﴾﴾ أي لا تعط شيئاً فتطلب أكثر منه، أو لا تمنن على الله بعبادتك مستكثراً إياها، أو على الناس بالتبليغ مستكثراً به الأجر منهم أو مستكثراً إياه. ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّفُورِ﴾

﴿٨﴾ نفخ في الصور (وهو القرن) النفخة الثانية. ﴿فَذَلِكَ﴾ أي وقت النقر. ﴿يَوْمَ عَسِيرٌ﴾ شديد على الكفار. ﴿عَذْرٌ يَسِيرٌ﴾ غير سهل عليهم.

سبب النزول:

تقدم، وملخصه: أخرج الشيخان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «جاورت بجراء شهراً، فلما قضيت جوارى، نزلت، فاستنبتت الوادي، فنوديت، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بجراء، فرجعت، فقلت: دثروني. فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَذَرَّةَ ① قُرْ فَأَنْذِرَ ②﴾».

التفسير والبيان:

﴿يَتَأْتِيَ الْمَذَرَّةَ ① قُرْ فَأَنْذِرَ ②﴾ أي يا أيها النبي الذي قد تدثر بثيابه، أي تغطي بها رُعباً من رؤية الملك عند نزول الوحي أول مرة، انهض، فخوِّف أهل مكة، وحذرهم العذاب إن لم يسلموا.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرَ ③ وَتِبَابَكَ فَطَهِّرَ ④﴾ أي عظم الله وصفه بالكبرياء، في عبادتك وكلامك وجميع أحوالك، فإنه أكبر من أن يكون له شريك، وطهِّر ثيابك واحفظها عن النجاسات. وقال قتادة: أي طهرها من المعاصي والذنوب، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله: إنه لدنس الثياب، وإذا وقى وأصلح: إنه لمطهر الثياب. وكلا المعنيين صحيح، فإن الطهارة الحسية أو النظافة تلازم عادة الطهارة المعنوية، أي التجرد والتباعد من المعاصي، والعكس صحيح، فإن وجود الأوساخ ملازم لكثرة الذنوب.

والآية دليل على تعظيم الله مما يقول عبدة الأوثان، وعلى النظافة وتحسين الأخلاق واجتناب المعاصي.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤﴾ أي اترك الأصنام والأوثان، فلا تعبدها، فإنها سبب العذاب، واهجر جميع الأسباب والمعاصي المؤدية إلى العذاب في الدنيا والآخرة، فالآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي.

والنهي عن جميع ذلك لا يعني تلبسه بشيء منها، وإنما يبدأ به لكونه قدوة، وللمداومة على الهجران، فهو كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١/٣٣] وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢/٧] فمثل هذا الخطاب للنبي يراد به الأمر بالدوام والمتابعة، واستمرار تجنب الفساد.

﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تمنن على أصحابك وغيرهم بتبليغ الوحي، مستكثراً ذلك عليهم، أو إذا أعطيت أحدا عطية، فأعطها لوجه الله، ولا تمنن بعطيتك على الناس، أو لا تضعف أن تستكثر من الخير، فإن ﴿تَمَنَّ﴾ في كلام العرب تضعف.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل، فإنك تحملت أمراً عظيماً، ستحاربك العرب عليه والعجم، فاصبر عليه لله. واصبر أيضاً على طاعة الله وعبادته. وبعد إرشاد النبي ﷺ في دعوته، أبان الله تعالى وعيد الأشقياء، فقال:

﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٨) ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٩) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ بَاسٌ﴾ (١٠) أي اصبر على أذاهم، فأمامهم يوم هائل يلحقون فيه عاقبة أمرهم، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية للبعث من القبور، فوقت النقر يومئذ يوم شديد جداً على الكفار، غير سهل عليهم.

أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة والإمام أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحتى جبهته ينتظر متى يؤمر، فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

فقه الحياة أو الاحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الدَّيْرُ ۝١﴾ ملاطفة في الخطاب ولين في الكلام من الله؛ إذ ناداه ربه بحاله، وعبر عنه بصفته.

٢ - أمر الله نبيه بتخويف أهل مكة وغيرهم من الناس قاطبة، وبتحذيرهم العذاب إن لم يُسلِّموا.

٣ - ما أمر النبي ﷺ بالإنذار إلا لحكمة بالغة، ومهمات عظيمة، لا يجوز له الإخلال بها.

أولها - تعظيم الله ووصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد، كما يقول عبدة الأوثان.

ثانيها - تطهير الثياب من النجاسة المادية أو الحكيمة، وتطهير النفس من المعاصي المؤدية إلى العذاب، وتجميلها بمحاسن الأخلاق.

ثالثها - هجر الأوثان والمآثم التي هي سبب العذاب، ويراد بذلك الأمر بالمدامعة على ذلك المهجران.

رابعها - عدم الامتنان على الله بالأعمال الشاقة، كالمستكثر لما يفعل، وإنما الواجب الصبر على ذلك لوجه الله تعالى، متقرباً إليه، غير ممتنّ به عليه، وعدم الامتنان على الناس بتعليم أمور الدين والوحي كالمستكثر لذلك الإنعام، وبالنبوة لأخذ أجر يستكثر به ماله. وقال أكثر المفسرين: المعنى: ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه، حتى تكون عطاياه لأجل الله عز وجل، لا لأجل طلب الدنيا. وهذا سمة أهل الجود والكرم.

خامسها - الصبر على أداء الفرائض والعبادات وإيذاء الناس بسبب تبليغ الدين.

والخلاصة:

إن الله تعالى وضع أساسين لنجاح دعوة الرسول ﷺ بعد استكمال العقل وتحرره من الشرك، واستكمال النفس بالخلق الكامل، وهما: الجود والصبر.

٤ - هدد الله الكفار الأشقياء بأهوال يوم القيامة، فإنه إذا نفخ إسرافيل في الصور - وهو كهيئة البوق - النفخة الثانية، كان ذلك اليوم يوماً شديداً على كل من كفر بالله وبأنبيائه، غير سهل ولا هين عليهم، فإنهم دائماً يواجهون صعباً أشد، بخلاف المؤمنين الذين يتجهون دائماً إلى ما هو الأخف، حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى. وقد فهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (١٠) كون ذلك اليوم يسيراً على المؤمن، وهذا حجة لمن قال بدليل الخطاب أنه حجة.

تهديد زعماء الشرك

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَيْنَ شُهُودًا ۚ (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُمْ تَهْيِيدًا ۚ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۚ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لَبِئْسَ عَمِيدًا ۚ (١٥) سَأُرْهِقُهُمْ ضَعُوفًا ۚ (١٦) إِنَّهُمْ فَكَرَ وَقَدَرُ ۚ (١٧) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُ ۚ (١٨) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُ ۚ (١٩) ثُمَّ نَظَرَ ۚ (٢٠) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۚ (٢٢) فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ (٢٣) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ (٢٤) سَأُضِلُّهُ سَقَرًا ۚ (٢٥) وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ۚ (٢٦) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۚ (٢٧) لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۚ (٢٨) عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ۚ (٢٩) ﴾

الإعراب:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ﴾ (١٣) حال من هاء ﴿ خَلَقْتُ ﴾ المحذوفة، وتقديره: خلقته وحيداً.

﴿ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۚ ﴾ (٢٨) خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هي لواحة.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ مبتدأ، مبني على الفتح، لتضمنه معنى الحرف، وهو واو العطف، وأصله: تسعة وعشر، ولما حذفت الواو؛ تضمننا معنى الحرف، فوجب أن يبنيا، وبنيا على الفتح؛ لأنه أخف الحركات. و﴿عَلَيْهَا﴾ خبره.

البلاغة:

﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ۝١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ۝٢٠﴾ إطناب بتكرار الجملة لزيادة التوبيخ. ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرُ ۝١٧﴾ الاستفهام للتحويل والتفخيم.

المفردات اللغوية:

﴿دَرَبٍ وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ۝١١﴾ دعني واطركني وحدي وإياه، فإني أكفيكه. ﴿مَمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً، فقد كان للوليد الزرع والضَّرْع والتجارة. ﴿شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ولقائهم، لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش، استغناء بنعمته، ويشهدون المحافل وتسمع شهادتهم. قيل: كان له عشرة بنين أو أكثر، كلهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة: خالد وعمار وهشام. ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُمْ تَمْهِيدًا ۝٤﴾ بسطت له الرياسة والجاه العريض، حتى لقب: ربحانة قريش، والوحيد، أي باستحقاق الرياسة والتقدم.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥﴾ يطمع في الزيادة على ما أوتيته. ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، أي لا أزيده على ذلك. ﴿عَيْنِدَا﴾ معانداً لها ومكابراً. ﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا ۝١٧﴾ سأكلفه وأحمّله عذاباً شاقاً صعباً لا يطاق، وهو مثل لما يلقي من الشدائد. ﴿إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَرُوا ۝١٨﴾ تعليل للوعيد، أي تأمل في القرآن، وهياً الأمر في نفسه. ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا ۝١٩﴾ تعجب من تقديره استهزاء به، أي لعنه الله كيف توصل إلى ما تريد قريش. ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا ۝٢٠﴾ تكرير للمبالغة، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى. ﴿ثُمَّ نَظَرُ ۝٢١﴾ في وجوه قومه أو فيما يقدر به فيه.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٢٢) ﴿عَبَسَ﴾ قطب جبهته بين الحاجبين، ﴿وَبَسَرَ﴾ كَلَح وجهه وتغير، فهو أشد من العبوس. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان. ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ تكبر عن اتباع النبي ﷺ ﴿فَقَالَ﴾ الفاء للدلالة على سرعة الحكم من غير تفكير. ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا القرآن. ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ أي يروى ويتعلم. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٢٥) كالتأكيد للجمللة الأولى، أي ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٣].

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (٢٦) أدخله. ﴿سَقَرَ﴾ جهنم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ (٢٧) تعظيم لشأنها. ﴿لَا يَبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾ (٢٨) أي لا تبقى على شيء يلقي فيها، ولا تدعه حتى تهلكه. ﴿لَوَاسُةٌ لِلْبَشَرِ﴾ (٢٩) تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها، أو مسوذة لأعالي الجلد، والبشر على هذا جمع بشرة: وهي ظاهر الجلد.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿ذَرْنِي﴾ أخرج الحاكم وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكانه رقى له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً، لتعرض لما قيله، قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وأنت كاره له، فقال: وماذا أقول؟ فوالله، ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُعْدِق، وإنه يعلو وما يُعْلَى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ يَأْتَرُهُ عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١١)

نزول الآية (٣٠):

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝﴾: أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث وابن مردويه عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فجاء، فأخبر النبي ﷺ، فنزل عليه ساعتئذ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝﴾.

للناسية:

بعد أن أخبر الله تعالى عن كون يوم القيامة عسيراً غير يسير على الكافرين، هدد الوليد بن المغيرة وأمثاله من زعماء الشرك، وأنس نبيه بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝﴾، وهو كقوله في المزمّل، ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ﴾ [١١] ثم عدد تعالى نعمه على الوليد من المال والولد والجاه والرياسة، وكفره بها، ووعده بنار جهنم لوصفه القرآن الكريم بأنه سحر يؤثر.

التفسير والبيان:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝﴾ أي دعني أنا والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه، لا مال له ولا ولد، أو دعني وحدي معه، فإني أكفيك في الانتقام منه.

وأجمع المفسرون على أن المراد به هنا الوليد بن المغيرة.

وهذا توعد وتهديد لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر. ثم عدد الله تعالى تلك النعم، فقال:

﴿وَجَعَلْتُ لَكُمْ مَالًا مَمْدُودًا ۝ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدْتُ لَكُمْ تَهْيِيدًا ۝ ثُمَّ بَطَّمْتُ أَنْزِيدَ ۝﴾ أي وجعلت له مالاً واسعاً كثيراً، وقد كان الوليد مشهوراً بكثرة المال، من الزروع والمواشي والتجارات في مكة وما بينها وبين الطائف.

وجعلت له أيضاً بنين حضوراً معه بمكة، لا يفارقونها ولا يسافرون بالتجارات في البلاد لطلب الرزق، لكثرة مال أبيهم. قيل: كان له عشرة بنين أو ثلاثة عشر ولداً كلهم من الرجال، فكان يسمى ربحانة قريش، والوحيد؛ لأنه وحيد متميز في قومه بالرياسة والجاه.

وكذلك بسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش، ومكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

ومع كل هذا يطمع في زيادة المال والولد وغير ذلك، مما يدعو إلى التعجب. وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ هنا معناه التعجب، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١/٦] فمعنى ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب.

وهذا إنكار عليه لشدة حرصه على الدنيا، فردَّ الله تعالى عليه بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَن لَّابِتَآ غِيَدًا﴾ أي لا أزيد، فإنه كان لآيات القرآن معانداً لها، كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا، بعد العلم بصدقها.

وهذا دليل على أنه كان كافراً كفر عناد، فهو في أعماق نفسه يقرّ بكون أي القرآن من عند الله، ولكنه ينكر ذلك بلسانه إرضاء لقومه، لذا استحق العقاب الآتي:

﴿سَأُهِقُّكُمْ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه وأحمّله مشقة من العذاب، لا راحة فيه، كمن يتكلف صعود أعالي الجبال الشاهقة الوعرة. والإرهاق: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل الذي لا يطيقه.

وقيل: الصعود: جبل في النار، روى ابن أبي حاتم والبخاري وابن جرير عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأُهِقُّكُمْ صَعُودًا﴾ قال: «هو جبل في النار، من نار، يكلف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت، وإذا

رفعها عادت، فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت». ورواه الترمذي بلفظ: «الصعود: جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي كذلك فيه أبداً». وقال فيه: حديث غريب. ثم حكى تعالى أحواله وكيفية اتخاذ قراره وكيفية عناده، فقال:

﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۚ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۝٢٠﴾ أي إنه فكر في شأن النبي ﷺ وفي القرآن العظيم، وهياً من الكلام في نفسه ما يقول، وتروى ماذا يصف به القرآن حين سئل عنه، ففكر ماذا يخلق من المقال، فلعن وعُذِبَ على أي حال قدّر ما قدر من الكلام، وأكد ذلك قائلاً: ثم لعن وعذب، وأتى بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الدعاء عليه في المرة الثانية أبلغ وأكد من الأولى.

وهذا كله تعجب واستعظام من موقفه، واستحقاقه مضاعفة العذاب، ثم وصفه بأحوال ظاهرة للناس فقال:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ۚ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۚ ۝٢٣ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ ۝٢٤ إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ ۝٢٥﴾ أي ثم أعاد النظر والتروي والتأمل في الطعن بالقرآن، ثم قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به القرآن، وكلح وجهه وتغير وأظهر الكراهة، ثم أعرض عن الإيمان، وانصرف عن الحق، وتكبر عن الانقياد للقرآن، فقال: ما هذا إلا سحر ينقل ويحكي، نقله محمد عن غيره ممن قبله، وحكاه ورواه عنهم، فليس بكلام الله، بل هو كلام البشر أو الإنس.

وهذا دليل على أنه كان مناقضاً فيما اختلقه لقناعاته الذاتية، فقد كان بقلبه مصداقاً للنبي ﷺ، ولكنه أنكره عناداً.

روى العوفي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة، فسأله عن القرآن، فلما أخبره، خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما

يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش، اتتمروا، وقالوا: والله لئن صبأ الوليد، لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام، قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق، حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك، قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألسنتُ أكثرهم مالا وولدا؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقدر تُحدِّث به عشيرتي!! فلا، والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ - إلى قوله - ﴿لَا بَقِيَّةَ وَلَا نَذْرَ ۚ﴾.

ومما يدل على أن كفره كفر عناد: ما ذكر سابقاً أن الوليد مرّ برسول الله ﷺ، وهو يقرأ: (ألم السجدة)، فرجع وقال لبني مخزوم: والله لقد سمعت آفأ من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى.

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو وما يُعلَى عليه، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ۚ﴾ الآية.

ولا ريب أن من عرف هذا القدر، ثم زعم أن القرآن سحر، فإنه يكون معانداً، وكان منكراً للتوحيد والنبوة والبعث.

ثم ذكر الله تعالى ما يستحقه من عقاب على موقفه هذا، فقال: ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرًا ۚ وَمَا أَزْوَكَ مَا سَقَرٌ ۚ لَا بَقِيَّةَ وَلَا نَذْرَ ۚ لَوْلَا أَنَّ لِلْبَشَرِ ۙ عَلَيْهَا سَعَةً عَشْرًا ۚ﴾ أي سأدخله النار، وسأغمره فيها من جميع جهاته، وسقر: من أسماء النار، ثم هوّل أمرها وفحّم شأنها بقوله: ﴿وَمَا أَزْوَكَ مَا سَقَرٌ ۚ﴾ المعنى: أي شيء أعلمك ما سقر؟ لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً، فإذا

أعيد أهلها خلقاً جديداً، فلا تتركهم، بل تعاود إحراقهم بأشد مما كانت، وهكذا أبداً، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَفِخَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦/٤] .

وتلوح جهنم للناس حتى إنهم يرونها عياناً، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١/٢٦] . أو تلفح الجلد لفحة، فتدعه أسود من الليل، وعلى النار زبانية وخزنة أشداء، عظيمو الخلق، غليظو الخلق، عددهم من الملائكة تسعة عشر، والمميز في رأي الأكثرين: شخصاً، وقيل: صنفاً. والبشر: إما الإنس من أهل النار، وهو رأي الأكثرين، أو جمع بشرة: وهي جلدة الإنسان الظاهرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يحتاج نجاح الدعوة إلى الله إلى عناصر بشرية إيجابية، وحماية إلهية، أما العناصر الإيجابية فهي ما تحدثت عنه فاتحة السورة من تطهير النفس والعقل من الشرك والوثنية، والاتصاف بأمثل الصفات الخلقية، والاستعانة بالوجود والصبر.

وجاء هنا دور الوقاية والحفظ الإلهي، فالله سبحانه وقي رسوله ﷺ من أذى المشركين، وسلاهم، وهدد أعظم زعماء الشرك وهو الوليد بن المغيرة ليكون عبرة لغيره.

فقد كان الوليد موقناً بقلبه، مقتنعاً بصدق النبي ﷺ، ولكنه كذب بلسانه إرضاء لهوى نفسه في حب الزعامة والرياسة والجاه، وإيثاراً للانضمام إلى صف أهل الشرك في مكة.

فبالرغم من أن الحق سبحانه أمدّه بالمال والبنين، وجعله متقلّباً في أعطاف الرفاه والنعيم، ثم طمع في زيادة المال والولد، فإنه قابل النعمة بالجحود،

والشكر بالكفران، فكذب بالقرآن، ولم يؤمن بأنه كلام الله تعالى، ووصفه بأنه سحر مروي من كلام البشر المتناقل، وعاند النبي ﷺ وما جاء به.

فحجب الله عنه زيادة النعمة؛ لأنها لا تكون مع الكفر بالمنعم بها، وتوعده وهدده بدخول نار جهنم، ذاكراً لأسباب ذلك، وهي كيفية عناده، فإنه فكر في شأن النبي ﷺ والقرآن، وهياً الكلام في نفسه، ونظر بأي شيء يرد الحق ويدفعه، وقطّب بين عينيه في وجوه المؤمنين، وكَلَح وجهه وتغير لونه، وولّى معرضاً عن الحق والإيمان، وتعظم عن أن يؤمن، فقال: ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ إلا سحر يآثره ويحكيه عن غيره، وما هذا إلا كلام المخلوقين، تختدع به القلوب كما تختدع بالسحر.

فلعن كيف فكر، وعذب على ما قدّر، ثم لعن لعناً بعد لعن، واستحق الإدخال في جهنم التي وصفها الله وبالحق في وصفها بقوله، وما أعلمك أي شيء هي؟ فهي لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقت، ثم تعاود إحراقهم إلى الأبد، تلوح للبشر عياناً، وتلفح وجوههم لفحة تدعها أشد سواداً من الليل، ولا يستطيع أحد الفرار منها، فإن عليها خزنة تسعة عشر من الملائكة، يلقون فيها أهلها وهم مائة وعشرون ملكاً آخرين بأعيانهم. قال الثعلبي: ولا يُنكر هذا، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق، كان أخرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق. والأكثر على أن المراد تسعة عشر شخصاً من الملائكة، وقيل: صنفاً.

قال القرطبي: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَغْنُؤُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(١).

(١) تفسير القرطبي: ٨٠/١٩

الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم التسعة عشر

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَبَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْجَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لَنَنشَأَنَّ مِنْكُمْ أَوْ نَبْدَأَ أَوْ نَبْخُرَ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿إِذَا أَدْبَرَ﴾:

قرأ نافع، وحفص، وحزمة (إِذَا أَدْبَرَ)، وقرأ الباقون (إِذَا دَبَرَ).

الإعراب:

﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ مفعول ثان لجعلنا.

﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: حال.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ منصوب من خمسة أوجه:

١ - أن يكون منصوباً على المصدر، أي إنذاراً للبشر، فيكون نذير بمعنى إنذار، كنكير بمعنى إنكار.

٢ - أن يكون منصوباً على الحال من ﴿لَاخَذَى الْكُبَرِ﴾ وذكر؛ لأنها بمعنى العذاب، أو لأن فعلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث.

٣ - أن يكون منصوباً على الحال من ضمير ﴿قُرْ﴾ في أول السورة، وتقديره: قم نذيراً للبشر.

٤ - أن يكون منصوباً بتقدير فعل، أي صيرها الله نذيراً، أي ذات إنذار، على النسب.

٥ - أن يكون منصوباً بتقدير: أعني، أي أعني نذيراً للبشر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۖ﴾ (٣٢) ﴿إِذَا﴾ : ظرف زمان ماضٍ، ﴿أَدْبَرَ﴾ : انقضى، يراد به التعبير عن إدبار الليل فيما مضى، وقرئ «إذا» ظرف زمان مستقبل «دَبَر» : تولى. قال الفراء: دبر وأدبر بمعنى واحد، كقبل وأقبل.

البلاغة:

﴿يُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهْدِي﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿يَقْدَمُ﴾ و﴿يَأْخُرُ﴾.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۖ﴾ (٣٣) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۖ﴾ (٣٢) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ ۖ﴾ (٣٤) ﴿إِنَّمَا يَأْخُذُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٥) سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّا مَلَكَةٌ﴾ أي فلا يمكن مقاومتهم ولا يطاقون كما يتوهمون. ﴿عَدَّتْهُمْ﴾ عددهم المذكور. ﴿فِتْنَةً﴾ سبب ضلال واستبعاد. ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن يقولوا: لم كانوا تسعة عشر؟ ﴿لَيَسْتَفِينَ﴾ ليستبين. ﴿الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ أي اليهود والنصارى، أي ليتبينوا صدق القرآن وصدق نبوة محمد ﷺ، لما رأوا أن عددهم تسعة عشر موافق لما في كتابهم. ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ يزداد المؤمنون من أهل الكتاب وغيرهم تصديقاً، لموافقة ما أتى به النبي ﷺ لما في كتابهم.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ من غيرهم في عدد الملائكة. ﴿مَرِئًا﴾ شك أو نفاق، وهم منافقو المدينة. ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بمكة. ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي ماذا أراد الله بهذا العدد حديثاً. ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ﴾ أي مثل ذلك المذكور من إضلال منكر هذا العدد وهدى مصدقه، يضل الكافرين، ويهدي المؤمنين.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي ما يعلم الملائكة في قوتهم وأعوانهم، وكذلك جموع خلقه على ما هم عليه. ﴿وَمَا مِنْ﴾ أي سقر. ﴿ذِكْرِي﴾ تذكرة وموعظة للناس.

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكرها، أي حقاً. ﴿أَذْبَرَ﴾ مضى وولى. ﴿أَسْفَرَ﴾ ظهر وأضاء. ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ ۝٣٥﴾ أي إن سقر وصفتها لإحدى الدواهي أو البلايا العظام. ﴿أَنْ يَفْقَدَ﴾ إلى الخير أو الجنة بالإيمان. ﴿أَوْ يَنْتَحِرَ﴾ إلى الشر أو النار بالكفر.

سبب النزول:

نزول الآية (٣١):

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا﴾: قال ابن إسحاق وقتادة: قال أبو جهل يوماً: يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، أفيعجز مئة رجل منكم عن رجل منهم؟! فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ الآية.

وقال السُّدِّي: لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٥﴾ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشد بن كَلْدَةَ الْجُمَحِي - وكان شديد البطش^(١) -: يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾.

وفي رواية: إن الحارث بن كَلْدَةَ قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني

(١) كان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويحاذيه عشرة، لينزعه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه. قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعة، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي ﷺ مراراً، فلم يؤمن. وصارع النبي ﷺ أيضاً رُكَّانَةَ بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب.

أنتم اثنين، فنزل قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي لم يجعلهم رجالاً يستطيعون مغالبتهم.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي لم نجعل خزنة النار وزبانيتهما القائمين بالتعذيب إلا ملائكة غلاظاً شداداً، ولم نجعلهم رجالاً تمكن مغالبتهم، ومن يطبق الملائكة ومن يغلبهم؟ وهم أقوى الخلق وأشدّهم بأساً وأعظمهم بطشاً، وأقومهم بحق الله والغضب له تعالى.

وهذا ردّ على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل كما تقدم: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي شديدي الخلق، لا يقاومون ولا يغالبون.

ثم أبان الله تعالى حكمة اختيار عدد الخزنة، فقال:

﴿وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر، اختباراً منا للناس، وسبب محنة وإضلال للكافرين، حتى قالوا ما قالوا، ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم. فقوله: ﴿فِتْنَةً﴾ معناه سبب فتنة، أي جعلنا تلك العدة وهي تسعة عشر سبباً لفتنة الكفار، وفتنتهم هو كونهم أظهروا مقاومتهم والطمع في مغالبتهم، وذلك على سبيل الاستهزاء، فإنهم مكذبون بالبعث وبالنار وبخزنتها.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي إنه تعالى جعل عدة الزبانية تسعة عشر ليتيقن ويعلم أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى أن هذا الرسول حق، فإنه جاء ناطقاً بما يطابق كتبهم السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، فإن فيها أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولكي يزداد إيمان المؤمنين

وتصديقهم حين يرون موافقة أهل الكتاب لهم، ويشهدون صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ.

ثم أكد الله تعالى ذلك بنفي الشبهة والشك، فقال:

﴿وَلَا يَرْكَبُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ أَيْ وَلَا يَشْكُ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ فِي صِحَّةٍ وَحَقِيقَةٍ هَذَا الْعَدَدِ، وَفِي دِينِ اللَّهِ. وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ التَّعْرِيفُ بِالْمُتَشَكِّكِينَ الْمُنَافِقِينَ.

﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي وليقول المنافقون الذين في قلوبهم شك وريب في صدق النبي ﷺ، والكافرون من أهل مكة وغيرهم: أي شيء أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل؟ وما الحكمة في ذكر هذا هنا؟ ومرادهم إنكار أصل هذا الكلام، وأنه ليس من عند الله^(١).

ثم ذكر الله تعالى سنته في الإضلال والهداية لمن كان من أهلها، فقال:

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل من يريد بخذلانه عن إصابة الحق، لسوء استعداده، وتوجيه نفسه لمواقع الضلال والسوء، ويهدي إلى الحق والإيمان من يريد، بتوفيقه إلى الصواب، فمثل إضلال أبي جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم، يضل الله عن الهداية والإيمان، أي يخزي ويعمي من أراد إضلاله، ويهدي أي يرشد من أراد هدايته، كإرشاد أصحاب محمد ﷺ.

وليس معنى الإضلال والهداية أنه تعالى يجبر كل فريق على الضلالة والهدى، فذلك مناف للعدل الإلهي، ولحكمة التشريع الذي جاء بالتكليف،

وإنما لإرادة المكلف واختياره دور أساسي في الاستجابة للتكليف، ولاستحقاق المؤاخذه والثواب، ولا يقع شيء قهراً عن الله، وإنما بمراده، فإن خالف العبد عصي الأمور به، والمحجوب لربه، ولم يخرج عن مشيئة الله، فالله قهر الأشياء كلها، ولكنه أرخى الزمام في أشياء لاختيار الإنسان.

ثم أكد تعالى أن له في هذا العدد حكمة اختص هو بمعرفتها، فقال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن خزنة النار، وإن كانوا تسعة عشر، فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

وهذا ردّ على المشركين الذين استقلوا ذلك العدد، ملخصه: افترضوا أن هؤلاء تسعة عشر، إلا أن لكل واحد من الأعوان والجنود ما لا يحصيهم إلا الله، فلا يعلم جنود الله إلا هو لفرط كثرتهم، ولا يعسر عليه تتميم الخزنة إلى عشرين وأزيد، ولكن له في هذا العدد حكمة اختص هو بمعرفتها.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما سقر وصفتها، وما ذكر عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للناس، ليعلموا كمال قدرة الله، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار.

ثم وجّه الله تعالى تحذيراً لمن أنكر جهنم، فقال:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ۖ (٢٢) وَلَيْلٍ إِذْ أَدْبَرَ ۖ (٢٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ ۖ (٢٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۖ (٢٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۖ (٢٦)﴾ أي أوجه تحذيراً رادعاً لكم أيها الناس، فلا سبيل لإنكار وجود النار في الآخرة، وأقسم بالقمر المتلألئ، وبالليل إذا مضى وولى ذاهباً، وبالصبح إذا ظهر وتبين وأضاء، إن سقر (جهنم) لإحدى الدواهي العظام والبلايا الكبار؛ لإنذار البشر وتخويفهم من عقاب الله على العصيان.

ثم عيّن الله تعالى المنذرين، فقال:

﴿لَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٢٧) أي إن جهنم إنذار لمن أراد أن يتقدم إلى الخير والطاعة أو الجنة بالإيمان، أو يتأخر عن ذلك إلى الشر والمعصية أو النار بالكفر. ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ (٢٨) [الحجر: ٢٤/١٥] أي المبادرين إلى الخير، والمتأخرين عنه إلى الشر.

قال ابن عباس: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزي بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع^(١).

وقال الحسن البصري: هذا وعيد وتهديد، وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩/١٨]^(٢).

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

أ - إن خزنة جهنم وزبانيته التسعة عشر هم من الملائكة الذين لا يُغالبون، لا من الرجال الذين يمكن مقاومتهم بالتجمع عليهم.

ب - إن إيراد عدد التسعة عشر من الملائكة صار سبباً لفتنة الكفار، أي اختبارهم، قال الزرخشري: ما جعل افتتاحهم بالعدة سبباً، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً، وذلك أن المراد بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر، فوضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر؛ لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتن

(١) تفسير القرطبي: ٨٦/١٩

(٢) المرجع والمكان السابق.

بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزئ، ولا يدعن إذعان المؤمن، وإن خفي عليه وجه الحكمة، كأنه قيل: ولقد جعلنا عدتهم عدّة، من شأنها أن يفتتن بها، لأجل استيقان المؤمنين، وحيرة الكافرين^(١).

٣ - إن ذكر هذا العدد أدى إلى زيادة يقين الذين أعطوا التوراة والإنجيل بصحة نبوة محمد ﷺ؛ لأن عدة خزنة جهنم موافقة لما عندهم، وأدى أيضاً إلى زيادة إيمان المؤمنين بذلك؛ لأنهم كلما صدّقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثم ازدادوا إيماناً لتصديقهم بعدد خزنة جهنم، وإلى نفي الشك من الذين أعطوا الكتاب والمصدّقين من أصحاب محمد ﷺ في أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر، وأدى أيضاً إلى أن الذين في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة الذين سيظهرون بعد الهجرة، والكافرين من اليهود والنصارى قالوا: ماذا أراد الله بعدد خزنة جهنم مثلاً غريباً؟ والقصد من هذا التساؤل الصادر منهم استبعاد أن يكون هذا من عند الله، وإنكار كونه من الله، والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب؟

٤ - قوله عز وجل: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، أي يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو رأي الأكثرين. وأما الذين يقولون بأن حقيقة الإيمان لا تقبل الزيادة والنقصان فيحملون الآية على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه. وأما نفي الارتياب عن أهل الكتاب والمؤمنين بعد إثبات الاستيقان وزيادة الإيمان لهم، فمن باب التوكيد، كأنه قيل: حصل لهم يقين جازم، بحيث لا يحصل بعده شك وريب، فإن الذي حصل له اليقين قد يغفل عن مقدّمة من مقدمات الدليل، فيعود له الشك. وفيه أيضاً تعريض بحال من عداهم، كأنه قيل: وليخالف حالهم حال المرتابين من أهل الزيغ والكفران.

٥ - قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ﴾ لا يراد به - خلافاً لظاهره - أن الإضلال والهداية أمران مبتدآن من الله عز وجل، ولا أنه تعالى يجبر فريقاً على الضلالة، وفريقاً على الهدى، وإنما المراد به تقرير سنة من سنن الله سبحانه في عبادته، وهي ربط الأسباب التي خلقها بالمسببات، فمن ضلَّ فإنما يضل بنفسه واختياره، ومن اهتدى فإنما يهتدي بنفسه وإرادته واختياره، ثم يزيد الله الضالين ضلالاً، فيبعدهم عن معالم الهداية، لسوء اختيارهم واستعدادهم وعنادهم، ويزيد المؤمنين إيماناً بتوفيقهم إلى سبل الهداية والرشاد، لحسن اختيارهم. ولا يقع شيء في الكون قهراً عن الله تعالى، وإنما بإرادته ومشيئته، وإن كان مخالفاً لمأمره ومحجوبه.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى أن ما عليه عدد الخزنة لا يعلم حكمته، ولا حكمة ما عليه كل جند من العدد إلى الأبد إلا الله سبحانه. وهو جواب لأبي جهل حين قال: أما لحمد من الجنود إلا تسعة عشر!

أخرج الترمذي عن النبي ﷺ: «أُطَّتْ^(١) السماء، وحُقَّ لها أن تتط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً».

٧ - ردع الله تعالى بقوله: ﴿كَلَّا﴾ كل من ينكر وجود جهنم وصفتها، وأنها إحدى البلايا العظام والدواهي الكبار، وأنها إنذار دائم للبشر.

٨ - أقسم الله تعالى بالقمر والليل والصبح تشريفاً لها، وتنبهاً على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته وقوام الوجود بإيجادها، والمقسم عليه: أن سقر (جهنم) إحدى الدواهي، وأنها نذير للبشر أو ذات إنذار، على معنى التَّسْبِ، قال الحسن البصري: والله ما أندر الخلاق بشيء أدهى منها.

(١) أي إن كثرة ما فيها من الملائكة قد ثقلها، حتى أطت؛ ظهر لها صوت وحين، وهذا مثل وإيدان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثمَّ أطيظ، وأطيظ الإبل: أصواتها وحينها.

٩ - النار نذير لمن شاء أن يتقدم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية.

الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۖ﴾ (٣٨) ﴿فِي جَنَّتٍ يَسَاءَلُونَ ۖ﴾ (٣٩) ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۖ﴾ (٤٠) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ﴾ (٤١) ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۖ﴾ (٤٢) ﴿وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ ۖ﴾ (٤٣) ﴿وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْفَاسِقِينَ ۖ﴾ (٤٤) ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ۖ﴾ (٤٥) ﴿حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ۖ﴾ (٤٦) ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ ۖ﴾ (٤٧) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ۖ﴾ (٤٨) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ﴾ (٤٩) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ﴾ (٥٠) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ۖ﴾ (٥١) ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۖ﴾ (٥٢) ﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ (٥٣) ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْ ۖ﴾ (٥٤) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۖ هُوَ أَهْلُ الْقُوَىٰ ۖ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ۖ﴾ (٥٥) ﴿﴾ (٥٦)

القراءات:

﴿مُستنفرة﴾:

وقرأ نافع (مستنفرة).

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾:

وقرأ نافع (وما تذكرون).

الإعراب:

﴿فِي جَنَّتٍ﴾ حال من أصحاب اليمين.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٨) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٤٩) ﴿مَا: في

موضع رفع مبتدأ، و﴿هَمْ﴾: خبره، و﴿مُعْرِضِينَ﴾: حال من ضمير ﴿هَمْ﴾ والعامل: ما في ﴿هَمْ﴾ من معنى الفعل. و﴿عَنِ التَّذَكُّرِ﴾، و﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾: في موضع الحال بعد حال، أي مشابهن حمراً مستنفرة، أي نافرة.

البلاغة:

﴿يَسْأَلُونَ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾﴾ إيجاز بحذف بعض الجمل، أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر؟ لفهم المخاطبين.

﴿وَكَاذِبٌ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾﴾ خاص بعدعام، وهو الخوض بالباطل مع الخائفين، لتعظيم هذا الذنب.

﴿وَكَاذِبٌ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وَكَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه متزع من متعدد.

﴿وَكَاذِبٌ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وَكَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه متزع من متعدد.

المفردات اللغوية:

﴿رَهْنَةٌ﴾ مرتهنة عند الله بعملها، إما خلصها وإما أوبقها، وليست رهينة تأنيث رهين، لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقليل (رهين) لأن فعلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هو اسم بمعنى الرهن، كالشئمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين، والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله، غير مفكوك، ولا يرتهن الله تعالى أحداً من أهل الجنة.

﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم، فلا يرتنون بذنوبهم، وقد فكوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم. ﴿جَنَّتْ﴾ بساين لا تدرك حقيقتها.

﴿يَسْأَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً، أو يسألون غيرهم عن حالهم. ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أدخلكم. ﴿سَقَرٌ﴾ جهنم. ﴿نَحْوُ مَعَ الْفَاضِينَ﴾ نخالط أهل الباطل في باطلهم. ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يوم البعث والجزاء. ﴿الْيَقِينُ﴾ الموت. ﴿الشَّيْئِينَ﴾ من الملائكة والأنبياء والصالحين. ﴿مُعْرِضِينَ﴾ عن التذكير، والمعنى: أي شيء حصل لهم في إعراضهم عن الانعاظ.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿٥١﴾ مثل الحمير الوحشية التي هربت من الأسد أشد الهرب، شبههم في إعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر بحمر. ﴿صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ أي قراطيس منشورة مبسوطة، تنشر وتقرأ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كُتْلًا منا بكتاب من السماء فيه: من الله إلى فلان: أن اتبع محمداً.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن اقتراحهم الآيات. ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف. ﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ ردع لهم عن إعراضهم، فإن القرآن تذكرة كافية. ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يذكره. ﴿ذَكَرَهُ﴾ قرأه، فاتعظ به. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ حقيق بأن يتقى عقابه. ﴿وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ﴾ حقيق بأن يغفر لمن اتقاه.

سبب النزول:

نزل الآية (٥٢):

﴿بَلْ يُرِيدُ﴾: أخرج ابن المنذر عن السُّدِّي قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً، فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار، فترلت: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ ﴿٥٣﴾.

وفي رواية: أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد، لن نؤمن بك

حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء، عنوانه: من رب العالمين إلى فلان بن فلان، ونؤمر فيه باتباعك^(١).

المناسبة:

بعد أن توعد الله الكفار والعصاة، وهددهم بأن النار إحدى الدواهي والبلايا العظام، وأنذرهم بأن النجاة مربوطة بالعمل الصالح، أكد المعنى المتقدم بأنه ليس لكل امرئ إلا جزاء عمله، وأخبر أن أصحاب اليمين ناجون، وأن المجرمين معذبون، ووصف الحوار الدائر بين الفريقين لمعرفة سبب دخول الفريق الثاني نار جهنم.

التفسير والبيان:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي كل نفس مأخوذة بعملها، مرتبته به، معتقلة بما قدمته من عمل يوم القيامة، فإن كان خيراً خلصها وأعتقها، وإن كان شراً أوبقها.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ﴾ أي باستثناء المؤمنين الذين أعطوا كتبهم بإيمانهم، فإنهم لا يرتنون بذنوبهم، بل يطلق سراحهم بما أحسنوا من أعمالهم.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَجْسَـدُونَ﴾ ٤٠ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٤١ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ٤٢ ﴿أي وهم في جنات يتنعمون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين، في النيران، قائلين لهم: ما الذي أدخلكم في جهنم؟ والمقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل.

فأجابوا بأن هذا العذاب لأمر أربعة:

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٠/٢١٢، البحر المحيط: ٨/٣٨١

﴿قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُ نَطْعُمُ الْيَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيِّمَاتِ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ أي لم نكن في الدنيا نؤدي الصلاة المفروضة، فلم نعبد ربنا مع المؤمنين الذين يصلون، ولم نحسن إلى خلقه من جنسنا، فلم نطعم الفقير المحتاج ما يجب إعطاؤه، وكنا نخالط أهل الباطل في باطلهم، كلما غوى غاوى غوينا معه، أو نتكلم فيما لا نعلم، أو نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم: كاذب، مجنون، ساحر، شاعر، وكنا بعد ذلك كله مكذبين بالقيامة، حتى أتانا الموت ومقدماته، فاليقين: الموت: كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩/١٥].

فهذه أسباب أربعة لازمتنا طوال حياتنا الدنيوية: ترك الصلاة، والزكاة، والخوض في باطل الكلام، وإنكار يوم البعث والحساب والجزاء. وفي ترك الأمرين الأولين دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي فمن كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، والمعنى: لا شفاعة لهم من أحد من الملائكة والأنبياء والصالحين؛ لأن مصيرهم إلى النار حتماً.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ أي ما الذي حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن المشتمل على التذكرة الكبرى، والموعظة العظمى؟ أو فما هؤلاء الكفرة الذين قبلك في مكة معرضين عما تدعوهم إليه، وتذكرهم به؟ كأنهم في نفورهم عن الحق وإعراضهم عنه من حُمُر الوحش إذا فرت من رماة يرمونها، أو من أسد يريد افتراسها.

فالقسورة: إما جماعة الرماة الذين يتصيدونها، أو الأسد، وهو رأي جمهور اللغويين، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، قال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا

عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون، إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد. وهذا التشبيه في غاية التقبيح والتهجين لحاطم، وإعلامهم بأنهم قوم بئله.

والآية دليل على أن إعراضهم عن الحق والإيمان بغير سبب ظاهر مقنع، ولا استعداد للتفاهم والافتناع، ففي تشبيههم بالحرمة مذمة ظاهرة، ونداء عليهم بالبلادة والغباوة، وعدم التأثر من مواعظ القرآن، بل صار ما هو سبب لاطمئنان القلوب موجباً لنفرتهم^(١).

ثم أتى بصورة من عنادهم، فقال تعالى:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ۖ﴾ (٥٤) أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب، كما أنزل الله على النبي ﷺ، فهم قد بلغوا من العناد حداً تجاوزوا به أقدارهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤/٦]. وقال تعالى أيضاً واصفاً مطلبهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُ﴾ [الإسراء: ٩٣/١٧].

قال المفسرون: إن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ: ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله: أنك رسول الله. وكل هذا ونحوه مما حكة وتعنت ومكابرة، فهم لن يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِينَ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) [الأنعام: ٧/٦].

ثم أبان الله تعالى سبب تعنتهم، فقال:

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۖ﴾ (٥٥) أي زجر لهم وردع على اقتراحهم

إنزال تلك الصحف المفتوحة المبسوطة، فلا يُؤْتَوْنها، وهم في الحقيقة منكرون البعث والحساب؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات.

وكفاهم القرآن، كما قال تعالى:

﴿كَأَلَّا إِنَّمْ تَذَكَّرْ ۖ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْ ۖ ﴿٥٥﴾﴾ أي حقاً إن القرآن تذكرة، ويكفيهم القرآن، فإنه خير تذكرة وموعظة، فمن أراد أن يذكره ويتعظ به ولا يهمله، اتعظ، فهو موعظة بليغة، وتذكر شاف.

ثم بيّن السبب الأصلي في عدم التذكرة، وذكر ما ينبئ عن كمال الهية، وهو صفة القهر الذي بسببه يجب أن يتقى، وصفة اللطف الذي به يجب أن يرجى:

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقَوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ۖ ﴿٥٦﴾﴾ أي لا يقع شيء في هذا الكون قهراً عن الله، فما يذكرون القرآن ويتعظون به إلا بمشيئة الله، الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته، والحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة، فيغفر ذنوبهم.

روى أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ فسر هذه الآية، فقال: «يقول لكم ربكم جلّت قدرته وعظمته: أنا أهل أن أتقى، فلا يُجعل معي إلهٌ غيري، ومن اتقى أن يُجعل معي إلهاً غيري، فأنا أغفر له» أو «كان أهلاً أن أغفر له».

وفسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ بقوله: يعني إلا أن يقسره على الذكر، ويلجنهم إليه؛ لأنه مطبوع على قلوبهم، معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً^(١). وهذه طريقته على مبدأ المعتزلة في مثل هذه الآيات، وهو أن الله ترك الإيمان والكفر لا اختيار العبد الذي هو مناط الثواب

والعقاب، ولكن مشيئة الله قادرة على جعل العبد مؤمناً بالقهر والإجاء أو الإكراه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - كل نفس مرتنة يوم القيامة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلصها وإما أوبقها، إلا أهل اليمين الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، فإنهم لا يُرْتَنون بذنوبهم. قال الحسن البصري وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون، ليسوا بمرتنين؛ لأنهم أدوا ما كان عليهم.

٢ - يكون أهل اليمين يوم القيامة في جنات (بساتين) يسألون عن المشركين: ما الذي أدخلكم في سقر؟ والمقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل^(١).

فيذكر أهل النار أربعة أسباب هي: ترك الصلاة، وترك الصدقة، ومخالطة أهل الباطل في باطلهم، كإيذاء أهل الحق، وكل ما لا يعني المسلم، والتكذيب بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم، إلى أن أتانا الموت. قال العلماء: يجب أن يحمل هذان الأمران الأولان على الصلاة والصدقة الواجبين، وإلا لم يجز العذاب على تركهما. وقد يستدل بالآية على أن الكفار معذبون بفروع الشريعة، كما يعذبون بأصولها، كالتكذيب بيوم الدين، وإنما آخر؛ لأنه أعظم الذنوب، أي إنهم بعد ذلك كله يكذبون بهذا الأصل، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البعد: ١٧/٩٠]^(٢).

(١) تفسير الرازي: ٢١١/٣٠

(٢) غرائب القرآن للنيسابوري: ٩٩/٢٨

٣ - وبخ الله تعالى أهل مكة وأمثالهم بسبب إعراضهم وتوليهم عما جاء به النبي ﷺ من التذكرة والعظة بالقرآن الكريم. قال مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين :

أحدهما - الجحود والإنكار.

والثاني - ترك العمل بما فيه.

٤ - شبه الله سبحانه المعرضين بتشبيه مهين مستقبح، وهو تشبيههم بالحرر الوحشية إذا نفرت وهربت من الأسد. قال ابن عباس : المراد الحرر الوحشية، شبههم تعالى بالحرر مذمة وتهجيناً لهم^(١). وقال أيضاً كما تقدم : الحرر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد. والقسورة : هو الأسد بلسان الحبشة^(٢).

٥ - طلب المشركون (أبو جهل وجماعة من قريش) أن يعطوا كتاباً مفتوحة لكل واحد منهم، مكتوباً فيها : إني قد أرسلت إليكم محمداً. وقال ابن عباس : كانوا يقولون : إن كان محمد صادقاً، فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار^(٣).

٦ - لم يجب الله تعالى مطلبهم لتعتهم ومما حكته، وإنما زجرهم عن اقتراح الآيات، وأبان صفة القرآن والسبب الأصلي في عدم التذكرة، بقوله : ﴿كَأَلَّا﴾ أي ليس يكون ذلك، ولا أعطيتهم ما يتمنون؛ لأنهم لا يخافون الآخرة؛ اغتراراً بالدنيا، وحقاً إن القرآن تذكرة، فمن شاء اعطه به؛ ولكن ما

(١) البحر المحيط : ٣٨٠ / ٨

(٢) تفسير الرازي : ٢١٢ / ٣٠

(٣) تفسير القرطبي : ٩٠ / ١٩

يتعظون ولا يقدرّون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم، والله
الجدير بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه، فيؤمنوا ويطيعوا، والحقيق بأن يغفر لهم
ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

مكية، وهي أربعون آية

تسميتها:

سميت سورة القيامة؛ لافتتاحها بالقسم الإلهي بها، لتعظيمها، وإثبات حدوثها والرد على منكريها.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق هذه السورة بما قبلها بسبب اشتغالها على حديث الآخرة، ففي السورة المقدمة قال تعالى مبيناً السبب الأصلي في عدم التذكرة وهو إنكار البعث: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۝٥٢﴾ ثم ذكر في هذه السورة دليل إثبات البعث، ووصف يوم القيامة وأحواله وأحواله، ثم ذكر ما قبل ذلك من مقدمة وهي خروج الروح من البدن، ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق، فذكرت الأحوال الثلاثة في هذه السورة على عكس ما هي في الواقع^(١).

ما اشتملت عليه السورة:

عنيت هذه السورة كغيرها من السور المكية بأحد أصول الدين والإيمان، وهو إثبات البعث والجزاء، وما سبقه من مقدمات الموت وبدء الخلق.

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي: ص ٩٠

افتتحت السورة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة جميعاً معاً، لإثبات البعث والمعاد، والرد على من أنكر بعث الأجساد: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الآيات: ١-٦].

ثم ذكر تعالى بعض علامات ذلك اليوم، وأخبر عن حتميته ووقوعه، فهو حق لا ريب فيه: ﴿إِذَا رَفَءَ الْبَصَرُ﴾ [الآيات: ٧-١٥].

ثم نهى الله تعالى نبيه عن محاولة حفظ آيات القرآن أثناء الوحي، وطمانه بأنه سبحانه متكفل بتثبيته في قلبه وحفظه ووعيه وبيانه بنحو شامل تام: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ﴾ [الآيات ١٦-١٩].

وأردف ذلك بالتنديد بمحبة الدنيا وإيثارها على الآخرة، وبالإخبار عن انقسام الناس في الآخرة قسمين: أهل السعادة وأهل الشقاوة، فالأولون تتلأأ وجوههم بأنوار الإيمان، ويتمتعون بالنظر إلى ربهم دون حصر وتحديد وبلا كيفية، والآخرون تكون وجوههم سوداً مظلمة عابسة، تنتظر نزول داهية عظمى بها: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِيطُونَ بِالسَّاعَةِ﴾ [الآيات: ٢٠-٢٥].

ثم ذكرت شدائد الاحتضار والموت وأهواله وكروبه ومضايقاته: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ أَهْلَاقَهَا﴾ [الآيات ٢٦-٣٥].

وختمت السورة بإيراد الدليل الحسي الواقعي على إثبات الحشر والمعاد وهو بدء الخلق، والإعادة أهون من البداءة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [الآيات ٣٦-٤٠].

إثبات البعث والمعاد وعلائمه

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۚ﴾ (١) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ (٢) ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ (٣) ﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (٤) ﴿يَسْتَلْ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (٥) ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ﴾ (٦) ﴿وَحُصِفَ الْقَمَرُ﴾ (٧) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٨) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْقَمَرَ﴾ (٩) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١١) ﴿يُبْنَوُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٢) ﴿بَلَىٰ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٣) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَادِيرُهُ﴾ (١٤) ﴿١٥﴾

القراءات:

﴿أَيَحْسَبُ﴾:

قرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة (أَيَحْسَبُ) وقرأ الباقر (أَيَحْسِبُ).

﴿بَرِقَ﴾:

وقرأ نافع (بَرَقَ).

الإعراب:

﴿لَا أَقْسِمُ﴾ (لَا): إما زائدة، أو ليست زائدة، بل هي ردّ لكلام مقدم في سورة أخرى، وقرئ: (لأقسم) وقد جاء حذف النون مع وجود اللام، والأكثر في كلامهم ثبوت النون مع اللام.

﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ﴾ حال، وعامله محذوف لدلالة الكلام عليه، وتقديره: بلى نجتمعها قادرين.

﴿لِيَفْجُرَ﴾ اللام زائدة، والفعل منصوب بأن مضمرة مقدرة.

﴿يَسْتَلُ أَيَّانَ﴾ ﴿أَيَّانَ﴾: مبني على الفتح، لتضمنه معنى حرف الاستفهام؛ لأنه بمعنى (متى) الذي بني لتضمنه حرف الاستفهام، وبني بالفتحة؛ لأنها أخف الحركات.

﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ⑨﴾ إنما قال: ﴿وَجَمَعَ﴾ بالتذكير إما لأن تأنيث الشمس غير حقيقي، فيجوز حينئذ تذكير الفعل الذي أسند إليها، وإما لأنه جمع بين المذكر والمؤنث، فغلب جانب المذكر على جانب المؤنث، كقولهم: قام أخواك هند وزيد.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫﴾ ﴿لَا﴾: حذف خبرها، أي لا وزر هناك، أي لا ملجأ، و﴿الْمُسْتَقَرُّ﴾: مبتدأ، و﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: خبره.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑭﴾ أنت ﴿بَصِيرَةٌ﴾ إما لأن الهاء فيه للمبالغة، كعلامة ونسابة وراوية، أو لحمل الإنسان على النفس، فلذلك أنت ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أو لحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أي عين بصيرة.

البلاغة:

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّنَّ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ⑮﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ والتقريع.

﴿يَسْتَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ⑯﴾ الاستفهام بغرض استبعاد الأمر وإنكاره.

﴿فَإِذَا بَرَأَ النَّفْسَ ⑰﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑱ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ⑲﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ⑳﴾ توافق الفواصل المسمى بالسجع المرصع.

﴿قَدَمَ وَآخَرَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَا أَقْسِمُ﴾ أي أقسم، ولا: زائدة في الموضعين، وتزيد العرب كلمة (لا)

للتأكيد، وذلك أن المقسم عليه إذا كان متنفياً، جاز الإتيان بـ (لا) قبل القسم، لتأكيد النفي، والمقسم عليه هنا: هو إثبات المعاد، والرد على الجهمية المعاندين القائلين بعدم بعث الأجساد. ويرى قوم أن ﴿لَا﴾ ردة لكلام سابق متقدم وجواب له، فالعرب لما أنكروا البعث، قيل لهم: ليس الأمر كما زعمتم، وأقسم أن البعث حق لا ريب فيه. وقرئ (لأقسم) بغير ألف بعد اللام، وجواب القسم محذوف، أي لتبعثن، دلّ عليه ما بعده: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾. ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ هي التي تلوم نفسها، وإن اجتهدت في الطاعة والإحسان، والمراد بهذا القسم تعظيم يوم القيامة، والتنويه بالنفس الطامحة إلى الدرجة الأرق. ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ المراد به الجنس، وإسناد الفعل إليهم؛ لأن بعضهم يحسب، أو المراد من كان سبب النزول، وهو عدي بن أبي ريعة، سأل رسول الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، أو يجمع الله هذه العظام؟ ﴿أَلَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ للبعث والإحياء بعد تفرقها.

﴿يَنْ﴾ نجمعها. ﴿قَدَرَيْنِ﴾ مع جمعها. ﴿عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ﴾ أصابعه، أي نعيد عظامها كما كانت، ونضم بعضها إلى بعض كما هي، مع صغرها ولطافتها، فكيف بكبار العظام؟ ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليدوم على فجوره في مستقبل الزمان. ﴿إِنَّا﴾ متى، وهو سؤال استهزاء وتكذيب. ﴿رَبِّ الْقَصْرِ﴾ دُهِشَ وتحير لما رأى ما كان يكذبه. ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أظلم وذهب ضوؤه. ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءهما في يوم القيامة، ولا يتنافى ذلك مع الخسوف، فإنه مستعار للمحاق.

﴿الْقَمَرُ﴾ الفرار. ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب الفرار. ﴿لَا وَرَدَ﴾ لا ملجأ يتحصن به. ﴿النَّشْرُ﴾ أي استقرار أمر الخلائق، فيحاسبون ويجازون. ﴿يُنْبِئُ﴾ يخبر. ﴿قَدَمَ وَآخَرَ﴾ بما قدم من عمله وبما أخر منه، فلم يعمل، أي أول عمله وآخره. ﴿بَصِيرَةً﴾ حجة شاهدة ناطقة بعمله، فلا بد من جزائه. ﴿وَلَوْ أَلْقَى

مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به، وهو جمع معذرة على غير قياس، كالتاكير جمع منكر، فقياسه معاذر، وذلك أولى.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٣):

﴿أَحْسَبُ الْإِنْسَنُ﴾: روي أن عدي بن ربيعة قال لرسول الله ﷺ: يا محمدا! حدثني عن يوم القيامة متى يكون أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام بعد بلاها؟! فنزلت.

وقيل: نزلت في أبي جهل كان يقول: أيزعم محمد ﷺ أن يجمع الله هذه العظام بعد بلاها وتفرقها، فيعيدها خلقاً جديداً^(١)؟

التفسير والبيان:

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم صاحبها على تقصيره، لتبعث، وقد حذف جواب القسم، لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله تعالى: ﴿أَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ۖ﴾. وهي نفس المؤمن، تلوم على ما فات وتندم، فتلوم على الشر لم تعمله، وعلى الخير لماذا لم تستكثر منه.

والقسم بشيء لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وفي الإقسام بيوم القيامة على وقوع يوم القيامة مزيد تقرير وتأکید لوقوعه، فإن الإقسام بالمعدوم لا يعقل معناه، وفي ضم النفس اللوامة إليه تنبيه على أن

(١) البحر المحیط: ٨ / ٣٨٤-٣٨٥، تفسير القرطبي: ١٩ / ٦٣

الغرض من القيامة: هو إظهار أحوال النفس ومراتبها في السعادة وضدّها^(١). والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً معاً، كما قال قتادة رحمه الله^(٢)، أي إنه سبحانه سيجمع العظام، ثم يحيي كل إنسان، ليحاسبه ويجزيه.

قال الحسن البصري: إن المؤمن، والله! ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلمتي، ما أردتُ بأكلتي، ما أردتُ بحديث نفسي، وإن الفاجر يعمي قدماً وقدماً ما يعاتب نفسه. وقال أيضاً: ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة.

وقال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه.

وقال الفرّاء: ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحساناً، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته.

والخلاصة: أن الأ شبه بظاهر التنزيل كما قال ابن كثير: أن النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات.

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٢) بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ ﴿١﴾ أي أيظن أي إنسان أننا لن نقدر على جمع عظامه، بعد أن صارت رفاتاً، فنعيدها خلقاً جديداً، وذلك حسابان باطل، فإننا نجمعها، وبلى سنجمعها قادرين عند البعث على إعادة تسوية أكثر العظام تفرقاً، وأدقها أجزاء، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها. وقوله: ﴿قَدِيرِينَ﴾ تأكيد القدرة؛ لأنه يستحيل جمع العظام بدون القدرة الكاملة التي نبّه عليها بقوله: ﴿أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ﴾ لأن من

(١) غرائب القرآن: ١٠٥/٢٨

(٢) تفسير ابن كثير: ٤٤٧/٤

قدر على ضم سلاميات الأصبع مع صغرها ولطافتها كما كانت، كان على ضم العظام الكبار أقدر. وإنما خص البنان وهو الأنملة بالذكر؛ لأنه آخر ما يتم به خلقه، فذكره يدل على تمام الأصبع، وتمام الأصبع يدل على تمام سائر الأعضاء التي هي أطرافها. وكل بنان يختلف عن الآخر، فاعتمدت فكرة البصمات.

وقيل: معنى التسوية: جعلها شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار، بحيث لا يقدر على البطش. والمراد أنه قادر على ردة العظام والمفاصل إلى هيئتها الأولى، وعلى ضد ذلك.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ﴾ هذا إضراب عما سبق لتقرير أمر آخر، وهو أن الإنسان يريد في الحقيقة أن يدوم على فجوره في مستقبل أيامه، فيقدم الذنب، ويؤخر التوبة. قال سعيد بن جبير: يقدم الذنب، ويؤخر التوبة حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله.

والخلاصة: أن إنكار البعث يتولد من شبهتين: الأولى - بأن يستبعد الإنسان اجتماع الأجزاء بعد تفرقها وتلاشيها، والثانية - من التهور، بأن ينكر المعاد بالهوى واسترسال الطبع والميل إلى الفجور.

فأجاب تعالى عن الشبهة الأولى بقوله: ﴿أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانَ﴾ وأنكر على صاحب الشبهة الثانية بقوله: بل يريد أن يكذب بما أمامه من البعث والحساب، لثلاث تنقص عنه اللذات العاجلة، كما قال تعالى:

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۚ﴾ أي يسأل سؤال استبعاد لوقوعه واستهزاء وتعتاً: متى يوم القيامة؟ ومن لم يؤمن بالبعث ارتكب أعظم الآثام، ويبادر إلى انتهاب اللذات غير عابئ بما يفعل.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾

[الملك: ٢٧/٢٥] وقوله سبحانه: ﴿ هَبْهَاتْ هَبْهَاتْ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الَّذِي نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧) [المؤمنون: ٢٣/٣٦-٣٧] .

ثم ذكر الله تعالى ثلاث علامات للقيامة، فقال:

﴿ فَإِذَا بَرَقَ الظُّبُرُ ﴾ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْآفَرُ ﴿١٠﴾ أي فإذا دهش البصر وتحير من شدة هول البعث ويوم القيامة، وذهب ضوء القمر كله دون أن يعود كما يعود بعد الخسوف في الدنيا، وذهب وتبدد ضوء الشمس والقمر جميعاً، فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار، أي إن معالم الكون كلها تتغير، وحينئذ يقول ابن آدم إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة: هل من ملجأ أو موئل؟ وأين المفر من الله سبحانه ومن حسابه وعذابه؟!

والمراد بالإنسان: الجنس، وهو ابن آدم، فيشمل المؤمن والكافر؛ لهول ما يشاهد منها. وقيل: المراد الكافر خاصة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه.

فيجيب الله تعالى سلفاً في الدنيا بقوله:

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ (١١) إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الشَّقِيُّ ﴿١٢﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه، فلا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله يعصمكم يومئذ، وإنما إلى الله ربك المرجع والمصير، في الجنة أو في النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمَنَتِ﴾ (٤٤) [النجم: ٥٣/٤٢] فهناك استقرار العباد على الدوام. ولا بد من تقدير مضاف في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى حكم ربك، أو إلى جنته أو ناره.

ثم ربط الله تعالى نوع المصير بالعمل في الدنيا، فقال:

﴿ يَبْنِئُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (١٣) أي يخبر الإنسان في يوم القيامة أثناء العرض والحساب بجميع أعماله التي قدمها من خير أو شر، قديمها وحديثها،

أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُتْبَكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩/١٨].

ثم يبين أن الإنسان عالم بأعماله، فقال:

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾﴾ أي بل إن الإنسان شهيد على نفسه، عالم بما فعله، فهو حجة بينة على أعماله، ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٦/١٧] والآية إضراب عن الإخبار بأعمال الإنسان إلى مرتبة أوضح وأعرف.

وقال ابن عباس وغيره: إن المراد سمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه.

والمعاذير في رأي الواحد والآخر: اسم جمع للمعذرة، كالمناكير للمنكر، ولو كان جمعاً لقليل: معاذر، بغير ياء. والمراد بقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾﴾: ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه، وقيل: ولو جادل عنها، فهو بصير عليها، وقيل: معاذيره: حجته، وهذا قول مجاهد، قال ابن كثير: والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٣/٦] وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨/٥٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

أ - أقسم الله سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه، كما أنه أقسم أيضاً بنفس المؤمن الطائعة دائماً إلى زيادة الخير والطاعة، والإقلال من الشر والمعصية؛ تنوياً بشأنها وإخلاصها. والمناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة: أن

المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفس اللوامة، من السعادة والشقاوة. والقسم بهذه الأشياء عند المحققين قسم بربها وخالقها في الحقيقة، فكأنه قيل: أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة.

٢ - المقسم عليه هو وقوع البعث حتماً لا شك فيه، قال الزجاج: أقسم الله بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، ليجمعن العظام للبعث. وأكد الله تعالى قسمه بأنه القادر على أن يعيد السُّلَامِيَّات على صغرها، ويؤلف بينها حتى تستوي^(١).

٣ - إن شأن الكافر المكذب بما أمامه من البعث والحساب أن يرتكب أعظم الآثام، ويقتحم المعاصي دون حساب للتناجح والمخاطر، ودون تقدير لعواقب الأمور والتبعة (المسؤولية) الناجمة عنها.

٤ - تتبدل معالم الكون يوم القيامة، وتظهر علامات دالة عليه، منها حيرة البصر ودهشته من الأهوال، وذهاب ضوء القمر دون عودة، وذهاب ضوء الشمس والقمر معاً، أي جمع الله بينهما في ذهاب ضوءهما، فلا ضوء للشمس، كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه.

٥ - إذا ظهرت علائم القيامة حار الإنسان، وقال: أين المهرب؟ أين المفر؟ ويحتمل ذلك وجهين: أحدهما - أين المفر من الله؟ استحياء منه، والثاني - أين المفر من جهنم؟ حذراً منها.

٦ - لا مفر من الله، ولا ملجأ من النار، ولا حصن من العذاب، وإلما المرجع والمصير والمنتهى إلى حكم الله، وصيرورة كل إنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار.

(١) قال تعالى في آخر السورة: ﴿فَخَلَقَ فُسُوءً﴾ أي أوجد منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة، فسواه شخصاً مستقلاً.

٧ - يُخْبِر ابن آدم يوم القيامة عند وزن الأعمال، بَرّاً كان أو فاجراً، بما أسلف من عمل سيئ أو صالح، أو أَخَّر من سنة سيئة أو صالحة يعمل بها بعده، أو بأول عمله وآخره، أو بما قدم من المعصية، وأَخَّر من الطاعة. إن هذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال، لا عند الموت؛ لما أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَه، أَوْ مَصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صَحْتِهِ وَحَيَاتِهِ تَلَحُّقَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ».

وأخرجه أبو نعيم الحافظ عن أنس بن مالك بلفظ: «سبع يجري أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره: من علّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته».

وفي الصحيح عند مسلم: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

٨ - الإنسان خير شاهد على نفسه، فهو حجة بيّنة على أعماله، حتى ولو أنكر واعتذر، فقال: لم أفعل شيئاً، فإن عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فلو اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهد يكذب عنده.

٩ - استنبط القاضي ابن العربي من قوله تعالى: ﴿بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ست مسائل وهي بإيجاز^(١):

(١) أحكام القرآن: ١٨٧٨/٤ - ١٨٨٢

الأولى - فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليه، قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَنْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤/٢٤] .

الثانية - لا يصح الإقرار إلا من مكلف (بالغ عاقل) لكن بشرط ألا يكون مجوراً عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إذا كان لحق نفسه، فإن كان لحق غيره كالمريض، كان منه ساقط، ومنه جائز، كما هو مقرر في الفقه.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرُهُ﴾ [١٥] معناه: ولو اعتذر لم يقبل منه، وقد اختلف العلماء في جواز الرجوع عن الإقرار في الحدود الخالصة لله تعالى؛ فقال أئمة المذاهب الأربعة على المشهور عند المالكية: يقبل رجوعه بعد الإقرار، ويسقط الحد، وهو الصحيح عملاً بما رواه الأئمة، منهم البخاري ومسلم: أن النبي ﷺ ردّ المقرّ بالزنى مراراً أربعاً، كل مرة يعرض عنه، ولما شهد على نفسه أربع مرات، دعاه النبي ﷺ وقال: أبك جنون؟ قال: لا، قال: أحصنت؟ قال: نعم. وقال لأصحابه - فيما رواه أبو داود وغيره - حينما هرب - أي ماعز - فاتبعوه: «هلا تركتموه، لعله أن يتوب، فيتوب الله عليه» .

وروي عن مالك أنه قال: لا يعذر المقر إلا إذا رجع لشبهة، عملاً بحديث: «لا عذر لمن أقر»^(١).

الرابعة - قال ثعلب: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرُهُ﴾ [١٥] أنه إذا اعتذر يوم القيامة وأنكر الشرك، لا ينفع الظالمين معذرتهم، ويختم على فمه، فتشهد عليه جوارحه، ويقال له: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٧/١٤] .

(١) بداية المجتهد: ٢/٤٣٠، الدردير والدسوقي: ٣١٨/٤

الخامسة - الآية في الحر المالك لأمر نفسه. أما العبد: فإن أقر بموجب عقوبة من القتل فما دونه، نفذ عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرق لحق السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه، ودليل الرأي الأول قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبادة بن الصامت: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستر بسر الله، فإن من يُبد لنا صفحته، نُقم عليه الحد».

السادسة - قيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ﴾ (١٢) أي عليه مَنْ يبصر أعماله، ويحصيها، وهم الكرام الكاتبون. والراجع ما ذكر من المعنى المتقدم.

حرص النبي ﷺ على حفظ القرآن

وحال الناس في الآخرة

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَانْصَبْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ ذَٰلِكَ نَظِيرُهَا (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَكُفُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾

القراءات:

﴿وَقُرْآنَهُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحزرة وفقاً (وقرانه).

﴿قَرَأْتَهُ﴾:

وقرأ السوسي، وحزرة وفقاً (قرانه).

﴿يُحْيُونَ﴾، ﴿وَيَذَرُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (يحيون، ويذرون).

الإعراب:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَيْبِهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على إثبات الرؤية؛ لأن النظر إذا قرن بالوجه، وعُدِّي بحرف الجر، دلَّ على أنه بمعنى النظر بالبصر، فيقال: نظرت الرجل: إذا انتظرت، ونظرت إليه: إذا أبصرت.

وكلمة ﴿وَجُوهٌ﴾ مبتدأ، وابتدأ بالنكرة؛ لأنها تخصصت بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿نَّاصِرَةٌ﴾ خبر ﴿وَجُوهٌ﴾.

البلاغة:

﴿بَنَانُهُ﴾ ﴿بَيَانُهُ﴾ جناس ناقص؛ لاختلاف بعض الحروف.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَيْبِهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٤) نَاطِرَةٌ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَافِرَةٌ ﴿٢٥﴾ مقابلة بين نصارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ مجاز مرسل في رأي الزمخشري، من إطلاق الجزء وإرادة الكل، فقال: الوجه عبارة عن الجملة، قال البيضاوي: وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر، وإن المستعمل بمعناه لا يعدى بإلى؛ لذا قال النيسابوري في غرائب القرآن: (١١٠/٢٨): الأولى أن يراد بالوجوه: العيون، فيكون من إطلاق الكل على الجزء، لا عكسه.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ﴾ لا تحرك يا محمد بالقرآن لسانك قبل فراغ جبريل منه، أي

قبل أن يتم وحيه. ﴿لَتَعَجَلَ بِهِ﴾ لتأخذه على عجل، مخافة أن يتفلسف أو يضع منك. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك. ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ وإثبات قراءته في لسانك. ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ﴾ بلسان جبريل عليك. ﴿فَأَلْبَحَ قُرْآنَهُ﴾ استمع قراءته، فكان ﷺ يستمع ثم يقرؤه، ويكرر قراءته حتى يرسخ في ذهنه. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ تفسير ما أشكل فيه من المعاني، وبيان ما فيه من الحلال والحرام. وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن الاغترار بالدنيا العاجلة. ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ دار الدنيا وما فيها ﴿وَنَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ تركون العمل والاستعداد لها، وهو إشعار بأن بني آدم مطبوعون على الاستعجال. ﴿وَجُؤُهُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة. ﴿نَاصِرَةٌ﴾ حسنة مضيئة، متهللة بشراً بما تراه من النعيم. ﴿نَازِلَةٌ﴾ رائية عياناً، تنظر إلى ربها بلا حجاب. وقال مجاهد: تنتظر الثواب من ربها. ﴿بَاسِرَةٌ﴾ شديدة العبوس، كالحة متغيرة مسودة. ﴿تُنْظَرُ﴾ توقن وتتوقع. ﴿فَافِرَةٌ﴾ داهية عظيمة تكسر فقار الظهر.

سبب النزول:

نزل الآية (١٦):

﴿لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦): أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل الوحي، يحرك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أن منكر القيامة والبعث معرض عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور، غير مكترث بما يصدر منه، ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على

من ينكرها، رجاء قبوله إياها، ليظهر بذلك تباين حال من يرغب في تحصيل آيات الله، ومن يرغب عنها، فتلك الآيات تضمنت حال الإعراض عن آيات الله، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها، وبضدها تميز الأشياء^(١).

ثم ذكر تعالى سبب إنكار البعث، وهو حب الإنسان الدنيا العاجلة، وترك الآخرة، ووبخ أهله، ثم أوضح تعالى انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين: فريق المؤمنين المستمتعين بالنعيم وبرؤية الله عز وجل، وفريق المشركين الذين يترقبون نزول الدواهي العظام من العذاب بهم.

التفسير والبيان:

علم الله عز وجل رسوله ﷺ كيفية تلقي الوحي من الملك جبريل، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ تُرْبَةً ۚ إِنَّ عَلَيْنَا سِيبَانَهُ ۚ﴾ كان رسول الله ﷺ حرصاً منه على القرآن الموحى به إليه، يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، ويحرك شفثيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه، قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، حرصاً على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية.

أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي، لتأخذه على عجل، مخافة أن يتفلت منك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

إن علينا جمعه في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء، وعلينا إثبات قراءته في لسانك على الوجه القويم.

فإذا أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل، فاستمع له وأنصت، ثم اقرأه كما أقرأك، وكرره حتى يرسخ في ذهنك.

(١) البحر المحيط: ٢٨٨/٨

ثم إننا بعد حفظه وتلاوته نفسر لك ما فيه من الحلال والحرام، ونبين ونوضح لك ما أشكل منه، ونلهمك معناه كما أردنا وشرعنا.

وهكذا اشتملت الآيات الأربع على أحوال ثلاث: هي جمعه في صدره، وحفظه، في الآية الأولى والثانية، وتلاوته وتيسير أدائه كما أنزل، في الآية الثالثة، وتفسيره وبيانه وإيضاح معناه في الآية الرابعة.

ثم انتقل البيان إلى حال الإنسان السابق المنكر البعث، فوبخه وقرعه على إنكاره البعث، فقال تعالى مبيناً سبب الإنكار:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۚ﴾ (١٦) أي أردعكم عما تقولون أيها المشركون من إنكار البعث، فإن الذي يحملكم على التكذيب بيوم القيامة، ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم، محبتكم واهتمامكم بدار الدنيا العاجلة، وتشاغلكم عن الآخرة وترككم العمل لها. ولفظ ﴿كَلَّا﴾ عند سائر المفسرين: معناه حقاً، أي حقاً تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، والمعنى أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها، ويتركون الآخرة ويعرضون عنها.

وقال الزمخشري: كلا: ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة، وإنكار لها عليه، وحث على الأناة والتؤدة، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم؛ لأنكم خلقتُم من عجل، وطبعتم عليه، تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة^(١).

ثم أبان الله تعالى حال المؤمنين وحال الكافرين في الآخرة، فقال:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ (٢١) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ (٢٢) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ ۚ (٢٣) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ

بِهَا فَافِرَةٌ ﴿٢٥﴾ أي وجوه المؤمنين في الجنة حسنة بهية مشرقة مسرورة، ترى ربها عياناً، ووجوه الفجار في النار عابسة كالحلة كئيبة، توقن أن سينزل بها داهية عظيمة تكسر فقار الظهر. قال الأزهري عن مجاهد الذي فسر النظر بالانتظار: قد أخطأ مجاهد؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى انتظر، فإن قول القائل: نظرت إلى فلان، ليس إلا رؤية عين، فإذا أرادوا الانتظار، قالوا: نظرت، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً.

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿٢٦﴾: تنظر إلى ربها خاصة، لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، فإنه يدل على معنى الاختصاص، ثم رجع أن الآية تفيد معنى التوقع والرجاء^(١).

وهذا منه بسبب كونه من المعتزلة الذين يقولون: لا يدل ظاهر الآية على رؤية الله تعالى؛ لأن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسماً للرؤية، بل لمقدمة الرؤية، وهي قلب الحدة نحو المرئي، التماساً لرؤيته، فيكون نظر العين مقدمة للرؤية، وتأولوا قوله تعالى: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى أن أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله.

وأجاب الرازي بأننا نسلم أن النظر عبارة عن قلب الحدة.. إلخ لكننا نقول: لما تعذر حمله على حقيقته، وجب حمله على مسيبه وهو الرؤية، إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار؛ لأن قلب الحدة كالسبب للرؤية، ولا تعلق بينه وبين الانتظار، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار.

ثم أجاب عن قولهم: النظر جاء بمعنى الانتظار بأن هذا كثير في القرآن، ولكنه لم يقرن البتة بحرف (إلى) كقوله تعالى: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْيَسَ مِنْ تَوْرِكُمْ﴾ [الحديد:

(١) المرجع السابق: ص ٢٩٤

[١٣/٥٧] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣/٧] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠/٢]. وإذا فرضنا أن النظر المعدى بحرف (إلى) جاء في اللغة بمعنى الانتظار، لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه؛ لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع، كانت حاصلة في الدنيا، فلا بد أن يحصل في الآخرة شيء أزيد منه، حتى يحسن ذكره، في معرض الترغيب في الآخرة^(١). وقال النيسابوري: وحاصل كلامهم أن النظر إن كان بمعنى الرؤية فهو المطلوب، وإن كان بمعنى قلب الحدة نحو المرئي، فهذا في حقه تعالى محال؛ لأنه منزّه عن الجهة والمكان، فوجب حمله على مسبيه وهو الرؤية، وهذا مجاز مشهور^(٢).

وأيدت الأحاديث المتواترة ما فهمه الجمهور من دلالة الآية على رؤية الله تعالى، فقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، كما قال ابن كثير، ثم أورد الأحاديث وقال: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام^(٣).

وكذلك قال الشوكاني في تفسيره العظيم (فتح القدير) بعد أن فسر آية ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿٣٣﴾ بقوله: أي إلى خالقها، ومالك أمرها، ناظرة، أي تنظر إليه. هكذا تواترت الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر.

روى البخاري في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً»، وأخرج الشيخان

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٢٦/٣٠ - ٢٢٩

(٢) غرائب القرآن: ١١١/٢٨

(٣) تفسير ابن كثير: ٤٥٠/٤

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تُضَارَّون في رؤية الشمس والقمر، ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: إنكم ترون ربكم كذلك».

وفي الصحيحين أيضاً عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم، كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغْلِبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها، فافعلوا».

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب، آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن».

وأخرج مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا! ألم تُدخلنا الجنة، وتنجنا من النار! قال: فيُكشَفُ الحجابُ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِّحْسَنَىٰ وَزِيَادَةً﴾ [يونس: ٢٦/١٠].

وقال الألوسي: والذي يقطع الشغب ويدق في فروة من أحسن الطلب: ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والدارقطني وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَجُوهٌ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ ﴿٢٣﴾ فهو تفسير منه عليه الصلاة والسلام، ومن المعلوم أنه أعلم الأولين والآخرين، ولا سيما بما أنزل عليه من كلام رب العالمين^(١).

(١) تفسير الألوسي: ١٤٤/٢٩

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ۚ (٢٨) صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٢٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجِرَةُ (٤٢)﴾ [عبس: ٤٢-٣٨/٨٠].

فقه الحياة أو الاحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - تكفل الله تعالى لنبية ﷺ ثلاثة أمور لحفظ القرآن إلى الأبد: وهي جمعه في صدره عليه الصلاة والسلام، وتلاوته، وتفسيره لبيان ما فيه من الحدود والحلال والحرام، والوعد والوعيد، والمشكلات.

٢ - إن التعجل مذموم مطلقاً، ولو في أمور الدين.

٣ - إن سبب إنكار المشركين البعث والحساب والجزاء هو إثارة الدار الدنيا والحياة العاجلة فيها، وترك الاستعداد للآخرة والعمل لها، فعلى المؤمن أن يفر من غير الله إلى الله، ولا يستعين في كل أموره إلا به، على نقيض الكافر الذي كان يفر من الله إلى غيره حين قال: (أين المفر؟).

٤ - ثبوت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الآخرة، وحرمان الفجار منها، كان ابن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غُدوة وعشية، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾. وقد تقدم في حديث مسلم عن صهيب أن رؤية الله عز وجل هي الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦/١٠].

٥ - تكون وجوه الكفار الفجار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة، مستيقنة أنه سيحل بها عذاب شديد، وداهية عظيمة.

تفريط الكافر في الدنيا وإثبات البعث

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَافِيَ ۝١٣ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝١٤ وَظَنَّىٰ أَنَّهُ الْآرَاقُ ۝١٥﴾ وَالْفَتَىٰ السَّاقُ
بِالسَّاقِ ۝١٦ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۝١٧ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝١٨ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ
۝١٩ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِجُ ۝٢٠ أُولَٰئِكَ فَآوَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَآوَىٰ ۝٢٢ ائْتَسَبَ
الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝٢٣ أَلَمْ يَكُ نَفْثَةً مِنْ مِثْيَ يُغَىٰ ۝٢٤ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُهْلَقَةً فَسَوَىٰ
۝٢٥ فَعَمَلَ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٢٦ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٢٧﴾

القرءات:

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿مَنْ رَاقٍ﴾:

قرأ حفص بالسكت على نون (من) سكتة لطيفة من غير تنفس، وقرأ
الباقون بالإدغام.

﴿أَيْتَسَبَ﴾:

قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمة (أَيْتَسَبَ) وقرأ الباقون (أَيْتَسَبَ).

﴿يُغَىٰ﴾:

قرأ حفص (عنى) وقرأ الباقون (تمنى).

الإعراب:

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝١٨﴾ أي لم يصدق ولم يصل، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ
الْعَقَبَةَ ۝١٩﴾ [البلد: ١١/٩٠] أي لم يقتحم.

﴿يَتَمَطَّى﴾ أصله يتمطط، أي يتبختر، من المطيطاء (اسم مشية بني مخزوم في الجاهلية ومنهم أبو جهل) فأبدل من الطاء الآخرة ياء، مثل تظنيت وأصله: تظننت، وأملت وأصله: أملت، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ﴾ (٢٤) ﴿أَوَّلَ﴾ مبتدأ، و﴿لَكَ﴾ خبره، وحذف خبر ﴿أَوَّلَ﴾ الثاني، اجتزاء بخبر الأول عنها، وأولى: ممنوع من الصرف للتعريف ووزن الفعل؛ لأنه على وزن أفعل.

﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣١) ﴿أَنْ يُتْرَكَ﴾ سد مسد مفعولي: ﴿أَيْحَسِبُ﴾ و﴿سُدًى﴾ حال من ضمير ﴿يُتْرَكَ﴾. ﴿يُجْعَلُ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى﴾ (٣٩) ﴿الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى﴾ منصوبان على البدل من ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾.

﴿عَلَى أَنْ يُجِئَ الْوَلَّى﴾ لا يجوز إدغام إحدى الياءين في الأخرى؛ لأن الحركة في الثانية حركة إعراب.

البلاغة:

﴿بَلَغَتْ التَّرَاقِي﴾ كناية عن الإشفاء على الموت.

﴿صَدَقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾ بينهما طباق.

﴿الْأَسَاقِ﴾ ﴿الْأَسَاقِ﴾ بينهما جناس ناقص. وقوله: ﴿وَأَلْفَيْتَ الْأَسَاقِ بِالْأَسَاقِ﴾ (٢٩) كناية عن الشدة.

﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣١) استفهام إنكاري بقصد التوبيخ والتفريع.

﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ﴾ التفات من الغيبة إلى المخاطب، تقييحاً له وتهجيناً.

المفردات اللغوية:

﴿الرَّاقِي﴾ جمع ترقية، وهي العظام الممتدة من الخلق إلى العاتق من اليمين والشمال، والمراد بلوغ الروح أعالي الصدر. ﴿وَقِيلَ﴾ قال من حوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ من يرقه وينجيه ليشفى، كما يرق المريض، والمراد: هل من طبيب يشفي حينئذ؟ ﴿الرَّاقُ﴾ فراق الدنيا، أي وظن المحتضر أن الذي نزل به فراق الدنيا وأحبائها.

﴿وَالْفَتَى السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي التوت إحدى ساقيه بالأخرى عند الموت، فلا يقدر تحريكها. ﴿السَّاقُ﴾ السوق إلى الله تعالى وحكمه، والمعنى: إذا بلغت الروح الحلقوم، تساق إلى حكم ربها. ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ الإنسان. ﴿وَلَا صَلَّى﴾ أي لم يصدق بما يجب تصديقه، أو لم يصدق ماله، بأن لم يؤد زكاته، ولم يؤد صلاته المفروضة. ﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ كذب بالقرآن وتولى عن الطاعة. ﴿يَتَمَطَّى﴾ يتبختر في مشيته إعجاباً وافتخاراً.

﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ﴾ أي ويل لك، من الولي، فهو دعاء وأصله: أولاك الله ما تكرهه، أو أولى لك الهلاك، واللام مزيدة كما في ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٢٧/٧٢] أو للثنين. وقوله: ﴿فَأَوَّلَ﴾ أي فهو أولى بك من غيرك. ﴿ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ﴾ تأكيد، أي أنت أولى بتكرر ذلك عليك مرة بعد أخرى، وتكون الجملة الأولى دعاء عليه بقرب المكروه، والثانية دعاء عليه بأن يكون أقرب إلى المكروه من غيره.

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَنُ﴾ يظن ﴿أَن يُرَكَّ سُدًى﴾ ﴿سُدًى﴾ مهملاً لا يكلف بالشرائع ولا يجازى ولا يحاسب، وهو يتضمن تكرار إنكاره للحشر؛ لأن جزاء التكليف قد لا يكون إلا في الآخرة، وهذا دليل على إثبات البعث؛ لأنه لا بد من الجزاء على الأعمال، حتى لا يتساوى الطائع مع العاصي.

﴿نُظْمَةٌ﴾ ماء قليلاً، وتجمع على نظف ونطاف. ﴿يُتَمَّى﴾ يصب في الرحم،

﴿ثُمَّ كَانَ﴾ المني. ﴿عَلَقَةً﴾ قطعة دم جامد. ﴿فَطَلَقَ﴾ أي أوجد الله تعالى منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة. ﴿فَسَوَّى﴾ أي فسّواه شخصاً مستقلاً، بأن قدره وعدّله وعدل أعضائه. ﴿فَجَعَلَ يَنْثُ﴾ من المني الذي صار علقه (قطعة دم) ثم مضغة (قطعة لحم). ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين أو النوعين من البشر. ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ بأن يرزق النوعان تارة، أو ينفرد أحدهما عن الآخر تارة، وهو استدلال آخر بالإبداء على الإعادة والبعث. ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الفعال لهذه الأشياء. ﴿يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟﴾ قال ﷺ: «بلى».

سبب النزول:

نزل الآية (٣٤ - ٣٥):

﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَئِكَ﴾: أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المذثر: ٣٠/٧٤] قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم اللّهم (العدد) والشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ أن يأتي أبا جهل، فيقول له: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَئِكَ﴾ ثُمَّ ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَئِكَ﴾. ﴿٢٥﴾.

وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَوَلَيْكَ فَأُولَئِكَ﴾ شيء قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى تعظيم أحوال الآخرة وهي القيامة العظمى، ووصف ما فيها من أهوال، وما عليه حال السعداء وحال الأشقياء، بيّن أن الدنيا لا بدّ لها من نهاية ووصول إلى نجرع مرارة الموت وهو القيامة الصغرى؛ لأن

الموت أول منزلة من منازل الآخرة، فإذا لم يؤمن الكافر بأمر القيامة، لا يمكنه أن يتخلص من الموت، وتجرع آلامه، وتحمل آفاته.

ثم استدل الله تعالى لإثبات البعث بأمرين:

الأول - أن العدل يقضي بأنه لا بدّ من الجزاء على الأعمال، حتى لا يتساوى الطائع والعاصي، وذلك لا يكون إلا في الآخرة.

الثاني - أنه تعالى كما قدّر على بدء الخلق، فهو قادر على الإعادة والبعث، بل إن الإعادة أهون في تقدير البشر.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۖ وَقِيلَ لَهَا رَاقٍ ۖ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ﴾ ﴿كَلَّا﴾ إذا كانت رادعة، فالمعنى: لست يا بن آدم هناك تكذب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإذا كانت بمعنى حقاً، فالمراد: حقاً إذا انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق. والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ للنفس لدلالة قرينة الحال أو المقال، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ۙ﴾ [الواقعة: ٨٣/٥٦].

والظاهر المعنى الأول، قال الزجاج: ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إثارة الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة، وعرفتم أنه لا نسبة لها إلى الدنيا، فارتدعوا عن إثارة الدنيا على الآخرة، وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذي به تنتهي العاجلة، وتنقلون إلى الآجلة دار الخلود.

وعلى هذا يكون المعنى العام: ارتدعوا عن إثارة الدنيا على الآخرة، وتنبهوا إذا بلغت الروح أو النفس أعالي الصدر، كناية عن الاحتضار وأهواله والموت؛ وقال من حضر المحتضر: هل من يرقيه ويشفيه، وهل من طبيب

شاف؟ ولكن لن يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً؛ وأيقن الذي بلغت روحه التراقي أنها ساعة الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد.

وعبر عن اليقين بالظن؛ لأن الروح ما دامت في البدن، يطمع صاحبها في الحياة، فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، كما ذكر الرازي.

والآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه، باق بعد موت البدن؛ لأنه تعالى سمى الموت فراقاً، وهو يدل على أن الروح باقية؛ فإن الفراق والوصال صفة، والصفة تستدعي وجود الموصوف^(١).

﴿وَالْفَتَى السَّاقِ بِالسَّاقِ﴾ أي التوت ساقه على ساقه عند نزول الموت به، فلا يقدر على تحريكها، فماتت رجلاه، ويبست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جوّالاً عليهما، واجتمع عليه أمران: الناس يجهّزون جسده، والملائكة يجهّزون روحه.

ويصح أن يكون ذلك كناية عن الشدة، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢/٦٨] والمراد: اتصلت شدة فراق الدنيا، وترك الأهل والولد والجاه وشماتة الأعداء وحزن الأولياء وغير ذلك، بشدة الإقبال على أحوال الآخرة وأهوالها.

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي تساق الأرواح بعد قبضها من الأجساد إلى خالقها، ويكون المرجع والمآب إلى حكم ربك، فتصير إما إلى جنة وإما إلى نار. فقلوه: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ أي إلى حكمه خاصة. و﴿الْمَسَاقُ﴾ السوق، فحكمه هو المسوق إليه. وقيل: السوق إلى الله لا إلى غيره، فهو السائق يسوقه إلى الجنة أو إلى النار.

(١) تفسير الرازي: ٢٣١/٣٠

ثم أوضح الله تعالى كيفية عمل هذا المحتضر فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه وبالدنيا، فقال:

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُّ ۖ﴾^(٢٩) أي لم يصدق بالرسالة النبوية ولا بالقرآن، ولا صلى لربه الصلاة المطلوبة منه فرضاً، بل كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى عن الطاعة والإيمان، وزاد على ذلك أنه ذهب إلى أهله جذلان أشراً بطراً، يتبخر ويتخال في مشيته افتخاراً بذلك، كسلان لا همّة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ﴾^(٣٠) [المطففين: ٨٣/٣١].

لقد جمع بين ترك العقيدة أو أصول الدين في أنه ما صدق بالدين، ولكن كذب به، وبين إهمال فروع الدين في أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض، وبين الإساءة لطبيعة الدنيا وسلوكها في أنه ذهب إلى أهله يتمطى، ويتبخر، ويتخال في مشيته.

والآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة، كما يستحقهما بترك الإيمان.

ثم هدد الله تعالى هذا الكافر وتوعده ودعا عليه بقوله:

﴿أَوَلَيْكَ لَكَ فَأُولَىٰ ۖ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۖ﴾^(٣١) أي وليك الويل، ويتكرر عليك هذا الدعاء، والمعنى: ويل لك، وأهلكك الله، وليتكرر هذا الدعاء عليك مرة بعد أخرى، فأنت الجدير بهذا.

وهذا تهديد ووعد أكيد من الله تعالى للكافر به، المتبخر في مشيه، يقصد به أنه يحق لك أن تمشي هكذا، وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد، وهو كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۖ﴾^(٣٢) [الدخان: ٤٤/٤٩] وقوله سبحانه: ﴿كُلُوا وَشَبَّهُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ

﴿تَجْرُمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦/٧٧] وقوله عز وجل: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥/٣٩] وقوله عز من قائل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠/٤١] .

قال قتادة والكلبي ومقاتل: أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل، ثم قال: ﴿أَوَلَيْكَ لَكَ فَأُولَى﴾ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ أَوَلَيْكَ لَكَ فَأُولَى ﴿٢٥﴾ توعدته، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، وإني لأعز أهل هذا الوادي، ثم انسلّ ذاهباً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، كما قال له الرسول عليه الصلاة والسلام. ولما كان يوم بدر أشرف على القوم فقال: لا يُعبد الله بعد هذا اليوم، فقتل إذ ذاك شر قتلة.

ثم أقام الله تعالى دليلين على صحة البعث لتأكيد ما جاء في أول السورة: ﴿يُحَسِّبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ ﴿٢﴾ :

الأول - ﴿يُحَسِّبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَبْرَكَ سُدَى﴾ ﴿٣١﴾ أي أيظن أن يترك الإنسان في الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يكلف، ولا يحاسب ولا يعاقب بعمله في الآخرة؟ وهذا خلاف مقتضى العدل والحكمة، فلا بدّ من الجزاء حتى لا يتساوى المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، واقتضت الحكمة الإلهية تأجيل الجزاء إلى عالم الآخرة، وترك تعجيله، ليتسنى وجود الفرصة المواتية الكافية في أثناء العمر والحياة للإيمان والصلاح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَآيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ [طه: ١٥/٢٠] . وقال سبحانه: ﴿أَمَّا نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٢٨﴾ [ص: ٢٨/٣٨] .

ونظير الآية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥/٢٣] .

الثاني - ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَعُ مِنْ مَنِيِّ بَيْتَىٰ﴾ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢٨﴾ فَعَمَلَ بَيْنَهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ الْوَلَدَ﴾ ﴿٤٠﴾ أي أما كان

ذلك الإنسان قطرة أو نقطة ضعيفة من مني يراق في الرحم، ثم صار بعد ذلك علقه، أي قطعة دم، ثم مضغة أي قطعة لحم، ثم سُكِّلَ ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سويّاً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره؟ أليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه بقادر على أن يعيد خلق الأجسام من جديد بالبعث، كما كانت عليه في الدنيا؟ بلى، فإن الإعادة أهون من الابتداء.

وقوله: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي فقَدَّر بأن جعلها مضغة مخلقة، وقوله ﴿فَسَوَّيْ﴾ أي فعدَّل أركانه وكمل نشأته ونفخ فيه الروح، وجعل من المني بعد تخليقه صنفى الإنسان: الرجل والمرأة.

وهذا استدلال بالخلق الأول على الإعادة، فإن الخالق الأول هو الخالق الآخر، والأمران سواء عليه.

روى ابن أبي حاتم وغيره أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبلى». وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن مردويه، والحاكم وصححه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ (النبي: ١/٩٥) وانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٨) فليقل: بلى، وأنا على ذلكم من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (١) [القيامة: ١/٧٥] فانتهى إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُجِئَ الْمُؤْمِنُ﴾ (٢) فليقل: بلى، ومن قرأ المرسلات، فبلغ ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠) [المرسلات: ٥٠/٧٧] فليقل: آمنا بالله.

فقه الحياة لو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - ذكَّر الله تعالى الناس قاطبة بشدة الحال وصعوبة الأمر عند نزول

الموت، فعند الاحتضار يجتمع على الإنسان أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، ويجتمع عليه أيضاً شيان محزنان: فراق الدنيا والأهل والولد حين معاينة الملائكة، واتصال شدة الدنيا بشدة أول الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، أي شدة كرب الموت بشدة هول المطلاع على الآخرة.

٢ - يكون الشُّوق في يوم القيامة إلى الخالق، ويكون المرجع والمآب إلى حكم الله، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

٣ - يكون الكافر أولى وأجدر بالعذاب والهلاك لفساد العقيدة والعمل والخلق، فلم يصدق بالرسول محمد ﷺ ولا بالقرآن، ولم يصل الصلاة المفروضة التي أمره الله بها، وتجرد عن إنسانيته بالتكبر والتبخر، افتخاراً بالمال والولد، واعتزازاً بالقوة الجسدية أو الجاه، لذا جاء التهديد بعد التهديد، والوعيد بعد الوعيد في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ (٢٤) ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (٢٥) فهو وعيد أربعة لأربعة، أي وعيد بأربعة أنواع من العذاب لأربعة أنواع من الأمور: ترك الإيمان والصلاة وتكذيب الله تعالى والرسول ﷺ والقرآن، والتبخر.

٤ - أعاد الله تعالى في آخر السورة ما ذكر في أولها بقوله: ﴿أَنجَسَ الْإِنْسَانُ أَلَّن يَجْعَ عَظَامُهُ﴾ (٢٦) وقد ذكر هذا لإثبات الحشر والبعث والقيامة بدليلين:

الأول - لا بد في الحياة من التكليف لتنظيم الحياة وتهذيب الأنفس ودرء المفساد، والتكليف لا يحسن، ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة.

الثاني - الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، فمن قدر على بدء الخلق وإيجاد الإنسان، فهو أقدر على إعادته إلى الحياة مرة أخرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

مدنية، وهي إحدى وثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة الإنسان لافتتاحها بالتنويه بخلق الإنسان وإيجاده، بعد أن لم يكن شيئاً موجوداً، ثم صار خليفة في الأرض، وخلق له جميع ما في الأرض من خيرات ومعادن وكنوز.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ - ذكر الله تعالى في آخر السورة السابقة مبدأ خلق الإنسان من نطفة، ثم جعل منه الصنفين: الرجل والمرأة، ثم ذكر في مطلع هذه السورة خلق آدم أبي البشر، وجعله سميعاً بصيراً، ثم هدايته السبيل، وما ترتب عليه من انقسام البشر إلى نوعين: شاكرك وكفور.

٢ - أجل في السورة المتقدمة وصف حال الجنة والنار، ثم فصل أوصافهما في هذه السورة، وأطنب في وصف الجنة.

٣ - ذكر سبحانه في السورة السابقة الأهوال التي يلقاها الفجار في يوم القيامة، وذكر في هذه السورة ما يلقاه الأبرار من النعيم.

ما اشتملت عليه السورة:

بالرغم من كون هذه السورة مدنية في قول الجمهور، فإنها عنيت بالحديث عن أحوال الآخرة، ولا سيما تنعم الأبرار في دار الخلد والنعيم، أما من قال بأنها مكية فرأيه متفق مع موضوعها.

وقد افتتحت بالكلام عن مبدأ خلق الإنسان، وتزويده بطاقات السمع والبصر، وهدايته السبيل، ثم انقسامه إلى فئتين: شاكركم وكفوركم، والإخبار عن جزاء الشاكركم والجاحدين ووصف الجنة والنار: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أشادت بأعمال الشاكركم من الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام لوجه الله، والخوف من عذاب الله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ عَيْنًا يَشْرِبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالْأَنذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا تَطْعَمُهُمْ لُجُجُهُمْ أَلْهُوَ شُرُكُهُمْ وَلَا يَشْكُرُوا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا ۝١٠ فَوَقَّعْنَاهُم لَلَّهِ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَصْرَهُ وَسَوَّوْنَا ۝١١﴾ [الآيات: ٥-١١].

وأردفت ذلك بوصف ما لهم عند ربهم من الجنان والثواب والفضل والإكرام: ﴿وَجَرَّحْنَاهُمْ إِنَّمَا صَبَّرُوا حَتَّىٰ حَرِيرًا ۝١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ثَابِتًا ۝١٥ مِّن فَضْلِهِ وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٦ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَرُهَا أَقْدِيرًا ۝١٧ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٨ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ۝١٩ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ۝٢٠ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا ۝٢١ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُودٌ ۝٢٢ حُضْرٌ وَسَبَقَتْ وَحُلُوعٌ أُسُودٌ مِّن فَضْلِهِ وَسَقَمُهُمْ رُتَبُهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢٣ إِنَّا هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَّشْكُورًا ۝٢٤﴾ [الآيات: ١٢-٢٤].

ثم أبانت مصدر تنزيل القرآن، وأمر النبي ﷺ بالصبر الجميل، وذكر الله، وقيام الليل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ١٣﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا ١٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ١٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ١٦﴾ [الآيات: ٢٣-٢٦].

ونوّهت بشيء تضمنته السورة السابقة وهو حب الدنيا العاجلة وترك الآخرة، وتهديدهم بتبديل أمثالهم إن داموا على الكفر والعناد وإمعان الأذى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ١٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ١٨﴾ [الآيات: ٢٧-٢٨].

وختمت السورة الكريمة بإعلان أن القرآن تذكرة وعظة لجميع البشر، وندبهم إلى الإيمان والعمل بما جاء فيه: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣١﴾ [الآيات: ٢٩-٣١].

خلق الله الإنسان وهدايته السبيل

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾

الإعراب:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ﴾ «هل» إما بمعنى قد، أي أقد؛ لأن الأصل أهل ثم حذفت الهمزة، أو يكون الاستفهام بمعنى التقرير، وهو تقرير موجه لمن أنكر البعث، يراد به انتزاع إقراره بهذه الحقيقة الأبدية، فيقال له: من

أحدث الإنسان بعد العدم؟ ونظراً لبداية الجواب، كان لا بدّ من (نعم)، وإذا أقر بأن الخالق هو الله، فكيف يمتنع عليه إعادة هذا الإنسان الذي خلقه أول مرة؟ فإن من قدر على إحداث شيء بعد أن لم يكن، كان على إعادته أولى. ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ الجملة حال من الإنسان. ﴿تَبْتَلِيهِ﴾ في موقع الحال.

﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ منصوبان على الحال من هاء: ﴿هَدَيْتُهُ﴾.

البلاغة:

﴿شَاكِرًا﴾ و﴿كَفُورًا﴾ بينهما طباق. وكفور صيغة مبالغة، وعبر به وليس بالكافر مراعاة للفواصل، وإشعاراً بأن الإنسان لا يخلو عن كفران غالباً، وإنما المواخذة بالتوغل بالكفر.

﴿مَذْكُورًا﴾ ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿كَفُورًا﴾ ﴿مَثُورًا﴾ ﴿طُهُورًا﴾ ﴿مَشْكُورًا﴾ إلخ سجع مرصع، وهو من مراعاة الفواصل.

الفردات اللغوية:

﴿هَلْ﴾ استفهام تقرير وتقريب، فهو بمعنى (قد). ﴿الْإِنْسَنَ﴾ آدم عليه السلام، أو جنس الإنسان، وهو الراجح لقوله: ﴿إِنَّمَا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ﴾ ﴿حِينَ﴾ جزء محدود من الزمان، قدره بعضهم بأربعين سنة ﴿الَّذَهْرَ﴾ الزمان الممتد غير المحدود. ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ كان شيئاً منسياً لا يذكر، معدوماً لا يعرف. ﴿إِنَّمَا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ﴾ أي جنس الإنسان. ﴿نُطْفَةٍ﴾ قليل من الماء. ﴿أَمْشَاجَ﴾ أخلاط، جمع مَشَج ومشيح، أي من اختلاط ماء الرجل وماء المرأة وامتزاجهما. ﴿تَبْتَلِيهِ﴾ نختبره بالتكليف، أي مريدين اختباره عند التكليف والتأهل. ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ بسبب ذلك. ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات، فهو كالمسبب من الابتلاء، ولذلك عطف بالفاء على ﴿تَبْتَلِيهِ﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يَبَيِّنُ لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، بِإِقَامَةِ الْأَدْلَةِ وَإِنزَالِ الْآيَاتِ وَبَعَثِ الرُّسُلِ.

التفسير والبيان:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ① أي قد أتى على الإنسان (جنس الإنسان) زمن، كان فيه منسياً غير موجود، فلم يكن آدم وبنوه شيئاً معروفاً، ولا مخلوقاً، ولا مذكوراً لأحد من الخليقة المتقدمين عليه وهم الملائكة والجن. وهذا إخبار بكون الإنسان في بدء الخلق معدوماً غير مخلوق، والآية كالتقدمة والتوطئة للتي تعقبها، وكالتأكيد لخاتمة السورة المتقدمة. وهي حقيقة لا ينكرها أحد، ويؤكددها علماء طبقات الأرض الذين قالوا: لم يوجد الإنسان على الأرض إلا بعد خلقها بأحقاب طوال.

قال الفراء وثعلب: المعنى أنه كان جسداً مصوراً، تراباً وطيناً لا يذكر ولا يعرف، ولا يدري ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح، فصار مذكوراً. والمراد بالإنسان هنا جنس بني آدم، لقوله تعالى بعدئذ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾.

ثم أخبر الله تعالى عن بدء تكاثر نوع الإنسان بعد خلق آدم عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ② أي إننا نحن الخالق الإله أوجدنا أو خلقنا ابن آدم من مني أو ماء قليل، مختلط ممتزج بين ماءي الرجل والمرأة، مريدين بهذا الخلق ابتلاء أي اختباره، بالخير والشر وبالتكاليف الشرعية بعد بلوغ سن التكليف وأهلية الخطاب التشريعي، وزودناه بطاقات الفهم والوعي والإدراك وهي السمع والبصر، ليتمكن من حمل رسالة التكليف واجتياز الامتحان، واستماع الآيات، والتأمل في دلائل الكون، والتفكر في براهين الوجود الدالة على الخالق الواحد الأحد.

فبالسمع والبصر والفؤاد وسائر الحواس يتمكن هذا الإنسان من الطاعة والمعصية. ولما جعله تعالى بهذا التركيب، وامتن عليه بهاتين الصفتين (السمع والبصر) وهما آلة التمييز والفهم، وأشرف الحواس التي تدرك بها أعظم المدركات، أخبر تعالى أنه هداه السبيل أي أرشده إلى الطريق، وعرفه مآل طريق النجاة، ومآل طريق الهلاك، وبيّن له طريق الهدى وطريق الضلال، فقال:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٣] أي بيّنا وأوضحنا له، وعرفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، وبصّرناه بعواقب الأمور، وعرفناه منافع الأشياء ومضارّها التي يهتدي إليها بطبعه السليم، وكمال عقله، فأل أمره إلى أن ينقسم نوع الإنسان إلى قسمين: شاكراً لأنعم الله مؤمن به مهتد بهديه. وكافر جاحد للنعمة معرض عن الطاعة، صاّد عن الهدى الإلهي.

ونظير الآية: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [٣] [البلد: ١٠/٩٠] أي بيّنا له طريق الخير، وطريق الشر، فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، وهذا قول الجمهور، ولم نجبره أو نكرهه على شيء من الإيمان أو الكفر، وإنما اختار الإنسان لنفسه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧/٤١].

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فموقفها أو موعفها».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - لم يكن الإنسان قبل خلقه بأمر ربه شيئاً معروفاً، وظلّ على هذا النحو حيناً من الزمان غير معروف.

٢ - أوجد الله أصل الإنسان من تراب، ثم نفخ فيه من روحه، ثم حدث التناسل والتكاثر من شيء ضعيف مهين، وهو التقاء نطفتي الرجل والمرأة.

٣ - كان القصد من خلق الإنسان هو الابتلاء والاختبار، لذا أمدّه الله تعالى بمفاتيح المعرفة والهداية والعلم، وأعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنيّتان عن الفهم والتمييز.

٤ - أخبر الله تعالى أنه بعد أن رغب الإنسان، وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بيّن له سبيل الهدى والضلال، بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ أَسْبِيلًا﴾.

٥ - الآية المتقدمة دالة على أن إعطاء الحواس كان المقدم على إعطاء العقل، وهذا صحيح؛ لأن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء، إلا أنه أعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف، وهي الحواس الظاهرة والباطنة.

٦ - المراد من هداية السبيل: خلق الدلائل، وخلق العقل الهادي، وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب.

٧ - أيّ كان نوع الإنسان ومنهجه، شاكراً أو كفوراً، فقد بيّن الله ما يحتاج إليه من الخير والطاعة.

٨ - ليس المراد بالشاكر والكفور: من يشتغل بفعل الشكر وفعل الكفران، وإلا لم يتحقق الحصر المفهوم من كلمة ﴿إِمَّا﴾ بل المراد من الشاكر: الذي يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه عليه، والمراد من الكفور: الذي لا يقرّ بوجوب الشكر عليه، إما لأنه ينكر الخالق، أو لأنه وإن كان يثبته، لكنه ينكر وجوب الشكر عليه، وحيث يتحقق الحصر: وهو أن المكلف: إما أن يكون شاكراً، وإما أن يكون كفوراً. وبهذا يرد على الخوارج الذين احتجوا بهذه الآية

على أنه لا وساطة بين المطيع والكافر، لأن الشاكر هو المطيع، والكفور هو الكافر^(١).

جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَعْتَدْنَا لِلْأَبْرَارِ يَسْرِيُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَهِنَاكِسًا وَنَبِيًّا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لُؤْمِي اللَّهِ لَا تُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ۝ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ ﴾

القرءاءات:

﴿ سَلْسِلًا ﴾ :

قرأ نافع، والكسائي: (سلاسلاً) وصلًا، وبإبدال الهمزة ألفًا وقفًا.

وقرأ الباقون (سلاسل) وصلًا.

واختلفوا في الوقف، فأبو عمرو وقف بالألف، وقنبل، وحمزة وقفًا من غير ألف مع إسكان اللام.

وللبزي، وابن ذكوان، وحفص، وجهان وقفًا: الأول: كأبي عمرو، والثاني: كحمزة.

﴿ كَأْسٍ ﴾ :

(١) تفسير الرازي: ٢٣٩/٣٠

وقرأ السوسي، وحزة وقفاً (كاس).

الإعراب:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَعْلَلًا﴾: قرئ بتنوين مجاورته
﴿وَأَعْلَلًا﴾ وقرئ من غير تنوين؛ لأنه ممنوع من الصرف.

وكذا أيضاً ﴿فَوَارِرًا﴾ [الآية ١٥] قرئ منوناً وغير منون.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾: منصوب من ستة أوجه: على أنه بدل من قوله:
﴿كَافُورًا﴾ أو على التمييز، أو لقيامه مقام مفعول محذوف لـ ﴿يَشْرَبُونَ﴾
تقديره: يشربون من كأس ماء عين، أو على البديل من ﴿كَأْسٍ﴾ على الموضع،
أو على الحال من ضمير ﴿مِرَاجُهَا﴾ وفيه خلاف، أو منصوب بتقدير أعني.
﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء إما بمعنى (من) أي يشرب منها، أو زائدة، أي يشرب
ماءها؛ لأن العين لا تُشرب وإنما يُشرب ماؤها.

البلاغة:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا﴾ لف ونشر مشوَّش، فإنه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا
شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ ثم أعاد بالذكر على الثاني دون الأول.

﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَامًا﴾ جناس اشتقاق.

﴿يَوْمًا غُوبًا﴾ مجاز عقلي، إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى
زمانه، مثل: نهاره صائم.

﴿فَوَقَّعُتُمْ﴾ و ﴿وَلَقَّعُتُمْ﴾ جناس غير تام.

للفردات اللغوية:

﴿أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا. ﴿سَلْسِلًا﴾ قيوداً توضع في الأرجل، يسحبون بها إلى

النار. ﴿وَأَغْلَلَ﴾ أطواقاً وقيوداً توضع في الأيدي وتجمع إلى أعناقهم، جمع غُلّ: وهو القيد. ﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً مسعرة بها يحرقون ويعذبون.

﴿الْأَبْرَارَ﴾ أهل الطاعة والإخلاص، جمع برّ، والبررة جمع بارّ، كما جاء في الصحاح. ﴿كَأَيِّنْ﴾ قَدَح أو إناء زجاجة فيها خمر، والمراد: من خمر، تسمية للحال باسم المحل، و﴿مِنْ﴾: للتبعية. ﴿مِرَاجُهَا﴾ ما تمزج به. ﴿كَأُفُورًا﴾ طيب معروف، له رائحة جميلة.

﴿يَتَرَبَّ بِهَا﴾ أي منها. ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ أولياؤه. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يقودونها ويخرجونها حيث شاءوا إجراء سهلاً، ويخرجونها من الأرض، والمراد أنها تحت تصرفهم وأمرهم. ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ﴾ ﴿بِالَّذِينَ﴾: التزام قرينة الله تعالى، والمراد يؤدون ما أوجبه على أنفسهم من الطاعات. ﴿شَرُّهُ﴾ شدائده. ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ فاشياً منتشراً في البلاد. ﴿عَلَى حَبِيءٍ﴾ حبة الطعام أو الإطعام. ﴿مَشْكِيئًا﴾ محتاجاً لفقره. ﴿وَيَنِيئًا﴾ من لا أب له. ﴿وَأَسِيرًا﴾ من أسر من الكفار في حرب إسلامية، ويشمل أيضاً الأسير المؤمن، والمملوك والمسجون. ﴿لِيُجَاهِدَ اللَّهُ﴾ ابتغاء لرضوانه وطلب ثوابه، لا لتوهم المنّ وتوقع المكافأة المنقصة للأجر. ﴿شُكُورًا﴾ شكراً.

﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم. ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه، أي كربه المنظر لشدته. ﴿فَقَطَرِيرًا﴾ شديد العبوس والهول، مظلماً. ﴿فَوَقَّعَهُمْ﴾ دفع عنهم بسبب خوفهم وتحفظهم منه. ﴿وَلَقَّعَهُمْ﴾ أعطاهم. ﴿نَضْرَةً﴾ حسناً وبهاء. ﴿وَسُرُورًا﴾ حبوراً. ﴿وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا﴾ بصبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات وإثارة الأموال. ﴿جَنَّةٍ﴾ بستاناً يأكلون منه. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكِيئًا وَنِيئًا وَأَسِيرًا﴾ (٨): أخرج ابن المنذر

عن ابن جرير في قوله: ﴿وَأَسِيرًا﴾ قال: لم يكن النبي ﷺ يأسر أهل الإسلام، ولكنها نزلت في أسارى أهل الشرك، كانوا يأسرونهم في العذاب، فنزلت فيهم، فكان النبي ﷺ يأمرهم بالإصلاح إليهم.

وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ویتيماً وأسيراً. وقال أهل التفسير: نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة، لكن القصة لم تصح.

قال القرطبي: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، وَمَنْ فَعَلَ فَعَلًا حَسَنًا؛ فهي عامة^(١).

المفاسية:

بعد بيان أن الله هدى الناس إلى طريق الخير وطريق الشر، ثم انقسامهم بعدئذٍ فريقين: شاكراً وكافراً، ذكر تعالى على جهة الوعيد أنه أعد للكافرين قيوداً وناراً، وللمؤمنين الطائعين جنة فيها ألوان النعيم من المأكول والمشرب والملبس، لتتم المقابلة أو المقارنة بين الجزاءين، مع بيان العلة أو السبب لكل جزاء.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا أَعَدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ أي إنا هيأنا وأعدنا لكل من كفر بالله وبنعمه، وخالف أمره سلاسل في أرجلهم يقادون بها إلى الجحيم، وقيوداً تشد بها أيديهم إلى أعناقهم، وناراً تستعر وتتوقد، لنعذبهم ونحرقهم بها. والسلاسل: القيود في جهنم، كل سلسلة سبعون ذراعاً، كما جاء في سورة الحاقة. والأغلال: ما تغل به الأيدي إلى الأعناق.

(١) تفسير القرطبي: ١٣٠/١٩

ونظير الآية: ﴿إِذِ الْأَغْلَظُ فِيَّ اعْتَنَقَهُمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٦﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/٧٦-٧٧].

فهذا إخبار عما أرصده الله عز وجل للكافرين الأشقياء من خلقه، ثم أتبعه بما أعد للمؤمنين الطائعين، فقال:

﴿إِنَّ الْأَثَرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ أي إن المؤمنين أهل الطاعة والإخلاص الذين يؤدون حق الله، بالتزام فرائضه واجتناب معاصيه، يشربون من خمر ممزوجة بكافور بارد أبيض طيب الرائحة، ليكمل ريح الخمر وطعمها ويطيب، وممزوجة أيضاً بماء عين يشرب منها عباد الله الصالحون، يجرؤونها إلى حيث أرادوا من منازلهم وقصورهم، وينتفعون بها كما يشاؤون، ويشقونها شقاً كما يشق النهر ويتفجر ينبوع. وقيل: الكافور: اسم عين في الجنة، يقال لها عين الكافور.

وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ معناه يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم. والتفجير: الإنباع.

ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أسباب لهذا التكريم وثواب الأبرار، فقال:

١ - ٢ - ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧٧﴾﴾ أي يوفون بما أوجبه على أنفسهم من نذور تقرباً إلى الله تعالى، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها. والنذر في الشرع: ما أوجبه المكلف على نفسه لله تعالى من صلاة أو صوم أو ذبح أو غيرها مما لم يكن عليه واجباً بالشرع. قال الرازي: اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامًا﴾. ويخافون عذاب يوم هو يوم القيامة كانت شدائده وأهواله فاشية منتشرة في كل جهة، وعامة على الناس إلا من رحم الله.

وإنما سميت الأهوال شراً؛ لكونها مضرّة بمن تنزل عليه، ولكونها صعبة عليه، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شروراً.

والآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر؛ لأنه تعالى عقبه بقوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وهذا يقتضي أن الخوف من عذاب الله هو سبب الوفاء بالنذر.

٣ - ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْدٍ مُّسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) أي يطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له المحتاج الفقير العاجز عن الكسب، واليتيم الحزين الذي فقد أباه وعائلته، والأسير المقيد المحبوس، أو المملوك، سواء من أهل الإيمان أو من المشركين. وخصّ الطعام بالذكر لكونه إنفاذاً للحياة، وإصلاحاً للإنسان، وإحساناً لا ينسى.

وفي قوله: ﴿عَلَىٰ حَيْدٍ﴾ تنبيه على ما ينبغي أن يكون عليه الْمُطْعِمُ، بل كل عامل، من إخلاص عمله لله.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ (١٦) [البلد: ١١/٩٠-١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَتَىٰ الْمَالَ عَلَىٰ حَيْدٍ﴾ [البقرة: ١٧٧/٢]، وقوله: ﴿لَن نَّأْلُوا الْإِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٩٢/٣].

وبما أن تمام الطاعة لا يكون إلا بالإخلاص وقرن النية بالعمل، ذكر النية بعد تلك الأعمال، فقال:

﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِ اللَّهِ لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا تَنْقُصُكُمْ (٩)﴾ أي إنما قصدنا من هذا الإطعام هو ابتغاء رضوان الله وحده، ورجاء ثوابه، دون من عليكم ولاثناء من الناس، ولا توقع مكافأة تنقص الأجر، ولا طلب مجازاة منكم، ولا إرادة شكر منكم لنا، بل هو خالص لوجه الله تعالى.

وهذا أي طلب رضا الله عنهم هو الهدف الأول، ثم أعقبه بالهدف الثاني وهو خوف يوم القيامة وأهوالها، فقال سبحانه:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا قَطَرٍ﴾ (١٠) أي إننا مع طلب رضوان الله، نخاف من أهوال يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، صعب شديد. ووصف اليوم بالعبوس مجاز، وصف بصفة أهله، أو تشبيهاً في ضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل، والقمطير أشد ما يكون من الأيام وأطولها بلاء.

ويلاحظ أنه سبحانه وصفهم بالخوف من أهوال القيامة في موضعين: في قوله المتقدم: ﴿وَنَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ وقوله هنا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا قَطَرٍ﴾ (١١).

ثم أوضح الله تعالى أنه حقق للأبرار الهدفين، وذكر ما سيجزيهم على أعمالهم وإخلاصهم، فذكر الثاني أولاً ثم الأول، فقال: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَهُمْ نُصْرَةَ وَرُؤُوسِهِمْ﴾ (١١) أي فدفَع الله عنهم شر ذلك اليوم العبوس، وآمنهم مما خافوا منه، بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه، وأعطاهم بدل العبوس في الكفار نصرة في الوجوه، وسروراً في القلوب لطلبهم رضا الله. والنصرة: البياض والنقاء في وجوههم من أثر النعمة.

ونظير الآية: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٣٨) ضاحكة مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) [عبس: ٨٠ / ٣٨-٣٩].

﴿وَجَزَّيْنَهُمْ يَمَّا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢) أي وكافأهم بسبب صبرهم على التكليف جنة يدخلونها وحريراً يلبسونه، أي أعطاهم منزلاً رحباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً، كما قال تعالى: ﴿وَلَبَّاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٢ / ٢٣]. والتعبير بقوله: ﴿فَوَقَّعَهُمُ﴾ و﴿لَقَّعْنَهُمُ﴾ بصيغة الماضي، لتأكيد تحقق الوعد.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - إن انقسام الناس باختيارهم إلى فريقين: شاكِر وكافر، اقتضى تنوع الجزاء بعد التكليف والتمكين من المأمورات، فمن كفر فله العقاب من السلاسل في الأرجل، والأغلال في الأيدي، والنار المستعرة التي تحرق الجسد؛ ومن وَّحَد وشكر، فله الثواب الجزيل والجنة بما فيها من ألوان النعيم.

والآية دليل على أن الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقة؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن الماضي.

ويلاحظ أن الاختصار في ذكر العقاب، مع الإطناب في شرح الثواب، يدل على أن جانب الرحمة أغلب وأقوى^(١).

٢ - وصف الله تعالى نعيم أهل الجنة بما يبهر، فذكر أن الأبرار: أهل التوحيد والصدق يشربون في الجنة الخمر غير المسكرة، الممزوجة بالكافور، المختومة بالمسك، المختلطة بعين ماء عذبة في الجنة، يشربون منها، وتكون تحت تصرفهم وأمرهم يجرونها كما يشاؤون، ويُسْقَوْنَ شَقًّا، كما يفجر النهر في الدنيا. وتلك العين هي السلسيل كما جاء في حديث ذكره الترمذي الحكيم في نواذر الأصول عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة: عينان تجريان من تحت العرش، إحداهما التي ذكر الله: ﴿يَجْرُونَهَا نَعِيمًا﴾ والأخرى الزنجيل، والأخريان نضاختان من فوق العرش: إحداهما التي ذكر الله: ﴿عَيْنًا فِيهَا، تسمى سلسيلاً﴾، والأخرى التسنيم». وقال: فالتسنيمة للمقربين خاصة شرباً لهم، يمزج للأبرار من التسنيم شرايهم، وأما الزنجيل والسلسيل فلا أبرار منها مزاج.

(١) تفسير الرازي: ٢٥٦/٣٠ وما بعدها.

٣ - إن علة أو سبب هذا النعيم للأبرار أمور ثلاثة: وفاؤهم بالنذور وأداؤهم ما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمرَة وغيرها من الواجبات؛ وخوفهم من يوم القيامة ذي الشدائد والأهوال الفاشية المنتشرة في كل مكان؛ وإطعامهم الطعام على قَلْتِه وجهم له وشغفهم به ذا مسكنة وفقر وحاجة، وبيماً من يتامى المسلمين، والأسير المؤمن أو الكافر الذي يؤسر فيحبس.

وقد أوصى النبي ﷺ بالأسارى قائلاً: «استوصوا بالأسارى خيراً»^(١). ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا. وتقدم لدينا أن الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر.

وأجاز عامة العلماء الإحسان إلى الكفار في بلاد الإسلام من التطوعات لا من الواجبات. وإطعام الأسير واجب أولاً على الإمام (الدولة) فإن لم يفعله وجب على المسلمين.

٤ - إطعام هؤلاء بقصدين أو غرضين: رضا الله عنهم، وخوف يوم القيامة.

٥ - أعطى الله الأبرار ما يحقق الغرضين، فوقاهم ودفع عنهم شرور ومحاذير ومخاطر يوم القيامة، وأمنهم من خوفهم، وأعطاهم وآتاهم حين لقوه نَصْرَة أي حسناً، وسروراً، أي حبوراً، فتحقق لهم الغرضان: الحفظ من هول القيامة، وطلب رضا الله تعالى.

قال الرازي: اعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على أن شدائد الآخرة لا تصل إلا إلى أهل العذاب.

(١) أخرجه الطبراني عن أبي عريز، وهو حديث حسن.

٦ - كذلك جزاهم الله بصبرهم على طاعة الله وعلى معصية الله ومحارمه جنات الخلد يدخلونها، والحرير يلبسونه. روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر، فقال: «الصبر أربعة: أولها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على اجتناب محارم الله، والصبر على المصائب»^(١).

هذا مع العلم بأن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما ألبسه من ألبسه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرمها الله.

مساكن أهل الجنة وأشربتهم وخدمهم وألبستهم

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۖ وَدَائِبَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا ۚ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذَلُّلاً ۚ ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِهَا مِنْ فَضَّةٍ وَكَوَّابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِزَاجُهَا رِزْقًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِلًا ۝١٨ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مِنْ ثَوَرٍ ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرٌ ۚ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْزًا جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝٢٢﴾

القراءات:

﴿قَوَارِيرًا ، قَوَارِيرًا﴾:

قرأ نافع، والكسائي بالتونين فيهما، وبإبدال الهمزة ألفاً وقفاً.

وقرأ ابن كثير بالتونين في الأول، وبتركة في الثاني، ووقفاً على الأول بالألف، وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء.

(١) تفسير القرطبي: ١٩/٣٦٦

وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحفص، بترك التنوين فيهما.
ووقفوا على الأول بالالف، وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء. وقرأ حمزة
بترك التنوين فيهما.

﴿لَوْلَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (لولوا).

﴿عَلَيْهِمْ﴾:

وقرأ نافع، وحمزة (عاليهم).

﴿خُضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: قرئ:

١- (خضِرٌ وإستبرق) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (خضِرٍ وإستبرق) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (خضِرٌ وإستبرق) وهي قراءة أبي عمرو، وابن عامر.

٤- (خضِرٍ وإستبرق) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ حال من الهاء والميم في ﴿وَجَزَّهَتْهُمْ﴾. وكذلك ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ في
موضع نصب على الحال من ذلك الضمير، أو من ضمير ﴿مُتَّكِئِينَ﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ منصوب بالعطف على قوله: ﴿جَنَّةٌ﴾ في آية:
﴿وَجَزَّهَتْهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً﴾ و﴿ظِلُّهَا﴾: فاعل ﴿وَدَانِيَةً﴾.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ (٨) بدل من ﴿رَهَبِيلاً﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِمَّا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ﴾: في موضع نصب إما لأنه ظرف مكان، ويكون مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾ محذوفاً، وإما لأنه مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾. و﴿ثُمَّ﴾: مبني على الفتح لتضمنه لام التعريف؛ لأنه معرفة، أو لتضمنه معنى الإشارة، والأصل في الإشارة أن يكون بالحرف، فكأنه تضمن معنى الحرف.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ﴾ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بفتح الياء منصوب لكونه ظرفاً بمعنى فوقهم، أو على الحال من الهاء والميم في ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ أي يعلوهم في هذه الحالة. وقرئ بالسكون فيكون مبتدأ، و﴿ثِيَابٌ﴾: خبره، وعالي: لفظه لفظ الواحد، والمراد به الجمع، كالسامر في قوله تعالى: ﴿سَمِيراً تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧/٢٣]. ويصح كونه صفة ﴿وِلْدَانٌ﴾. و﴿ثِيَابٌ سُنْدُسٌ﴾: مرفوع به ﴿عَلَيْهِمْ﴾ سواء كان حالاً أو وصفاً. و﴿خُضْرٌ﴾ إما بالجر صفة لـ ﴿سُنْدُسٌ﴾ وإما بالرفع صفة لـ ﴿ثِيَابٌ﴾. وكذلك ﴿وَاسْتَبْرَقَ﴾ بالجر عطفاً على ﴿سُنْدُسٌ﴾، أو بالرفع عطفاً على ﴿ثِيَابٌ﴾. و﴿وَاسْتَبْرَقَ﴾: وهو غليظ الديباج، وأصله (استبره) فأبدلوا من الهاء قافاً. وهو منصرف لأنه يحسن فيه دخول الألف واللام، وليس اسم علم كإبراهيم، ومن لم يصرفه فقد وهم.

البلاغة:

﴿شَسَاً﴾ و﴿زَمْهَرِيرًا﴾ بينهما طباق.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَيْثُ لَهُمْ لُؤْلُؤًا مِّثْرًا﴾ تشبيه رائع، أي كاللؤلؤ المنتثر.

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً﴾ إيجاز بالحذف، أي يقال لهم: إن هذا.

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ مجاز عن قبول الطاعة والثواب الكثير.

﴿زَمْهَرِيرًا﴾، ﴿قَوَارِيرًا﴾، ﴿نَقْدِيرًا﴾، ﴿مِثْرًا﴾، ﴿كَبِيرًا﴾، ﴿طَهُورًا﴾، ﴿مَشْكُورًا﴾ سجع مرصع، أي مراعاة الفواصل.

المفردات اللغوية:

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ جالسين يتمكن وراحة، والغالب أن يكون الجلوس على جانب واحد، بالاعتماد على وسادة. ﴿الْأَرَائِكُ﴾ السرر في الحِجَال، جمع أريكة: وهي السرير المجلل بالأسْتَار أو الحِجْلَة أو الكِلَّة (الناموسية). ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ لا يجدون. ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا حرًّا ولا بردًا، والزَمْهَرِير: البرد الشديد. ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة. ﴿ظِلَّلَهَا﴾ ظلال أشجارها. ﴿وَدُلَّتْ﴾ سخرت وسهلت ثمارها، وصارت في متناول الأيدي. ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها، جمع قطف، والمراد: أدنيت ثمارها، فينالها القائم والقاعد والمضطجع.

﴿بَنَائِيَّةٌ﴾ صحاف أو أواني الطعام، جمع إناء. ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ آنية الشراب، جمع كوب: وهو قَدَح أو كوز مستدير الفتحة، لا عروة فيه. ﴿قَوَارِيرًا﴾ أوعية زجاجية، جمع قارورة: وهي الزجاجاة المعروفة. ﴿فَذَرَوْهَا نَقِيرًا﴾ قدرها السقاء الطوافون على قدر ريّ الشارب، من غير زيادة ولا نقصان، وذلك أَلَذُّ الشراب. ﴿كَأْسًا﴾ أي خمرًا، والكأس في الأصل: القَدَح الذي تكون فيه الخمر. ﴿مِرْأَجُهَا﴾ ما تخرج به. ﴿زَنْجِيلًا﴾ ماء يشبه الزنجبيل في الطعم، وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به، والزنجبيل: نبات ذو عرق يوضع في أخلاط البهارات، له رائحة طيبة وله لذع في اللسان، ينبت في بلاد الشام والهند والصين.

﴿عَيْنًا فِيهَا شُعْنٌ سَلَسِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾ سميت بذلك لسلسلة انحدارها في الحلق، وسهولة مساغها. والسلسيل: الشراب اللذيذ. ﴿مُحَلَّدُونَ﴾ دأغو البهاء والحسن، لا يشيرون. ﴿حَسْبُهُمْ﴾ ظنتهم لحسنهم. ﴿تَوَلَّوْا مَنُتَوَرًا﴾ كاللؤلؤ المنتثر في الصفاء والبياض. ﴿ثُمَّ﴾ هناك. ﴿نَعِيمًا﴾ لا يوصف. ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً لا غاية له. ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ﴾ يعلوهم ثياب الحرير الخضر، والسندس: ما رَقَّ من الحرير، وهو الظهائر. ﴿وَأَسْتَبْرَقٌ﴾ ما غلظ من الديباج، وهو البطائن. ﴿وَحُلُوتًا﴾ ألبسوا حلية. ﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار. ﴿مِنْ فِصَّةٍ﴾ وفي موضع

آخر: ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١/٤٣] ، للدلالة على أنهم يحلّون من النوعين معاً، ومفرقاً. ﴿سَرَابًا طَهُورًا﴾ نقيّاً من الشوائب، والطهور: صيغة مبالغة في طهارته ونظافته، خلافاً لحمر الدنيا. ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي يقال لهم: إن ما أعد لكم من الثواب جزاء أعمالكم الصالحة. ﴿مَشْكُورًا﴾ مجازى عليه، غير مضئع.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٠):

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ، وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثر في جنبه، فبكى عمر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت كسرى ومُلْكه، وهُزْمز، وصاحب الحبشة ومُلْكه، وأنت رسول الله ﷺ على حصير من جريد، فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن لهم الدنيا، ولنا الآخرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

المناسبة:

بعد بيان طعام أهل الجنة ولباسهم، ذكر الله تعالى أوصاف مساكنهم وكيفية جلوسهم فيها وأشربتهم وأوانيهم وخدمهم واعتدال هوائهم، ثم أشار إلى تجميلهم بمحاسن الثياب والحلي، وذكر في النهاية أن هذه النعم جزاء عملهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أوضاع أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم، فقال تعالى:

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (١٣) أي جزاهم الله جنة، متكئين فيها على الأسرة المظللة بالحِجَال أو الكِلَل، لا يرون فيها حرَّ الشمس، ولا برد الزمهرير، بل إن هواءها معتدل، جاء في الحديث: «هواء الجنة سَجْسَج، لا حرَّ ولا قَرٌّ» والسجسج: الظل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس^(١).

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ (١٤) أي وإن ظلال الأشجار قريبة منهم، مظلة عليهم، زيادة في نعيمهم، وإن كان لا شمس هناك، وسخرت وأدريت ثمارها لمتناولها تسخيراً، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بُعد ولا شوك. فقلوه: ﴿وَدَانِيَةً﴾ أي وجزاهم جنة أخرى دانية عليهم ظلالها.

ولا يخفى أن هذا الظل ليس بالمعنى المصطلح عليه في الدنيا، وهو الضوء النوراني، فإنه لا شمس هناك، فمعنى دنو الظلال: أن أشجار الجنة خلقت بحيث لو كان هناك شمس، لكانت تلك الأشجار قريبة الظلال على أهل الجنة، وقد أكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ أي لا تمتنع على قُطَافها كيف شاؤوا^(٢).

ثم أخبر الله تعالى عن شراهم وأوانيهم التي فيها يشربون، فقال:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ فَذَرُّهَا قَدِيرًا ﴿١٦﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وبأكواب الشراب: وهي الكيزان التي لا عراً لها ولا خراطيم، وهي أيضاً من فضة، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير وهي الزجاج، حتى يرى داخلها من خارجها، وجاءت في الشكل والحجم كما يريدون لا تزيد ولا تنقص.

(١) تفسير القرطبي: ١٣٨/١٩

(٢) غرائب القرآن: ١٢٤/٢٩

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة» .

وجاء في آية أخرى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١/٤٣] . وهذا يدل على أنهم تارة يسقون بأكواب الفضة، وتارة بأكواب الذهب. والصحاف: هي القصاع. والفرق بين الآنية والأكواب: أن الأكواب كما تقدم هي الكيزان التي لا عرا لها، والآنية هي ما له عرا، كالقدح.

ثم وصف الله تعالى مشروبهم نفسه قائلاً:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ٧٨ ﴿أي ويسقى الأبرار أيضاً في هذه الأكواب في الجنة خمرًا ممزوجة بالزنجبيل، فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور كما تقدم وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل. أما المقربون فإنهم يشربون من كلٍّ منهما صرفاً.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾ ٧٩ ﴿أي ويسقون من عين في الجنة تسمى السلسيل، سميت بذلك لسلاسة مائها، وسهولة جريها وانحدارها وإساعتها في حلقهم. قال ابن الأعرابي عن السلسيل: لم أسمعه إلا في القرآن.

وقال ابن عباس: وكل ما ذكر الله في القرآن مما في الجنة، فليس منه في الدنيا إلا الاسم.

والفائدة في تسمية العين بالسلسيل بعد تسميتها بالزنجبيل هي أنها في طعم الزنجبيل ولذته، ولكن ليس فيها اللذع الذي هو مناف للسلاسة.

ثم وصف خدمهم بقوله:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ ٨٠ ﴿أي

ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة، يقون فيها على حالة واحدة من الشباب والطراوة والنضارة، لا يهرمون ولا يتغيرون ولا يموتون، إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج غيرهم وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، ظننتهم كاللؤلؤ المنشور، قال ابن كثير: ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنشور على المكان الحسن.

شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين، فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون؛ لأنهن لا يمتتن بالخدمة.

ثم أجمل نعيمهم؛ لأنه أعلى وأعظم مما سبق، ولأنه مما لا يحصر ولا يخطر ببال أحد، ما دام في الدنيا، فخطب نبى ﷺ أو كل راء قائلاً:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۖ﴾ أي وإذا نظرت نظراً بعيداً في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور، رأيت نعيماً لا يوصف، وسلطاناً ومُلْكاً عظيماً لا يقدر قدره. جاء في الحديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في مُلكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه، كما ينظر إلى أدناه»^(١).

ثم وصف ملابسهم وحليهم بقوله:

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا بِأَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي لباسهم الذي يعلوهم هو الحرير الرفيع الرقيق الأخضر، والديباج الغليظ، وحلوا بأساور من فضة، وفي آية أخرى: ﴿يَحُلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١/١٨، فاطر: ٣٣/٣٥] أي تارة تكون حليهم الفضة، وتارة الذهب.

(١) تفسير ابن كثير: ٤٥٧/٤

ثم ذكر الله تعالى شراباً آخر لهم غير الممزوج بالكافور أو بالنخيل، فقال:

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي وسقاهم ربهم بشراب غير ما سبق يطهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، كما روي عن علي رضي الله عنه. والطهور مبالغة طاهر، والمراد أنها ليست بنجسة، ولا مستقدرة طبعاً، ولا تؤول إلى النجاسة، ولكنها ترشح عرقاً من أبدانهم، له ريح كريح المسك.

قال أبو قلابة وإبراهيم النخعي: يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور، فيشربون، فتضمر بطونهم من ذلك، ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك.

ثم ذكر الله تعالى علة هذا الفضل والنعيم، فقال:

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أي ويقال لهؤلاء الأبرار الممتعين بالجنان، تكميلاً لهم وإحساناً إليهم: إن هذا المذكور من أنواع النعم، كان لكم جزاء بأعمالكم، أي ثواباً لها، وجزاكم الله تعالى على القليل بالكثير، ويقبل طاعتكم، فشكّر الله سبحانه لعمل عبده: هو قبوله لطااعته.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤/٦٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَتُودَعُونَ أَنْ تُنَاجُوا الْجَنَّةَ أَوْرُثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣/٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - يكون الأبرار أهل الجنة في غاية النعيم والراحة، فهم متكئون على الأرائك أي السرر في الحجال، ولا يرون في الجنة شدة حرّ كحر الشمس،

ولا برداً مفرطاً، وظلال الأشجار في الجنة قريبة منهم، فهي مُظَلَّةٌ عليهم، زيادة في نعيمهم، وإن كان لا شمس ولا قمر، كما أن أمشاطهم الذهب والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شعث ثمَّ.

وتسخر لهم الثمار تسخيراً، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك، كما قال قتادة.

ويدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية من فضة أو من ذهب، وبقوارير في صفاء الزجاج وبياض الفضة، فصفاءها صفاء الزجاج وهي من فضة، وقد قَدَّرَ أقدارها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم.

ويسقون في الجنة خمرًا في آنية، ممزوجة بالزنجبيل تطيباً لرائحتها، وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته؛ لأنه يَحْدُو اللسان، ويهضم المأكول، فَرُغِبُوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب.

ويشربون أيضاً في الجنة من عين تسمى السلسيل: وهو الشراب اللذيذ.

ويطوف عليهم بالآنية للخدمة ولدان ييقون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن، لا يَبْزَمُونَ ولا يَتَغَيَّرُونَ، ويكونون على سن واحدة على مَرَّ الأزمنة، فإذا شاهدتهم ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤاً مفرقاً في ساحات المجلس، واللؤلؤ إذا نثر على بساط كان أحسن منه منظوماً. والمراد دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة.

وهناك في الجنة إذا رأيت ببصرك، رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً عظيماً لا يقدر قدره.

وثيابهم الحرير الأخضر الرقيق والديباج الغليظ، ويحلبون في الجنة بحلب وأساور من ذهب أو فضة، حسبما يروق لهم، وإن كانوا رجالاً.

ويشربون من شراب آخر غير ما ذكر موصوف بغاية الطهر والنقاء، إما لإذهاب آثار الطعام وجعله يتفصد من الجسد عرقاً، أو للترفع عن اللذات الحسية والتخلص من مفسد الأخلاق الرديئة، كالحسد والحقد والبغض وغير ذلك.

٢ - يقال لهؤلاء الأبرار في الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها، تكميلاً لهم وإحساناً إليهم: إنما هذا المذكور من النعم ثواب عملكم، وكان عملكم مشكوراً من قبل الله، وشكره للعبد: قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابته إياه.

أحوال الطائعين والتمردين المشركين في الدنيا

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ١٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعِ مَنْهُمْ إِنَّمَا أَوْفُوا ١٤ وَادَّكَّرَ أَسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ١٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ١٦ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا ١٧ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَنَاتَهُمْ تَبْدِيلًا ١٨ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ١٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٠ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢١ ﴾

القرءات:

﴿ الْقُرْآنَ ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمة وفقاً (القرآن).

﴿ شِئْنَا ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمة وفقاً (شينا).

﴿تَشَاءُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (يشاءون).

الإعراب:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿نَحْنُ﴾: في موضع نصب صفة لاسم (إن) للتأكيد، ولا يجوز أن يكون ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فصل هنا لا محل له من الإعراب؛ لأن من شرط الفصل أن يقع بين معرفتين أو في حكمهما، ولم يوجد هنا. و﴿نَزَّلْنَا﴾: جملة فعلية في موضع رفع خبر (إن).

﴿وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ شَيْئًا أَوْ كُفُورًا﴾ ﴿أَوْ﴾: هنا للإباحة، أي لا تطع هذا النوع. والنهي في هذا كالأمر. ولو قال: لا تطع آثماً، لا تطع كفوراً، لانقلب المعنى؛ لأنه حينئذ لا تحرم طاعتها كليهما.

﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾: منصوب بتقدير فعل، تقديره: ويعذب الظالمين، وجاز إضماره؛ لأن ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ دل عليه.

البلاغة:

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا﴾ ﴿٣٥﴾ مقابلة، حيث قابل بين المحبة والترك، وبين العاجلة والباقية.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ نحن تأكيد لاسم إن ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ أي نزلناه مفرقاً مفصلاً منجماً لحكمة اقتضته، ولم نزله جملة واحدة. ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ داوم

على حكم ربك عليك بتبليغ رسالته. ﴿وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ﴾ أي الكفار. ﴿إِنَّمَا أَوْفَرُ كُفُورًا﴾ الآثم: الفاجر المجاهر بالمعاصي، والكفور: شديد التعصب للكفر المغالي فيه وهو المشرك المجاهر بكفره. قال المفسرون: وهما حينئذ عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، قالاً للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج. ثم صار المراد كل آثم وكافر، لا تطع أياً كان فيما دعاك إليه من إثم أو كفر؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ داوم على ذكره. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، فيشمل صلوات الفجر، والظهر، والعصر. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي في بعض الليل صل لله، ويشمل صلاتي المغرب والعشاء، وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص لله. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وتهجد له طائفة طويلة من الليل، وهي صلاة التطوع.

﴿الْعَاجِلَةَ﴾ الدنيا. ﴿وَرَأَاهُمْ﴾ أمامهم. ﴿يَوْمًا نَقِيلًا﴾ شديداً، أي يوم القيامة، مستعار من الثقل المتعب للحامل، وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه. ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أحكمنا وقوينا أعضائهم ومفاصلهم، وكذلك ربطها بالأعصاب والعروق، وفي اللغة: الأسر: شدة الخلق والخلق. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾ أي وإذا أردنا أهلكناهم، وبدّلنا أمثالهم في الخلقة وشدة الأعضاء.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه السورة أو الآيات القريبة موعظة وعبرة للناس. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ طريقاً يتقرب إليه بالطاعة. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ اتّخاذ السبيل بالطاعة. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا وقت مشيئة الله. ﴿عَلِيمًا﴾ بخلفه وبما يستأهل كل أحد. ﴿حَكِيمًا﴾ في فعله، لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمته. ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي يدخل من يريد وهم المؤمنون في جنته، بعد الهداية والتوفيق للطاعة. ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي عذب أو كافأ الظالمين وهم الكافرون. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً.

سبب النزول:**نزول الآية (٢٤):**

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُّرًا﴾.

المناسبة:

بعد بيان أحوال الكفار والمؤمنين في الآخرة، ثبّت الله تعالى الرسول ﷺ وشرح صدره، بسبب ما نسبوه إليه من كهانة وسحر، فذكر الله تعالى أن ذلك وحي من الله، ثم أمره بالصبر على أذى قومه، ثم ذكر أحوال هذين الفريقين في الدنيا، مقدّماً بيان أحوال الطائعين وهم الرسول ﷺ وأُمته على أحوال الكفار العصاة.

التفسير والبيان:

امتن الله تعالى على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم مفرّقاً منجّماً، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ أي إنا نحن الإله الحق أنزلنا عليك أيها الرسول القرآن مفرّقاً منجّماً في الانزال في مدى ثلاث وعشرين سنة، ولم ننزله جملة واحدة، ليسهل حفظه ووعيه والعمل به، وليثبت المؤمنين في معالجة الحوادث، ولم تأت به من عندك كما يدّعيه المشركون.

والمراد من ذلك تثبيت قلب الرسول ﷺ في مواجهة افتراءات المشركين الذين نسبوا إليه الكهانة والسحر، وإعلام الناس قاطبة أن ما جاء به وحي من الله تعالى، لا من عند محمد ﷺ.

وبعد بيان هذه المقدمة، جاء الأمر بالصبر والنهي عن طاعة الكفار، فقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفُورًا﴾ (٢٤) أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك من القرآن، فاصبر على قضاء الله وقدره في تأخير نصرك على المشركين، إلى أجل اقتضته حكمته، وفي القيام بتبليغ رسالته ووحيه الذي أوحاه إليك، فلكل أجل كتاب، وسيتولأك ربك بحسن تدبيره، ولا تطع أحداً من الكافرين والمنافقين، المغالين في الكفر، أو مرتكبي الإثم والفجور والمعاصي إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس. والآثم كما تقدم: هو مرتكب المعاصي، والكفور: هو جاحد النعمة، المغالي في الكفر، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفوراً.

ومن أمثلة الآثم: عتبة بن ربيعة؛ لأنه كان متعاطياً لأنواع الفسوق، يروى أنه قال للنبي ﷺ: ارجع عن هذا الأمر، حتى أزوجهك ولدي، فإني من أجل قريش ولداً.

ومن أمثلة الكفور: الوليد بن المغيرة؛ لأنه كان شديد الشكيمة في الكفر، روي أنه قال للنبي ﷺ: أنا أعطيك من المال حتى ترضى، فإني من أكثرهم مالاً، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ من أول ﴿حَمَّ﴾ (١١) فصلت إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ (١٣) [فصلت: ٤١/ ١٣] فانصرفا عنه، وقال أحدهما: ظننت أن الكعبة ستقع.

وبالرغم من أنه ﷺ ما كان يطيع أحداً منهم، إلا أنه وجه النهي له؛ لأنه القدوة، وإشارة إلى أن الناس يحتاجون دائماً إلى مواصلة التنبيه والإرشاد، لوجود نزعة الشر والفساد في نفوسهم، فلو أن أحداً استغنى عن توفيق الله وإرشاده، لكان أحق الناس بذلك هو الرسول المعصوم ﷺ، فوجب على كل مسلم أن يرغب إلى الله تعالى ويتضرع إليه في أن يصونه عن اتباع الأهواء والشهوات.

ثم عَقَّبَ النهي بالأمر، فقال سبحانه:

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۖ﴾ (٢١) أي داوم على ذكر الله في جميع الأوقات بالقلب واللسان، وصلِّ لربِّك أول النهار وآخره، فأول النهار: صلاة الصبح، وآخره: صلاة العصر. وكذلك صلِّ لربِّك في الليل، وذلك يشمل صلاتي المغرب والعشاء، وتهجد له طائفة من الليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٨) [الإسراء: ١٧/٧٩]، وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمِلُ ۚ قُرْ آلِيلًا قَلِيلًا ۚ يَصْفَهُ ۚ أَوْ اقْضْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۚ﴾ (المزمل: ١/٧٣-٤).

وعلى هذا تكون كلمات الآية جامعة الصلوات الخمس، والتهجد. وبعد بيان حال الطائعتين، أبان الله تعالى أحوال الكفار والمتمردين، وأنكر عليهم وعلى أشباههم حب الدنيا والإقبال عليها، وترك الآخرة وراء ظهورهم، فقال:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۖ﴾ (٧) أي إن هؤلاء كفار مكة وأمثالهم يحبون الدار العاجلة، وهي دار الدنيا، ويقبلون على لذاتها وشهواتها، ويتركون وراءهم ظهرياً يوم القيامة ذا الشدائد والأهوال، فلا يستعدون له، ولا يعيؤون به. وسمي يوماً ثقيلاً: لما فيه من الشدائد والأهوال. والآية تتضمن توبيخ المتمردين واستحقارهم.

وهذا هو الخط الفاصل بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يعملون للدنيا والآخرة، والكفار يعملون للدنيا وحدها، وهي النظرة المادية والسلوك المادي النفعي، مما يدل على أن الداعي لهم إلى الكفر هو حب العاجل.

ثم أوضح الله تعالى كمال قدرته، وأقام الدليل بالبداة في الخلق على الرجعة والبعث، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ

تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ أَي كَيْفَ يَتَغَاوَلُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ عَنْ رَبِّهِمْ وَعَنِ الْآخِرَةِ، وَنَحْنُ الَّذِينَ خَلَقْنَاهُمْ، وَأَحْكَمْنَا أَعْضَاءَهُمْ وَمَفَاصِلَهُمْ وَرَبَطْنَاهُمُ بِالْعُرُوقِ وَالْأَعْيَابِ، وَلَوْ شِئْنَا لَأَهْلَكْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا بَاطُونََ اللَّهِ مِنْهُمْ.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣/٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩/١٤-٢٠].

وبعد بيان أحوال السعداء وأحوال الأشقياء في الدنيا، أرشد إلى فائدة القرآن فقال:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٩﴾ أَي إِنْ هَذِهِ السُّورَةُ بِمَا فِيهَا مِنْ مَوَاعِظَ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهيبٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، تَذْكِرَةٌ لِلْمُتَأَمِّلِينَ، وَتَبَصُّرَةٌ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ، وَعِظَةٌ لِلْعُقَلَاءِ، فَمَنْ شَاءَ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اتَّخَذَ طَرِيقًا لِلتَّقَرُّبِ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ شَاءَ اهْتَدَىٰ بِالْقُرْآنِ.

ثم أوضح الله تعالى أن مشيئة العبد في إطار مشيئة الله، ولكن دون قهر ولا جبر، فقال:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٣٠﴾ أَي وَمَا تَشَاؤُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا إِلَى اللَّهِ سَبِيلًا إِلَى النِّجَاةِ، إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِيَ نَفْسَهُ، وَلَا يَدْخُلَ فِي الْإِيمَانِ، وَلَا يَجْرَ لِنَفْسِهِ نَفْعًا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، فَالْأَمْرُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ إِلَى عِبَادِهِ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِيَدِهِ، فَمَشِيئَةُ الْعَبْدِ وَحْدَهَا لَا تَأْتِي بِخَيْرٍ وَلَا تَدْفَعُ شَرًّا، إِلَّا إِنْ أָذَنَ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ يَنْتَابُ الْإِنْسَانُ عَلَى اخْتِيَارِهِ الْخَيْرِ، وَيَعَاقِبُ عَلَى اخْتِيَارِهِ الشَّرَّ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ فَيَسْرِهَا لَهُ، وَيَقْتَضِ لَهُ أَسْبَابَهَا، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ، فَيَصْرِفُ

عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، فيضع الأشياء في محالها. والخلاصة: أن جميع ما يصدر عن العبد فبمشيئة الله ولكن دون إجبار.

ثم ختم السورة بخاتمة عجيبة تدل على أن دخول الجنة والنار ليس إلا بمشيئة الله، فقال:

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يدخل في جنته من يشاء من عباده أن يدخله فيها، فضلاً من الله وإحساناً، ويعذب الظالمين الكافرين الذين ظلموا أنفسهم، فقد أعد لهم في الآخرة عذاباً موجعاً مؤلماً، هو عذاب جهنم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

أ - إن القرآن الكريم كلام الله ووحيه الذي أنزله على عبده محمد ﷺ في مدى ثلاث وعشرين سنة، مفرقاً منجماً بحسب الحوادث والمسائل، فهو ليس مفترى به من عنده، ولا جاء به من تلقاء نفسه كما يدّعيه المشركون.

وبما أن السورة تضمنت الوعد والوعيد، فالناس بحاجة ماسة إلى هذا الكتاب، الذي ليس بسحر ولا كهانة ولا شعر، وأنه حق من عند الله. قال ابن عباس: أنزل القرآن متفرقاً، آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة، فلذلك قال: ﴿نَزَّلْنَاهُ﴾.

ب - ما دام هذا القرآن حقاً من عند الله، ودستوراً منقذاً لحياة البشرية من التردّي والضلال، وجب الصبر على أذى القوم في تبليغه للناس، والصبر على ما حكم به من الطاعات، ومخالفة أهل الإثم والكفر، وعدم إطاعتهم في شيء من ضلالهم.

وهذا أمر للنبي ﷺ، ونهى له ولكل واحد من أمته.

٣ - إن العبد بأشد الحاجة للارتباط بالله والاستعانة به والالتكال عليه، لذا كانت الصلاة صلة بين العبد وربّه، وتقوية على الإيمان وصلابة الاعتقاد، وتربية المهابة لله في النفس، وتهذيب السلوك. ولأجل هذا أمر الله بذكره ليل نهار، وبالصلاة أول النهار وآخره، وذلك يشمل الصلوات الخمس المفروضة، وزيد عليها التطوع في الليل.

٤ - وبخ الله تعالى الكفار وقرّعهم على محبتهم الدنيا وحدها، وتركهم العمل للآخرة، فلا يؤمنون بيوم القيامة، ولا يستعدون لمواجهة موقف الحساب العسير الشديد في ذلك اليوم.

٥ - مما يدل على كمال قدرة الله تعالى: أنه هو الذي خلق الناس، وأحكم تركيب أجسادهم، وتشديد مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب، وأنه قادر على إهلاك الناس والمحيي بأطوع الله منهم.

٦ - إن هذه السورة وأمثالها من القرآن موعظة وعبرة. فمن أراد الخير لنفسه اتخذ طريقاً موصلاً إلى طاعة ربّه وطلب مرضاته. لكن الطاعة والاستقامة واتخاذ سبيل الله لا تقع قهراً عن الله في ملكه، وإنما بمشيئة الله، فالأمر إليه سبحانه، ليس لعباده، ولا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلا أن تتقدم مشيئة الله، وكل ذلك دون قهر ولا إجبار ولا إكراه من الله على اختيار شيء معين، إنما الاختيار للإنسان، والله عليم بأعمال عباده، حكيم في أمره ونهيه لهم.

٧ - كذلك دخول الجنة برحمة الله، ودخول النار بمشيئة الله، فهو الذي يرحم عباده المؤمنين، ويعذب الظالمين الكافرين عذاباً مؤلماً في نار جهنم، وبئس المصير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

مكية، وهي خمسون آية

تسميتها:

سميت سورة المرسلات تسمية لها باسم مطلعها الذي أقسم الله به وهو ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ أي أقسم بريح العذاب التي تهب متتابعة كعُرف الفرس، أو شعر الفرس.

مناسبتها لما قبلها:

وجه اتصالها بما قبلها من وجهين:

١ - أنه تعالى وعد المؤمنين الأبرار، وأوعد الظالمين الفجار في آخر السورة المتقدمة بقوله: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ثم أقسم في مطلع هذه السورة على تحقيق ما وعد به هنالك المؤمنين، وأوعد به الظالمين، ثم ذكر وقته وأشرطه بقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾.

٢ - ذكر تعالى في سورة الإنسان نزراً من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها، والأمر في هذه السورة على العكس: إطناب في وصف الكفار، وإيجاز في وصف المؤمنين، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين^(١).

(١) البحر المحيط: ٤٠٨/٨

ما اشتملت عليه السورة:

محور هذه السورة المكية الكلام على البعث وأحوال الآخرة، فهي كسائر السور المكية متعلقة بأمور العقيدة، فذكر فيها القسم على وقوع البعث، ثم بيان مقدماته، ثم إيراد بعض دلائل القدرة والوحدانية، وتلاها وصف بعض الأمور الغيبية وأحوال الكفار والمؤمنين في عالم الآخرة، ولوم الكفار على بعض أعمالهم.

افتتحت بالقسم بالرياح والملائكة على وقوع يوم القيامة (أو يوم الفصل) وحدث العذاب للكفار: ﴿وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ①﴾ فَأَلْصَقَتِ عَصَا ②﴾ وَالنَّشِيرَتِ ③﴾ فَأَلْفَرِقَتِ فَرْقًا ④﴾ فَأَلْمَلِقَتِ ذِكْرًا ⑤﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ⑥﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑦﴾ [الآيات: ١-٧] وبيان علامات ذلك العذاب ووقته: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ ⑩﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ⑪﴾ لِأَنِّي يَوْمَ أُنِجَتِ ⑫﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬﴾ وَمَا أَذْرُكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ⑭﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾ [الآيات: ٨-١٥].

ثم أوردت بعض دلائل القدرة الإلهية على البعث وإحياء الناس بعد الموت، وهو إهلاك بعض الأمم المتقدمة وخلق الناس، وجعل الأرض كفاتاً (جامعة ضامة لمن عليها) والجبال الشاخحات للثيت. وتضمن ذلك وعيد الكافرين بعقوبة مماثلة، وتوبيخ المكذبين على إنكار نعم الله عليهم في الأنفس ومخلوقات الأرض: ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ①﴾ ثُمَّ نَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ ②﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ③﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ④﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑤﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ⑥﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ⑦﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ⑧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑨﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ⑩﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ⑪﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًّ شَاطِئَاتٍ وَأَسْفَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ⑫﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑬﴾ [الآيات: ١٦-٢٨].

ثم حددت مصير المجرمين، ووصفت عذاب الكافرين وصفاً تشييب له الولدان: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جُمُلٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْنَسُ لَهُمْ فَيَقْنَدِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِذَّبُوا (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) [الآيات: ٢٩-٤٠].

ثم وصفت نعيم المؤمنين المتقين، وألوان التكريم والإحسان والإفضال في جنات الخلد: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) وَفَوْقَهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) [الآيات ٤١-٤٥].

وختمت السورة بتقريع الكفار وتوبيخهم على بعض أعمالهم، وأبانة سبب امتناعهم عن عبادة الله، وهو طغيانهم وإجرامهم: ﴿كُلُوا وَتَمَلَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَإِنِّي حَدِيثٌ قَدِيمٌ (٥٠) [الآيات ٤٦-٥٠].

فضلها:

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمعى، إذ نزلت عليه ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ﴾ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها، فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وَقُيْتُ شَرْكُم، كما وَقُيْتُ شَرْهَا».

وأخرج أحمد عن ابن عباس عن أمه: أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً. وفي رواية مالك والشيخين في الصحيحين عن ابن عباس: أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ فقالت: يا بني أذكرتني

بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

وقوع يوم القيامة حتماً ووقته وعلاماته

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ فَأَلْهَمْنِي عَصَا ۝٢﴾ وَالنَّشِيرِ ۝٣﴾ فَأَلْهَمْنِي قُرْآنًا ۝٤﴾ فَأَلْهَمْنِي ذِكْرًا ۝٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ۝١١﴾ لِأَنَّ يَوْمَ أُخِّلَتْ ۝١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ۝١٤﴾ وَلِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

القراءات:

﴿أَوْ نَذْرًا﴾:

قرأ أبو عمرو، وحفص، وحزمة، والكسائي (أَوْ نَذْرًا). وقرأ الباقون (أَوْ نَذْرًا).

﴿أُقِنَتْ﴾:

وقرأ أبو عمرو (وُقِنَتْ).

الإعراب:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ إن جعلت ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ بمعنى الرياح، كان ﴿عُرْفًا﴾ منصوباً على الحال، وإن جعلت بمعنى الملائكة كان ﴿عُرْفًا﴾ منصوباً بتقدير حذف حرف جر، أي والمرسلات بعرف، أي بمعروف، والمعنى الأول أظهر.

والإحسان. ﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا﴾ (١) الرياح الشديدة. ﴿وَالنَّشْرَتِ نَشْرًا﴾ (٢) الأظهر أنها أيضاً الرياح التي تنشر المطر، أو تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب عز وجل، وقيل: إنها الملائكة الموكلون بالسحب يسوقونها حيث يشاء الله تعالى لنشر المطر وإحياء الأرض.

﴿فَالْفَرَقَتِ فَرَقًا﴾ (٣) فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا (٤) عُدْرًا أَوْ نُدْرًا (٥) أي الملائكة التي تنزل بالوحي إلى الأنبياء والرسل، لتفريق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وتلقي بالعلم والحكمة إلى الأنبياء، للإعذار والإنذار، الإعذار من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله، والإنذار من الله تعالى للناس بالنقمة والعذاب إذا لم يؤمنوا.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعُ﴾ (٦) جواب القسم، أي إن الذي توعدون به يا كفار مكة وأشباهكم من مجيء القيامة والبعث والعذاب كائن لا محالة. ﴿طَيِّسَتْ﴾ محقت وذهب نورها. ﴿فُرِجَتْ﴾ شقت وصدعت. ﴿أُفْنِتْ﴾ جمعت لوقت، وعين لها وقت تحضر فيه للشهادة على الأمم بالتبليغ، قال الزمخشري: والوجه أن يكون معنى (وقفت) بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمُ أُجِّلَتْ﴾ (٧) أي يقال: لأي يوم أخرت وأمهلت للشهادة على الأمم بالتبليغ، وهذا القول تعظيم لليوم، وتعجيب من هوله. ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ (٨) بيان ليوم التأجيل، وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق بأعمالهم: إما إلى الجنة، وإما إلى النار. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ (٩) تهويل لشأنه، والمعنى: ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله؟ ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٠) بذلك، وهذا وعيد لهم، والويل: العذاب والحزني. وويل في الأصل: مصدر منصوب بإضمار فعل، عدل به إلى الرفع، للدلالة على ثبات الهلاك للمدعو عليه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه، أو صفته.

التفسير والبيان:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَصْفَاتِ ۝٢ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ۝٣﴾ أي أقسم بالرياح المتتابعة كعرف الفرس إذا ذهبت شيئاً فشيئاً، وبالرياح التي ترسل عاصفة لما أمرت به من نعمة ونقمة، وبالرياح التي تنشر السحاب وتفرقه في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل. وهذا هو الأظهر كما قال ابن كثير وابن جزري صاحب التسهيل لعلوم التنزيل، وقال القرطبي: جمهور المفسرين على أن المرسلات: الرياح.

وقيل: المقصود بالمرسلات: الملائكة المرسلّة بوحى الله وأمره ونهيه بالإحسان والمعروف، والعاصفات: الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها، والناشرات: الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها أو ينشرون أجنتهم في الجوّ عند النزول بالوحي. وقيل: المراد بهؤلاء وما يأتي: طوائف الأنبياء أرسلوا بالوحي المحقق لكل خير، الذي أخذ أمرهم في العصف والاشتداد إلى أن بلغ غايته، وانتشرت دعوتهم، ففرقوا بين المؤمن والكافر، والمقر والجاحد، وألقوا الذكر والتوحيد إلى الناس كافة، أو إلى طائفة معينين.

﴿فَالْمُرْقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ ثم أقسم بالملائكة الذين ينزلون بأمر الله على الرسل بما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، ويلقون الوحي إلى الأنبياء، إعداراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه إن خالفوا أمره. وقيل: المراد بالفارقات والمُلقيات: الرياح أيضاً.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي إن ما وعدتم به من مجيء الساعة والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله خيراً أو شراً، إن هذا كله لواقع وكائن لا محالة.

ثم بين الله سبحانه وقت وقوعه وأشراطه، فقال:

﴿إِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۖ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۖ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ۖ﴾ أي فإذا محي نور النجوم وذهب ضوءها، وفتحت السماء وشقت وصدعت ووهت أطرافها، وقلعت الجبال من مكانها، وذهب بها، وطارت في الجو هباء، فلا يبقى لها عين ولا أثر، واستوى مكانها بالأرض.

ونظير الآية في النجوم: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۖ﴾ [التكوير: ٢/٨١] وقوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۖ﴾ [الانفطار: ٢/٨٢]. وفي السماء: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: ١/٨٤] وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۖ﴾ [النبا: ١٩/٧٨] وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٥]. وفي الجبال: ﴿وَسَتُلَوَّنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ﴾ [طه: ١٠٥/٢٠].

ووجه الجمع بين الرياح في الثلاثة الأول، وبين الملائكة في الرابع والخامس هو اللطافة وسرعة الحركة.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ ۖ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ۖ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ﴾ أي وإذا الرسل جمعت وجعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩/٥] ويقال لتعجيب العباد من هول ذلك اليوم: لأي يوم عظيم أخرت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل: وهي تعذيب من كذبهم، وتعظيم من صدقهم، وظهور ما كانوا قد أوعدوا به الأمم، وخوفهم من العرض والحساب ونشر الدواوين، ووضع الموازين. والمراد بذلك تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه، وهو يوم القيامة.

ثم أجاب الله تعالى بأنهم أجلوا ليوم الفصل بين الخلائق، يفصل فيه بين الناس بأعمالهم، فيفترقون إلى الجنة والنار.

ثم عظم تعالى ذلك اليوم ثانياً، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل، وأي شيء شدته ومهابته؟ يعني أنه أمر هائل لا يعرف وصفه، ولا يقدر قدره.

ثم عقبه الله تعالى بتهويل ثالث، فقال:

﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً، في ذلك اليوم المصحوب بالأهوال لمن كذب الله ورسله وكتبه، والويل تهديد بالهلاك، ولا يصح أنه واد في جهنم، كما قال ابن كثير.

وقد كرر هذا التهويل في السورة في تسعة مواضع أخرى، لمزيد التأكيد والتقرير، كما مرَّ في سورة الرحمن: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءُ رَكِيكًا تَكْذِبَانِ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - أقسم الله تعالى بالرياح وبالملائكة جامعاً بينهما بسبب اللطافة وسرعة الحركة، على أن يوم القيامة والبعث حق كائن لا محالة، تحقيقاً لما أوعده الله به الظالمين في السورة السابقة.

والمقصود بالقسم: التنبيه على جلالة المقسم به، ومعروف مدى تأثير الرياح، سواء لإنزال المطر أو لإصابة العذاب، كما أن شرف الملائكة وعلو رتبتهم أمر ظاهر من وجوه: هي شدة مواظبتهم على طاعة الله تعالى، ولتنوع طوائفهم، فمنهم الموكل بإنزال الوحي على الأنبياء، ومنهم المرسل ليلاً أو نهاراً لرصد أعمال بني آدم وكتابتها، والعمل يشمل القول من اللسان والفعل

الصادر من الجوارح (الأعضاء) ومنهم الموكل بقبض الأرواح، ومنهم الذين ينزلون من البيت المعمور إلى الكعبة^(١).

٢ - ثم ذكر الله تعالى متى يقع يوم القيامة وعلاماته (أو أشراطه) وهو يوم ذهاب ضوء النجوم ومحو نورها، كطمس الكتاب، وتشقق السماء (أو انفطارها) وزوال معالمها، ونسف الجبال والذهاب بها دون بقاء أثر لها حتى تسوى بالأرض، وجمع الرسل ليوم القيامة في الميقات المخصص لهم للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم. والخلاصة: هذه مقدمات البعث.

٣ - عَيَّنَ الله تعالى ميعاد جمع الرسل: وهو يوم الفصل الذي أَجْلَوْا إليه، فيفصل الله تعالى فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار.

٤ - عَظَّمَ الله تعالى ذلك اليوم وأشاع عنه التهويل ثلاث مرات: في قوله: ﴿لَأَيُّ يَوْمٍ أَتَيْتَ ۖ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۚ﴾ (١٢) وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۚ﴾ (١٣) وقوله: ﴿وَلِلَّيْلِ يَوْمٍ لِّلْمُكْذِبِينَ ۚ﴾ (١٤) أي العذاب والخزي لمن كَذَّبَ بالله وبرسله وبكتبه ويوم الفصل، فهو وعيد شديد.

تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر

﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ (١١) ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۚ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۚ ﴿١٣﴾ وَلِلَّيْلِ يَوْمٍ لِّلْمُكْذِبِينَ ۚ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ ﴿١٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۚ ﴿١٧﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۚ ﴿١٨﴾ وَلِلَّيْلِ يَوْمٍ لِّلْمُكْذِبِينَ ۚ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتَا ۚ ﴿٢٠﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ۚ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا شَلِجًا وَآسَفَيْنَاكُمْ مَاءً فُورَاتًا ۚ ﴿٢٢﴾ وَلِلَّيْلِ يَوْمٍ لِّلْمُكْذِبِينَ ۚ ﴿٢٣﴾

القراءات:

﴿فَقَدَرْنَا﴾:

وقرأ نافع، والكسائي ﴿فَقَدَرْنَا﴾.

الإعراب:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نَنْبَعُثُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧﴾: إنما لم يجزم فعل نتبع بالعطف على ﴿نُهْلِكِ﴾ لأنه في نية الاستئناف، وتقديره: ثم نحن نتبعهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝١٨ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝١٩﴾: ﴿كِفَاتًا﴾ و﴿أَمْوَاتًا﴾ إما منصوبان على الحال، أي نجمعهم في هاتين الحالين، أو أن يكونا بدلاً من ﴿الْأَرْضَ﴾ على معنى أن تكون ﴿كِفَاتًا﴾ إحياء نبت، و﴿أَمْوَاتًا﴾ لا تنبت، وتقديره: ألم نجعل الأرض ذات نبات وغير ذات نبات.

البلاغة:

﴿الْأَوَّلِينَ﴾ و﴿الْآخِرِينَ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿أَحْيَاءً﴾ و﴿أَمْوَاتًا﴾. ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ استفهام تقريرى، ومثله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠﴾.

﴿مَهِينٍ﴾ ﴿مَكِينٍ﴾ جناس ناقص غير تام.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ كقوم نوح وعاد وثمود، وقرئ (نُهْلِكُ) من هلكه بمعنى أهلكه. ﴿ثُمَّ نَنْبَعُثُهُمُ الْآخِرِينَ ۝١٧﴾ أي ثم نحن نتبعهم نظراءهم ككفار مكة، وقرئ بجزم الفعل، عطفًا على ﴿نُهْلِكِ﴾ فيكون المراد من ﴿الْآخِرِينَ﴾ المتأخرين من المهلكين، كأقوام لوط وشعيب وموسى عليهم السلام. ﴿كَذَلِكَ

نَفَعُلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ أي مثل ذلك الفعل نفعل بالمجرمين أي بكل من أجرم. ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ بآيات الله وأنبيائه، والتكرار للتأكيد، أو إن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا للإهلاك في الدنيا.

﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ من نطفة مذرة ذليلة، أو من ماء ضعيف، وهو المني. ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي مستقر حريز حصين، وهو الرحم. ﴿إِلَّا قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿٢٠﴾ إلى زمان معلوم، أو إلى مقدار معلوم من الوقت، وهو وقت الولادة، قدره الله تعالى. ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على تصويره وخلقه. ﴿فَنَعَمَ الْفَتِيرُونَ﴾ نحن. ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢١﴾ بقدرتنا على ذلك، أو على الإعادة. ﴿كِفَاتًا﴾ ضامة جامعة، من كفت الشيء: إذا ضمه وجمعه. ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ ﴿٢٢﴾ الأحياء: ما ينبت، والأموات: ما لا ينبت.

﴿رُؤُوسٍ شَمِخَاتٍ﴾ جبلاً مرتفعة. ﴿فُرَاتًا﴾ عذباً.

المناسبة:

بعد تحذير الكفار وإنذارهم بأهوال يوم القيامة، أعقبه بتخويفهم وتحذيرهم من الكفر، بالإهلاك كإهلاك الأمم المتقدمة، ثم هددهم بإنكار إحسانه إليهم، مييناً أمثلة ومظاهر لقدرة الله عز وجل، كخلق الإنسان وحواسه، والأرض وتثبيتها بالجبال الشاخات، وتزويدها بينابيع المياه العذبة، وذلك كله يستدعي شكر نعم الله في النفس والآفاق.

التفسير والبيان:

هدد الله تعالى الكفار بقوله:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَنْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي ألم نهلك الكفار المكذبين للرسول المخالفين لما جاؤوهم به من الأمم الماضية، من لدن آدم عليه السلام كأقوام نوح وعاد وثمود وغيرهم إلى زمن محمد ﷺ، بالعذاب في

الدنيا، ثم تتبعهم بأمثالهم وأشباههم، وهم كفار مكة حين كذبوا محمداً ﷺ،
أهلكهم الله يوم بدر وغيره من المواطن.

وفي هذا وعيد شديد لكل من كفر بالله وتخويف وتحذير من الكفر.

ثم أخبر تعالى بأن تلك سنة الله لا تبديل فيها، مع بيان حكمة الإهلاك،
فقال:

﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝﴾ أي إن سنتنا في جميع الكفار واحدة، فمثل
ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله، الذين أجرموا في حق أنفسهم،
نفعل بكل مشرك، إما في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ أي الخزي والعذاب يوم ذلك الإهلاك
للمكذبين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر.

ثم ونجهم بتعداد النعم والامتنان عليهم، وبيان آثار القدرة الإلهية عليهم،
ومحتجاً بالبداء على الإعادة فقال:

﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝﴾
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝﴾ ؟ أي ألا ترون وتدركون أننا نحن خلقناه من ماء
ضعيف حقير، وهو المني، وضعفه واضح بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل،
وجعلناه وجعناه في مستقر أو مكان حريز حصين، وهو الرحم، ثم أبقاء الله
إلى مدة معينة هي مدة الحمل من ستة أشهر إلى تسعة أشهر.

ونحن قَدَرْنَا أعضاء وصفاته، وجعلنا كل حال على الصفة التي أردنا،
فنعم المَقْدَرُ الله، أو فنعم المَقْدُرُونَ له نحن. أو على قراءة التخفيف (فَقَدَرْنَا) أي
فقدَرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا، فنعم أصحاب القدرة نحن، حيث
خلقناكم في أحسن تقويم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي خزي وعذاب في ذلك اليوم الهائل، يوم القيامة لمن كذب بقدرتنا على ذلك وبهذه المن والنعمة.

وهذا توبيخ وتخويف من وجهين:

أحدهما - أن النعمة كلما كانت أعظم، كان كفرانها أفحش.

والثاني - أن القادر على الإبداء (الخلق الأول) قادر على الإعادة، فالمنكر لهذا الدليل الواضح يستحق غاية التوبيخ.

ثم عدّ عليهم نعم الآفاق الثلاثة بعد ذكر الأنفس، فقال:

أ - ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتَا ۖ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ أي ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها في منازلهم، والأموات في بطنها، تضمهم وتجمعهم؟ قال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم. والكفات: اسم ما يكفت أي يضم ويجمع، ويجوز أن يكون اسماً لما يكفت به، مبنياً للمفعول، كالشداد لصمام يشد به رأس القارورة.

٢، ٣ - ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَ شَيْخَتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ أي وأوجدنا في الأرض جبلاً ثوابت عاليات، لثلا تميد وتضطرب بكم، وأسقيناكم من ينابيعها أو من السحاب ماء عذباً زلالاً، وهذا كله أعجب من البعث.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي عذاب شديد في الآخرة لمن كذب أو كفر بهذه النعمة، وويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم استمر على تكذيبه وكفره.

فقه الحياة أو الأحكام:

ذكر الله تعالى عشرة أنواع من تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر، أذكر منها هنا أربعة وهي:

النوع الأول من التخويف - أنه أقسم في الآيات السابقة على أن اليوم الذي يوعدون به، وهو يوم الفصل، واقع.

النوع الثاني - أنه أهلك الكفرة المتقدمين بسبب كفرهم، وأخبر أنه يفعل مثل ذلك في الأقوام المتأخرين، فلا بد أن يهلكهم أيضاً، لثماثلهم مع المتقدمين في علة الإهلاك، وهي التكذيب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. وذكر تعالى أن هذا الإهلاك إنما نفعله بهم لكونهم مجرمين، فعمم الحكم جميع المجرمين.

ثم أكد تعالى التخويف بقوله: ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾ والمراد أن مآلهم في الدنيا الهلاك، وفي الآخرة العذاب الشديد، كما قال تعالى: ﴿خَسِرَ الَّذِينَ وَالِالْآخِرَةُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ٢٢/١١]. وهؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا في الدنيا، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة.

والنوع الثالث من تخويف الكفار - التذكير بعظيم إنعامه عليهم، والتحذير من مغبة كفران النعمة وإنكار إحسانه إليهم، وهو خلقه الإنسان من النطفة الضعيفة الحقيرة، ثم إيداعها في مكان حريز وهو الرحم إلى أن يتم تصويره ويحين وقت ولادته، وذلك لا يمكن من غير قادر عليه، فنعم القادر والمقدّر وهو الله تعالى.

ووجه التخويف من جانبيين كما تقدم:

الأول - أنه كلما كانت نعمة الله عليهم أكثر، كانت جنائيتهم في حقه أقبح وأفحش، وكان العقاب أعظم، لذا قال عقيب هذا الإنعام: ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾

الثاني - أنه تعالى ذكرهم كونه قادراً على الابتداء، ومن المقرر الظاهر عقلاً عند البشر أن القادر على الابتداء، قادر على الإعادة، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة، قال في حقهم: ﴿وَبَلَّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١).

والنوع الرابع من تخويف الكفار - أنه تعالى بعد أن ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الأنفس، ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الآفاق، وذكر ثلاثة أشياء: هي الأرض التي هي كفات الأحياء والأموات، والجبال الرواسي الشاخات، أي الثوابت على ظهر الأرض فلا تزول، العاليات، والماء الفرات الذي هو الغاية في العذوبة.

وأعقب التذكير بهذه النعم في الآفاق في آخر الآية: ﴿وَبَلَّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢) لأن النعم كما تقدم كلما كانت أكثر، كانت الجناية أقبح، فكان استحقاق الذم عاجلاً، والعقاب أجلاً أشد، كما قال الرازي.

هذا وقد استنبط العلماء من آية ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٣) حكيمين (٢):

الأول - إذا كانت الأرض ضامة تضم الأحياء على ظهورها، والأموات في بطنها، فهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه.

والثاني - روي عن ربيعة في النبأش (سارق أكفان الموتى) قال: تقطع يده، فقبل له: لم قلت ذلك؟ قال: إن الله عز وجل يقول: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٤) أحياء وأمواتاً (٥) فالأرض حرز. وكانوا يسمون بقباع العرقند في المدينة كفتة؛ لأنه مقبرة تضم الموتى، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم، والأموات في قبورهم. وأيضاً استقرار الناس على وجه الأرض، ثم اضطجاعهم عليها، انضمام منهم إليها.

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٧٢/٣٠

(٢) تفسير القرطبي: ١٦١/١٩

وكذلك استدل الشافعية بالآية على قطع النباش: بأن الله تعالى جعل الأرض كفناً للأموات، فكان بطنها حرزاً لهم، فالنباش سارق من الحرز. هذا.. وأما بقية أنواع تخويف الكفار وتهديدهم، فمحلها الآيات الآتية.

أنواع ثلاثة أخرى من وجوه تخويف الكفار

كيفية عذابهم في الآخرة

﴿أُطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) ﴿أُطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠) ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ﴾ (٣١) ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صَفْرٌ﴾ (٣٣) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٤) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٧) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٣٩) ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٠)

القراءات:

﴿جِمَلَتٌ﴾:

قرأ حفص، وحزة، والكسائي (جمالة) وقد رسمت بالتاء، فوقف الكسائي بالهاء، والباقون بالتاء.

وقرأ الباقر (جمالات).

الإعراب:

﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صَفْرٌ﴾ (٣٣) وقرئ: (جمالات): جمع جمالة، وجمالة جمع جمل، كحجر وحجارة، وذكر وذكاره، فعلى هذا (جمالات) جمع الجمع.

﴿لَا يَنْطِقُونَ﴾، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على ﴿يَنْطِقُونَ﴾ كأنه قال: لا ينطقون ولا يعتذرون، كقراءة من قرأ: ﴿لَا يُقْضَى﴾

عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُونَ﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦] بالياء والنون، كأنه قال: لا يقضى عليهم ولا يموتون. فلو حملت الآية على ظاهرها لتناقض المعنى؛ لأنه يصير التقدير: هذا يوم لا ينطقون فيعتذرون، فيكون ذلك متناقضاً؛ لأن الاعتذار نطق. أو معطوف على يؤذن، ليدل على نفي الإذن، أي لا إذن فلا اعتذار.

البلاغة:

﴿تَرَىٰ يَشْكُرُ كَالْقَصْرِ﴾ تشبيه مرسل مجمل لحذف وجه الشبه، و﴿كَأَنَّهُ جُمِلَتْ صُفْرٌ﴾ (٣٣) تشبيه مرسل مفصل، وفي التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيه من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الارتفاع. وفي التشبيه بالجماليات وهي القلوس تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم، والارتفاع، والصفرة.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعْبٍ﴾ (٣٤) لَا ظِلِّ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ (٣٥) أسلوب التهكم، سمي العذاب ظلاً تهكماً وسخرية بهم.

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَلِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) سجع مرصع، وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْطَلِقُوا﴾ وفي قراءة (انْطَلَقُوا) إخباراً عن امتثالهم للأمر اضطراراً. ﴿إِلَىٰ ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعْبٍ﴾ ظل دخان جهنم، إذا ارتفع افترق ثلاث فرق، لعظمه، والشعب: الفروع. ﴿لَا ظِلِّ﴾ لا وقاية فيه من حر ذلك اليوم، وهو تهكم بهم، ورد لما أوهم لفظ الظل. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ﴾ لا يفيدهم من حر اللهب شيئاً، واللهب: شعلة النار. ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار. ﴿يَشْكُرُ﴾ ما تطاير من النار، جمع شرارة. ﴿كَالْقَصْرِ﴾ كالبناء الكبير المشيد في عظمه وارتفاعه. ﴿جُمِلَتْ﴾ جمع جمل، وقرئ: جمالات: جمع الجمع. ﴿صُفْرٌ﴾ في الهيئة

واللون، وقيل: سود، فإن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه في العظم والارتفاع، والثاني في العظم والارتفاع واللون، والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة. ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾ أي يوم القيامة، وقرئ: يوماً، أي هذا المذكور واقع يومئذ. ﴿لَا يَنْطِقُونَ﴾ فيه بشيء يستحق الذكر، فإن النطق بما لا ينفع كلا نطق. ﴿الْفَصْلُ﴾ بين الحق والمبطل. ﴿جَمَعْتَكُمْ﴾ أيها المكذبون من هذه الأمة. ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ من المكذبين قبلكم، فتحاسبون وتعذبون جميعاً. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِذَّبُوا﴾ أي إن كان لكم حيلة في دفع العذاب عنكم، فافعلوها واحتملوا علي. وهذا تقرير لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهار لعجزهم. ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عذاب يوم القيامة لمن كذب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب.

المناسبة:

بعد أن هدد الله تعالى الكفار بعذاب يوم الفصل والقيامة، أبان كيفية عذابهم في الآخرة، بزجهم في النيران، واقتضاحهم على رؤوس الأشهاد، حيث لا عذر لهم ولا حجة في قبايحهم، وتعذيبهم بالتقريع والتخجيل، وتلك أنواع ثلاثة أخرى من أنواع تخويف الكفار وتهديدهم.

التفسير والبيان:

أخبر الله تعالى عما يقال يوم القيامة للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، فقال مبيناً النوع الخامس من أنواع التهديد:

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال للكفار من قبل خزنة جهنم: اركضوا أو سيروا واذهبوا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب الأخروي في الدنيا.

ثم وصف الله تعالى هذا العذاب بأربع صفات، بقوله:

١ - ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ﴾ ﴿٣٥﴾ هذا تهكم بهم، معناه: سيروا إلى ظل من دخان جهنم متشعب إلى شعب ثلاث أو فرق، فإن لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، صار له ثلاث شعب من شدته وقوته. والمراد أنهم يتقلون من عذاب إلى آخر، وأن العذاب محيط بهم من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهُمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩/١٨] وسرادق النار: هو الدخان فتكون تسمية النار بالظل مجازاً من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب، كقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦/٣٩] وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥/٢٩].

٢، ٣ - ﴿لَا ظِلِيلٌ وَلَا يُنْقِي مِنَ الْلَهَبِ ۖ﴾ ﴿٣٦﴾ وهذا أيضاً تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين، فذلك الظل لا يمنع حر الشمس، وليس فيه برد ظلال الدنيا، ولا يفيد في رد حر جهنم عنكم شيئاً؛ لأن هذا الظل في جهنم، فلا يظلمهم من حرها، ولا يسترهم من لهبها، كما جاء في آية أخرى: ﴿فِي سُومٍ وَحِمِيرٍ ۖ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۖ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ ﴿٤٤﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٤/٥٦].

واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطربت، من أحمر وأصفر وأخضر.

٤ - ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۖ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾ ﴿٣٧﴾ أي إن هذه النار يتطاير منها شرر متفرق، كل شرارة من شررها التي ترمي بها كالقصر (البناء العظيم) في العظم والارتفاع، وكالإبل الصفر في اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة. وقال الفراء: الصفر سود الإبل؛ لأنها مشربة بصفرة، لذلك سمى العرب سود الإبل صفراً. والأكثر على أن المراد بهذه الصفرة سواد يعلوه صفرة. والشرر جمع شرارة: وهو ما تطاير من النار في كل جهة.

والمقصود بالتشبيه الأول بيان أن تلك النار عظيمة جداً، والمقصود بالتشبيه الثاني شدة اشتعالها، والتهكم بهم، كأنه قيل: كنتم تتوقعون من وثنيكم كرامة ونعمة وجالاً، إلا أن تلك الجمال هي هذه الشرارات التي هي كالجمال، لذا أعقبه بقوله:

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي عذاب وخزي في يوم القيامة الهائل للمكذبين لرسل الله وآياته، الذين لا مفر لهم من ذلك العذاب.

ثم وصف تعالى ماذا يكون للكفار في ذلك اليوم من ألوان العذاب الأدبية، وهو النوع السادس من أنواع التخويف، فقال:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي هذا اليوم لا يتكلمون فيه، هول ما يرون، وللحيرة والدهشة التي تعترهم، ولا يأذن الله لهم، فيكون لهم اعتذار، بل قد قامت عليهم الحجة، لذا قال تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [النوبة: ٩/٦٦] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [التحریم: ٧/٦٦].

والمراد بهذا النوع بيان أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما ارتكبوا من المفسدات والقبائح والمنكرات، وأنه لا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم. وبيان هذا النوع للدلالة على شدة أهوال القيامة.

ولمّا لم يؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنه تعالى قدّم الإنذار في الدنيا، بدليل قوله في مطلع السورة: ﴿فَالْمُتْلِقِينَ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَذَرًا ﴿٦﴾﴾. ولهذا قال في آخر هذا الإخبار:

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي عذاب يوم القيامة للمكذبين بما أُنذرتهم به الرسل من العذاب في الدنيا، إن استمروا على الكفر، وخالفوا أوامر الرسل.

ثم أخبر الله تعالى عن النوع السابع من أنواع تهديد الكفار، فقال:

﴿هَذَا يَوْمُ الْقَفْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي ويقول الخالق لهم: هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحق من الباطل، جمعناكم بقدرتنا يا معشر كفار قريش وأمثالكم المتأخرين على مرّ الدهور فيه مع الكفار الأولين، وهم كفار الأمم الماضية، في صعيد واحد، ولجزاء واحد.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ أي إن قدرتم أيها الكفار بحيلة ما على أن تتخلصوا من العذاب، فافعلوا، فإنكم لا تقدرُونَ على ذلك. وهذا نهاية في التقرير والتحقير والتخجيل والتعجيز والتوبيخ، وهو من جنس العذاب الروحاني، لذا قال عقبيه:

﴿وَبَلِّغْهُمْ يَوْمَ الْكَيْدِ الَّذِي كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي عذاب يوم القيامة لكل من كذب بالبعث؛ لأنه ظهر لهم عجزهم وفقدوا كل أمل لهم بالنجاة من العقاب.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه ثلاثة أنواع أخرى من تخويف الكفار إضافة للأربعة المتقدمة:

النوع الخامس - بيان كيفية عذابهم في الآخرة: يقال للكفار تبيكاً وتهكماً وتقريعاً من خزنة جهنم: سيروا إلى ما كذبتُم به من العذاب وهو النار، فقد شاهدتموها عياناً.

وعذاب النار له أوصاف أربعة: يتشعب ظله أو دخانه إلى ثلاث شعب، كما هو شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب، وليس كالظل الذي بقي حرّ الشمس، ولا يدفع من لهب جهنم شيئاً، وترمي النار بشرارات، كل شرارة كالقصر: البناء العالي، في العظم والارتفاع، مما يدل على أن تلك النار عظيمة جداً، وهي أيضاً كالجمالات الصُفْر: وهي الإبل السود، والعرب تسمي السود من الإبل صفراً، مما يدل على أن تلك النار شديدة الاشتعال كثيفة، متتابعة، سريعة الالتهاب.

وذكر القرطبي أن في هذه الآية دليلاً على جواز ادّخار الخطب والفحم، وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء، مما يقتضي أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص، وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي ﷺ يَدْخِرُ القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه^(١).

النوع السادس - بطلان الحجة، وفقد العذر، والعجز: أبان تعالى أنه ليس للكفار يوم القيامة عذر ولا حجة فيما ارتكبوا من القبائح، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم، فاجتمع عليهم عذاب التخجيل والعذاب الجسماني وهو مشاهدة النار وأهوالها.

النوع السابع - التعذيب بالتقريع والتخجيل: يقال للكفار يوم القيامة: هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، فيتبين الحق من المبطل، والذي جمع فيه في صعيد واحد أوائل الكفار وأواخرهم، سواء الذين كذبوا الرسل المتقدمين قبل نبينا، أو كذبوا محمداً ﷺ. وقد تحداهم الله تعالى بأن يجدوا لأنفسهم ملجأً أو وقاية من العذاب على المعاصي التي اقترفوها في الدنيا، ولكنهم يعجزون عن ذلك وعن الدفع عن أنفسهم.

ويكون الفصل فيما بين العباد بعضهم مع بعض من حقوق وظلامات، فهذا يدعي على آخر أنه ظلمه، أو قتله، وآخر يدعي أنه اغتصب منه شيئاً أو سرق ماله، وهكذا.

أما ما يتعلق بحقوق الله تعالى فلا حاجة فيه للفصل، وإنما يلقي العبد الثواب الذي يستحقه على عمله الصالح، والعقاب الذي يجازى به على عمله السيئ، إلا أنه فيما يتعلق بجانب العبد، فإنه تقرر عليه أعماله التي عملها، حتى يعترف^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ١٩/١٦٥

(٢) تفسير الرازي: ٣٠/٢٨١

الأنواع الباقية من تهديد الكفار وتعذيبهم

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوْا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُمُوا لَا يَرْكُمُونَ ﴿٤٨﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَعُيُونٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحزة، والكسائي (وعيون). وقرأ الباقون (وعيون).

﴿قِيلَ﴾:

ياشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، المقدر في الظرف الآتي بعده، أي هم مستقرون في ظلال، مقولاً لهم ذلك. و﴿هَنِيئًا﴾ حال أي متهنئين.

﴿كُلُّوْا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ حال من المكذبين، أي الويل ثابت لهم، في حال ما يقال لهم: كلوا وتمتعوا.

البلاغة:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا

﴿يَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٢) مقابلة، قابل الجملة الأخيرة بقوله بعدئذ: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ (٤١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨) مجاز مرسل، أطلق الركوع، وأراد به الصلاة، فهو من قبيل إطلاق البعض وإرادة الكل.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعَيُونٍ﴾ (٤١) وفوقه ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٤٢) سجع مرصع، وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير.

للفردات اللغوية:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعَيُونٍ﴾ (٤١) أي إن المؤمنين المتقين من الشرك، الذين هم في مقابلة الكاذبين، هم في ظلال وارقة تحت أشجار متكاثفة في الجنة؛ إذ لا شمس يظل من حرها، وعيون - أي أنهار - نابعة بالماء، ويتمتعون بفواكه مما يشتهون، فهم مستقرون في أنواع الترفه. وفيه دلالة على أن نعم الجنة بحسب الرغبة والميل، بخلاف الدنيا تكون بحسب ما يجد الناس في الأغلب. والفرق بين الظل والفيء: أن الظل أعم من الفيء، فيقال: ظل الليل وظل الجنة وظل الجدار، أما الفيء: فهو ما زالت عنه الشمس.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي متهنين، أي يقال لهم ذلك. ﴿يَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤٤) أي كما جزينا المتقين نجزي المحسنين. ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ (٤١) أي يقال للكفار في الدنيا تهديداً لهم: كلوا ما شئتم في الدنيا، وتمتعوا بنعيمها مدة قليلة من الزمان يعقبها الموت، ثم تناولون عقابكم ومنتقم منكم على كفركم وتكذيبكم لرسلتنا، فإنكم مشركون بالله، لا تستحقون الإنعام والتكريم. ﴿وَبَلَّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) حيث عرَّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل.

﴿ارْكَعُوا﴾ صلوا. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يصلُّون، واستدل به على أن الأمر

للإيجاب، وأن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠) أي بأي كلام يصدقون إذا لم يصدقوا بهذا القرآن؟ فهو معجز في ذاته، مشتمل على الحجج الواضحة والمعاني الكريمة، ولا يمكن إيمانهم بعدئذ بغيره من كتب الله، بعد تكذيبهم به.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٨):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨): أخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨) قال: نزلت في ثقيف، امتنعوا من الصلاة، فنزل ذلك فيهم. وقال مقاتل: قال لهم النبي ﷺ: «أسلموا» وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا ننحنى فإنها مَسَبَّةٌ علينا، فقال النبي ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود».

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى أنواع العذاب والحزني والنكال على الكفار، قابل ذلك للعظة والعبرة بأحوال المؤمنين في الآخرة، وبين ما لهم من أنواع السعادة والكرامة، فتضاعف حسرة الكافر، وتزايد غمومه وهمومه، وهذا من جنس العذاب الروحاني.

ثم وبَّخ الله تعالى الكفار وهددهم بزوال نعم الدنيا في وقت قصير، وتعرضهم للآفات العظيمة في الآخرة، ثم ذكرهم بتقصيرهم في طاعة الله، وإهمالهم فريضة الصلاة، وتركهم الإيمان بالقرآن الذي لا جدوى من الإيمان بغيره من الكتب السماوية الأخرى التي بادت وتبدلت ونسخت.

والخلاصة: تضمنت هذه الآيات ثلاثة أنواع أخرى من تخويف الكفار وتعذيبهم.

التفسير والبيان:

ينجبر الله تعالى عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات، وعن أحوالهم يوم القيامة، فيقول:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ۖ وَقَوْكَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝﴾ أي يكون المتقون في الآخرة في جنات وظلال وارقة تحت الأشجار والقصور، وتحيط بهم العيون الجارية والأنهار المتدفقة، بخلاف ما يكون فيه الكفار الأشقياء من ظل اليعقوم وهو الدخان الأسود الممتن، والنار المستعرة بهم.

ونظير الآية: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِفُونَ ۝﴾ [يس: ٥٦/٣٦].

﴿وَقَوْكَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝﴾ أي ولديهم أنواع من الفواكه والثمار، مما تطلبه أنفسهم، وتستدعيه شهواتهم، فمهما طلبوا وجدوا.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ أي ويقال لهم في الآخرة بدليل قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على سبيل الإحسان إليهم والتكريم: كلوا أيها المتقون من طيبات الجنة وفواكهها، واشربوا متهئين بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة. وهذا أمر إكرام، لا أمر تكليف، وهذا أيضاً من جنس العذاب الروحاني بالنسبة إلى الكافرين حين يرون الذين اتقوا الشرك في النعيم المقيم.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ومثل ذلك الجزاء العظيم لهؤلاء المتقين نجزي المحسنين في أعمالهم، فلا نضيع لهم أجراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/٣٠].

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ أي عذاب وخزي يوم القيامة للمكذبين بالله

ورسله وبما أخبر الله من تكريم هؤلاء المتقين في الآخرة، حيث صاروا في شقاء عظيم، وصار المؤمنون في نعيم مقيم. وهذا هو النوع الثامن من أنواع تهديد الكفار.

ثم خاطب الله تعالى المكذبين بيوم الدين، وأمرهم على سبيل التهديد والوعيد، فقال:

﴿كُلُوا وَشَبِّهُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ (٤١) أي يقال لهم في الدنيا^(١): كلوا من مآكل الحياة ولذائدها، وتمتعوا بخيراتها زماناً قليلاً، ومدة قصيرة تزول بانتهاء العمر، ثم تساقون إلى نار جهنم، فإنكم مشركون بالله. وهذا إن خوطبوا به في الآخرة توبيخ وتذكير بمآلهم السمجة، وبما جنوا على أنفسهم من إثارة المتاع القليل على النعيم المقيم، وعلل ذلك بكونهم مجرمين إعاداً لكل مجرم.

﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَذِي الْمَكِّذِينَ﴾ (٤٢) أي عذاب لأولئك المشركين المكذبين بأوامر الله تعالى ونواهيه، وبما أخبرهم به أنه فاعل بهم، كما قال تعالى: ﴿نُمِئْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (لقمان: ٢٤/٣١).

وهذا هو النوع التاسع من أنواع تخويف الكفار، ثم ذكر بعده النوع العاشر، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٣) أي وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون، فهم مستكبرون عن طاعة الله تعالى. وهذا ذم على ترك الخشوع والتواضع لله بقبول وحيه وأمره وتكليفه.

﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَذِي الْمَكِّذِينَ﴾ (٤٤) بأوامر الله سبحانه ونواهيه.

ثم ختم السورة بالتعجب من الكفار، فقال:

﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠) أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن وما فيه من

الدلائل على وجود الله تعالى وتوحيده وصدق نبيه ﷺ، فبأي كلام بعده يصدقون؟ فالقرآن فيه كل ما يرشد إلى الخير وسعادة الدارين.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة كان إذا قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ (١) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٠) قال: فليقل: آمنت بالله وبما أنزل.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت هذه الآيات الأنواع الثلاثة الأخيرة من أنواع تخويف الكفار العشرة وتعذيبهم:

النوع الثامن - مضاعفة حسرة الكفار، وتزايد غمومهم وهمومهم: وهو من جنس العذاب الروحاني، فإنهم إذا وجدوا ما أعد الله للمتقين المؤمنين من أنواع السعادة والكرامة، تحسروا واغتموا، وكانت حالهم في غاية الذل والهوان والخزي.

لقد أخبر الله تعالى عما يصير إليه المتقون غداً من الاستمتاع والاستقرار بظلال الأشجار وظلال القصور، في مواجهة الشعب الثلاث لظل النار، والتمتع بالفواكه التي يطلبونها ويتمنونها، ويقال لهم غداً: كلوا واشربوا متهنئين، بدل ما يقال للمشركين: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٢٩). وهذا هو الثواب الذي يثيب الله به الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

والنوع التاسع - وعيد الكفار وتهديدهم إذ يقال لهم في الدنيا: كلوا وتمتعوا زمناً قليلاً، فإنكم مجرمون مشركون بالله، ومجازون بسوء أعمالكم، فقد عرضتم أنفسكم للعذاب لأجل حب الدنيا، والرغبة في طياتها وشهواتها القليلة الفانية بالنسبة لتلك الآفات العظيمة التي تلقونها يوم القيامة.

والنوع العاشر - توبيخهم وتقريعهم على جهلهم وكفرهم وتعريضهم

أنفسهم للعقاب الشديد، وعدم انقيادهم لطاعة الله، وعدم أداء فريضة الصلاة، فإذا أمرُوا بها لم يؤدوها.

وقد كرر تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِدِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٧) بعد كل نوع لتأكيد التخويف والوعيد.

ثم ختم الله السورة بعظة بليغة موجزة وهي أنه إن لم يصدقوا بالقرآن الذي هو المعجز والدال قطعاً على صدق الرسول ﷺ، فبأي شيء يصدقون!!؟

انتهى هذا الجزء التاسع والعشرون ولله الحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير المنير

في العقيدة والشرعية والمنهج

الجزء الأول: التلاوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّبَأِ

مكية، وهي أربعون آية

تسميتها:

تسمى سورة ﴿عَمَّ﴾ وسورة (النبا) لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ وهو خبر القيامة والبعث الذي يتم بشأنه، ويسأل الناس عن وقت حدوثه.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي الرسائل من وجوه ثلاثة:

١ - تشابه السورتين في الكلام عن البعث وإثباته بالدليل، وبيان قدرة الله عليه، وتوبيخ الكفار المكذبين به، ففي الرسائل: ﴿أَلَمْ نُهِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ وفي هذه قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا حِمِيمًا وَعَسَافًا ﴿٢٥﴾﴾ الآيات: [٢٥-٦].

٢ - اشتراك السورتين في وصف الجنة والنار، ونعيم المتقين وعذاب الكافرين، ووصف يوم القيامة وأهواله.

٣ - فصلت هذه السورة ما أُجْمِلَ في السورة المقدمة، فقال تعالى في المرسلات: ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ [١٢-١٤] وقال سبحانه في هذه السورة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾﴾ إلى آخر السورة.

ما اشتملت عليه السورة:

إن محور السورة إثبات البعث بالأدلة المختلفة، لذا ابتدأت السورة بوصف تساؤل المشركين عنه، والإخبار عن يوم القيامة، وما يتبعه من البعث والنشور والجزاء، وأعقبته بتهديد المشركين على إنكارهم إياه: ﴿عَمَّ يَسْتَأْذِنُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخَلِّفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [١-٥].

ثم أقامت الأدلة والبراهين على إمكان البعث، بتعداد مظاهر قدرة الله على الخلق والإبداع وإيجاد مختلف عجائب الكون، مما يدل على إمكان إعادة الناس بعد الموت: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقَنَاهُ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا قَوْمَكَ سِبْكًَا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِّبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [٦-١٦].

ثم حددت السورة ميقات البعث وميعاده، وهو يوم الفصل بين الخلائق الذي يجمع فيه الأولون والآخرون: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [١٧-٢٠].

ثم وصفت ألوان عذاب الكافرين، وأنواع نعيم التقيين، بطريق المقابلة والموازنة، والجمع بين الترغيب والترهيب: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [٢١-٢٢].

وختمت السورة بالإخبار بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه، ويُنذَر الكفار بالعذاب الأليم القريب الذي يتمنون من شدته أن يعودوا تراباً.

والسورة كلها يشيع فيها جو التهويل والتخويف، والتهديد والإنذار، حتى لكان التالي لها يكاد يلمس الصور الرهيبة لأحداث القيامة، ويتملكه الذعر والخوف من شدائدتها وأحوالها.

الإخبار عن البعث وأدلة إثباته

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ٢ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤ قُلْ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧ وَخَلَقَنَّاكُمْ أَزْوَاجًا ٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبُلًا ٩ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا ١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ١٦﴾

الإعواب:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١﴾ «عَمَّ» أصله: عن ما، إلا أنه لما دخلت (عن) على (ما) الاستفهامية، حذفت ألفها للفرق بين الاستفهام والخبر.

﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ٢﴾ إما بدل من «عَمَّ» بإعادة الجار، أو متعلق بفعل مقدر، دلَّ عليه «يَتَسَاءَلُونَ» ولا يكون بدلاً؛ لأنه لو كان بدلاً، لوجب أن تكرر (عَمَّ).

﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا ١٠﴾ أي مختلفين، حال من الكاف والميم في «وَجَعَلْنَا».

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ١٦﴾ «أَلْفَافًا» صفة جنات، وهو إما جمع لِفَتْ مثل جذع

وأجذاع، أو جمع الجمع لكلمة (لُفَّ) جمع أَلَفَ ولَقَاءَ، وفُعِلَ بضم الفاء يجمع على أفعَالٍ، فيكون جمع الجمع. وقال أبو عبيدة: واحدها لفيف، كشریف وأشراف.

البلاغة:

﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ (٦) إيجاز يحذف الفعل، لدلالة المتقدم عليه، أي يتساءلون عن النبأ العظيم.

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ تشبيه بليغ، أي جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفرشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت غيرها. ومثله: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّيَاسَا﴾ (١٠) أي كاللباس في الستر.

﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّيَاسَا﴾ (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) بينهما مقابلة، قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل.

﴿أَوْتَادًا﴾ (٦) ﴿أَزْوَاجًا﴾ (٦) ﴿سُبَّانًا﴾ (٦) ﴿لِيَاسَا﴾ (٦) ﴿مَعَاشًا﴾ (١١) ﴿شِدَادًا﴾ (١١) ﴿وَهَاجًا﴾ (١١) ﴿فَجَاجًا﴾ (١١) ﴿وَنَبَاتًا﴾ (١١) ﴿أَلْفَاقًا﴾ (١١) سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾ (١) أي عن أي شيء يسأل بعض أهل مكة بعضاً، ومعنى الاستفهام: تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، كأنه لفخامته خفي جنسه، فسئل عنه. وقد كان التساؤل من أهل مكة عن البعث فيما بينهم، أو يسألون الرسول ﷺ والمؤمنين عنه استهزاء. ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ (٦) عن خبر يوم البعث المهم، وهو بيان شأن المفخّم. ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ (٢) يترددون فيه بين الإقرار والإنكار أو بين الإثبات والنفي.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وزجر، لرد الكلام المتقدم ونفيه، والردع عن التساؤل

والوعيد عليه. ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ما يحل بهم على إنكارهم للبعث. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتكرير للمبالغة، وحيء بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد من الأول.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ممهدة مذللة فراشاً، كالمهد في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [طه: ٥٣/٢٠]. والاستفهام للتقرير، وهذا بدء بيان القدرة على البعث بالتذكير ببعض عجائب الكون التي أبدعها الله. ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ خِيَامًا يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مِنْ تَحْتِهِ نَارًا﴾ كما تثبت الخيام بالأوتاد: جمع وتد: وهو ما يدق في الأرض لربط حبال الخيمة التي تشد بها. ﴿أَزْوَاجًا﴾ ذكوراً وإناثاً. ﴿سُبَّانًا﴾ راحة لأبدانكم بقطع الحركة وإيقافها. ﴿لِبَاسًا﴾ كاللباس في السر، وهو ما يلبسه الإنسان لستر جسمه، أي إنه تعالى جعل الليل غطاء يستتر بظلمته من أراد الاختفاء.

﴿مَعَاشًا﴾ وقتاً لتحصيل أسباب المعاش أو المعاش. ﴿سَبْعًا﴾ سبع سماوات. ﴿سِدَادًا﴾ أي سبع سماوات قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان، ولا تصدع فيها. ﴿سَرَاجًا﴾ ما يضيء وينير. ﴿وَهَاجًا﴾ وقادراً متلألئاً، والمراد به الشمس.

﴿الْمُتَصَرِّتِ﴾ السحب والغيوم التي حان لها أن تعصر الماء، فيسقط منها. ﴿ثُمَّ جَاءَ﴾ أي مطراً صاباً كثير الهطول، جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن عمر: «أفضل الحج العَجَّ والثَّجَّ العج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة دم الهدي. ﴿جَاءَ﴾ ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير والذرة. ﴿وَنَبَاتًا﴾ ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش. ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بساتين وحدائق، جمع جنة. ﴿الْفَاقَا﴾ ملتفة الأشجار والأغصان، يلتف بعضها ببعض.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١): أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: لما بعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فنزلت: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (١).

التفسير والبيان:

ينكر الله تعالى على المشركين تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها، فيقول: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) أي عن أي شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم فيما بينهم؟ ثم أجاب الله تعالى عن هذا السؤال بقوله: ﴿عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ أي عن الخبر المهم الهائل، العظيم الشأن الذي اختلفوا في أمره، بين مكذب ومصدق، وكافر ومؤمن به، ومنكر ومقر، وشاك ومثبت، وهو يوم البعث بعد الموت، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٧) [المؤمنون: ٢٣/٣٧] وقوله: ﴿مَا نَذْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ [الجاثية: ٤٥/٣٢].

وقال مجاهد في تفسير النبأ العظيم: هو القرآن، قال ابن كثير: والأظهر الأول أي إنه البعث بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (٣) وقال الرازي: إنه يوم القيامة، وهو الأقرب.

والمراد من الاستفهام تفخيم الأمر وتعظيمه وتعجيب السامعين من أمر المشركين. وإيراد الكلام في صورة السؤال والجواب، أقرب - كما قال الرازي - إلى التفهيم والإيضاح، وتثبيت الجواب في نفوس الناس السائلين، كما في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ٤٠/١٦].

ثم ردَّ الله تعالى عليهم متوعداً إنكارهم القيامة بقوله:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝١ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٢﴾ أي لا ينبغي لهم أن يختلفوا في شأن البعث، فهو حق لا ريب فيه، وسيعلم الذين يكفرون به عاقبة تكذيبهم. وكلمة ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم وزجر، ثم كرر الردع والزجر بالجملة الثانية، أي فليزدجروا عما هم فيه من الكفر والتكذيب، فإنهم سيعلمون قريباً حقيقة الأمر إذا حلَّ بهم العذاب.

وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد، قال أهل المعاني: تكرير الردع مع الوعد دليل على غاية التهديد. وفي ﴿تَوَّ﴾ إشارة إلى أن الوعد الثاني أبلغ من الأول.

ثم أورد الله تعالى بعض مظاهر قدرته العظيمة على خلق الأشياء العجيبة الدالة على قدرته على أمر المعاد وغيره، فقال معدداً تسعة أشياء تثبت صحة البعث والحشر الذي أنكروه، وتدل على قدرته على جميع الممكنات وعلمه بجميع المعلومات:

١ - ٢ - ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝١ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٢﴾ أي كيف تنكرون البعث، وقد عاييتهم أدلة قدرة الله التامة، من جعل الأرض ممهدة مذللة للخلائق، كالمهد للصبي: وهو ما يمهّد له من الفراش، فينوم عليه، وجعل الجبال الراسيات كالأوتاد للأرض، لتسكن ولا تتحرك، وتهدأ ولا تضطرب بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ۝٣﴾ [النازعات: ٣٢/٧٩].

٣ - ﴿وَخَلَقْنَاهُكُمْ أَزْوَاجًا ۝٤﴾ أي وأوجدناكم أصنافاً: ذكوراً وإناثاً، للأنس والتعاون والحفاظ على النوع البشري، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٥﴾ [الروم: ٢١/٣٠].

٤ - ٥ - ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٦ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا ۝٧﴾ أي وجعلنا

نومكم راحة لأبدانكم وقطعاً للحركة ولأعمالكم المتعبة في النهار، فبالنوم تتجدد القوى، وينشط العقل والجسم، والسبات: أن ينقطع عن الحركة، والروح في بدنه. وجعلنا الليل سكناً وكاللباس الذي يغطي بظلامه الأشياء والأجسام، فكما أن اللباس يغطي الجسد ويقيه من الحر والبرد، ويستر العورات، كذلك الليل يستتر فيه من أراد الاختفاء لقضاء مصالح وتحقيق فوائد لا تتيسر في النهار، كالاستتار من العدو وقضاء بعض الحوائج.

٦ - ﴿وَجَعَلْنَا الْهَارَ مَعَايَا ۝﴾ أي وجعلنا وقت النهار مشرقاً مضيئاً ليتمكن الناس من تحصيل أسباب المعاش والتكسب والتجارة والزراعة والصناعة ونحو ذلك من موارد الرزق.

٧ - ٨ - ﴿وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝﴾ أي وبينا فوقكم سبع سماوات قوية الخلق، محكمة البناء، متقنة الصنع، مزينة بالكواكب الثابتة والسيارات، وجعلنا الشمس سراجاً منيراً على جميع العالم، يستضاء به، ويستنار بنوره، ويشع بحرارته، فإن الوهج يجمع النور والحرارة، وبهما تستفيد جميع الكائنات الحية.

٩ - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا ۝﴾ أي وأنزلنا من السحب والغيوم التي تنعصر بالماء ولم تمطر بعد مطراً منصّباً بكثرة، كثير السيلان، لنخرج بذلك الماء الكثير الطيب النافع حَبًّا يقتات به الناس، كالحبوب المختلفة من قمح وشعير وذرة وأرز، ونباتاً تأكله الدواب من التبن والحشيش وسائر النبات، وبساتين وحدائق ذات بهجة وأغصان ملتفة على بعضها وثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَظْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

والثَّج: الصب الكثير المتتابع، ومنه قول النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن ابن عمر: «أفضل الحج: العَج والثَّج» أي رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء البُذُن أو الهدي وإراقتها.

فقه الحياة أو الاحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - تفخيم شأن البعث وتهويله وتعظيم أمره، وتأکید وقوعه وأنه حق ثابت لا ريب فيه.

٢ - سيعلم الكفار المكذبون صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن، ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت، حين يحل بهم العذاب والنكال. وفيه وعيد بعد وعيد.

٣ - ردَّ الله تعالى على المشركين منكري البعث، وأثبت لهم قدرته على البعث والمعاد والحشر والنشر من خلال الإتيان بما هو مشاهد معين لهم، وهو إيجاد عجائب المخلوقات، والقدرة على إيجاد هذه الأمور أعظم من القدرة على الإعادة.

٤ - ذكر الله تعالى من عجائب مخلوقاته الدالة على كمال القدرة وتمام العلم والحكمة أموراً تسعة: هي جعل الأرض ممهدة مذللة كالمهد للصبي، وهو ما يمهّد له فينوم عليه، وجعل الجبال للأرض كالأوتاد التي تشدّ بها حبال الخيام، لتسكن وتثبت ولا تميل بأهلها، وخلق الناس أصنافاً: ذكوراً وإناثاً وأضداداً متقابلين حسناً وقبحاً وطولاً وقصراً ليكتمل الكون، ويزدهو بالجمال والأنس، ويتيسر التعاون، ويستمر بقاء النوع الإنساني.

وتصيير النوم راحة للأبدان وقطعاً للحركة والأعمال التي يكابد بها الإنسان طوال النهار، فتتجدد قواه، ويستعيد نشاطه، فالنوم يزيل التعب عن الإنسان.

وجعل الليل بظلمته كاللباس ساتراً، أو سكناً للناس، فظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو، أو بياناً له، أو إخفاء ما لا يجب الإنسان إطلاع غيره عليه، وأيضاً فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتكامل قوته، ويندفع عنه أذى الحر والبرد، فكذا لباس الليل، بسبب ما يحصل فيه من النوم، يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه، وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الوسواس والأفكار الموحشة.

وجعل النهار وقت معاش، يتردد فيه الناس لطلب معاشهم: وهي كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك.

وبناء سبع سماوات محكمات، محكمة الخلق، وثيقة البنيان، وجعل الشمس سراجاً منيراً مضيئاً وقادراً متلألئاً، وفي كل ذلك خير ونفع للإنسان. وإنزال الأمطار من السحب المحفلة بالماء، فيحدث منها الغيث الذي يحيي الأرض بعد جدها، وينعش النفوس والأجسام بعد عنائها وتكدرها، ويخرج به الحب للإنسان كالحنطة والشعير وغير ذلك، والنبات للحيوان وهو ما تأكله الدواب من الحشيش، وتوجد به البساتين والحدائق الغناء التي تلتف أغصانها بعضها ببعض لكثرة تشعبها، وتزهو بالخضرة والنضرة والجمال، والثمار والألوان، والطعوم والروائح.

وهذه الأمور التسعة نظراً لحدوثها وإمكانها وتجددها تدل على وجود الفاعل المختار، كما يدل ما فيها من الإتقان والإحكام على كمال العلم والحكمة الذاتية، وإذا ثبت كمال الله تعالى في هذه الأوصاف، ثبت قطعاً إمكان الحشر دون أي شك، ثم في إخراج النبات بعد جفافه وبسبه دليل ظاهر حسي قريب للأذهان على إمكان إخراج الموق من القبور، وبعثهم بعد الموت أحياء.

وفضلاً عن ذلك، فإن كل أمر من الأمور التسعة نعمة عظيمة، يجب أن تشكر بالتوفر على الطاعة، ولا تُكفّر بالإقدام على المعصية^(١).

٥ - آية ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا ۖ﴾ تشمل كل أنواع النبات الثلاثة التي تنبت من الأرض: وهي ما له أكمام وهو الحب، وما لا يكون له أكمام وهو الحشيش، وهذان النوعان لا ساق لهما، والنوع الثالث: هو ما له ساق وهو الشجر، فإذا اجتمع منها شيء كثير سميت جنة^(٢).

أوصاف يوم القيامة وأماراته ونوع عذابه

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۖ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۚ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۚ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۚ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۚ لِلطَّالِفِينَ مَرَابًا ۚ لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۚ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۚ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ۚ جَزَاءُ وِفَاقًا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۚ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۚ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۚ﴾

القراءات:

﴿وَفُتِحَتِ﴾: قرئ:

١ - (وَفُتِحَتِ) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي.

٢ - (وَفُتِحَتِ) وهي قراءة الباقرين.

﴿لَيْثِينَ﴾:

(١) غرائب القرآن: ٧/٣٠

(٢) تفسير الرازي: ٩/٣١

وقرأ حمزة (لَيْثِينَ).

﴿وَعَسَاقًا﴾:

قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف (وَعَسَاقًا).

وقرأ الباقر (وَعَسَاقًا).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على البدل من ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَاصِلِ﴾. ﴿لَيْثِينَ﴾ فيها أَحْقَابًا ﴿١٣﴾ ﴿لَيْثِينَ﴾ حال مقدر، أي مقدرين اللبث، و﴿أَحْقَابًا﴾ منصوب على الظرف، وعامله ﴿لَيْثِينَ﴾. وذكر ﴿أَحْقَابًا﴾ للكثرة، لا لتجديد اللبث، كقولك: أقمت سنين وأعوامًا.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿١٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿١٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿١٦﴾ ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ جملة في موضع نصب صفة لـ ﴿لَيْثِينَ﴾، أو حال من ضمير ﴿لَيْثِينَ﴾. و﴿حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ بدل منصوب من ﴿بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾. والحميم: يطلق على الحار والبارد من البرودة، فإن كان بمعنى النوم فهو استثناء منقطع، و﴿جَزَاءً﴾ منصوب على المصدر. والخلاصة: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ ﴿١٥﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد: النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه.

﴿كَذَّابًا﴾ منصوب على المصدر لـ (كَذَبَ) وزيدت الألف في ﴿كَذَّابًا﴾ كما زيدت الهمزة في «أحسن إحسانًا، وأجمل إجمالًا».

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿كِتَابًا﴾ منصوب على المصدر، وعامله إما ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ بمعنى كتبنا، وإما فعل مقدر من لفظه دلّ عليه. ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي كتبناه كتابًا.

البلاغة:

﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ تشبيه بليغ، أي كالأبواب في التشقق والتصدع، فحذفت الأداة ووجه الشبه. ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) أمر يراد به الإهانة والتحقير، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ. ﴿بَرْدًا﴾ و ﴿حَمِيمًا﴾ بينهما طباق.

﴿أَفْوَاجًا﴾ ﴿أَبْوَابًا﴾ ﴿سَرَابًا﴾ ﴿مَتَابًا﴾ ﴿أَحْقَابًا﴾ ﴿شَرَابًا﴾ ﴿حِسَابًا﴾ سجع مرصع.

الفردات اللغوية:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ هو يوم القيامة، وسمي بذلك؛ لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق. ﴿كَانَ﴾ أي في علم الله، أو في حكمه. ﴿مِيقَاتًا﴾ وقتاً للشواب والعقاب، وحداً تنتهي عنده الدنيا. ﴿الْصُّورِ﴾ البوق الذي ينفخ فيه، فيخرج منه صوت شديد، والنافخ فيه: هو إسرافيل عليه السلام. ﴿فَنَأْتُونَ﴾ من قبوركم إلى الموقف. ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات مختلفة، جمع فوج: أي جماعة.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ شققت وصدعت. ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ذات أبواب، أو صارت من كثرة الشقوق كأنها أبواب. ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أزيلت عن أماكنها، وأصبحت في الهواء كالهباء. ﴿سَرَابًا﴾ مثل السراب، إذ ترى على صورة الجبال وليست جبلاً في الحقيقة بل غباراً. ﴿مِرْصَادًا﴾ موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار. ﴿لِلطَّغْيِينِ﴾ الكافرين، الذين طغوا بمخالفة أوامر ربهم. ﴿مَتَابًا﴾ مرجعاً ومأوى. ﴿لِنَبِيِّينَ﴾ مقيمين. ﴿أَحْقَابًا﴾ دهوراً لا نهاية لها، جمع حُقب، وواحداهما حِقْبَةٌ، وهي مدة مبهمه من الزمان.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ برودة الهواء، ويطلق أيضاً على النوم. ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ أي ما يشرب تلذذاً لتسكين العطش. ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ الحميم: الماء الحار الشديد

الغليان. ﴿وَعَسَآءًا﴾ قبح وصديد أهل النار الدائم السيلان من أجسادهم. ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي جوزوا بذلك جزاء موافقاً لأعمالهم وكفرهم، فلا ذنب أعظم من الكفر، ولا عذاب أعظم من النار. ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون أو لا يتوقعون. ﴿حِسَابًا﴾ محاسبة على أعمالهم؛ لإنكارهم البعث. ﴿بِأَيِّنَّا﴾ القرآن. ﴿كَذَّابًا﴾ تكديباً كثيراً. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي من الأعمال. ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه. ﴿كِتَابًا﴾ أي ضبطناه بالكتابة. ﴿فَذُوقُوا﴾ أي فيقال لهم في الآخرة عند وقوع العذاب عليهم: ذوقوا جزاءكم. ﴿فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فوق عذابكم.

المناسبة:

بعد إثبات قدرة الله تعالى على تخریب الدنيا، وإيجاد عالم آخر، بإثبات إمكان الحشر وعموم القدرة والعلم، أخبر تعالى عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معلوم لا يزداد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل، ثم ذكر علامات ذلك اليوم من نفخ الصور، وتصدع السماء، وتسير الجبال عن أماكنها وصيرورتها هباء كالهواء، ثم أوضح أن جهنم مرصد للطغاة وهم الكافرون المكذبون بآيات الله، الذين أحصى الله عليهم كل شيء من أعمالهم، وسيلقون جزاء ما صنعوا.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ أي إن يوم القيامة وقت ومجمع وميعاد للأولين والآخرين، ينالون فيه ما وعدوا به من الثواب والعقاب. وسمي يوم الفصل؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بحكمه بين خلقه.

ثم ذكر الله تعالى علامات ثلاثاً لهذا اليوم، فقال:

١ - ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي إن يوم الفصل هو اليوم

الذي ينفخ فيه إسرافيل بالبوق أو القرن، فتأتون أيها الخلائق من قبوركم إلى موضع العرض زمراً زمراً، وجماعات جماعات، تأتي فيه كل أمة مع رسولها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١/١٧] .

٢ - ﴿وُفِّحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي وتصدعت السماء وشقت، فصارت ذات أبواب كثيرة وطرقاً ومسالك لنزول الملائكة، ونظير الآية كثير مثل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١/٨٤] . ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١/٨٢] . ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالسَّيْفِ وَنُرِي السَّمَاءَ كَالْكَفِّ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٥] . وهذا يعني تبدل نظام الكون، وذهاب التماسك بين أجزائه.

٣ - ﴿وَشِيبَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي وأزيلت الجبال عن أماكنها، وبددت في الهواء، فكانت هباء منبثاً، يظن الناظر أنها سراب، وتبدأ أولاً بالدك كما قال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤/٦٩] ثم تصير كالعهن أو الصوف المنفوش كما قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [الفارعة: ٥/١٠١] ثم تنقطع وتبتدد وتصير كالهباء، كما قال: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ [١/٤] وَتُسَبِّ الْجِبَالُ بُسًا ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦-٤/٥٦] ثم تنسف عن الأرض بالرياح، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥/٢٠] وقوله: ﴿وَيَرَى الْجِبَالُ تَحْشَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨/٢٧] (١).

ثم ذكر الله تعالى ما يلاقيه المكذبون الضالون الأشقياء يومئذ بقوله:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَآبًا ﴿١٢﴾ لِيُثْبِتَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١٣﴾﴾ أي إن نار جهنم كانت في حكم الله وقضائه مرصدة معدّة للطغاة المتجبرين

المتكبرين وهم المردة العصاة المخالفون للرسول، ومرجعاً ومصيراً ونزلاً لهم، حالة كونهم ماكثين فيها ما دامت الدهور. والأحقاب جمع حُقُب ومفردها حِقْبَة: وهي المدة الطويلة من الزمان، إذا مضى حُقْب دخل آخر، وهكذا إلى الأبد. والمرصاد: إما اسم للمكان الذي يرصد فيه، وإما صفة بمعنى أنها ترصد أعداء الله.

والآية دليل على أن جهنم كانت مخلوقة؛ لأن قوله: ﴿مَرَصَادًا﴾ أي معدة، ومثلها الجنة أيضاً إذ لا فرق بينهما.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ (١) أي لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب برداً ينفعهم من حرها، ولا شراباً ينفعهم من عطشها إلا الحميم: وهو الماء الحار الشديد الغليان، والغساق: وهو صديد أهل النار، وهذا العذاب موافق الذنب العظيم الذي ارتكبه نوعاً ومقداراً، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار، وقد كانت أعمالهم سيئة، فجوزوا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/٤٠]. وقيل: البرد: النعاس والنوم. ويلاحظ أنه تعالى بعد أن شرح أنواع عقوبة الكفار، بين أنه جزاء حق وعدل موافق لأعمالهم.

ثم عدد الله تعالى أنواع جرائمهم، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ أي إنهم اقتروا الأعمال السيئة والقبايح المنكرة؛ لأنهم لا يطمعون في ثواب، ولا

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط (٨/٤١٤): والذي يظهر أن قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ كلام مستأنف،

وليس في موضع الحال، و ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ استثناء متصل من قوله: ﴿وَلَا شَرَابًا﴾

وأن ﴿أَحْقَابًا﴾ منصوب على الظرف، حملاً على المشهور من لغة العرب، لا منصوب على الحال.

يَخَافُونَ مِنْ حِسَابٍ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ. فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧) أَي لَا يَخَافُونَ أَوْ لَا يَتَوَقَّعُونَ حِسَابًا: عِلَّةُ التَّأْيِيدِ فِي الْعَذَابِ.

وَكَذَبُوا بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ تَكْذِيبًا شَدِيدًا. وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى فُسَادِ عَقَائِدِهِمْ، حَتَّى جَحَدُوا الْحَقَّ وَكَذَبُوا الرِّسْلَ. ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِحْصَاءِ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ بِقَوْلِهِ:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (٢٩) أَي إِنَّا عَلَّمْنَا جَمِيعَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَكَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ، وَكَتَبْنَا الْخَفِظَةَ كِتَابَةً تَامَةً شَامِلَةً، وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ. وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَابًا﴾ مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ إِحْصَاءٍ، أَوْ أَنْ «أَحْصَيْنَاهُ» فِي مَعْنَى كَتَبْنَا، لِالْتِقَاءِ الْإِحْصَاءِ وَالْكِتَابَةِ فِي مَعْنَى الضَّبْطِ وَالتَّحْصِيلِ^(١).

ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَقَالُ لَهُمْ فِي التَّعْذِيبِ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا لَهُمْ:

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) أَي يَقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ لِكُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْآيَاتِ، وَقَبْحِ أَعْمَالِهِمْ: ذُوقُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا مِنْ جَنْسِهِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لَمْ يَنْزَلْ عَلَى أَهْلِ النَّارِ آيَةٌ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) فَهَمَّ فِي مَزِيدٍ مِنَ الْعَذَابِ أَبَدًا.

فقه الحياة نو الأحكام:

أُرْشِدَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ إِلَى مَا يَأْتِي:

(١) قَالَ أَبُو حَيَّانٍ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ (٨/٤١٥): ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾: عَامٌ مَخْصُوصٌ أَي كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَهِيَ جُمْلَةٌ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضَةٌ.

١ - إن يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الخلائق وقت، ومجمع، وميعاد للأولين والآخرين، لما وعد الله من الجزاء والثواب.

٢ - تحدث في بداية يوم القيامة ظواهر خطيرة ثلاث: هي نفخ إسرافيل في الصور (القرن) فيأتي الناس من قبورهم زمراً وجماعات، وتفتش وتشتق أو تفتقر السماء، فتصير كلها كأنها أبواب، وتسير الجبال وإزالتها من أماكنها الأصلية.

٣ - أخبر الله تعالى عن حال الأشقياء، وقدم ذكرهم على السعداء؛ لأن الكلام في السورة بني على التهديد، وهو أن جهنم تكون مكاناً مرصداً للطغاة الذين طغوا في دينهم بالكفر، وفي الدنيا بالظلم، أو أنها ترصد أعداء الله وتراقبهم حتى ينزلوا فيها، وتكون المرجع الذي يرجعون فيه إليها.

٤ - كيفية استقرارهم في النار: هي أنهم يكونون ماكثين في نار جهنم إلى الأبد ما دامت الأحقاب تتوالى، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حُقب جاء حُقب، والحُقب: الدهر، والأحقاب: الدهور، والحُقب: السنة.

٥ - لا يذوق الطغاة في جهنم أو في الأحقاب برداً يخفف الحر أو نوماً، ولا شرباً يروي من العطش إلا الماء الحار والغساق: صديد أهل النار.

٦ - لا ظلم في هذا الجزاء، وإنما هو موافق لأعمالهم، فإنهم كانوا لا يخافون محاسبة على أعمالهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وكذبوا بما جاءت به الأنبياء تكذيباً شديداً. وهذا دليل على أنهم كذبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن.

وهو جزاء دقيق عادل؛ فإن الله تعالى عالم بأفعالهم علماً لا يزول ولا يتبدل، وقد أحصاها عليهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، كما أن الحفظة الملائكة الموكلين بأمر العباد كتبوا كل شيء عليهم بأمر الله

تعالى إياهم بالكتابة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [الأنفطار: ١٠/١١] وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [البُرْءُ: ١٩] دليل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات.

٧ - في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [البُرْءُ: ٣٠] أظهر الله تعالى غاية السخط بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، والتعقيب بفاء الجزاء الدال على أن العقاب سبب عن كفرهم بالحسنات، وتكذيبهم بالآيات.

وزيادة العذاب: إما لازدياد كفرهم وعتوهم حيناً بعد حين، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥/٩] وإما لأن زيادة العذاب عبارة عن استمراره نفسه؛ لأنه يتزايد بمرور الزمان. والمراد: إنا لن نخلصكم من العذاب إلى خلافة، وإن عذاب أهل النار دائم غير متناه، وإنه تعالى يزيد في عذاب الكافر أبداً.

وهذه الآية دالة على المبالغة في التعذيب من وجوه:

أحدها - قوله: ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ﴾ وكلمة (لن) للتأكيد في النفي.

وثانيها - أنه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [البُرْءُ: ٣٠] ذكرهم بالغيبة، وفي قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ ذكرهم على سبيل المشافهة، وهذا يدل على كمال الغضب، كما ذكرت.

وثالثها - أنه تعالى عدد وجوه العقاب، ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم، ثم عدد فضائحهم، ثم قال: ﴿فَذُوقُوا﴾ فكأنه تعالى أفتى، وأقام الدلائل، ثم أعاد تلك الفتوى بعينها، وذلك يدل على المبالغة في التعذيب^(١).

أحوال السعداء

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَكَأْسًا﴾:

وقرأ السوسي، وحمة وقفاً (وكأساً).

﴿كِدًّا﴾:

وقرأ الكسائي (كذاباً).

الإعراب:

﴿حَدَائِقَ﴾ بدل من ﴿مَفَازًا﴾ أو عطف بيان له. ﴿وَأَعْنَابًا﴾ عطف على ﴿مَفَازًا﴾.

﴿عَطَاءً﴾ بدل من ﴿جَزَاءً﴾ و ﴿جَزَاءً﴾ و ﴿عَطَاءً﴾ و ﴿حِسَابًا﴾ منصوبات على المصدر.

المفردات اللغوية:

﴿مَفَازًا﴾ فوزاً وظفراً، أو مكان فوز في الجنة. ﴿حَدَائِقَ﴾ بسايتين مشمرة ومشجرة. ﴿وَكوَاعِبَ﴾ جوارى في مقتبل العمر، جمع كاعب: وهي الفتاة التي تكعب واستدار ثديها. ﴿أَتْرَابًا﴾ من كن في سن واحدة كاللذات، جمع تَرَب: وهي التي ثُمائل في سنها سن صاحبها. ﴿وَكَأْسًا﴾ إناء من الزجاج للشرب فيه. ﴿دِهَاقًا﴾ ممتلئة. والمراد خيراً مألثة الأوعية. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة عند

شرب الخمر وغيرها من الأحوال. ﴿لَقَوْا﴾ باطلاً من القول أو الكلام. ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ تكذيب بعضهم لبعض، خلافاً لما يحدث في مجالس شرب الخمر في الدنيا. ﴿جَزَاءً﴾ أي جزاءهم الله بذلك جزاء، بمقتضى وعده. ﴿عَطَاءً﴾ فضلاً منه وإحساناً. ﴿حِسَابًا﴾ كافياً لهم، تقول: أعطاني فأحسبني، أي أكثر علي، حتى قلت: حسبي، أي كفاني. ومنه قول الله تعالى: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي الله كافٍ.

المفاسدة:

بعد أن ذكر الله تعالى شيئاً من أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر ما لأهل الجنة السعداء من موضع فوز وظفر، حيث زحزحوا عن النار، وأدخلوا الجنة، وأبان أن ذلك تفضل من الله وإحسان، وفي إيراد أحوال السعداء والأشقياء مجال للتأمل والمقارنة، وترغيب بالطاعة، المؤدية إلى الجنة، وترهيب من المعصية والكفر وتكذيب الرسل المؤدي إلى النار. والخلاصة: أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار، أتبعه بوعد الأخيار.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن السعداء وما أعد لهم من الكرامة والنعيم المقيم، فيقول: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۖ ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۖ ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۖ ﴿٣٤﴾﴾ أي إن للذين اتقوا ربهم بالعمل بأوامره واجتنب نواهيه فوزاً وظفراً بالمطلوب، ونجاة من النار، بالاستمتاع بالبساتين ذات الأشجار والأثمار والأعنان اللذيذة الطعم، وبالنساء الحور الكواعب ذوات الأنداء القائمة على صدورهن لم تتكسر ولم تتدلّ، المتساويات في السن، وبتناول الكؤوس المترعة المملوءة بالخمر غير المسكرة.

وعطف الأعنان على الحداثق من عطف الخاص على العام، الذي يدل

على تعظيم حال تلك الأعناب. وفسر ابن عباس ﴿مَفَازًا﴾ بقوله: متزهاً، ورجحه ابن كثير؛ لأنه تعالى قال بعده: ﴿حَدَائِقُ﴾ والحدائق: البساتين من النخيل وغيرها.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ۚ﴾ أي لا يسمعون في الجنة الباطل من الكلام، ولا يكذب بعضهم بعضاً كقوله تعالى: ﴿يَنْتَزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ۚ﴾ [الطور: ٢٣/٥٢]، وهذا دليل على نظافة البيئة وسموها الأدبي، مما ترتاح له النفوس، خلافاً لحال الدنيا حيث يسمع فيها الإنسان المؤمن ما يجرح الشعور ويؤلم النفس، فليس في الجنة كلام لاغ ساقط عار عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص.

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۚ﴾ أي جازاهم الله تعالى على إيمانهم وصالح أعمالهم، وأعطاهم ذلك عطاء تفضلاً منه وإحساناً، كافياً وافياً شاملاً كثيراً، حسبما وعدهم به من مضاعفة أجر الحسنات وتكفير السيئات.

فقه الحياة أو الأحكام:

وعد الله تعالى المتقين الذين اتقوا مخالفة أمر الله بخمسة أمور:

- ١ - الفوز والنجاة والخلاص مما فيه أهل النار.
- ٢ - التمتع بالرياض الغناء والحدائق أو البساتين المتنوعة الأشجار والأثمار، وهذا هو الأمن الغذائي.
- ٣ - الاستمتاع بالخور الكواعب اللواتي تكعبت أنداؤهن، اللذات: الأقران في السن، وهذا هو الإشباع الجنسي أو الغريزي.
- ٤ - تناول الكؤوس المترعة الملىء بالخمر غير المسكرة، كما وصفها الله

تعالى: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩/٥٦] . وهذه متعة اللهو المباح.

هـ - الأمن النفسي في الجنة، حيث لا يسمع أهلها باطلاً من الكلام، ولا تكذيب بعضهم لبعض في مجالس الشراب والمتعة؛ لأن أهل الشراب في الدنيا يسكرون ويتكلمون بالباطل، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم، ولم يتكلموا بلغو.

وبعد تعداد أنواع نعيم أهل الجنة، توجوا بالمنحة الربانية، وأخبروا بأن الله جزاهم بما تقدم جزاء منه، وأعطاهم عطاءً كثيراً كافياً وافياً.

عظمة الله ورحمته وتأكيده وقوع يوم القيامة

وتهديد الكافرين المعاندين

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٢٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مِثَابًا﴾ (٢٩) ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِّي كُنتُ تُرَابًا﴾ (٣٠)

القراءات:

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾، ﴿الرَّحْمَنُ﴾: قرئ:

١- (رب السماوات، الرحمن) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (رب السماوات، الرحمن) وهي قراءة عاصم، وابن عامر.

٣- (رب السماوات، الرحمن) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ بالجر: بدل من ﴿رَبِّكَ﴾ المتقدم، وبالرفع: على تقدير مبتدأ محذوف، تقديره: هو رب السماوات. و ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بالجر صفة ﴿رَبِّ﴾ وبالرفع: إما مبتدأ، و ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ﴾ الخبر، وذلك حسن لوجود الهاء في ﴿مِنْهُ﴾ وإما خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو الرحمن.

﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾. ﴿صَفًّا﴾ حال، أي: مصطفين.

﴿إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع على البدل من واو ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ ويجوز أن يكون في موضع نصب على الأصل في الاستثناء. والرفع على البدل أوجه.

﴿يَوْمَ يُنْظَرُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله: ﴿عَذَابًا﴾.

البلاغة:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ عطف عام على خاص؛ لأن الروح هو جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة، وأفرد بالذكر تنويهاً بقدره.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أي العباد. ﴿مِنْهُ﴾ من الله تعالى. ﴿خُطَابًا﴾ مخاطبة ومكالمة، أي لا يقدر أحد أن يخاطبه خوفاً منه. ﴿الرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام. ﴿صَفًّا﴾ مصطفين. ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي العباد، وهو تقرير وتوكيد لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ قال البيضاوي: فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم إلى الله، إذا لم يقدروا أن يتكلموا بما يكون صواباً، كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه، فكيف يملكه غيرهم؟

﴿إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الكلام. ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي وقال قولاً صائباً من المؤمنين والملائكة، كأن يشفعوا لمن ارتضى. ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه، الكائن لا محالة، وهو يوم القيامة. ﴿إِلَى رَبِّهِ﴾ إلى ثوابه. ﴿مَثَابًا﴾ مرجعاً، أي رجع إلى الله بالإيمان والطاعة، ليسلم من العذاب فيه. ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ﴾ يا كفار مكة وأمثالكم، والإنذار: التحذير من المكروه قبل وقوعه. ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ عذاب يوم القيامة الآتي، وكل آت قريب. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ حين يرى كل امرئ ما قدمه من خير أو شر، والمرء عام، يشمل الذكر والأنثى، والمؤمن والكافر. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أي فلا أعذب، يقول ذلك عندما يحشر الله البهائم للاقتصاص من بعضها لبعض، ثم ترده تراباً، فيود الكافر حالها.

للناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى وعيد الكفار ووعد المتقين، ختم الكلام بالإخبار عن عظمته وجلاله وشمول رحمته وعلى التخصيص يوم القيامة، وأردفه ببيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه، وأن الناس فيه فريقان: فريق بعيد من الله، ومصيره إلى النار، وفريق قريب من الله، وتكرمه وثوابه، ومرجعه إلى الجنة، ثم عاد إلى تهديد الكفار المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم وكفرهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله وشمول رحمته كل شيء، فيقول:

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (١٧) أي إن الجزاء الحسن والعطاء الكافي الوافي لأهل الإيمان والطاعة هو ممن اتصف بالعظمة والجلال، ورب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، والرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، والذي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، لهيبته وتعالیه، ثم أكد هذا وقرره بقوله:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨) أي إن عظمة الله تتجلى في يوم القيامة وتظهر عياناً للخلائق، حتى إن جبريل عليه السلام وجميع الملائكة المصطفين، مع رفعة أقدارهم ودرجاتهم؛ لأنهم أعظم المخلوقات قدراً ورتبة لا يتكلمون في يوم القيامة الرهيب إلا بشرطين:

أحدهما - الإذن من الله بالشفاعة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥/٢] وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١١/١٠٥] وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) [طه: ١٠٩/٢٠] .

والثاني - أن يقول صواباً: أي أن يقول حقاً وصدقاً إذا كان الإذن للشافع، وأن يكون ذلك الشخص المشفوع له ممن قال في الدنيا صواباً، أي شهد بالتوحيد بأن قال: لا إله إلا الله، إذا كان الإذن للمشفوع.

والروح: هو جبريل عليه السلام في رأي الأكثرين؛ لقوله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٨٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٤-١٩٣] . وقال ابن عباس: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً. وقال ابن مسعود: إنه ملك أعظم من السماوات والأرض.

وفي الآية دلالة على أن الملائكة وجبريل عليهم السلام أعظم المخلوقات قدراً ومكانة، وعلى عظمة يوم القيامة ورهبتة.

ثم أخبر الله تعالى بأن يوم القيامة حق لا ريب فيه، فقال:

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ (٢٩) أي إن ذلك اليوم الذي تقوم فيه الملائكة على تلك الصفة هو اليوم الثابت، الكائن الواقع المتحقق الذي لا ريب فيه، فمن أراد النجاة فيه، اتخذ إلى ثواب ربّه مرجعاً

وطريقاً يهتدي إليه، ويقربه منه، ويُذنيه من كرامته، ويباعده عن عقابه، بالإيمان الحق والعمل الصالح.

ثم عاد الله تعالى إلى تهديد الكفار وتحذيرهم وتخويفهم من ذلك اليوم، فقال:

﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۝٤٦﴾ أي إننا يا أهل مكة وأمثالكم من الكفار حذرناكم وخوفناكم عذاباً قريب الوقوع وهو يوم القيامة؛ فإنه لتأكد وقوعه صار قريباً، ولأن كل ما هو آت قريب، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّهَا لَوْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ۝٤٧﴾ [النازعات: ٤٦/٧٩]. وفي هذا اليوم القريب ينظر كل امرئ ما قدَّم من خير أو شرٍّ في حياته الأولى في الدنيا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً﴾ [آل عمران: ٣٠/٣].

ويقول الكافر من شدة ما يعانیه من أنواع الأهوال والعذاب، مثل أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط وأبي جهل: ليتني كنت تراباً، فهو يتمنى أن لم يكن إنساناً يبعث، وإنما كان تراباً، ويتمنى أن يصير تراباً كالحيوانات بعد الاقتصاص من بعضها لبعض، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما، كما ذكر ابن كثير، ومضمون تلك الأخبار: أن البهائم تحشر، فيقتص للجماء من القرناء، ثم ترد تراباً، فيود الكافر حالها ليتخلص من العذاب.

والآيتان الأخيرتان تدلان على أن الناس يكونون يوم القيامة فريقين: فريق المؤمنين المقربين من ثواب الله وكرامته ورضاه، وفريق الكافرين الجاحدين البعيدين من رحمة الله، الواقعين في صنوف العذاب.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - الله تعالى في الدنيا والآخرة صفتان عظيمتان: هما العظمة والجلال، فهو رب السماوات والأرض والكون، والرحمة الشاملة لكل شيء، فهو الرحمن الرحيم.

٢ - اقتضت عظمة الله ألا يقدر أحد على مخاطبته يوم القيامة إلا لمن أذن له بالشفاعة.

٣ - لا يتكلم جبريل والملائكة في موقف القيامة إجلالاً لربهم وخوفاً منه وخضوعاً له، فكيف يكون حال غيرهم؟

٤ - إن يوم القيامة كائن واقع حتماً لا شك فيه، فالسعيد من اتخذ فيه إلى ربه مرجعاً بالإيمان والعمل الصالح.

٥ - إن يوم القيامة وما فيه من العذاب قريب الوقوع؛ لأن كل آت قريب، وفيه يجد كل إنسان ما قدم من خير أو شر.

٦ - يتمنى الكافر يوم القيامة لما يرى من أنواع العذاب أن يكون تراباً أو حيواناً غير مكلف بشيء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية، وهي ست وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة النازعات؛ لافتتاحها بالقسم الإلهي بالنازعات، وهم الملائكة الذين يزعمون أرواح بني آدم، إما ييسر وسهولة وهم المؤمنون، وإما بعسر وشدة وهم الكفار.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجهين:

١ - تشابه الموضوع: فكلتا السورتين تتحدثان عن القيامة وأحوالها، وعن مآل المتقين، ومرجع المجرمين.

٢ - تشابه المطلع والخاتمة: فإن مطلع السورتين في الحديث عن البعث والقيامة، الأولى تؤكد وجود البعث وما فيه من أهوال وحساب وجزاء، والثانية افتتحت بالقسم على وقوع القيامة لتحقيق ما في آخر ﴿عَمَّ﴾. والأولى اختتمت بالإنذار بالعذاب القريب يوم القيامة، والثانية ختمت بالكلام عما في أولها من إثبات الحشر والبعث، وتؤكد حدوث القيامة، فكان ذلك كالل دليل والبرهان على مجيء القيامة وأحوالها.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع السورة كما أشرنا كسائر موضوعات السور المكية، التي تهتم بأصول العقيدة من التوحيد، والنبوة، والبعث.

شرعت السورة بالقسم بالملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد لإثبات البعث: ﴿وَالَّذِينَ عَرَفُوا ۖ وَالَّذِينَ نَسَّطُوا ۖ وَالَّذِينَ سَبَّحُوا ۖ﴾ [١-٥] والمقسم عليه محذوف وهو (لتبعثن) لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة، وهو: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّاغِبَةُ ۖ﴾ [٦-٧]، أو بدليل إنكارهم للبعث في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ﴾ [١٠].

ثم وصفت أحوال المشركين المنكرين البعث، فصوّرت مدى الذعر الشديد والاضطراب الذي يكونون عليه يوم القيامة، وذكرت مقاتلتهم في إنكار البعث والردّ عليهم: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ﴾ [٨-١٤].

وناسب ذلك إيراد قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية الجبار الذي ادّعى الربوبية، ثم أهلكه الله وجنوده بالغرق في البحر، للظة والعبرة، والدلالة على كمال القدرة الإلهية، بإفهامهم أن الكثرة والإعادة ليست صعبة على الله، فما هي إلا زجرة أو صيحة واحدة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ﴾ [١٥-٢٦].

ثم خاطب الله منكري البعث خطاباً يتضمن إثبات البعث بالبرهان الحسي، متحدياً طغيانهم وتمردهم على رسول الله ﷺ، ومذكراً إياهم أنهم أضعف من خلق السماوات والأرض والجبال: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ أَلَمَّا أَنْتُمْ بَنَیْنَهَا ۖ﴾ [٢٧-٣٢].

وختمت السورة ببيان أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس فيه فريقين:

سعداء وأشقياء، وسؤال المشركين عن ميقات الساعة، وتفويض أمرها إلى الله تعالى، لا إلى أحد حتى الرسول ﷺ، وتأكيد حدوثها، وذهول المشركين من شدة هولها، ومعرفتهم أن مكثهم في الدنيا كمقدار العشي أو الضحى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ [الآيات: ٣٤-٤٦].

الحلف على وقوع البعث وأحوال المشركين فيه والرد على إنكارهم إياه

﴿وَاللَّزِعَتِ غَرْقًا﴾ ① ﴿وَالنَّشِطَتِ نَشْطًا﴾ ② ﴿وَالسَّيِّحَتِ سَبْعًا﴾ ③ ﴿فَالسَّيِّقَتِ سَبَقًا﴾ ④ ﴿فَالْمُدِيرَتِ أَمْرًا﴾ ⑤ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّالِجَةُ﴾ ⑥ ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ ⑦ ﴿قُلُوبٌ يَوْمِيذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ⑧ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ ⑨ ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ⑩ ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً﴾ ⑪ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرِهَ خَاسِرَةٌ﴾ ⑫ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ⑬ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ⑭

القراءات:

﴿أَوَدَا﴾... ﴿أَوَدَا﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر، الكسائي (أثنتا... إذا).

﴿نَخْرَةً﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (ناخرة).

الإعراب:

﴿وَاللَّزِعَتِ غَرْقًا﴾ ① ﴿غَرْقًا﴾ منصوب على المصدر، وكذلك ﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْعًا﴾ و﴿سَبَقًا﴾ كلها منصوبات على المصدر.

﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا ۝﴾ ﴿أَمْرًا﴾ منصوب إما لأنه مفعول به لـ ﴿فَالْمُدْرَاتِ﴾ أو بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: والمدبرات بأمر؛ لأن التقدير ليس إلى الملائكة، وإنما هو إلى الله تعالى، فهي مرسله بما يأمرها به.

وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثن، بدليل إنكارهم للبعث في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أو الجواب: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝﴾ على تقدير حذف اللام، أي ليوم ترجف، وهذا ضعيف، أو الجواب: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝﴾ ﴿يَوْمَ﴾: إما منصوب بفعل دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝﴾ أي وجفت قلوبهم، فيكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلاً من ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝﴾ أو بتقدير: اذكر يوم ترجف، والجملة حال.

البلاغة:

﴿تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا ۝﴾ أقسم الله بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعاً بشدة وألم. ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝﴾ الملائكة التي تخرج أرواح المؤمنين برفق وسهولة. ﴿وَالسَّابِقَاتِ سَبْعًا ۝﴾ الملائكة التي تسبق من السماء، أي تنزل مسرعة بأمره تعالى. ﴿فَالْمُدْرَاتِ سَبَقًا ۝﴾ الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها. ﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا ۝﴾ تنزل بتدبير ما أمرت به.

فهذه كلها صفات الملائكة، وقيل: إنها الكواكب الجارية على نظام معين في سيرها، ﴿غَرَقًا﴾ مسرعة في جريها. ﴿نَشْطًا﴾ خارجة من برج إلى برج. ﴿سَبْعًا﴾ سائرة في أفلاكها بهدوء. ﴿سَبَقًا﴾ مسرعة قبل غيرها في سبجها.

﴿فَالْمُدْرِبَاتِ أَمْرًا﴾ تدبر أمراً نيظ بها، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات.

﴿تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تضطرب الأرض والجبال وتحرك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [الزلزال: ١٤/٧٣]. ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ تلحق بها السماء والكواكب، فتنشق وتنتثر، وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: النفخة الأولى، و﴿الرَّادِفَةُ﴾: النفخة الثانية. ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة قلقة شديدة الاضطراب، من الوجيف: وهي صفة القلوب. ﴿خَشِيعَةً﴾ ذليلة، لهول ما ترى، أي أبصار أصحابها ذليلة من الخوف. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي أصحاب القلوب والأبصار استهزاء وإنكاراً للبعث. ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي أنرد بعد الموت إلى الحياة؟ و﴿الْحَافِرَةُ﴾ الحياة الأولى، يقال: فلان رجع في حافرتة، أي طريقته التي جاء فيها، فيرجع من حيث جاء.

﴿نَجْرَةً﴾ بالية متفتنة. ﴿قَالُوا تِلْكَ﴾ أي رجعتنا إلى الحياة. ﴿إِذَا﴾ إن صحت. ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة ذات خسران يخسر أصحابها. ﴿زَجْرَةٌ﴾ صيحة وهي النفخة الثانية لبعث الأموات. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ كل الخلائق. ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد أن كانوا يبطنها أمواتاً.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠، ١٢):

أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال: لما نزل قوله: ﴿أَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قال كفار قريش: لئن حيينا بعد الموت لنخسرن، فنزلت: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

التفسير والبيان:

﴿وَاللَّزِعَتِ غَرَقًا﴾ ١ ﴿وَاللَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ ٢ ﴿وَالنَّاسِ حَتَّى سَبَعًا﴾ ٣ ﴿فَالسَّيِّفَتِ

سَبَقًا ﴿١﴾ فَلَمْ دَرَّتْ أَمْرًا ﴿٢﴾ ﴿٣﴾، أقسم الله سبحانه بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم بشدة وعنف وإغراق في النزع؛ حيث تنزعها من أقاصي الأجساد، وتخرج أرواح المؤمنين بسرعة ولطف وسهولة، وبالملائكة الذين ينزلون من السماء مسرعين، لأمر الله تعالى، والملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وتدبر الأمر بأن تنزل بالحلال والحرام وتفصيلهما، وتدبر أهل الأرض بالرياح والأمطار وغير ذلك. قيل: إن تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة: جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل. فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل: فموكل بالقطر والنبات، وأما عزرائيل: فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل: فهو ينزل بالأمر عليهم.

وقال الحسن البصري: المراد بالكلمات الخمس: النجوم والكواكب في جريها وتنقلها بين الأبراج وسيرها في أفلاكها هادئة أو مسرعة أو مدبرة أمراً بأمر الله تعالى.

وإنما قال: ﴿أَمْرًا﴾، لا أموراً؛ لأن المراد به الجنس، فيقوم مقام الجمع، وتدبير الأمر في الحقيقة لله تعالى، وإنما أضيف إلى الملائكة لإتيانها به، ولأنها من أسبابه.

وجواب القسم محذوف، أي لتبعث بعد الموت، بدليل إنكارهم البعث كما حكى الله عنهم فيما بعد بقوله: ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً﴾ ﴿١﴾ أي أنبعث بعد نحر العظام؟

وإنما عطف الثلاثة الأولى بالواو، والباقيتين بالفاء؛ لأن هاتين مسيبتان عن التي قبلها، كما قال الزمخشري.

(١) عطف بالواو ثم بالفاء؛ لأن الواو تدل على المغايرة، والمراد هنا تغاير الصفة الدالة على تغاير الذات، والفاء تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمراد هنا ترتب الأحوال على ما قبلها.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الزَّادِفَةُ ۖ﴾ أي حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [الزلزال: ١٤/٧٣] ثم تتلوها السماء، فتنشق بما فيها من الكواكب وتنتثر. وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: هي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق، وتليها النفخة الثانية التي يكون عندها البعث.

أخرج أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه، واللفظ للترمذي، قال: «إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» زاد أحمد: «فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك».

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَصْغَرُهَا خَشِيعَةٌ ۖ﴾ أي هناك قلوب تكون يوم القيامة خائفة مضطربة قلقه؛ لما عاينت من أهوال يوم القيامة، وهي قلوب الكفار، وأبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال، بسبب موتهم على غير الإسلام، وإنكارهم البعث، وهذه هي أقوالهم:

﴿يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ﴾ أي ذا كُنَّا عِظَمًا نَحْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ أي يقول مشركو قريش وأمثالهم المنكرون المعاد، المستبعدون وقوع البعث إذا قيل لهم: إنكم تبعثون: هل نرد إلى حياتنا الأولى وابتداء أمرنا قبل الموت، فنصير أحياء بعد موتنا، وبعد المصير إلى الحافرة وهي القبور؟ وهو كقولهم: ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨/١٧].

وكيف يتصور أن نرد إلى الحياة بعد تمزق أجسادنا وتفتت عظامنا، وصيرورتها عظاماً بالية ناخرة؟

إن رددنا بعد الموت وصحَّ أن بُعثنا يوم القيامة لنخسرنَّ أو لنكونن رجعة ذات خسران؛ لتكذبتنا بما أخبر به محمد، وسيصينا ما يقوله هذا النبي.

وهذا القول صادر منهم على سبيل الاستهزاء والتهكم، لاعتقادهم أن لا بعث.

ثم ردّ الله تعالى عليهم وأفحمهم قائلاً:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي لا تستبعدوا ذلك، فإنما الأمر يسير، ولا تحسبوا تلك الكثرة صعبة على الله، وما هي إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية التي يبعث الله بها الموتى من القبور، فإذا هم على وجه الأرض أحياء، وحينئذ يحاسب الخلائق. والساهرة على الصحيح هي أرض الآخرة، وهي أرض بيضاء مستوية، والمراد بها هنا: وجهها الأعلى، وسطحها الظاهر. وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ، وقيل: هي أرض بالشام.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - أقسم الله سبحانه بأنواع خمسة من الملائكة ذوي مهام متنوعة على أن القيامة حق. والقسم بها تعظيم لها وتنويه بها. ولله أن يقسم على ما يشاء في أي وقت يشاء، ولإثبات أو نفي ما يشاء؛ كالتوحيد، وأن القرآن حق والرسول حق والبعث حق.

والمقسم به من المخلوقات في القرآن الكريم أحد نوعين:

الأول - أن تكون المخلوقات معظمة عند بعض الناس، كالشمس والقمر.

الثاني - أن تكون المخلوقات مهمة مذهباً عنها في أنظار الناس، كمواقع النجوم والرياح والملائكة.

٢ - في يوم القيامة الرهيب ترجف الأرض والجبال، وتحرك وتضطرب، وتتبعها السماء، فتنشق وتنتثر، والأرض: هي الراجفة، والسماء: هي

الرادفة، وقيل: الراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية. والظاهر المعنى الأول، قال مجاهد: الرادفة حين تنشق السماء، وتُحمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة.

٣ - تكون قلوب الكفار الذين ماتوا على غير دين الإسلام خائفة وجللة، وأبصار أصحابها منكسرة ذليلة من هول ما ترى.

٤ - أثبت المشركون المكذبون منكرو البعث على أنفسهم إنكار المعاد والبعث بأقوال ثلاثة، فإذا قيل لهم: إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟

ولا نتصور أن نعود كما كنا بعد أن نصير عظاماً نخرة، أي بالية متفتتة.

وزادوا في الاستهزاء والتهكم، فقالوا: إننا إذا بعثنا فتلك رجعة خائبة، كاذبة باطلة.

٥ - ردّ الله تعالى عليهم وأفحمهم فقال: لا تحسبوا تلك الكثرة صعبة على الله، فما هي إلا صيحة واحدة، فإذا هم بالساهرة أي على وجه الأرض أو سطحها، بعد أن كانوا في بطونها. قال الثوري: الساهرة: أرض الشام.

التهديد بقصة موسى عليه السلام مع فرعون

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ۖ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّيْلِ الْكَافِي ۖ طَوًى ۚ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۚ فَقَالَ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ أَن تَزُكِّيَ ۚ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ فَتَخْشَىٰ ۚ ۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۚ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۚ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَيَّبُ ۚ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۚ ۝٢٠ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۚ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۚ﴾

القراءات:

﴿طوى﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (طوى).

﴿إِلَّا أَنْ تَزْكَى﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (إلى أَنْ تَزْكَى).

الإعراب:

﴿هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزْكَى﴾ ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور خبر مبتدأ محذوف، أي هل لك ميل أو رغبة؟ وهو استفهام معناه العرض، وهو لطف في الاستدعاء؛ لأن كل عاقل يجيب عن مثل هذا السؤال بنعم، فهو كلام محمول على (أدعو) فكانه قال: أدعو إلى التزكي: وهو التحلي بالفضائل والتطهر من الرذائل. و ﴿تَزْكَى﴾ أصله: تتزكى، فحذفت إحدى التاءين للتخفيف، ومنهم من أبدل من التاء الثانية زايًا، وأدغم التاء في الزاي، ولم يدغم الزاي في التاء؛ لأن في الزاي زيادة صوت.

﴿فَلَاخِذْهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿نَكَالَ﴾: إما مفعول لأجله، أو منصوب على أنه مصدر، فهو مصدر مؤكد، كـ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ و ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٨/٢]، كأنه نكل الله به نكال الآخرة والأولى، والنكال بمعنى التنكيل، كالسلام بمعنى التسليم، والمراد الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة.

البلاغة:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿١٥﴾ أسلوب التشويق إلى معرفة القصة.

المفردات اللغوية:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿١٥﴾ خطاب للنبي ﷺ بقصد تسليته على تكذيب قومه، وتهديدهم عليه بأن يصيبهم مثلما أصاب من هو أعظم منهم.

﴿الْقُدْسِ﴾ المبارك المطهر، و﴿يَاوَدَ الْقُدْسِ﴾ واد بأسفل جبل طور سيناء. ﴿طَوًى﴾ واد بين أيلة ومصر. ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول، أي وقال له. ﴿طَغَى﴾ تجاوز الحد في الكفر. ﴿هَلْ لَكَ﴾ أدعوك أو هل ترغب فيه؟ ﴿إِلَّا أَنْ تَزُكَّى﴾ تتحلّى بالفضائل وتتطهر من الرذائل، والمراد: هل لك ميل إلى أن تتطهر من الكفر أو الشرك والطغيان بأن تشهد أن لا إله إلا الله؟ وقرئ: ﴿تَزُكَّى﴾ بتشديد الزاي بإدغام التاء الثانية في الزاي. والتزكي في الأصل: التطهر من العيوب.

﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أرشدك إلى معرفته، أو أدلك على معرفته. ﴿فَتَخْتَفِيَ﴾ فتخاف؛ بأداء الواجبات وترك المحرمات. ﴿فَأَرْسَلْنَا آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي فذهب وبلغ، فأراه المعجزة الكبرى والعلامة الدالة على صدقه في دعوى النبوة، وهي انقلاب العصا حية، أو اليد تخرج بيضاء. ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى. ﴿وَعَصَى﴾ الله تعالى بعد ظهور الآية وتحقق أمر النبوة. ﴿أَذْبَرَ﴾ ترك موسى وأعرض عن الإيمان والطاعة. ﴿يَسْعَى﴾ في الأرض بالفساد، وفي إبطال أمر موسى ومكايده. ﴿فَحَشَرَ﴾ جمع السحرة وجُنْدَه. ﴿فَنَادَى﴾ في الجمع بنفسه أو بمناد. ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ في ولاية أمركم، لا رب فوق. ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ أهلكه بالغرق. ﴿كَأَلَّ﴾ عقوبة أو عذاب. ﴿الْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ القيامة والدنيا، أي أخذه منكلاً به في الآخرة بالإحراق في جهنم، وفي الدنيا بالإغراق. وقيل: المراد كلمته الآخرة وهي هذه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ وكلمته الأولى قبلها، وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨/٣٨] وكان بينهما أربعون سنة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَعِبْرَةً﴾ لعظة. ﴿لِّمَن يَخْشَى﴾ لمن شأنه الخشية من الله تعالى.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث،

واستهزاءهم في قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ وكان ذلك يشق على النبي محمد ﷺ، ذكر له قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، حيث تحمل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون، ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ عن تكذيب قومه وشدة عنادهم وإعراضهم عن دعوته. كما يكون ذلك تهديداً للكفار بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أقوى وأعتى وأشد شوكة وأكثر جمعاً، فإن أصرّوا على كفرهم، واستمروا في تمردهم أخذهم الله، وجعلهم نكالا وعبرة، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِّثْلَ صَبْعَةِ عَادٍ وَنَمُودَ ۚ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝﴾ [فصلت: ١٣-١٤].

التفسير والبيان:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ۖ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ﴾ أي ألم يبلغك قصة موسى عليه السلام مع فرعون، حيث ابتعثه الله إليه، وأيده بالمعجزات، حين ناداه ربه ليلاً، مكلماً إياه، مكلّفاً له بالنبوة والرسالة في الوادي المبارك المطهر وهو طوى: وهو الوادي في جبل سيناء الذي نادى الرب فيه موسى.

ولما ذكر الله بقصة موسى عليه السلام؛ لأنه أهر الأنبياء المتقدمين معجزة، ولأن فيها تسلية للنبي ﷺ عما يلاقه من إعراض قومه، ولتهديد كفار قريش بإنزال عذاب مشابه لما أنزل بفرعون وجنوده، مع أنه كان أكثر جمعاً وأشد قوة منهم.

ثم أبان الله تعالى مهمة موسى عليه السلام بقوله:

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ﴾ أي قال الله له: اذهب إلى فرعون طاغية مصر، فإنه جاوز الحد في العصيان والتكبر والكفر بالله، حيث ادّعى الربوبية، وتجبر على بني إسرائيل، واستعبد قومه.

ثم علّمه أسلوب الدعوة فقال:

﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزْكِيَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٨﴾ أي فقل لفرعون بعد وصولك إليه: هل لك رغبة في التطهر من الشرك والعيوب؟ وإني أرشدك إلى معرفة الله وتوحيده وعبادته، فتخاف عقابه، بأداء ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه. والخشية لا تكون إلا من مهتد راشد.

وإنما أمره الله بلين القول، ليكون أُنْجِع في الدعوة؛ لأن دعوة الجبارة تتطلب عادة التلطف والرفق والمداراة، لتخفيف غلوائهم، واستئزال شيء من عتوهم وتجبرهم. وقد تكرر الأمر باللين في هذه القصة في القرآن الكريم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [طه: ٢٠/٤٤].

والآية دليل على أن المقصود الأعظم من بعثة الرسل هداية الناس إلى معرفة الله، وأن معرفة الله تستفاد من الهادي.

ثم أبان الله تعالى أن موسى أظهر لفرعون معجزته، فقال:

﴿فَأَرْسَلْنَا آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ أي فأظهر له العلامة والمعجزة الكبرى الدالة على صدق نبوته، وهي انقلاب العصا حية، أو اليد، ومع ذلك كذب وخالف، كما قال تعالى:

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْحَىٰ ۝٢٢﴾ أي فكذب فرعون بموسى وبما جاء به وبالحق، وعصى الله عز وجل فلم يطمعه، وتولى وأعرض عن الإيمان، وأخذ يسعى بالفساد في الأرض، ويجتهد في مكايده موسى ومعارضة ما جاء به.

والجمع بين ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾ للدلالة على أنه كذب بالقلب واللسان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۖ ﴿٢٢﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۖ﴾ أي فجمع جنوده للتشاور، أو جمع السحرة للمعارضة، ثم نادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو أمر منادياً ينادي قائلاً: أنا الرب الأعلى، وصاحب السلطان المطلق، الذي ليس لأحد سواي ولاية أمركم، ولا رب فوقي، فكان جزاؤه الإغراق مع جنوده، كما قال تعالى:

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۚ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ۖ﴾ أي أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وانتقم منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله المتمردين في الدنيا، ونكّل به نكال الآخرة وهو عذاب النار، ونكال الأولى وهو عذاب الدنيا بالغرق، ليتعظ به من يسمع خبره، وإن فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ويتعظ وينزجر، فينظر في أحداث الماضي، وقيس بها أحوال الحاضر والمستقبل. فقوله: ﴿الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي الدنيا والآخرة، وهو الصحيح في معنى الآية كما قال ابن كثير.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وجنوده عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتعظ، فقد أرسله الله إليه، وأيده بالمعجزات، ومع هذا استمر فرعون في كفره وطغيانه، فانتقم الله منه انتقاماً شديداً، وأغرقه وجنوده في البحر الأحمر.

وفي القصة تسلية للنبي ﷺ عما يلاقيه من صدود قومه، وتحذير للكفار المتمردين والعنة المتجبرين بإنزال عقاب مماثل إن استمروا في كفرهم وعتوهم وإعراضهم عن قبول دعوة الإسلام.

فلقد كان فرعون أقوى من كفار أي عصر، فإنه تجاوز الحد في العصيان، وأبى قبول دعوة موسى إلى تطهير نفسه من الذنوب والمآثم والكفر، ولم يقبل ما أرشده إليه من طاعة ربه، ولم يصدّق بمعجزته وهي انقلاب العصا حية، أو

اليد البيضاء تشرق كالشمس، وكذب نبوته وعصى ربه عز وجل، وولى مدبره معرضاً عن الإيمان، ساعياً في الأرض بالفساد، وقال لقومه بصوت عال: أنا ربكم الأعلى، أي لا رب لكم فوقي.

ولكنه مع كل هذا لم يعجز الله القوي القادر القاهر، فأهلكه الله في الدنيا مع جنوده بالغرق، وسيعذبه في الآخرة بنار جهنم.

إن في هذه القصة، وما أحل الله بفرعون من الحزى، وتحقيق العلو والنصر لموسى عليه السلام، لاعتباراً وعظة لمن يخاف الله عز وجل، ففيها بيان العقاب العادل وأسبابه ومسوغاته، وبها يتبين لكل عاقل ضرورة أن يدع التمرد على الله تعالى، والتكذيب لأنبيائه، خوفاً من أن ينزل به ما نزل بفرعون وجنوده. كما عليه أن يعلم بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله.

فمن ارتكب ما يوجب العقاب من مثل ذلك قولاً وفعلًا، اشترك في العقاب نفسه في الدنيا والآخرة.

إثبات البعث بخلق السماوات والأرض والجبال

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۖ (٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ۖ (٨) وَأَغَطَّشَ لَهَا وَخَرَجَ صُعْنَهَا ۖ (٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۖ (١٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ (١١) وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ۖ (١٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۖ (١٣)﴾

الإعراب:

﴿بَنَاهَا﴾ الجملة صفة للسما.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ الجملة حال بإضممار (قد) أي مخرجاً.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ مفعول لأجله، لفعل مقدر، أي فعل ذلك متعة، أو منصوب على المصدر، أي تمتيعاً.

البلاغة:

﴿أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا، رَفَعَ سَكَنَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾ (٢٨) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠)
 أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾ بينهما مقابلة.
 ﴿السَّمَاءَ﴾ و﴿وَالْأَرْضَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ (٣١) استعارة تصريحية في كلمة ﴿وَمَرْعَهَا﴾ أي نباتها، شبه أكل الناس برعي الأنعام، واستعير الرعي للإنسان، بجامع الأكل، فإطلاق المرعى على ما يأكله الناس استعارة.

﴿ضُحَّتْهَا﴾، ﴿دَحَاهَا﴾، ﴿وَمَرْعَهَا﴾، ﴿أَرْسَنَهَا﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً. ﴿أَرِ السَّمَاءَ﴾ أشد خلقاً. ﴿بَنَاهَا﴾ بيان لكيفية خلقها، والمسؤول بحيب، ولا بد أن يكون الجواب: السماء، لما يرى من ديمومة بقائها وعدم تأثرها. ﴿رَفَعَ سَكَنَهَا﴾ تفسير لكيفية البناء، والسكك أو السميت: مقدار الارتفاع من الأسفل إلى الأعلى، والمعنى: جعل الله مقدار ارتفاعها من الأرض وسماكتها باتجاه العلو رفيعاً ثخيناً. ﴿فَسَوَّيْنَهَا﴾ جعلها مستوية الخلق معدلة محكمة بلا عيب، بحيث جعل كل جزء في موضعه.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَّتَهَا﴾ أبرز نور شمسها، والمراد بالضحي: النهار، كقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَّتْهَا﴾ (١) [الشمس: ١/٩١]، أي النهار. ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها ومهّدها للإنسان، وجعلها كالبيضة ليست تامة الكروية، كما هو معروف، فهي مفلطحة من جانبيها. ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي أخرج مخرجاً منها. ﴿مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون. ﴿وَمَرْعَهَا﴾ نباتها، وهو يشمل ما ترعاه الأنعام من الشجر والعشب، وما يأكله الناس من الأقوات والثمار. ﴿مَتَّعَا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي

متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم، أو تمتعاً لكم ولمواشيكم، والأنعام: جمع نعم: وهي الإبل والبقر والغنم.

المناسبة:

بعد بيان قصة موسى وفرعون، عاد إلى مخاطبة منكري البعث محتجاً عليهم ببدء الخلق على إعادته، فإنه تعالى خلق السماوات البديعة، والأرض الوسيعة المعدة للاستقرار والحياة عليها بإعداد وسائل المعيشة فيها، وخلق الجبال الرواسي لإرساء الأرض وتثبيتها.

التفسير والبيان:

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٧٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٧٨﴾﴾ أي هل أنتم أيها الناس أصعب خلقاً بعد الموت، وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم من خلق السماء؟ لا شك بأن السماء أشد خلقاً، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٤٠/٥٧] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١/٣٦]. فمن قدر على خلق السماء ذات الأجرام العظيمة التي يتحدث عنها علماء الفلك والفضاء بدهشة، وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو واضح، كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة؟!

ثم بين الله تعالى صفة خلق السماوات، وأنه بناها بضم أجزائها بعضها إلى بعض، مع ربطها بما يحسكها حتى صارت بناء واحداً، ورفع ثخانتها في الجو، وجعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض بدون أعمدة، وجعلها عالية البناء، مستوية الخلق، معدلة الشكل، لا تفاوت فيها ولا اعوجاج، ولا فطور ولا شقوق، بأن أبدع في خلق الكواكب العديدة التي تفوق الملايين، وجعل لكل كوكب حجماً معيناً، ومداراً يسير فيه دون تصادم مع غيره، حتى صار من مجموعها ما يسمى بالسماء، وما يشبه البناء.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي جعل ليل السماء مظلماً، وأبرز وأنار نهارها المضيء بإضاءة الشمس، وجعل تعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول مناخاً صالحاً للعيش والسكنى.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بسط الأرض ومهداها وجعلها مفلطحة كالبيضة بعد خلق السماء، إلا أنها كانت مخلوقة غير مدحوة قبل خلق السماء، ثم دحيت بعد خلق السماء، كما جاء في سورة السجدة (فصلت): ﴿قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [٩-١١] فهذه الآية دليل على أن خلق السماوات كان بعد خلق الأرض، إلا أن دحو الأرض وتمهيدها كان بعد خلق السماوات^(١).

ثم أوضح ما تمَّ في أثنى الله الدحو من إعداد وسائل الحياة والعيش، فقال:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿مَتَلَأَ لَكُمْ أَنْعَامَكُمْ﴾ أي فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون والينابيع، وأنبت فيها النبات لبني آدم قوتاً كالحبوب والثمار، ولللأنعام مرعى كالأعشاب والحشائش، وجعل الجبال كالأوتاد للأرض لئلا تميد بأهلها، وقررها وثبتها في أماكنها.

وجعل تعالى كل ذلك منفعة وفائدة أو تمتعاً لكم أيها الناس، ولأنعامكم أكلاً وركوباً، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٤٦٨

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٦﴾ [النحل: ١٦/١٠].

فقه الحياة أو الاحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - أثبت الله تعالى لمنكري البعث قدرته على إعادة الخلق والمعاد، بقدرته على بدء الخلق، وقدرته على خلق السماوات العظيمة، المحكمة البناء، والتي جعل فيها الليل والنهار، وخلق الأرض التي دحأها وبسطها ومهداها بعد خلق السماوات، وفجر منها الأنهار والينابيع، وأرسى الجبال في أماكنها، كل ذلك لتحقيق المنفعة للإنسان ودوابه التي يأكل منها ويركب عليها. ومعنى الكلام التفريع والتوبيخ.

فمن قدر على خلق السماء قدر على الإعادة، وإذا كان الله قادراً على إنشاء العالم الأكبر، يكون على خلق العالم الأصغر، بل على إعادته أقدر.

٢ - نبه الله تعالى بهذا الدليل على أمر معلوم بالمشاهدة، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ في القدرة.

٣ - أشار الله تعالى إلى كيفية خلق السماء بقوله: ﴿بَنَّهَا﴾ وفيه تصوير للأمر المعقول، وهو الإبداع والاختراع، بالأمر المحسوس وهو البناء.

ثم ذكر هيئة البناء بقوله: ﴿رَفَعَ سَتُكَهَا﴾ وهو الامتداد القائم من السفلى إلى العلو، وعكسه يسمى عمقاً.

٤ - دلّ قوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ على أن الأرض كروية، كما دلّ قوله: ﴿دَحَّيْنَاهَا﴾ على أن كروية الأرض ليست تامة، بل هي مفلطحة كاليضة. ودحو الأرض لا يتنافى تقدم خلق الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴿البقرة: ٢٧/٢﴾ .

ة - إنما نسب الله تعالى الليل والنهار إلى السماء؛ لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، وهذان إنما يحصلان بسبب حركة الفلك.

٦ - وصف الله تعالى كيفية خلق الأرض بعد وصف كيفية خلق السماء، وذكر صفات ثلاثاً: هي دحو الأرض، أي بسطها وتمهيدها الذي حصل بعد خلق السماء، وإخراج الماء والمرعى من الأرض، والمرعى: يشمل جميع ما يأكله الناس والأنعام، وإرساء الجبال وتثبيتها في أماكنها. قال القُتبي: دلَّ الماء والمرعى على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح؛ لأن النار من العيدان، والملح من الماء.

٧ - امتن الله تعالى على خلقه بأنه إنما خلق هذه الأشياء في السماء والأرض متعة ومنفعة لهم ولأنعامهم، أو تمتيعاً لهم ولأنعامهم.

٨ - دلَّ مجموع الآيات هنا، وفي سورة السجدة (فصلت) وسورة البقرة وغيرها، على أن الله تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء ثانياً، ثم دحا الأرض بعد ذلك ثالثاً؛ لأنها كانت أولاً كالكرة المجمعة، ثم إن الله تعالى مدّها وبسطها.

جزاء فريقى الناس فى الآخرة وتفويض علم الساعة لله تعالى وقصر مدة الدنيا

﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْ يَوْمَ يَوْمِهَا لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشِيَّةً أَوْ صُحْرَا ﴿٤٦﴾

القراءات:

﴿الْمَأْوَى﴾:

وقرأ السوسي، وحزة وفقاً (المأوى).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٣٥) ﴿يَوْمَ﴾: بدل من قوله: ﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤) وما: موصولة أو مصدرية.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ (٣٧) الفاء في ﴿فَأَمَّا﴾: جواب إذا في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤)؟ وهي المأوى له؛ لأنه لا بد من ضمير يعود من الجملة إلى المبتدأ. وذهب الكوفيون إلى أن الألف واللام عوض عن الضمير العائد، والتقدير فيه: مأواه. ويصح أن يكون جواب ﴿إِذَا جَاءَتِ﴾ محذوفاً، دل عليه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ أو ما بعده من التفصيل.

﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ هي إما ضمير فصل أو مبتدأ.

البلاغة:

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ (٣٧) ﴿وَوَآثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٣٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٤١) ﴿بينهما مقابلة.

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّنَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ (٤١) تشبيه مرسل مجمل.
﴿عَشِيَّةً﴾ و ﴿ضُحًى﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ الداهية العظمى وهي القيامة، التي تعلو على سائر الدواهي، والتي هي أكبر الطامات، أو النفخة الثانية التي يكون معها البعث، أو ساعة سوق أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٣٥) بأن يراه مدوناً في صحيفته، وكان قد نسيه من فرط الغفلة أو طول المدة، والمراد: كل ما عمل في الدنيا من خير أو شر. ﴿وَبُرِزَتْ﴾ أظهرت. ﴿الْجَحِيمُ﴾ النار المحرقة. ﴿لَنْ يَرَىٰ﴾ لكل راء، بحيث لا تخفى على أحد.

﴿طَغَىٰ﴾ تكبر وتجاوز الحد، حتى كفر. ﴿وَوَآثَرُ﴾ قَدَّمَ وفضل. ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ باتباع الشهوات، ولم يستعد للأخرة بالعبادة وتهذيب النفس. ﴿الْمَأْوَىٰ﴾ المستقر، أي مأواه، واللام فيه سادة مسددة الإضافة، للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغى. ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد، أو جلاله وعظمته. ﴿وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ زجرها وكفها عن هواها المردى باتباع الشهوات. ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١) ليس له سواها مأوى. والحاصل أن العاصي في النار والمطيع في الجنة.

﴿يَسْتَلُونَكَ﴾ أي كفار مكة. ﴿أَيَّانَ مُرْسِنَهَا﴾ متى إرساؤها أي وقوعها وقيامها. ﴿فِيمَ﴾ أي في أي شيء. ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرُنَا﴾ أي ما أنت من ذكراها

لهم، والمراد: ليس عندك علمها حتى تذكرها. ﴿مُنْهَئِهَا﴾ متهى علمها، لا يعلمه غيره. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ إنما ينفع إنذارك. ﴿مَنْ يَحْشُلْهَا﴾ يحافها، أي إنما بعثت لإنذار من يحاف هولها، وهو لا يناسب تعيين الوقت. وأما تخصيص (من يحشى) فلأنه المتفع بالإنذار. ﴿لَوْ بَلَّغُوا﴾ في الدنيا أو في القبور. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ أي عشية يوم أو ضحاه، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الاحقاف: ٢٥/٤٦]، إنما أضاف الضحى إلى العشية؛ لأنهما من يوم واحد.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٢):

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢): أخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة، حتى أنزل عليه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْهَئِهَا (٤٤).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة؟ استهزاء منهم، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) إلى آخر السورة.

وأخرج الطبراني وابن جرير عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْهَئِهَا (٤٤). وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة مثله^(١).

المناسبة:

بعد بيان أدلة القدرة الإلهية على البعث والحشر والنشر، من خلق السماء والأرض، وإثبات إمكان الحشر عقلاً، أخبر الله تعالى بعد ذلك عن وقوعه

(١) أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين.

فعلاً، وما يصحبه من أهوال، وما يترتب عليه من انقسام الناس إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وبعد بيان البرهان العقلي على إمكان القيامة، والإخبار عن وقوعها، وذكر أحوالها العامة وأحوال الأشقياء والسعداء فيها، أجاب الله تعالى عن تساؤل المشركين استهزاء وعناداً عن وقت حدوثها، وأوضح أن علمها مفوض إلى الله تعالى، وأن النبي ﷺ مبعوث للإنذار فقط، وأن ما أنكروه سيرونه، حتى كأنهم أبداً فيه، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، ثم مضت.

التفسير والبيان:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ آلَ كَثْرَى ۖ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۚ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۚ﴾ أي إذا حان وقت مجيء الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات، وهي يوم القيامة، أو النفخة الثانية التي يكون معها البعث، أو تسليم أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، وينسى الإنسان كل شيء قبلها في جنبها، فَصَّلَ اللهُ تعالى بين الخلائق، فمنهم شقي وسعيد، فجواب (إذا) محذوف وهو: فصل الله..

ولذلك اليوم صفتان: إنه حين يتذكر الإنسان جميع ما عمله من خير أو شر؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف عمله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرُ﴾ [الفجر: ٢٣/٨٩] وقال سبحانه: ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسُوءٌ﴾ [المجادلة: ٦/٥٨]. وفيه تظهر نار جهنم المحرقة إظهاراً لا يخفى على أحد. سواء أكان مؤمناً أم كافراً، كما قال تعالى: ﴿وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۚ﴾ [الشعراء: ٩١/٢٦]. قال مقاتل: «يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق» فأما المؤمن: فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها، وأما الكافر: فيزداد غماً إلى غمه، وحسرة إلى حسرته.

ثم فصل الله تعالى ما يحكم به بين الخلائق، فقال:

- ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾﴾ (١)
أي فأما من تكبر وتمرد، وتجاوز الحد في الكفر والمعاصي، وقدم الحياة الدنيا على أمر الدين والآخرة، ولم يستعد لها، ولا عمل عملها، فالنار المحرقة هي مأواه ومثواه ومستقره؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. قيل: نزلت الآية في النضر وابنه الحارث، وهي عامة في كل كافر أثر الحياة الدنيا على الآخرة.

- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ (٢)
أي وأما من خاف القيام بين يدي الله عز وجل وخاف حكم الله فيه يوم القيامة، وأدرك عظمة الله وجلاله، ونهى نفسه عن هواها، وزجرها عن المعاصي والمحارم التي تشتهيها، وردها إلى طاعة مولاه، فالجنة مكانه الذي يأوي إليه، ومستقره ومقامه، لا غيرها. والآية نزلت في مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير، وهي عامة في كل مؤمن خاف الله، ولم يتبع هواه.

وهذان الوصفان مضادان للوصفين اللذين وصف الله بهما أهل النار، فقلوه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ ضد قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾﴾ وقوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ضد قوله: ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾.

والخوف من الله لا بد وأن يكون مسبوقاً بالعلم بالله، على ما قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨/٣٥]. ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى، لذا قدمه على قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢).

ثم ذكر الله تعالى تساؤل المشركين على سبيل الاستهزاء عن ميعاد القيامة، فقال:

(١) اللام: للعهد الذهني، أي مأواه اللائق به، ولهذا استغنى عن العائد، ولا حاجة إلى تكلف أن الألف واللام يدل من الإضافة.

(٢) تفسير الرازي: ٥١/٣١

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٦) أي يسألك أيها النبي المشركون المكذَّبون بالبعث عن وقت إرساء القيامة وميعاد وقوعها، متى يقيمها الله ويوجدُها، أو ما منتهاها ومستقرها كرسو السفينة؟ وذلك حين كانوا يسمعون النبي ﷺ يذكر القيامة بأوصافها الهائلة، مثل الطامة والصاخة والآفة والحاقة والقارعة، فقالوا على سبيل الاستهزاء: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي زمان إرسائها.

عن عائشة رضي الله عنها - كما تقدم - : لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة ويسأل عنها، حتى نزلت، فلما نزلت هذه الآية انتهى. وقال ابن عباس: سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة، استهزاء؟ فأنزل الله عز وجل الآية.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) ﴿إِلَّا رَبُّكَ مُنْهَهَا﴾ (٤٤) أي: في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها؟ أو في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها؟، أي لست من ذلك في شيء^(١). وهذا تعجب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها، حرصاً على جوابهم. والمعنى ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها ومنتهاى علمها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ولا يوجد علمها عند غيره، فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها؟ وهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتساءل عنها.

ونظير الآية: ﴿نُفِثَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَذَلِكَ حَقِّي عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧/٧] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤/٣١]. ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله

ﷺ عن وقت الساعة قال فيما أخرجه مسلم عن عمر: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ (٤٥) أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، وما أنت إلا مخوف لمن يخشى قيام الساعة، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح ونجا، ومن كذب بالساعة وخالفك، خسر وخاب، فدع علم ما لم تكلف به، واعمل بما أمرت به من إنذار. وخص الإنذار بأهل الخشية؛ لأنهم المتفعون بذلك.

﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ (٤٦) أي إن هذا اليوم الذي يسألون عنه واقع حتماً، وكأنهم فيه، فإنهم إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر، ورأوا الساعة (القيامة) استقصروا مدة الحياة الدنيا، ورأوا كأنها ساعة من نهار، أو عشيّة من يوم أو ضحى من يوم. والمراد تقليل مدة الدنيا في نفوسهم إذا رأوا أهوال القيامة. وقال ابن عباس: كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوماً واحداً. وقيل: لم يلبثوا في قبورهم إلا عشيّة أو ضحاها، وذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في القبور لما عاينوا من الهول.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - ليس هناك تصوير أوقع لحال تفاعل النفس وانفعالها بمشهد خطير، مثل هذا التصوير لعلاقة النفس الإنسانية بقيام القيامة.

فإنه إذا وقعت الواقعة، وأتت الداهية العظمى، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث، كما قال ابن عباس، تذكّر الإنسان ما عمل من خير أو شر، وشاهد الجحيم النار المحرقة التي تبرز عياناً لكل إنسان مؤمن أو كافر. قال ابن عباس: «يكشف عنها، فيراها تلظى كل ذي بصر» يراها الكافر بما

فيها من أصناف العذاب، ويراهما المؤمن ليعرف قدر النعمة التي أنعم الله بها عليه، ويشاهد الكافر الذي يَصْلِي النار.

٢ - الناس يوم القيامة والبعث فريقان: السعداء والأشقياء. فأما من عتا وتمرد، وتكبر وتجاوز الحد في الكفر والعصيان، وقدّم الحياة الدنيا على الآخرة، فمأواه ومستقره النار.

وأما من حذر مقامه بين يدي ربه، وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم، فمأواه ومستقره الجنة. قال سهل: ترك الهوى مفتاح الجنة؛ لقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٦١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴿٦٢﴾﴾.

٣ - أدّى تساؤل المشركين عن وقت قيام الساعة استهزاء إلى كثرة سؤال النبي ﷺ عن ذلك، حرصاً على جوابهم. ولكن الله جلّت حكمته اختص بعلم الساعة، ولم يطلع أحداً عليها؛ لأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلاً، فلا حاجة إلى الاستفهام عن وقتها بعد العلم باقترابها، فإن هذا القدر من العلم يكفي في وجوب الاستعداد لها، بل لا يتم الغرض من التكليف إلا بإخفاء وقتها كالموت.

٤ - حجب الله نبيه عن السؤال عن الساعة، وأعلمه بأن علمها إلى الله وحده، ووجهه للعناية والقيام بمهمته الأصلية: وهي الإنذار والتخويف لمن يخشى مقام الله؛ لأنهم المتفعون به، وإن كان مندرأ لكل مكلف، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١/٣٦].

٥ - كل ما هو في حكم الواقع واقع حتماً، فكأن الكفار والمشركين الذين يتساءلون عن القيامة استهزاء وتهكماً واقعون فيها، قائلون في ساحاتها، وهم حين يرونها وما فيها من أهوال تشيب لها الولدان، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، ويقدرّون أنها قدر عشية من ليل أو ضحى من نهار يتبع تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ عَبَسَ

مكية، وهي اثنتان وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة (عبس) لافتتاحها بهذا الوصف البشري المعتاد الذي تقتضيه الجبلة الإنسانية، ويغلب على الإنسان حينما يكون مشغولاً بأمر مهم، ثم يطرأ عليه أمر آخر يصرفه عن الأمر السابق، ومع ذلك عوتب النبي ﷺ على عبوسه تسامياً لقدره، وارتفاعاً بمنزلته النبوية.

مناسبتها لما قبلها:

لهذه السورة تعلق بما قبلها وهي النزاعات؛ لأنه تعالى ذكر هناك أن النبي ﷺ منذر من يخشى الساعة، وهنا ذكر من ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام ويدعوهم إليه، وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة. كما أن بينهما تشابهاً في موضوع الحديث عن يوم القيامة وأحوالها، وإثبات البعث بمخلوقات الله في الإنسان والكون، فهناك وصفت القيامة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ (٢٤) وهنا وصفت بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّافَّةُ﴾ (٢٢) وهما من أسماء يوم القيامة.

وهناك أثبت الله البعث بخلق السماء والأرض والجبال، وهنا أثبت بخلق الإنسان والنبات والطعام.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع السورة كسائر موضوعات السور المكية التي تعنى بالعقيدة والرسالة والأخلاق التي قوامها في الإسلام المساواة بين الناس، دون تفرقة بين غني وفقير.

ابتدأت السورة بذكر قصة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم ابن خال خديجة بنت خويلد الذي قدم إلى الرسول ﷺ للتعلم، في وقت كان فيه مشغولاً مع جماعة من صناديد قريش يدعوه إلى الإيمان، فعبس النبي ﷺ في وجهه وأعرض عنه، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [الآيات ١-١٦] وأبانت أن القرآن ذكرى وموعظة لمن عقل وتدبر.

ثم نددت بمجحود الإنسان وكفره بنعم ربه وإعراضه عن هداية الله: ﴿قُلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ﴾ [الآيات ١٧-٢٣].

وأردفت ذلك بإقامة الأدلة على قدرة الله ووحدانيته بخلق الإنسان والنبات وتيسير طعام ابن آدم وشرابه، لإثبات القدرة على البعث: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [الآيات ٢٤-٣٢].

وختمت السورة بوصف أهوال يوم القيامة، وفرار الإنسان من أقرب الناس إليه، وبيان حال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء في هذا اليوم: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ [الآيات ٣٣-٤٢].

سبب نزول السورة:

نزلت هذه السورة في شأن عبد الله بن أم مكتوم ابن خال خديجة رضي الله

عنها. ويقال: عمرو بن قيس بن زائدة، وهذا أشهر وأكثر كما في جامع الأصول، واسم أم مكتوم: عاتكة بنت عامر بن مخزوم.

وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ، وعنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمّية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلم شغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويقول له: «هل لك من حاجة؟». واستخلفه على المدينة والياً مرتين في غزوتين غزاهما^(١).

قال أنس: فرأيت يوم القادسية ركباً، وعليه درع، ومعه راية سوداء. ويروى: أنه ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير قط، ولا تصدّى لغني.

وعلق القرطبي على أسماء الصناديد المذكورين بقوله: وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمّية بن خلف والوليد كانا بمكة، وابن أم مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمّية المدينة، ولا حضر عنده مفرداً، ولا مع أحد^(٢).

ثم علق أبو حيان على ذلك بقوله: والغلط من القرطبي، كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معهما، وهو وهم منه، وكلهم من قريش، وكان ابن أم مكتوم منها، والسورة كلها مكية بالإجماع، وابن أم مكتوم كان أولاً بمكة، ثم هاجر

(١) تفسير القرطبي: ١٢١/١٩، غرائب القرآن: ٢٧/٣٠، تفسير الرازي: ٥٤/٣١.

(٢) تفسير القرطبي، المكان السابق.

إلى المدينة، وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية، وابن أم مكتوم: هو عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي القرشي، وأم مكتوم أم أبيه عاتكة، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها^(١).

المساواة في الإسلام

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزَكَّى ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ ۚ (٤) فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٥) أَمَّا مِنْ أَسْتَفَى ۚ (٦) فَانْتَ لَمْ تَصْدَى ۚ (٧) وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْزَى ۚ (٨) وَأَمَّا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٩) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (١٠) فَانْتَ عَنْهُ لَهَا ۚ (١١)﴾

القراءات:

﴿فَتَنفَعَهُ﴾:

قرأ عاصم (فتنفعه) وقرأ الباقون (فتنفعه).

﴿تَصْدَى﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (تَصْدَى).

الإعراب:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢)﴾: في موضع نصب؛ لأنه مفعول لأجله، وتقديره: لأن جاءه، فحذف اللام فاتصل الفعل به. ومنهم من جعله في موضع جر، بإعمال حرف الجر مع الحذف، لكثرة حذفها معها، وهي وحرف الجر في موضع نصب بالفعل قبلها.

﴿فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَ﴾ ﴿فَنَنْفَعُهُ﴾: بالنصب على جواب الترجي: (لعل) بالفاء بتقدير (أن). وبالرفع بالعطف على ﴿يَذْكُرُ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ﴿يَسْعَى﴾: حال من فاعل: جاء. ﴿وَهُوَ يَحْشَى﴾ ﴿يَحْشَى﴾: حال من فاعل: يسعى، وهو الأعمى.

البلاغة:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١﴾ ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلُّهُ يَرْكَ﴾ ﴿٢﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب دلالة على مزيد الإنكار، وزيادة في العتاب، وتنبهاً للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى، كمن يشكو جانباً بطريق الغيبة، وهو حاضر، ثم يقبل على الجاني مواجهاً بالتوبيخ. وفي ذكر الأعمى إنكار أيضاً؛ لأن العمى يوجب العطف والرفقة عند ذوي الآداب غالباً، لا التولي والعبوس.

﴿يَذْكُرُ﴾ و ﴿الذِّكْرَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلُّهُ يَرْكَ ﴿٣﴾ سجع مرصع.

﴿تَصَدَّى﴾ ﴿لَلْعَنَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿عَبَسَ﴾ قَطَّبَ وجهه. ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض. ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ﴿١﴾ لأجل أن جاءه عبد الله بن أم مكتوم، فقطعه عما هو مشغول به من محاولة هداية أشراف قريش إلى الإسلام. وقد أطبق المفسرون على أن الذي عبس هو الرسول ﷺ، والأعمى: هو ابن أم مكتوم، واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الزهري. وقد عاتب الله نبيه على عبوسه في وجه الأعمى، حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُّفَّة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني،

وأن النظر إلى المؤمن أولى وأصلح، وإن كان فقيراً، من النظر إلى غيره، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان فيه نوع من المصلحة أيضاً^(١).

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أي شيء يعلمك ويعرفك حال هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّكَ بَرْئٌ﴾ يتطهر من الذنوب بما يسمع منك وبما يتعرف عليه من الشرائع، وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره. ﴿أَوْ يَذْكُرُ﴾ يتعظ، أصله يتذكر، فأدغم التاء في الذال. ﴿فَنَنْفَعُهُ الْذِّكْرُ﴾ العظة المسموعة منك.

﴿أَسْتَعِثُّ﴾ بالمال والجاه والقوة عن سماع القرآن. ﴿تَصَدَّقْ﴾ تُقْبِلُ وتعرض، وقرئ: (تَصَدَّقْ) وأصله: تتصدى، فأدغم التاء الثانية بالصاد. ﴿أَلَا يَرْكُ﴾ يتطهر ويؤمن، أي ليس عليك بأس في ألا يتزكى بالإسلام، حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم، إن عليك إلا البلاغ. ﴿وَهُوَ يَحْتَشِئُ﴾ أي يخاف الله، وهو الأعمى. ﴿لَلَّعْنُ﴾ تتشاغل، وأصله تتلهى، فحذفت التاء الأخرى.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿عَبَسَ﴾: أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، فيقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس.

التفسير والبيان:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ﴾ أي قطب النبي ﷺ وجهه، وأعرض، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه، وهو عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه، فأعرض عنه، فنزلت. وعُذِر ابن أم مكتوم أنه لم يدر بتشغل النبي ﷺ.

﴿وَمَا يَذْكُرُ لَعَلَّ يَرَىٰ ۚ (٢) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَىٰ ۚ﴾ أي وما يعلمك ويعرفك يا محمد لعل الأعمى يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ، فتنتفعه الموعظة.

وفي هذا إيماء إلى أن غير الأعمى ممن تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى منهم الهداية. وفيه تعظيم من الله سبحانه لابن أم مكتوم. وكان هذا التصرف من النبي ﷺ بمثابة ترك الاحتياط وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنباً ألبته، ولا مصادماً لمبدأ عصمة الأنبياء، لصدور الفعل عن أمر تابع للجبلة الإنسانية كالرضا والغضب والضحك والبكاء، والتي رفع عنها التكليف في شريعة الإسلام.

وبعد هذا الوصف المؤذن بالعتاب جاء العتاب صريحاً في قوله تعالى:

أ - ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۖ (٥) فَأَن تَلَمْ تَصَدَّىٰ ۙ﴾ أي أما من استغنى بماله وثروته وقوته عما لديك من معارف القرآن والهداية الإلهية، وعن الإيمان والعلم، فأنت تقبل عليه بوجهك وحديثك، وهو يظهر الاستغناء عنك والإعراض عما جئت به.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَىٰ ۖ (٧)﴾ أي لا بأس ولا شيء عليك في ألا يسلم ولا يهتدي، ولا يتطهر من الذنوب، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان مثل هؤلاء من الكفار.

٢ - ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ ۖ (٩) فَأَن عَنَّا لَلَّهَ ۖ﴾ أي وأما

من أتى إليك مسرعاً في طلب الهداية والإرشاد إلى الخير، والعظة بمواعظ الله، وهو يخاف الله تعالى، فأنت تتشاغل عنه وتعرض وتتغافل.

لذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والغني والفقير، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم يهدي الله تعالى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - الآية عتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ في إعراضه وتولييه عن عبد الله بن أم مكتوم، حتى لا تنكسر قلوب الفقراء، وليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني.

٢ - بالرغم من أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر؛ لأنه أبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يُعَلِّمه، فكان في هذا نوع جفاء منه، بالرغم من هذا عاتب الله تعالى نبيه ﷺ؛ لأن الأهم مقدم على المهم. ويستحق التأديب أيضاً؛ لأنه كان قد أسلم وتعلم ما كان يحتاج إليه من أمر الدين. أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا، وإسلامهم سبب لإسلام جمع عظيم.

٣ - عُذِر ابن أم مكتوم: أنه لم يكن عالماً بأن النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم.

٤ - الآية دليل واضح على وجوب المساواة في الإسلام في شأن الإنذار وتبليغ الدعوة دون تمييز بين فقير وغني. ونظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٦/٥٢] وقوله سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨/١٨] .

ة - أراد الله توفير جهد نبيه ﷺ في دعوة رؤساء قريش إلى الإسلام، وهم في الحقيقة لن يؤمنوا، وكفاهم ما بلغهم به من دعوته إلى التوحيد، ونبد عبادة الأوثان، وليس عليه بأس بعدئذ في ألا يهتدوا ولا يؤمنوا، فإنما هو رسول، ما عليه إلا البلاغ، ولا يصح أن يكون الحرص على إسلامهم مؤدياً إلى الإعراض عن أسلم، للاشتغال بدعوة من لم يسلم.

القرآن موعظة وتذكرة ونعم الله في نفس الإنسان

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) رَّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ (١٦) قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۝ (١٧) مِنْ أَمْرِ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ ۝ (١٨) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقْتَهُ فَقَدَّرُوْهُ ۝ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُوْهُ ۝ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَةً فَأَوْتَوْهُ ۝ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُوْهُ ۝ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُوْهُ ۝ (٢٣)﴾

الإعراب:

﴿فِي صُحُفٍ﴾ خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّهَا﴾ وما قبله اعتراض، أو خبر لمبتدأ محذوف.

﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۝ (١٧)﴾ ﴿مَا﴾ إما تعجبية، وإما استفهامية.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُوْهُ ۝ (٢٠)﴾ السبيل منصوب بفعل يفسره الظاهر، للمبالغة في

التيسير.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُوْهُ ۝ (٢٣)﴾ ﴿لَمَّا﴾ حرف جزم، معناه النفي لما قرب من

الحال. و﴿مَا أَمَرُوْهُ﴾ تقديره: لما أمره به، فحذف الباء من (به) ثم حذف الهاء العائدة إلى (ما) فصار: لما أمره.

للمبالغة:

﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۝ (١٧)﴾ أسلوب التعجب، تعجب من إفراط كفره،

مع كثرة إحسان الله إليه.

﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ ١٨﴾ إجمال، ثم تفصيل بقوله: ﴿مِنْ نُفُفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ١٩﴾ ثُمَّ أَلَسَّيْلَ يَسَّرُهُ ٢٠ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ٢١﴾.

﴿ثُمَّ أَلَسَّيْلَ يَسَّرُهُ ٢٠﴾ كناية بالسبيل عن خروجه من فرج الأم.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦﴾
إلخ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وهو المسمى بالسجع المرصع.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، والمراد هنا زجر المخاطب عن المعاتب عليه، أو عن معاودة مثله، أي لا تفعل مثل ذلك. ﴿إِنِّهَا﴾ أي الهداية أو آيات القرآن. ﴿لَذِكْرٌ﴾ موعظة، وهي في معنى الذكر والوعظ، لذا ذكر الضمير العائد إليها في قوله: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ١٢﴾ أي اتعظ به، أو حفظه. والمراد أن هذا القرآن، أو هذا التأديب الذي عرفناكه في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا ثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه أكابر الملائكة.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣﴾ أي إن التذكرة مثبتة كائنة مودعة في صحف شريفة عند الله. ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر في السماء. ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين، وعن النقص. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥﴾ كتبة من الملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ. ﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله تعالى. ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء مطيعين لله تعالى، وهم الملائكة.

﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ٧﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في كفران النعم، أو استفهام توبيخ، أي ما حمله على الكفر؟! ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ ١٨﴾ بيان لما أنعم عليه، والاستفهام للتحقير.

﴿مِنْ نُفُفَةٍ خَلَقَهُ﴾ من مني ثم من علقه ثم من مضغة إلى آخر خلقه. ﴿فَقَدَرَهُ﴾ أي أنشأه في أطوار وأحوال مختلفة. ﴿ثُمَّ أَلَسَّيْلَ يَسَّرُهُ ٢٠﴾ أي سهّل له

مخرجه من بطن أمه، وهو كناية، أو سهل له طريق الخير والشر. ﴿فَأَقْبَرُ﴾ جعله في قبر يستره، ويُوَارَى فيه. ﴿أَشْرَمُ﴾ بعثه بعد الموت. ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه من الترفع والتكبر. ﴿لَمَّا يَقُضْ مَا أَمَرُ﴾ أي لم يفعل ما أمره الله به بنحو كامل؛ إذ لا يخلو أحد من التقصير في شيء ما.

سبب النزول:

نزل الآية (١٧):

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۖ﴾ (١٧): أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۖ﴾ (١٧) قال: نزلت في عُثْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ حين قال: كفرت برب النجم.

المناسبة:

بعد عتاب الله لنبيه على عبوسه في وجه عبد الله بن أم مكتوم بسبب انشغاله مع رؤساء قريش، سَرَى الله عنه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي لا تفعل مثل ذلك، وعرفه بأن الهداية لا تحتاج لجهود ومحاولات كثيرة، وأن هذا التأديب الذي أوحى إليه به كان لإجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا، وهذا القرآن مجرد تذكرة لتنبية الغافلين، فمن رغب فيها، اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها، وهي مودعة في صحف شريفة القدر.

وبعد بيان حال القرآن وأنه كتاب الذكرى والموعظة، ذمَّ الله الإنسان ووجَّهه على كفران نعم ربه، وتكبره وتعاضمه عن قبول هداية الله له، وأنه استحق أعظم أنواع العقاب لأجل ارتكابه أعظم أنواع القبائح.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ (١١) أي لا تفعل مثل فعلك مع ابن أم مكتوم، من

الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني مع كونه ليس ممن يتزكى، وإن هذه الآيات أو السورة أو القرآن موعظة، جدير بك وبأمتك أن تتعظ بها وتعمل بموجبها.

وفي الآية تعظيم شأن القرآن، فسواء قبله الكفرة أم لا، فلا يؤبه بهم، ولا يلتفت إليهم.

ثم وصف تلك التذكرة بأمرين:

أ - ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ أي إن هذه تذكرة بيّنة ظاهرة، مقدور على فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها، فمن رغب فيها اتعظ بها، وحفظها، وعمل بموجبها.

٢ - ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿كَرَامَ بَرَرَةٍ﴾ أي إنها تذكرة مثبتة مودعة كائنة في صحف مكرمة عند الله، لما فيها من العلم والحكمة، ولزولها من اللوح المحفوظ، ربيعة القدر عند الله، منزّهة لا يمسه إلا المطهرون، مصانة عن الشياطين والكفار، لا ينالونها، ومنزّهة عن النقص والضلالات، محمولة بأيدي ملائكة سفرة وسائط يسفرون بالوحي بين الله ورسله لتبليغها للناس، من السفارة: وهي السعي بين القوم.

وهم كرام على ربهم، كرام عن المعاصي، أتقياء مطيعون لربهم، صادقون في إيمانهم، أي إن الله تعالى وصف الملائكة بصفات ثلاث: هي كونهم سفراء ينزلون بالوحي بين الله وبين رسله، وكرام على ربهم، ومطيعون لله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦/٢١] وقال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦/٦٦] .

قال ابن جرير الطبري: والصحيح أن السفارة: الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير.

أخرج الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به، مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه، وهو عليه شاق، له أجران» .

ثم ذم الله تعالى من أنكر البعث والنشور من الناس بقوله:

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ۝﴾ أي لعن الإنسان الكافر، أو قتل أو عذب، ما أشد كفره؟! وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفر، ودليل على سخط عظيم وذم بليغ، يدل على قبح حاله، ويلوغه حداً من العتو والكبر لا يستحق معه الحياة. وهذا جارٍ على أسلوب العرب عند التعجب من شيء، فيقال: قاتله الله ما أفصحته؟! والمراد بالكلام الملائم في حقه تعالى هنا: إرادة إيصال العقاب الشديد للكافر.

ثم ذكره بخلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال تعالى:

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝﴾ من تُطْفَعُ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٨﴾ أي من أي شيء مهين حقير، خلق الله هذا الكافر برّبه؟ فلا ينبغي له التكبر عن الطاعة، إنه تعالى خلقه من ماء مهين، وقدره أطواراً وأحوالاً، وسوّاه وهيئاً لمصالح نفسه، وأتمّ خلقه وأكمل به أعضائه الملائمة لحاجاته مدة حياته، وزوّده بطاقات العقل والفكر والفهم، والقوى والحواس للاستفادة من نعم الله تعالى، فلا يستعملها فيما يغضب الله، وإنما عليه استعمالها في رضوان الله.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ ۝﴾ إما كناية عن خروجه بسهولة من فرج أمه، وإما أنه تعالى يسر له الطريق إلى تحصيل الخير أو الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝﴾ [البلد: ١٠/٩٠] أي بيّنا له طريق الخير وطريق الشر، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٣/٧٦] .

﴿ثُمَّ أَمَّا نَفْسُ فَاقْبَرُ ۖ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرُ ۖ﴾ أي إنه بعد خلقه له وتمكينه من الحياة قبض روحه، وجعله في قبر يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله ملقى على وجه الأرض تأكله السباع والطيور، ثم إذا شاء الله إنشائه أحياء بعد موته، أو بعثه بعد موته، في الوقت الذي يريد الله تعالى. ومنه يقال: البعث والنشور.

والإماتة ستر للعيوب بعد الهرم أو المرض، والإقبار تكرمة حيث لم يُلقَ للطير والسباع، والإنشار أي البعث عدل وفضل. ثم لأمه على تقصيره، وأكد كفره بالنعيم، فقال:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقُضْ مَا أَمَرُ ۖ﴾ أي هذا ردع وزجر للإنسان عما هو عليه، فلم يخل إنسان من تقصير قط، فبعض الناس أخل بالكفر، وبعضهم بالعصيان، وبعضهم بارتكاب خلاف الأولى والأفضل بما يليق بمنزلته، وما قضى ما أمره الله إلا القليل. والآية تدل على العجب من حال الإنسان، فإنه قد ينكر خالقه بعد قيام الأدلة على وجوده في نفسه وفي السماوات والأرض، وقد يجحد نعمة ربه، فلا يقابلها بالحمد والشكر وعرفان الجميل، وينسبها إلى نفسه، وقد يعصي الله بالرغم من وجود أدلة الهداية والرشد، وإدراكه مخاطر العصيان.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - القرآن الكريم كتاب تذكرة وموعظة وتبصرة للناس جميعاً، فمن أراد اتعظ بالقرآن وانتفع به وعمل بموجبه. وهذا دليل على حرية الاختيار.

٢ - القرآن كتاب جليل عند الله، فهو مثبت مودع في صحف مكرمة عند الله، لما فيها من العلم والحكمة، رفيعة القدر عند الله، مطهرة من كل دنس، مصانة عن أن ينالها الكفار، محمولة بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين

رساله، وهم كرام على ربهم، كرام عن المعاصي، يرفعون أنفسهم عنها، مطيعون لله، صادقون لله في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَقَرَنَّا كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩].

٣ - لعن الإنسان حيث كفر بالقرآن، وما أظلمه حيث أنكر البعث والنشور، فالله قادر على إعادته كما قدر على بدء خلقه، فإنه خلقه من ماء يسير مهين، ثم جعله يمر بأطوار بعد كونه نطفة، إلى وقت إنشائه خلقاً آخر، وبأحوال من كونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً، حسناً أو دميماً، قصيراً أو طويلاً، فكيف يليق به التكبر والتجبر عن أوامر الله؟ ثم يسر له سلوك طريق الخير والشر، أي بين له ذلك، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣/٧٦] وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٩٠/١٠].

ثم جعل له قبراً يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله الطير والسباع. وهذا دليل على أن الله سبحانه أمر بدفن الأموات الإنسانية تكريماً لهم، سواء أكانوا مؤمنين أم كفاراً، دون أن يطرحوا على وجه الأرض، طعمة للسباع، كسائر الحيوان.

ثم إذا شاء الله أنشره، أي أحياه بعد موته.

وكل هذه الانتقالات دلالات واضحة على أنه سبحانه إذا شاء أن ينشر الإنسان يبعثه من قبره أنشره. وهذه الانتقالات أو المراتب ثلاث: الأولى بداية خلقه من ماء مهين، وهذا دليل على زيادة التقرير في التحقير، والثانية المتوسطة - التمييز بين الخير والشر، والثالثة الأخيرة - الإمامة والإقبار، والإنشمار، أي الإحياء بعد البعث.

٤ - كل إنسان إلا القليل مقصر في حق الله، فلا يقضي أحد ما أمر به، من الإيمان والطاعة، والتأمل في دلائل الله، والتدبر في عجائب خلق الله وبيانات حكمته.

نعم الله فيما يحتاج إليه الإنسان

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٤ ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَا﴾ ٢٦ ﴿فَأَبْلَأْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٢٧ ﴿وَعَبَاً وَقَضَبًا﴾ ٢٨ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ٢٩ ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾ ٣٠ ﴿وَفَجَاهُ وَأَبَا﴾ ٣١ ﴿مُتَلَعًا لِّكُلِّ لَوْنٍ﴾ ٣٢ ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ ٣٣ ﴿

القراءات:

﴿أَنَا صَبَّيْنَا﴾:

قرأ عاصم، وحمة، والكسائي (أنا صبينا) وقرأ الباقر (إنا صبينا).

الإعراب:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٤ ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٢٥ ﴿أَنَا﴾ إما بدل من ﴿طَعَامِهِ﴾ بدل اشتمال؛ لأن هذه الأشياء تشتمل على الطعام، وإما على تقدير اللام، أي لأننا صبينا. وقرأ بالكسر (إنا) على الابتداء والاستئناف.

المفردات اللغوية:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ نظر تأمل واعتبار. ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ كيف أوجد وقدر ودبر له؟ والظاهر أن الطعام هو المطعوم. ﴿أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٢٥ أي أنزلناه بسخاء وكثرة من السحاب، وهو بيان لكيفية إحداث الطعام. ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَا﴾ ٢٦ أي شققناه بالنبات، وإسناد الصب والشق إلى الله نفسه إسناد الفعل إلى السبب. ﴿فَأَبْلَأْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٢٧ كالحنطة والشعير. ﴿وَقَضَبًا﴾ هو القث الرطب أو البرسيم، سمي قضباً لأنه يقضب، أي يقطع مرة بعد أخرى. ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾ ٣٠ بساتين ضخاماً عظاماً، كثيرة الأشجار، جمع غلباء، وصف به الحدائق لتكاثرها وكثرة أشجارها. ﴿وَأَبَا﴾ الأب: العشب أو ما

ترعاه البهائم، سمي أباً؛ لأنه يُؤب، أي يُؤم ويتجمع. ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ (٣٢) متعة أو تمتعاً، أي أنبتناه لكم لتتمتعوا وتنفع أنعامكم، فبعض الأنواع المذكورة طعام وبعضها علف.

المناسبة:

بعد بيان الدلائل على قدرة الله تعالى وتعداد نعمه في الأنفس البشرية أو الذوات، ذكر الله دلائل الآفاق، وعدّد النعم التي يحتاج إليها الإنسان لقوام حياته.

التفسير والبيان:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٣٢) أي فلي تأمل الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي يعيش به، ويكون سبباً لحياته، وكيف دبره وهياه له. وفي هذا امتنان بهذه النعمة، واستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظماً بالية.

ثم أوضح كيفية إيجاد الطعام، فقال:

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٣٥) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (٣٦) ﴿أَنَا أَنْزَلْنَا الْمَاءَ مِنْ السَّمَاءِ أَوْ السُّحَابِ عَلَى الْأَرْضِ بَغْزَارَةٍ وَكَثْرَةٍ، فَصَبَّ الْمَاءُ هُوَ الْمَطَرُ، ثُمَّ أَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ رَوَيْنَا الْبَذَرَ الْمَوْدَعِ فِيهَا، ثُمَّ شَقَقْنَاهَا بِالنبات الخارج منها، فارتفع وظهر على وجهها، فكان هناك أنواع مختلفة من النباتات في الصغر والكبر، والهيئة والشكل، واللون والطعم، والأغراض المتنوعة كالغذاء والدواء والمرعى، لذا ذكر تعالى بعدئذ ثمانية أنواع من النبات بقوله:

١ - ٣ - ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٣٧) ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ (٣٨) أي فأنبتنا في الأرض الحبوب التي يتغذى بها كالحنطة والشعير والذرة، والأعشاب المتنوعة، والرطوبة أو الفت أو البرسيم أو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة. والمعنى أن النبات لا يزال ينمو ويزداد إلى أن يصير حباً وعنباً وقضباً. وقيل: القضب: العلف.

٤ - ٥ - ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ أي وأنبتنا أيضاً شجر الزيتون والنخيل، وثمرتهما معروفة.

٦ - ٨ - ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾ وَفَكَهَةً وَأَبْنًا ﴿﴾ أي بساتين ذات أشجار ضخمة ومتكاثفة كثيرة، وفاكهة وهي كل ما يتفكه به من الثمار، أي يستمتع به، كالتفاح والكمثرى والموز والخوخ والتين ونحوها، وعشباً أوحشياً مرعى للدواب، فالأب: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلاً وسائر أنواع المرعى للحيوان.

ثم ذكر وجه النعمة أو الحكمة في خلق هذه النباتات، فقال:

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ كَرُّ﴾ أي جعلنا ذلك متعة أو عيشة لكم ولأنعامكم، لتتفعوا بها وتأكلها بهائمكم، والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أمر الله تعالى بالنظر والاستدلال والتدبر إلى الطعام الذي يتناوله الإنسان، ويعيش به، كيف دبر الله أمره، من إنزال الماء من السماء، ثم شق الأرض بالنبات أو بالحراثة على الدواب أو بالآلات، وإخراج أنواع النبات المختلفة.

٢ - ذكر الله تعالى ثمانية أنواع من النبات: وهي الحب: وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرها، وقُدِّم لأنه كالأصل في الغذاء، والعنب، وذكر بعد الحب، لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه آخر، والقضب عند أهل مكة واليمن: وهو الرطبة المسماة بالقت، والزيتون والنخيل، والحدائق ذات الأشجار الضخمة الكثيرة، والفاكهة: وهي ما يأكله الناس من الثمار،

وقد ذكرها مجملة ليعم جميع أنواعها، والأب: وهو المرعى الذي يؤب أي يؤم ويتجمع، وهو ما تأكله البهائم من العشب.

٣ - الغاية من خلق هذه النباتات التي تشمل ما يتغذى به الإنسان والحيوان: هي الانتفاع بها، سواء بالنسبة للناس أو للدواب؛ لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات.

٤ - القصد من إيراد هذه الأشياء: ضرب المثل من الله تعالى، لبعث الموق من قبورهم، والامتنان من الله على عباده بما أنعم به عليهم.

والخلاصة: أن المقصود من هذه الأشياء أمور ثلاثة:

أولها - إيراد الدلائل الدالة على التوحيد.

وثانيها - إيراد الدلائل الدالة على القدرة على المعاد.

وثالثها - الترغيب بالإيمان والطاعة؛ فإنه لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعة الإله الذي أحسن إلى عباده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان.

أهوال القيامة

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ۝٣٢ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٣ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ۝٣٤ وَصَاحِبِهِ ۝٣٥ وَكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٦ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٧ ضَاكِمَةٌ ۝٣٨ مُسْتَشِيرَةٌ ۝٣٩ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ زَهَقَهَا فَذَرَتْ ۝٤١ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾

القراءات:

﴿شَأْنٌ﴾:

وقرأ السوسي، وحزة وقفاً (شان).

الإعراب:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ (٣٣) جواب إذا: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْنِيهِ﴾ (٣٧) أي استقر لكل امرئ منهم.

البلاغة:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٢٨) صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٢٩) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ (٤١) بينهما مقابلة، قابل فيها بين وجوه السعداء ووجوه الأشقياء.

للفردات اللغوية:

﴿الصَّلَاةُ﴾ هي الفارعة أو الطامة الكبرى أو القيامة، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث، والمراد بها الصيحة التي تصم الآذان لشدتها، وصفت بها مجازاً؛ لأن الناس يصخون لها، والصخ: الضرب بالحديد على الحديد أو بالعصا على شيء، فيسمع صوت شديد.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَنْجِيهِ (٢٦) وَبَنِيهِ (٢٧) لا اشتغاله بشأنه، وعلمه بأنهم لا ينفعونه. ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْنِيهِ﴾ (٣٧) شغل أو حال يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن شأن غيره، أي اشتغل كل واحد بنفسه، مما يدل على الرهبة والخوف الشديد، و﴿يُفْنِيهِ﴾ يصرفه عن غيره.

﴿مُسْفِرَةٌ﴾ مضيفة متهلة مشرقة من البشر، يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء. ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ فرحة بما ترى من النعيم، وهم المؤمنون. ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار وكدورة، وهم الكافرون. ﴿تَرْهَقُهَا﴾ تغشاها. ﴿قَفَرَةٌ﴾ سواد وظلمة كالدخان. ﴿أُولَئِكَ﴾ أصحاب هذه الحالة. ﴿هُمْ أَكْثَرُ الْفَجْرَةِ﴾ الجامعون بين أنواع

الكفر: (إنكار وجود الله أو إنكار وحدانيته) والفجور: العصيان والخروج عن حدود الله.

المناسبة:

بعد بيان نعم الله تعالى في نفس الإنسان وفي الآفاق، وإقامة الأدلة والبراهين بها على كمال قدرة الله عز وجل على البعث وكل شيء، أبان الله تعالى بعض أهوال القيامة وأحوالها التي تغلأ النفس خوفاً ورهبة، ليكون ذلك مدعاة إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر، وإلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد.

والناس في ذلك الموقف فريقان: سعداء وأشقياء، والفريق الأول ضاحك مستبشر: وهو من آمن بالله ورسله وأطاع ما أمر الله به. والفريق الثاني عابس متكدر، تعلق وجهه الغبرة وترهقه القفرة: وهو الذي أنكر وجود الله وتوحيده، وأعرض عن قبول ما جاءت به رسل الله.

قال القرطبي: لما ذكر أمر المعاش، ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإتفاق مما امتن به عليهم.

التفسير والبيان:

﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ (٣٣) أي إذا جاءت القيامة أو صيحة يوم القيامة التي تصخ الأذن، أي تصمها فلا تسمع. والصاخة: اسم من أسماء القيامة، عظمه الله وحذر عباده. قال البغوي: الصاخة: يعني صيحة يوم القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تصخ الأسماع وتُصم الأذان لشدها، أي تبلغ في إسماعها حتى تكاد تُصمها. وقال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) أي إذا جاءت الصاخة حين يرى المرء أعز أقاربه

وأخصهم لديه، وأولاهم بالحنو والرأفة والعطف، من أخ وأم وأب وزوجة وولد، ويفر منهم ويتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل، ولكل امرئ منهم يومئذ حال أو شغل يشغله عن الأقرباء ويصرفه منهم، ويفر عنهم، حذراً من مطالبهم إياه بشيء يهمهم، ولئلا يروا ما هو فيه من الشدة، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (الدخان: ٤٤/٤١) وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (المعارج: ١٠/٧٠).

والمراد: أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة. وفائدة الترتيب واضحة، وهي الفرار من الأبعد وهو الأخ، ثم من الأبوين، ثم من الزوجة والولد، من قبيل الترتي إلى الأحب عادة والأقرب، قال الزمخشري: بدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم الصاحبة والبنين؛ لأنهم أقرب وأحب، كأنه قال: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبه وبنيه. وأيده الرازي في هذا.

وعقب النظام النيسابوري في غرائب القرآن على ذلك فقال: هذا القول يستلزم أن تكون الصاحبة أقرب وأحب من الأبوين، ولعله خلاف العقل والشرع. والأصوب أن يقال: أراد أن يذكر بعض من هو مطيف بالمرء في الدنيا من أقاربه في طرفي الصعود والنزول فبدأ بطرف الصعود؛ لأن تقديم الأصل أولى من تقديم الفرع، وذكر أولاً في كل من الطرفين من هو معه في درجة واحدة وهو الأخ في الأول والصاحبة في الثاني. على أن وجود البنين موقوف على وجود الصاحبة، فكانت بالتقديم أولى^(١).

والأظهر أن الفرار المعني: هو قلة الاهتمام بشأن هؤلاء، بدليل قوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (أي يصرفه ويصدّه عن قرابته)^(٢).

(١) تفسير الكشاف: ٣/٣١٤، تفسير الرازي: ٦٤/٣١، غرائب القرآن: ٣١/٣٠

(٢) غرائب القرآن، المكان السابق.

روى ابن أبي حاتم والنسائي والترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشَرُونَ حَفَاةَ عَرَاةٍ مَشَاةٍ غُرْلًا» أي غير مختونين، قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «لِكُلِّ أَمْرٍ مَتْنُهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِئُ» (٢٧) «أو قال: «ما أشغله عن النظر!!» .

ثم ذكر الله تعالى أحوال الناس حينئذ وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء، فقال واصفاً السعداء أولاً:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (٢٨) أي يكون الناس هنالك فريقين: وجوه متهللة مشرقة مضیئة، وهي وجوه المؤمنين أهل الجنة؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم والكرامة.

ثم وصف الأشقياء بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَظِيمَةٌ ۖ زَهَقُوا فَتْرَةً ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٢٩) أي ووجوه أخرى في القيامة عليها غبار وكدورة، لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب، يغشاها سواد وكسوف، وذلة وشدة، وأصحاب تلك الوجوه المغبرة هم الذين كفروا بالله فلم يؤمنوا به، ولا بما جاء به أنبيأؤه ورسله، واقترفوا السيئات، فهم الفاسقون الكاذبون الذين جمعوا بين الكفر والفجور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧/٧١] . ولا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر، بدليل هذه الآية: ﴿الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ فالكفار هم الفجار لا غيرهم.

ووجود هذين الفريقين في هذه الآية ونحوها لا يقتضي نفي وجود فريق ثالث وهم المؤمنون العصاة أو الفساق، كما قال الرازي^(١).

(١) تفسير الرازي: ٦٥/٣١

فقه الحياة لو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إذا جاءت صيحة القيامة وهي النفخة الثانية أو الأخيرة، والتي يهرب في يومها الأخ من أخيه، والولد من والديه، والزوج من زوجته وأولاده، لاشتغاله بنفسه، يكون لكل إنسان يومئذ حال أو شغل يشغله عن غيره.

جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا» قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

ولفظ رواية الترمذي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا»، فقالت امرأة: أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾» [عبس: ٨٠/٣٧] قال: حديث حسن صحيح.

ب - يكون الناس يوم القيامة فريقين: فريق وجوههم مشرقة مضيئة، مسرورة فرحة مستبشرة بما آتاه الله من الكرامة، قد علمت ما لها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين. وفريق وجوههم يعلوها غبار ودخان تغشاها ظلمة وسواد، وهي وجوه الكافرين بالله وبرسله، العاصين الكاذبين المفتريين على الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية، وهي تسع وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة التكوير، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) أي جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفَّت، فرمي بها، ونُحِيَ ضوءها. مناسبتها لما قبلها:

توضح كل من السورتين أهوال القيامة وشدائدها، ففي سورة ﴿عَبَسَ﴾ قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَافَةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبَيْهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرٌ (٤٠) تَرَهَقَهَا فَزْرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢) وفي هذه السورة قال سبحانه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) إلخ، فلما ذكر سبحانه الطامة والصاخة في خاتمتي السورتين المتقدمتين، أردفهما بذكر سورتين مشتملتين على أمارات القيامة وعلامات يوم الجزاء.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كغيرها من السور المكية تتعلق بالعقيدة، فهي تقرر ما يوجد في يوم القيامة من أحوال، وتثبت أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى.

وقد ابتدأت ببيان أهوال القيامة، وما يصحبها من تغيرات كونية غريبة، تشمل كل ما يشاهده الإنسان في الدنيا من السماء وكواكبها، والأرض وجبالها وبحارها ووحوشها، والنفوس البشرية ومظالمها، وتبرز بعدئذ الجحيم ونيرانها، والجنة ونعيمها: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾ [الآيات: ١٤-١].

ثم تحدثت عن القرآن وتنزيله من الله بواسطة جبريل الأمين على قلب النبي المصطفى ﷺ، وإثبات نبوته ورسالته وأمانته في تبليغ الوحي وأهليته العالية لتلقي الوحي، ورؤيته جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية: ﴿فَلَا أَقِمْ بِالنَّفْسِ ۝﴾ [الآيات: ١٥-٢٥].

وختمت السورة ببيان ضلال المشركين، وأن القرآن عظة وذكرى لجميع العالمين من الإنس والجن ممن أراد الهداية وأقبل على الخير، وأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى، فلا يستطيع الاستقلال بعمل ما دون إرادة الله.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأى عين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝﴾». .

أحوال القيامة وأهوالها

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ ٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ ٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ ٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ ٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ ٦ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ۝ ٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ۝ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ ٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ ١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ ١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ ١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ ١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝ ١٤﴾

القراءات:

﴿سُجِرَتْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (سُجِرَتْ).

﴿نُشِرَتْ﴾:

قرأ عاصم، ونافع، وابن عامر (نُشِرَتْ) وقرأ الباقون (نُشِرَتْ).

﴿سُعِرَتْ﴾:

قرأ نافع، وابن ذكوان، وحفص (سُعِرَتْ)، وقرأ الباقون (سُعِرَتْ).

الإعراب:

﴿إِذَا أَلْتَمَسُ كُورَتَ ۖ﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف، والعامل فيه وفي كل ﴿إِذَا﴾ بعدها قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۖ﴾. و﴿أَلْتَمَسُ﴾ فاعل لفعل مضمر يفسره ﴿كُورَتَ﴾ كما ذكر الزمخشري؛ لأن ﴿إِذَا﴾ لا تدخل إلا على فعل، لما فيها من معنى الشرط.

البلاغة:

﴿كُورَتَ﴾ ﴿أَنكَدَرْتَ﴾ ﴿عُطِلْتَ﴾ ﴿حُشِرْتَ﴾ ﴿سُجِرْتَ﴾ ﴿زُوجِتَ﴾ ﴿سِيلَتْ﴾ ﴿قِيلَتْ﴾ ﴿نُشِرَتْ﴾ ﴿كُشِطَتْ﴾ ﴿سُعِرَتْ﴾ ﴿أُزْلِفَتْ﴾ ﴿أَحْضَرَتْ﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل رعاية لرؤوس الآيات.

﴿الْجَحِيمُ﴾ و ﴿الْجَنَّةُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿كُورَتَ﴾ لُفَّت وطويت وأزيل ضياؤها ونورها. ﴿أَنكَدَرْتَ﴾ تساقطت

وتهاوت على الأرض ومحي ضوءها. ﴿سِيرَتْ﴾ أزيلت عن مواضعها بزلزلة الأرض، وبددت في الجو، فصارت هباء منبثاً. ﴿الْعِشَارُ﴾ النوق الحوامل التي مضى على حملها عشرة أشهر، وهي كرائم أموال العرب جمع عُشراء. ﴿عُطِلَتْ﴾ تركت مهملة بلا راع وبلا حلب، لما دهاهم من الأمر.

﴿الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت بعد البعث للاقتصاص من بعضها لبعض، ثم تصير تراباً. ﴿سُجِرَتْ﴾ أوقدت، فصارت ناراً تحترق، بالبركان والزلازل. ﴿زُوجَتْ﴾ قرنت الأرواح بالأجساد. ﴿الْمَوْدَةُ سُيِلَتْ﴾ البنت التي تدفن حية خوف العار والحاجة، وكان هذا عادة بعض العرب في الجاهلية. سئلت تبيكياً لقاتلها أو وائدها، كتبتكيت النصارى بقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦/٥]. ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتَ﴾ حكاية لما تخاطب به، وجوابها أن تقول: قتلت بلا ذنب.

﴿الضُّحُفُ﴾ صحف الأعمال. ﴿شُرَّتْ﴾ فتحت وبسطت، فهي تُطوى عند الموت، وتُنشر وقت الحساب. ﴿كُشِطَتْ﴾ قُلعت كما يقطع السقف، وأزيلت عن أماكنها كما ينزع الجلد من الشاة. ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ النار. ﴿سُعِرَتْ﴾ أجمت وأوقدت إيقاداً شديداً. ﴿أُزْلِفَتْ﴾ قُرِبَتْ وأدْنيت لأهلها المتقين. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ جواب أول السورة، وما عطف عليها وهو اثنتا عشرة خصلة، ست منها في بدء قيام الساعة قبل فناء الدنيا، وست بعده أي يوم القيامة. وكلمة ﴿نَفْسٌ﴾ في معنى العموم أي كل نفس، و ﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ أي ما قدمت من خير أو شر.

التفسير والبيان:

هذه أوصاف القيامة وأحداثها الجسام، لتعظيمها وتخويف الناس بها:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ١ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ٢ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ٣

أي إذا لُفَّت الشمس، وجمعت، بعضها على بعض كتكوير العمامة، وجمع

التياب مع بعضها، ثم رمي بها، وذهب بضوئها، إيداناً بخراب العالم؛ وإذا انقضت النجوم وتساقطت وتناثرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۖ﴾ [الأنفطار: ٢/٨٢] ؛ وإذا قلعت الجبال عن الأرض، وسيّرت في الهواء حين زلزلة الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَسَيَّرَ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا ۖ﴾ [النبا: ٢٠/٧٨] وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧/١٨] .

﴿وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ ۖ﴾ [١] وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۖ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۖ﴾ [٢] أي وإذا النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، وهي أنفس مال عند العرب وأعره عندهم، تركت مهملة بلا راع، لشدة الخطب، وعظمة الهول؛ وإذا الوحوش الدواب البرية غير الإنسية بعثت حتى يقتص لبعضها من بعض، وقيل: حشرها: موتها وهلاكها؛ وإذا البحار أوقدت بالبراكين والزلازل فصارت ناراً تضطرم، بعد أن فاض بعضها إلى بعض، وصارت شيئاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۖ﴾ [٣] [الأنفطار: ٣/٨٢] وقال: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۖ﴾ [٤] [الطور: ٦/٥٢] وحينئذ تصير البحار والأرض شيئاً واحداً في غاية الحرارة والإحراق.

قال أبي بن كعب رضي الله عنه: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واختلطت، ففزع الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فهاجوا بعضهم في بعض. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۖ﴾ [٥] إلى قوله: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ ۖ﴾ [٦] اثنا عشرة خصلة: ست في الدنيا، وست في الآخرة. والستة الست الأولى بينها يقول أبي بن كعب، والست الأخرى في الآيات التالية.

لذا ذكر الله تعالى ما يحدث بعدئذ من البعث، فقال:

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ أي وإذا قرنت الأرواح بأجسادها حين النشأة الآخرة، وإذا الفتاة المدفونة حية خوف العار أو الحاجة، كما كان بعض قبائل العرب يفعل في الجاهلية، سئلت لتوبيخ قاتلها أو وائدها؛ لأنها قتلت بغير ذنب فعلته. فقد كان بعض أهل الجاهلية يدسونها في التراب، كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم، فما ظن الظالم إذن؟! وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾: سألت. والوَادُ جريمة عظيمة.

وهذا السؤال للموءودة لتوبيخ الفاعلين للوَاد؛ لأن سؤالها يؤول إلى سؤال الفاعلين^(١).

أخرج الإمام أحمد عن خنساء ابنة معاوية الصرمية عن عمها قال: قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة».

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ أي إذا عرضت ونشرت للحساب صحائف الأعمال، في موقف الحساب، فكل إنسان يُعطى صحيفته يمينه أو شماله، وإذا تشققت السماء وأزيلت، فلم يبق لها وجود.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ ﴿١٣﴾﴾ أي وإذا أوقدت النار لأعداء الله إيقاداً شديداً، قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤] وإذا قربت الجنة وأدנית لأهلها المتقين، كما قال تعالى: ﴿وَأُنْفِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٣١/ ٥٠].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ ﴿١٤﴾ جواب إذا وما عطف عليها، أي إذا حصل كل ما تقدم من الأحداث، ووقعت هذه الأمور، علمت كل نفس ما أحضرته عند نشر الصحف، وما عملت من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠/٣] وقال سبحانه: ﴿يَبْنُوْنَ الْإِنْسُنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣/٧٥]. والآيات من أول السورة إلى هنا شرط، وجوابه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ ﴿١٤﴾. وقال الحسن البصري: هذا قسم وجواب له. قال القرطبي: والقول الأول أصح.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه ظواهر تحدث قبل أو بعد البعث يوم القيامة، فتملأ النفس رهبة، وتثير الخوف والذعر بين الناس، لتبدل ما كانوا يألفون ويشاهدون، والقصد من تعدادها تخويف البشر والإعداد ليوم القيامة بما يحقق لهم النجاة والأمن والسلامة.

فهو إنذار مسبق، ولقد أعذر من أنذر، ولقد تضمن الإنذار مواجهة اثنتي عشرة علامة للقيامة: وهي تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسير الجبال، وتعطيل العشار، وحشر الوحوش، وتسجير البحار، وتزويج النفوس، وسؤال الموءودة، ونشر صحف الأعمال، وكشط السماء كما يكشط الإهاب (الجلد) عن الذبيحة، وتسعير الجحيم (إيقادها) وإزالة الجنة (إدناؤها). وأي رهبة تحدث حينما يذهب ضوء الشمس، فيظلم الكون، وتتهافت النجوم وتتساقط وتتناثر، فتزول معالم الجمال، وتقلع الجبال من الأرض وتسير في الهواء، فتكون كثيباً مهيباً، أي رملاً سائلاً، وتصبح كالعُهن، وتكون هباء منثوراً، وسراباً لا حقيقة ولا وجود له، كالسراب الذي ليس بشيء، وتعود الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، أي ارتفاعاً، فتزول المتعة بها في عين الراي.

وتهمل النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، بعد العناية بها؛ لأنها أعز ما تكون على العرب، وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشراء، ولكن أراد به المثل، أن هول يوم القيامة لو كان للرجل ناقة عُشراء لعطلها واشتغل بنفسه.

وتحشر الوحوش، أي تجمع حتى يقتصر لبعضها من بعض، فيقتصر للجَمَاء من القُرْناء، ثم يقال لها: كوني تراباً، وهذا هو المعنى الأصح، وقيل: حشرها: موتها وهلاكها، وعلى كل حال، تتعاضم المخاوف من رؤية ما يحدث.

وتسخر البحار، أي توقد إيقاداً شديداً، وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً، بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال، فتزول صورة جمال البحر في مشهد الطبيعة.

ويحدث البعث، فتقرن الأرواح بالأجساد، وتسأل البنت المدفونة حية عن سبب وأدها وقتلها، لتوبيخ الفاعل، ولومه على فعله مخافة الحاجة والإملاق (الفقر) أو السبي والاسترقاق، وإلحاق البنات بالملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وكل ذلك غير مقبول، فإنها قتلت بغير ذنب، وعقاب القاتل النار.

وتنشر صحائف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩/١٨].

وتكشط السماء كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره، وفي هذا غاية الرهبة. وتوقد النار للكفار ويُرَاد في إحماؤها، وتُذَنّ الجنة وتقرب من المتقين، فيتحدد مصير الخلائق.

حين حدوث هذه الوقائع الجسام، تعلم كل نفس علم اليقين ما عملت من خير وشر، وتعرف مصيرها. جاء في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسبكلُمة الله، ما بينه وبينه تَرْجُمان، فينظرُ أَيْمَنَ منه، فلا يرى إلا ما قدّمه، وينظرُ أَشْأَمَ منه، فلا يرى إلا ما قدّم بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار، ولو بشِقِّ تمرّة، فليفعل».

الحلف لإثبات صدق الوحي القرآني ونبوة الرسول ﷺ

﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحُسِّ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنْزِ ١٦﴾ وَالْبَلِّ إِذَا عَسَ ١٧﴾ وَالضُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُبَيْنِ ٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥﴾ فَأَبْنِ تَذَهَّبُونَ ٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ ٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩﴾

القراءات:

﴿بِضْنِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي (بظنين).

الإعراب:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ جواب القسم؛ لأن معنى ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحُسِّ ١٥﴾ أقسم.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ عطف على جواب القسم. ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ متعلق بـ ﴿مَكِينٍ﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾ (٢٥) عطف أيضاً على جواب القسم.

﴿فَأَتَيْنَ تَذَهُبُونَ﴾ (٢٦) تقديره: إلى أين تذهبون؟ إلا أنه حذف حرف الجر كما حذف من قولهم: ذهب الشام، أي إلى الشام.

﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) ﴿لِمَن﴾: بدل من قوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ بدل بعض من كل.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٩) أي ببخيل، وقرئ (بظنين) بالطاء، أي بمتهم.

البلاغة:

﴿بِالْحَنِينِ﴾ و ﴿أَلْكُنِيسِ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿وَالضُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ (٣٠) استعارة تصريحية، شبه إقبال النهار وانتشار الضياء بنسمات الهواء العليل، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٣١) كناية، كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

﴿أَمِينٍ﴾ و ﴿مَكِينٍ﴾ بينهما جناس ناقص غير تام.

﴿بِالْحَنِينِ﴾، و ﴿أَلْكُنِيسِ﴾، و ﴿عَسَسَ﴾، و ﴿نَفَسَ﴾ إلخ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ أي أقسم، و(لا): لتأكيد الخبر. ﴿بِالْحَنِينِ﴾ بالكواكب الرواجع، من خنس يخنس: إذا تأخر، وواحد: خانس: أي منقبض مستخف، فهي التي ترجع في مجراها وراء الشمس، وهي عند الجمهور:

الكواكب السيارة كالشمس والقمر وزُحَل وعطارد والمريخ والزهرة والمشتري. «الْجَوَارِ» السيارة التي تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتى تختفي مع ضوء الشمس. «الْكُنُسُ» التي تكُنُس في أبراجها، أي تستتر، فهي تختفي تحت ضوء الشمس، من كنس الطيبي أو الوحش: إذا دخل كُناسه، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر، وقيل: المراد الكواكب الخمسة السيارة، فخنوسها: رجوعها إلى أول البرج، وكنوسها: اختفاؤها نهراً تحت ضوء الشمس، وغيبتها في المواضع التي تغيب فيها عن البصر نهراً ثم تظهر ليلاً. والخلاصة: أن «بِالْخُسْ» على الأرجح: هي جميع الكواكب، كما جاء في الصحاح؛ لأنها تخنس (تختفي) نهراً، وتختفي عن البصر في المغيب، وتظهر ليلاً، ثم تكُنُس وتستتر في مغيها تحت الأفق، كما تكُنُس الظباء في المغار، فكل من «بِالْخُسْ» و«الْكُنُسُ» يختفي بعد ظهوره. والأصح أن معناها النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا.

«عَسَسَ» أقبل بظلامه، أو أدبر، فهو من ألفاظ الأضداد. «نَفَسَ» أضاء وظهر نوره. «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ» أي إن هذا المقسم عليه وهو القرآن لقول منقول نازل من رسول كريم عزيز على الله تعالى وهو جبريل عليه السلام، أضيف القول إليه، لتزوله به، وقوله عن الله تعالى. «ذِي قُوَّةٍ» شديد القوى، حافظ. «عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ» الله تعالى. «مَكِينٍ» ذي مكانة وجاه عند ربه، يعطيه ما سأل. «مُطَاعٍ» تطيعه ملائكة السماء. «نَمَّ» هنالك. «أَمِينٍ» على الوحي والرسالة.

«وَمَا صَاحِبُكُمْ» محمد ﷺ، «بِجَنُونٍ» كما زعمتم. «وَلَقَدْ رَآهُ» رأى محمد ﷺ جبريل على صورته التي خلق عليها. «بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ» الأفق الواضح، وهو مطلع الشمس الأعلى. «وَمَا هُوَ» محمد ﷺ. «الْقَبِيبِ» الوحي وخبر السماء. «بِضُنَيْنٍ» ببخيل مقصر بالتعليم والتبليغ، فينتقص منه شيئاً، وقرئ: (بظنين)، أي متهم. «وَمَا هُوَ يَقُولُ» أي القرآن. «شَيْطَانٍ مُسْتَرْقٍ»

السمع. ﴿تَجِير﴾ مرجوم ملعون مطرود من رحمة الله. ﴿فَإِنَّ تَذَهُبُونَ﴾ أي طريق تسلكون بعد إنكاركم القرآن وإعراضكم عنه، وقد قامت الحجة عليكم؟ ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وعبرة. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن. ﴿أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾ على الطريق الواضح باتباع الحق. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة على الحق. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وقت أن يشاء الله استقامتكم. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق كلهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٩):

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سليمان بن موسى قال: لما أنزلت ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾ قال أبو جهل: ذاك إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

التفسير والبيان:

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُسِّ﴾ الجوار الكُتْس ﴿أَيُّ أَقْسَمُ بِمَجْمِيعِ الْكَوَاكِبِ الَّتِي تُخْنَسُ أَيُّ تَخْتَفِي بِالنَّهَارِ تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَالَّتِي تَجْرِي فِي أَفْلَاكِهَا، وَتَكْنَسُ بِاللَّيْلِ، أَيُّ تَظْهَرُ بِاللَّيْلِ فِي أَمَاكِنِهَا، كَمَا تَظْهَرُ الظُّبَاءُ مِنْ كُنُسِهَا، أَيُّ بَيُوتِهَا، وَهِيَ جَمْعُ كُنَاسٍ: وَهُوَ الَّذِي يَخْتَفِي فِيهِ الْوَحْشُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ يَرَادُ بِهَا الْقَسَمُ فِي أَسْلُوبِ الْعَرَبِ، وَيَرَادُ بِهَا تَأْكِيدُ الْخَبَرِ، كَأَنَّهُ فِي ثُبُوتِهِ وَظُهُورِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى قَسَمٍ. وَإِنَّمَا أَقْسَمُ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ، لَمَّا فِي تَبَدُّلِ أَحْوَالِهَا مِنَ الظُّهُورِ وَالْخَفَاءِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَةِ مَبْدِعِهَا وَمَصْرِفِهَا.

ويرى الجمهور: أن المراد بها الكواكب السيارة كلها، ويرى بعضهم أنها ما عدا الشمس والقمر.

﴿وَأَلَّيْلٌ إِذَا عَسَّسَ ⑦ وَالصُّبْحُ إِذَا تَفَّسَ ⑧﴾ أي والليل إذا أقبل بظلامه، لما فيه من الرهبة، وهذا هو الأولى، أو أدبر وولى، لما في إدباره من كشف الغمة. والصبح إذا أقبل وأضاء بنوره الأفق؛ لأنه يقبل بروح نشطة ونسيم عليل.

قال ابن كثير: ﴿عَسَّسَ﴾: أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضياؤه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّيْلٌ إِذَا بَغَشَّ ① وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ②﴾ [الليل: ١/٩٢-٢] وقال تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ ③ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ④﴾ [الضحى: ١/٩٣-٢] وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمُ الْإِصْبَاحُ وَجَعَلَ اللَّيْلُ سَكَنًا ⑤﴾ [الأنعام: ٩٦/٦]، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة ﴿عَسَّسَ﴾ تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم^(١).

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑥﴾ هذا هو المقسم عليه، أي إن القرآن تبليغ رسول كريم، ومقول قاله جبريل عليه السلام الشريف الكريم العزيز عند الله، ونزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ، فليس القرآن من كلام البشر، وإنما وصل إلى النبي ﷺ من جبريل الذي تلقاه عن ربه عز وجل.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑦ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ ⑧﴾ هذه أوصاف أربعة أخرى لجبريل عليه السلام، فهو شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل، وذو رفعة عالية، ومكانة سامية عند الله سبحانه، ومطاع بين الملائكة، يرجعون إليه ويطيعونه، فهو من السادة الأشراف، مؤتمن على

الوحي والرسالة من ربّه، وعلى غير ذلك. وإنما قال: ﴿ثُمَّ﴾ أي عند الله، وقرئ (ثُمَّ) تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة.

ووصف جبريل بالأمين تركية عظيمة من الله لرسوله الملكي وعبد جبريل، كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾. ﴿٣٣﴾

وبعد بيان أوصاف الرسول الملك، ذكر تعالى وصف المرسل إليه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿٣٣﴾ أي وليس محمد ﷺ يا أهل مكة بمجنون، كما تزعمون. وذكره بوصف الصحة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٨٩﴾ [الأعراف: ١٨٤/٧] ، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ وَمَنْ يَنْفَكِّرْ وَمَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤١﴾ [سبا: ٤٦/٣٤] ، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَتَفَكَّرُوا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَهُكُم مِّمَّنْ تَقُولُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّجُنُودٍ ﴿١٣﴾ [الدخان: ٤٤/١٤-١٣] .

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿١٣﴾ أي قد رأى محمد جبريل على صورته الأصلية، له ست مئة جناح، في مطلع أو أفق الشمس الأعلى من قبل المشرق، بحيث حصل له علم ضروري (بدهي) بأنه ملك مقرب يُظمان لتزوله بالوحي عليه، لا شيطان رجيم. وهذا كما جاء في سورة النجم: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ أَفَتَسْتَوُونَ عَلَى مَا بَرَأَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾. وهذه الرؤية بعد رؤيته في بدء الوحي عند غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض في صورته، له ست مئة جناح.

وقيل: هي الرؤية التي رآه فيها عند سدره المنتهى، وسمي ذلك الموضع أفقاً مجازاً، وقد كانت له عليه السلام رؤية ثانية بالمدينة، وليست هذه^(١).

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝١٤﴾ أي ليس محمد ﷺ على ما أنزله الله عليه من الوحي وخبر السماء ببخيل مقصر في التعليم والتبليغ، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه دون أي انتقاص، وهو ثقة مؤتمن لا يأتي بشيء من عند نفسه، ولا يبدل ولا يغير أي حرف أو معنى فيه.

﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ۝٢٥﴾ أي وما القرآن بقول شيطان يسترق السمع، مرجوم بالشهب، فالقرآن ليس بشعر ولا كهانة، كما قالت قريش، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢٧ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ۝٢٨﴾ [الشعراء: ٢٦-٢١٠-٢١٢].

﴿فَاتَيْنَ تَذَهُونَ ۝٢١﴾ أي: أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم؟ وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله تعالى؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للمخلق أجمعين، وتذكير لهم بما ينفعهم، وتحذير لهم عما يضرهم، لمن أراد من البشر أن يستقيم على الحق والإيمان والطاعة، فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه مناجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه.

قال الزمخشري: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بدل من ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وإنما أبدلوا منهم؛ لأن الذين شأوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكانه لم يوعظ به غيرهم، وإن كانوا موعوظين جميعاً.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩) أي وما تشاؤون الاستقامة ولا تقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه، فليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى ربّ الإنس والجن والعالم كله. آمنت بالله وبما يشاء، فلا يقدر أحد على شيء إلا بما يخلق فيه من قوة، وبما يودع الله فيه من قدرة يتمكن من توجيهها نحو الإيمان والخير، أو نحو الكفر والشر، وهذا يعني أن الله أودع في الناس قدرة الاختيار، بدليل الآيات الأخرى التي تنفي الإجبار والإكراه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- الله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك، كما قال القرطبي^(١).

٢- أقسم الله تعالى بجميع الكواكب التي تخنس (تخفي) بالنهار وعند غروبها، وخنوسها: غيبتها عن البصر بالنهار، والتي تجري في أفلاكها، وتكنس، وكنوسها: ظهورها للبصر في الليل، كما يظهر الظبي أو الوحش من كِناسه، ثم تغيب وتستتر في مغيها تحت الأفق، لما في تحركها وظهورها مرة، واختفائها مرة أخرى من الدليل على قدرة خالقها ومصرّفها.

وأقسم الله أيضاً بالليل إذا أقبل بظلامه لما فيه من السكون والرهبة، وبالصبح إذا أضاء وامتد حتى يصير نهراً واضحاً، لما فيه من التفتح والبهجة.

والمقسم المحلوف عليه هو أن القرآن الكريم نزل به جبريل: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٥٦/٨٠]. وإنما نسب الكلام إلى جبريل عليه السلام باعتبار أنه الواسطة بين الله وبين أنبيائه ورسله.

٣ - وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف، هي: كريم عزيز على الله، ذو قوة في الحفظ وأداء طاعة الله ومعرفته وترك الإخلال بها، وذو مكانة وجاه عند ربّ العرش، ومطاع بين الملائكة فهو من السادة الأشراف، وأمّين على وحي الله ورسالاته، قد عصمه الله من الخيانة والزلل.

وقوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ﴾ هذه العندية ليست عندية المكان، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبياء: ١٩/٢١] وليست عندية الجهة، بدليل قوله في الحديث: «أنا عند المنكسرة قلوبهم» بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم^(١).

٤ - ردّ الله تعالى على المشركين المتقولين بأن محمداً ﷺ ليس بمجنون كما زعموا، بأنهم أعلم الناس بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

٥ - رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية، له ست مئة جناح بالأفق المبين، أي بمطلع الشمس من قِبَل المشرق، فهو مبين؛ لأنه تُرى الأشياء من جهته، وذلك ليتأكد ويطمئن بأنه ملك مقرب، لا شيطان رجيم.

٦ - أخبر الله تعالى عن نبيّه بأنه لا يَضُنّ بشيء من الغيب أي الوحي وخبر السماء على أحد، وإنما يقوم بتعليمه وتبليغه دون انتقاص شيء منه، قال مجاهد: لا يَضُنّ عليكم بما يعلم، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه.

٧ - بعد وصف كل من الرسول الوسيط جبريل والمرسل إليه بالأمانة في تبليغ الوحي، حسم الأمر في شأن القرآن، فأعلن بأن القرآن ليس بقول شيطان مرجوم ملعون، كما قالت قريش، ولا بقول كاهن ولا مجنون، وإنما هو موعظة وبيان وهداية للخلق أجمعين، لمن أراد أن يستقيم أي يتبع الحق ويقيم عليه.

٨ - حكم الله بعد هذا الوصف على قريش بالضلال والضياع بقوله: ﴿فَأَيُّ طَرِيقَةٍ تَسْلُكُونَ أَبِينِ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي بَيَّنْتُ لَكُمْ، أَوْ بَعْدَ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي أَوْضَحْتُهَا لَكُمْ.

٩ - لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله، ولا شراً إلا بخذلانه، وليس للإنسان مشيئة إلا أن يشاء الله تعالى أن يعطيه تلك المشيئة، وفعل الاستقامة موقوف على إرادة الاستقامة. والله هدى بالإسلام، وأضل بالكفر.

والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات والأرض. قال الحسن البصري: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله لها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَىٰ آلِهِمُ الْمَلَأَيْنَاكَ وَلَكُمُ الْوَقْ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١/٦] ، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠/١٠] ، وقال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦/٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْانْفِطَارِ

مكية، وهي تسع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة (الانفطار)، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي انشقت، كما قال سبحانه: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨/٧٣].

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة وما قبلها وسورة (الانشقاق) في وصف يوم القيامة وأحواله وأحواله، كما تقدم.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية كغيرها من السور المكية تتحدث عن أمور في العقيدة، وهي هنا بعض أمارات القيامة وما يصحبها من تبدل في الكون، ووقوع أحداث جسام، ووصف أحوال الأبرار والفجار يوم البعث، كالسورة المتقدمة.

ابتدأت بوصف الأحداث الكونية التي ترى في القيامة وهي انشقاق السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، ثم الإخبار عن

علم كل نفس بما قدمت وأخرت: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) [الآيات: ٥-١].

ثم نذرت ببحود الإنسان نعم ربه، ويتقصيره في مقابلة الإحسان بالشكر والعرفان: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَمِلَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) [الآيات: ٦-٨].

ثم ذكرت سبب هذا الجحود وهو إنكار البعث، وبيّنت أن أعمال الإنسان كلها محفوظة مسجلة عليه، يقوم برصدها ملائكة كرام كاتبون: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ (٩) [الآيات: ٩-١٢].

وأردفت ذلك ببيان مصير الناس وانقسامهم إلى فريقين: أبرار وفجار، وأيلولتهم إلى نعيم أو جحيم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) [الآيات: ١٣-١٦].

وختمت السورة بالتحذير من يوم الدين، أي الجزاء والقيامة، واستقلال كل إنسان بالمسؤولية عن نفسه، وتفرد الله بالحكم والأمر: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا (١٩) وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (٢٠) [الآيات: ١٧-١٩].

وَالْخُلَاصَةُ: أن الله تعالى ذكر في السورة السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد كما تقدم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ، قال: «من سرّه أن ينظر إلى القيامة رأي العين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١)، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١)، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١)».

وأخرج النسائي، وأصل الحديث في الصحيحين عن جابر قال: قام معاذ،

فصلى العشاء الآخرة فطَوَّلَ، فقال النبي ﷺ: «أَفْتَانِ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ «سَجِّ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى» (١) و«وَالضُّحَى» (٢) و«إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ» (٣)؟» (٤)

أمارات القيامة والجزاء على العمل وتوبيخ الإنسان على جحود النعم

«إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ» (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا السَّمَاءُ كُفِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمِ (٦) أَلَيْسَ خَلْقَكَ فَسَوْنَكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)

القرءات:

﴿فَعَدَّلَكَ﴾:

قرأ عاصم، وحزة، والكسائي، وخلف: (فَعَدَّلَكَ) وقرأ الباقون (فَعَدَّلَكَ).

الإعراب:

«إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ» (١) «السَّمَاءُ» فاعل لفعل مقدر يفسره «أَنْفَطَرَتْ»؛ لأن «إِذَا» لا تدخل إلا على الفعل.

«مَا غَرَّكَ رَبُّكَ» (٦): استفهامية في موضع رفع، مبتدأ، و«غَرَّكَ»: خبره.

«فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ» (٨): «مَا»: إما زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه، و«فِي» تتعلق بـ «رَكَّبَكَ» أي رَكَّبَكَ في أي صورة شاء، فحذف:

ما، أو شرطية، و ﴿شَاءَ﴾: فعل الشرط المجزوم بـ ﴿مَا﴾، و ﴿رَكِبَكَ﴾: جواب الشرط، و ﴿فِي﴾ حينئذ متعلقة بعامل مقدر؛ لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله، وتقديره: كَوْنُكَ في أي صورة. ولا يكون متعلقاً بـ ﴿فَعَدَلَكَ﴾؛ لأن الاستفهام لا يتعلق بما قبله.

البلاغة:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ سجع مرصع.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ استعارة مكنية، شبه الكواكب بجواهر متناثرة متفرقة، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ استفهام يراد به التوبيخ والإنكار.

للفردات اللغوية:

﴿انْفَطَرَتْ﴾ انشقت. ﴿انْتَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة. ﴿فُجِرَتْ﴾ شَقِقَتْ جوانبها، فصارت بجرأ واحداً. ﴿بُعِثَتْ﴾ قلب ترابها الذي وضع على موتاها، وبعث موتاها. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ وما عطف عليها، أي علمت نفس وقت حدوث هذه الأمور، وهو يوم القيامة ما قدمت من الأعمال، وما أخرت منها فلم تعمله بسبب الكسل.

﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ﴾ جنس الإنسان. ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ما خدعك وأي شيء جرأك على عصيانه؟ و﴿الْكَرِيمِ﴾ العلي العظيم، وذكر للمبالغة في المنع عن الاغترار. ﴿فَسَوْنَكَ﴾ جعل أعضائك سوية سليمة معدة لمنافعها. ﴿فَعَدَلَكَ﴾ جعلك معتدلاً متناسب الخلق والأعضاء، فلا تجد تناقضاً بينها ولا عيباً فيها، فليست يد أو رجل أطول من الأخرى. ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركبك وكوّنك في أي صورة هي من أعجب الصور وأحكمها.

سبب النزول:

نزول الآية ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١):

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١) قال: نزلت في أبي بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشد بن كلداء الجمحي، وقال ابن عباس: الإنسان هنا الوليد بن المغيرة.

وروى غالب الحنفي قال: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١) قال: «غره الجهل».

التفسير والبيان:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ (٢) أي إذا انشقت السماء، كما قال تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨/٧٣] ، وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعْمِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٥] ، وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٣٧) [الرحمن: ٣٧/٥٥] ، وقال عز من قائل: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (٨٩) [النبا: ١٩/٧٨] .

وإذا تساقطت الكواكب وتفرقت، وذلك بعد تشقق السماء.

﴿وَإِذَا الْيَحَاوُ فُجِرَتْ﴾ (٢) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ (٣) أي فجر الله بعضها في بعض فصارت مجراً واحداً، ثم تسجر أي توقد فتصير ناراً تضطرم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْيَحَاوُ سُجِرَتْ﴾ (٤) [التكوير: ٦/٨١] .

وإذا قلب تراب القبور، وأخرج موتاها، وصار باطنها ظاهرها.

وإذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة، فهناك يحصل الحشر والنشر، وبما أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم، وفناء الدنيا، فإنه يلاحظ الترتيب، فيبدأ أولاً بتخريب السماء التي هي كالسقف، ويلزم من

تخريب السماء انتشار الكواكب، ثم يخرب ما على وجه الأرض التي هي كالبناء، وهو تفجير البحار، ثم تقلب الأرض ظهراً لبطن، وبطناً لظهر، وهو بعثرة القبور.

وجواب الشرط قوله تعالى:

﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۚ﴾ أي إذا حدثت الأمور المتقدمة، علمت كل نفس عند نشر الصحف ما قدمت من عمل خير أو شر، وما أخترت من الأعمال بسبب التكاسل والإهمال، كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۚ﴾ [القيامة: ١٣/٧٥].

وبما أن المراد بهذه الأمور يوم القيامة، فيكون المقصود بالآية الأخيرة في الأصح الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة.

وبعد بيان تبدل نظام العالم، والإخبار عن وقوع الحشر والنشر، وبَّخ الله تعالى الإنسان على تقصيره في عمل الخير، وجحوده النعم، بأن لم يطع أوامر الله شكراً على النعمة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۖ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) أي يا أيها الإنسان المدرك نهاية العالم ما الذي خدعك وجراك على عصيان ربك الكريم الذي أنعم عليك في الدنيا، حيث خلَقَكَ من نقطة بعد العدم، وجعلك سوياً مستقيماً، معتدلاً القامة في أحسن هيئة وشكل، متناسب الأعضاء، لا تفاوت فيها، مزوداً بالخواص من السمع والبصر، وطاقاة العقل والفهم؟

والأصح أن الآية تتناول جميع العصاة؛ لأن خصوص السبب لا يقدر في عموم اللفظ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد وصف الله تعالى نفسه في هذا المقام بالكرم، وهذا الوصف يقتضي الاغترار به، حتى قالت العقلاء: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه. فكان الكرم سبب الاغترار، وإنما وقع الإنكار عليه؛ لأن الإنسان لم يدرك أن كرمه صادر عن الحكمة، وهي تقتضي ألا يهمل وإن أمهل، وأن ينتقم للمظلوم من الظالم ولو بعد حين، وقيل: غره: جهله، وقيل: غره: عدوه المسلط عليه، وهو الشيطان، وقيل: غره عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة.

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٨) أي ركبك في أي صورة شاءها من أبهى الصور وأجلها، وأنت لم تختَر صورة نفسك، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١) [النين: ٤/٩٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن من علامات يوم القيامة تبدل النظام الكوني، بتشقق السماء، وتساقط الكواكب، وتفجير البحار بعضها في بعضها، حتى تصير بحراً واحداً، ثم توقد حتى تصير ناراً تضطرم، وبعثرة القبور وإخراج موتائها منها.

٢ - إذا حدثت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة، حصل الحشر والنشر، وختمت صحائف الأعمال، فعلمت كل نفس ما كسبت، ووجدت ما قدمت من خير أو شر، وحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها يمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها، ولم يعد ينفعها عمل بعد ذلك.

٣ - مسكين هذا الإنسان لا يشكر نعم ربه بإطاعة أوامر، ولا يدخر من العمل الصالح ما يفيد في سفينة النجاة في آخرته، وغره كرم الله الذي تجاوز عنه في الدنيا، أو حمقه وجهله، أو شيطانه المسلط عليه. أخرج ابن أبي حاتم

عن سفيان أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ فقال عمر: الجهل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا ظُلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢/٣٣]. وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه، فقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول: غَرَّنِي سُتُورُكَ الْمُرَخَاةُ؛ لأن الكريم هو الستار.

٤ - نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى، وأهمها ما يتعلق بنفسه، حيث خلقه الله من نطفة ولم يك شيئاً، وجعله سليم الأعضاء، منتصب القامة، متناسب الأعضاء، مستعداً لقبول الكمالات، بالسمع والبصر والعقل وغير ذلك، وصوره في أحسن الصور وأعجبها وأبدعها، واختار له الهيئة الجميلة والشكل البديع، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤/٩٥].

علة الجحود وكتابة الملائكة وانقسام الناس فريقين

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ① ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ② ﴿كِرَامًا كَذِبِينَ﴾ ③ ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ④ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ⑤ ﴿وَأَنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ⑥ ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ⑦ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ⑧ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ⑨ ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ⑩ ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ⑪

القراءات:

﴿يَوْمَ لَا﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يوم لا).

الإعراب:

﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ﴾: بالنصب على البدل من ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾

[الآية: ١٥] الأول المنصوب. ويقرأ بالرفع على البدل من ﴿يَوْمُ الَّذِينَ﴾ [الآية: ١٨] المرفوع، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو يوم لا تملك.

للبلاغة:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۝ سَجْعًا مَرصِعًا، ومثله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝﴾. والسجع: هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وهو ثلاثة أنواع: مطرف ومتواز وترصيع.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝﴾ بينهما مقابلة، قابل بين الأبرار والفجار، وبين النعيم والجحيم. وفيها سجع الترصيع: وهو أن يكون في إحدى الفقرتين مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية، وهو من المحسنات اللفظية. والمقابلة من المحسنات المعنوية: وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، فقد تكون بين اثنين أو ثلاثة أو أكثر.

﴿نَعِيمٍ﴾ و ﴿جَحِيمٍ﴾ التنكير للتعظيم والتهويل.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝﴾ إطناب بإعادة الجملة، لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى، فهي كلمة نفيد نفي شيء تقدم، وتحقق غيره. ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾: إضراب إلى بيان ما هو السبب الأصلي في اغترارهم. والمراد ﴿بِالَّذِينَ﴾: الجزاء على الأعمال يوم القيامة. ﴿لَحَافِظِينَ﴾ ملائكة حفظة لأعمالكم، يحصون كل ما كان منها من خير أو شر. ﴿كِرَامًا﴾ عند الله، ووصفهم بذلك لتعظيم الجزاء. ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلمون جميع الأفعال.

﴿الْأَبْرَارَ﴾ هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، الذين يفعلون البرَّ (الخير) ويتقون الله في كل أفعالهم، جمع برَّ. ﴿نَعِيمٍ﴾ جنة. ﴿الْفَجَارَ﴾ هم الكفار التاركون لما شرع الله لعباده، جمع فاجر. ﴿جَحِيمٍ﴾ نار محرقة. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويقاسون حرَّها. ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ يوم الجزاء. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي لا يخرجون منها، لخلودهم فيها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ما أعلمك وعرفك، وكرر الجملة لتفخيم شأن اليوم وتعظيم هوله، بحيث لا يدركه إنسان. ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ من المنفعة. ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي لا أمر لغيره فيه، فلا يمكن أحد من التوسط فيه. والمقصود بالآية تقرير شدة هول ذلك اليوم، وتفخيم أمره إجمالاً.

للناسبة:

بعد بيان أمارات الساعة الدالة على صحة القول بالبعث والنشور، وبعد تعداد نعم الله على الإنسان، وجحوده إياها، ذكر الله تعالى علة هذا الجحود وهو التكذيب بالبعث، ثم رغب بالطاعة، وحذر من المعصية بسبب كتابة الحفظة لجميع الأعمال، ثم أوضح أن الناس يوم القيامة فريقان: أبرار منعمون، وفجار معذبون مغلَّدون في النار، وأن يوم القيامة ذو شدائد وأهوال، تتجرد فيه النفوس من قواها، ويتفرد الله عزَّ وجلَّ بالحكم والسلطان.

للتفسير والبيان:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أي ارتدعوا وانزعجوا عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به، والواقع أنكم تكذبون بيوم المعاد والحساب والجزاء، حيث لا يحملكم الخوف من هذا اليوم على التزام طاعة الله واجتناب معاصيه.

ثم زاد في التحذير من العناد والتكذيب بالإخبار أن جميع الأعمال مرصودة على الناس بالملائكة، فقال:

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٧﴾ كِرَامًا كُنِينًا ﴿١٨﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي إن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقباح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم، ويعلمون جميع ما تفعلون، كما قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَائِدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧-١٨].

وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلًا قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الكرام الكاتنين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط، أو ببيعيره، أو ليستره أخوه».

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، فوصله بلفظ آخر، وأسنده عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرام الكاتنين، الذين لا يفارقونكم إلا عند ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء، فليستتر بثوبه أو بجرم حائط، أو ببيعيره».

لذا كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع، لفارقة الملك العبد عند ذلك.

ثم ذكر الله تعالى تصنيف الناس العاملين يوم القيامة فريقين نتيجة كتابة الحفظة لأعمال العباد، فقال:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿٢١﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾: وهم الذين أطاعوا الله عز وجل، ولم يقابلوه بالمعاصي يصيرون إلى دار النعيم وهي الجنة، ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾: وهم الذين كفروا بالله وبرسله، وقابلوا ربهم بالمعاصي، يصيرون إلى دار الجحيم، وهي النار المحرقة، يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٤٢/٧].

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي لا يفارقون الجحيم ولا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف من عذابها، بل هم فيها إلى الأبد، ملازمون لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧/٢].

ثم وصف يوم القيامة وصفاً إجمالياً في غاية التهويل وأكد ذلك مرتين، فقال:

﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَذْرَبَكُمْ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ أي وما أعلمكم وما أعرفكم ما يوم الجزاء والحساب، وكرر الجملة تعظيماً لشأن يوم القيامة، وتفضيماً لقدره، وتهويلاً لأمره، مما يستدعي التدبر والتأمل، فلو عرف المرء تلك الأحوال، لما فارق طاعة الله ساعة، وابتعد عن المعصية بُعد السماء من الأرض، ولكن الإنسان في غفلة وسهو وتجاهل، يعيش في الآمال، ويعتمد على الأحلام أحياناً، ويهرب من الواقع.

ثم حسم الله تعالى الأمر، وأبان حقيقة الموقف، ودور الإنسان فيه، فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٩) أي إنه اليوم الذي لا يقدر فيه أحد كائناً من كان على نفع أحد، ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ولا يملك أحد القضاء بشيء أو صنع شيء، إلا الله رب العالمين، فهو المتفرد بالحكم والسلطان، فيبده الأمر كله، وإليه ترجع الأمور كلها. قال قتادة: والأمر، والله اليوم، الله، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

ونظير الشطر الأول من الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنْقُذُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨/٢]، وقوله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧/٤٠]، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُقْرَأُ التَّوْرُ مِنْ أَجْلِ أَخِيهِ﴾ (٢١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٢) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٢٣) لِكُلِّ أُمِّيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٤) ﴿٢٧﴾ [عس: ٣٧-٣٤/٨٠]. وجاء في الحديث الثابت الذي أخرجه الترمذي: «يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً».

ونظير الشطر الآخر قوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾
[غافر: ١٦/٤٠] ، وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٦] ،
وقوله: ﴿مَنْ لِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الناحة: ٤/١] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - أمر تعالى بأن نرتدع عن الاغترار بحلم الله وكرمه ، وأن نتفكر في آيات الله.

٢ - إن منشأ عدم الخوف من الله والتجرؤ على الكفر والعصيان في الحقيقة والواقع هو التكذيب بالجزاء والحساب في يوم القيامة.

٣ - حال الناس مما يثير التعجب ، فهم يكذبون بيوم الحساب والجزاء ، وملائكة الله موكلون بهم ، يكتبون أعمالهم ، حتى يحاسبوا بها يوم القيامة . ولا يختلف الحال بين المؤمنين والكفار ، فعليهم جميعاً الحفظة ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِسْمِ اللَّهِ﴾ [الحاقة: ٦٩/١٩] ، ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِسْمِ اللَّهِ﴾ [الحاقة: ٦٩/٢٥] ، وفي آية أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ٨٤/١٠] ، فهذا خبر يدل على أن الكفار يكون لهم كتاب ، ويكون عليهم حفظة.

سئل سفيان الثوري: كيف تعلم الملائكة أن العبد قد همّ بحسنة أو سيئة؟ قال: إذا همّ العبد بحسنة ، وجدوا منه ريح المسك ، وإذا همّ بسيئة وجدوا منه ريح الثَّن.

٤ - وصف الله تعالى الملائكة الحفظة بصفات أربع: هي كونهم حافظين ، وكونهم كراماً ، وكونهم كاتبين ، وكونهم يعلمون ما تفعلون . ووصف الله إياهم بهذه الصفات يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظم شأنهم ، وفي

تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكلوا بضبط ما يحاسب عليه كل إنسان. قال بعض العلماء: من لم يزجره من المعاصي مراقبة الله إياه، كيف يرده عنها الكرام الكاتبين؟

٥ - أحوال العاملين ومصيرهم يوم القيامة: إن الأبرار يكونون في جنات النعيم، وإن الفجار يكونون في نيران الجحيم، يدخلونها ويقاسون لهاها وحرها يوم الجزاء والحساب، ويلازمونها إلى أبد الأبد، فلا يغيون عنها. وليس صاحب المعصية الكبيرة فاجراً، وإنما الكفار هم الفجرة لا غيرهم كما تقدم، وليس صاحب الكبيرة فاجر على الإطلاق، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس: ٤٢/٨٠).

وفي هذا تهديد عظيم للعصاة، حكي أن سليمان بن عبد الملك مرَّ بالمدينة، وهو يريد مكة، فقال لأبي حازم: كيف القدوم على الله غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه، قال: فبكي، ثم قال: ليت شعري ما لنا عند الله! فقال أبو حازم: اعرض عملك على كتاب الله، قال: في أي مكان من كتاب الله؟ قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ قال سليمان: فأين إذن هي رحمة الله؟ فأجابه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) [الأعراف: ٥٦/٧].

٦ - في يوم القيامة والجزاء والحساب الرهيب لا يستطيع أحد مهما كان أن يقدم منفعة لآخر، والأمر كله حينئذ لله الواحد القهار، لا ينازعه فيه أحد.

وفي هذا وعيد عظيم وتهويل جسيم ليوم القيامة، ودليل على أنه لا يغني عن الناس إلا البر والطاعة يومئذ، دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا

من مال وولد وأعوان وشفعاء. قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ إشارة إلى فناء غير الله تعالى، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك، كانت دنياه أخراه.

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: هو إشارة إلى أن البقاء والوجود لله، والأمر كذلك في الأزل وفي اليوم، وفي الآخرة، ولم يتغير من حال إلى حال، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر، لا إلى أحوال المنظور إليه^(١).

(١) تفسير الرازي: ٨٦/٣١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

مكية، وهي ست وثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة (المطففين)، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهم الذين يخسون المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضوا من الناس، وإما بالنقصان إن قضوهم أو وزنوا أو كالوا لهم.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق هذه السورة بما قبلها من وجوه أربعة:

١ - قال الله تعالى في آخر السورة المتقدمة واصفاً يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة، فلهذا أتبعه هنا بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد: الزجر عن التطفيف: والبخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية. أما الكثير فيظهر، فيمنع منه.

٢ - في كل من السورتين توضيح أحوال يوم القيامة.

٣ - ذكر الله تعالى في السورة السابقة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ كراماً

كُنِينَ ﴿١١﴾ وذكر هنا ما يكتبه الحافظون: ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ ﴿١٢﴾﴾ يُجْعَلُ فِي عَلَيْنَ، أَوْ فِي سَجِينِ.

٤ - ذكر الله تعالى تصنيف الناس إلى فريقين: أبرار وفجار في كل من السورتين، وذكر مآل كل فريق، إما إلى الجنة، وإما إلى النار. قال أبو حيان: لما ذكر تعالى السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه، ذكر ما أعد لبعض العصاة، وذكرهم بأخس ما يقع من المعصية، وهي التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته^(١).

ما اشتملت عليه السورة:

عنيت هذه السورة كسائر السور المكية بأمور العقيدة، وعلى التخصيص أحوال يوم القيامة وأهوالها، وعنيت بأمور الأخلاق الاجتماعية، وهي هنا تطفيف الكيل والميزان.

بدأت السورة بمطلع مخيف، وهو وعيد المطففين بالعذاب الشديد: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [الآيات ١-٦].

ثم أبانت أن كتاب الفجار الأشقياء في ديوان الشر، وفي كتاب مرقوم بعلامة، وأن مصيرهم أسفل السافلين في نار جهنم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [الآيات ٧-١٧].

وأردفت ذلك على سبيل المقارنة والعبرة والجمع بين الترغيب والترهيب ببيان أن صحائف الأبرار في أعلى عليين، وأنها في كتاب مرقوم بعلامة متميزة عن صحائف الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٨﴾﴾ [الآيات ١٨-٢٨].

(١) البحر المحيط: ٤٣٩/٨.

وختمت السورة بوصف موقف المجرمين من المؤمنين، حيث كانوا يستهزئون ويضحكون منهم في الدنيا لإيمانهم وتقواهم ربهم، ثم انعكاس هذا الموقف في الآخرة حيث صار المؤمنون يتضحكون من الأشقياء المجرمين ويسخرون منهم، وينظرون إليهم وهم يعذبون في النار وما يلقونه من النكال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٢٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وعيد الطففين

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْفِفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

الإعراب:

﴿كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ الهاء والميم: إما ضمير منصوب بالفعل، وتقديره: كالوا لهم ووزنوا لهم، فحذفت اللام، فاتصل الفعل به، وإما ضمير مرفوع مؤكد لواو الجماعة في الفعل. قال ابن كثير: والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعدياً، ويكون (هم) في محل نصب. وقال أبو حيان: كال ووزن مما يتعدى بحرف الجر، فتقول: كلت لك ووزنت لك، ويجوز حذف اللام كقولك: نصحت لك ونصحتك، وشكرت لك وشكرتك.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ الثاني: إما منصوب بفعل مقدر، دلَّ عليه ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ أي مبعوثون يوم يقوم الناس، وإما بدل من موضع الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ ① ﴿أَلَا﴾ هنا: ليست أداة استفتاح، وإنما الهمزة للإنكار والتعجب، و(لا) للنفي.

البلاغة:

﴿وَبَلِّ لِلْمُطْفِفِينَ﴾ ① تنكير ﴿وَبَلِّ﴾ للتهويل والتفخيم.

﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُحْصِرُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَبَلِّ﴾ كلمة عذاب، أي شدة عذاب في الآخرة. ﴿لِلْمُطْفِفِينَ﴾ المنقصين، جمع مطفف: وهو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن، والمراد بالتطفيف هنا: إما الازدياد إن اقتضوا من الناس، وإما النقصان إن قضوهم. وسمي بذلك لأن ما يبخص شيء حقير طفيف. ﴿أَكَاوُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أخذوا منهم حقوقهم. ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يأخذون الكيل وافيأ كاملاً. ﴿كَالَوْهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ كالوا لهم أو وزنوا لهم. ﴿يُحْصِرُونَ﴾ ينقصون الكيل أو الوزن.

﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ يتيقن، وهو استفهام توبيخ وإنكار وتعجب من حالهم، وعبر بالظن؛ لأن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن ييقنه. ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ② أي يوم القيامة، عظمه لعظم ما يكون فيه. ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ من قبورهم. ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي رب الخلائق، والمراد: يوم يقف الناس أمام ربهم لأجل أمره وحكمه وحسابه جزائه. قال البيضاوي: وفي هذا الإنكار والتعجب، وذكر الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله، والتعبير برب العالمين مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثم.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أجس الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وقال السُّدِّي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيلان، يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فنزلت. وهي آخر سورة نزلت بمكة، فهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل. ويقال: إنها أول سورة نزلت بالمدينة، فهي مدنية في قول الحسن وعكرمة. روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وكانوا من أخبث الناس كيلاً، فنزلت، فأحسنوا الكيل^(١). وهذا على أن السورة مدنية، أو قرأها عليهم بعد قدومه إن كانت مكية.

التفسير والبيان:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) أي عذاب شديد للمتقصين في الكيل أو الوزن، والتطفيف: الأخذ في الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً، أي نزرأ حقيراً أو يسيراً، والمطفف: هو المقلل حق صاحبه بتقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال ابن كثير رحمه الله: البخس في المكيال والميزان: إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالتقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالחסار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أي هم الذين إذا اكتالوا من الناس وقبضوا لهم، يأخذون حقهم وأحياناً زائداً، وإذا كالوا أو وزنوا لغيرهم من الناس أو أقبضوهم، ينقصون الكيل أو الوزن.

(١) رواه النسائي عن ابن عباس.

وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥) [الإسراء: ٣٥/١٧] وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْ فَنَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢/٦] وقال عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الزُّكْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (٩) [الرحمن: ٩/٥٥]. وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال، بعد أن كرر النصيح لهم، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُوا أَؤُفُوا بِالْكِبَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنُتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥) [هود: ٨٥/١١].

ثم تواعد الله تعالى المطففين بقوله:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (١) ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) أي ألا يخطر ببال أولئك المطففين أنهم مبعوثون، فمساءلون عما يفعلون؟ وأما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي ربهم في يوم عظيم الهول كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وهو يوم القيامة.

إنه يوم يقوم الناس فيه حفاة عراة، في موقف صعب حرج، منتظرين لأمر رب العالمين وجزائه وحسابه. وفي هذا دلالة على عظم ذنب التطفيف، ومزيد إثم، وشدة عقابه، لما فيه من خيانة الأمانة وأكل حق الغير. وفي الإشارة إليهم بأولئك، وقد ذكرهم عما قريب، تبعيد لهم عن رتبة الاعتبار، بل عن درجة الإنسانية. وفي هذا الإنكار والتعجيب، وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لرب العالمين، بيان بليغ لعظم هذا الذنب. ويلاحظ أن المطففين إن كانوا من أهل الإسلام، فالظن بمعنى اليقين أو العلم، وإن كانوا كفاراً منكري البعث، فالظن بمعناه الأصلي، والمراد: هب أنهم لا يقطعون بالبعث، أفلا يظنونهم أيضاً؟ كقوله: ﴿إِنْ تَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [الحاثية: ٣٢/٤٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

أ - التطفيف: وهو إنقاص حق الآخر في الكيل أو الوزن ونحوهما من المقاييس، حرام شرعاً، موجب للإثم الشديد والعذاب الأليم في الآخرة، وهو أيضاً رذيلة اجتماعية ونقيصة وعيب يطعن في الخلق، ويؤدي إلى ابتعاد الناس عن فاعله.

روي أن أهل المدينة كانوا تجاراً يطففون، وكانت بياعتهم المنابذة والملاسة والمخاطرة، يعني بيع الغرر، كالطير في الهواء، فنزلت - على أن السورة مدنية في رأي جماعة - فخرج رسول الله، فقرأها عليهم، فقال:

«خُسٌّ بخمسٍ، ما نقض قوم العهد إلا سُلْطَ عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طَفَّفُوا المكيالَ إلا مُنَعُوا النَّبَاتَ، وأخذوا بالسَّيْنِ، ولا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إلا حُسِسَ عنهم القَطْرُ»^(١).

٢ - المراد بالتطفيف هنا: الزيادة في الكيل أو الوزن ونحوهما عند استيفاء الحق، ونقص الكيل أو الوزن ونحوهما عند إيفاء الحق.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾  توبيخ للمطففين، وإنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجترار على التطفيف، كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون يوم القيامة، فمسؤولون عما يفعلون. والظن هنا كما تقدم بمعنى اليقين، أي ألا يوقن أولئك؟ ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن. وهذا دليل على أن التطفيف من الكبائر.

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عباس، وهو حديث صحيح. وأخرجه أبو بكر البزار بمعناه، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ابن عمر.

وهذا الوعيد يتناول من يفعل ذلك، ومن يعزم عليه؛ إذ العزم عليه أيضاً من الكبائر^(١).

وأكثر العلماء على أن قليل التطفيف وكثيره يوجب الوعيد، وبالغ بعضهم كما تقدم، حتى عدّ العزم عليه من الكبائر.

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله: لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب وإخفائه، وفي طلب الإنصاف والاتصاف، ومن لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه، فليس بمنصف، والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه، فهو من هذه الجملة، ومن طلب حق نفسه من الناس، ولا يعطيهم حقوقهم، كما يطلب لنفسه، فهو من هذه الجملة، والفتى من يقضي حقوق الناس، ولا يطلب من أحد لنفسه حقاً^(٢).

ويحكى أن أعرابياً قال لعبد الملك بن مروان: إن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك، وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ووزن؟!

٤ - قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي للعرض والحساب، فيه غاية التخويف؛ لأن جلال الله وعظمته يملآن النفس رهبة وهيبة، والقيام له شيء حقير أمام عظمته وحقه.

أما قيام الناس بعضهم لبعض، ففيه خلاف، فمنهم من أجازته، ومنهم من منعه، وقد روي أن النبي ﷺ قام إلى جعفر بن أبي طالب واعتنقه، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تيب عليه، وقال النبي ﷺ للأنصار، حين طلع عليه سعد

(١) وهذا رأي الرازي، تفسير الرازي: ٨٩/٣١.

(٢) غرائب القرآن: ٤٩/٣٠.

ابن معاذ فيما رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري: «قوموا إلى سيّدكم». وقال أيضاً: «من سرّه أن يتمثل له الناس قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

قال القرطبي: وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن انتظر ذلك واعتقده نفسه، فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوصلة، فإنه جائز، وبخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه^(٢).

والخلاصة كما ذكر الرازي: جمع الله سبحانه في هذه الآية أنواعاً من التهديد، فقال أولاً: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء، ثم قال ثانياً: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار، ثم قال ثالثاً: ﴿لَيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة، ثم قال رابعاً: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفيه نوعان من التهديد:

أحدهما - كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذل والانكسار.

والثاني - أنه وصف نفسه بكونه رباً للعالمين^(٣).

(١) تفسير القرطبي: ٢٥٦/١٩.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٥٦/١٩.

(٣) تفسير الرازي: ٩١-٩٠/٣١.

ديوان الشر وقصة الفجار

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ ۖ وَمَا أَزْدُرُكَ مَا سِجِّينَ ۝٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ
﴿٩﴾ وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ
مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُفِثَ عَلَيْهِ مَا بَيْنَنَا قَالَ أَسْطِيزُ الْآوَلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ
﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿بَلْ رَانَ﴾:

سكت حفص سكتة لطيفة من غير تنفس على لام (بل) ويلزم منه الإظهار،
وقرأ غيره بترك السكت مع إدغام اللام في الراء.

الإعراب:

﴿لَفِي سِجِّينَ﴾ ﴿سِجِّينَ﴾: من السجن، وهو الحبس والتضييق، وقيل:
النون فيه بدل من اللام.

﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو كتاب مرقوم، أي هو في موضع
كتاب مرقوم، وكذا التقدير في قوله بعدئذ: ﴿عَلَيُّونَ﴾ [١٩] ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾
﴿٢٠﴾ [٢٠] فحذف المبتدأ والمضاف جميعاً، وإنما وجب هذا التقدير، لقيام
الدليل على أن ﴿عَلَيِّينَ﴾ مكان، قال النبي ﷺ: «إنكم لترون أهل عليين،
كما يرى الكوكب الذي في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم». وعليين:
جمع لا واحداً له، كعشرين، سمي به.

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ بدل أو عطف بيان للمكذبين.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿هَذَا﴾: في موضع رفع مبتدأ،
وخبره ﴿الَّذِي﴾. والجملة في موضع رفع نائب فاعل.

البلاغة:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) و﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (٨) بينهما مقابلة، حيث قابل بين حال ﴿الْفَجَارِ﴾ وحال ﴿الْأَبْرَارِ﴾، وبين ﴿سِجِّينَ﴾ و﴿عِلِّيِّينَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّا﴾ للردع والزجر عما هم فيه من التطفيف والتكذيب بالنسبة للكافر، أو الغفلة عن البعث والحساب بالنسبة للمؤمن. ﴿كِتَابَ الْفَجَارِ﴾ كتاب أعمال الكفار، وهو ما يكتب فيه من أفعالهم. ﴿سِجِّينَ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين: الشياطين والفسقة والكفرة، فهو ديوان الشر، بدليل قوله تعالى بعدئذ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ (٨) ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (٩) والمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان. وقيل: هو مكان في أسفل السافلين، و﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (٩) ليس تفسيراً للسجين، بل التقدير: كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وإن كتاب الفجار مرقوم وموقع. لكن قال الزمخشري: سجين كتاب جامع هو ديوان الشر، دُونَ الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة، أو مُعَلَّم يعلم من رآه أنه لا خير فيه، فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان، وسمي سجينةً فعلياً من السجن وهو الحبس والتضييق؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، فهو اسم علم لا صفة، منقول من وصف كخاتم، وهو منصرف؛ لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف^(١).

وقال أبو حيان: والظاهر أن سجينةً هو كتاب، ولذلك أبدل منه ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (٩)^(٢).

(١) الكشف: ٣/٣٢٢.

(٢) البحر المحيط: ٨/٤٤٠.

﴿وَمَا أَزِدْكَ مَا يَحِبُّ ۝٨﴾ ما كتاب سجين؟ ﴿كِتَابٌ مَرْفُومٌ ۝٩﴾ كتاب مسطور بين الكتابة، أو مُعَلَّم، يعلم من رآه أنه لا خير فيه، كما تقدم، يقال: رقم الكتاب: إذا جعل له علامة، وتسمى العلامة رقماً. ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز حدود الشرع والنظر والعقل. ﴿أَثِيرٍ﴾ كثير الآثام أي المعاصي منهمك في الشهوات المعيبة، صيغة مبالغة.

﴿إِنَّا﴾ القرآن. ﴿أَسْطُرُ الْأَوَّلِينَ﴾ حكايات وأخبار القدماء، جمع أسطورة، أو إسطورة، ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر لهم عن هذا القول. ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ غطاها وغلب عليها، أي اسودت من الذنوب، وهو رد لما قالوه وبيان سبب قلوبهم، وهو حب المعاصي بالانهماك فيها، حتى صار ذلك صدأ على قلوبهم، فعُمِيَ عليهم معرفة الحق والباطل. والرين: الصدأ. ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي، فهو كالصدأ.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الكسب الزائد. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة. ﴿لَمَحْجُورُونَ﴾ فلا يرونه، بخلاف المؤمنين، ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلاً لإهانتهم بإهانة حجاب الملوك الذين يمنعون عن الدخول عليهم. ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ لداخلوا النار المحرقة وملازموها. ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ يقول لهم الزبانية: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به.

المناسبة:

بعد بيان عظم ذنب التطفيف، وبيان سببه، وهو إنكار البعث والحساب أو الغفلة عنهما، ردعهم الله تعالى عن الأمرين معاً، ثم بين أن كل ما يعمل من خير أو شر، فإنه مكتوب مسطر عند الله، وأوعد منكري البعث المكذبين به، والقائلين بأن القرآن أساطير الأولين، وليس وحياً من عند الله، ثم زجرهم عن هذه المقالة الباطلة، وأوضح سببها وهو انغماسهم في المعاصي التي حجب قلوبهم عن رؤية الحق والباطل، فصاروا لا يميزون بين الخير

والشر، وأعقب ذلك بيان جزائهم، وهو طردهم من رحمة الله ودخولهم نار جهنم وملازمتهم لها.

وقدّم ديوان الشر عن ديوان الخير؛ لأن المذكور قبله هو وعيد أهل الفجور، فناسب إيراد حال الأشرار أولاً.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) أي ارتدعوا وانزجروا عما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، فإن الفجار ومنهم المطففون أعمالهم مكتوبة في ديوان الشر وسجل أهل النار وهو السجين، أو في حبس وضيق شديد، فكلمة «سِجِّين» من السجن: وهو الضيق والحبس.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَسْحَبُونَ﴾ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ أي وما أعلمك أنت ولا قومك ما هو السجين؟ إنه الكتاب الذي رصدت فيه أسماؤهم، فهو كتاب مسطور بين الكتابة، جامع لأعمال الشر الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة. وهذا السجل المسمى بالسجين هو السجل الكبير أو العظيم، الذي فيه لكل فاجر صحيفة.

وهذا هو الظاهر في معنى كلمة «سِجِّين». وقد عرفنا سابقاً أن بعضهم يرى أن السجين هو مكان وهو جهنم وهي أسفل السافلين، لذا قال محمد بن كعب القرظي: قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (٩) ليس تفسيراً لقوله: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَسْحَبُونَ﴾ (٨) وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزداد فيه أحد، ولا ينقص منه أحد^(١). وهو رأي النحويين كما تقدم.

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٥.

﴿وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ١٣﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ أي عذاب شديد يوم القيامة لمن كذب بالبعث والجزاء وبما جاء به الرسل، فهؤلاء المكذبون هم الذين لا يصدقون بوقوع الجزاء، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره. وهذا وعيد للذم لا للبيان؛ لأن كل مكذب فالوعيد يتناوله، سواء كان مكذباً بالبعث أو بسائر آيات الله تعالى.

ثم أبان الله تعالى صفات من يكذب بيوم الدين وهي ثلاث، فقال:

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا نَشَأَ قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢﴾ أي لا يكذب بيوم الدين إلا من كان متصفاً بهذه الصفات الثلاث: وهي أولاً - كونه معتدياً، أي فاجراً جائراً متجاوزاً منهج الحق، ثانياً - أنه أثيم: وهو المنهمك في الإثم في أفعاله، من تعاطي الحرام وتجاوز المباح، وفي أقواله: إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر، وثالثاً - أنه إذا تلى عليه القرآن قال: أساطير الأولين، أي أخبار الأولين المتقدمين وأكاذيبهم وأباطيلهم التي زخرفوها، تلقاها محمد ﷺ من غيره من السابقين، وهذا يعني في زعمهم أن القرآن ليس وحياً من عند الله تعالى.

وهذه الصفة الثالثة تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٢﴾ [النحل: ١٦/٢٤] وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥﴾ [الفرقان: ٥/٢٥] قيل: نزل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهما.

ثم بين الله تعالى أسباب افتراءهم على القرآن، فقال:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن هذه الأقوال، فليس الأمر كما زعمتم أنها المعتدون الآثمون، ولا كما قلتم: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله، ووحيه، وتزيله على رسوله ﷺ، وإغما السبب هو كثرة الذنوب والخطايا التي حجبت قلوبكم عن الإيمان

بالقرآن، والتي كَوَّنت عليها الرِّين الذي منع نفاذ الحق والخير والنور إليها، فأعماها عن رؤية الحقيقة. والرين: يعتري قلوب الكافرين، فقوله: ﴿رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي غطى عليها. أخرج ابن جرير وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك الرأ الذي ذكره الله سبحانه في القرآن». قال الحسن البصري عن الران: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب، ويسود من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين.

ثم أبان الله تعالى أنهم مطرودون من أي رحمة أو تكريم، فقال:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي ليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة منزلة حسنى، بل إن هؤلاء الكفار محجوبون عن ربهم يوم القيامة، لا ينظرون إليه كما ينظر المؤمنون، فكما حجبتهم في الدنيا عن توحيده بسبب سوء أعمالهم، حجبتهم في الآخرة عن رؤيته وكرامته.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يروونه عز وجل يومئذ^(١). وهذا استدلال بمفهوم الآية، يدل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة: ٢٣-٢٤/٧٥].

ثم إنهم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن هم من أهل النيران، فهم داخلو النار، وملازموها غير خارجين منها، ومقاسو حرها، وصِلِي الجحيم أشد من الإهانة وحرمان الكرامة.

ويقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ:

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٤٨٥.

﴿ثُمَّ بَقِيَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٧) أي تقول لهم خزنة جهنم وزبانياتها تبكيئاً لهم وتوبيخاً: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، فانظروه وذوقوه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - إن أعمال الفجار العصاة الكفرة مرصودة في كتاب مسطور بين الكتاب، مُعَلَّم بعلامة، ومصيرهم السجن والضيق في جهنم والعذاب المهين.

ب - هناك شدة وعذاب أليم يوم القيامة للذين يكذبون بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد.

ج - لا يصدر التكذيب بالبعث والآخرة إلا من الفاجر المتجاوز حدود الحق، المعتدي على الخلق في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو الأثيم العاصي في ترك أمر الله، وهو القائل عن القرآن إذا نلي عليه: إنه أساطير الأولين، أي أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها.

د - ليس القرآن أساطير الأولين كما زعموا، وإنما هو كلام الله الحق المنزل على قلب نبيه المصطفى ﷺ. وسبب زعمهم كثرة القبائح والمعاصي التي غطت قلوبهم بالران وهو الحجاب الكثيف الذي يحدث بسبب تراكم الذنوب، فمنعتها من رؤية الحق والباطل، والتمييز بين الخير والشر.

ه - حقاً، إن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث المكذبين بالقرآن محجوبون عن رؤية ربهم يوم القيامة، فلا ينظر إليهم نظرة رحمة، ولا يرونه، ثم إنهم يلزمون الجحيم (النار المحرقة) فلا يخرجون منها، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها، وكلما خبت نارها زادهم الله سعيراً، ويقال لهم من خزنة جهنم: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به رسل الله في الدنيا.

٩ - قال الزجاج في آية: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِيزٌ لَمَحْجُوتُونَ﴾ (١٥): في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم محجوبون.

وقال جل ثناؤه: ﴿وَهُوَ يَوْمِيزُ نَاصِرَةٌ﴾ (١٦) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (١٧) [القيامة: ٧٥/ ٢٢-٢٣] فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه.

وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه، فلم يروه، تجلى لأوليائه حتى رأوه.

وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالسخط، دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد، لما عبده في الدنيا.

ديوان الخير وقصة الأبرار

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْفُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنْظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمَرْاجِعُهمْ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾

القراءات:

﴿خِتْمُهُ﴾:

وقرأ الكسائي (خاتمه).

الإعراب:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٨) ﴿عَيْنًا﴾: تميز، أو حال من ﴿تَسْنِيمٍ﴾؛

لأنها بمعنى جارية، على أن (تسنيماً) اسم للماء الجاري من علو الجنة، فهو معرفة، تقديره: ومزاجه من الماء جارياً من علو، أو منصوب بـ ﴿تَسْنِيمٍ﴾ وهو مصدر، مثل: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ ﴿١٤﴾ يَسِيمًا أي ومزاجه من ماء تسنيم عينا، أو منصوب بتقدير (أعني عينا) أو منصوب على المدح و ﴿يَشْرَبُ﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الموضع لقوله: ﴿عَيْنًا﴾. وباء ﴿يَا﴾ إما زائدة، أي يشربها بمعنى: يشرب منها، أو بمعنى فيها.

البلاغة:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا﴾ تفخيم وتعظيم لمراتب الأبرار.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ إطناب بذكر أوصاف المتقين ومقر نعيمهم.

﴿حَتَّمُمْ مِسْكًَ﴾ تشبيه بليغ، أي كالمسك في الطيب والبهجة، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه.

الفردات اللغوية:

﴿كَلَّا﴾ حقاً، أو ردع وزجر عن الباطل. ﴿كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ ما يكتب من أعمال المؤمنين الصادقين في إيمانهم. ﴿لَفِي عَلَيْنَا﴾ لثبت في ديوان الخير، فهو إما أنه الكتاب الجامع لأعمال الخير من الملائكة ومؤمني الثقلين، بدليل تفسيره بعدئذ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا﴾ ﴿٢٢﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٣﴾ وإما أنه مكان عال في الجنة. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا﴾ ﴿٢٢﴾ ما أعلمك ما كتاب عليين؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ﴿٢٣﴾ مسطور بين الكتابة أو مُعَلَّم بعلامة. ﴿يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ يحضرونه فيحفظونه، وهم الملائكة. ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ جنة.

﴿عَلَى الْأَرْبَابِ﴾ السرور أو الأسرة في الحجال، والحجال: جمع حجلة وهي كالقبة، ولا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة وهي الكلة. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ما أعطوا من نعيم يسرهم. ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة التمتع وحسنه وبريقه. ﴿رَاحِيٍّ﴾ شراب خالص لا غش فيه، وهو أجود الخمر غير المسكرة. ﴿مَخْتُومٍ﴾ ختم إناؤه بالمسك، لا يفكه إلا الأبرار تكرماً لهم. ﴿خِتْمُهُ مِسْكٌ﴾ ختام إناؤه المسك، مكان الطين أو غيره. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فليستارع أو فليستبق المتسابقون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى، وليجاهدوا النفوس، ليلحقوا بالركب المتقدم من العاملين المخلصين. وأصل التنافس: التنازع في الشيء بغية أن ينفرد به أحد المتنازعين دون غيره، أي يضمن به.

﴿وَمَزْجُهُ﴾ ما يمزج به أو يخلط، فالمزاج والمزج: الشيء الذي يمزج بغيره، والمزج: خلط أحد الشئين بالآخر. ﴿تَسْنِيمٍ﴾ عين من ماء تجري من الأعلى إلى الأسفل، وهو أشرف شراب في الجنة. ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ يشرب منها، أو ضمن يشرب معنى يلتذ، و﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ هم الأبرار السابق ذكرهم.

المناسبة:

بعد بيان حال المططفين وحال الفجار الكاذبين بيوم الدين، وتبيين درجتهم يوم القيامة، أتبعه ببيان حال الأبرار الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر، وعملوا صالحاً في الدنيا، والتعريف بمنزلتهم عند الله، وأن الله رصد أعمالهم في كتاب مرقوم هو ﴿عِلْيُونَ﴾ وأن لهم الجزاء الحسن على إحسانهم في الدنيا، حتى يتبين أن كتاب الأبرار ضد كتاب الفجار بجميع معانيه، فيقبل العاقل على مقومات الأولين، ويتبعد عن محاكاة الآخرين.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أي حقاً، إن كتاب الأبرار،

وهم المؤمنون المخلصون العاملون المطيعون، مرصود في كتاب بين مسطور، أو في أعالي الجنة، ومصيرهم إلى الجنة، وهم بخلاف الفجار، وهو بخلاف سجين.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا ۖ كَتَبَ مَرْفُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي وما أعلمك يا محمد أي شيء هو علينا؟ ويراد بذلك تفخيم أمره وتعظيم شأنه، إنه كتاب مسطور، سطرت فيه أسماءهم وأعمالهم، وهو السجل الكبير، الذي تحضره الملائكة وتحفظه ويرونه كما يحفظ اللوح المحفوظ، أو يشهدون بما فيه يوم القيامة.

ثم أبان الله تعالى حالهم فقال:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم يوم القيامة، وفي جنات الخلود، على الأسرة التي في الحجال (ذات القصب الساترة) ينظرون إلى ما أعده الله لهم من أنواع النعيم في الجنة، وإلى ما لهم من الكرامات المادية والمعنوية، أما الماديات فهي مختلف أنواع الأطعمة الشهية والأشربة الهنية والخور العين والمراكب الفارحة والمساكن الفخمة، وأما المعنويات فأنسهم بالله ورؤيتهم له ورضاه عنهم وشعورهم بالأمن والطمأنينة والسعادة الأبدية.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي إذا رأيتهم عرفت آثار النعمة والترف والسرور والدعة في وجوههم، التي تتلألأ بالنور والحسن والبياض، والبهجة والرونق؛ لأن الله تعالى زاد في جاهلهم وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يُؤْمَدُ مُسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٢٩﴾﴾ [عبس: ٣٩-٣٨/٨٠].

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٣٥﴾ خَتَمَ لَهُمْ مَسْكِ ۖ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي يسقون من الخمر التي لا غش فيها ولا يشوبها شيء يفسدها، وقد

ختم إناؤها بالمسك فلا يفكه إلا الأبرار، ويكون آخر طعمه ريح المسك، وفي ذلك فليترغب الراغبون، وليتسابق المتسابقون بالمبادرة إلى طاعة الله باتباع أوامره، واجتناب نواهيه. وهذا يعني أن التسابق أو التنافس يكون فيما يؤدي إلى النعيم، لا إلى الجحيم، كما قال تعالى: ﴿لِيُثِلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/٦١].

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «أما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ، سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة، وأما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُري، كساه الله من خضر الجنة».

﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٧٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٧٨﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق، وهو ما يخلط به، من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب الجنة. ويسقون الرحيق أو التسنيم من عين جارية من الأعلى إلى الأسفل يمزجون بها كؤوسهم، وهي التي يشرب منها الأبرار المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً.

سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٧٧) فقال: هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ٣٢/١٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

يتبين من الآيات ما يأتي:

أ - إن صحف أعمال الأبرار مدونة في السجل الكبير، وهو الكتاب المسطر البين الكتابة، الذي يتميز بعلامته الخاصة، ويشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة. وهذه أضداد كتاب الفجار.

وبالمقارنة بينهما يتبين أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات

السعادة، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة. والمقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين وفي أضيق المواضع: إذلال الفجار وتحقير شأنهم. والمقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين وشهادة الملائكة لهم بذلك: إجلالهم وتعظيم شأنهم^(١).

٢ - بعد أن عظم الله تعالى كتاب الأبرار عظم منزلتهم، فأبان أنهم في نعيم الجنة. ووصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة:

أولها - على الأرائك ينظرون، أي على الأسرة في الحجال ينظرون إلى ما أنعم الله به عليهم من الكرامات، ومن أنواع النعيم في الجنة من الحور العين والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها، قال ﷺ: «يلحظ المؤمن، فيحيط بكل ما آتاه الله، وإن أدناهم يتراءى له مثل سعة الدنيا».

ثانيها - تعرف في وجوههم نضرة النعيم، أي بهجته وغضارته ونوره، والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله عز وجل، على ما قال: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾» [القيامة: ٢٢-٢٣/٧٥].

ثالثها - يسقون من رحيق مختوم، أي يسقون من شراب لا غش فيه، والرحيق: صفوة الخمر، وخمر الجنة غير مسكرة، كما قال تعالى: «لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾» [الصافات: ٤٧/٣٧]. وقال عز وجل: «لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴿٥٦﴾» [الواقعة: ٥٦/١٩].

وهذا النوع من الخمر يختلف عن النوع الآخر الذي يجري في الأنهار، المشار إليه في قوله تعالى: «وَأَنْهَرُ مِنْ حَرِّ لَدُنِّي لِلشَّارِبِينَ» [محمد: ٤٧/١٥] لكن هذا المختوم أشرف وأفضل من الجاري.

(١) تفسير الرازي: ٩٧/٣١.

وللرحيق صفات أربع هي:

الأولى - أنه شراب مختوم قد ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان.

الثانية - ختامه مسك، أي عاقبته المسك، بمعنى أن يختم له آخره بريح المسك. قال الفراء: الختام آخر كل شيء.

الثالثة - أنه محل التنافس والتنازع لرفعته وطيبه، والمراد: فليرغب الراغبون به إلى المبادرة إلى طاعة الله عز وجل.

الرابعة - ومزاجه من تسنيم، أي مزاج ذلك الرحيق الذي يخلط به من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علوّ، وهو أشرف شراب في الجنة. وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: تسنيم: عين في الجنة يشرب بها المقربون صِرْفاً، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين، فتطيب.

وقال ابن عباس كما تقدم في قوله عز وجل: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (١٧): هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧/٣٢].

لذا قال تعالى بعدئذ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١٨) أي يشرب منها أهل جنة عدن، وهم أفاضل أهل الجنة، صِرْفاً وهي لغيرهم مزاج.

ويلاحظ أنه تعالى لما قسم المكلفين في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام: المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وذكر كرامة المذكورين في هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون، علمنا أن

المذكورين هنا هم أصحاب اليمين. وهذا يدل على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة، فتسليم أفضل أنهار الجنة، والمقربون أفضل أهل الجنة^(١).

سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا

ومقابلتهم بالمثل في الآخرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ۖ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۖ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۖ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۖ (٣٤) عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۖ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۖ (٣٦)﴾

القرءات:

﴿أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا﴾:

قرأ أبو عمرو (أهلهم) وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أهلهم) وقرأ الباقون (أهلهم).

﴿فَكِهِينَ﴾:

قرأ حفص (فكهين) وقرأ الباقون (فاكهين).

الإعراب:

﴿عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۖ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۖ (٣٦)﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ في موضع نصب بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾. وقيل: لا موضع لها من الإعراب؛ لأنها مستأنفة. وقرئ: «هل تؤيب»: بإدغام اللام في ﴿هَلْ﴾ في الشاء،

(١) تفسير الرازي: ٣١/١٠٠.

ويأظهارها، من أدغم، فلما بينهما من المناسبة؛ لأنها من حروف اللسان والثنايا العليا.

البلاغة:

﴿يَكْسِبُونَ﴾ ﴿يَضْحَكُونَ﴾ ﴿يَنفَعَمَزُونَ﴾ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ﴿يَقْعَلُونَ﴾ سجع مرصع، وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

الفردات اللغوية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هم رؤساء قريش ومشركو مكة: أبو جهل والوليد ابن المغيرة وأمثالهما. ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي يضحكون استهزاء من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ مروا بالمؤمنين. ﴿يَنفَعَمَزُونَ﴾ يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم باللفظ والحاجب استهزاء. والغمز: إرخاء الجفن والحاجب استهزاء وسخرية، أو لغرض آخر يعبر به عن شيء بين الناس، إما خير أو شر، وأكثر ذلك إنما يكون على سبيل الخبث.

﴿أَنقَلَبُوا﴾ رجعوا. ﴿فَكَهِنَ﴾ معجبين بذكرهم المؤمنين، أي ينسبونهم إلى الضلال، وقرئ: فأكهين، أي ملتذين بالسخرية منهم، والمعنى في القراءتين واحد. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي رأوا المؤمنين. ﴿لَضَالُّونَ﴾ ينسبونهم إلى الضلال، لإيمانهم بمحمد ﷺ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وما أرسل الكفار على المؤمنين. ﴿حَفِظِينَ﴾ لهم أو لأعمالهم، أي رقباء يهيمنون على أعمالهم، شاهدين عليها، يشهدون برشدكم وضلالكم.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ يهزؤون بهم حين يرونهم أذلاء مغلولين في النار، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على الأسرة في الحجال في الجنة. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ من منازلهم إلى الكفار، وهم يعذبون، فيضحكون منهم،

كما ضحك الكفار منهم في الدنيا . ﴿هَلْ تُؤْتَبُ﴾ جوزي، من الشوب والإثابة: المجازاة، أي هل أثبوا؟ ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ نعم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٩):

ذكر العلماء في سبب النزول وجهين:

الأول - أن المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل السهمي، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم.

الثاني - جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين، فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم، فقالوا: رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل علي إلى رسول الله ﷺ^(١).

للناسبة:

بعد بيان قصة الفجار وقصة الأبرار وما أعد لكل فئة في الآخرة، حكى الله تعالى بعض قبائح أفعال الكافرين في الدنيا بالاستهزاء بالمؤمنين، ومعاملتهم بالمثل في الآخرة، جزاء ما فعلوا في الدنيا. والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم.

التفسير والبيان:

حكى الله تعالى عن رؤساء الشرك وأمثالهم أربعة أشياء من المعلومات القبيحة، فقال:

(١) تفسير الرازي: ١٠١/٣١.

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) أي إن كفار قريش ومن وافقهم على الكفر كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين، ويسخرون منهم. وهكذا شأن الأقوياء والأغنياء في كل عصر يسخرون من المؤمنين المصلين أو الفقراء المتأدبين بأداب الإسلام والقرآن، ويهزؤون من المتدينين ومن دينهم، اعتماداً منهم على قوتهم، أو سلطتهم ونفوذهم، أو ثروتهم وغناهم. قال ابن عباس في تفسير ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾: هو الوليد بن المغيرة، وعُقبة بن أبي مُعَيْط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث. وأولئك الذين آمنوا من أصحاب محمد ﷺ مثل عمار، وخبّاب، وصُهيب، وبلال.

٢ - ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (٣٠) أي وإذا مرّ الكفار بالمؤمنين يتغامزون عليهم محتقرين لهم، يعيرونهم بالإسلام، ويعيبونهم به. والتغامز: صيغة تفاعل تقتضي المشاركة، من الغمز: وهو الإشارة بالجنف والحاجب استهزاء، ويكون الغمز أيضاً بمعنى العيب، يقال: غمزه: إذا عابه، وما في فلان غمزة، أي ما يعاب به، والمعنى: أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء، ويعيبونهم، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم، ويحرمونها لذاتها، ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه.

٣ - ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (٣١) أي وإذا رجع الكفار إلى أهلهم في منازلهم من مجالسهم في السوق، رجعوا معجبين بما هم فيه، متلذذين به، يتفكهون بما فعلوا بالمؤمنين، وبما قاموا به من طعن فيهم، واستهزاء بهم، ووصفهم بالسخف والطيش وضعف الرأي وقلة العقل.

٤ - ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ﴾ (٣٢) أي وإذا رأى المشركون المؤمنين، وصفوهم بالضلال؛ لكونهم على غير دينهم وعقائدهم الموروثة، ولا تبعاعهم محمداً، وتمسكهم بما جاء به، وتركهم التمتع الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى: هل له وجود أم لا.

فردَّ الله تعالى عليهم ما قالوه بقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون من قبل الله رقباء على المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، ولا كُلفوا بهم؟ وإنما كلفوا بالنظر في شؤون أنفسهم.

ثم قرر الله تعالى مبدأ المعاملة بالمثل في الآخرة، تسلياً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، فقال:

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي ففي اليوم الآخر يوم القيامة، يضحك المؤمنون ويهزؤون من الكفار حين يرونهم أدلاء مغلوبين، قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، معاملة بالمثل، وتبياناً أن الكفار الجاحدين هم في الواقع سفهاء العقول والأحلام، خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وكلمة ﴿فَالْيَوْمَ﴾ دليل على أن التكلم واقع في يوم القيامة.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينظر المؤمنون إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، والمؤمنون متنعمون على الأرائك. وهذا دائم خالد لا يعادل بشيء من الموقت الفاني.

﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي هل أثيب وجوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والطعن والتقيص، أم لا؟ نعم، قد جوزي الكفار أتم الجزاء بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم. والثواب: من ثاب يثوب: إذا رجع، فالثواب: ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويستعمل في الخير والشر. والاستفهام بمعنى التقرير للمؤمنين، أي هل جوزوا بها؟

فقه الحياة أو الأحكام:

استدل العلماء بالآيات على ما يأتي:

أ - الكفار دائماً في عداوة وحقد وتغاير مع المؤمنين، فلا يلتقي الإيمان مع الكفر، ولا الدين الصحيح مع الضلال، ولا الأخلاق العالية مع الأخلاق المردولة. فقد كان يصدر من المشركين ألوان متعددة من أذى المؤمنين، منها ما ذكرته هذه الآيات: وهو الاستهزاء والسخرية من المؤمنين، وتعييبهم والطعن بهم وتعييرهم بالإسلام، والتفكك بذكر المسلمين بالسوء أمام أهاليهم، والعُجب بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعيم بالدنيا، وقولهم بأن المؤمنين في ضلال لتركهم دين الآباء والأجداد واتباعهم محمداً ﷺ، وتركهم التمتع الحاضر بسبب طلب ثواب غير مؤكد الحصول.

٢ - قبول الكفار في الآخرة بمثل فعلهم وقولهم، تسلياً للمؤمنين، وتثبيتاً لهم على الإسلام، وتصبراً على متاعب التكليف، وأذية الأعداء، في أيام معدودة، لنيل ثواب لا نهاية له ولا غاية، ففي الآخرة يهزأ المؤمنون من الكفار ويضحكون منهم، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، بسبب الضر والبؤس، فضحك المؤمنون منهم بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿قَالِیَوْمَ الَّذِینَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ یَضْحَكُونَ ۝٢٤﴾: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ كَعْباً كَانَ یَقُولُ: إِنَّ بَیْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ كُوفًی، فَإِذَا أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ یَنْظُرَ إِلَى عَدُوِّ كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، اطَّلَعَ مِنْ بَعْضِ الْكُوفِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: ٣٧/٥٥] قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ اطَّلَعَ فَرَأَى جَاهِجَ الْقَوْمِ تَغْلِي.

ويدخل المؤمنون الجنة، وأجلسوا على الأرائك ينظرون إلى الكفار، كيف يعذبون في النار، وكيف يصطرخون فيها، ويدعون بالويل والثبور، ويلعن بعضهم بعضاً.

ويقال على سبيل التهكم: ﴿هَلْ تُؤْتَبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا یَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ كقوله تعالى: ﴿دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٨﴾ [الدخان: ٤٤/٤٩] والمعنى:

كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملة ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة؟ فيكون هذا القول زائداً في سرورهم؛ لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ

مكية، وهي خمس وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الانشقاق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾ أي تشققت وتصدعت مؤذنة بخراب العالم، ومنذرة بهول يوم القيامة.

مناسبتها لما قبلها:

السور الأربع: الانشقاق وما قبلها وهي سورة المطففين والانفطار والتكوير كلها في صفة حال يوم القيامة، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه، فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة، وأغلب ما ذكر في المطففين في أحوال الأشقياء الفجار والمتقين الأبرار في الآخرة، وعنت سورة الانشقاق بالجمع بين ما يحدث من مقدمات ومشاهد الآخرة الرهيبة وبين ما يعقب ذلك من الحساب اليسير لأهل اليمين والحساب العسير لأهل الشمال.

وفي السورة المتقدمة ذكر مقر كتب الحفظة، وفي هذه ذكر كيفية عرضها يوم القيامة.

ما اشتملت عليه السورة:

محور السورة كالسور المكية الأخرى: شؤون العقيدة، وتصوير أهوال القيامة. وقد بدئت ببيان بعض التبدلات الكونية الخطيرة عند قيام الساعة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الآيات: ١-٥].

وأردفت ذلك حال الإنسان في موقف العرض والحساب يوم القيامة، وانقسام الناس فريقين: أهل اليمين وأهل الشمال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الآيات: ٦-١٥].

ثم أقسم الله بالشفق والليل والقمر على ملاقاته المشركين في القيامة أهوالاً شديدة، وأحوالاً عصيبة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الآيات: ١٦-١٩].

وختمت السورة بتوبيخ المشركين والكفار والملاحدة والوجوديين وأمثالهم على عدم إيمانهم بالله تعالى، ويأذارهم بالعذاب الأليم، والتنبيه على نجاة المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ومنحهم الثواب الدائم المستمر الذي لا ينقطع ولا ينقص: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآيات: ٢٠-٢٥].

والخلاصة: أن السورة اشتملت على مقصدين: بيان ما يلاقه الإنسان من نتائج أعماله يوم القيامة، وانحصار المصير إما في جنات النعيم وإما في نيران الجحيم.

فضلها:

أخرج مسلم والنسائي: أن أبا هريرة قرأ بهم: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [١] فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها.

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة (العشاء) فقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾

﴿١﴾ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام، فلا أزال أسجد بها، حتى ألقاه.

وزاد النسائي عن أبي هريرة نفسه قال: سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿١﴾ و﴿أَفْرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾.

أحوال يوم القيامة وانقسام الناس فريقين

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخُلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُتْلِقِهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسَمِينَةٍ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلَتْ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

القراءات:

﴿وَيَصْلَى﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي (وَيُصْلَى)، وقرأ الباقر (وَيَصْلَى).

الإعواب:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿١﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف، والعامل فيه جوابه، وجوابه إما مقدر، أي بعثتم، أو جوابه: ﴿وَأَذِنَتْ﴾ والواو فيها زائدة، والتقدير: إذا السماء انشقت أذنت. وقيل: جوابه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾ على تقدير: فيا أيها الإنسان، فحذفت الفاء، أو جوابه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسَمِينَةٍ﴾ ﴿٧﴾.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (٤) ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي إنه، وقد سدت مسد مفعولي ﴿ظَنَّ﴾. و ﴿ظَنَّ﴾ وما عملت فيه: في موضع رفع خبر: إن.

البلاغة:

﴿السَّمَاءُ﴾ و ﴿الْأَرْضُ﴾ بينهما طباق.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ بِئْسَ الْبَعِيرُ﴾ (٧) و ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) بينهما مقابلة.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) و ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَخُقَّتْ﴾ (٢) إلخ سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿انْشَقَّتْ﴾ تشققت وتصدعت. ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ استمعت له، وانقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها، انقياد المطواع الذي يأذن للأمر، والأذن: هو الاستماع للشيء والإصغاء إليه^(١).

ويكون انشقاقها بالغمام، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا﴾ (٢٥) [الفرقان: ٢٥/٢٥].

﴿وَحُقَّتْ﴾ وحق لها أن تسمع وتطيع وتنقاد. ﴿مُدَّتْ﴾ بسطت واتسعت. رقعته يزوال جبالها وأكامها وأبنيتها. ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الموق والكنوز إلى ظاهرها. ﴿وَعَلَّتْ﴾ تكلفت في الخلو أقصى جهدها، حتى لم يبق في باطنها شيء. ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت في ذلك، أي في الإلقاء والتخلية. ﴿وَحُقَّتْ﴾ حق لها أن تسمع وتطيع، وذلك كله يوم القيامة.

(١) قال ﷺ: «ما أذن الله لشيء كأذنيه لشيء يتغنى بالقرآن» أي يتلوه بجهريه (النهاية لابن الأثير: ٢٣/١).

وجواب ﴿إِذَا﴾ وما عطف عليها محذوف دلّ عليه ما بعده تقديره: لقي الإنسان عمله، أو بعثتم.

﴿كَادِحٌ﴾ جاهد ومُجِدُّ في عملك. ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى لقاء ربك، وهو الموت. ﴿فَمُلْقِيهِ﴾ ملاق عملك من خير أو شر يوم القيامة. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ أعطي كتاب عمله. ﴿بِئْسَ نَصِيبُهُ﴾ هو المؤمن. ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً لا يناقش فيه، بأن يعرض عليه عمله، كما في حديث الصحيحين، ثم يتجاوز عنه، وفي الحديث المذكور: «من نوقش الحساب عُدَّ». ﴿وَنُقَلِّبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي يرجع في الجنة إلى عشيرته المؤمنين، مسروراً بحسابه اليسير.

﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ هو الكافر، يؤق كتاب عمله بشماله من وراء ظهره، قيل: غل يمناه إلى عنقه، وجعل يسراه وراء ظهره. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ينادي عند رؤية ما فيه هلاكه، قائلاً: يا ثبوراه، وهو الهلاك. ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ يقاسي ناراً مستعرة، ويدخل ناراً شديدة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلِيهِ مَسْرُورًا﴾ كان في عشيرته في الدنيا فرحاً بطراً باتباعه لهواه. ﴿يَحْجُرُ﴾ يرجع، والمراد: أنه لن يرجع إلى ربه. ﴿بَلَى﴾ أي بلى يحجر ويرجع إليه، فهو إيجاب لما بعد ﴿لَنْ﴾ أي جواب لما بعد النفي، أي نعم يرجع. ﴿إِنْ رَبُّكَ كَانَ بِهِ بِصِيرًا﴾ عالماً بأعماله ويرجوعه إليه، فلا يهمله، بل يرجعه ويجازيه.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أهوال يوم القيامة وأماراتها بقوله:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَخِفَتْ ۚ﴾ أي إذا تشققت السماء وتصدعت مؤذنة بخراب العالم، وانشقاقتها من علامات القيامة، وأطاعت ربها وانتادت له فيما أمر، وحق لها أن تطيع أمره وتنقاد وتسمع؛ لأنه العظيم القاهر الذي لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ أي وإذا الأرض بسطت وسُوِّيت ووسَّعت بزوال جبالها وآكامها، ونسفها حتى صارت قاعاً صفصفاً، ولفظت وأخرجت ما فيها من الأموات والكنوز، وطرحتهم إلى ظهرها، وخلت خلواً تاماً عما فيها، وتخلت إلى الله وتبرأت من كل من فيها، ومن أعمالهم.

ونظير الآية: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا غِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

﴿وَأَذِنتَ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٥﴾﴾ أي استمعت وأطاعت أوامر ربها، وحق لها أن تتخلى وتستمتع لما يريد ربها أن يأمرها به؛ لأنها واقعة في قبضة القدرة الإلهية. وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف لإرادة التهويل على الناس، والتقدير: إذا حدث ما حدث، رأيتم أعمالكم من خير أو شر.

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَأْتَهُ ﴿٦﴾﴾: أي يا أيها الإنسان، والمراد به الجنس الذي يشمل المؤمن والكافر، إنك عامل في هذه الحياة ومجاهد ومُحَدِّث في عملك، ومصير سعيك وعملك إلى ربك، أو إلى لقائه بالموت، وإنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، أو سوف تلقى ربك بعملك. والكدح: جهد النفس في العمل حتى تأثرت.

روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت، فإنك مفارقة، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».

فقوله: ﴿فَمَلَأْتَهُ﴾ يعود الضمير إلى العمل من خير أو شر، وقيل: يعود الضمير على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أي فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك.

ثم ذكر أحوال الناس وانقسامهم إلى فريقين يوم القيامة، فقال: الفريق الأول - المؤمنون: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ ﴿٩﴾﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه وهم المؤمنون، فإنه يحاسب حساباً سهلاً، بأن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله ويتجاوز عنها، من غير أن يناقشه الحساب، فذلك هو الحساب اليسير.

روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّبَ، قالت: فقلت: أفليس الله تعالى قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ ﴿٨﴾﴾؟ قال: ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، ومن نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّبَ».

وهذا الذي يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حساباً يسيراً بالعرض يرجع إلى أهله وعشيرته في الجنة مغتبطاً فرحاً مسروراً بما أعطاه الله عز وجل وما أوتي من الخير والكرامة.

روى الطبراني عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: «إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف، ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله، فمسرور أو مكظوم».

ونظير الآية قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي ۖ ﴿١٠﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِي ۖ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ١٩/٦٩-٢١].

الفريق الثاني - الكافرون: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ ﴿١٢﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ ﴿١٣﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۖ ﴿١٤﴾﴾ أي وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره؛ حيث تثني يده خلفه، ويعطى كتابه بها، وتكون يمينه مغلوله إلى عنقه، فإذا قرأ كتابه، نادى يا ثوراه، أي بالهلاك والخسار، ثم يدخل جهنم، ويصلى حرّاً نارها وشدتها.

ونظير الآية قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لِمَ أُوْتِ كِتَابِي﴾ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي ﴿٢٦﴾ يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٨﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ [الحاقة: ٢٩-٢٥].

ثم ذكر الله تعالى سببين لعذابه فقال:

١ - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ مَسْرُورًا﴾ (٣٣) أي إنه كان في الدنيا فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، وإنما يتبع هواه، ويركب شهواته، بطراً أشراً لعدم خطور الآخرة بباله، فأعقبه ذلك الفرح اليسير حزناً طويلاً.

٢ - ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَنْ يَحْجُورَ﴾ (٣٤) أي إن سبب ذلك السرور والبطر ظنه بأنه لا يرجع إلى الله، ولا يبعث للحساب والعقاب، ولا يعاد بعد الموت. ثم ردَّ الله عليه ظنه قائلاً:

﴿يَلَيِّنْ إِنْ رَبُّكَ كَانَ بِبَصِيرَةٍ﴾ (٣٥) أي بل إنه سيحور ويرجع إلى ربه، وسيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإن الله ربه كان به وبأعماله عالماً خبيراً، لا يخفى عليه منها شيء أو خافية.

وفي هذا إشارة إلى أنه لا بدَّ من دار للجزاء غير دار التكليف؛ لأن ذلك مقتضى العلم التام والقدرة والحكمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

أ - من علامات القيامة: أولاً - تصدع السماء وتفتطرها بالغمام، والغمام مثل السحاب الأبيض، وثانياً - بسط الأرض ودكَّ جبالها، وإخراج أمواتها، وتخليها عنهم، وكل من السماء والأرض تصغي وتسمع وتنفاد وتخضع لأمر ربها، وحق لها أن تسمع أمره.

٢ - يكدح كل إنسان ويتعب في حياته، ثم يرجع يوم القيامة بعمله إلى ربه رجوعاً لا محالة، فملاق ربه، أو ملاق عمله. قال قتادة: يا بن آدم، إن كَذْحَكَ لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله، فليفعل، ولا قوة إلا بالله. وهذا دليل على أن الدنيا دار عناء وتعب، ولا راحة ولا فرح فيها.

٣ - الناس فريقان يوم القيامة: سعداء مؤمنون وأشقياء كفار، أما الفريق الأول - فهم الذين يعطون كتب أعمالهم بأيمانهم، ويعرضون على ربهم عرضاً لا مناقشة فيه، ويتجاوز الله عنهم، ويرجعون إلى عشيرتهم مسرورين، فاللهم اجعلنا منهم.

وأما الفريق الثاني - فهم الذين يتناولون كتب أعمالهم بشمائلهم مباشرة، أو بشمائلهم من وراء ظهورهم، فينادون بالهلاك على أنفسهم، فيقول الواحد منهم: يا ويلاه، يا ثوراه، والثبور: الهلاك والخسارة، ثم يدخلون النار حتى يصلوا حرّاًها.

وسبب خسارة هذا الفريق: البطر في الدنيا، وإنكار المعاد والحساب والجزاء والثواب والعقاب، والله خير بهم، عليهم بأن مرجعهم إليه.

والفرح المنهي عنه: ما يتولد من البطر والترفع، لا الذي يكون من الرضى بالقضاء ومن حصول بعض الكمالات والفضائل النفسية؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَّحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ١٠/٥٨].

قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالخفاة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ وَأَوْقَنَّا عَذَابَ السَّمُورِ

ثم قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ مَسْرُورًا ۖ﴾ (١٣).

٤ - قوله تعالى: ﴿يَلَعَّ﴾ أي ليعثن: دليل على الجزم بوقوع البعث، وأنه دار العدل المطلق الذي ينال فيه كل إنسان جزاء عمله خيراً أو شراً.

تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِاللَّشْفَىٰ ۖ﴾ (١٦) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨) ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥)

القراءات:

﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾:

قرأ ابن كثير، وحمة، والكسائي، وخلف (لَتَرْكَبُنَّ)، وقرأ الباقون (لَتَرْكَبُنَّ).

﴿الْقُرْآنُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وفقاً (القرآن).

الإعراب:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩) أي حالاً بعد حال، و ﴿عَنْ﴾ تأتي بمعنى (بعد) ومنه قولهم: سادوا كائناً عن كائناً، أي بعد كائناً. وتركبن: أصله تركبونن، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال والواو لالتقاء الساكنين.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٠) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿هُمْ﴾ وعامله معنى الفعل الذي تعلقت به اللام في ﴿هُمْ﴾. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا﴾ إما استثناء متصل من الجنس، فيكون ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في موضع نصب؛ لأنه استثناء من الهاء والميم في ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ وإما استثناء منقطع الجنس، فيكون منصوباً؛ لأن الاستثناء المنقطع منصوب.

البلاغة:

﴿وَسَقَ﴾ و ﴿أَسَقَ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (١٨) كناية، كُتِبَ به عن الشدة والأهوال التي يتعرض لها الإنسان.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١٩) أسلوب تهكمي، استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْشَفَقِ﴾ (١١) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (٧) وَالْقَمَرِ إِذَا أَتَقَى (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٨) سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، كما تقدم.

المفردات اللغوية:

﴿بِالشَّفَقِ﴾ الحمرة التي ترى في الأفق الغربي بعد غروب الشمس، وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: إنه البياض الذي يليها، سمي به لقرته، مأخوذ من الشفقة. ﴿وَسَقَ﴾ ضمّ وجع وستر جميع ما دخل عليه من الدواب وغيرها. ﴿أَسَقَ﴾ اجتمع وتم نوره وصار بديراً وذلك في منتصف الشهر القمري، وهو ما يعرف بظاهرة القمر الأزرق. ويرى الفلكيون أنه يمكن أن يكتمل القمر بديراً مرتين في شهر واحد في أوروبا وآسيا لوجود القمر في نصف الكرة الغربي،

على مدى ١٢ عاماً بين كل ١٩ عاماً، واكتمل القمر بديراً في الحادي والثلاثين من تموز (يوليو) عام ١٩٨٥ م، وقد اكتمل القمر بديراً في المرة القادمة في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩٠ م. ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ لتتلاقن. حالاً بعد حال، متطابقين في الشدة. والطبق: الحال المطابقة لغيرها، والمراد: مرور الكفار بأحوال بعد أحوال هي طبقات في الشدة، بعضها أشد من بعض، وهي الموت وما بعده من الحياة من أحوال القيامة. ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي الكفار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي مانع لهم عن الإيمان بيوم القيامة؟ ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون، بأن يؤمنوا بالقرآن لإعجازه.

﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بالقرآن والبعث وغيرهما. ﴿يُوعُونَ﴾ يجمعون في صدورهم من الشرك أو الكفر والمعصية والتكذيب والإعراض وأعمال السوء من حسد وبغى وعداوة. ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ البشارة: الإخبار بما يستر، والمراد هنا الإخبار عن العذاب تهكماً واستهزاء بهم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ أي لكن، فهو استثناء منقطع، ويصح كونه استثناء متصلاً أي من تاب وآمن به. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ولا منقوص ولا يمين به عليهم، يقال: فلان من الحبل: إذا قطعه.

المناسبة:

بعد بيان أحوال الناس وانقسامهم فريقين يوم القيامة: سعداء وأشقياء، أكد الله تعالى وقوع يوم القيامة وما يتبعها من الأهوال، بالقسم بآيات واضحة في الكون: وهي الشفق والليل والقمر، على أن البعث كائن لا محالة، وأن الناس يتعرضون لشدائد الأهوال.

ثم حكى تعالى بعض عجائب الناس أنهم لا يؤمنون بالقرآن وبالبعث، ولا يخضعون لآي القرآن العظيم، عناداً منهم واستكباراً، فيجازون أشد العذاب، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً، فله الثواب الدائم غير الممنون به عليه.

التفسير والبيان:

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ۖ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ (١٨)﴾ أي يقسم الله تعالى بالشفق الذي هو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء، وبالليل الأسود البهيم وما جمع وضم، وستر كل ما كان متشراً ظاهراً في النهار، وبالقمر إذا اجتمع وتكامل وصار بديراً في منتصف كل شهر قمري. والقسم بهذه الأشياء دليل على تعظيمها وتعظيم قدر مبدعها.

ولا أقسم: قسم، وأما حرف (لا) فهو نفي ورد لكلام سابق قبل القسم، وهنا ردة الله تعالى على المشرك الذي ظن أن لن يحور، بأنه سيرجع ويبعث، وأبطل ظنه، ثم أقسم بعده بالشفق.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۖ (١٩)﴾ جواب القسم، أي لتصادفن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة، بعضها أشد من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها، ثم يكون المصير الأخير: الخلود في الجنة أو في النار.

ونظير الآية قوله: ﴿يَلَىٰ وَرَيَّ لَنُبَعَثَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبُوَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧/٦٤]. وقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۖ (٧٧)﴾ [الزمل: ٧٣/١٧].

ثم أنكر الله تعالى على الكفار استبعادهم البعث، فقال:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ (٢٠)﴾ أي فأي شيء، أو فماذا يمنعهم عن الإيمان بصحة البعث والقيامة، وبمحمد ﷺ، وبما جاء به القرآن، مع وجود موجبات الإيمان بذلك، من الأدلة الكونية القاطعة الدالة على قدرة الله على كل شيء، والمعجزات الظاهرة الدالة على صدق النبي ﷺ وصدق الوحي القرآني المنزل عليه؟

وهذا استفهام إنكار، وقيل: تعجب، أي اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢١) أي: وأي مانع لهم من سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن الذي دلّ إعجازه على كونه منزلاً من عند الله تعالى؟! ويكون سجودهم إعظماً وإكراماً واحتراماً لأي القرآن، بعد أن علموا كونه معجزاً، وهم أرياب الفصاحة والبلاغة.

قد احتج أبو حنيفة رحمه الله بالآية على وجوب السجود، فإنه ذم لمن سمعه ولم يسجد.

ثم أبان الله تعالى سبب عدم إيمانهم بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ أي والواقع أن الكفار يكذبون بالكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب، إما حسداً للرسول ﷺ، وإما خوفاً من ضياع المنافع والمراكز والمناصب والرياسات، وإما عناداً وإمعاناً في البقاء على تقليد الآباء والأجداد والأسلاف.

والله أعلم من جميع الخلائق بما يضمرونه أو يكتُمونه في أنفسهم من التكذيب، وأعلم بأسباب الإصرار على الشرك أو الكفر، وجمع الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) أي فأخبرهم أيها النبي بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً. واستعمال البشارة التي هي في الأصل لما هو سار، في الإخبار عن العذاب، تهكم واستهزاء بهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٢٥) أي لكن الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر، وخضعوا للقرآن الكريم،

وعملوا بما جاء به، والتزموا صالح الأعمال بأعضائهم، لهم في الدار الآخرة ثواب غير مقطوع ولا منقوص، ولا يمنّ به عليهم، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٌ﴾ [هود: ١١/١٠٨]. والاستثناء منقطع في رأي الزمخشري. وقال الأكثرون: معناه إلا من تاب منهم وعمل صالحاً، فله الثواب العظيم.

وفي هذا ترغيب شديد بالإيمان والطاعة، وزجر عن الكفر والمعصية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - أقسم الله عز وجل بالشفق (وهو حمرة السماء التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة) وبالليل وما جمع وضم ولف، وبالقمر إذا اجتمع وتم واستوى، على وقوع البعث والقيامة وما يتبعها من أهوال عظام وشدائد ضخام.

٢ - ماذا يمنع الكفار عن الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر والقرآن بعدما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات؟!؟

وماذا يمنعهم عن الخضوع والسجود للقرآن عند سماعه، بعدما عرفوا أنه معجز، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة؟!؟

وهذا توبيخ على أنهم لا ينظرون في الدلائل حتى يورثهم الإيمان والسجود عند تلاوة القرآن.

٣ - جمهور العلماء على أن هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (١٦) موضع سجدة تلاوة، بدليل ما تقدم في الصحيح عن أبي هريرة أنه قرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها.

وقال الإمام مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن المعنى: لا يُدْعَنُونَ ولا يطيعون في العمل بواجباته. وعقب على ذلك ابن العربي ونقله عنه القرطبي قائلًا: والصحيح أنها منه، أي من عزائم السجود، وهي رواية المدنيين عنه، أي عن مالك، وقد اعتضد فيها القرآن والسنة^(١).

٤ - الواقع أن الكفار يكذبون الدلائل الموجبة للإيمان وتوابعه، وإن كانت جليلة ظاهرة، وتكذيبهم بها إما لتقليد الأسلاف، أو عناداً، أو حسداً، أو خوفاً من أنهم لو أظهروا الإيمان، لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها.

والله عالم بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب والشرك والعناد وسائر العقائد الفاسدة والنيات الخبيثة، فهو يجازيهم على ذلك.

٥ - صرح الله تعالى بوعيدهم قائلًا لنبيه: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي موجع في جهنم على تكذيبهم، أي جعل ذلك بمنزلة البشارة تهكمًا واستهزاء بهم.

٦ - استثنى الله تعالى من الوعيد السابق الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وعملوا الصالحات، أي أدوا الفرائض المفروضة عليهم، فلهم ثواب غير منقوص ولا مقطوع، ولا يمنٌ عليهم به. والاستثناء منقطع عند الزغشري كما بينا، ولا بأس بكونه متصلًا، كأنه قال: إلا من آمن منهم، فله أجر غير مقطوع، أو هو من المنة.

وذكر ناس من أهل العلم أن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/١٨٩٩، تفسير القرطبي: ١٩/٢٨٠-٢٨١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية، وهي اثنتان وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة البروج، لافتتاحها بقسم الله بالسماء ذات البروج: وهي منازل الكواكب السيارة في أثناء سيرها، تنوياً بها لاشتغالها على الظهور والغياب.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ - التشابه في الافتتاح بذكر السماء، ولهذا ورد في الحديث ذكر السماوات مراداً بها السور الأربع، كما قيل في المسبّحات. وتلك السور هي الانفطار والانشقاق، والبروج، والطارق.

٢ - اشتمال السورتين على وعد المؤمنين، ووعد الكافرين، والتنويه بعظمة القرآن.

٣ - تضمنت السورة السابقة أن الله عليم بما يجمع المشركون في صدورهم للنبي ﷺ والمؤمنين معه من أنواع الأذى المادي، كالضرب والقتل والتعذيب

في حرّ الشمس، والأذى المعنوي، من حقد وحسد، وعداوة، ومكر، وخوف على فوت المنافع، وذكر في هذه السورة أن هذا شأن من تقدمهم من الأمم الكافرة الفاجرة. وفي هذا عظة للمشركين وتثبيت للمؤمنين.

ما اشتملت عليه السورة:

أبرزت هذه السورة المكية جانباً مهماً من جوانب العقيدة وهو التضحية في سبيل الإيمان والاعتقاد، ممثلاً في قصة (أصحاب الأخدود).

افتتحت السورة الكرعة بالقسم بالسماء ذات منازل الكواكب، وبيوم القيامة، وبالأنبياء الذين يشهدون على أممهم، على إهلاك وتدمير وإبادة المجرمين، الذين أحرقوا جماعة من المؤمنين والمؤمنات في النار ليفتنوهم عن دينهم: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝﴾ [الآيات: ١-٩].

وأعقبت ذلك بوعيد هؤلاء العتاة الطغاة، وإنذارهم بعذاب جهنم، وبوعد المؤمنين بالجنان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الآيتان: ١٠-١١].

وختمت السورة بإظهار عظمة الله وجليل صفاته وقدرته على الانتقام من أعدائه، والاتعاظ بقصة الطاغية فرعون الجبار: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝﴾ [الآيات: ١٢-٢٢].

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ و ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ۝.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء.

سبب نزولها والحكمة منها:

المقصود من هذه السورة تسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار، ببيان أن سائر الأمم السابقة كانوا كأهل مكة، مثل أصحاب الأخدود في نجران اليمن، ومثل فرعون وثمود. وكان كل الكفار سواء في التكذيب، فانتقم الله منهم؛ لأنهم جميعاً في قبضة القدرة الإلهية: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢٠). وهذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢١) في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢).

وسبب نزول هذه السورة التي تدور على قصة أصحاب الأخدود: ما رواه مسلم في صحيحه وأحمد والنسائي، وموجزها: أن أحد ملوك الكفار وهو ذو نواس اليهودي، واسمه زُرْعَةُ بن ثَبَّان أسعد الحميري، بلغه أن بعض رعيته آمن بدين النصرانية^(١)، فسار إليهم بجنود من حُمَيْر، فلما أخذوهم خيروهم بين اليهودية والإحراق بالنار، فاختاروا القتل، فشقوا لهم الأخدود، وأضرموا فيه النار، ثم قالوا للمؤمنين: من رجع منكم عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في النار، فصبروا، فألقوهم في النار، فاحترقوا، والملك وأصحابه ينظرون. قيل: قتل منهم عشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وقال الكلبي: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً.

والخلاصة: أن ذا نواس آخر ملوك حمير، وكان مشركاً، قتل أصحاب الأخدود الذين كانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً^(٢).

تفصيل القصة - قصة الساحر والراهب والغلام:

المعتمد من قصص أصحاب الأخدود: ما جاء في الصحاح عن النبي

(١) وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تَيْع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٤٩/٤.

ﷺ: «أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ، فلما كبرَ ضَمَّ إليه غلاماً ليعَلِّمَهُ السَّحْرَ، وكان في طريق الغلام راهب يتكلَّم بالمواعظ لأجل الناس، فمال قلب الغلام إلى حديثه، فرأى في طريقه ذات يوم دابة أو حية قد حَبَسَت الناس، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر، فاقتلها بهذا الحجر، فقتلها.

وكان ذلك الغلام بعدئذ يتعلَّم من الراهب إلى أن صار بحيث يرى الأكْمه والأبرص، ويَشْفِي مِنَ الداء. وعمي جليس للملك فأبرأه، فأبصره الملك فسأله: من ردَّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، فغضب، فعذَّبه.

فدَلَّ على الغلام، فعذَّب الغلام حتى دَلَّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فَقَدَّ بالْمِنْشَار، وأتى الغلام، فذهب به إلى جبل لِيُطْرَحَ مِنْ ذُرْوَتِهِ، فدعا فَرَجَفَ بالقوم فطاحوا ونجا، فذهبوا به إلى قُرْقُور: وهي سفينة صغيرة، فلَجَّجُوا به لِيُغْرِقُوهُ، فدعا، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا ونجا، وقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كِنَانِي وتقول: بسم الله ربَّ الغلام، ثم ترميني به.

فرماه فوق في صُدْغِهِ، فوضع يده عليه ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقبل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديد في أفواه السُّكَّ وَأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحة فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبي: يا أمّاه، اصبري فإنك على الحق، وما هي إلا غُمِيضَةٌ، فصبرت واقتحمت.

القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨

الإعراب:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ①﴾ القسم، وجوابه إما مقدر محذوف: وهو لتبعثن، أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑦﴾. واختار أبو حيان أن يكون الجواب هو قوله تعالى: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④﴾ وحذفت اللام، أي لقتل، وحسن حذفها كما حسن في قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ①﴾ ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ④﴾ أي لقد أفلح من زكاهها، ويكون الجواب دليلاً على لعنة الله على من فعل ذلك وطرده من رحمة الله، وتبنيهاً لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم على أنهم ملعونون بجامع ما اشتركا فيه من تعذيب المؤمنين. وإذا كان ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④﴾ جواباً للقسم، فهي جملة خبرية، وقيل: دعاء، فيكون الجواب غيرها (البحر المحيط: ٨/ ٤٥٠).

﴿وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ②﴾ أي الموعد به، وحذف للعلم به، وإنما وجب هذا التقدير؛ لأن ﴿الْمَوْعُودَ﴾ صفة لليوم، ولا بد من أن يعود من الوصف إلى الموصوف ذكر.

﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ ﴿النَّارِ ⑤﴾: مجرور على البدل من ﴿الْأَخْدُودِ﴾ بدل الاشتمال.

البلاغة:

﴿وَسَآهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ تأكيد المدح بما يشبه الذم، كأنه يقول: لا جُرم لهم إلا إيمانهم بالله، وهذه مفخرة عظمى.

﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ صيغة مبالغة.

﴿الْمَوْعُودِ﴾، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾، ﴿الْأَخْذُودِ﴾، ﴿الْوَفُودِ﴾ سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿الْبُرُجُ﴾ منازل الكواكب الاثني عشر، وقيل: ﴿الْبُرُجُ﴾: النجوم العظام، جمع بُرْج: وهو الحصن، أو القصر العالي، أو منزل الكوكب، سميت بروجاً لظهورها. والبروج على المعنى الأول اثنا عشر برجاً للكواكب السيارة، تسير الشمس مثلاً في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلاث يوم، فذلك ثمانية وعشرون منزلة، ويستتر ليلتين، أي يخفى.

سنة من بروج الشمس شمال خط الاستواء، وستة في جنوبه، أما التي في شماله: فهي الحَمَلُ والثور والجُوزاء والسَّرَطَانُ والأسد والسُّبُلَةُ. وأما التي في جنوبه: فهي الميزان والعقرب والقوس والجذني والدلو والحوت. وتقطع الشمس الثلاثة الأولى الشمالية في ثلاثة أشهر هي فصل الربيع، أولها ٢١ آذار (مارس) وتقطع الثلاثة الثانية في ثلاثة أشهر أخرى هي فصل الصيف، أولها ٢١ حزيران (يونيو) وتقطع الثلاثة الأولى الجنوبية في ثلاثة أشهر هي فصل الخريف، أولها ٢١ أيلول (سبتمبر) وتقطع الثلاثة الثانية الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضاً هي فصل الشتاء، أولها ٢٢ من شهر كانون الأول (ديسمبر)^(١).

(١) تفسير المراغي: ٩٨/٣٠.

وإذا كان القصد بالبروج الكواكب العظيمة فهي التي لا يحصى عددها، والتي هي ذات أبعاد هائلة عن الأرض، فبعضها لا يصل ضوءه إلى الأرض إلا بعد مليون ونصف مليون سنة ضوئية، علماً بأن الضوء يسير بسرعة ثلاث مئة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، ويصل إلى القمر في ثانية وثلاث، ويجري حول الكرة الأرضية في ثانية واحدة نحو ثمان مرات. والمريخ يبعد عن الأرض ٢٥٦ مليون ميل، وقد أطلقت روسيا مكوكاً إلى المريخ في ١٣/٧/١٩٨٨ يصل إليه في منتصف عام ١٩٩٠. وأقسم الله بهذه الكواكب حيث نيط بها تغيرات في الأرض بحلول الكواكب فيها.

﴿وَالْيَوْمَ الْوَعْدُ ۖ﴾ يوم القيامة. ﴿وَشَٰهِدٌ مَّشْهُودٌ﴾ الشاهد في ذلك اليوم على غيره من الخلائق، والمشهود عليه: ما يشهد به الشهود على المجرمين من الجرائم التي فعلوها بالشهود أنفسهم؛ كأصحاب الأخدود أو غيرهم، وهذا هو الأصح، أو الأنبياء الشاهدين على أممهم، أو مخلوقات الله الظاهرة التي هي عالم الشهادة، الدالة على تمام القدرة الإلهية وعظم الحكمة، وهي مشهودة أيضاً لكل ناظر إليها. وقال الأكثرون: الشاهد: يوم الجمعة؛ فإنه يشهد بالعمل فيه، والمشهود: يوم عرفة الذي تشهده الناس والملائكة. ﴿قُلْ﴾ لعن، وهو جواب القسم بتقدير: لقد. ﴿أَخْضَبَ الْأَخْدُودُ﴾ الشق المستطيل المحفور في الأرض، وجمعه أخاديد، وأصحاب الأخدود: قوم جبارون أحرقوا جماعة من المؤمنين في أخدود في نجران اليمن، بعد أن أوقدوا فيه ناراً عظيمة، ثم ألقوهم فيها. ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ﴾ أي الأخدود المشتمل على النار ذات الوقود، أي ما توقد به، وهو وصف لها بالعظمة وكثرة ما يرتفع به لهبها.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ قاعدون على حافة النار. ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي وهم حضور على تعذيب المؤمنين بالله، بالإلقاء في النار، إن لم يرجعوا عن إيمانهم، ويشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين

تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم. ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أنكروا وعابوا. ﴿الْعَزِيزِ﴾
الغالب الذي يخشى عقابه ولا يغلب. ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود على نعمه وعلى كل
حال، والذي يرجى ثوابه. ﴿الَّذِي لَمْ يَلِكْ أَلْسِنَاتٌ وَلَا أَرْضٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١﴾ شاهد عالم، وهو للإشعار بما يستحق أن يؤمن به ويعبد.

التفسير والبيان:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ أي أقسم بالسماء وبروجها وهي النجوم
العظام، وأشهر الأقوال أنها منازل الكواكب، وهي اثنا عشر برجاً لاثني
عشر كوكباً. وهي التي تقطعها الشمس في سنة، والقمر في ثمانية وعشرين
يوماً. أقسم الله بها تنوياً بها وتعظيماً وتشريفاً لها، حيث نيط بها تغيرات في
الأرض بحلول الكواكب فيها، فينشأ عنها الفصول الأربعة، وما فيها من
حرارة وبرودة، وينشأ عنها عدد السنين والحساب.

وجاء ذكر البروج في آيتين أخريين هما: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا
وَرَزَقْنَاهَا لِلْنَّظِيرِينَ ۝١٦﴾ [الحجر: ١٥/١٦]، وقال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي
السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝١٦﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٦].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢﴾ وشاهد مشهور ﴿٣﴾ أي وأقسم بيوم القيامة الموعود
به، وبمن يشهد في ذلك اليوم، ومن يشهد عليه. وهذا إن كان ذلك مأخوذاً
من الشهادة. فإن كان مأخوذاً من الحضور بمعنى أن الشاهد هو الحاضر،
كقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٣٩/٤٦]، فالشاهد: الخلائق
الحاضرون للحساب، والمشهود عليه: اليوم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ
يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١١/١٠٣] فالله يقسم بالخلائق
والعوالم الشاهد منها والمشهود، لما في التأمل بها من تقدير عظمة تدل على
الموجد.

والخلاصة: أن الشاهد والمشهود إما من الشهود: الحضور، وإما من
الشهادة، والصلة محذوفة، أي مشهود عليه أو به.

﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ ﴿٢﴾﴾ هذا جواب القسم، وهو إخبار أو دعاء على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى، أي لعن أصحاب الأخدود المشتمل على النار ذات الحطب الذي توقد به. وهم قوم من الكفار في نجران اليمن طلبوا من المؤمنين بالله عز وجل أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً (شقاً مستطيلاً) وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فلم يقبلوا منهم، فقفذوهم فيها. وقد أشار سبحانه إلى عظم النار إشارة مجملة بقوله: ﴿ذَاتِ الْوُودِ﴾ أي لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿١﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٢﴾﴾ أي لعنوا حين أحرقوا بالنار، قاعدين على الكراسي عند الأخدود، وهؤلاء الذين حفروا الأخدود، وهم الملك وأصحابه، مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين، من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم، ويشهدون بما فعلوا يوم القيامة، حيث تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم.

وهذا أي حضورهم الإحراق دليل على أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب، تمكن الكفر والباطل منهم، وتجردوا عن الإنسانية، وفقدوا الرحمة، ودليل أيضاً على أن المؤمنين كانوا أشد صلابة من الجبال في دينهم والإصرار على إيمانهم وحقهم في حرية الاعتقاد.

ثم ذكر الله تعالى سبب هذا التعذيب والإحراق بالنار، فقال:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ أي إن هؤلاء الكفار الجبابرة ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم، ولا عابوا على المؤمنين إلا أنهم صدقوا بالله الغالب الذي لا يغلب، المحمود في كل حال، وهو مالك السماوات

والأرض، وإليه الأمر كله، ومن كان بهذه الصفات، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد، والله شاهد عالم بما فعلوا بالمؤمنين، لا تخفى عليه خافية، ومجازيهم بأفعالهم. وأشار بقوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾ إلى أنه لو شاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب أولئك المؤمنين، ولأطفأ نيرانهم وأماتهم، وأشار بقوله: ﴿الْحَمِيدُ﴾ إلى أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها، فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أمهل، فإنه سيثيب المؤمنين، ويعاقب أولئك الكفرة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد بالخير لمن عُدب من المؤمنين على دينه، فصبر ولم يتراجع في موقف الشدة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ أَلَكُتِّبِ هَلْ تَتَقَمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩/٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - أقسم الله عز وجل بالسماء وبروجها، وهي نجومها العظام أو منازل الكواكب؛ لإناطة تغييرات في الأرض كالفصول الأربعة، ويوم القيامة الذي وعدنا به؛ لأنه يوم الفصل والجزاء، وتفرد الله بالحكم والقضاء، وبالشاهد والمشهود، أي الخلائق والعوالم الشاهد منها والمشهود؛ لما في التأمل بها من إدراك عظمة خالقها، أقسم بها على أن أصحاب الأخدود ملعونون مطرودون من رحمة الله.

قال الزمخشري: كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء، إنهم ملعونون، يعني كفار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصييرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم

من التعذيب على الإيمان، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا بهم، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن كفارهم أحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش، أي لعنوا، كما قتل أصحاب الأخدود^(١).

٢ - أسباب اللعنة على أصحاب الأخدود: أنهم حفروا أخدوداً أي شقاً مستطيلاً في الأرض وأوقدوا فيه ناراً عظيمة، ثم ألقوا فيه جماعة المؤمنين، بنجران اليمن في الفترة بين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وهم يتلذذون ويستمتعون بما تفعل النيران الملتهبة بأجساد هؤلاء المعذبين، ويحضرون ذلك المنظر الرهيب إلى تمام الإحراق والالتهاب، فهم قوم قساة، مجذون في التعذيب.

٣ - القصة درس وعظة وتذكير للمؤمنين بالصبر على ما يلاقونه من الأذى والآلام، والمشقات التي يتعرضون لها في كل زمان ومكان ليتأسوا بصبر المؤمنين وتصلبهم في الحق وتمسكهم به، ويذلم أنفسهم من أجل إظهار دعوة الله.

وليس هذا بمنسوخ، فإن الصبر على الأذى لمن قويت نفسه، وصلب دينه أولى^(٢) قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرَأَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝﴾ [لقمان: ١٧/٣١]. وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر».

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، مثل قصة عاصم وخبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق وغير ذلك.

(١) الكشف: ٣٢٦/٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٩٣/١٩.

٤ - ما أنكر الملك وأصحابه من الذين حَرَقُوهم إلا إيمانهم بالله العزيز الغالب المنيع، الحميد المحمود على كل حال، مالك السماوات والأرض الذي لا شريك له فيهما ولا نديد، وهو عالم بأعمال خلقه، لا تخفى عليه خافية.

عقاب الكفار وثواب المؤمنين

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝﴾

البلاغة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ و﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿قَاتَلُوا﴾ ابتلوا واختبروا، والمراد هنا ابتلوهם بالأذى والإحراق. ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم وإحراقهم المؤمنين. ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ هو عذاب جهنم، وهو بيان وتفسير لما سبق. ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ النجاح الأكبر الذي تصغر الدنيا وما فيها دونه.

المناسبة:

بعد بيان قصة أصحاب الأخدود وما فعلوه بالمؤمنين من الإحراق بالنار، أتبع الله تعالى ذلك بأحكام الثواب والعقاب، وأوضح ما أعد للكفار من عذاب جهنم، وما أعد للمؤمنين من الثواب الجليل والتنعيم بجنات الخلد.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (١٠) أي إن الذين أحرقوا بالنار المؤمنين والمؤمنات بالله ورسله، ولم يتركوهم أحراراً في دينهم، وأجبروهم إما على الإحراق أو الرجوع عن دينهم، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم ورجعوا عن كفرهم، فلهم في الآخرة بسبب كفرهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الاحتراق بالنار؛ لأن الجزاء من جنس العمل. وعذاب الحريق تأكيد لعذاب جهنم، وقيل: إنهما مختلفان في الطبقة، الأول: لكفرهم، والثاني: لأنهم فتنوا أهل الإيمان وأحرقوهم بالنار، وهذا عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم، وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق. أو لهم عذاب جهنم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا، لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ إشارة إلى أنهم لو تابوا إلى الله، وندموا على ما فعلوا، غفر الله لهم. ولكن لم ينقل أن أحداً منهم تاب، بل الظاهر أنهم لم يُلْعَنُوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر. قال الحسن البصري رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

ثم رَغِبَ الله تعالى وأرشد إلى ما أعدَّ للمؤمنين من الثواب العظيم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١١) أي إن الذين آمنوا وصدقوا بالله رباً واحداً لا شريك له، وبالرسل واليوم الآخر والملائكة والكتب الإلهية، وعملوا صالح الأعمال باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ومنهم الذين صبروا على نار الأخدود، وثبتوا على دينهم ولم يرتدوا، لهم بسبب الجمع بين الإيمان والعمل الصالح جنات (بساتين) تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، وذلك الثواب والنعيم المذكور هو الفوز أو الظفر الكبير الذي لا يَغْدِلُهُ فوز، ولا يقاربه ولا يدانيه، جزاء إيمانهم وطاعة ربهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيتان في الجملة على حكمين:

الأول - أن الذين حرّقوا المؤمنين بالنار، من أصحاب الأخدود وغيرهم^(١)، ثم ماتوا على الكفر، ولم يتوبوا من قبيح صنيعهم، فلهم في الآخرة عذاب جهنم المخزي؛ لكفرهم، ولهم العذاب المحرق؛ لإحراقهم المؤمنين بالنار. وعذاب جهنم وعذاب الحريق إما متلازمان، والغرض من الثاني التأكيد، وإما مختلفان في الدركة: الأول لكفرهم، والثاني؛ لأنهم فتنوا أهل الإيمان. وقيل: الأول في الآخرة، والثاني في الدنيا، أو أن الأول عذاب يبرد جهنم وزمهريرها، والثاني عذاب بجرّها.

وفي هذا تصريح بأن التوبة تسقط أثر الذنب وترفع العقوبة، والله يرغب دائماً بها.

الثاني - أن الذين آمنوا أي صدقوا بالله وبرسله، وعملوا الصالحات المأمور بها وتركوا المنهي عنها، لهم جنات (أي بساتين) تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لَذَّةٍ للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وذلك الفوز الساحق العظيم الذي لا فوز يشبهه.

وإنما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ﴾ ولم يقل (تلك) لأن ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات، وقوله (تلك) إشارة إلى الجنات، وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضياً، و﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾: هو رضا الله، لا حصول الجنة، فاللهم أرضنا وارض عنا يا كريم.

وقصة أصحاب الأخدود، ولا سيما آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

(١) لأن اللفظ عام، والحكم عام، فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل.

أَصْلَحَتْ ﴿١﴾ تدل على أن المستكره على الكفر بالإهلاك الشديد، الأولى به أن يصبر على ما خوف منه، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك؛ روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ، فقال لأحدهما: تشهد أني رسول الله؟ فقال: نعم، فتركه، وقال للآخر مثله، فقال: لا، بل أنت كذاب، فقتله، فقال ﷺ: «أما الذي ترك، فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه، وأما الذي قُتل فأخذ بالفضل فهنيئاً له»^(١).

كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد

والاعتبار بإهلاك الأمم الكافرة السالفة

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (٧) ﴿إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ (١٣) ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ (١٤) ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (١٥) ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ (١٦) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّةِ﴾ (١٧) ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (١٨) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (١٩) ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢٠) ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢١) ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (٢٢) ﴿

القراءات:

﴿الْمَجِيدُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (المجيد).

﴿قُرْآنٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وفقاً (قرآن).

﴿مَحْفُوظٌ﴾:

وقرأ نافع (محفوظ).

الإعراب:

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (١٥) ﴿الْمَجِيدُ﴾ بالرفع صفة: ﴿ذُو﴾ أو خبر بعد خبر، وبالجذر: إما وصف للعرش، أو صفة: ﴿رَبِّكَ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٦) وهذا أولى؛ لأن ﴿الْمَجِيدُ﴾ من صفات الله.

﴿فَعَالَ لَمَّا يُرِيدُ﴾ (١٦) ﴿فَعَالَ﴾: إما بدل من ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو فعال، أو خبر بعد خبر.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (١٧) ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (١٨) ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (١٨): في موضع جر على البدل من ﴿الْجُنُودِ﴾، وقيل: في موضع نصب بتقدير أعني. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (١٩) في لَوْجٍ مَحْفُوظٍ (٢٠) ﴿مَحْفُوظٍ﴾ بالجذر صفة ﴿لَوْجٍ﴾، وبالرفع صفة ﴿قُرْآنٍ﴾.

البلاغة:

﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ بينهما طباق.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (١٧) ؟ أسلوب التشويق لاستماع ما يأتي والاعتبار به.

﴿لَشَدِيدٌ﴾، ﴿الْفَقُورُ﴾، ﴿الْوُدُودُ﴾، ﴿فَعَالَ﴾ إلخ: صيغ مبالغة.

للفردات اللغوية:

﴿بَطْشُ﴾ البطش: هو الأخذ بعنف وشدة، فإذا وصف بالشدة كان نهاية، والمراد بالآية: أنه تعالى مضاعف عنفه بالكفار بحسب إرادته. ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يبدئ الخلق ويعيده، فلا يعجزه ما يريد. ﴿الْفَقُورُ﴾ لمن تاب من المذنبين.

﴿الْوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاع. ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكة وصاحبه. ﴿الْمُجِيبُ﴾ العظيم الجليل المتعالي، المستحق لكل صفات العلو الكاملة، أو العظيم في ذاته وصفاته، فإنه واجب الوجود، تام القدرة والحكمة. ومجده: علوه وعظمته. ﴿فَقَالَ لَمَّا رُيْدُ ۝﴾ لا يعجزه شيء، ويفعل ما يريد.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝﴾ هل بلغك يا محمد خبر الأقوام أو الجماعات الذين كذبوا الرسل وما حاق بهم؟ وأصل معنى الجنود: العسكر أو الأعوان. والمقصود تسلية النبي ﷺ والصبر على تكذيب قومه، وأمره بأن يحذرهم مثلما أصاب هؤلاء. ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝﴾ المراد بفرعون: هو وجنوده، أي هؤلاء هم الجنود: فرعون وأتباعه، وقبيلة ثمود من العرب البائدة، قوم صالح عليه السلام، أهلكهم الله بكفرهم. وهذا تنبيه لمن كفر بالنبي ﷺ والقرآن ليتعظوا.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝﴾ لما حدث من إهلاك الأقوام، فلا يروعون عن تكذيبهم، ومعنى الجملة والإضراب: أن حال كفار قريش أعجب من الأمم السابقة، فإنهم سمعوا قصتهم، ورأوا آثار هلاكهم، وكذبوا أشد من تكذيبهم. ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۝﴾ لا يفوتونه، ولا عاصم لهم منه، فهم في قبضته وحوزته. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝﴾ عظيم معظم، والمعنى: بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف، وحيد في النظم والمعنى. ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ۝﴾ من الزيادة والنقص، والتغيير والتحريف.

المناسبة:

بعد بيان وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجزاء كل فريق، أكد الله تعالى الوعد والوعيد بما يدل على تمام قدرته على ذلك. ثم بين أن حال الكفار في كل عصر، مع الأنبياء، شبيه بحال أصحاب الأخدود، في إلحاق أذى الكفار بالمؤمنين، فهم دائماً في صراع معهم

وعداوة وإيذاء. والقصد من هذا كله ترهيب الكفار، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم، وشد عزائمهم بالصبر، وتطمينهم بأن كفار قريش سيلقون مثلما أصاب الأقوام السابقة: فرعون وأتباعه وثمود.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) أي إن جزاء ربك وانتقامه من الجبابرة والظلمة، ومن أعدائه الذين كذبوا رسله، وخالفوا أمره، لشديد عظيم قوي، مضاعف إذا أراد، فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان، ويكون ما يريد مثل لمح البصر أو هو أقرب. وفي هذا تأكيد للوعيد، وإرهاب لكفار قريش وأمثالهم.

ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله:

﴿إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ (١٣) أي إنه تعالى تام القدرة، فهو الذي يبدأ الخلق ويخلقهم أولاً في الدنيا، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت. أو هو الذي يبدأ البطش ويعيده، أي يبطش بالجبابة في الدنيا والآخرة. وفيه وعيد للكفرة بأنه يعيدهم ليبطش بهم؛ إذ كفروا بنعمة الإبداء إبداء الخلق، وكذبوا بالإعادة.

ثم أكد الله تعالى الوعد بإيراد خمس صفات لجلاله وكبريائه وهي:

١ - ٢: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ (١٤) أي والله سبحانه بالغ المغفرة للذنوب عباده المؤمنين إذا تابوا وأنابوا إليه، يغفر ذنب من تاب إليه، وخضع لديه، مهما كان الذنب كبيراً أو صغيراً، وهو تعالى بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه، بليغ الوداد، والمراد به: إيصال الثواب لأهل طاعته على الوجه الأتم، فيكون كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ (المائدة: ٥٤/٥)، أو هو بمعنى مفعول فيكون كقوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤/٥).

٣ - ٤: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (١٥) أي هو تعالى رب العرش العظيم العالي

على جميع الخلائق، وصاحب الملك والسلطان، والعظيم الجليل المتعالي، صاحب النهاية في الكرم والفضل، وبالغ السمو والعلو.

هـ - ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ أي صاحب القدرة المطلقة على فعل ما يريد، فمهما أراد فعل شيء، لا معقّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره، وحكمته وعدله. فإذا أراد إهلاك الظالمين الجاحدين، ونصر المؤمنين الصادقين، فعل دون أن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يصرفه عنه صارف.

ثم ذكر الله تعالى الكفار وغيرهم، وسلّى نبيه ﷺ بقصة فرعون وثمود من متأخري الكفار ومتقدميهم، فقال:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجُنُودِ ۝١٧﴾ ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ أي هل أُنَبِّئُكَ يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم، والتي جندت جنودها لقتالهم؟ أو هل بلغك ما أحلّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النعمة بسبب تماديهم في الكفر والضلال؟ ومن هؤلاء الجنود وأشهر حديثهم وخبرهم المتعارف: فرعون وجنوده، وقبيلة ثمود من العرب البائدة قوم صالح عليه السلام. والمراد بحديثهم: ما وقع منهم من الكفر والعناد، وما حلّ بهم من العذاب. والمراد بفرعون: هو وجنوده. أما فرعون وأتباعهم فأغرقهم الله في اليم: البحر الأحمر، وأما ثمود الذين عقروا ناقة نبيهم صالح، فدمّر الله بلادهم وأهلكهم بالطاغية أي الصيحة المجاوزة للحدّ في الشدة.

ثم أشار الله تعالى إلى أن هذا شأن الكفار وصنيعهم في كل زمان، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾ أي فالواقع القائم أن هؤلاء المشركين العرب في تكذيب شديد لك أيها النبي، ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار.

وفي هذا إضراب عن التذكير بقصة الجنود إلى التصريح بتكذيب كفار قريش.

وبعد تطيب قلب الرسول ﷺ بحكاية أحوال الأولين وموقفهم من الأنبياء، سلاه بعد ذلك من وجه آخر، فقال:

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٠﴾ أي إن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، قاهر الجبارين لا يفوتونه ولا يعجزونه، فهو مقتدر عليهم، وهم في قبضته لا يجدون عنها مهرباً. وهذا دليل على أنه تعالى عالم بهم فيجازيهم، وعلى أنه لا داعي للمجزع من تكذيبهم وإصرارهم على الكفر وعنادهم.

ثم ردّ على تكذيبهم بالقرآن، فقال:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ٢١﴾ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٢﴾ أي إن هذا القرآن الذي كذبوا به شريف الرتبة في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حد الإعجاز، متناوٍ في الشرف والكرم والبركة، وليس هو كما يقولون: إنه شعر وكهانة وسحر. وإنما هو كلام الله المصون عن التغير والتحريف، المكتوب في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧﴾ في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٧٨﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨]. أي إن الكتاب المكنون واللوح المحفوظ واحد.

قال بعض المتكلمين: اللوح شيء يلوح للملائكة، فيقرؤونه، وأمثال هذه الحقائق مما يجب به التصديق سمعاً، أي إن اللوح المحفوظ شيء أخبرنا الله به، فيجب علينا الإيمان به كما أخبر الله، وإن لم نعرف حقيقته.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - إن عقاب الله وانتقامه، وأخذة الجبارة والظلمة لشديد قوي، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٢١﴾ [هود: ١٢١].

٢ - إن الله تعالى بدأ خلق الناس أولاً في الدنيا، ثم يعيدهم عند البعث.

٣ - لله تعالى صفات عليا لا تتحقق في غيره، فهو الغفور الستور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها، الودود المحب لأوليائه، صاحب العرش الأعظم من كل المخلوقات، وصاحب الملك والسلطان المطلق، المجيد البالغ النهاية في الكرم والفضل، السامي القدر المتناهي في علوه، الفعال لما يريد، أي لا يمتنع عليه شيء يريده. قال القفال: فعّال لما يريد على ما يراه، لا يعترض عليه معترض، ولا يغلبه غالب، فهو يدخل أولياءه الجنة، لا يمنعه منه مانع، ويدخل أعداءه النار، لا ينصرهم منه ناصر، ويعمل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء، ويعذب من شاء منهم في الدنيا وفي الآخرة، يفعل من هذه الأشياء ومن غيرها ما يريد^(١).

٤ - قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم، وهذا إيناس له وتسلية، والجموع: فرعون وأتباعه وثمود، وذكرنا لأن حديثهما مشهور معروف من طريق اليهود في المدينة وغيرهم، فإن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك؛ فدلّ الله بهما على أمثالهما في الهلاك.

والواقع أن كفار قريش في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، كدأب من قبلهم.

٥ - الله يقدر على أن ينزل بكفار مكة في الدنيا ما أنزل بفرعون، والله عالم بهم، فهو يجازيهم في الآخرة.

٦ - ليس القرآن كما زعم المشركون أنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو كتاب متناه في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما يحتاج إليه الناس من

(١) تفسير الرازي: ١٢٣/٣١ - ١٢٤.

أحكام الدين والدنيا. وهو مكتوب عند الله في لوح، ومحفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه.

قال ابن عباس: أول شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ: «إني أنا الله، لا إله إلا أنا، محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ إلهاً سواي»^(١).

(١) تفسير القرطبي: ٢٩٨/١٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية، وهي سبع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة (الطارق) تسمية لها بما أقسم الله به في مطلعها بقوله: ﴿وَالسَّامِیِّ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ ﴿وَالطَّارِقِ ۝٢﴾: هو النجم الثاقب الذي يطلع ليلاً، سمي طارقاً؛ لأنه يظهر بالليل ويختفي بالنهار. وكذلك الطارق: هو الذي يجيء ليلاً.

مناسبتها لما قبلها:

السورة مرتبطة بما قبلها من ناحيتين:

١ - ابتداء السورتين بالحلف بالسماء كسورتي (الانشقاق) و(الانفطار).

٢ - التشابه في الكلام عن البعث والمعاد، وعن صفة القرآن للرد على المشركين المكذبين به وبالبعث، ففي سورة (البروج): ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ ۝١٣﴾ ، وفي هذه السورة: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجِئِهِ لَقِידٌ ۝٨﴾ ، وفي السورة السابقة: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ في لَوْجٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ ، وفي هذه السورة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝١٣﴾ .

ما اشتملت عليه السورة:

إن محور هذه السورة المكية كغيرها من السور المكية الكلام عن الإيمان

بالبعث والمعاد والحساب والجزاء، وإثباته بخلق الإنسان من العدم؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة بعد الموت.

وقد افتتحت السورة بالقسم بالسماء والكواكب المضئية ليلاً على أن كل إنسان محفوظ بالملائكة الأبرار: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أقام الله تعالى الدليل على إمكان البعث وقدرته عليه بعد الموت والفناء بخلق الإنسان أول مرة من تراب ثم من نطفة: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝﴾ [الآيات: ٥-٨].

وأعقبت السورة ذلك ببيان كشف الأسرار في الآخرة على نحو كامل تام، في حالة كون الإنسان بين يدي العدالة الإلهية دون أن يكون له قوة ولا نصير: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرَافُ ۝﴾ [٩-١٠].

وختمت السورة بالقسم الإلهي بالسماء والأرض على صدق القرآن وأنه القول المحكم الفصل بين الحق والباطل، وعلى تهديد الكفار المكذبين به ووعيدهم: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝﴾ [١١-١٧].

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن خالد بن أبي حبل العدواني أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعتة يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية، وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعنتي ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه.

وأخرج النسائي عن جابر بن عبد الله قال: صلى معاذ المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ! ما كان يكفيك أن تقرأ بـ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝﴾ ونحوها؟».

القسم على أن لكل نفس حافظاً من الملائكة يراقبها وإثبات إمكان البعث

﴿وَأَسْمَاءُ وَالطَّارِقُ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② أَلَتَجْمُ الثَّاقِبَ ③﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُمْ عَلَى رَجْعِهِمْ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑨ فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩﴾

القرءات:

﴿لَّمَّا﴾:

قرأ ابن عامر، وعاصم، وحزة (لَمَّا) وقرأ الباقر (لَمَّا).

الإعراب:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ جملة ﴿أَدْرَاكَ﴾ خبر ﴿مَا﴾. ﴿مَا الطَّارِقُ﴾ مبتدأ وخبر في محل المفعول الثاني لأدري.

﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④﴾ ﴿لَمَّا﴾ بالتخفيف، فتكون ﴿مَا﴾ زائدة، و﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف، أي إنه، واللام فارقة، أي إن كل نفس لعلها حافظ. وبالتشديد، فتكون ﴿إِنْ﴾ بمعنى (ما) النافية، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى (إلا) مثل: نشدتك الله لَمَّا فعلت، أي إلا فعلت، وتقديره: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَجْعِهِمْ لَقَادِرٌ ⑧﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑨ الهاء في ﴿إِنَّهُمْ﴾ إما أن تعود على الماء، أي على رجوع الماء إلى موضعه من الصلب لقادر، وحينئذ ينصب ﴿يَوْمَ﴾ بتقدير: اذكر؛ لأن رد الماء لا يكون في الآخرة، وإما أن تعود على

الإنسان، أي على بعثه لقادر، وهو الظاهر، و﴿يَوْمَ﴾ ظرف، ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿رَجِيءٍ﴾ لأن يؤدي إلى الفصل بين الصلة والموصول بخبر إن، وهو قوله: ﴿لَقَادِرٌ﴾. وإنما يتعلق بفعل دلّ عليه قوله: ﴿رَجِيءٍ﴾ أي يرجعه يوم تبلى السرائر، أو يتعلق بقوله: ﴿لَقَادِرٌ﴾ والوجه الأول أوجه؛ لأن الله قادر في جميع الأوقات، فأى فائدة في تعيين هذا الوقت؟

البلاغة:

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم ورفع الشأن.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ كناية، كنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَسْمَاءُ﴾ كل ما علاك فأظلك. ﴿وَالطَّارِقُ﴾ النجم الطالع ليلاً، وأصله عرفاً: كل آت ليلاً، أو الذي يجيئك ليلاً، ثم استعمل للبادي فيه، وأطلق على النجوم لطلوعها ليلاً. ﴿وَمَا أَذْرَكَ﴾ وما أعلمك؟ وفيه تعظيم لشأن الطارق. ﴿الَّتِي تَأْتِيهِ الظُّلُمُتُ﴾ المضيء، كأنه يثقب الظلام بضوئه، فينفذ فيه، والمراد به كل نجم، أو الثريا. ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، أو إن الشأن كل نفس لعلها، إذا جعلت ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، و﴿حَافِظٌ﴾: رقيب وهو الله أو الملائكة تحفظ عملها من خير وشر. والجملة على الوجهين جواب القسم، والمراد بالقراءتين واحد.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ فلينظر نظر اعتبار واتعاظ وتأمل من أي شيء خلق؛ لأن وجود الحافظ يستدعي النظر إلى المبدأ ليعلم صحة قضية إعادته بالبعث، فلا يمل على حافظه إلا ما يسره في عاقبته. ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي ماء مدفوق منصوب بدفع وسرعة سواء من الرجل والمرأة في رحمها،

والمراد: الممتزج من المائين في الرحم، بدليل ما يأتي: «الْصُّلْبُ وَالْثَرَائِبُ»، والجملة جواب الاستفهام في قوله: «مِمَّ خُلِقَ». «الْصُّلْبُ» أي من النخاع الشوكي في ظهر الرجل، ثم ينصب إلى عروق في البيضتين. «وَالْثَرَائِبُ» عظام صدر المرأة، جمع تربية، مثل فصيلة وفصائل، والمراد: من الماء المتكون من الدم في العروق والشعب النازلة إلى الترائب، ويعدّ الصلب والترائب أقرب أوعية المني، فلذلك خصّا بالذكر.

﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَجِيمٍ لَقَادِرٌ﴾ (٨) أي إن الله تعالى على بعث الإنسان بعد موته لقدير، فإذا تأمل الإنسان في أصله، علم أن القادر على خلقه ابتداء، قادر على بعثه. «تَبْلَى» تختبر وتكشف، والمراد: تظهر السرائر وتعرف المكنونات ويميز بين ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال، وما خبث منها. «الْثَرَائِبُ» ضمائر القلوب وما يسرّ فيها من العقائد والنيات وما خفي من الأعمال، جمع سريرة. «فَا لَكُمْ» ما لمنكر البعث وهو الإنسان الكافر. «مِنْ قُوَّةٍ» يمتنع بها من العذاب. «وَلَا نَاصِرٍ» ينصره ويدفع عنه السوء.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿فَلْيَنْظُرِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ» (٥) قال: نزلت في أبي الأشد بن كَلْدَةَ الْجُمَحِي، كان يقوم على الأديم (الجلد)، فيقول: يا معشر قريش: من أزالني عنه فله كذا، ويقول: إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة.

التفسير والبيان:

﴿وَأَسْمَاءُ وَالطَّارِقُ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ أي قسماً

بالسماء البديعة، والكوكب النير البادي ليلاً، وما أعلمك ما حقيقته؟ إنه النجم المضيء الشديد الإضاءة، كأنه يخرق بشدة ضوئه ظلمة الليل البهيم.

والحلف بالسماء والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار التي أكثر الله تعالى في كتابه الحلف بها؛ لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغارها عجيبة، وفيها دلالة على أن لها خالقاً مديراً ينظم أمرها. وقوله: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (٢) يراد به التهويل والتفخيم، كأن هذا النجم البعيد في آفاق السماوات لا يمكن لبشر إدراكه ومعرفة حقيقته، قال سفيان بن عيينة: كل شيء في القرآن: ﴿وَمَا أَذْرَكَ﴾ فقد أخبر الله الرسول به، وكل شيء فيه ﴿وَمَا يُذْرِكُ﴾ لم يخبره به، كقوله: ﴿وَمَا يُذْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧/٤٢].

والطارق: اسم جنس، وسمي طارقاً؛ لأنه يطرق بالليل، ويخفى بالنهار، وكل ما أتاك ليلاً فهو طارق.

وفتره بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (٣) أي هو طارق عظيم الشأن، رفيع القدر، وهو الذي يضيء ظلمة الليل، ويهتدى به في ظلمات البر والبحر، وتعرف به أوقات الأمطار وغيرها من أحوال المعاش، وهو الثريا عند الجمهور، وقال الحسن وقتادة وغيرهما: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليل، وكل من أتاك ليلاً فهو طارق. والظاهر أن المراد جنس النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر.

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح: نهى النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله طروقاً، أي يأتيهم فجأة بالليل. وفي حديث آخر مشتمل على الدعاء: «أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

ثم ذكر الله تعالى المقسم عليه أو جواب القسم بقوله:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (٤) أي قسماً بالسماء وبالنجم الثاقب، ما

كل نفس إلا عليها من الله حافظ، يحرسها من الآفات، وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لَمْ مُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١/١٣]. والحافظ على الحقيقة هو الله عز وجل، وحفظ الملائكة: من حفظه؛ لأنه بأمره.

ولم تبين الآية من هو الحافظ، فقال بعض المفسرين: إن ذلك الحافظ هو الله تعالى، وقال آخرون: إن ذلك الحافظ هم الملائكة، كما قال: ﴿وَرُسُلٌ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ﴾ [الأنعام: ٦١/٦] ، وقال: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كَرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [الأنعام: ١١-١٠/٨٢] ، وقال: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُلَافِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۚ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨-١٧/٥٠] ، وقال: ﴿لَمْ مُعَقِّبَتْ﴾ الآية المتقدمة. قال أبو أمامة: قال النبي ﷺ: «وَكُلُّ بِالْمُؤْمِنِ مِثَّةٍ وَسِتُونَ مَلَكًا يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يُقَدَّرْ عَلَيْهِ، مِنْ ذَلِكَ الْبَصَرِ، سَبْعَةٌ أَمْلاكٌ يَذُبُّونَ عَنْهُ، كَمَا يُذَبُّ عَنْ قَضْعَةِ الْعَسَلِ الذَّبَابُ، وَلَوْ وَكَّلَ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ، لَاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ» .

ثم نبه الإنسان إلى مبدأ الخلق ليكون ذلك دليلاً على إمكان المعاد، فقال:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۚ﴾ أي فعلى الإنسان أن يتفكر في كيفية بدء خلقه، ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث، إنه خلق من ماء مدفوق مصبوب في الرحم، وهو ماء الرجل وماء المرأة، وقد جعل ماءً واحداً لا متزاجهما، وإنه ماء يخرج من ظهر الرجل في النخاع الشوكي الآتي من الدماغ، ومن بين ترائب المرأة، أي عظام صدرها أو موضع القلادة من الصدر، والولد يتكون من اجتماع المائتين، ثم يستقر الماء المختلط في الرحم، فيتكون الجنين بإرادة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥/٢٢] .

ومعنى خروجه من بين الصلب والترائب: أن أكثره ينفصل من هذين الموضعين لإحاطتهما بسور البدن، والماء في الحقيقة يشترك في تكوينه جميع أجزاء البدن، ويتبلور في الخصية والمبيض في بدء التكوين، وكلاهما يجاور الكل، ويقع بين الصلب، والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع، وكل ذلك آثار عضوية مولدة من الدماغ، والنخاع قناة الدماغ، وهو في الصلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن، وهو الترائب جمع تريبة.

وبعد السؤال والجواب عنه لمعرفة المبدأ الذي هو مقدمة لمعرفة المعاد، والذي ناسب أن يبدأ الله به، ذكر تعالى النتيجة المترتبة على ذلك وهي بيان القدرة على الإعادة، فقال:

﴿إِنَّمَا عَلَى رَجِيعٍ لِّقَادِرٍ ۝٨ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ أي إن الله تعالى على رجوع الإنسان، أي إعادته بالبعث بعد الموت لقادر؛ لأن من قدر على البداء قدر على الإعادة، وقد ذكر تعالى هذا الدليل في مواضع متعددة في القرآن الكريم. وقيل: إنه تعالى على رجوع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. والراجع القول الأول بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾.

ويرجعه يوم القيامة يوم تختبر وتعرف السرائر، أي ما يسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها. وحقيقة البلاء في حقه تعالى ترجع إلى الكشف والإظهار، كقوله: ﴿وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٣١].

وكيفية دلالة المبدأ على المعاد: أن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنساناً سوياً، فإنه بعد موته وتفرق أجزائه، لا بد وأن يقدر على جمع تلك الأجزاء، وجعلها خلقاً سوياً^(١).

﴿فَأَلَمْ يَنْ قُوَّةً وَلَا نَاصِرًا﴾ أي فما للإنسان حين بعثه من قوة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله، ولا ناصر ينصره، فينقذه مما نزل به، أي فلا قوة ذاتية له، ولا قوة من غيره، لينقذ نفسه من عذاب الله، فهذا نفي للقوة الذاتية والقوة العرضية الخارجية عن الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

١ - أقسم الله تعالى بالسما واللكواكب المنيرة المضئية على أن لكل نفس حفظة يحفظون عليها رزقها وعملها وأجلها.

وقد أكثر سبحانه في كتابه الكريم الإقسام بالسماءات؛ لأن أحوالها في مطالعها ومغاربها ومسيراتها عجيبة.

٢ - الدليل على إمكان البعث والمعاد هو بدء الخلق للإنسان. ووجه الاتصال أو التعلق بين هذا وبين ما قبله: أن الله تعالى حين ذكر أن على كل نفس حافظاً، أتبعه بوصيته للإنسان بالنظر في أول أمره وستته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يعلى على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره.

٣ - خلق الله الإنسان ابن آدم من المني المدفوق، مني الرجل والمرأة المجتمعين، والذي يستقر في رحم المرأة، ولا شك أن الصب فعل الشخص، والفاعل الحقيقي هو الله، فيكون ذلك من الإسناد المجازي الظاهري.

وتكون المني من عملية مشتركة تشترك فيها جميع أجزاء الإنسان، وقد عبّر تعالى عن الكل بالأكثر الذي يحسّ به الشخص عادة وهو خروج الماء من بين الصلب أي الظهر، والتراتب أي الصدر، جمع تربية: وهي موضع القلادة من الصدر. والصلب من الرجل، والتراتب من المرأة.

٤ - إذا كان الخالق الحقيقي للإنسان أولاً هو الله تعالى، فإن الله جلّ ثناؤه قادر على إعادته وبعثه مرة أخرى بعد الموت، في يوم القيامة، وفي اليوم الذي تنكشف فيه السرائر وتبدو وتظهر، ويصبح السرّ علانية، والمكتون مشهوراً. والسرائر: كل ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفي من الأعمال الحسنة أو القبيحة. واختبار هذه السرائر معناه الكشف والإظهار وترجيح الاتجاه الراجح من الأفعال وتمييز المرجوح، فتتجلي الحقائق، ويعرف الصحيح من الفاسد، والحق من الباطل.

٥ - نفى الله سبحانه وجود القوة الذاتية والقوة العرضية الخارجية عن الإنسان يومئذ، بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١١). والآية دليل على أنه لا قوة للعبد ذلك اليوم، لا من نفسه ولا من غيره، ولا شك في أن نفى القوة زجر وتحذير، ويتجه أولاً إلى أصحاب القوة والنفوذ في الدنيا الذين يعتمدون على الأعوان والأنصار، وهناك يوم القيامة يفقدون كل شيء.

القسم على صدق القرآن والرسالة

وتهديد الكائدين لهما

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْجَنِّ (١١) وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّنِيعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَآكِيذٌ كَيْدًا (١٦) فَبُهْلٍ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤُودًا (١٧)﴾

الإعراب:

﴿رُؤُودًا﴾ مصدر مؤكد لمعنى العامل، مصغر رُود أو إرواد على الترخيم.

البلاغة:

﴿وَالسَّمَاءَ﴾ و ﴿وَالْأَرْضَ﴾ بينهما طباق، وكذا بين (الفصل.. والهزل).

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝﴾ سجع رصين يزيد في جمال الأسلوب، ومثله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ۝﴾.

﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ جناس اشتقاق.

﴿فَهَلْ أَلْكَفَرِينَ أَنَّهُمْ رُؤُوسًا ۝﴾ إطناب بتكرار الفعل مرة أخرى، مبالغة في الوعيد.

المفردات اللغوية:

﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ الرجوع: إعادة الشيء إلى ما كان فيه أولاً، والمراد به هنا المطر: لأنه يعود إلى الأرض من السماء. ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ الشَّقُّ عن النبات والعيون وغيرهما من كنوز الأرض. ﴿إِنَّهُ﴾ القرآن. ﴿لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ يفصل بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام. ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ۝﴾ باللعب والباطل، فإنه جدُّ كلِّه.

﴿إِنَّهُمْ﴾ الكفار من أهل مكة وأمثالهم. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يدبرون ويعملون المكائد لإطفاء نور الإسلام، وإبطال أمر النبي ﷺ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝﴾ أقابلهم بما يعلي أمره، وأدبرُ أمراً خفياً لهم، وأستدرجهم للانتقام منهم بحيث لا يحتسبون ولا يعلمون. وليس المقصود بالكيد إذا أسند إلى الله على حقيقته؛ لأن الله تعالى ليس بحاجة إليه، وإنما المراد به جزاء العمل، من قبيل المشاكلة والمشابهة للجرم المرتكب. ﴿فَهَلْ﴾ أنظرهم أو أعطهم مهلة يا محمد، فلا تشتغل بالانتقام منهم، أو لا تستعجل بإهلاكهم. ﴿أَنَّهُمْ رُؤُوسًا﴾ أمهاتهم إمهالاً يسيراً، أو قليلاً أو قريباً، وتكرار الفعل وتغيير بنيته للمبالغة في الوعيد. وقد أخذهم الله تعالى ببدر، وفتح مكة، وتظهرت الجزيرة العربية من رجس الوثنية.

للمناسبة:

بعد إثبات توحيد الله وقدرته على خلق الإنسان أولاً، وإعادته بالبعث

والمعاد، أقسم الله قسماً آخر على صحة نزول القرآن من عند الله مشتملاً على القول الفصل، وصحة رسالة النبي الكريم الذي نزل عليه الوحي القرآني، ثم أردفه بوعيد المفتريين على القرآن والكائدين للرسول ﷺ، ووعد هذا النبي وكل داع إلى الحق بالفوز والغلبة على الأعداء.

التفسير والبيان:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ۖ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ ۚ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۖ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۚ﴾ أي قسماً آخر بالسماء ذات المطر الذي يجيء ويرجع ويتكرر من السماء، فيحيي الأرض بعد موتها، وينبت النبات، والأرض ذات الصدع: وهو ما تتصدع وتنشق عنه الأرض من النبات والثمار والشجر والمعدن والكنز والثروة النفطية والمائية، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَنَبَاتًا ۚ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ وَحَدَائِقَ غُلَابًا ۚ وَفَيْكَةً وَنَاقًا ۚ مَنَّاعًا لِّكُلِّ لَوْحٍ وَأَنْعَمَكُمُ ۚ﴾ [عبس: ٢٦/٨٠-٣٢] قسماً بالسماء والأرض، إن القرآن الكريم لقول حق لا ريب فيه، يفصل بين الحق والباطل، ولم ينزل باللعب واللهو، فهو جدُّ حقٍّ ليس بالهزل، ولا بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، تنزيل من حكيم حميد. فقلوه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۖ﴾ جواب القسم. وسمي المطر رجعاً من ترجيع الصوت وهو إعادته، لكونه عائداً مرة بعد أخرى، ولأنه ينشأ من تبخر بحار الأرض ثم يعود إلى الأرض.

أخرج الترمذي والدارمي عن علي كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة، قلت: فما الخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو جبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذِّكْر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به

الأسنة، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يعلّمه الأتقياء، ولا يخلّق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن لما سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١/٧٢-٢]، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

ثم أوعد الله تعالى المكذبين بالقرآن الكائدين للمؤمنين بقوله:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ﴾ أي إن الكفار زعماء مكة وأمثالهم يدبرون المكائد للنبي ﷺ لإبطال ما جاء به من الدين الحق، وللصد عن سبيل الله وعن القرآن، بالقول بأن القرآن أساطير الأولين، وبأن محمداً ساحر أو مجنون أو شاعر، ويتآمرون على قتله، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠/٨].

ولكني أدبر لهم تدبيراً آخر، فأستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم جزاء كيدهم. وقد سمى جزاء الكيد بالاستدراج والإمهال المؤدي إلى زيادة الإثم الموجبة لشدة العذاب كيداً.

ثم وعد رسوله بالنصر عليهم، وأمره بالصبر والتمهل، فقال:

﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُكُمُ رُبُّدًا ۖ﴾ أي آخرهم وأنظرهم، ولا تدع يهلكهم، ولا تستعجل به، وارض بما يديره الله لك في أمورهم.

ثم كرر ذلك المعنى للمبالغة، فقال: أمهلهم إمهالاً يسيراً قليلاً، أو قريباً، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال، والعقوبة والهلاك، كما قال تعالى: ﴿نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ﴾ [لقمان: ٢٤/٣١].

وهذا وعيد شديد، تحقق يوم بدر، ويعقبه عذاب يوم القيامة، وفيه تحذير عن مثل سيرتهم، وترغيب في خلاف طريقتهن.

فقه الحياة نو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - أقسم الله تعالى بالسما (السحاب) ذات الأمطار النافعة، والأرض ذات الشقوق والصدوع التي تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار على أن القرآن يفصل بين الحق والباطل، وأنه جدُّ حق ليس بالهزل، أي اللعب والباطل، وأنه منزل من عند الله تعالى، وأن محمداً رسول الله ﷺ.

٢ - أخبر الله تعالى أن أعداء الله يمحرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكرراً، ويدبرون لهم مكائد إما بالقتل، أو بتوجيه التهم كالطعن بكون محمد ﷺ ساحراً وشاعراً ومجنوناً، أو بوصف القرآن بأنه أساطير الأولين.

٣ - يجازي الله أولئك الأعداء على كيدهم إما في الدنيا بالاستدراج إلى المعاصي والمنكرات من حيث لا يعلمون، وإما في الآخرة بإعداد العذاب الأليم المهين لهم. ويدفع الله تعالى في الدنيا أيضاً كيد الكفرة عن محمد ﷺ، وينصره ويعلي دينه.

والكيد في حق الله تعالى محمول على هذا الجزء المذكور، تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَحَزُوا سِنْتَهُ سِنْتَهُ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠/٤٢] وقوله: ﴿تَسُوا اللَّهَ فَأَنسَنَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩/٥٩] وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢/٤].

٤ - اقتضت الحكمة الإلهية الرفق والثاني بأعداء الإسلام، فأمر الله نبيه بألا يدعو عليهم، ولا يتعجل إهلاكهم، وأن يرضى بما دبره الله في أمورهم، وأن ينتظر حتى يحل العقاب بهم، فإنهم في المستقبل القريب مهزومون مخذولون، ويتحقق في النهاية النصر للنبي ﷺ وصحبه. ويظل عذاب القيامة محفوظاً لهم، وكل ما هو آت قريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَعْلَى

مكية، وهي تسع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الأعلى، لافتتاحها بقول الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزه الله عز وجل عن كل نقص، وصفه بكل صفات التمجيد والتعظيم؛ لأنه العلي الأعلى من كل شيء في الوجود. وتسمى أيضاً سورة ﴿سَبِّحْ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها في أن سورة (الطارق) ذكرت خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿١﴾ وبدء خلق النبات في قوله: ﴿وَالنَّامِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّلَجِ ﴿١٢﴾.

وهذه السورة تحدثت بما هو أعم وأشمل من خلق الإنسان وغيره: ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ﴿٢﴾ وخلق النبات في قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة المكية الحديث عن توحيد الله وقدرته، والقرآن وتيسير

حفظه، والأخلاق الكريمة بتهذيب النفس الإنسانية. وقد افتتحت بالأمر بتزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، ووصفه بصفات التعظيم والتمجيد، لخلق المخلوقات وإتقان الخلق وتناسبه، وإخراجه الأعشاب والنباتات: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝﴾ [الآيات ١-٥].

ثم تحدثت عن تيسير حفظ القرآن وترسيخه في قلب النبي ﷺ بحيث لا ينساه أبداً، لينقله إلى الناس: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ۝﴾ [٦-٧].

وأردفت ذلك بأمر النبي ﷺ بالتذكير بالقرآن لإصلاح النفوس وتهذيب الطباع: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝﴾ [الآيات ٨-١٣].

وختمت السورة ببيان فلاح كل من طهر نفسه من الكفر والشرك والمعاصي، وتذكّر دائماً في نفسه جلال الله وعظمته، ولم يؤثر الدنيا على الآخرة، وعرف أن هذه الأصول الاعتقادية والخلقية قديمة جاءت بها جميع الشرائع الإلهية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝﴾ [١٤-١٩].

فضلها:

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هَلَا صَلَّيْتُ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝﴾، ﴿وَالنَّشْمِيسَ وَحُجْنَهَا ۝﴾، ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى ۝﴾». .

وأخرج الجماعة (أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وبقية أهل السنن) عن النعمان بن بشير: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝﴾، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَنَشِيَةِ ۝﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد، فقرأهما» .

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبزى وعائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر

بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ١، و ﴿قُلْ يَتَّابِعُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ٢، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٣، زادت عائشة: والمعوذين.

وروى أحمد عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُحِبُّ هذه السورة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ١.

تنزيه الله تعالى وقدرته وتحفيظه القرآن لنبيه

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ٤ فَجَعَلَ غُثَاءً أَحْوَى ٥ سَتُورًا ٦ فَلَا تَنسَى ٧ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ٨ وَيُبْسِرُكَ لِلبَّسْرِ ٩

القراءات:

﴿قَدَّرَ﴾:

وقرأ الكسائي (قَدَّر).

الإعراب:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ٤ فَجَعَلَ غُثَاءً أَحْوَى ٥ ﴿٥﴾ إن كانت (جعل) بمعنى (خلق) كان ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ منصوباً على الحال. وإن كانت بمعنى (صبر) كان ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾ مفعولاً به ثانياً، أي جعله غثاء أسود يابساً، ولا يكون: ﴿فَجَعَلَ غُثَاءً﴾ فصلاً بين الصلة والموصول؛ لأن قوله: ﴿فَجَعَلَ غُثَاءً﴾ داخل في الصلة، والفصل بين بعض الصلة وبعضها مما يتعلق بها غير ممتنع، وإنما الممتنع الفصل بين بعضها وبعض بأجنبي عنها.

﴿فَلَا تَنسَى﴾ لا: نافية، لا ناهية، ولهذا ثبتت الألف في قوله: ﴿تَنسَى﴾ والمعنى: لست ناسياً.

البلاغة:

﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ وقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ حذف المفعول ليفيد العموم؛ لأن المراد: خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فسواه.

﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَفَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ سجع غير متكلف.

﴿الْمُجَهَّرَ وَمَا يَخْفَى﴾ بينهما طباق.

﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ﴿٨﴾ بينهما جناس اشتقاق.

للفردات اللغوية:

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ نَزَّهَ اسم الله ربك عما لا يليق به من صفات النقص في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، واذكره دائماً على وجه التعظيم، فإنه الأسمى والأعلى من كل شيء، جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره كما سيأتي: «لما نزل: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٤﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٤] قال ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزل: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾، قال: اجعلوها في سجودكم، وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعت، وفي السجود: اللهم لك سجدت».

﴿خَلَقَ﴾ أبدع الكائنات. ﴿فَسَوَّى﴾ سوى مخلوقه بأن جعله متناسب الأجزاء، غير متفاوت، وعلى نظام كامل. ﴿قَدَّرَ﴾ جعل الأشياء على مقادير مخصوصة، فوضع قدراً لكل حي، وقدر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها حسبما تقتضي مدة بقائها. ﴿فَهَدَى﴾ عرفه وجه الانتفاع بما خلق له، وبيّن له طريق الخير والشر بالميل والإلهامات وإقامة الدلائل وإنزال الآيات. ﴿الْمَرْعَى﴾ كل ما تخرجه الأرض من العشب والنبات والثمار والزرع. ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته. ﴿غُثَاءً﴾ جافاً هشيماً يابساً. ﴿أَحْوَى﴾ أسود.

﴿سُقْرُتُكَ﴾ القرآن على لسان جبريل عليه السلام بأن نجعلك قارئاً ونلهمك القراءة. ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ ما تقرأه، بل تحفظه، مع أنك أُمِّي ليكون ذلك آية أخرى على صدق نبوتك، ولا: للنفي لا للنهي. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن تنساه، بنسخ تلاوته وحكمه. ﴿إِنَّكُمْ بَعَلُّ الْجَهَرِ وَمَا يَخْفَى﴾ ما ظهر من الأحوال وما بطن، سواء أكان قولاً أم فعلاً، ومنه الجهر بالقراءة مع جبريل مخافة النسيان والجملة اعتراضية. ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْبُشْرَى﴾ نوفقك لأعمال الخير التي تؤدي إلى اليسر وسهولة الحياة. وإنما قال: نيسرك، أي نعدك للطريقة اليسرى في حفظ الوحي أو التدين أو نوفقك لها، لا نيسر لك، عطفاً على ﴿سُقْرُتُكَ﴾.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

﴿سُقْرُتُكَ﴾: قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها؛ فنزلت: ﴿سُقْرُتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ بعد ذلك شيئاً، فقد كفيتك. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات.

التفسير والبيان:

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزه الله عن كل ما لا يليق به، بقولك: «سبحان ربي الأعلى». قال القرطبي: والأولى أن يكون الاسم هو المسمى^(١). وقال أبو حيان: الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم، أي نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن، فيقال له: رب أو إله، وإذا كان قد أمر بتنزيه اللفظ أن يطلق على غيره، فهو أبلغ، وتنزيه الذات أخرى، وقيل: الاسم هنا بمعنى المسمى،

(١) تفسير القرطبي: ١٤/٢٠.

فالاسم: صلة زائدة، والمراد الأمر بتتزيه الله تعالى^(١). والمراد بالأعلى: أن الله هو العالي والأعلى والأجل والأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، كما يوصف بالكبير والأكبر.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبه بن عامر الجهني: «لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) قال لنا رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٧٥) قال: اجعلوها في سجودكم».

ثم وصف ذلك الاسم الأعلى بصفات تكون دليلاً على وجود الرب وقدرته لمن أراد معرفته، فقال:

١ - ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (٧٦) أي الذي خلق الكائنات جميعها، ومنها الإنسان، وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات، فعدل قامته، وناسب بين أجزائه، وجعلها متناسقة محكمة غير متفاوتة ولا مضطربة، للدلالة على إتقانها من إله حكيم مدبر عالم.

٢ - ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٧٧) والذي قدر لكل مخلوق ما يصلح له، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به، أو قدر أجناس الأشياء، وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسره لما خلقه له، وألهمه أمور دينه ودنياه، وقدر أرزاق الخلق وأقواتهم، وهداهم لمعيشهم إن كانوا إنساً، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً، وخلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منه^(٢).

ونظير الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿رَبِّنا الَّذِي

(١) البحر المحيط: ٤٥٨/٨.

(٢) فتح القدير للشوكاني.

أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿طه: ٥٠/٢٠﴾ أي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

والخلاصة:

إن التقدير: عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمية، وتركيبها على وجه خاص لأجله يستعد لقبول تلك القوى.

والهداية: عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء، بحيث تكون كل قوة مصدرًا لفعل معين، ويحصل من مجموعها إتمام المصلحة.

٣ - ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿١﴾ فَجَعَلَ نُثَاءً أَحْوَى ﴿٢﴾﴾ أي والذي أنبت العشب وما ترعاه الدواب من النبات الأخضر، وأنبت جميع أصناف النبات والزروع ليأكلها الإنسان.

ثم جعل ذلك المرعى بعد أن كان أخضر، غطاءً أحوى، أي بالياً هشياً جافاً، أسود بعد اخضراره؛ لأن الكلاً إذا بيس أسود.

وبما أن التسبيح الذي أمر به النبي ﷺ والذي يليق به هو الذي يرتضيه لنفسه، حرص النبي ﷺ على معرفته وحفظه بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن، فوعده ربه وبشره بأنه سيقرئه من القرآن ما فيه تنزيهه وأنه لا ينسى، فقال:

﴿سُقْرُبَكَ فَلَآ تَنْسَى ﴿١﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي سنجعلك يا محمد قارئاً، بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرؤه، وقد كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن، لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فنزلت هذه الآية، فألهمه الله وعصمه من نسيان القرآن.

ونظير الآية قوله: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ» [طه: ١١٤/٢٠] وقوله: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ» (١١) «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ» (٧) [القيامة: ١٧-١٦/٧٥].

ثم قال: «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» أي إنك ستحفظ القرآن المنزل إليك، ولا تنساه، إلا ما شاء الله أن تنساه، فإن أراد أن ينسيك شيئاً، فعل. وقيل: المراد بالاستثناء ما يقع من النسخ، أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء الله رفعه أو نسخه، مما نسخ تلاوته، فلا عليك أن تتركه.

والمعنى الأول أصح؛ قال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله. قال أبو حيان: الظاهر أنه استثناء مقصود، وكذلك قال الألوسي: والظاهر أن النسيان على حقيقته.

ثم أكد الله تعالى الوعد بالإقراء وعدم النسيان إلا ما شاء الله أن ينسيه لمصلحة، فقال:

«إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ» أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ومن الجهر: كل ما يفعله الإنسان أو يقوله علانية، «وَمَا يَخْفَىٰ»: كل ما يُسرّه بينه وبين نفسه، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالذي وعدك بأنه سيقرك ويحفظك عالم بالجهر والسر.

وهذا على الرأي بأن قوله: «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» يعني النسخ: يعد تعليلاً للنسخ، وإذا كان كذلك، كان وضع الحكم ورفعه واقعاً بحسب مصالح المكلفين. ونظير الآية كثير، مثل قوله تعالى: «إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُونَ مَا تَكْتُمُونَ» (١١٠) [الأنبياء: ١١٠/٢١].

ثم بشره ببشارة أخرى وهو تيسيره، أي توفيقه للأيسر في أحكام الدين والشرعة، فقال:

﴿وَيُسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، ونوفقك للطريقة اليسرى والشرعية السمحة في الدين والدنيا، فلا نشرع لك إلا الأيسر، ولا نختار لأمتك إلا الأسهل الذي لا يصعب على النفوس تحمله والقيام به.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - ينبغي للإنسان تعظيم الله وتمجيده وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه.

ويستحب للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أن يقول: «سبحان ربي الأعلى» قاله النبي ﷺ وجماعة من الصحابة والتابعين.

وروي أن النبي ﷺ كان يحب هذه السورة، وأكثر السلف كانوا يواظبون على قراءتها في التهجد، ويتعرفون بركتها.

والمقصود بالآية تنزيه الله وتسييحه بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، حتى ولو سلمنا أن كلمة ﴿اسْمَ﴾ ليست صلة زائدة، فإن تسييح اسمه، أي تنزيهه عما لا يليق، معناه بذاته تعالى وصفاته، أو بأفعاله، أو بأحكامه، فإن العقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة لم تنشأ إلا من هذه الفكرة، وهي: هل الاسم نفس المسمى أم لا؟

ب - وصف الله تعالى نفسه بصفات كمال ثلاث: هي أنه الذي خلق جميع الخلائق، وجعلها متناسبة الأجزاء، متناسقة التركيب، وجعل الإنسان في أحسن تقويم.

وقدر لكل مخلوق ما يصلح له، فهداه إليه، وأرشده لسلوكه، وعرفه وجه الانتفاع به.

وأُنبِت العشب وأُخرج النبات والزرع، ثم صَبَّرَهُ بالياً هَشِيماً جافاً أَسْوَدَ.

وهذه الأوصاف تدل على كمال القدرة الإلهية وتمام الحكمة والعلم.

٣ - بشر الله تعالى نبيه ببشارتين:

الأولى - أن يقرأ عليه جبريل الوحي بالقرآن، وهو أُمِّي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه، إلا ما شاء الله أن ينسى، ولكنه لم ينس شيئاً منه بعد نزول هذه الآية.

والثانية - التوفيق لأعمال الخير، وتشريع الشريعة اليسرى، وهي الخفيفة السمحة السهلة.

٤ - إن الله تعالى يعلم تمام العلم كل ما يجهر به الإنسان، وهو الإعلان من القول والعمل، وكل ما يخفيه، وهو السر، لذا شرع لعباده ما فيه الخير والمصلحة، ورفع عنهم كل ما فيه مشقة وعسر، وحماهم من كل ما فيه ضرر وشر ومفسدة.

التذكير وتزكية النفس والعمل للآخرة

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۖ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَنَجِّنَهَا الْأَشْقَى ۝ (١١) الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ۝ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝ (١٩)﴾

القراءات:

﴿تُؤْثِرُونَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (يؤثرون).

الإعراب:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩﴾ جواب ﴿إِن﴾ دلّ عليه ما قبله وهو ﴿فَذَكِّرْ﴾ وقام مقامه وسدّ مسده.

البلاغة:

﴿لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْشَى﴾ بينهما طباق.

﴿فَذَكِّرْ﴾ و ﴿الذِّكْرَى﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٠﴾ و﴿يَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَى ۝١١﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿فَذَكِّرْ﴾ التذكير: تنبيه الإنسان إلى شيء علمه ثم غفل عنه، والمراد هنا التذكير والوعظ بالقرآن. ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ معنى اشتراط النفع إما لأن النبي ﷺ كان قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم، فلم يزدادوا إلا عتوا وطغياناً، فقبل له هذا بعد إلزام الحجة بتكرار التذكير، وإما أن يكون ظاهره شرطاً ومعناه ذم المخاطبين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم. وعلى كل فإن التذكير مطلوب وإن لم ينفع، فقد ينفع البعض، وقد أخبر تعالى أن المنتفع بالتذكير هو من يخشى الله سبحانه.

﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٠﴾ أي سيتعظ ويتنفع بالذكرى من يخاف الله تعالى، وهو إما مصدق بالله وبالبعث، أو متردد في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥/٥٠]. ﴿يَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَى ۝١١﴾ يتجنب الذكرى الكافر، فإنه أشقى من الفاسق. ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢﴾ الذي يدخل ويذوق حرّ نار الآخرة، و ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أسفل دركات الجحيم،

والصغرى: نار الدنيا. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿١٣﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة هنيئة تنفعه ويسعد.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فاز ونجا. ﴿تَزَكَّى﴾ تطهر من الكفر والمعصية بالإيمان والتقوى. ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه، أو كبر تكبيرة الإحرام. ﴿فَصَلَّى﴾ صلاته المفروضة. ﴿تُؤْتِرُونَ﴾ تفضلون الدنيا على الآخرة. ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿١٤﴾ الآخرة المشتملة على الجنة خير من الدنيا وأدوم لا ينقطع نعيمها. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ فلاح من تزكى وكون الآخرة خيراً وأبقى. ﴿لَنَى الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ المنزلة قبل القرآن. ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهي عشر صحف. ﴿وَمُوسَى﴾ وهي أيضاً عشر صحف غير التوراة.

المناسبة:

بعد التبشير بالبشارتين السابقتين: وهما حفظ القرآن وعدم نسيانه، والتيسير والتوفيق للشريعة السهلة السمحة، ولأعمال الخير، أمر الله نبيه بتذكير الخلق بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ودعوتهم إلى الحق، وبين من يتنفع بالذكرى وهو من يخاف الله، ومن يعرض عنها وهو من يعصي الله، ويكون في قعر جهنم.

وبعد وعيد المعرضين عن العظة بالقرآن، ذكر الله تعالى وعد من طهر نفسه من الكفر والشرك والردائل، وندد بمن يؤثر الدنيا على الآخرة، مع أن الخير في تفضيل الآخرة على الدنيا، وأخبر بأن أصول الدعوات الدينية واحدة، فما في القرآن من عظات هو ما في صحف إبراهيم وموسى.

التفسير والبيان:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ ﴿١٥﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٦﴾ أي عظ يا محمد الناس بالقرآن، وأرشدهم إلى سبل الخير، واهداهم إلى شرائع الدين، وذكّر

حيث تنفع الذكرى، والناس نوعان: فريق تنفعه الموعظة، وفريق لا تنفعه، وإنما الذي يتنفع ويتعظ بما تبليغه يا محمد من كان يخاف الله تعالى بقلبه، ويعلم أنه ملاقيه. وأما من أصر على الكفر والعناد، وتمادى في الجحود والإنكار، فلا فائدة في تذكيره.

قال ابن كثير: ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله^(١) أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبليغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». وروى الديلمي في الفردوس عن علي، والبخاري موقوفاً قوله: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله». وقال عيسى عليه السلام: «لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، وكن كالطبيب يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع».

وقوله: ﴿سَيَذَكِّرُ﴾ إيماء إلى أن ما جاء به الرسول ﷺ صار من الواضح بحيث لا يحتاج إلا إلى التذكير فحسب. والخلاصة: أن التذكير مشروط بالانتفاع.

وهناك اتجاه آخر في تفسير الآية، وهو أن التذكير مطلوب، وإن لم ينفع، ولا يكون التعليق بالشرط في قوله: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ مراداً، وإنما هو لتصوير وبيان الواقع، مثل آيات كثيرة أخرى، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٢٤/٣٣]. قال الرازي: إن الناس في أمر المعاد ثلاثة أقسام: القاطع بصحته، والمتردد فيه، والجاحد له، والفريقان الأولان يتنفعان بالتذكير والتخويف.

وكثير من المعاندين إنما يتحدثون باللسان فقط، فتبين أن أكثر الخلق

(١) تفسير ابن كثير: ٥٠٠/٤.

ينتفعون بالوعظ، والمعرض نادر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير، فلهذا وجب تعميم التذكير، وإن كان لا ينتفع بالتذكير إلا البعض الذين علم الله انتفاعهم به، ونحن لا نعلمهم، فبعد أن أمر الله نبيه بالتذكير، بين في قوله: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَرُ﴾ (١٣) الذي تنفعه الذكرى من هو (١)

ثم أوضح الله تعالى من الناحية الواقعية عدم جدوى التذكير بالنسبة للمعاندن، فقال: ﴿وَيَجْنِبُهَا الْأَشْقَى﴾ (١٤) الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى (١٥) ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٦) أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار، لعناده وإصراره على الكفر بالله، وانهماكه في معاصيه.

لذا فإنه يقاسي حرّ نار جهنم ويدخلها ويدوق وبالها، فهي النار العظيمة، ونار الدنيا هي النار الصغرى، أو أن النار الكبرى: دركات جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥/٤].

والذي يصلّي النار الكبرى يخلد في عذابها، فلا يموت فيها، فيستريح مما هو فيه من العذاب، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة ينتفع أو يسعد بها، كما قال تعالى: ﴿لَا يَفْضَلُ عَلَيْهِمْ فِيمَوْثَوْا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦/٣٥].

وسبب تخصيص الكافر بالذكر: أن الفاسق لم يتجنب التذكير بالكلية، فيكون القرآن ساكتاً عن الشقي الذي هو أهل الفسق.

وبعد وعيد الأشقياء الذين أعرضوا عن ذكرى القرآن، ذكر وعد السعداء الذين يعنون بتزكية نفوسهم وتطهيرها من الشرك والتقليد في العبادة ودنس الرذائل، فقال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٧) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٨) أي قد فاز ونجا من العذاب من تطهّر من الشرك، فأمن بالله ووحدّه وعمل بشرائعه، وتعهد نفسه

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣١/١٤٤-١٤٥، غرائب القرآن: ٣٠/٧٧.

بالتزكية والتهديب والتطهير من الرذائل والمفاسد والأخلاق الوضيعة، وتابع ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ.

وذكر بلسانه اسم ربه بالتوحيد والإخلاص، وتذكر ربه العظيم في قلبه، فأقام الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله، وطاعة لأمر الله، وامتنالاً لشرع الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢/٨].

وروى أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله». وفي قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥) قال: «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها».

ثم ونَّحَ المؤثرين الدنيا، المهملين أمر الآخرة، فقال:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) أي لا تفعلون ما أمرتم به سابقاً، بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا، والآخرة ونعيمها أفضل وأدوم من الدنيا، وثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دار فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يُؤثَرُ عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!!

أخرج الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». وأخرج أحمد أيضاً عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخِرته، ومن أحب آخِرته أضر بدنيته، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

ثم أبان الله تعالى وحدة الشرائع في أصولها وآدابها العامة، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) أي إن كل ما ذكر من

فلاح من تزكى، وما بعده من تذكر اسم الله، وإيثار الناس للدنيا، ثابت في صحف إبراهيم العشر، وكذا صحف موسى العشر غير التوراة، فقد تابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا.

والمراد أن ذلك مذكور بالمعنى لا باللفظ في صحف جميع الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى، فمعنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف، فهو في الأولى وفي آخر الشرائع، وتقدير الآية: إن هذا لفي الصحف الأولى التي منها صحف إبراهيم وموسى. وإنما خصت هذه الصحف بالذكر لشهرتها بين العرب. ونظير الآية قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَفِي ذُرِّ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦/٢٦].

أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ قائلاً: «كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مئة وأربعة كتب، منها على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

وجاء في صحف إبراهيم: «ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسان، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه».

روى الأَجْرِيُّ وغيره من حديث أبي ذر المتقدم قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر».

وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: تزود لمعاد، ومَرَمَّةٌ لمعاشٍ، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن عُدَّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه.

قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها!! وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل!!

قال: قلت: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: نعم اقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) والله تعالى أعلم بصحة هذا الحديث كما قال الألويسي.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - المطلوب تذكير الناس وموعظتهم، سواء نفعت الذكرى أم لم تنفع، ولكنها في النهاية لا تنفع إلا المؤمنين الذين يخشون الله ربهم، قال الحسن البصري: الذكرى تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. وقال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع.

٢ - يتجنب الشقي الذكرى عادة، ويبعد عنها الكافر، الذي يصلح ويدخل النار الكبرى، أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار، أو أن نار جهنم هي الكبرى، والصغرى نار الدنيا.

وإذا دخلها الكافر خُلد فيها إلى الأبد، فلا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه.

٣ - قد نجا وفاز كل من تطهر من الشرك بالإيمان، وجنب نفسه رذائل الأخلاق، وعمل بما يرضي ربه من الأعمال الصالحات، وذكر ربه بلسانه وقلبه فصلی الفرائض.

٤ - احتج بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥) على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل، والمسألة خلافية بين الفقهاء. واحتجوا بها أيضاً على وجوب تكبيرة الافتتاح، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بالآية على أن تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها، والعطف يستدعي المغايرة. وأجيب بما روي عن ابن عباس: أن المراد ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه، فصلی له.

٥ - يؤثر بعض الناس أو أغلبهم الدنيا، ويترك الاستعداد للآخرة، والآية: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا، والترغيب في الآخرة وفي ثواب الله تعالى، وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع.

٦ - الشرائع الإلهية متفقة في أصولها الاعتقادية والأخلاقية وتوجيه العبادة الخالصة لله عز وجل، وهذه نماذج من وحدة الشرائع: وجوب تزكية النفس وتطهيرها من الشرك والكفر ودنس الرذائل، وجوب التذكر الدائم لله عز وجل، وإقامة الصلوات المفروضة في أوقاتها، وضرورة الاستعداد للآخرة وإيثار ثوابها على ملذات الدنيا الفانية.

بل إن ما في السورة كله من التوحيد والنبوة والوعد والوعيد كان ثابتاً في صحف الأنبياء الأقدمين؛ لأنها قواعد كلية لا تتغير بتغير الأزمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية، وهي ست وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الغاشية، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) والغاشية: من أسماء يوم القيامة، وهي الداهية التي تغطي الناس بأهوالها، والاستفهام للتحويل وتفخيم شأنها.

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة تفصيل وتبسيط لما جاء في سورة الأعلى من أوصاف المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً، فلما قال تعالى في الأعلى: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ (١) وَسَجَنُهَا الْأَشْقَى (١١) أَلَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) إلى قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧) [الآيات: ١٠-١٧] فصل ذلك في هذه السورة بقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٢) قَصَلْنَا نَارًا حَامِيَةً (٣) [الآيات: ٢-٧] ثم ذكر صفات وأحوال المؤمنين في الآيات: [٨-١٦]. ولما قال تعالى في الأعلى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧) (٤) أبان صفة الجنة في الآيات السابقة أكثر من صفة النار، تحقيقاً لمعنى الخيرية.

ما اشتملت عليه السورة:

تتحدث هذه السورة المكية عن أصول الاعتقاد في موضوعات ثلاثة وهي:

١ - وصف أهوال القيامة، وما يلقاه الكافر والمؤمن فيها من الشقاء والسعادة، ووصف أهل الجنة وأهل النار.

٢ - إثبات وحدانية الله وقدرته وحكمته وعلمه بدليل خلق السماء والأرض والجبال والأرض وغيرها من عجائب الصنعة الإلهية.

٣ - ختمت السورة الكريمة بخاتمة تشبه خاتمة السورة المقدمة وهي تذكير الناس بالرجوع إلى الله عز وجل للحساب والجزاء، وأمر الرسول ﷺ أصالة بالتذكير بما أنزل إليه من الشرائع والأحكام.

فضلها:

تقدم في فضل السورة السابقة ما أخرجه مسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، والغاشية في الجمعة والعيدين. وأخرج الإمام مالك ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير أيضاً: بِمَ كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾.

هول القيامة وأحوال أهل النار

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وَجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝ تُنْفَخُ مِنْ عَيْنِ عَائِنَةٍ ۝ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝﴾

القراءات:

﴿تَصَلَّى﴾:

وقرأ أبو عمرو (تُصَلَّى).

الإعراب:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ المرفوع مبتدأ، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لوقوعه في موضع التنويع. وقيل: لأن تقدير الكلام أصحاب وجوه، والخبر ما بعد، والظرف متعلق به.

﴿لَا يُسِينُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ صفة للطعام أو للضريع.

البلاغة:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ أسلوب التشويق والتهويل، وهو استفهام أريد به التقرير ولفت النظر إلى هذا الحديث.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ أي أصحابها وهم الكفار، فهو مجاز مرسل بإطلاق الجزء وهو الوجوه وإرادة الكل وهي الذوات.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ عاملةٌ ناصبةٌ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ لسعيها راضيةٌ ﴿فِيهِمَا مَقَابِلَةٌ﴾ بين وجوه الأبرار وجوه الفجار.

المفردات اللغوية:

﴿الْغَاشِيَةِ﴾ يوم القيامة، وهي الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وأهوالها. ﴿خَشِيعَةٌ﴾ ذليلة. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعمل عملاً في الدنيا، تتعب فيه وهو لا ينفعها يومئذ، أو تتعب في النار يحرق السلاسل والأغلال وخوضها، فقوله: ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ تعب من (نصب فلان): تعب، والنَّصَبُ: التعب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧/٩٤] أي إذا فرغت من الصلاة، فاتعب في الدعاء. ﴿قَصَلَى نَارًا﴾ تدخلها، يقال: صلي النار: قاسى حرها، ﴿حَامِيَةٌ﴾ متناهية في الحر. ﴿مِنْ عَيْنٍ عَاتِقٍ﴾ العين: ينبوع الماء، والآنية: الشديدة الحرارة. ﴿ضَرِيعٌ﴾ نوع من الشوك لا ترعاه دابة؛

لحبثه وضره وشدة مرارته، أما الرطب منه وهو الشُّبْرُق فترعاه الإبل ما دام رطباً، والمراد: طعامهم مما تتحاماه الإبل وتتعاواه. ﴿لَا يُسِينُ وَلَا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ﴾ (٧) لا يتحقق به أحد هذين الأمرين المقصودين من الطعام.

التفسير والبيان:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) أي هل بلغك يا محمد حديث القيامة وعلمت خبره؟ وسميت غاشية: لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها، والمراد: لم يأتك سابقاً حديث هذه الداهية، وقد أتاك الآن فاستمع، فلا يراد من التعبير حقيقة الاستفهام، وإنما يراد منه تشويق السامع إلى استماعه، وتعجبه مما سيذكر بعده. والمعنى: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية.

ثم ذكر أحوال الناس فيه وانقسامهم إلى فريقين: أشقياء وسعداء، وبدأ بوصف الأشقياء؛ لأن مبنى السورة على التخويف، كما ينبى عنه لفظ الغاشية، فقال:

﴿وَجْهٌ يُومِلُ خَشِيعَةً﴾ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ أي أصحاب وجوه، والمراد بالوجه الذات، أي أصحابها، وأصحاب الوجوه وهم الكفار، تكون في ذلك اليوم ذليلة خاضعة لما هي فيه من العذاب، ونسب الخشوع والذل إلى الوجوه؛ لأن أثره يظهر عليها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢/٣٢] وقوله: ﴿وَتَرْلَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْإِنسَانِ لِيَبْظُنُّوكَ مِنْ تَلْفِيفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٥].

وقد كان أصحابها في الدنيا يعملون عملاً كثيراً، ويتعبون أنفسهم في العبادة، ولا أجر لهم عليها؛ لما هم عليه من الكفر والضلال؛ والإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ شرط قبول الأعمال. والآية في القسيسين وعِبَاد الأوثان وكل مجتهد نشط في كفره^(١).

ثم ذكر جزاء هؤلاء في يوم القيامة:

﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ① تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ② لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ③ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ④﴾ أي تدخل تلك الوجوه ناراً شديدة الحرارة، وتقاسي حرها، وتعذب بها، لخسارة أعمالها، وتسقى إذا عطشوا من ماء عين أي ينبوع، آتية، أي متناهية في حرها، فهي لا تطفئ لهم عطشاً.

وليس لهم طعام يتغذون به إلا الضريع: وهو شوك يابس شديد المראה والضر، يقال له في لغة أهل الحجاز الشبرق إذا كان رطباً، فإذا بيس فهو الضريع، وهو سم، وشر الطعام، وأبشعه وأخبثه.

ولا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور، فلا يُسمن آكله، ولا يدفع عنه الجوع. وإنما قدم المشروب على الضريع المطعوم؛ لأن الماء لأهل النار أهم، ويغلب عليهم العطش إذا أثر فيهم حر النار.

وهناك طعام آخر لأهل النار وهو الغسلين والزقوم، قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِثْلَيْنِ ⑤﴾ [الحاقة: ٣٦/٦٩] وقال: ﴿إِنَّ سَجَرَتَ الزَّقُومِ ⑥ طَعَامٌ لِلْآثِمِينَ ⑦﴾ [الدخان: ٤٤/٤٣-٤٤].

ذكر الحافظ أبو بكر البرقاني عن أبي عمران الجوني قال: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب، فناداه: يا راهب، فأشرف، فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ⑧ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ⑨﴾ فذاك الذي أبكاني.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - القيامة يوم رهيب، يغشى الناس فيه غاشية شديدة من الأهوال والخاوف.

٢ - تكون وجوه الكفار في ذلك اليوم ذليلة بالعذاب، خاضعة للعقاب، وقد كان أصحابها في الدنيا يعملون ويتعبون أنفسهم؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، مثل عبدة الأوثان وأصحاب الصوامع والرهبان وغيرهم، خشعت وجوههم لله، وعملت ونصبت في أعمالها من غير نفع لهم في الآخرة؛ لأن أعمالهم مبنية على غير أساس من الدين الحنيفي القائم على التوحيد الخالص والإخلاص الكامل لله عز وجل، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له، قال تعالى واصفاً عمل هؤلاء: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِئَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝﴾ [الكهف: ١٨/١٠٣-١٠٦].

٣ - ومكانهم هو النار الشديدة الحر، ومشروبهم هو ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَابِقَةٍ﴾ أي من ينبوع ماء متناه في الحرارة، ومطعمومهم الضريع الذي لا يسمن آكله، ولا يدفع الجوع عنه. جاء في الخبر عن ابن عباس: (الضريع: شيء يكون في النار يشبه الشوك، أمرٌ من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشدَّ حرّاً من النار)^(١).

وقال العلماء: إن للنار دركات، وأهلها على طبقات؛ فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه غسلين، ومنهم من طعامه ضريع، ومنهم من شربه الحميم، ومنهم من شربه الصديد: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمُ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ١٥/٤٤]. ووجود النبات في النار ليس بيدع من قدرة الله، كوجود بدن الإنسان والعقارب والحيات فيها.

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/٣٠

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قال المشركون على سبيل التعنت: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ﴾ أي ليس فيه منفعة الغذاء، ولا الإسمان ودفع الجوع.

وهذا دليل على أن طعامهم ليس من جنس طعام الإنس، ولكن من جنس الشوك الذي ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس، نفرت عنه؛ لأنه سم قاتل. ودليل أيضاً على تكذيب الله لهم في قولهم: «يسمن الضريع».

والخلاصة: أن وصف أحوال النار على النحو المذكور يستدعي الفرار منه، وإبعاد النفس عن موجبات هذا العذاب، من العقيدة الفاسدة، والعمل الخاسر، ولا عقيدة صحيحة إلا بتوحيد الله والإيمان بالقرآن والرسول محمد ﷺ، ولا عمل مقبول إلا على وفق ما جاء به الإسلام. ولا أقول هذا لأني مسلم، وإنما هذا الذي صَحَّ دليhle.

أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنة

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۖ﴾ (٨) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ﴾ (٩) ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۖ﴾ (١٠) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۖ﴾ (١١) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ﴾ (١٢) ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۖ﴾ (١٣) ﴿وَمَنَاقِبُ ۖ﴾ (١٤) ﴿مَصْفُوفَةٌ ۖ﴾ (١٥) ﴿وَزَرَائِفٌ مَّبْنُوتَةٌ ۖ﴾ (١٦)

القراءات:

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ (١١): قرئ:

- ١- (لا تسمع فيها لاغية) وهي قراءة نافع.
- ٢- (لا يسمع فيها لاغية) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو.
- ٣- (لا تسمع فيها لاغية) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً﴾ (١١) التاء للخطاب، والفعل مبني للمعلوم (للفاعل)، و﴿لَفِيَةً﴾ مفعول ﴿تَسْمَعُ﴾، و﴿لَفِيَةً﴾ مصدر كالعافية والعاقبة.

وقرئ بضم التاء ورفع ﴿لَفِيَةً﴾ على أن الفعل مبني للمجهول (لما لم يسم فاعله) و(لاغية) مرفوع؛ لأنه نائب فاعل.

ومن قرأ القراءة الثانية، ذكّر اللاغية إما لأنه أراد بها اللغو، وهو مذكر، وإما لأنه فصل بين الفعل والفاعل، مثل: حَسُنَ اليوم دارك، واضطرم الليلة نارك، وحضر القاضي اليوم امرأة. وإذا جاز التذكير مع المؤنث الحقيقي، فمع غير الحقيقي أولى.

البلاغة:

﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةً﴾ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ﴿١١﴾ سجع رصين غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿نَاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة وحسن، أو متنعة. ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةً﴾ (٩) أي راضية في الآخرة بعملها الذي عملته في الدنيا، وهو طاعة الله، لما رأت ثوابه. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٠) عالية المكان والقدر؛ لأن الجنة درجات، كما أن النار دركات. ﴿لَفِيَةً﴾ لغواً وهذياناً لا فائدة فيه، وكذباً وبهتاناً. ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ينبوع ماء جارٍ. ﴿سُرُرٌ﴾ جمع سرير: وهو ما يجلس أو يتام عليه. ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة ذاتاً وقدرأً ومحلأً.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب: إناء لا عروة له. ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ معدة ومهياة لشربهم وبين أيديهم. ﴿وَنَارُتٌ﴾ وسائد، جمع غمرقة - بضم النون وفتحها - وبالكسر في لغة ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ اصطف بعضها بجانب بعض للاستناد إليها ﴿وَزَرَائٍ﴾ بسط

فاخرة، وطنافس لها خمل، جمع زُرِّي - بكسر الزاي - أو زُرِّيَّة: وأصل الزرابي: أنواع النبات الأحمر والأصفر والأخضر ﴿مَبْنُوتَةٌ﴾ مبسوطة مفرقة في المجالس.

المناسبة:

بعد بيان وعيد الكفار الأشقياء، وبيان حالهم ومكانهم وطعامهم وشرابهم، ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين السعداء، وما وعدهم به ربهم، واصفاً ثوابهم وأهل الثواب، ثم وصف دار الثواب، لترغيب الناس بأعمالهم، وتشويقهم لما يلاقونه من فضل ربهم.

التفسير والبيان:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ أي ووجوه يوم القيامة ذات نعمة وبهجة ونضرة وحسن، يعرف النعيم فيها، أو متنعمة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤/٨٣] وهي وجوه السعداء، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وقبول عملهم، فهي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، أي رضيت عملها؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨/٩٨].

والخلاصة: أن الله تعالى وصف أهل السعادة والثواب بوصفين:

أحدهما - في ظاهريهم وهو قوله: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، أو متنعمة.

والثاني - في باطنهم وهو قوله: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

ثم وصف دار الثواب وهي الجنة بسبعة أوصاف:

١- ٢ - ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ أي إن أصحاب الوجوه الناعمة وهم المؤمنون السعداء في جنة رفيعة المكان، بهية الوصف، آمنة الغرفات؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض.

ولا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة لغو وهذيان؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم، ولأن الجنة منزل أحباب الله، ومنازل الصفاء لا تتعكر باللغو والكذب والبهتان، كما قال تعالى: ﴿لَّا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيرُ﴾ [الطور: ٢٣/٥٢] وقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مریم: ٦٢/١٩] وقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ [١٥] إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٣١﴾ [الواقعة: ٢٥/٥٦-٢٦].

٣ - ٤ - ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ أي في الجنة ينبوع أو عين ماء تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذذة الصافية، وليس المراد بها عيناً واحدة باعتبارها نكرة في سياق الإثبات، وإنما هذا جنس، يعني فيها عيون جاريات.

وفيهما أسرة عالية مفروشة بما هو ناعم الملمس، كثيرة الفرش، مرتفعة السُّمك، إذا جلس عليها المؤمن استمتع بها ورأى رياض الجنة ونعيمها، كما قال تعالى: ﴿وَفُورٌ مَرْفُوعٌ﴾ [الواقعة: ٣٤/٥٦].

وفي ذلك غاية التشريف والتكريم.

٥ - ٦ - ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ وَتَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ أي وفيها أواني الشرب وأقداح الخمر غير المسكرة معدة مرصودة بين أيديها، يشربون منها متى أرادوا، وفيها وسائل (مخدات) مصفوفة بعضها إلى بعض، للجلوس عليها أو الاستناد إليها، وفيها بُسُطٌ مبسوطة في المجالس، وطنافس (سجاد) لها خل رقيق ناعم، مفرقة في المجالس، كثيرة، تغري بالجلوس عليها، ويستمتع الناظر إليها، وفيها معاني الأبهة والفخامة.

فقه الحياة أو الأحكام:

وصف الله تعالى أهل السعادة والثواب، ودار الثواب بأوصاف جميلة رائعة الجمال والمتعة، لإغراء الناس بها وترغيبهم في الحصول عليها إذا عملوا عمل أصحابها المستحقين لها.

أما أهل الثواب فلهم صفتان: ظاهرية وباطنية، فوجوه المؤمنين ذات نعمة وبهجة ونضرة، ولعملها الذي عملته في الدنيا راضية في الآخرة، حيث أعطيت الجنة بعملها.

وأما دار الثواب فلها صفات سبع كما تقدم:

الأولى - في جنة عالية، أي مرتفعة، وعالية القدر؛ لأن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

الثانية - لا تسمع فيها كلاماً ساقطاً غير مرضي، ولا تسمع فيها كلمة لغو.

الثالثة - فيها عين شراب جارية على وجه الأرض، من غير أخدود، وتجري لهم كلما أرادوا، بماء مندق وبأنواع الأشربة اللذيذة من خمر وعسل ولبن.

الرابعة - فيها سرر عالية المكان، مرتفعة السماء.

الخامسة - فيها أكواب، أي كيزان لا عرا لها، أو أباريق وأوان، والإبريق: هو ما له عروة وخروطوم، والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم.

السادسة - فيها ثمارق، أي وسائل مصفوفة واحدة إلى جنب الأخرى.

السابعة - فيها البسط المبسوطة، والطنافس التي لها تحل رقيق، والكثيرة المتفرقة في المجالس.

إثبات قدرة الله تعالى على البعث وغيره والتذكير بأدلة ذلك

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

الإعراب:

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ حال مقدم من ضمير ﴿خُلِقَتْ﴾، والجمله بدل اشتمال من الإبل.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قرئ (بمسيطر) على الأصل، وقرئ بالصاد، بإبدال السين صاداً، لتوافق الطاء في الاستعلاء والإطباق، مثل (وَزَادَهُ بَضْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) [البقرة: ٢٤٧/٢] وأصله: (بسطة) فأبدل من السين صاداً، لتوافق الطاء في الإطباق، وكذلك قالوا: (الصراط) في (السراط)، و(صطر) في سطر.

و ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾: في موضع نصب على الاستثناء من غير الجنس أي استثناء منقطع، وقيل: هو استثناء من الجنس، أي استثناء متصل، وتقديره: إنما أنت مذكر الناس إلا من تولى وكفر.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ بتخفيف الباء، آب يؤوب إياباً، نحو: قام يقوم مقاماً، وأصله: إواباً وقواماً، وقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وقرئ: (إيابهم) بتشديد الباء، قال أبو الفتح ابن جني: يجوز أن يكون أراد: إواباً،

إلا أنه قلبت الواو ياء استحساناً طلباً للخفة، لا وجوباً، مثل اجلوّد
اجلياداً، وإن كان المشهور: اجلواذاً.

البلاغة:

﴿فَذَكِّرْ﴾ ﴿مُذَكِّرٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق، وكذا بين ﴿فَعَذِّبُهُ﴾ و
﴿الْعَذَابُ﴾.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ يوجد بينهما طباق في الحرف.

المفردات اللغوية:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ ينظر أهل مكة ونحوهم نظر اعتبار. ﴿الْأَيْلُ﴾ الجمال، جمع
بعير، ولا واحد لها من لفظه كنساء وقوم. ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً يدل على
كمال قدرة الله تعالى وحسن تدبيره، بأن جعلت أداة لحمل الأثقال إلى البلاد
النائية، مع احتمال العطش عسراً فأكثر، وخصت بالذكر؛ لأنها أعجب ما
عند العرب من هذا النوع، وبدئ بها لأنهم أكثر مخالطة لها من غيرها.

﴿وَالِىَ السَّمَاءَ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمد، وأمسكها بما فيها من الكواكب
﴿وَالِىَ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ فهي راسخة لا تميل، وهي أعلام للسائرين.
﴿سُطِحَتْ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً موطأة للإقامة عليها. قرئت الأفعال
الأربعة بالبناء للمجهول، وحذف المفعول المنصوب أي خُلِقَتْها رَفَعَتْها
نُصِبَتْها، والمعنى: أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من المركبات وغيرها،
ليعرفوا كمال قدرة الخالق ووحدانيته، فلا ينكروا اقتداره على البعث،
ولذلك عقب به أمر المعاد، ورتب عليه الأمر بالتذكير.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي فذكركم نعم الله ودلائل توحيده،
وعظهم والفت نظرهم إلى الكون كله، وما عليك ألا ينظروا أو لا يتذكروا،
فإنما عليك البلاغ فقط. ﴿يُضَيِّطِرُّ﴾ بمسلط، لإجبارهم على ما تريد ﴿إِلَّا مَنْ

تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ لَكِنْ مِنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ بِالْقُرْآنِ ﴿فَعَذَّبُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ ﴿٢٤﴾ عَذَابَ الْآخِرَةِ، وَهُوَ فِي آيَةٍ سَابِقَةٍ ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ وَالْأَصْغَرَ عَذَابَ الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ. ﴿إِيَّاهُمْ﴾ رَجَوْعُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾ فِي الْحَشْرِ، وَتَقْدِيمُ الْخَبَرِ فِي الْجُمْلَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ لِلتَّخْصِصِ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْوَعِيدِ.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿١٧﴾: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿١٧﴾.

المناسبة:

بعد أن حكم الله تعالى بمجيء يوم القيامة، وقسم الناس فيها إلى فريقين: أشقياء وسعداء، ووصف أحوال الفريقين، أقام الدليل على وجوده ووحدانيته وقدرته بما يشاهدونه من آثار القدرة من السماء العالية، والأرض التي يسكنون فيها، والإبل التي يتفعون بها في نقل الأحمال والانتفاع بلحومها وأوبارها وألبانها، والجبال الراسيات التي ترشد السالكين، فيستدلون بذلك على قدرته تعالى على بعث الأجساد والمعاد وصحة عقيدة التوحيد.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يذكرهم بهذه الأدلة والبراهين وأمثالها، لينظروا فيها، وليصبر على معارضتهم، فإنما بعث لذلك دون غيره.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ووجوده وتوحيده، فيقول:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ﴾ أي كيف يصح للمشركون إنكار البعث والمعاد واستبعاد وقوع ذلك، وهم يشاهدون الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر المخلوقات في بيئتهم، كيف خلقها الله على هذا النحو البديع، من عظم الجثة، ومزيد القوة، وبديع الأوصاف، فهي خلق عجيب، وتركيب غريب، ومع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للولد الصغير، وتؤكل، ويستمتع بوبرها، ويشرب لبنها، وتصبر على الجوع والعطش. وبدأ تعالى التنبيه بها؛ لأن غالب دواب العرب كانت الإبل، وأيضاً مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأخرى؛ فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العلف، وكثرة الحمل، وهي معظم أموال العرب.

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ﴾ وألا يشاهدون السماء كيف رفعت فوق الأرض بلا عمد؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ﴾ [ق: ٦/٥٠].

﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ﴾ أي جعلت منصوبة قائمة مرفوعة على الأرض، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، والنظر إليها مبعث هبة وتعجب، ويستفيد من وجودها وتسلسلها السالكون في البراري والقفار، والأعجب من هذا أن كثيراً من الينابيع المائية تنبع منها، وفيها منافع كثيرة ومعادن وفيرة، ويققطع منها أحجار ضخمة، ورخام ذو ألوان مختلفة بديعة.

﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ﴾ كيف بسطت ومدّت ومهّدت، ليستقر عليها ساكنوها، ويستفعدوا بما فيها من خيرات ومعادن دفيئة، وما تخرجه من نباتات وزروع وأشجار متنوعة، بها قوام الحياة والمعيشة.

وتسطيح الأرض إنما هو بالنسبة للناظر والمقيم عليها، ولا يعني ذلك أنها

ليست بكرة؛ لأن الكرة - كما ذكر الرازي - إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح^(١).

وإنما ذكرت هذه المخلوقات دون غيرها؛ لأنها أقرب الأشياء إلى الإنسان الناظر فيها، فهو يشاهد صباح مساء بعيره، ويرى السماء التي تظله، والجبال التي تجاوره، والأرض التي تقه.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير بهذه الأدلة، فقال:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، وعظهم وخوفهم، والفت نظرهم إلى ضرورة التأمل بهذه الأدلة والبراهين وأمثالها الدالة على قدرة الله على كل شيء، ومنها البعث والمعاد، وليس عليك إلا التذكير فقط، فإنما بعثت لهذا الغرض، ولا سلطان ولا سيطرة لك عليهم لحملهم على أن يؤمنوا بالله ويرسالته، ولجبرهم على ما تريد، فإن آمنوا فقد اهتدوا، وإن أعرضوا فقد ضلوا وكفروا، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠/١٣].

وقوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝﴾ تأكيد لمهمة التذكير فقط، وتقرير لها، ونظير الآية قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩/١٠] وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥/٥٠].

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني

دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل» ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (١).

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢) فَعَذِبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٤٤﴾ أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير، وكفر بالحق بقلبه ولسانه، فِعَذِبَهُ اللهُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابَ جَهَنَّمَ الدائم، عدا عذاب الدنيا من قتل وأسر واغتنام مال؛ لأنه إذا كان لا سلطان لك عليهم، فإن الله هو المسيطر عليهم، لا يخرجون عن قبضته وقوته وسلطانه.

أخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي: مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا من شرد على الله شراد البعير عن أهله».

ثم أكد الله تعالى وقوع البعث والحساب والعذاب، فقال:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٣) أي إن إلينا مرجعهم ومصيرهم، ونحن نحاسبهم على أعمالهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا مفر للمعرضين، ولا خلاص للمكذبين من العقاب.

وفائدة تقديم الظرف أو الجار والمحرور في الموضعين الحصر والتشديد بالوعيد، أي ليس مرجعهم إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام وإيفاء جزاء كل طائفة، وإن حسابهم ليس بواجب إلا عليه بمقتضى الحكمة البالغة، وهو الذي يحاسب على الصغير والكبير (٢).

(١) الحديث خرج في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة بدون ذكر هذه الآية.

(٢) تفسير الكشاف: ٣/ ٣٣٤، تفسير الرازي: ٣١/ ١٦٠.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - ذَكَرَ اللهُ تعالى الناس بصنْعته وقدرته، وأنه قادر على كل شيء، بعد أن ذكر أمر أهل الدارين، فتعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا. وقد ذَكَرَهُمْ بخلق الإبل؛ لأنها كثيرة في العرب، وبخلق السماء ورفعها عن الأرض بلا عَمَد، وبخلق الجبال الراسيات المنصوبة على الأرض، بحيث لا تزول، وبخلق الأرض كيف بسطت ومدت ومهدت لأهلها كي يستطيعوا العيش عليها بقرار وأمان.

٢ - أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتذكير قومه وعظمتهم وتخويفهم، وطمأنه بأنه مجرد واعظ، ليس بمسلَّط عليهم، فيقتلهم، أو يجبرهم على الإيمان برسالته.

٣ - حذر الله تعالى من مخالفة دعوة النبي ﷺ ورسالته، فأُنذِرَ كل من تولى عن الوعظ والتذكير بالعذاب الأكبر في الآخرة، وهو عذاب جهنم الدائم، ووصف العذاب بالأكبر؛ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل.

وهذا على أن الاستثناء منقطع، وقيل: هو استثناء متصل، والمعنى: لست بمسلَّط إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلَّط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير.

والأظهر في رأي بعض المفسرين أن يكون الاستثناء متصلاً، لا باعتبار الحال، فإن السورة مكية، ولكن بالنظر إلى الاستقبال، أي إلا المصْرِّين على الإعراض والكفر، فإنك تصير مأموراً بقتالهم، مستولياً عليهم بالغلبة والقهر^(١).

والظاهر لدي أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي لست بمسيطر ولا بمستول عليهم، ولكن من تولى وكفر، فإن الله الولاية والقهر عليه، فهو يعذبه العذاب الأكبر في الآخرة، بعد العذاب الأصغر في الدنيا، وهو القتل والسي، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُمْ بِرَجْمَتِكُمْ ۖ﴾ [السجدة: ٢١/٣٢]. وهذا ما سار عليه أغلب المفسرين، مشيرين إلى القول الثاني بصيغة (قيل) المفيدة للتضعيف.

٤ - تضمنت السورة في خاتمها ما يصلح للوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فإن مصير جميع الناس ورجوعهم بعد الموت إلى الله عز وجل، وحسابهم إليه وحده.

والحساب وإن كان حقاً لله تعالى، ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه، إلا أنه تعالى جعل الحساب واجباً عليه، إما بحكم وعده الذي لا خلف فيه، وإما بمقتضى الحكمة والعدل، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم، لكان ذلك شبيهاً بكونه تعالى راضياً بذلك الظلم، وتعالى الله عنه، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة^(١).

(١) تفسير الرازي: ١٦٠/٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَجْرِ

مكية، وهي ثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة الفجر، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وهو قسم عظيم بفجر الصبح المبلغ نوره كل يوم على أن الكفار سيعذبون حتماً.

مناسبتها لما قبلها:

تتعلق السورة الكرعة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ - إن القسم الصادر في أولها كالدليل على صحة ما ختمت به السورة التي قبلها من قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ١٦.

٢ - تضمنت السورة السابقة قسمة الناس إلى فريقين: أشقياء وسعداء، أصحاب الوجوه الخاشعة، وأصحاب الوجوه الناعمة، واشتملت هذه السورة على ذكر طوائف من الطغاة: عاد وثمود وفرعون الذين هم من الفريق الأول، وطوائف من المؤمنين المهتدين الشاكرين نعم الله، الذين هم في عداد الفريق الثاني، فكان الوعد والوعيد حاصلًا في السورتين.

٣ - إن جملة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (١) في هذه السورة مشابهة لجملة: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٤) في السورة المتقدمة.

ما اشتملت عليه السورة:

اشتملت السورة على أغراض ستة:

أ - القسم الإلهي بالفجر والعشر الأوائل من ذي الحجة والشفع والوتر والليل على أن عذاب الكفار واقع حتماً لا مفر منه: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ [الآيات: ١-٥].

٢ - إيراد قصص بعض الأمم الظالمة البائدة المكذبة رسل الله، كعاد وثمود وقوم فرعون، لضرب المثل، وبيان ما حلّ بهم من العذاب بسبب طغيانهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (١) [الآيات: ٦-١٤].

٣ - بيان أن الحياة ابتلاء للناس بالخير والشر، والغنى والفقر، والتعرف على طبيعة الإنسان في حب المال، وتوضيح أن كثرة النعم على عبد ليست دليلاً على إكرام الله له، ولا الفقر وضيق العيش دليلاً على إهانته: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

٤ - وصف يوم القيامة وأهواله وشدائده: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الآيات: ٢١-٢٣].

٥ - بيان انقسام الناس إلى فريقين في الآخرة: سعداء وأشقياء، وغني الأشقياء العودة إلى الدنيا: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الآيات: ٢٤-٢٦].

٦ - الإخبار عن ظفر السعداء بالنعيم العظيم في جنات الله: ﴿يَتَأَيَّاتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٧) [الآيات: ٢٧-٣٠].

فضلها،

روى النسائي عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل، فصلى معه، فطَوَّل، فصلَّى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي معه، فطَوَّل علي، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناقتي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أين أنت من: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾»، «وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾»، «وَالْفَجْرِ﴾»، «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾».

حتمية عذاب الكفار وجزاء بعضهم في الدنيا

﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١، وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨، وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠، الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ١١، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣، إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِغٌ ١٤،

القرءات:

﴿وَالْوَتْرِ﴾:

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف (والوتر) وقرأ الباقون (والوتر).

﴿يَسْرِ﴾:

قرأ نافع، وأبو عمرو: بإثبات الياء وصلأ، وقرأ ابن كثير بإثباتها وصلأ ووقفأ.

وقرأ الباقون بالحذف مطلقاً.

الإعراب:

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ هذا قسم، وجوابه: إما قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْإِرْصَادِ ٣﴾ أو محذوف مقدر تقديره: لتبعثن. والأولى أن يكون جواب القسم محذوفاً وهو ليعذبن، كما ذكر في الكشف (٣/ ٣٣٥) أي ورب هذه الأشياء ليعذبن الكفار، وقد دلّ عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٤﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ٥﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٤﴾ ﴿إِرم﴾: مجرور على البدل، أو عطف البيان، ولا يجوز أن يكون وصفاً أو نعتاً؛ لأنه ليس مشتقاً. و﴿إِرم﴾: ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، ودليل التأنيث وصفها بقوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٤﴾ استفهام تقريرى، لتفخيم شأن الأمور المقسم بها.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٦﴾ بينهما طباق.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ٥﴾ استعارة، شبه العذاب الشديد النازل بهم بالسوط المؤلم، واستعمل الصب للإنزال.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٦﴾ وَأَلَيْلٍ إِذَا بَسَرَ ٧﴾ سجع رصين غير متكلف، وكذا قوله: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الضَّخْرَ بِالْوَادِ ٨﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ٩﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١٠﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ قسم بالوقت الذي ينبج فيه نور الصباح كل يوم؛ لتبديد

حجب الظلام، وظهور النور وما يتبعه من الاستعداد والذهاب لقضاء الخواج وتحقيق المنافع وطلب الرزق، وهو مثل القسم في قوله تعالى: ﴿وَالصَّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨/٨١] وقوله: ﴿وَالصَّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤/٧٤].

﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة، وتنكيرها للتعظيم. ﴿وَالشَّفْعَ﴾ الزوج. ﴿وَالْوَتْرَ﴾ الفرد من تلك الليالي، والمراد: والأشياء كلها شفعها ووترها، وكلمة (الوتر): بفتح الواو وكسر ها. ﴿يَسْرٍ﴾ أي يسري بمعنى إذا بمضي، كقوله: ﴿وَأَتْلِيلٍ إِذْ أَذْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣/٧٤].

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ أي هل في ذلك القسم بهذه الأشياء قسم مُفْنَع لكل ذي عقل؟ كأنه يقول: إن هذا لقسم عظيم عند ذوي العقول، فمن كان عاقلاً أدرك أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيها دلالة على توحيده وقدرته. وجواب القسم محذوف، أي لتعذبن أيها الكفار. والحجْر: العقل، سمي بذلك؛ لأنه يمنع من الوقوع فيما لا ينبغي.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد. ﴿بِعَادٍ﴾ هي قبيلة عربية بائدة، من أولاد عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود عليه السلام، سمو باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم باسمه، وتلقب عاد بإرم أيضاً.

﴿إِرمَ﴾ عطف بيان لعاد على تقدير مضاف، أي سبط إرم، و ﴿إِرمَ﴾: هي عاد الأولى. ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ذات البناء الرفيع، سكان الخيام العالية، وهذا كناية عن الغنى والبسطة، وكانت منازلهم بالرمال في الأحقاف بلاد الرمال بين عُمان وحضرموت جنوب جزيرة العرب. ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي أَلْبَدِ﴾ في بطشهم وقوتهم.

﴿وَتُمُودَ﴾ قبيلة من العرب البائدة أيضاً من ولد كاتر بن إرم بن سام، كانت تسكن بالحِجْر بين الشام والحجاز، وهم قوم صالح عليه السلام. ﴿جَابُوا﴾

﴿الصَّخْرُ﴾ قطعوا الصخر ونحتوه واتخذوه بيوتاً. ﴿بِالْوَادِ﴾ وادي القرى. ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ﴿١٢﴾ حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام، صاحب المباني العظيمة الثابتة ثبوت الأوتاد: جمع وتد، وهو ما يدق في الأرض.

﴿طَفَوْا﴾ تجبروا في البلاد وتجاوزوا الحد في الظلم، صفة للمذكورين: عاد وثمود وفرعون. ﴿فَاكْثُرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ ﴿١٣﴾ بالقتل والتعذيب والمنكرات. ﴿فَصَبَّ﴾ أفرغ وألقى وأنزل بهم العقوبة متتابعة. ﴿سَوَّطَ عَذَابٍ﴾ أي نوع عذاب ينزل بهم، وأصل السوط: الجلد الذي يضفر ليضرب به. ﴿لِبِالْمُرْصَادِ﴾ أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته شيء منها، ليجازيهم عليها. وأصل المرصاد: مكان الرصد أو الراصد، والرصد: من يرصد الأمور، أي يتربها ليعرف ما فيها من خير أو ضرر، ويطلق أيضاً على الحارس، ويطلق على الواحد والجمع والمؤنث، والترصد: الترقب.

التفسير والبيان:

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلِ عَشْرِ ۝٢﴾ أي قسماً من الله بالفجر، أي الصبح الذي يظهر فيه الضوء، وينبجج النور؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن الليل، كل يوم، وما يترتب عليه من اليقظة والاستعداد لجلب المنافع وتحقيق المصالح بالانتشار في الأرض وطلب الرزق من الإنسان والحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير: ١٨/٨١]، وقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝٢٤﴾ [المدثر: ٣٤/٧٤]. وقيل: المراد: القسم بصلاة الفجر.

وقسماً بالليالي العشر من ذي الحجة ذات الفضيلة؛ ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾ أي والزوج والفرد من كل الأشياء، ومنها هذه الليالي، أي بما حوته من زوج وفرد.

وقيل: الشفع يوم النحر لأنه عاشر الأيام، والوتر يوم عرفة لأنه تاسع الأيام، وقيل: الشفع: يوما التشريق الأول والثاني اللذان يجوز التعجل فيهما بالنفر من منى، والوتر: اليوم الثالث.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ وقسماً بالليل إذا جاء وأقبل ثم ذهب وأدبر، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [الم نشر: ٧٤/٣٣] ، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَصَ﴾ [التكوير: ٨١/١٧] أي أقبل ظلامه، أو أدبر، فكما في إقبال الصبح من عظيم النفع، في الظلام نفع أيضاً، حيث تهدأ النفوس، وتستريح من عناء العمل، ثم في ذهابه نفع أيضاً حيث يستعان بالراحة التي ارتاحها الجسم للعمل في النهار، ومجابهة المتاعب والأعمال.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي أليس في القسم بهذه الأشياء قسم مُنْعٍ لكل ذي عقل أو لب؟ والحِجْر: العقل، فمن كان ذا عقل ولب، علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به.

ثم ذكر الله تعالى بعض قصص الأمم السالفة للمثل والعبرة، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [إرم ذات العماد: ٧] أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَنَاتٌ فَتُحْصَوْنَ فِي الْبَنَاتِ أَيْ أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْمُخَاطَبُ، كَيْفَ أَهْلَكَ اللَّهُ قَبِيلَةَ عَادِ الْأُولَى، وَهُمْ وَلَدُ عَادِ بْنِ عَوْصِ بْنِ إِرْمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَلَقَّبَ أَيْضاً بِإِرْمَ، فَإِرْمَ: اسْمُ آخِرِ لِعَادِ الْأُولَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٣/٥٠] ، وَيُقَالُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ عَادِ الْآخِرَى. وَمَسَاكِنُهُمُ الْأَحْقَافُ بِلَادِ الرَّمَالِ بَيْنَ عُثْمَانَ وَحَضْرَمَوْتَ، وَنَبِيَّهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد كانوا أهل عمَد وخيام عالية في الربيع، ثم يرجعون إلى منازلهم إذا

هاج النبات، وكانوا طوال القامة، ذوي أجسام قوية شديدة، وأشد الناس في زمانهم خلقة، وأقواهم بطشاً، ولم يكن يوجد في البلاد كلها مدينة محكمة البنيان ذات أعمدة طوال منحوتة كمدينتهم، والصواب لم يوجد مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩/٧]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥/٤١] .

وجواب القسم المبدوء به في أول السورة محذوف تقديره: لتعذبن يا كفار أهل مكة وأمثالكم، وقد دل على الجواب هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وما بعدها.

وضمير ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ على الصواب عائد على القبيلة، أي لم يخلق مثل عاد تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم، وليس على العماد لارتفاعها كما قال ابن زيد؛ لأنه لو كان المراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(١).

﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾^(٢) أي و قبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا بالأحجار بيوتاً يسكنون فيها، وقصوراً وأبنية عظيمة، في الحجر ما بين الشام والحجاز، أو وادي القرى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩/٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢/١٥] .

(١) تفسير ابن كثير: ٥٠٧/٤

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي وحاكم مصر في عهد موسى عليه السلام، الذي هو صاحب المباني العظيمة، ومنها الأهرام التي بناها الفراعنة لتكون قبوراً لهم، وسخّروا في بنائها شعوبهم. وقيل: الأوتاد: الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدّ ملكه.

والتعبير بالأوتاد عن الأبنية يشير إلى هياكلهم العظيمة التي لها شكل الأوتاد المقلوبة، فهي عريضة القاعدة، ثم تصير رفيعة دقيقة في رأسها.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ فَاكْتَرَوْا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١١﴾ أي هؤلاء الذين سبق ذكرهم وهم عاد وثمود وفرعون الذين تجاوزوا في بلادهم الحد في الظلم والجور، وتمردوا وعتوا، واغتروا بقوتهم، وأكثروا الفساد فيها بالكفر والمعاصي وظلم العباد.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي فأنزل الله تعالى على تلك الطوائف نوعاً من العذاب الشديد، مشبهاً ما أوقعه بهم بالسوط المؤلم الذي يستعمل في تطبيق العقوبات. وقد ذكر نوع عقوباتهم تفصيلاً في سورة الحاقة [الآيات: ٥-١٠].

ثم ذكر الله تعالى سبب العذاب وهو الجريمة، فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَارِكٌ﴾ أي إن الله يرصد عمل كل إنسان، فلا يفوته شيء، حتى يجازيه عليه بالخير خيراً، وبالشر شراً، ولا يهمل منه شيئاً قلّ أو كثر، صغر أو كبر. والمرصاد: المكان الذي يرقب فيه الرصد.

والغرض من تكرار هذه القصص في مواضع مختلفة من القرآن الكريم هو التذكير بها، والعظة والعبرة منها، إما بالاستدلال على قدرته تعالى، وإما ببيان قهره العباد، وإما بإنذارهم وتخويفهم، ليدركوا أن ما جرى على شخص أو قوم، يجري على النظير والمثيل.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - حتمية عذاب الكفار، فقد أقسم الله تعالى بالفجر أي الصبح، أو بصلاة الفجر، وبالليالي العشر من ذي الحجة، وبالشفع والوتر أي الزوج والفرد من الأشياء كلها؛ لأن الموجودات لا تخلو من هذين القسمين، فتكون كقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢٩) [الحاقة: ٢٨-٣٩] ، وبالليل إذا يسري أي يمضي كقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا أَذْبَرَ﴾ (٣٣) [المدثر: ٣٣/٧٤] والمراد عموم الليل كله، أقسم الله بهذه الأشياء على أنه ليعذب الكفار.

وإقسام الله تعالى بهذه الأمور ينبئ عن شرفها، وأن فيها فوائد دينية ودنيوية، مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو توجب الحث على الشكر^(١). قال القرطبي: قد يُقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٣) [الليل: ٣/٩٢] ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعته؛ كما قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَحُجَّتْهَا﴾ (١) [الشمس: ١/٩١] ، ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ (٥) [الشمس: ٥/٩١] ، ﴿وَالسَّمَاءُ وَالطَّارِقُ﴾ (١) [الطارق: ١/٨٦]^(٢).

٢ - أكد الله تعالى ما أقسم به وأقسم عليه بقوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ (٥) أي بل في ذلك مقنع لذي لب وعقل، فالمراد بالاستفهام تقرير أن هذه المذكورات لشرفها وعظم شأنها يحق أن يؤكد بمثلها المقسم عليه، وهو تعذيب الكفار، كَمَنْ ذَكَرَ حِجَّةَ بَاهِرَةٍ، ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ يريد أنه لا حجة فوق هذا. ومن هنا قال بعضهم: فيه دليل على أنه تعالى أراد رب هذه الأشياء، ليكون غاية في القسم.

(١) تفسير الرازي: ٣١/١٦١

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/٤١

٣ - ذكر الله تعالى للعبرة، ولتسليّة النبي ﷺ قصة ثلاث فرق على سبيل الإجمال؛ لأنهم أعلام في القوة والشدة والتجبر، وهم عاد الأولى أو إرم ذات الأبنية المرفوعة على العمد، ومعنى إرم: القديمة، والتي لم يخلق مثل تلك القبيلة في زمنها في البلاد، قوة وشدة، وعظم أجساد، وطول قامة.

وتمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا به البيوت العظيمة بوادي القرى، قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود، فبنوا من المدائن ألفاً وسبع مئة مدينة كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبع مئة ألف، كلها من الحجارة.

وفرعون حاكم مصر ذو الأوتاد أي صاحب الأبنية الشاهقة، أو الجنود الكثيرة، أو الأوتاد الأربعة لتعذيب الناس.

٤ - هؤلاء الطوائف الثلاث: عاد وتمرود وفرعون طغوا في البلاد، أي تجاوزوا الحد في الظلم والعدوان، وتمردوا وعتوا، فأكثروا فيها الفساد، أي الجور والأذى، فعاقبهم الله عقاباً شديداً، وصبّ عليهم سوط عذاب، أي أفرغ عليهم وألقى نوعاً من العذاب الشديد عليهم؛ لأن الجزء من جنس العمل.

وفيه إشارة إلى أن عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة كالسوط بالنسبة إلى القتل مثلاً، ثم أشار إلى عذاب الآخرة أو إليه مع عذاب الدنيا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِأَرْصَادٍ ۝٤٤﴾ أي يمهّل ولكنه لا يمهّل، ويرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به.

توبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بالآخرة وفراط تماديه في الدنيا

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ أَمْوَالَ حُلَا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

القرءات:

﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، ﴿رَبِّي أَهْنَنِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (رَبِّي أَكْرَمَنِ، رَبِّي أَهْنَنِ).

﴿فَقَدَرَ﴾:

وقرأ ابن عامر (فَقَدَّرَ).

﴿تُكْرِمُونَ﴾، ﴿وَلَا تَحْضُونَ﴾، ﴿وَتَأْكُلُونَ﴾، ﴿وَتُحِبُّونَ﴾: قرئ:

١- (تُكْرِمُونَ، وَلَا تَحْضُونَ، وَتَأْكُلُونَ، وَتُحِبُّونَ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر.

٢- (يُكْرِمُونَ، وَلَا يُحْضُونَ، وَتَأْكُلُونَ، وَتُحِبُّونَ) وهي قراءة أبي عمرو.

٣- (تُكْرِمُونَ، وَلَا تَحْضُونَ، وَتَأْكُلُونَ، وَتُحِبُّونَ) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾

﴿الْإِنْسَنُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿فَيَقُولُ﴾ خبر المبتدأ، وأتى بالفاء لأن في (أما) معنى الشرط بالإنعام. والظرف المتوسط: ﴿إِذَا مَا أَبْلَلَهُ﴾ في تقدير التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان فقاتل: ربي أكرمني وقت ابتلائه.

﴿وَلَا تَحْضُوتَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (١٧) إما أن يكون ﴿طَعَامِ﴾ بمعنى إ طعام، فيكون اسماً أقيم مقام المصدر، مثل: سلمت عليه سلاماً، أي تسليماً، وكلمته كلاماً، أي تكليماً، وإقامة الاسم مقام المصدر كثير في كلام العرب، وإما أن يكون التقدير فيه: ولا تحضون على إ طعام طعام المسكين، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

البلاغة:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَنُ إِذَا مَا أَبْلَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْلَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦) بينهما مقابلة، قابل بين ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿أَهْنَنِ﴾، وبين توسعة الرزق وتضييقه.

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (٧) فيه التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب. والأصل أن يقال: كلا بل لا يكرمون.

للفردات اللغوية:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَنُ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبَلَرِّصَادٍ﴾ (١٤) قال البيضاوي: كأنه قيل: إنه لبالمصاد في الآخرة، فلا يريد إلا السعي لها، فأما الإنسان فلا يهيمه إلا الدنيا ولذاتها. ﴿إِذَا مَا أَبْلَلَهُ رَبُّهُ﴾ اختبره بالغنى واليسر. ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ بالجاه والمال. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فضلني بما أعطاني، وصيرني مكرماً، يتمتع بالنعيم.

﴿إِذَا مَا أَبْلَلَهُ﴾ بالفقر والتقتير ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ ضيقه. ﴿أَهْنَنِ﴾ أذلني وبادرنى بالإهانة، وهذا لقصور نظره وسوء تفكيره، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تؤدي إلى الانهماك في حب الدنيا.

ولذلك ذمّه على قوله السابقين وردعه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ كلمة للردع والزجر، أي ليس الإكرام بالغنى، والإهانة بالفقر، وإنما هو بالطاعة والمعصية، والكفار لا يتشبهون لذلك. ﴿لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ لا يحسنون إليهم مع غناهم. ﴿وَلَا تَخْضَعُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ لا يحثون أنفسهم أو غيرهم على إطعام المسكين. ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ﴾ الميراث. ﴿أَكَلًا لَمًّا﴾ شديداً ذا لم، أي جمع بين الحلال والحرام، فإنهم لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون أنصباهم. ﴿وَتَحْبِثُونَ أَمْوَالَكُمْ حَبًّا جَمًّا﴾ حباً كثيراً.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى أنه بمرصد من أعمال بني آدم، يراقبهم ويمجازيهم، عقبه بتوبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بأمر الآخرة، وفرط تماديه في إصلاح المعاش الدنيوي، كأنه قيل: إن الله يؤثر الآخرة ويرغب فيها، وأما الإنسان فلا يهتم إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها، فإذا صار في راحة قال: ربي أكرمني ورفعني، وإن فقد الراحة قال: ربي أهانني وأذلني.

وبعد بيان خطأ الإنسان في تصويره واعتقاده هذا، زجر الناس عن تقصيرهم وارتكابهم المنكرات، ونبه لما هو شرّ من ذلك، وهو أنه يكرمهم بكثرة المال، ثم لا يؤدّون حق الله فيه، فلا يحسنون إلى اليتامى والمساكين، ويتناهبون الميراث دون إعطاء النساء والصبيان حقوقهم، ويحرصون على جمع المال حرصاً شديداً.

التفسير والبيان:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ أي إن الإنسان مخطئ في تفكيره أنه إذا امتحنه ربه واختبره بالنعم، فأكرمه بالمال،

ووسع عليه الرزق، فيقول: ربي أكرمني وفضلني واصطفاني ورفعني وعافاني من العقوبة، معتقداً أن ذلك هو الكرامة، فرحاً بما نال، وسروراً بما أعطي، غير شاكر الله على ذلك، ولا مدرك أن ذلك امتحان له من ربه.

والمراد بالإنسان الجنس، وليس الكافر فقط، ويوجد هذا في كثير من أهل الإسلام^(١).

والمقصود من الآية أن الله ينكر على الإنسان ويوبخه في اعتقاده أنه إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره فيه، كان ذلك إكراماً من الله له، وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَنَبِينٍ ۖ شَارِعُ لَهُم فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ونظيره أيضاً قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۖ﴾ [الروم: ٣٠/٧]، وقوله أيضاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ۚ﴾ [الحج: ١١/٢٢].

والخلاصة: أن الغنى والثروة أو الجاه والسلطة ليس دليلاً على رضا الله عن العبد؛ لأن ذلك لا قيمة له عند الله تعالى.

ثم ذكر الجانب الآخر وهو أن الفقر والتقتير ليس دليلاً على سخط الله على العبد، فقال: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۖ﴾ أي وأما إذا ما اختبره وامتحنه بالفقر والتقتير، وضيق عليه رزقه ولم يوسع له، فيقول: ربي أهانني وأذلني. وهذا خطأ أيضاً فلا يصح أن يعتقد أن ذلك إهانة له وإذلال لنفسه.

فالإنسان مخطئ في الحالين؛ لأن سعة الرزق لا تدل على أحقية العبد لها،
بدليل ما نشاهده من غنى الكفار وثروة الفساق والعصاة.

وضيق الرزق ليس دليلاً على عدم الاستحقاق، بدليل ما نراه من فقر
بعض الأنبياء وأكابر المؤمنين والصلحاء والعلماء.

والكرامة عند الله للطائع الموفق لعمل الآخرة، والإهانة والخذلان عند الله
للعاصي غير الموفق للطاعة وعمل أهل الجنة، وليست سعة الدنيا كرامة
ورفعة، ولا ضيقها إهانة ومذلة، وإنما الغنى اختبار للغني هل يشكر، والفقر
اختبار له هل يصبر^(١).

ونظراً للخطأ في الحالين ردع الله الإنسان بقوله:

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ ۚ﴾
أي ردع وزجر للإنسان القائل في الحالين السابقتين ما قال، فليس
الأمر كما زعم، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق
على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من
الحالين، فإذا كان غنياً، شكر الله على نعمته، وإذا كان فقيراً صبر.

وبعد أن ذمهم على قبح الأقوال، ذمهم على قبح الأفعال الذي هو شر من
سابقه، وهو أنه يكرمهم بكثرة المال، ثم لا يؤدّون حق الله فيه، فأنتم أيها
الأغنياء الموسرون لا تكرمون اليتيم ولا تحسنون إليه، ولا تحضون أنفسكم
أو غيركم على إطعام المساكين، ولا بحث بعضكم بعضاً على صلة الفقراء،
ولا يأمر بعضكم بعضاً بالإحسان إلى المحتاجين.

وفي قوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۖ﴾^(١) أمر بإكرام الأيتام، كما جاء

(١) فتح القدير للشوكاني.

في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم، يُحَسِّنُ إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُسَاءُ إليه، ثم قال بأصبعيه: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا». وروى أبو داود عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام. قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيمًا في حجر أمية بن خلف، وكان يدفعه عن حقه، فزلت.

فترك إكرام اليتيم: ترك برّه، ودفعه عن حقه الثابت له في الميراث، وأخذ ماله منه.

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاكَ أَكْلًا لَمًّا ۖ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۖ﴾ أي وإنكم تأكلون الميراث أكلًا شديدًا، وجمعًا من أي جهة حصل، من حلال أو حرام.

وتحبون المال حبًّا كثيرًا فاحشًا، والجَمُّ: الكثير، قال بعضهم: إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأيُّ عبد لك لا آلا والخلاصة: أنكم تؤثرون الدنيا على الآخرة، والله يحب السعي للآخرة، وترك الإفراط والمغالاة والتماذي في حب الدنيا وملذاتها.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - يخطئ الإنسان في فهم حال الغنى والفقر، فليس الغنى وبسط الرزق دليلًا على الإكرام والتفضيل والاصطفاء، كما أن الفقر ليس دليلًا على الإهانة والإذلال.

فالكرامة عند الله والهوان ليس بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، وإنما الكرامة

عنده أن يكرم الله العبد بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمده وشكره.

والله لا يريد من عبده إلا الطاعة والسعي للعاقبة الآخرة، وأما الإنسان فلا يريد ذلك، ولا يهيمه إلا الدنيا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها.

٢ - أؤكد تعالى المعنى السابق بكلمة ﴿كَلَّا﴾ للرد على سوء فهم الإنسان، وزجراً وردعاً له عن اعتقاده وتصوره السابق، فليس الأمر كما يُظنُّ، بأن الغنى لفضله، والفقر لهوانه، وإنما الغنى والفقر من تقدير الله وقضائه، وعلى العبد أن يحمد الله عزَّ وجلَّ على الفقر والغنى. جاء في الحديث: «يقول الله عزَّ وجلَّ: كلا، إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي»^(١).

٣ - أخبر الله تعالى عما كان الناس يصنعونه من ترك برِّ اليتيم ومنعه من الميراث، وأكل ماله إسرافاً وبداراً أن يكبروا، وأنهم لا يأمرؤن أهليهم بإطعام مسكين يحييهم، وأكلهم ميراث اليتامى والنساء والصبيان أكلاً شديداً وجمعاً شاملاً، ومحبتهم المال حباً جحاً، كثيراً، فقد كان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم، وراثتهم مع ثرائهم، وكانوا يجمعون المال دون تفرقة بين الحلال والحرام.

وهذا ما يشيع الآن كثيراً في العالم، بل بين المسلمين أنفسهم.

حال الإنسان الحريص على الدنيا والترفع عنها يوم القيامة

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۚ وَجِئَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۚ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِلْحَيَاتِ ۖ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۚ وَلَا يُوثِقُ وَثْقَاهُ أَحَدًا ۚ يَتَأَيَّسُ الْنَفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۚ فَأَدْخِلْنِي عِندَ ۖ وَأَدْخِلْنِي جَنَّ ۖ﴾

القراءات:

﴿وَجِئَءَ﴾:

بإشمام كسرة الجيم الضم قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿لَا يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾:

وقرأ الكسائي (لا يعذب، ولا يوثق).

الإعراب:

﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ﴾. و ﴿دَكًّا دَكًّا﴾: منصوب على المصدر المؤكد، وكرر للتأكيد.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ منصوب على المصدر، في موضع الحال، أي مصطفين أو ذوي صفوف كثيرة.

﴿وَجِئَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾: ﴿بِجَهَنَّمَ﴾: في موضع رفع نائب فاعل. و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الأول: ظرف متعلق بـ ﴿وَجِئَءَ﴾، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثاني: إما بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الأول، أو يتعلق بـ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾.

﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا﴾ ﴿٣٠﴾ قرئ (يُعَذِّبُ) و(يُوثِقُ) بكسر الذال وفتحها، وبكسر التاء وفتحها، فمن قرأ بكسر الذال والتاء، كان تقديره: لا يعذب أحدٌ أحداً عذاباً مثل عذابه، ولا يوثق أحدٌ أحداً وثاقاً مثل وثاقه، والهاء تعود على الله تعالى، وإن لم يذكر، للدلالة الحال عليه. و ﴿عَذَابُهُ﴾ و ﴿وِثَاقُهُ﴾: منصوبان على المصدر، والمصدر مضاف إلى الفاعل، و ﴿أَحَدًا﴾ فاعل مرفوع.

ومن قرأ بفتحهما كان تقديره: لا يعذب أحدٌ مثل عذابه، ولا يوثق أحدٌ مثل وثاقه، والهاء تعود على الإنسان، لتقدم ذكره، والمصدر مضاف إلى المفعول، و ﴿أَحَدًا﴾: نائب فاعل.

﴿رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ﴾ حالان.

البلاغة:

﴿يَذْكُرُ﴾ و ﴿الَّذِكْرُ﴾ بينهما جناس اشتقاق، وكذا بين ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ﴾ وبين ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ﴾.

﴿فَادْخُلِي فِي عِذِّي﴾ ﴿٢٩﴾ الإضافة إلى الله للتشريف.

المفردات اللغوية:

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم: وهو التقصير في أداء الحقوق. ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ زلزلت حتى يتهدم كل بناء عليها وينعدم، دكاً بعد دك حتى صارت الجبال والتلال هباءً منبثاً، وأرضاً مستوية. والذك: الهدم والتسوية للشيء المرتفع، قال المبرد: الذك: حظ المرتفع بالبسط، واندك: سنام البعير: إذا انفرش في ظهره، ومنه الدكان لاستوائه في الانفراس. وجواب ﴿إِذَا﴾ هو قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ﴾.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أمر ربك، وظهرت آيات قدرته وآثار قهره. ﴿وَالْمَلَكُ﴾ الملائكة. ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ مصطفين أو ذوي صفوف كثيرة بحسب منازلهم ومراتبهم. ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كشفت للناظرين بعد الغيبة، مثل قوله تعالى: ﴿وُزِّزْتَ الْحَجِيمُ لِمَنْ بَرَى﴾ [النازعات: ٣٦/٧٩]. ﴿يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ يتذكر معاصيه، أو يتعظ؛ لأنه يعلم قبورها، فيندم عليها. ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي ومن أين له فائدة التذكر، وقد فات الأوان؟ وهو استفهام بمعنى النفي، أي لا ينفعه تذكره ذلك، واستدل به على عدم قبول التوبة في الآخرة. ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي يقول مع تذكره: يا ليتني قدمت لحياتي هذه الخير والإيمان، أو وقت حياتي في الدنيا، و(يا): للتنبيه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ وَلَا يُؤْتِقُ وِثْقُهُ أَحَدٌ ﴿﴾ أي لا يتولى أحد عذاب الله ووثاقه يوم القيامة سواء، إذ الأمر كله له، ولا يعذب أحد مثل تعذيبه، ولا يوثق مثل إثاقه، والوثاق: الشدّ والربط بالسلاسل والأغلال. وضمير ﴿عَذَابُهُ﴾ و ﴿وِثْقُهُ﴾ للكافر.

﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي يقال لها عند الموت ما يأتي. ﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ المستقرة الثابتة المتيقنة بالحق، الآمنة، وهي المؤمنة التي اطمأنت بذكر الله. ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أرجعي إلى ثوابه وتكريمه، وأمره وإرادته. ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب. ﴿مَرْضِيَةً﴾ عند الله بعملك، أي جامعة بين الوصفين. ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في جملة، أو في زمرة عبادي الصالحين المقربين المكرمين. ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ قال: نزلت في حمزة.

وأخرج أيضاً عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: من يشتري بئر رومة، يستعذب بها، غفر الله له، فاشترها عثمان، فقال: هل لك أن تجعلها سقاية للناس؟ قال: نعم، فأنزل الله في عثمان: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ﴾ (٦٧).

المناسبة:

بعد أن أنكر الله على الناس تصورهم عن الغنى والفقر، وأفعالهم المنكرة، بالحرص على الدنيا، وإيثارها على الآخرة، وترك المواساة منها، وجمعها دون تفرقة بين حلال أو حرام، ردعهم عن ذلك، وأخبر عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، وأبان أنهم يندمون حين لا ينفع الندم: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ الْحَيَاتِي﴾ فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل، ثم ذكر تحسر المقصر في طاعة الله يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَهُ الْذِكْرَى﴾.

وبعد بيان حال هذا الإنسان الحريص على الدنيا، ذكر الله تعالى حال المؤمن المخلص المترفع عنها، التسامي بطبعه إلى مراتب الكمال، فيكون جزاؤه دخول الجنان في زمرة الصالحين المقربين من عباد الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٦٨) أي زجراً وردعاً لأقوالكم وأفعالكم هذه، ولا ينبغي أن يكون هكذا عملكم في الحرص على الدنيا، وترك المواساة منها، وجمع الأموال فيها من حيث تنهياً، دون تفرقة بين حلال وحرام، وتوهم ألا حساب ولا جزاء.

وسياتي يوم القيامة وما يقع فيه من الأهوال الرهيبة، وتظهر فيه أوصاف ثلاثة، فتدك الأرض دكاً بعد دك، أي تكسر وتدق، وتزلزل وتحرك تحركاً بعد تحريك، وتهتز جبالها حتى تستوي مع سطح الأرض، فتسوى الأرض والجبال، ويقوم الناس من قبورهم. وقوله: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ يدل على تكرار الدك حتى صارت الجبال هباء منبثاً.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي وجاء الله سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين عباده، وتصدر أوامره وأحكامه بالجزاء والحساب، وتظهر آيات قدرته وآثار قهره، ويقف الملائكة مصطفين صفوفاً للحراسة والحفظ والهيبة. وهذه هي الصفة الثانية من صفات ذلك اليوم.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وكشفت للناظرين بعد غيبتها وتحجبها عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١/٢٦] ، وقال أيضاً: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦/٧٩] . وهذه هي الصفة الثالثة من صفات ذلك اليوم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَمْ يَلْزَمْ لَهُ الْذِكْرَى ، يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي في ذلك اليوم يندم الإنسان على ما قدم في الدنيا من الكفر والمعاصي، وعلى ما عمل من أعمال السوء، وكيف تنفعه الذكرى؟ أي لا تنفعه، فقد فات الأوان، وإنما كانت تنفعه الذكرى لو تذكر الحق قبل حضور الموت. ويقول مبيناً تذكره: يا ليتني قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي الأخروية الدائمة الباقية، فهي الحياة الأخيرة لأهل النار ولأهل الجنة جميعاً. ويصح جعل اللام بمعنى الوقت، أي وقت حياتي في الدنيا.

قال الرازي: فيه دليل على أن قبول التوبة على الله لا يجب عقلاً. والواقع أن الآية ليست في هذا الجانب، لأنه لا يلزم من عدم قبول التوبة في الآخرة عدم قبولها في دار التكليف في الدنيا، كإيمان اليأس.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ﴿ (٢٦) هذا جواب الشرط السابق في ﴿إِذَا دُكِّتِ﴾ أي فيومئذ لا يتولى أحد تعذيب العصاة وحسابهم وجزاءهم ووثاقهم، ولا يعذب أحد مثل عذاب الله، ولا يوثق أحد الكافر بالسلاسل والأغلال كوثاق الله.

وفي هذا ترغيب بالعمل الصالح والإيمان، وترهيب من الكفر والعصيان.

ثم ذكر حال الإنسان المترفع عن أطماعه وملذاته وشهواته في الدنيا، وبشارة الأبرار، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ﴾ (٢٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ﴾ (٢٩) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي ۖ﴾ (٣٠) أي يقول الله للمؤمن، بذاته أو على لسان ملك: يا أيتها النفس الموقنة بالإيمان والحق وتوحيد الله، التي لا يخالجه شك في صدق عقيدتها، وقد رضيت بقضاء الله وقدره، ووقفت عند حدود الشرع، فتجيء يوم القيامة مطمئنة بذكر الله، ثابتة لا تتزعزع، آمنة مؤمنة غير خائفة، ارجعي إلى ثواب ربك الذي أعطاك، وإلى محل كرامته الذي منحك إياه، راضية بهذا الثواب عما عملت في الدنيا، وبما حكم الله، ومرضية عند الله، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨/٩٨] وهذه هي صفة أرباب النفوس الكاملة.

فادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وكوني في جملتهم، وادخلي معهم جنتي، فتلك هي الكرامة لا كرامة سواها، جعلنا الله من أهلها، والظاهر العموم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت به الآية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - زجر الله الناس وردعهم عن انكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فإن من يفعل ذلك يندم يوم تُدَكُّ الأرض ولا ينفع الندم.

٢ - وصف الله يوم القيامة بصفات ثلاث هي:

الأولى - دَكُّ الأرض، أي زلزلتها وتحريكها بشدة تحريكاً بعد تحريك، ومرة بعد مرة.

الثانية - مجيء أمر الله وقضائه وآياته العظيمة واصطفاف الملائكة صفوفاً، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْفُجَاءِ وَالْمَلَكُوتِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٣١) [البقرة: ٢١٠/٢].

الثالثة - بروز جهنم وانكشافها وظهورها للناس بعد احتجاجها عنهم.

٣ - في يوم القيامة يتعظ الكافر ويتوب، كما يتعظ من حرصه على الدنيا دون الآخرة، ولكن من أين له الاتعاظ والتوبة والمنفعة، وقد فرط فيها في الدنيا. ويقول نادماً متأسفاً: يا ليتني قدمت في الدنيا عملاً صالحاً لحيااتي الأخيرة التي لا موت فيها.

٤ - لا يُعَذَّب أحد كعذاب الله، ولا يُوثَق بالسلاسل والأغلال أحد كوثاق الله، وهذه كناية ترجع إلى الله تعالى، في حق المجرمين من الخلائق، تعني أن السلطان المطلق في الحساب والجزاء لله، ولا يخرج أحد عن قبضة الله وسلطانه.

٥ - أما النفس الزكية المطمئنة بالإيمان والعمل الصالح وبوعد الله دون خوف ولا فزع، فيقال لها: ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضية بما أعطاك الله من النعم، مرضية عند الله بما قدمت من عمل. وهذا الخطاب والنداء يكون عند الموت أو الاحتضار، كما ذكر المفسرون، وتتمة المقالة: فادخلي في زمرة عباد الله الصالحين، وادخلي جنتي دار الأبرار المقربين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مكية، وهي عشرون آية

تسميتها:

سميت سورة البلد؛ لأن الله تعالى أقسم في فاتحتها بالبلد الحرام (مكة) الذي شرفه الله بالبيت العتيق، وجعله قبلة المسلمين، تعظيماً لشأنه.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

١ - ذم الله تعالى في السورة السابقة (الفجر) من أحب المال، وأكل التراث، ولم يحض على طعام المسكين، وذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة (إعتاق العبيد) والإطعام في يوم المسغبة (المجاعة).

٢ - ختم الله تعالى السورة المتقدمة ببيان حال النفس المطمئنة في الآخرة، وذكر هنا طريق الاطمئنان، وحذر من ضده، وهو الكفر بآيات الله ومخالفة أوامر الرحمن.

ما اشتملت عليه السورة:

محور هذه السورة المكية الحديث عن سعادة الإنسان وشقاوته، ومنهجه في اختيار أحد الطريقين. بدأت بالقسم بالبلد الحرام - مكة أم القرى، التي يأمن الناس فيها، تنبيهاً على عظمة قدرها، سواء في حال الإحرام أو الحل، وتنوياً بموطن النبي ﷺ وتعظيم تحريم إيدائه في البلد الأمين، ثم ذكرت المقسم عليه وهو أن حال الإنسان في الدنيا في نصب وتعب: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [الآيات: ١-٤] .

وأردفت ذلك بالإخبار عن خلق ذميم في الإنسان وهو اغتراره بقوته، مما حدا بكفار مكة الذين اغتروا بقوتهم أن يعاندوا الحق، ويكذبوا رسول الله ﷺ، وينفقوا أموالهم في المفاصد والشرور، وهو شأن المفتونين المغرورين بما لهم وغناهم: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَفْذَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [الآيات: ٥-٧] .

ثم ذكرت الإنسان بما أنعم الله عليه من العينين واللسان والشفيتين وبيان طريق الخير والشر له، واختياره أحد السبيلين بعقله وإرادته: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهٗ عَيْنَيْنِ﴾ [الآيات: ٨-١٠] .

ثم أبانت للإنسان ما يعترضه من الأهوال والمصاعب يوم القيامة وطريق اجتيازها بالإيمان والعمل الصالح وإنفاق المال في جهات البر والخير، ليكون من الأبرار السعداء أهل اليمين: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [الآيات: ١١-١٨] .

وقابلت ذلك بتوضيح منهج الأشقياء الفجار أهل الشمال، وهو الكفر بآيات الله، فيتميز المؤمنون عن الكفار، ويتبين مآل الفريقين إما إلى الجنة أو إلى النار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ﴾ [١٩] عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ [الآيات ١٩-٢٠] .

ابتلاء الإنسان بالتعب واغتراره بقوته وماله

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۚ﴾ (١) ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۚ﴾ (٢) ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ۚ﴾ (٣) ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۚ﴾ (٤)

القراءات:

﴿أَيَحْسَبُ﴾:

قرأ عاصم، وحزة، وابن عامر (أَيَحْسَبُ)، وقرأ الباقون (أَيَحْسِبُ).

الإعراب:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي أنه.

البلاغة:

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ﴾ أي أقسم بهذا البلد، وزيادة ﴿لَا﴾ لتأكيد الكلام وتأكيد القسم، تقول: لا والله ما قلت كذا، أي والله. وهذا مستفيض في لغة العرب.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ﴾ (٣) بينهما جناس اشتقاق، فكل من الوالد والولد مشتق من الولاد.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۚ﴾ (٢) استفهام إنكاري للتوبيخ، وكذا قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۚ﴾ (٤).

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۚ﴾ (١) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۚ﴾ (٤) توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿لَا أُقْسِمُ﴾ أي أقسم. ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ مكة. ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٢) أي وأنت يا محمد حلال وحال مقيم فيه، أقسم سبحانه بالبلد الحرام، وحال كون النبي ﷺ مقيماً فيه، إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. وهذه الجملة وما بعدها اعتراض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله بعدئذ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (١).

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (٣) أي وأقسم بكل والد كآدم أو إبراهيم وغيرهما، وبكل مولود من أي شيء آخر، والمراد: أن الله أقسم ببلد النبي ﷺ الذي هو مسقط رأسه، وحرّم أبيه إبراهيم، ومنشأ أبيه إسماعيل، وبمن ولد فيه. والتذكير للتعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أََعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ (آل عمران: ٣٦/٣) أي بأي شيء وضعت، يعني موضوعاً عظيم الشأن.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ جنس الإنسان. ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي خلقناه مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد، والتعب والنصب، والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقة، ومتناها الموت وما بعده، وهو تسلية وتثبيت للرسول ﷺ مما كان يكابده من قريش، ويَعَثُّ له على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته.

﴿أَيْحَسِبُ﴾ أيظن الإنسان. ﴿أَنْ لَّنْ يَفْدِرَ عَلَيَّ﴾ أي أنه يغتر بقوته، ويعتقد ألا أحد ينتقم منه، ولكن الله قادر عليه، كأبي الأشد بن كلدّة، فإنه كان يُسَيِّطُ تحت قدمه أديم عكاظي، ويجذبه عشرة، فينقطع، ولا تَرَلَّ قدماءه. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ (٦) أي وأنه يقول: أنفقت ما لا كثيراً، من تلبد الشيء: إذا اجتمع، على عداوة محمد، أو سمعة ومفاخرة. ﴿أَيْحَسِبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (٧) فيما أنفقه، فيعلم قدره، والله عالم بقدره، وأنه ليس مما يتكثر به، ومجازيه على فعله السيئ.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: روي أن هذه الآية: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ نزلت في أبي الأشد بن كَلْدَة الجُمَحِي، الذي كان مغترأ بقوته البدنية. قال ابن عباس: كان أبو الأشدّين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالا كثيراً، وهو في ذلك كاذب.

نزول الآية (٦):

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾: قال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنّب، فاستغنى النبي ﷺ، فأمره أن يُكْفَّر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغياناً منه، أو أسفاً عليه، فيكون ندماً منه.

التفسير والبيان:

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي أقسم بالبلد الحرام وهو مكة، تنبيهاً على كرامة أم القرى وشرفها عند الله تعالى؛ لأن فيها بيته الحرام قبلة المسلمين، وهي بلد إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وفيها مناسك الحج. وقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ قسم مؤكد وليس نفياً للقسم، كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأفعلن كذا.

أقسم بهذا البلد في حال كون الساكن فيها حلالاً مقيماً به، وهو محمد ﷺ، وكل من دخله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧/٣] تشریفاً لك، وتعظيماً لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً، ولا شك أن الأمكنة تشرف بأهلها. والحل: الحلال. ورد في الحديث المتفق على صحته:

«إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شجره، ولا يختل خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

والمراد أن مكة عظيمة القدر في كل حال، حتى في حال اعتقاد الكفار أنك حلال لا حرمة لك، فلا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك. وفي هذا تقرير وتوبيخ لهم.

وأقسم بكل والد ومولود من الإنسان والحيوان، تنبيهاً على عظم آية التناسل والتوالد، ودلالاتها على قدرة الله وحكمته وعلمه.

ثم ذكر المقسم عليه، فقال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝﴾ أي لقد خلقنا الإنسان مغموراً بالتعب والنصب، وفي مكابدة المشاق والشدائد، فهو لا يزال في تلك المكابدة بدءاً من الولادة، إلى المتاعب المعيشية والأمراض الطارئة، ثم إلى الموت وما يتبعه في قبره والبرزخ وآخرته من شدائد ومتاعب وأهوال.

وفيه تثبيت لرسول الله ﷺ، وتخله على احتمال مكائد أهل مكة، وصبره على المشاق والمتاعب، فذلك لا يخلو منه إنسان، وفيه لوم لهم على عداوته.

ثم ويخ الإنسان على الاغترار بقوته، فقال:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝﴾ أي أيعظن ابن آدم أن لن يقدر عليه، ولا ينتقم منه أحد، فإن الله هو القادر على كل شيء.

ثم لام الإنسان على الإنفاق مراءاة، فقال:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ ۝﴾ أي أنفقت ما لا كثيراً مجتمعاً بعضه على

بعض. والمراد أن الإنسان يقول في يوم القيامة: أنفقت مالاً كثيراً فيما كان يسميه أهل الجاهلية مكارم، ويدعونه معالي ومفاخر.

ثم عابه على جهله، فقال:

﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي أظن الإنسان والمدعي النفقة في سبيل الخير أن الله سبحانه لم يطلع عليه، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه، وأين أنفقه؟

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - أقسم الله تعالى بالبلد الحرام - مكة أم القرى، وبالوالد والمولود كآدم وذريته، وكل أب وولده، وما يتوالده الحيوان، على أنه خلق الإنسان مغموراً في شدة وعناء من مكابدة الدنيا.

ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، والمراد تعظيم البلد الحرام المشتمل على البيت العتيق، وكونه بلد إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ووجود مناسك الحج فيه ومنشأ كل بركة وخير، وتظل الحرمه لهذا البلد، وإن اعتقد كفار مكة أن محمداً ﷺ حلال لهم، لا حرمة له.

والقسم بالوالد والولد ونسلهم؛ لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى.

٢ - ويخ الله تعالى الإنسان على بعض الأفكار والاعتقادات والتصورات، كظنه ألا قدرة لأحد عليه، وإنفاقه المال الكثير مراعاة، أو مضايقة من أداء الواجبات المالية الخيرية، وجهله بأن الله عالم به مطلع على جميع أقواله وأفعاله، وسأله عن ماله من أين كسبه، وفي أي شيء أنفقه؟

إن الله قادر على كل شيء من الإنسان والحيوان والجماد والنبات، عالم بقصد كل إنسان حين ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً وحباً للانتساب إلى المعالي والمكارم، أو معاداة لرسول الله ﷺ، ويرى كل أحد فيما يعمل ويجني ويكتسب وينفق.

مبدأ الاختيار وطريق النجاة في الآخرة

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُمْ عَيْنَيْنِ ۖ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۖ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۖ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۖ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ ۖ (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ (١٤) يَبْسُماً ذَا مَقَرَّةٍ ۖ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۖ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِفُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ (٢٠)﴾

القراءات:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۖ (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي (فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ أَطْعَمَ).

﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾:

قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمة، وخلف (مؤصدة)، وقرأ الباقون (موصدة).

الإعراب:

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۖ (١١)﴾ أي لم يقتحم، و(لا) في الماضي مثل (لم) في المستقبل، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ (٣١)﴾ [القيامة: ٣١/٧٥] أي لم يصدق ولم يصل، وكقول الشاعر أبي خراش الهذلي:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيَّ عِبْدِكَ لَا أَلْمَا
أَيَّ لَمْ يُلَمَّ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١٢) ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ (١٣) ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (١٤) ﴿يَتِيمًا﴾ ﴿مَا الْعَقَبَةُ﴾: تقديره: ما اقتحام العقبة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. و﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ (١٣): خبر مبتدأ محذوف، تقديره: اقتحامها فك رقة. ﴿أَوْ إِطْعَمٌ﴾: عطف عليه، و﴿يَتِيمًا﴾: مفعول ﴿إِطْعَمٌ﴾ وهو مصدر (أطعم) أي أن أطعم يتيمًا.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اسم كان: ضمير مستتر تقديره هو، أي ثم كان مقتحمها من الذين آمنوا. وإنما قال ﴿ثُمَّ﴾ وإن كان الإيمان مقدماً في الرتبة عن العمل؛ لأن ﴿ثُمَّ﴾ إذا عطفت جملة على جملة لا تفيد الترتيب، بخلاف ما إذا عطفت مفرداً على مفرد، فهي ليست هنا للتراخي في الزمان؛ إذ شرط الأعمال الحسنة الإيمان، وإنما التراخي في الذكر والبيان.

البلاغة:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَّكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (٩) استفهام تقريرى للتذكير بالنعم، أي جعلنا له، وفيه مراعاة الفواصل.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١٢) الاستفهام للتهويل والتعظيم. و﴿الْعَقَبَةُ﴾: استعارة تبعية لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بعقبة الجبل: وهو ما صعب منه، أي إن العقبة: الطريق الوعر في الجبل، استعير للأعمال الصالحة ذات المشقة.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٥) استعارة، استعار النجدين لطريقي الخير والشر، أو السعادة والشقاوة، وأصل النجد: الطريق المرتفع.

﴿مَقْرَبَةٍ﴾ و﴿مُتَرَبِّئَةٍ﴾ جناس ناقص لتغير بعض الحروف.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْآيَةِ﴾ (١٨) ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ﴾ بينهما مقابلة.

للفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) يبصر بهما، أي جعلنا له. ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عما يريد ضميره. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما فاه، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها. ﴿وَهَدْيَيْنِ الْتَجْدَيْنِ﴾ (١٠) بينا له طريقي الخير والشر، أو السعادة والشقاوة، وأصل التجد: المكان المرتفع. ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) فهلا اجتازها أو دخلها بسرعة وشدة، والعقبة: الطريق الصعب في الجبل. والمراد: مجاهدة النفس لفعل الخير وترك الشر.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١٢) وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ والجمله اعتراضية لتعظيم شأنها، أي لم تدر صعوبتها وثوابها. ﴿فَكُ رَقَبَةٍ﴾ (١٣) إعتاقها من الرق، أو المعاونة عليه. ﴿ذِي مَسْقَبَةٍ﴾ مجاعة. ﴿ذَا مَقَرَّبَةٍ﴾ قرابة في النسب. ﴿ذَا مَرَّيَةٍ﴾ ذا فقر، يقال: ترب فلان: إذا افتقر، أي أصبحت يده ملصقة بالتراب لفقره، والمراد: هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب، لا بيوت لهم. وإنما ذكر الإعتاق والإطعام لما فيهما من مجاهدة النفس.

﴿ثُمَّ﴾ عطف على ﴿أَقْنَحَمَ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الذكري لا الزماني، والمعنى: وكان وقت الاقتحام مؤمناً. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أوصى ونصح بعضهم بعضاً. ﴿بِالْقَصْرِ﴾ على الطاعة، وعن المعصية. ﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾ الرحمة على الناس. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات. ﴿أَصْحَابُ الْآيَةِ﴾ اليمين، وأصحاب طريق النجاة والسعادة. ﴿الْمَشْأَةِ﴾ الشمال، أصحاب طريق الشقاء. ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾ مطبقة مغلقة عليهم.

للفاسية:

بعد توبيخ الإنسان وذمه على طبائع غريبة وعجيبة، أقام الله تعالى الدليل

على كمال قدرته بخلق الأعين واللسان والشفيتين والعقل المميز بين الخير والشر، ومنحه الخيار للإنسان ليثبت ذاتيته، ويتحرر من عبودية أهوائه وشبهواته، وليعرف البشر أنه تعالى مصدر لأفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والعقل.

ثم بيّن الله تعالى أنه كان على الإنسان بعدئذ أن يشكر هذه النعم، ويختار طريق الخير والسعادة، فيبادر إلى الإيمان والعمل الصالح، ومنه إعتاق أو تحرير الرقاب، وإطعام الأيتام الأقارب والمساكين المحتاجين، والتواصي بالرحمة على الناس، وأدى اختيار الإنسان بالتالي إلى أن يكون من أحد الفريقين: أصحاب اليمين والسعادة ومآلهم إلى الجنة، وأصحاب الشمال والشقاوة ومآلهم إلى النار.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَّكُمْ عَيْنَيْنِ ۖ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ (٩)﴾ أي ألم أمنحك أيها الإنسان الجاهل المغرور بقوتك، المرأي بملكك بإففاق المال طلباً للشهرة والسمعة، أمنحك العينين اللتين تبصر بهما، واللسان الذي تنطق به، والشفيتين اللتين تستر بهما ثغرك، وتستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالاً لوجهك وفمك، والمراد أنني أنا الله الذي منحتك القدرة على البصر والنطق أو الكلام.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۚ (١٠)﴾ أي ألم نبين لك ونعرفك طريق الخير والشر، فأودعنا في فطرتك السليمة أداة التمييز بينهما، وجعلنا لك من العقل والفكر ما تستطيع به إدراك محاسن الخير، ومفاسد الشر وأبعاد كل منهما. وعبر عن هذين الطريقين بالنجدين: وهما الطريقان المرتفعان، للدلالة على صعوبتهما ووعورتهما، واحتياجهما إلى مجاهدة النفس لعبورهما بشدة وسرعة.

لذا أردفه ببيان وجوب اختيار الأفضل وشكر تلك النعم، فقال تعالى:

﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعُقْبَةَ ۖ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ۖ ﴿١٢﴾ أي فهلا نشط واخترق الموانع المانعة من طاعة الله، من تسويل النفس واتباع الهوى والشيطان، وهلا جاهد نفسه لاجتياز الطريق الصعب، وأي شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟ استفهام للتفخيم والتعظيم.

ثم أرشد إلى طريق اقتحامها فقال:

﴿فَكَ رَقَبَةٍ ۖ﴾ (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ۖ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ۖ ﴿١٦﴾ أي إن اقتحام العقبة ودخولها يكون بإعتاق الرقبة من العبودية، وتخليصها من إसार الرق، أو المعاونة عليه، أو إطعام في يوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام اليتيم القريب: وهو الصغير الذي فقد أباه، وكان قريباً في نسبه من المطعم، أو إطعام المسكين المحتاج الذي لا شيء له، ولا قدرة على كسب المال لضعفه وعجزه، كأنه ألصق يده بالتراب، لفقد المال.

فمن حرر الرقبة أو أطعم اليتيم أو المسكين في يوم المجاعة، كان طائعاً لله، نافعاً عباده، فهو من أصحاب اليمين. وهذا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان.

قال الصاوي على الجلالين: إنما قيّد الإطعام بيوم المجاعة؛ لأن إخراج المال فيه أشد على النفس. وقد يستدل بقوله: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ۖ﴾ (١٦) للشافعي: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وأنه قد يكون بحيث يملك شيئاً، وإلا وقع قوله: ﴿ذَا مَتْرَبٍ﴾ تكراراً. وقد استدل أبو حنيفة بتقديم العتق على أنه أفضل من الصدقة، وعند بعضهم بالعكس؛ لأن في الصدقة إنقاذ النفس من الهلاك؛ فإن الغذاء قوام البدن، وأما الفك فهو تخليص من القيد في الأغلب.

أخرج أحمد عن عتبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مؤمنة، فهي فكاكه من النار». وأخرج أحمد أيضاً عن البراء بن عازب قال:

«جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، علّمني عملاً يُدخلني الجنة، فقال: لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النّسمة، وفكّ الرّقبة، فقال: يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟ قال: لا، إن عتق النّسمة: أن تنفرد بعثتها، وفكّ الرّقبة: أن تُعين في عثتها» .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة» .

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۖ﴾ (١٧) أي قام بالأفعال الخيرية السابقة بعد أن آمن بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر، فإن هذه القربات إنما تنفع بشرط الإيمان، فكان من جملة المؤمنين العاملين صالحاً: المتواصين بالصبر على أذى، وعلى الرحمة بهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث الثابت: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١) وفي الحديث الآخر: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»^(٢).

والصبر يكون أيضاً على طاعة الله، وعن المعاصي، وعلى المصائب والبلايا. والرحمة على عباد الله ترقق القلب، ومن كان رقيق القلب، عطف على اليتيم والمسكين، واستكثر من فعل الخير بالصدقة.

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء مبشراً بهم، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ﴾ (١٨) أي أولئك المتصفون بهذه الصفات هم من أصحاب اليمين، وهم أصحاب الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ﴾ (٢٧) فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ ﴿١٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِيلٍ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الشيخان والترمذي عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهَمَ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُتِحَ مَرْفُوعَةٌ ﴿٣٤﴾ [الواقعة: ٢٧/٥٦-٣٤].

ثم ذكر أصداد هؤلاء للمقارنة والعبرة، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي والذين جحدوا بآياتنا التنزيلية والآيات الكونية الدالة على قدرتنا، هم أصحاب الشمال، وعليهم نار مطبقة مغلقة، وأصحاب الشمال هم أهل النار المشؤومة كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمْرٍ وَجِيمٍ ﴿٤٢﴾ وظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١/٤٤-٤٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - جيء بآيات ﴿الَّذِي يَجْعَلُ لَّمُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ للتذكير بنعم الله تعالى على الإنسان من البصر والنطق والجمال والعقل والفكر المميز بين الحق والباطل وبيان طريقي الخير والشر، وللدلالة على كمال قدرة الله تعالى، وبيان مبدأ اختيار الإنسان للإيمان والكفر أو السعادة والشقاوة أو الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٣/٧٦].

٢ - إن هذه النعم تقتضي الشكر عليها والاستعداد للنجاة في الآخرة؛ بالإيمان والعمل الصالح الشامل للتواصي بالصبر على التكليف الشرعية؛ بطاعة الله، وعن معصيته وعلى البلايا والحزن، والتواصي بالمرخة على الخلق أي التعاطف والتراحم، وتحرير الرقاب (العبيد) وإطعام اليتامى والأرامل والمساكين. وإخراج المال في وقت القحط والضرورة والجوع أثقل على النفس، وأوجب للأجر، لذا قال: ﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ كقوله: ﴿وَأَنَّى الْمَالُ عَلَى

﴿حَبِيبٌ﴾ [البقرة: ١٧٧/٢] وقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ وَسَكِينًا﴾ [الإنسان: ٨/٧٦].

والإيمان شرط قبول هذه الأعمال الخيرية، وإنما آخر للترقية من الأدنى إلى الأعلى، والترتيب ذكري، لا زمني.

وهؤلاء أصحاب اليمين أهل الجنة، وهم الذين يُؤْتُونَ كتبهم بإيمانهم.

ويلاحظ أنه ذكر في باب الكمال أمرين: فك الرقبة والإطعام، والإيمان، وفي باب التكميل شيئين: التواصي بالصبر على الوظائف الدينية، والتواصي بالتراحم، وكل من النوعين مشتمل على تعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله، إلا أنه في الأول قدم جانب الخلق، وفي الثاني قدم جانب الحق^(١).

٣ - ذكر الله تعالى للمقابلة والمقارنة والعظة أصحاب الشمال بعد أصحاب اليمين، والفريق الأول هم الذين كفروا بالقرآن، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، ومصيرهم إلى النار التي تطبق وتغلق أبوابها عليهم.

(١) تفسير الرازي: ١٨٧/٣١، غرائب القرآن: ١٠٢/٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبُرْجِ

مكية، وهي خمس عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الشمس لافتتاحها بالقسم الإلهي بالشمس المنيرة المضيئة
لآفاق النهار.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

١ - ختم الله سبحانه سورة البلد بتعريف أصحاب الميمنة وأصحاب
المشأمة، ثم أوضح المراد من الفريقين في سورة الشمس بعمل كل منهما حيث
قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝﴾.

٢ - أبان الله تعالى في آخر آيات السورة السابقة مصير أو مآل الكفار في
الآخرة وهو النار، وذكر تعالى في أواخر هذه السورة عقاب بعض الكفار في
الدنيا، وهو الهلاك، فاختمت السابقة بشيء من أحوال الكفار في الآخرة،
واختمت هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة الكلام عن موضوعين مهمين هما:

١ - الإقسام بال مخلوقات الكونية العظيمة في العالم العلوي والسفلي وآلة التفكير في ذلك وهو النفس على أحوال النفس الإنسانية، ودور الإنسان في تهذيبها، وتعويدها الأخلاق الفاضلة ليفوز وينجو، أو إهمالها وتركها بحسب هواها فيخيب.

٢ - ضرب المثل بتمود لمن دسّ نفسه وأهملها، فتمادت في الطغيان، فتزل بها العقاب الشديد وأهلكها ودمرها عياناً في الدنيا.

والخلاصة: المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات، والتحذير من المعاصي.

جزاء إصلاح النفس وإهمالها

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩﴾

الإعراب:

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ①﴾ الواو الأولى واو القسم، وسائر الواوات عطف عليها، وجواب القسم: إما مقدر، وهو لتبعثن، أو هو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ⑨﴾ أي لقد أفلح من زكاها، وحذفت اللام لطول الكلام. وقال الزمخشري: تقدير الجواب: ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدن على ثمود، أي أطبق عليهم العذاب؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ⑨﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء.

﴿إِذَا﴾ في المواضع الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم.

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَمَا﴾ إما مصدرية، أي وبنائها، أو بمعنى الذي، أي والذي بناها، وهو الأحسن، أو بمعنى (مَنْ) أي ومن بناها، وقد جاءت (ما) بمعنى (من) قال أهل الحجاز للرد: سبحان ما سُبِّحَتْ له، أي سبحان من سُبِّحَتْ له.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٦﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٥﴾ ﴿دَسَّاهَا﴾ أصله: دَسَّسَهَا، فاجتمعت الأمثال، فوجد الاستثقال، فأبدل من السين الأخيرة ياء، كما قالوا: قَضَيْتَ أَظْفَارِي، في قصص، فصار (دسيها) ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

البلاغة:

﴿وَالشَّمْسِ﴾ ﴿وَالْقَمَرِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿وَاللَّيْلِ﴾ ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وبين ﴿مُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ ﴿٢﴾ مقابلة بينها وبين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ﴿٤﴾ وكذا بين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٦﴾ وبين ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿١٥﴾. والطباق والمقابلة من المحسنات البديعية، كما هو معروف.

في السورة كلها سجع مرصع، وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿وَضَحَّاهَا﴾ قال مجاهد: هو ارتفاع الضوء وكماله، وقال أبو حيان: المعروف في اللغة أن الضحى هو بعيد طلوع الشمس قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحَاء - بالمد وفتح الصاد: إلى الزوال. ﴿لَنَلَّهَا﴾ تبعها، أي إن القمر يتبع الشمس طالماً عند غروبها. ﴿جَلَّاهَا﴾ أي جلى الشمس وكشفها وأتم وضوحها.

﴿يَفْشَنَهَا﴾ يَغْشَى الشمس فيغطي ضوءها بظلمته، أي يزيله ويحجبه. ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ كل ما علاك وارتفع فوق رأسك فهو سماء، والمراد به الكون الذي فوقك، وفيه الكواكب. ﴿وَمَا بَنَلَهَا﴾ أي ومن رفعها، وجعل كل كوكب بمنزلة لبنة من بناء سقف، قال الزمخشري والبيضاوي: وإنما أوثرت (ما) على (من) لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها. ﴿طَهَّنَهَا﴾ بسطها، مثل دحاها.

﴿سَوَّيَهَا﴾ أحكم خلقتها وتسويتها وتعديل أعضائها بخلق القوى والغرائز فيها، وجعل وظيفة لكل منها. ﴿فَأَلَّهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ عَرَّفَهَا وأفهمها، وبيَّن لها طريق الخير والشر. والفجور: الفسوق والشر وكل ما يؤدي إلى الخسارة والهلاك. والتقوى: التزام جادة الاستقامة، وإتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة.

﴿أَفْلَحَ﴾ فاز ونجا وأدرك المطلوب. ﴿مَنْ زَكَّيَهَا﴾ طهرها من الذنوب، وهذبها ونمّاها بالعلم والعمل، وهو جواب القسم. ﴿خَابَ﴾ خسر. ﴿دَسَّنَهَا﴾ أهمل تهذيبها، والتدسية: النقص والإخفاء، فمن فعل الشر والمعصية، أنقص نفسه عن مرتبة الكمال، وأخفاها بالذنوب والمعاصي، وهي ضدّ التزكية.

التفسير والبيان:

أقسم الله تعالى في مطلع هذه السورة بسبعة أشياء، فقال:

١ - ٢ - ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ١ ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ ٢ أي أقسم بالشمس المضيئة نفسها، سواء غابت أم طلعت؛ لأنها شيء عظيم، أبدعها الله، وأقسم بضوئها وضحاها، وهو وقت ارتفاع الشمس بعد طلوعها إذا تمّ ضَوْؤها؛ لأنه مبعث حياة الأحياء.

وأقسم بالقمر المنير إذا تبع الشمس في الطلوع بعد غروبها، وبخاصة في

الليالي البيض: وهي الليالي الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة وقت امتلائه وصيرورته بديراً بعد غروب الشمس إلى الفجر. وهذا قسم بالضوء وقت الليل كله.

٣ - ٤ - ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ۖ﴾ ② ﴿وَأَثَلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۖ﴾ ③ أي وأقسم بالنهار إذا جلى الشمس وكشفها وأظهر تمامها، ففي اكتمال النهار كمال وضوح الشمس، وأقسم بالليل إذا يغشى الشمس ويغطي ضوءها بظلمته، فيزيل الضوء وتغيب الشمس، وتظلم الدنيا في نصف الكرة الأرضية، ثم تطلع في النصف الآخر.

وفي هذا التبدل والتغير رد على المشركين الذين يؤلهون الكواكب، والشوية الذين يقولون بأن للعالم إلهين اثنين: النور والظلمة؛ لأن الإله لا يغيب ولا يتبدل حاله.

وبعد التنويه بعظم هذه الأشياء الكونية، ذكر الله تعالى صفات حدوثها، فقال:

٥ - ٦ - ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۖ﴾ ④ ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ۖ﴾ ⑤ أي وأقسم بالسماء وبناء الله تعالى لها بالكواكب، كأن كل كوكب لبنة في سقف، أو قبة تحيط بالأرض وأهلها. وأقسم بالأرض كوكب الحياة البشرية، والذي بسطها من كل جانب، وجعلها ممهدة موطأة للسكنى مثل قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَّاهَا ۖ﴾ ⑥ [النازعات: ٣٠/٧٩] أي بسطها، والطحو كالدحو وهو البسط، ثم مكَّن الناس من الانتفاع بها ظاهراً بالنبات، وباطناً بالمعادن والثروات. ونظير الآية: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢/٢].

وختم الأشياء المحلوف بها بالنفس البشرية التي خلقت هذه الأشياء من أجلها، وكونها أداة الانتفاع بها ووسيلة ترقى الحياة وتقدمها، فقال:

٧ - ﴿وَفَقِيرٌ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلْهَمْنَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ (٨) أي وأقسم بالنفس الإنسانية، والذي خلقها سوية، مستقيمة، على الفطرة القويمة، وتسويتها: إعطاء قواها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن، وهي الحواس الظاهرة والباطنة، والقوى الطبيعية، أي تعديل أعضائها، وتزويدها بطاقات وقوى ظاهرية وباطنية متعددة، وتحديد وظيفة لكل عضو فيها.

ثم إنه تعالى عرّف هذه النفس وأفهمها ما هو شر وفجور، وما هو خير وتقوى، وما فيهما من قبح وحسن، لتمييز الخير من الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (٩) [البلد: ١٠/٩٠] أي علمناه وعرفناه سلوك طريق الخير والشر. ويعضده ما بعده: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۚ﴾ (١٠) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١١). وهذا قول المعتزلة، وقال أهل السنة: الضميران في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمْنَاهَا﴾ وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ﴾ لله تعالى، والمعنى: قد سعدت نفس زكاها الله تعالى، وخلقها طاهرة، وخابت نفس دساها الله، وخلقها كافرة فاجرة^(١).

والظاهر التفسير الأول، بدليل ما قال ابن كثير: ﴿فَأَلْهَمْنَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) : أي فأرشدنا إلى فجورها وتقواها، أي بين لها ذلك، وهداها إلى ما قُدِّر لها^(٢). وقال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمْنَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) : بين لها الخير والشر^(٣). وهذا دليل على مبدأ الاختيار للإنسان.

ثم ذكر الله تعالى جزاء ما تختاره النفس، فقال:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۚ﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) أي قد فاز بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب من زكى نفسه فهذبها ونمّاها وأعلاها بالتقوى والعمل الصالح، وقد خسر من أضل نفسه وأغواها وأهلها وأخلها، ولم

(١) وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبي.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥١٦/٤

(٣) المرجع السابق، وهذا أيضاً قول مجاهد وقتادة والضحاك والثوري.

بهذهها، ولم يتعهدوا بالطاعة والعمل الصالح. وهذا جواب القسم الذي افتتحت به السورة.

روى الطبراني عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ وقف وقال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاها».

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

وروى الإمام أحمد عن عائشة: أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقعت عليه، وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

وروى أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والحرم والجبن، والبخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها» قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن، ونحن نعلمكموها.

فقه الحياة أو الأحكام:

أقسم الله تعالى بسبعة أشياء: لقد أفلح وفاز من زكى نفسه بالطاعة، وخسرت نفس أهملها صاحبها وتركها تنغمس في المعصية.

والأشياء السبعة: هي الشمس وضوءها وإشراقها، وهو قسم ثان، والقمر إذا تبع بالطلوع الشمس بعد غروبها، فاستوى واستدار، وكان مثلها

في الضياء والنور، والنهار إذا جلى أو كشف الشمس، أي أبان بضوئه جرمها، والليل إذا يغشى الشمس، أي يذهب بضوئها عند غروبها، والسماء وبنائها وبانيها وهو الله، والأرض ومن طحاها أي بسطها، والنفس الإنسانية وتسويتها ومن سواها وهو الله عز وجل، بأن عدلها وزودها بالأعضاء المناسبة، وبالقوى العضلية والفكرية والحسية، وعرفها طريق الفجور والتقوى، وسلوك سبيل الخير والشر، والطاعة والمعصية.

وقد أقسم الله عز وجل بهذه المخلوقات لما فيها من عجائب الصنعة الدالة عليه، وأراد أن ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة، حتى يتأمل المكلف فيها، ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى^(١).

العظة بقصة ثمود

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ۖ إِذِ ابْتِغَتْ أَشْقَاهَا ۖ ﴿١١﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ ﴿١٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِشِّيهِمْ فُسُونَهَا ۖ ﴿١٣﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۖ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَا يَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (فلا يخاف).

الإعراب:

﴿فُسُونَهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۖ ﴿١٤﴾ سَوَّاهَا: تعود على الدميمة، ﴿وَلَا

يَخَافُ عُقْبَهَا ﴿١٥﴾ في موضع نصب على الحال، وتقديره: سواها غير خائف عاقبتها.

البلاغة:

﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ تهويل، فالتعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.

المفردات اللغوية:

﴿يَطْعُونَهَا﴾ أي بسبب طغيانها، والطغوى والطغيان: تجاوز الحد المعتاد.
 ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ﴾ حين أسرع أو قام، وهو ظرف لكذبت أو طغوى. ﴿أَشَقْنَاهَا﴾ أشقى ثمود، وهو قَدَارُ بن سالف، الشخص الذي عقر الناقة. ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام. ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي ذروا ناقة الله، واحذروا التعرض لها وعقرها. ﴿وَسَقَيْنَاهَا﴾ شربها الخاص بها في يومها، فلا تذودوها عنها.
 ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم من حلول العذاب إن فعلوا. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نحروها أو ذبحوها. ﴿فَدَمْدَمَ﴾ فأطبق عليهم العذاب. ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ سوى الدمدمة عليهم أي عمهم بها، فلم يفلت منها صغير ولا كبير. ﴿عُقْبَهَا﴾ عاقبتها وتبعنها. أي عاقبة الدمدمة.

للمناسبة:

بعد الحلف بأشياء عظيمة على فوز من زكى نفسه وهذبا وطهرها من الذنوب، وخيبة وخسار من أهملها وتركها تعيث في الأرض فساداً بفعل المعاصي، وترك فعل الخير، وعظهم الله تعالى بقصة ثمود، لقربها من ديار العرب، ليحذروا معاندة الرسول ﷺ وتكذيبه، وإلا حلّ بهم ما حلّ بأمثالهم من الأمم السابقة.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، فيقول:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۚ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيها صالحاً عليه السلام بسبب طغيانها وبغيها، فإنه الذي حملها على التكذيب. والطغيان: مجاوزة الحد في المعاصي.

وذلك حين قام أشقى ثمود، وهو قُدار بن سالف، أحيمر ثمود، فعقر الناقة، بتحريض قومه ورضاهم بما يفعل، فكان عقرها دليلاً على تكذيبهم جميعاً لنبيهم، وبرهاناً على صدق رسالته إذ حلّ بهم العذاب الذي أوعدهم به.

ونظير الآية: ﴿فَادَّأَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۚ﴾ [القمر: ٢٩/٥٤]. وكان أشقى ثمود عزيزاً فيهم، شريفاً في قومه، نسبياً رئيساً مطاعاً، كما ذكر أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال: خطب رسول الله ﷺ، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «إذ انبعث أشقاها، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة».

ثم يذكر الله تعالى ما توعدهم به رسولهم على فعلهم، فيقول:

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ﴾ أي فقال لهم -أي للجماعة الأشقياء- النبي صالح عليه السلام: ذروا ناقة الله واحذروا التعرض لها أو أن تمسوها بسوء، واتركوها وتناولوها شربها من الماء المخصص لها، فإن لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم، ولا تتعرضوا لها يوم شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ۖ﴾ أي فكذبوه في تحذيره إياهم من العذاب، ولم يبالوا بما أُنذِرهم به من العقاب، فعقر الأشقى الناقة، وجميع قومه رضوا بما فعل. أو كذبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة آية لهم وحجة عليهم.

ثم يبين ما عوقبوا به، فيقول:

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (١٥) أي فأتى عليهم العذاب وأهلكهم، وغضب عليهم فدمر عليهم، فسوى الدميمة عليهم، وعمَّهم بها، أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها، دمدم الله عليهم بذنوبهم، فسواها.

وقد فعل الله ذلك بهم، وأهلكهم، غير خائف هذا الأشقى من عاقبة ولا تبعة، أي فإنه تجرأ على عقر الناقة دون أن يخاف الذي عقرها عاقبة إهلاك قومه، وعاقبة ما صنع، والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها، وهو كالآمن من نزول الهلاك به ويقومه.

وقال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة. قال ابن كثير: وهذا القول أولى لدلالة السياق عليه. وقال أبو حيان: الظاهر عود الضمير إلى أقرب مذكور، وهو ﴿رَبُّهُمْ﴾ أي لا دَرَكَ عليه تعالى في فعله بهم، لا يسأل عما يفعل، قال ابن عباس والحسن، وفيه ذم لهم وتعقبة لأنثاهم. والمراد أن الله لا يخاف عاقبة ما فعل بهم؛ لأنه عادل في حكمه. وقال الزمخشري: ولا يخاف الله عاقبتها وتبعتها، كما يخاف كل معاقب من الملوك، فيبقى بعض الإبقاء. ويجوز أن يكون الضمير لثمود، على معنى: فسواها بالأرض أو في الهلاك، ولا يخاف عقبي هلاكها.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا خبر قاطع من الله العلي القدير، أخبرنا به عن قبيلة ثمود التي تجاوزت الحد بطغيانها وهو خروجها عن الحد في العصيان. وذلك حين نهض أشقاها لعقر الناقة، واسمه قُدار بن سالف.

ولكنَّ رسولهم صالحاً عليه السلام حذرهم عاقبة فعلهم، وقال لهم: احذروا عقراً ناقة الله، وذروها، كما قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣/٧] وذروها وشربها المخصص لها في يومها. فإنهم لما اقترحوا الناقة، وأخرجها الله لهم من الصخرة، جعل لهم شرب يوم من برهم، ولها شرب يوم مكان ذلك، فشقَّ عليهم.

وكذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم: «إنكم تُعَذِّبُونَ إن عقرتموها» فعقرها الأشقى، وأضيف العقر إلى الكل بقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لأنهم رضوا بفعله.

والجُرْم وهو العَقْر وتكذيب النبي يستدعيان بلا شك عقاباً صارماً، فكان العقاب أن أهلكهم الله، وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر، وسوى عليهم الأرض، أو سوى الدمة والإهلاك عليهم؛ لأن الصيحة أهلكتهم فأنت على صغيرهم وكبيرهم.

والعبرة من ذلك أن الله فعل بهم ما فعل غير خائف أن تلحقه تبعه الدمة من أحد، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. وهاء ﴿عُقِبَهَا﴾ ترجع إلى الفعلة. وقال السدي والضحاك والكلبي: ترجع إلى العاقر، أي لم يخف الذي عقرها عقبي ما صنع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مكية، وهي إحدى وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الليل لافتتاحها بإقسام الله تعالى بالليل إذا يغشى، أي يغطي الكون بظلامه، ويستر الشمس والنهار والأرض والوجود بمجابه.

مناسبتها لما قبلها:

لما ذكر في سورة الشمس قبلها: ﴿فَدَّ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝٩﴾ وَقَدْ حَاطَ مَنْ دَسَّنَهَا ۝١٠﴾ ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح، وما تحصل به الخيبة بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۝٥﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨﴾ فهي كالتفصيل لما قبلها.

ولما كانت سورة الليل نازلة في بخیل، افتتحت بالليل الذي هو ظلمة.

ما اشتملت عليه السورة:

محور السورة سعي الإنسان وعمله وجزاؤه في الآخرة.

افتتحت السورة بالقسم بالليل والنهار وخالق الذكر والأنثى على أن عمل الناس مختلف، فمنهم التقي ومنهم الشقي، ومنهم المؤمن ومنهم الفاجر: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا يَبَسُّ ۝١﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أوضحت أن الناس فريقان، وحددت منهمج وطريق كل فريق، وجزاء كل منهم في الآخرة: أهل الإيمان والسعادة والجنة: وهم الذين بذلوا المال وصدقوا بوعد الله في الآخرة، وأهل الكفر والشقاوة والنار: وهم الذين بخلوا بالأموال واستغنوا عن ربهم عز وجل، وأنكروا ما وعد الله به من الجنة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) [الآيات: ٥-١٠].

وأعقبت ذلك ببيان عدم جدوى المال في الآخرة، وأن الله واضع دستور الهداية، وأنه مالك الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ (١١) [الآيات: ١١-١٣].

ودلّ هذا التحذير من عذاب الله والإنذار بالنار على أنه العقاب المستحق لكل من كذب بآيات الله تعالى وبرسوله ﷺ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) [الآيات: ١٤-١٦].

يبدل ماله في طرق الخير مخلصاً لوجه الله، دون قصد مكافأة أحد، ولا لمصلحة دنيوية عند إنسان، وذلكم المثال هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَلْفَى﴾ (١٧) [الآيات: ١٧-٢١].

فضلها:

تقدم حديث جابر في الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «فَهَلَّا صَلَّيْتَ بِ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (٢)». «

اختلاف مسعى الناس

﴿وَأَنبَلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَنَالَ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪﴾

الإعراب:

﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ﴿إِذَا﴾ في الموضعين: لجرد الظرفية، والعامل فيها فعل القسم.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③﴾ (ما) : فيها ثلاثة أوجه كما في السورة السابقة.

﴿وَمَا بَلَّغَهَا﴾ إما أن تكون مصدرية، أو بمعنى الذي وهو الأولى، أو بمعنى (من). ويموز الجر في الذكر والأنثى على البدل من (ما).

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ جواب القسم.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ (ما) : نافية.

البلاغة:

﴿وَأَنبَلِ﴾ و﴿وَالنَّهَارِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ وبين (اليسرى، والعسرى) وبين ﴿وَصَدَّقَ﴾ و﴿وَكَذَّبَ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَنَالَ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑦﴾ و﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩﴾ بينهما مقابلة، والمقابلة والطباق من المحسنات البديعية.

﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْإِسْرَى ٧﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٥﴾ حذف المفعول لإفادة التعميم وإطالة التأمل.

المفردات اللغوية:

﴿يَغْشَى﴾ يغطي كل شيء بظلامه. ﴿تَجَلَّى﴾ ظهر وانكشف. ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٢﴾ أي والقادر الذي خلق آدم وحواء وكل ذكر وأنثى في الإنسان والحيوان والنبات. ﴿سَعْيَكُمْ﴾ عملكم أو مسعاكم. ﴿لَشَقَّى﴾ مختلف متفرق، جمع شتيت: وهو المتباعد عن غيره. واختلاف المنهج والمسعى إما بالعمل للجنة بالطاعة، أو للنار بالمعصية.

﴿أَعْطَى﴾ بذل المال. ﴿وَاتَّقَى﴾ التزم الأوامر وفعل الخير، واجتنب النواهي والشر. ﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ٦﴾ بالكلمة أو الخصلة الحسنى - صفة تأنيث الأحسن، وهي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، واللجنة والثواب، وكل فضيلة. ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْإِسْرَى ٧﴾ نهيه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون والتي تؤدي إلى الخير، وذلك في الدنيا والآخرة، كدخول الجنة.

﴿يَحِلَّ﴾ أمسك المال وشح به ولم يؤد حق الله فيه. ﴿وَأَسْتَغْنَى﴾ عن ربه عز وجل وعن الثواب. ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْعُسْرَى ١٠﴾ نهيه للحالة السيئة في الدنيا والآخرة التي لا تنتج إلا شراً. ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ لا يفيد ماله وغناه. ﴿إِذَا رَدَّتْ﴾ هوى وسقط في النار أو في القبر.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾: أخرج ابن جرير والحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز

ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه (أبو قحافة): أي بني! أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء، يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك، فقال: أي أبت، إنما أريد ما عند الله، فنزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) إلى آخر السورة.

نزل الآية (٨):

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخَلْ﴾: قال ابن عباس: نزلت في أمية بن خلف.

التفسير والبيان:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) أي أقسم بالليل حين يغطي بظلامه كل ما كان مضيئاً، وبالنهار متى ظهر وانكشف ووضح، لزوال ظلمة الليل، والقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى من جميع الأجناس، من الناس وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨) [النبا: ٨/٧٨].

ولم يذكر مفعول ﴿يَغْشَى﴾ للعلم به، وقيل: يغشى النهار، أو الخلائق أو الأرض أو كل شيء بظلمته.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (٤) هذا هو المحلوف عليه جواب القسم، أي إن أعمال العباد مختلفة متباعدة، فمن فاعل خيراً، ومن فاعل شراً، وبعض الأعمال ضلال وبعضها هدى، وبعضها يوجب الجنة، وبعضها يوجب النار.

ويقرب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) [الحشر: ٢٠/٥٩] وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) [السجدة: ١٨/٣٢] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَجْعَلُهُمْ وَمَآئِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١١) [الجاثية: ٢١/٤٥].

ثم فصل أحوال الناس وقسمهم فريقين، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ⑦﴾ أي فأما من بذل ماله في وجوه الخير، واتقى محارم الله التي نهى عنها، وصدق بموعود الله الذي وعده عوضاً عن الإيمان والتفقه الخيرية، فإننا نسهل عليه كل ما كلف به من الأفعال والتروك، ونهيته للخطئة السهلة التي تؤدي به إلى الخير، ونيسر له الإنفاق في سبيل الخير والعمل بطاعة الله.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪﴾ أي وأما من بخل بماله، فلم يبذله في سبيل الخير، واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وزهد في الأجر والثواب وفضل الله، وكذب بالجزاء في الدار الآخرة، فسنهيته للخصلة العسرى والطريقة الصعبة التي لا تنتج إلا شراً، حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، حتى يصل إلى النار، ولا يغني عنه شيئاً ماله الذي بخل به، إذا سقط في جهنم. ويلاحظ أن التيسير والبشارة في الأصل على الشيء المفرح والسار، لكن إذا جمع في الكلام بين خير وشر، جاء التيسير والبشارة فيهما جميعاً.

أخرج البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑩﴾. وهناك أحاديث كثيرة في هذا المعنى^(١).

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٥١٨-٥١٩

فقه الحياة أو الأحكام:

أقسم الله عز وجل بالليل حينما يغطي كل شيء بظلامه، وبالنهار إذا انكشف ووضح وظهر، وبالذي خلق الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل، على أن عمل الناس مختلف في الجزاء، فبعضهم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاص، وبعضهم في هدى أو في ضلال، وبعضهم ساع في فكاك نفسه من النار، وبعضهم بائع نفسه فموبقها في المعاصي، كما ذكر الثعلبي من قوله ﷺ: «الناس غاديان: فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها» .

ثم أوضح سبحانه معنى اختلاف الأعمال المذكور من العاقبة المحمودة والمذمومة، والثواب والعقاب، وذكر فريقين:

الأول - من بذل ماله في سبيل الله، وأعطى حق الله عليه، واتقى المحارم والمنكرات، وصدَّق بوعد الله بالعوض على عطائه، فالله يهيئ له الطريق اليسرى السهلة للوصول إلى غايته، ويرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها. جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يزلمان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» .

والثاني - من ضنَّ بما عنده، فلم يبذل خيراً، وكذلك بتعويض الله، فالله يسهل طريقه للشر، ويعتبر عليه أسباب الخير والصلاح، حتى يصعب عليه فعلها.

قال العلماء: ثبت بهذه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَبْخُلْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣/٢] وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْأَنكَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤/٢] إلى غير ذلك من الآيات أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أردلها، والجواد: هو الذي يعطي في موضع العطاء، والبخل: هو الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من استفاد بما

يعطي أجراً وهداً، فهو الجواد، وكل من استحق ذمّاً أو عقاباً، فهو البخيل، والمسرف المذموم، وهو من المبذرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجر عليهم^(١).

ولا يفيد هذا البخيل ماله إذا مات أو صار في القبر أو سقط في جهنم.

قد أعذر من أنذر

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۚ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۚ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۖ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجَرَّى ۖ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۚ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (١٣-٢٠)

الإعراب:

﴿يَتَزَكَّى﴾ بدل من ﴿يُؤْتِي﴾ أو حال من فاعله.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠) ﴿ابْتِغَاءَ﴾ منصوب لأنه استثناء منقطع، وهو قول أكثر النحويين؛ لأن الابتغاء ليس من جنس النعمة، أي لكن ابتغاء.

البلاغة:

﴿الْأَشْقَى﴾ و﴿الْأَتْقَى﴾ بينهما طباق.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٣) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ (١٧) سجع رصين غير متكلف.

(١) تفسير القرطبي: ٨٤/٢٠-٨٥

لفردات اللغوية:

﴿إِنَّ عَيْنًا لَّهْدَىٰ﴾ (١٢) علينا الإرشاد إلى الحق، بموجب قضائنا، أو بمقتضى حكمتنا. ﴿وَأَنَّ لَنَا لَآخِرَةً وَأَوَّلًا﴾ (١٣) أي الله الآخرة والدنيا، نعطي ما نشاء لمن نشاء، فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ، ولا يضرنا ترك الاهتداء. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم. ﴿تَلَّظَىٰ﴾ تتلظى أي تتوقد وتلهب. ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ لا يدخلها ولا يحترق بها إلى الأبد. ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الشقي الكافر كأي جهل وأمية بن خلف، أما الفاسق وإن دخلها فلا يلزمها.

﴿كَذَّبَ﴾ كذب النبي فيما جاء به. ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان والطاعة لربه. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يبعد عنها. ﴿الْأَتَقَى﴾ اتقى الكفر والمعاصي. ﴿يَتَزَكَّى﴾ يتطهر بأن يخرج به الله تعالى، لا رياء ولا سمعة، فيكون زاكياً عند الله. ﴿تُجَزَّى﴾ تكافأ وتجازى. ﴿إِلَّا﴾ لكن فعل ذلك. ﴿أَبْنَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أي طلب ثواب الله. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (١٤) بما يعطاه من الثواب في الجنة. والآية تشمل كل من فعل مثل هذا، فيبعد عن النار ويثاب.

سبب الغزول:

نزول الآية (١٧):

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن عروة: أن أبا بكر الصديق اعتق سبعة، كلهم يعذب في الله، وفيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (١٧) إلى آخر السورة.

نزول الآية (١٩):

﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ : روى عطاء عن ابن عباس قال: إن بلالاً لما أسلم، ذهب إلى الأصنام فسلح عليها، وكان عبداً لعبد الله بن جُذعان، فشكا إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم، ومئة من الإبل ينحرونها لأهلتهم، فأخذوه

وجعلوا يعذبونه في الرمضاء، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، فمرَّ به رسول الله ﷺ فقال: ينجيك أحدٌ أحدٌ. ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر: أن بلالاً يعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب، فابتاعه به.

فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَنْجِيهِ إِلَّا أَنْفَاءً وَجَدَ رَبُّهُ الْأَعْلَى﴾ (١). وأخرج البزار عن ابن الزبير قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تَنْجِيهِ﴾ (٢) إلى آخرها، في أبي بكر الصديق.

المناسبة:

بعد أن عرّف الله تعالى أن سعي الناس شتى في العواقب، وبين ما للمحسن من اليسرى، وما للمسيء من العسرى، أخبر أنه قد قام بما عليه من البيان والدلالة، والترغيب والترهيب، والإرشاد والهداية، وأعلم أنه مالك الدنيا والآخرة، ولا يزيد في ملكه اهتداء الناس، ولا يضره ترك اهتدائهم بهداه، ويعطي ما يشاء لمن يشاء، فتطلب سعادة الدارين منه.

ثم أنذر الناس جميعاً بعذاب النار، وأبان من يصلها ويحترق بها، ومن يبعد عنها ويسلم من عذابها، وقد أعذر من أنذر.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (١) أي علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، والحلال من الحرام، والحق من الباطل، والخير من الشر، من طريق الأنبياء وإنزال الكتب التي فيها تشريع الأحكام، وتبيان العقائد والعبادات والأخلاق وأنظمة المعاملات.

(١) أسباب النزول للنيسابوري: ص ٢٥٥ وما بعدها.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ (١٣) أي لنا كل ما في الآخرة، وكل ما في الدنيا، نتصرف به كيف نشاء، فمن أراد شيئاً من الدارين، فليطلبه منا، نهب ونعطي ما نشاء لمن نشاء، ولا يضرنا ترك الاهتداء بهدانا، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤهم، بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم أيها الناس. ومن ملك الدنيا والآخرة وكان هو المتصرف فيهما، كان هديه وشرعه هو الذي يجب اتباعه.

ثم حذر من سلوك طريق النار، فقال:

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى (١٦) أي لقد خوفتكم ناراً عظيمة شديدة تتوهج وتلهب، لا يدخلها ويذوق حرها إلا الكافر الذي كذب الحق الذي جاءت به الرسل، وكذب رسول الله ﷺ فيما جاء به عن ربه، وأعرض عن الإيمان بالله واتباع شرائعه وأحكامه، وطاعة أوامره.

وأبان سبيل النجاة من النار، فقال:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) أي وسيباعد عن النار المتقي للكفر والمعاصي اتقاء بالغاً، قال الواحدي كما مر: الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين، أي إنها نزلت فيه، وإلا فحكمها عام.

وهذا الأتقى هو الذي ينفق ماله ويعطيه في وجوه الخير، طالباً أن يكون عند الله زكياً متطهراً نقياً من الذنوب، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة، ولا مديحاً وثناء من الناس.

روى الإمام أحمد والبخاري عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: رجل توضع في أخمص قدميه جحرتان يغلي منهما دماغه» .

وروى مسلم الحديث بلفظ آخر: «إن أهون أهل النار عذاباً: من له نعلان

وشراكان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي الرجل، ما يريد أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً» .

وروى أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا شقي، قيل: ومن الشقي؟ قال: الذي لا يعمل بطاعة ولا يترك لله معصية» .

وروى أحمد أيضاً والبخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى، قالوا: ومن أبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» .

ثم ذكر صفة الإخلاص في العمل، فقال:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتَيْنَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ أي لا يتصدق بماله مقابل نعمة لأحد من الناس عليه، يكافئه عليها، وإنما يريد بذلك طلب رضوان الله ومثوبته، لا لمكافأة نعمة، وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم.

جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله، دعتة خزنة الجنة: يا عبد الله! هذا خير، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يُدعى منها ضرورة، فهل يُدعى منها كلها أحد؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يبين لهم كل ما هو رشاد وهداية موصلة إلى جنته ورضاه، وقد تعهد الله عز وجل بذلك لبيان أحكام الحلال والحرام، والطاعة والمعصية.

٢ - الله تعالى ملك الدنيا والآخرة، وهو المتصرف فيهما، ومانح ثوابهما، يعطي ما يشاء لمن يشاء، فمن طلبهما من غير مالكما ومن غير المتصرف فيهما، فقد أخطأ الطريق. ولا يضره عصيان العاصين، ولا ينفعه طاعة المطيعين، وإنما يعود ضره أو نفعه إليهم.

٣ - حذر الله تعالى بعد هذه البيانات الوافية من نار جهنم التي تتوهج وتتوقد، ولا يجد صلاحها وهو حرها على الدوام إلا الشقي الكافر الذي كذب نبي الله محمداً ﷺ، وأعرض عن الإيمان.

٤ - سيكون بعيداً من النار المتقي المعاصي، الخائف من عذاب الله، وصفة الأتقى أو المتقي: هو الذي يعطي ماله طالباً أن يكون عند الله زاكياً طاهراً متطهراً من الآثام والذنوب، لا يطلب بذلك رياء ولا سمعة، ولا مكافأة لأحد، بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله تعالى، قاصداً ثوابه ورضاه، ولسوف يرضى عن الله، ويرضى الله عنه، فيكون راضياً مرضياً. وهو وعد كريم من رب رحيم.

والخلاصة: أن كلاً من الأتقى والأشقى يشمل قسمين، فالأتقى: يشمل المؤمن البار الذي ابتعد عن الفواحش كلها، والمؤمن الذي يذنب أحياناً فيتوب ويندم، وثواب كل منهما الجنة.

والأشقى: يشمل الكافر الجاحد بالله وبرسله وبما أنزل عليه، والمسلم الذي آمن في قلبه بالله ورسله، ولكنه يصر على بعض المعاصي والسيئات ولا يتوب منها، وهذا دليل على نقص تصديقه، بدليل قوله ﷺ فيما أخرجه ابن ماجه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن».

والأول مغلّد في النار، والثاني معذب فيها على وفق مشيئة الله، ثم يخرج إلى الجنة. وأما صفة الأتقى والأشقى فهو كلام وارد على سبيل المبالغة.

قال الزمخشري: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، ف قيل: ﴿الْأَشَقَى﴾ وجعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: ﴿الْأَشَقَى﴾ وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه^(١).

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلا من شقي، قيل: ومن الشقي؟ قال: الذي لا يعمل لله تعالى طاعة، ولا يترك لله تعالى معصية».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الضُّحَى

مكية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الضحى تسمية لها باسم فاتحتها، حيث أقسم الله بالضحى: وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، تنوياً بهذا الوقت المهم الذي هو نور، ولأنها نزلت في شأن النبي ﷺ، فافتتحت بالضحى. ولما كانت سورة الليل نازلة في بخل، افتتحت بالليل.

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة متصلة بسورة الليل من وجهين:

١ - ختمت سورة الليل بوعد كريم من الله تعالى بإرضاء الأتقى في الآخرة، وقال تعالى في سورة الضحى مؤكداً وعده لنبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۖ﴾.

٢ - ذكر تعالى في السورة السابقة: ﴿وَسَيَجْنِبُهَا آلُكَ﴾ ثم عدد الله تعالى نعمه على سيد الأتقياء في هذه السورة وهو محمد ﷺ.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع سورة الضحى المكية الحديث عن شخصية النبي ﷺ. وقد تضمنت أربعة مقاصد:

١ - ابتدأت بالقسم الإلهي العظيم على أن الله عز وجل ما فلا رسوله ولا أبغضه، ولا هجره ولا تركه، وإنما هو محل العناية الربانية، وهو عظيم القدر عند الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۝٤﴾ [الآيات: ٤-١] .

٢ - بشره ربه بالعطاء الجَمِّ في الآخرة ومنه الشفاعة العظمى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝٥﴾ [الآية: ٥] .

٣ - عددت نعم الله على نبيه منذ صغره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَخَاشٍ ۝٦﴾ [الآيات: ٦-٨] .

٤ - ختمت بإيصائه بفضائل ثلاث: العطف على اليتيم، وصلة المسكين، وشكر النعمة العظمى وهي النبوة وغيرها من هذه النعم المذكورة: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الآيات: ٩-١١] .

فضلها:

ثبت عن الإمام الشافعي أنه يسن التكبير بأن يقول «الله أكبر» أو «الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر» عقب قراءة سورة ﴿وَالضُّحَى ۝١﴾ وخاتمة كل سورة بعدها. وذكر القراء في مناسبة التكبير: أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتّر مدة، ثم جاء الملك، فأوحى إليه: ﴿وَالضُّحَى ۝١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢﴾ السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً. قال ابن كثير: ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.

نعم الله تعالى على النبي محمد ﷺ

﴿وَالضُّحَى﴾ ١ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ ٢ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ٣ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ٤ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ٥ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَشَآوَى﴾ ٦ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ٧ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ٨ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٠ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١١ ﴿

الإعراب:

﴿وَالضُّحَى﴾ ١ قسم، وجواب القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ٣ والتوديع: مبالغة في الودع؛ لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك، وقرئ: ﴿وَدَّعَكَ﴾ أي تركك. و﴿وَمَا قَلَى﴾ أي ما قلاك، أي ما أبغضك، فحذف الكاف وهي مفعول، كما حذف الكاف التي هي المفعول من قوله: ﴿فَشَآوَى﴾ أي فأواك، وفي قوله: ﴿فَأَغْنَى﴾ أي فأغناك، والحذف للتخفيف كثير. وهنا حذفت المفاعيل رعاية للفواصل.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ دخلت اللام على (سوف) دون السين؛ لأن (سوف) أشبهت الاسم؛ لأنها على ثلاثة أحرف. ولما دخلت اللام عليها علم أنها لام قسم، لا لام ابتداء، لأن لام الابتداء لا تدخل على (سوف). و﴿يُعْطِيكَ﴾ فعل متعد إلى مفعولين، وحذف هنا أحدهما، وتقديره: ولسوف يعطيك ربك ما تريده، فترضى. وهو من الأفعال التي يجوز الاقتصار فيها على أحد المفعولين دون الآخر، فيجوز أن تقول في (أعطيت زيدا) درهماً: (أعطيت زيدا).

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ ١٠ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ١١ ﴿الْيَتِيمَ﴾ مفعول ﴿تَقْهَرْ﴾، و﴿السَّائِلَ﴾ مفعول ﴿تَنْهَرْ﴾، والباء في ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ تتعلق بـ

﴿فَحَدِّثْ﴾ والفاء في ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، و﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾، و﴿فَحَدِّثْ﴾ جواب (أما) في هذه المواضع؛ لأن فيها معنى الشرط.

البلاغة:

﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾ ﴿الْأُولَى﴾ بينهما طباق، أي بين الآخرة والدنيا.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَخَافَ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ مقابلة بينها وبين ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

﴿تَقْهَرْ﴾ و﴿تَنْهَرْ﴾ جناس ناقص لتغير الحرف الثاني من الكلمة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَخَافَ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿وَالضُّحَى﴾ وقت ارتفاع الشمس أول النهار. ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ سكن وغطى بظلامه الأشياء. وإنما قدم ذكر الليل في السورة السابقة، وأخره في هذه السورة، للتنويه بفضيلة كل واحد من الليل والنهار، فالليل له فضيلة سبق، وللنهار فضيلة النور، فيقدم هذا تارة، وهذا تارة أخرى. وإنما حلف بالضحى والليل فقط للتنويه بقيمة الزمان الذي يدل عليه مرور النهار والليل. وخص وقت الضحى بالذكر؛ لأنه وقت اجتماع الناس، وكمال الأنس بعد وحشة زمان الليل. وذكر الضحى وهو ساعة من النهار، وذكر الليل كله إشارة إلى أن ساعة من النهار في الإنتاج توازي جميع الليل، كما أن محمداً إذا قورن بغيره يوازي جميع الأنبياء^(١).

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ما قطعك أو فارقك قطع الموْدَع أو مفارقتة، وقرئ (وَدَّعَكَ)

بالتخفيف، أي تركك. وهو جواب القسم. ﴿وَمَا قَلَى﴾ ما أبغضك ربك، والْقَلَى: شدة الكُرْه، وقد نزل هذا لما قال الكفار عند تأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً: إن ربه ودعه وقلاه. ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ لما فيها من الكرامات، ولأنها باقية خالصة عن الشوائب، والدنيا فانية مشوبة بالمضار. وهذا تنويه بقدر النبي ﷺ وإعداده للنبوّة، ومواصلته بالوحي والكرامة في الدنيا، والإخبار بعلو منزلته في الآخرة، فإنه لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ﴿٥﴾ يعطيك ربك في الآخرة من الخيرات عطاء جزيلاً، فترضى به، وهو وعد شامل بالعطاء الجزيل، ومنه الشفاعة العظمى، فقال ﷺ فيما رواه الخطيب في تلخيص المشابه: «إذن لا أَرْضَى، وواحد من أمتي في النار». وهذا تمام جواب القسم بمبتئين بعد منفيين.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً﴾ استفهام تقرير، أي وجدك ﴿يَتِيماً﴾ بفقد أبيك قبل ولادتك أو بعدها. ﴿فَتَأْتَى﴾ ضمك إلى عمك أبي طالب. وهذا وما بعده تعداد لما أنعم الله به على نبيه محمد ﷺ، تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى، يحسن إليه فيما يستقبل. ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ﴿٦﴾ لا يمكن حمل الضلال هنا على ما يقابل الهدى؛ لأن الأنبياء معصومون من ذلك، قال العلماء: إنه ما كفر بالله طرفة عين، وإنما المراد بالضلال: الخطأ في معرفة أحكام الشرائع، فهده إلى مناهجها وكيفياتها. والمراد: الحيدة عن معالم الشريعة الحنيفية، كقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢/٤٢].

﴿عَابِلًا﴾ فقيراً. ﴿فَأَغْنَى﴾ بالقناعة بربح التجارة وغيرها، جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة: «ليس

الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس». ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تستدله وتستضعفه بأخذ ماله أو بتسخيره ونحو ذلك. ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ تزرجه لفقره. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي نعمته عليك بالنبوة وغيرها. ﴿فَحَدِّثْ﴾ أخبر واشكر مولاك.

سبب النزول:

نزول الآية (١) وما بعدها:

أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝٣﴾.

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فقال المشركون: قد ودَّع محمد، فنزلت.

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودَّعك وفلاك، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى ۝١﴾ الآيات.

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد: أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد فلاك، فنزلت. والخبر مرسل، ورواته ثقات. قال الحافظ ابن حجر: فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل قالته شماتة، وخديجة قالته توجعاً.

والخلاصة: أبطأ جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، فقال المشركون: فلاه الله وودَّعه؛ فنزلت الآية.

نزول الآية (٤):

﴿وَلِلْآخِرَةِ حَيْرٌ﴾: أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال

وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نسط لك على الحصار شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب، ظلٌّ تحت شجرة، ثم راح وتركها».

وبشره بعطاء جزيل فقال:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝﴾ أي ولسوف يمنحك ربك عطاء جزيلاً ونعمة كبيرة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو الفتح في الدين، وأما في الآخرة فهو الثواب والحوض والشفاعة لأمتك، فترضى به. وهذا دليل على تحقيق العلو والسمو في الدارين، فيعلو دينه على كل الأديان، ويرتفع قدره على جميع الأنبياء والناس بالشفاعة العظمى يوم العرض الأكبر يوم القيامة. وإنما أتى بحرف التوكيد والتأخير، ليفيد بأن العطاء كائن لا محالة، وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة.

ثم عدد الله تعالى نعمه على رسوله ﷺ قبل إرساله، وكأنه قال: ما تركناك وما قليناك قبل أن اخترناك واصطفيناك، فتظن أنا بعد الرسالة نهجرك ونخذلك، فقال:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝﴾ أي ألم يجدك ربك يتيمًا لا أب لك، فجعل لك مأوى تأوي إليه، وهو بيت جدك عبد المطلب وعمك أبي طالب، فإنه فقد أباه وهو في بطن أمه، أو بعد ولادته، ثم توفيت أمه أمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي، وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة.

ووجدك غافلاً عن أحكام الشرائع حائراً في معرفة أصح العقائد، فهداك لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا

الْكَتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴿الشورى: ٥٢/٤٢﴾ .

ووجدك فقيراً ذا عيال لا مال لك، فأغناك بربح التجارة في مال خديجة، وبما منحك الله من البركة والقناعة، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿الَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل.

ثم أمره ربه ببعض الأخلاق الاجتماعية وبشكره على هذه النعم، فقال:

١ - ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٩) أي كما كنت يتيماً فأواك الله، فلا تستذل اليتيم وتمنه وتتسلط عليه بالظلم لضعفه، بل أدّه حقه، وأحسن إليه، وتلطف به، واذكر يتمك. لذا كان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتيم ويبره ويوصي باليتامى خيراً.

٢ - ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١٠) أي وكما كنت ضالاً، فهداك الله، فلا تنهر السائل المسترشد في العلم، وطلب المال، ولا تزجره، بل أجبه، أو ردّ عليه رداً جميلاً.

٣ - ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) أي تحدث بنعمة ربك عليك، واشكر هذه النعمة وهي النبوة والقرآن، وما ذكر في الآيات، والتحدث بنعمة الله شكر، فكما كنت عائلاً فقيراً، فأغناك الله، فتحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء النبوي المأثور: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُّثْنِينَ عليها، قابليها، وأتمها علينا» .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - أقسم الله بالضحى، أي بالنهار، وبالليل إذا سكن، على أنه ما ترك نبيه وما أبغضه منذ أحبه. قال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقيل: خمسة وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً.

قال الرازي: هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله، إذ لو كان من عنده لما امتنع^(١). كما تقدم.

٢ - بشر الله نبيه ببشارتين عظيمتين: الأولى - أنه جعل أحواله الآتية خيراً له من الماضية، ووعدته بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز، وجعل ما عنده في الآخرة حين مرجعه إليه، خيراً له مما عجل له من الكرامة في الدنيا.

والثانية - أنه سيعطيه غاية ما يتمناه ويرتضيه في الدنيا بالنصر والتفوق وغلبة دينه على الأديان كلها، وفي الآخرة بالثواب والحوض والشفاعة.

روى الخطيب أنه ﷺ، لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ قال: «إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار» ، كما تقدم.

والخلاصة: آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله عز وجل في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر

وإعلاء الدين بالفتوحات وانتشار الدعوة في المشارق والمغارب، ولما ادخر له عليه السلام في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلا هو عز وجل.

ورود في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَنَنْبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦/١٤] وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨/٥] فرفع يديه، وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى؛ فأناه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله، فأخبره ﷺ بما قال، وهو أعلم؛ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

٣ - عدد الله تعالى نعمه ومِنَّه على نبيه محمد ﷺ، وذكر منها في السورة ثلاثاً هي الإيواء بعد اليتيم، والهدى بعد الغفلة، والإغناء بعد الفقر.

أما الإيواء فقد تكفله بعد موت أبيه وأمه وجده عبد المطلب، ثم عمه أبي طالب، فكفله وآزره، ودفع عنه الأذى.

وأما الهدى فهو بيان القرآن والشرائع، فهداه الله إلى أحكام القرآن وشرائع الإسلام، بعد الجهل بها والغفلة عنها. وليس معنى الضلالة الكفر أو كونه على دين قومه؛ لأن الأنبياء معصومون عن ذلك. واتفق جمهور العلماء على أنه ﷺ ما كفر بالله لحظة واحدة. وقالت المعتزلة: هذا غير جائز عقلاً، لما فيه من التنفير.

وأما الإغناء فهو الإمداد بالفضل والمال والرزق بالتجارة في مال خديجة رضي الله عنها. وفي زمان الرسالة أغناه بمال أبي بكر، ثم بمال الأنصار بعد الهجرة، ثم بالغنيمة.

والحكمة في اختيار اليتيم له: أن يعرف قدر اليتامى، ويقوم بحقهم وصلاح

أمرهم. ثم إن اليتيم والفقر نقص في حق الناس عادة، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً، وأكرم الخلق، مع هذين الوصفين، كان ذلك قلباً للعادة، فكان من جنس المعجزات.

٤ - أَدَبَ اللهُ نَبِيَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يَتَعَاطَلَ مَعَ الْخَلْقِ مِثْلَ مُعَامَلَةِ اللهِ مَعَهُ، فَأَمَرَهُ بِالْأَلَا يَظْلِمُ الْيَتِيمَ، وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ كَانَ يَتِيمًا مِثْلَهُ. وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى طَلَبِ اللَّطْفِ بِالْيَتِيمِ وَبِرِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، حَتَّى قَالَ قَتَادَةُ: كُنَ لِلْيَتِيمِ كَالْأَبِ الرَّحِيمِ. وَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ، فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ، وَأَطْعِمِ الْمَسْكِينَ» وَفِي الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَحْمَدٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لغيره كَهَاتَيْنِ» وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى.

وَنَهَى اللهُ تَعَالَى نَبِيَهُ ﷺ عَنْ زَجْرِ السَّائِلِ وَعَنْ إِغْلَاطِ الْقَوْلِ لَهُ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَرُدَّهُ بِبَذْلِ سِيرٍ، أَوْ رَدِّ جَمِيلٍ، وَأَنْ يَتَذَكَّرَ فَقْرَهُ. رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ السَّائِلَ، وَأَنْ يَعْطِيَهُ إِذَا سَأَلَ، وَلَوْ رَأَى فِي يَدِهِ قُلْبَيْنِ^(١) مِنْ ذَهَبٍ». وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَيْضًا: «رُدُّوا السَّائِلَ بِبَذْلِ سِيرٍ، أَوْ رَدِّ جَمِيلٍ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكُمْ مِنْ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسِ وَلَا مِنَ الْجِنِّ، يَنْظُرُ كَيْفَ صَنِعْتُمْ فِيمَا خَوَّلَكُمْ اللهُ^(٢)».

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِشُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ وَهِيَ النُّبُوَّةُ وَالرَّسَالَةُ، وَإِنْزَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ. وَيَكُونُ الشُّكْرُ بِنُشْرِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمِ اللهِ، وَالاعْتِرَافُ بِهَا شُكْرُهَا.

وَيَلَاحِظُ أَنَّهُ تَعَالَى نَهَاهُ عَنْ شَيْئَيْنِ وَأَمَرَهُ بِوَاحِدٍ: نَهَاهُ عَنْ قَهْرِ الْيَتِيمِ جِزَاءً

(١) الْقُلْبُ: السَّوَارِ.

(٢) تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ١٠١/٢٠

لما أنعم به عليه في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَخَاشٍ ۖ﴾. ونهاه عن نهر السائل في مقابلة قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾. وأمره بالتحديث بنعمة ربه، وهو في مقابلة قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

قال العلماء المحققون: التحديث بنعم الله تعالى جائز مطلقاً، بل مندوب إليه إذا كان الغرض أن يقتدي به غيره، أو أن يشيع شكر ربه بلسانه، وإذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب، فالستر أفضل.

وإنما أخرج التحديث تقديماً لمصلحة المخلوقات على حق الله؛ لأن الله غني وهم المحتاجون، ولهذا رضي لنفسه بالقول فقط.

وروي عن الشافعي أنه رأى التكبير سنة في خاتمة ﴿وَالضُّحَى﴾ إلى آخر القرآن؛ لأنه حين انقطع الوحي كما تقدم، وأنزلت السورة، قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» تصديقاً لما أتى به القرآن.

وهذا التكبير ليس بقرآن؛ لأنه لم ينقل كالقرآن نقلاً متواتراً بسوره وآياته وحروفه، دون زيادة ولا نقصان. وقال العلماء: لا نقول: إنه لا بد لمن ختم أن يفعله، ولكنه من فعل فقد أحسن، ومن ترك فلا حرج.

ولفظ التكبير إما بأن يقول: «الله أكبر» أو يقول: «لا إله إلا الله والله أكبر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّرُكِ

مكية، وآياتها ثمان

تسميتها:

سميت سورة الشرح أو الانشراح أو «أَلَمْ تَشْرَحْ» لافتتاحها بالخبر عن شرح صدر النبي ﷺ، أي تنويره بالهدى والإيمان والحكمة، وجعله فسيحاً رحيباً واسعاً، كقوله تعالى: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» [الأنعام: ١٢٥/٦].

مناسبتها لما قبلها:

هي شديدة الاتصال بسورة الضحى، لتناسبهما في الجمل والموضوع؛ لأن فيهما تعداد نعم الله تعالى على نبيه ﷺ، مع تطمينه وحثه على العمل والشكر، حيث قال في السورة السابقة: «أَلَمْ يَحْدِكْ يَتِيماً فَتَآوَى ①» وأضاف هنا وعطف: «أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ②».

ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما، والأصح المتواتر كونهما سورتين، وإن اتصلتا معني. ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسابقتها الحديث عن شخصية النبي ﷺ وما أمده الله به من نعم عظيمة، تستحق الحمد والشكر.

وقد اشتملت على أمور أربعة:

أ - تعداد نعم ثلاث أنعم الله بها على نبيه المصطفى ﷺ وهي شرح صدره بالحكمة والإيمان، وتطهيره من الذنوب والأوزار، ورفع منزلته ومقامه وقدره في الدنيا والآخرة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ [الآيات: ١-٤] وذلك بقصد تسليّة الرسول ﷺ وإيناسه عما يلقاه من أذى قومه الشديد في مكة والطائف وغيرها.

ب - وعد الله له بتيسير المعسر، وتفريج الكرب عليه، وإزالة الحزن والشدائد، وتبشيريه بقرب النصر على الأعداء: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ [الآيات: ٥-٦] .

ج - أمره بالمواظبة على العبادة والتفرغ لها بعد القيام بتبليغ الرسالة؛ شكرًا لله على ما أنعم عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ﴾ [الآية: ٧] .

د - أمره بعد كل شيء بالتوكل على الله وحده، والرغبة فيما عنده: ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ﴾ [الآية: ٨] .

نعم الله على نبيه وما أمره به

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ [١] ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ [٢] ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ﴾ [٣] ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ﴾ [٤]

البلاغة:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ﴾ [١] استفهام تقريرى للتذكير بنعم الله، أي قد شرحنا لك صدرك.

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ﴾ استعارة تمثيلية، شبه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل حامله بطريق التمثيل.

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ تنكير اليسر للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يسراً عظيماً.

﴿الْعُسْرِ﴾ و ﴿يُسْرًا﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إطناب بتكرير الجملة، لتثبيت معناها في النفوس، وبما أن العسر معروف فهو مفرد، واليسر منكر فهو متعدد، أي مع كل عسر يسران، فالعسر الأول عين الثاني، واليسر متعدد.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ﴾ سجع مرصع مراعاة لرؤوس الآيات. وكذا في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

الفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ﴾ أَلَمْ نُفْسِحْ وَنَبْسِطْ وَنَوَسِعْ لَكَ يَا مُحَمَّد صَدْرَكَ، حتى وسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق، بما أودعنا فيه من الحكمة والإيمان والنبوة، وأزلنا عنه ضيق الجهل. والعرب تطلق سعة الصدر وعظمه على الحلم والقوة، فهو كناية عن السرور وانبساط النفس وراحة البال وسعة الأفق. وهو استفهام تقرير، أي قد شرحنا وأفسحنا.

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۖ﴾ حملك الثقيل. ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ حمله على ما تقدم من قوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢/٤٨]. وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام، فإن الرسل معصومون من ارتكاب الذنوب، وإنما المراد ما فعله اجتهداً مما هو خلاف الأولى، كإذنه للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك، وأخذ الفداء من

أسرى بدر، وعبوسه في وجه الأعمى ونحو ذلك. وقيل: المراد من قوله: ﴿وَذَرَكْ﴾ تخفيف أعباء النبوة والرسالة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها، وأداء واجباتها وحفظ حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحطّ عنه ثقلها، بأن صارت يسيرة له.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (١) بالنبوة وغيرها، كأن جعلتك تُذكر مع ذكري في الأذان والإقامة والشهد والخطبة وغيرها. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ السدة والضعف والفقر ونحوها من المضايقات ﴿يُسْرًا﴾ سهولة وتوفيقاً للاهتداء والطاعة، وقد قاسى النبي ﷺ من كثير من الكفار، وعانى منهم الشدائد، ثم حصل له اليسر، بنصره عليهم.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من أداء الرسالة وتبليغ الناس بها. ﴿فَانصَبْ﴾ اتعب في الدعاء والعبادة. ﴿فَارْغَبْ﴾ تضرع وتوكل، واجعل رغبتك بالله في جميع شؤونك.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١): نزلت لما عيّر المشركون المسلمين بالفقر. وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١) قال رسول الله ﷺ: «أبشروا، أتاكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين».

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) أي قد شرحنا لك صدرك لقبول النبوة، وتحمل أعبائها، وحفظ الوحي. قال الرازي: وقد استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك. والأولى أن يقال كما بينا: الاستفهام تقرير، يراد به إثبات الشرح.

والمراد بشرح الصدر تنويره وجعله فسيحاً وسيعاً رحباً، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥/٦]^(١). وقال أبو حيان: شرح الصدر: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وهو قول الجمهور، والأولى العموم لهذا ولغيره من مقاساة الدعاء إلى الله تعالى وحده، واحتمال المكاره من إذابة الكفار^(٢). والأكثرون على أن الشرح أمر معنوي.

وقيل: المراد بذلك شرح صدره ليلة الإسراء، كما رواه الترمذي عن مالك ابن صَعَصَعَة. قال ابن كثير: ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره: الذي فعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً^(٣).

وروى أيضاً حديث شرح الصدر عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبي بن كعب: أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء، لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة، إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذ بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجه لم أرها قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمحيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما متاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهية العلقه، ثم نبذها، فطرحها، فقال له: أدخل

(١) تفسير ابن كثير: ٥٢٤/٤

(٢) البحر المحيط: ٤٨٧/٨

(٣) تفسير ابن كثير، المرجع السابق.

الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغدُ واسلم، فرجعتُ بها أغدو رقة على الصغير، ورحمة على الكبير.

وفي الصحيح عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة - رجل من قومه: أن النبي ﷺ قال: «فينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا» - قال قتادة: قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني - قال: «فاستخرج قلبي، فغسل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيماناً وحكمة».

والخلاصة من حديث شق الصدر: إن جبريل عليه السلام أتى محمداً ﷺ في صغره، وشق صدره، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علماً وإيماناً، ووضعه في صدره.

وقد طعن بعضهم في هذه الرواية؛ لأن هذه الواقعة حدثت في حال الصغر، وذلك من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته، ولأن تأثير الغسل في إزالة أوساخ الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام، فلا يكون للغسل فيها أثر، ولأنه لا يصح أن يملأ القلب علماً، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم.

وأجاب الإمام فخر الدين الرازي عن ذلك بأن هذا يسمى الإرهاص، وهو مقدمات النبوة وبشائرها، ومثله في حق الرسول ﷺ كثير، ولا يبعد أن يكون غسل الدم الأسود من قلب الرسول ﷺ علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي، ويحجم عن الطاعات، فإذا أزالوه كان ذلك كالعلامة على كون صاحبه معصوماً، مواظباً على الطاعات، محترزاً عن السيئات، وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد^(١).

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ أي حططنا عنك ما كنت تتصور من وجود ذنوب ومعاصي أثقلت كاهلك، وأتعبت نفسك، سواء قبل النبوة أم بعدها مما تفعله خلاف الأولى، وهو لا يتفق مع سمو قدرك، ورفعة منزلتك، وعلو شأنك، كالإذن لبعض المنافقين بالتخلف عن الجهاد في موقعة تبوك، وقبول الفداء من أسرى بدر، والعبوس في وجه الأعمى.

وقيل: المراد حططنا عنك حمل أعباء النبوة والرسالة، فسهلناها عليك، حتى تيسرت لك.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ أي جعلنا ذكرك مرفوعاً عالياً في الدنيا والآخرة، بالنبوة وختم الرسالات بك، وإنزال القرآن العظيم عليك، وتكليف المؤمنين بالقول بعد «أشهد أن لا إله إلا الله»: «أشهد أن محمداً رسول الله» سواء في الأذان أم في التشهد أم في الخطبة وغيرها، وأمرهم بالصلاة والسلام عليه، وأمر الله بطاعته، وجعل طاعته طاعة الله تعالى.

قال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة، إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وروى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معي».

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة، وددت أني لم أسأله، قلت: قد كان قبلي أنبياء، منهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيي الموتى، قال: يا محمد، ألم أجذك بيتاً فأويتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أجذك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أجذك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أشرح لك صدرك، ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب».

وبعد التذكير بهذه النعم، ذكر الله تعالى أن ذلك جارٍ على وفق سنته، من إيراد اليسر بعد العسر، فقال ردّاً على المشركين الذين كانوا يعيرون رسول الله ﷺ بالفقر:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ﴾ أي إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً، وإن مع الضيق فرجاً، وقد أكد تعالى ذلك في الجملة الثانية. وفي هذا بشارة لرسول الله ﷺ وتسلية له أنه سيبدل حاله من فقر إلى غنى، ومن ضعف إلى عزة وقوة، ومن عداوة قومه إلى محبتهم. والأظهر أن المراد باليسرين: الجنس، ليكون وعداً عاماً لجميع المكلفين في كل عصر، ويشمل يسر الدنيا ويسر الآخرة، ويسر العاجل والآجل.

قال الفراء والزجاج: العسر مذكور بالآلف واللام، وليس هناك معهود سابق، فينصرف إلى الحقيقة، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً. وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير، فكان أحدهما غير الآخر.

يؤيد ذلك ما رواه الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً: «لو كان العسر في حَجَرٍ، لتبعه اليسر حتى يدخل فيه، فيخرجه، ولن يغلب عسر يسرين، إن الله يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ﴾» .

ثم أمره ربه بمهام تتناسب مع مقامه ومع شكر هذه النعم السابقة واللاحقة من اليسر والظفر، فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ﴾ أي إذا فرغت من تبليغ الدعوة، أو من الجهاد، أو مشاغل الدنيا وعلاقاتها، فأتعب نفسك في العبادة، واجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، وأخلص لربك النية والرغبة. وهذا دليل على طلب الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة؛ لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً، وإن الله يكره العبد البطال.

﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَاَرْعَبْ﴾ أي أقبل على الله، واجعل رغبتك إلى الله وحده، وتضرع إليه راهباً من النار، راغباً في الجنة، ولا تطلب ثواب عملك إلا من الله، فإنه الجدير بالتوجه والتضرع إليه، وبالتوكل عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - هذه باقية أخرى من نعم الله على نبيه المصطفى ﷺ، بالإضافة لما ذكر في سورة الضحى السابقة، وهي:

أولاً - شرح الصدر، أي جعله فسيحاً رحباً، قوياً عظيماً لتحمل أعباء النبوة والرسالة.

وثانياً - حظ الذنوب والمعاصي التي تعد ثقيلة وكبيرة بالنسبة لقدره ومنزلته، وإلا فهي ليست ذنباً على الحقيقة؛ لأن الأنبياء معصومون منها، ولم يسجد لصنم أو وثن قط، ولم يصدر عنه كفر أصلاً قبل النبوة. وهذا يستدعي كمال عقله وروحه، وتبرئته من الوزر الذي ينشأ عن النفس والهوى، وهو معصوم منهما.

وثالثاً - رفع ذكره وإعلاء شأنه ومقامه في الدنيا والآخرة وتنزيه مقامه عن كل وصم، قال ابن عباس: يقول له: لا ذُكِرْتُ إلا ذُكِرْتُ معي في الأذان، والإقامة، والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي حُطْبِ النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها.

ولو أن رجلاً عَبَدَ الله جلّ ثناؤه، وصَدَّقَ بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، لم ينتفع بشيء، وكان كافراً^(١).

(١) تفسير القرطبي: ١٠٦/٢٠ - ١٠٧

٢ - جعل الله تيسيراً ورحمة على العباد يسرين مع كل عسر، قال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرفاً، ثم كرروه، فهو هو، وإذا نكروه فهو غيره، وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر.

٣ - الحث على المواظبة على العمل الصالح واستدامته، وعلى عمل الخير والإقبال على فعله، فعلى العاقل ألا يضيع أوقاته في الكسل والدعة، ويحرص بكل قواه على تحصيل ما ينفعه في الدارين.

٤ - التوكل على الله وحده، والرغبة إليه والتضرع لوجهه الكريم، فإنه أهل التوجه والضراعة، ولا يطلب ثواب العمل الصالح إلا منه سبحانه.

قال ابن العربي: روي عن شريح أنه مرّ بقوم يلعبون يوم عيد، فقال: ما بهذا أمر الشارع. وفيه نظر؛ فإن الحبس كانوا يلعبون بالدرق والحراب في المسجد يوم العيد، والنبي ﷺ ينظر. ودخل أبو بكر بيت رسول الله ﷺ على عائشة وعندها جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان، فقال أبو بكر: أمزمارة الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنه يوم عيد». وليس يلزم الذؤوب على العمل، بل هو مكروه للخلق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّيْنِ

مكية، وآياتها ثمان

تسميتها:

سميت سورة ﴿وَالْتَيْنِ﴾؛ لأن الله تعالى أقسم في مطلعها بالتين والزيتون؛ لما فيهما من خيرات وبركات، ومنافع: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾. مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في السورة المقدمة حال أكمل الناس خلقاً وخلقاً، وأنه أفضل العالم، ثم ذكر في هذه السورة حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره من التدني ودخول جهنم إن عادى رسول الله ﷺ، أو دخول الجنة إن آمن به وعمل صالحاً.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية بيان أمور ثلاثة متعلقة بالإنسان وعقيدته:

أ - تكريم النوع الإنساني، حيث خلق الله الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء، حسن التركيب: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾ وَطُورِ مِيقَاتٍ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ [الآيات: ١-٤].

٢ - بيان المخدار مستوى الإنسان وزج نفسه في نيران جهنم بسبب كفره بالله تعالى ورسوله ﷺ، وإنكاره البعث والنشور، بالرغم من توافر الأدلة القاطعة على قدرة الله عز وجل بخلق الإنسان في أحسن تقويم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (الآية: ٥) .

واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (الآية: ٦) .

٣ - إعلان مبدأ العدل المطلق في ثواب المؤمنين، وتعذيب الكافرين: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْدِينِ﴾ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (الآيات: ٧-٨) .

فضلها:

أخرج الجماعة في كتبهم ومالك في موطئه عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه.

حال النوع الإنساني خلقاً وعملاً

﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ﴾ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٦) فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْدِينِ﴾ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨)

الإعراب:

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣) : إما من الأمن أي الآمن، كعليم بمعنى عالم، أو بمعنى المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ (ال عمران: ٩٧/٣) كحكيم بمعنى مُحْكَم، وسميع بمعنى مسمع.

﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ «أَحْسَنَ»: صفة لمحذوف، أي في تقويم أحسن.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ۖ﴾ (٧) ﴿مَا﴾: استفهامية في موضع رفع مبتدأ، و﴿يُكَذِّبُكَ﴾: خبره.

البلاغة:

﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۚ﴾ (١) «إِنْ أُرِيدَ مَوْضِعُهُمَا وَهُمَا الشَّامُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَهُوَ مَجَازٌ مَرْسَلٌ عِلَاقَتُهُ الْحَالِيَةُ بِإِطْلَاقِ الْحَالِ وَإِرَادَةُ الْحُلِّ، مِثْلُ: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ» (١٣) [الانقطاع: ١٣/٨٢] فَالْتَعِيمُ مَجَازٌ، وَهُوَ شَيْءٌ مَعْنَوِي يَحُلُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّةُ مَحَلٌّ لَهُ، وَهُوَ حَالٌ فِيهَا، فَأُطْلِقَ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ الْمَرْسَلِ الَّذِي عِلَاقَتُهُ الْحَالِيَةُ.

﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ و﴿أَسْفَلَ سَفِيلِينَ﴾ بَيْنَهُمَا طَبَاقٌ.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ التَّفَاتُ مِنَ الْغِيَةِ إِلَى الْخُطَابِ لَزِيَادَةِ التَّوْبِيخِ وَالْعِتَابِ.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخَكِيمِينَ﴾ (٨) «اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ.

﴿بِأَعَزَّ الْخَكِيمِينَ﴾ بَيْنَهُمَا جُنَاسٌ اشْتِقَاقِيٌّ.

﴿أَلْبَدِ الْأَمِينِ﴾، «أَسْفَلَ سَفِيلِينَ»، «بِأَعَزَّ الْخَكِيمِينَ» سَجْعٌ مَرَّعٌ.

المفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۚ﴾ (١) هُمَا الشَّجَرَتَانِ الْمَعْرُوفَتَانِ، أَوْ الشَّامُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ مَوْضِعَا إِبْنَاتِ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ، أَوْ جِبْلَانِ بِالشَّامِ يَنْبَتَانِ الْمَأْكُولَيْنِ، قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: وَالظَّاهِرُ أَنَّ التِّينَ وَالزَّيْتُونَ هُمَا الْمَشْهُورَانِ بِهَذَا الْاسْمِ، وَفِي الْحَدِيثِ: مَدَحَ التِّينَ، وَأَنَّهَا تَقْطَعُ الْبُؤَاسِيرَ، وَتَنْفَعُ مِنَ الْقُرْسِ. وَقَالَ الْبِيضَاوِيُّ: خَصَّصَهُمَا مِنْ بَيْنِ الثَّمَارِ بِالْقِسْمِ؛ لِأَنَّ التِّينَ فَاكْهَةٌ طَيِّبَةٌ، لَا فَضْلَ (بَقَايَا) لَهَا،

وغذاء لطيف، سريع الهضم، ودواء كثير النفع، فإنه يلين الطبع، ويحلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل رمل المثانة، ويفتح سدة الكبد والطحال. والزيتون فاكهة وإدام ودواء، وله دهن لطيف، كثير المنافع، مع أنه قد ينبت حيث لا دهنية فيه كالجبال.

﴿وَطُورِ سَيْنَى﴾ الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عنده، وناجى عليه موسى ربه، و﴿سَيْنَى﴾ وسيناء: اسمان للموضع الذي فيه. ومعنى ﴿سَيْنَى﴾: المبارك، أو الحسن بالأشجار المثمرة. ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ مكة المكرمة التي كرمها الله بالكعبة، و﴿الْأَمِينِ﴾: إما الآمن، أو المأمون فيه، يأمن فيه من دخله.

﴿الْإِنْسَنَ﴾ أراد به الجنس. ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تعديل لصورته وشكله، بأن خصه بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات، يقال: قَوْمُ الشَّيْءِ تَقْوِيمًا: جعله على أعدل وجه وأكمل صورة. والتقويم أيضاً: معرفة قدر الشَّيْءِ وقيمه. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾ رددنا بعض أفرادها، وهو الكافر، أو بعض الناس. ﴿أَسْفَلَ سَفَلَيْنِ﴾ أي جعلناه من أهل النار الذين هم أسفل من كل سافل، وقيل: هو كناية عن الهرم والضعف، وأرذل العمر (أي الخرف) فيكون: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء منقطعاً بمعنى لكن. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع عنهم، جاء في الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «إذا كبر العبد وضعف عن العمل، كتب له أجر ما كان يعمل في شبابه».

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أيها الكافر. ﴿بَعْدُ﴾ بعدما ذكر من خلق الإنسان في أحسن صورة، ثم رده إلى أرذل العمر، الدال على القدرة الإلهية على البعث. ﴿بِالَّذِينَ﴾ الجزاء بعد البعث والحساب، أي ما يجعلك مكذباً بالبعث، ولا جاعل ولا موجب لهذا التكذيب؟

سبب الغزول:

نزول الآية (٥):

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾: أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥) قال: هم نفر، ردوا إلى أرذل العمر، على عهد رسول الله ﷺ، فستل عنهم حتى سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم، أن لهم أجرهم الذي عملوا، قبل أن تذهب عقولهم.

التفسير والبيان:

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (٦) أي قسماً بالتين الذي يأكله الناس، وبالزيتون الذي يعصرون منه الزيت، فالمراد من التين والزيتون هذان الشيطان المشهوران، قال ابن عباس: هو تينكم وزيتونكم هذا.

وهما كناية عن البلاد المقدسة التي اشتهرت بإنبات التين والزيتون. وإنما أقسم بالتين؛ لأنه غذاء وفاكهة ودواء، فهو غذاء لأنه طعام لطيف، سريع الهضم، لا يمتكث في المعدة، يلين الطبع، ويقلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرمل، ويسمن البدن، ويفتح مسام الكبد والطحال، وهو خير الفواكه وأحدها.

وكونه دواء لأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن، وفي الحديث الحسن الذي رواه ابن السني وأبو نعيم عن أبي ذر، وضعفه السيوطي: «إنه يقطع البواسير، وينفع من الثَّقرس».

وكذلك الزيتون فاكهة وإدام ودواء، يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب لبعض أهل البلاد ودهنهم، ويدخل في كثير من الأدوية، قال تعالى: ﴿يُؤْتِيهِمْ مِنْ شَجَرِهِ مُبْرَكَةً زَيْتُونًا لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ [النور: ٣٥/٢٤]. وقال ﷺ: فيما رواه أبو نعيم في الطب عن أبي هريرة وهو ضعيف: «كلوا الزيت وادَّهِنوا به، فإنه من شجرة مباركة».

﴿وَطُورِ سَيْنٍ ۝١﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام، وهو طور سيناء.

﴿وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ ۝٢﴾ أي مكة المكرمة التي كرمها الله بالكعبة المشرفة، وبميلاد النبي ﷺ وإرساله فيه، سمي أميناً لأنه آمن ومأمون فيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧/٣].

أقسم الله سبحانه بهذه المواضع الثلاثة؛ لأنها مهابط وحي الله على أولى العزم من الرسل، ومنها أضاءت الهداية للبشر. وجاء في آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ. وذكرهم تحميراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما.

ثم ذكر جواب القسم المحلوف عليه، فقال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝١﴾ أي أقسم بالأشياء الثلاثة المذكورة على أننا خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء، حسن التركيب، يأكل بيده، يتميز بالعلم والفكر والكلام والتدبير والحكمة، فصلح بذلك أن يكون خليفة مستخلفاً في الأرض كما أراد الله له. والخلاصة: خلقناه في أحسن تعديل شكلاً وانتصاباً، كما قال أكثر المفسرين.

ذكر القرطبي القصة التالية التي توضح حسن تقويم الإنسان، فقال:

كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتي! وبات بلبلة عظيمة، فلما أصبح، غدا إلى دار المنصور، فأخبره

الخبر، وأظهر للمنصور جزءاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلِّقت؛ إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً.

فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝﴾. يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه.

فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك. وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل: أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

ثم عقب القرطبي على هذا قائلاً: فهذا يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً، جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه^(١).

لكنه غفل عن هذه المقومات، وأهمل هذه الميزات، وأخذ يعمل بهواه وشهواته، لذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝﴾ قيل: إلى النار التي هي أسفل الدرجات إن لم يقطع الله ويتبع الرسل، والأولى أن يقال: رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم والضعف، والخرف ونقص العقل، بعد الشباب والقوة، وجمال النطق، وسلامة الفكر.

(١) تفسير القرطبي: ١١٤/٢٠

والقول الأول، أي إلى النار بسبب كفر بعض الناس هو قول الحسن ومجاهد وأبي العالية وابن زيد وقتادة، وعلى هذا يكون الاستثناء الآتي: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ استثناءً متصلاً.

والقول الثاني، أي إلى أرذل العمر هو قول ابن عباس وعكرمة والضحاك والنخعي، وعلى هذا يكون الاستثناء التالي منقطعاً. وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا، بل في الجنس من يعتريه ذلك. واختار ذلك ابن جرير.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي إلا الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال من أداء الفرائض والطاعات، فلهم ثواب على طاعتهم دائم غير منقطع.

والمعنى كما أشرنا على التفسير الأول وكون الاستثناء متصلاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن جمعوا بين الإيمان والعمل في حال الاستطاعة، فلهم ثواب جزيل، ينجون به من النار أسفل السافلين، وهو الجنة دار المتقين.

والمعنى على التفسير الثاني وكون الاستثناء منقطعاً وهو الراجح لدينا: لكن المؤمنين المتقين، فإن الله يكافئهم بثواب دائم غير منقطع، بسبب صبرهم على ما ابتلوا به من الشيوخوخة والهرم والمواظبة على الطاعات بقدر الإمكان، مع ضعف البنية، وفتور الأعضاء، أي إنهم قد يردون إلى أرذل العمر كغيرهم، لكن لهم أجراً كبيراً دائماً على أفعالهم.

قال الألوسي: المتبادر من السياق الإشارة إلى حال الكافر يوم القيامة، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها؛ لعدم شكره تلك النعمة وعمله بموجبها^(١).

(١) تفسير الألوسي: ٣٠/٤٧٦

أخرج أحمد والبخاري وابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب الله تعالى له من الأجر مثلما كان يعمل صحيحاً مقيماً». وفي رواية عنه: ثم قرأ ﷺ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ عَزِيزٌ مُّثْنُونَ﴾.

وأخرج الطبراني عن شذاد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً، فحمدني على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب عز وجل: إني أنا قَيِّدْتُ عَبْدِي هَذَا، وابتليته، فأَجْرُوا لَهُ ما كنتم تُجْرُونَ لَهُ قبل ذلك» وهو حديث صحيح.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: إذا كَبِرَ الْعَبْدُ، وضعف عن العمل، كتب له أجر ما كان يعمل في شبابه.

ورأى بعضهم أن الاستثناء متصل حتى على القول الثاني، فلا يردُّ المؤمن المتقي إلى أرذل العمر، بدليل ما أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يردَّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال: إلا الذين قرؤوا القرآن. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير نحوه، فقال: من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر.

ثم وُتِّخَ الكفار على التكذيب بالجزاء بعد البعث، فقال:

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾﴾ المراد: بأي شيء يلجئك بعد هذه البيانات والأدلة على قدرة الله إلى أن تكون كاذباً، بسبب تكذيب الجزاء؛ لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب؟ فإذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك بسبب الكفر أسفل سافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟ لقد علمت البداية، وعرفت أن من قدر على البداية، فهو قادر

على الرجعة بطريق أولى، فأى شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرفت هذا؟

ثم أكد ما سبق بقوله:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ (٨) أي أما هو أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً، الذي لا يجوز ولا يظلم، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه؟!

أخرج الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا قرأ أحدكم: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ (١)، فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ (٨) فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين» .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - أقسم الله تعالى بمواضع ثلاثة مقدسة: هي أماكن نبات التين والزيتون، التي هي مقام الأنبياء ومهبط الوحي، وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى، ومكة البلد الحرام الآمن على أنه خلق جنس الإنسان في أحسن تقويم، وهو اعتداله واستواء شبابه. ثم يرد بعض النوع الإنساني أسفل سافلين، أي إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبي في طوره الأول من أطوار الحياة.

قال ابن العربي: ولامتنان الباري سبحانه، وتعظيم النعمة أو المنة في التين، وأنه مقتات مدخر، فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه^(١).

(١) أحكام القرآن: ٤ / ١٩٣٩

٢ - استثنى الله تعالى الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإنه تكتب لهم حسناتهم، وتُغْفَى عنهم سيئاتهم، وهم الذين أدركهم الكِبَرُ، لا يؤاخذون بما عملوه في كِبَرِهِمْ.

٣ - وَنَحَّ اللهُ الكافر وألزمه الحجة بكفره بالجزاء بعد البعث بقوله فيما معناه: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلَقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال، فما يملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به؟

٤ - أليس الله أتقن الحاكمين صنْعاً في كل ما خلق، وأنه أحكم الحاكمين قضاءً بالحق وعدلاً بين الخلق؟! وفي هذا تقدير لمن اعترف من الكفار بالصانع القديم وهو الله تعالى. وهو وعيد للكفار، وأنه يحكم عليهم بما هم أهلُه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَلَقِ

مكية، وهي تسع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة العلق، سورة (اقرأ)، أو (العلم)؛ لأن الله سبحانه افتتحها بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾. والعلق: الدم المتجمد على شكل البودة الصغيرة.

مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في سورة (التين) أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذا بيان للصورة، وذكر هنا أنه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ وهذا بيان للمادة. وذكر تعالى في هذه السورة من أحوال الآخرة بياناً توضيحياً لما ذكر في السورة السالفة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية أول شيء نزل من القرآن على قلب النبي ﷺ لبيان الأمور الثلاثة التالية:

أ - بيان حكمة الله في خلق الإنسان من ضعف إلى قوة، والإشادة بما

زوّده وأمره به من فضيلة القراءة ﴿اقْرَأْ﴾ والكتابة ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ لتمييزه على غيره من المخلوقات: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ [الآيات: ١-٥] .

٢ - الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمردّه على أوامر الله، وجحوده نعم الله عليه، وغفلته عنها رغم كثرتها في حال توافر الثروة والمال والغنى لديه، فقابل النعمة بالنقمة، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على فضله، فجحده النعمة وتجبر واستكبر: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ ﴿٦﴾ [الآيات: ٦-٨] .

٣ - افتضاح شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل الذي كان ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة، انتصاراً للأوثان والأصنام، وتوعده بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وكفره وطغيانه، وتنبيه الرسول ﷺ إلى عدم الالتفات لما كان يتوعده به ويتهدده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ ﴿٩﴾ [الآيات: ٩-١٩] .

كيفية نزول هذه السورة - حديث بدء نزول الوحي:

نزل صدر هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم، أما بقية السورة فهو متأخر النزول، بعد انتشار دعوته ﷺ بين قريش، وتحرشهم به وإيذائهم له. أخرج الإمام أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء، فيتحنّث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الوحي، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: (اقرأ).

قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطّني - ضمّني - حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: (اقرأ)، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: (اقرأ)، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطّني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني.

فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، ما لي؟ وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له:

كلا، أبشر، فوالله لا ينجزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل - الضعيف العاجز - وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة:

ابن أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً^(١)، ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أَوْ مَخْرُجِيّ هُم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ. ثم لم ينشب^(٢) ورقة أن توفي، وفتر الوحي، حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حُزناً، غداً منه مراراً كاد يتردى من رؤوس شواهد الجبال، فكلما أوفى بذرورة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فیسكنْ بذلك جأشه، وتقرّ نفسه، فیرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذرورة الجبل، تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

(١) الجذع: الشاب القوي الجلد.

(٢) لم ينشب: لم يلبث.

الحكمة في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة

﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَفَرَأَى ذُرِّيَّتَكَ الْأَكْرَمَ ③ الَّذِي عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ⑥ أَنْ رَأَاهُ ⑦ اسْتَفْتَى ⑧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⑨﴾

الإعراب:

﴿أَفَرَأَى ذُرِّيَّتَكَ الْأَكْرَمَ ③﴾ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿أَفَرَأَى﴾.

﴿عَلَّمَهُ ④﴾ بدل اشتمال من ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④﴾ أي علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية.

﴿أَنْ رَأَاهُ ⑦ اسْتَفْتَى ⑧﴾ : في موضع نصب على أنه مفعول لأجله، أي لأن رآه، وأصله (رأيه) فتحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. ورأى: يتعدى إلى مفعولين؛ لأنه من رؤية القلب، فالمفعول الأول: الهاء، والثاني: ﴿اسْتَفْتَى﴾.

وقرئ (رأه) بهمزة من غير ألف بعدها، على أساس حذف لام الفعل مثل (حاش لله) أو لأن مضارعه (يرى) وقد حذفت عينه بعد نقل حركتها إلى ما قبلها، أو حذفت لسكونها وسكون السين في ﴿اسْتَفْتَى﴾.

البلاغة:

﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾ سجع مرصع.
﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ ③﴾ و﴿أَفَرَأَى ذُرِّيَّتَكَ الْأَكْرَمَ ④﴾ إطناب بتكرار الفعل، لمزيد الاهتمام بشأن القراءة والعلم.

﴿عَلَّقَ﴾ و﴿عَلَّقَ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ﴿٥﴾ بينهما طباق السلب.

﴿إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿٨﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان.

المفردات اللغوية:

﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ ابتدئ قراءة القرآن مفتحاً باسم ربك، أو مستعيناً به. ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ الذي خلق كل شيء. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ جنس الإنسان. ﴿مِنْ عَلَّقَ﴾ جمع علقه: وهي قطعة دم يسيرة جامدة، فإذا جرى الدم فهو المسفوح. ﴿أَفْرَأَ﴾ تأكيد للأول. ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الذي لا يوازيه كريم، الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه يُنعم بلا غرض. ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿١﴾ علّم الخط والكتابة بالقلم، وأول من خط به إدريس عليه السلام. ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ﴿٥﴾ علم جنس الإنسان بخلق القوى، وإقامة الدلائل، وإنزال الآيات، وبتعليمه الأشياء من غير معلّم كالكتابة والصناعة وغيرها، والمقصود: أنه يعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً. وقال: ﴿مِنْ عَلَّقَ﴾ بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكل الناس خلقوا من علق بعد النطفة. والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك؛ لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفّت لم تكن علقه.

وقد أبان في هذه الآيات مبدأ خلق الإنسان الذي يدلّ على الأوصاف الإلهية، وأهمها بيان وجوده وقدرته تعالى، ثم أشار إلى إثبات العلوم السمعية الموقوفة على النقل والكتابة، ثم إثبات النبوة.

﴿كَلَّا﴾ أي حقاً عند بعض المفسرين؛ لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يتوجه إليه الردع، وقال الزرخشري: إنه ردع لمن كفر بنعمة الله عليه وطفى، وهذا معلوم من سياق الكلام، وإن لم يذكر. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي: أي فرد من النوع

الإنساني. ﴿لَطَقَ﴾ يتكبر ويتجاوز الحد في العصيان. ﴿أَن زَاهُ﴾ لأن رأى نفسه. ﴿أَسْتَقَى﴾ اغتنى بالمال وغيره، أي صار ذا مال وأعوان يغني بهما، والآية نزلت في أبي جهل، كما سألين. ﴿إِنَّ لَكَ رَبَّكَ﴾ يا إنسان. ﴿الرَّجُوعُ﴾ الرجوع، والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر، أي المصير والعودة، والمراد تخويف الإنسان، فإن الله يجازي الطاغى بما يستحقه.

سبب النزول:

فزل الآية (٦):

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ : أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن المنذر وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يُعَفَّرُ محمدٌ وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: والللات والعزى، لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأنزل الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَفٌ﴾ (٦) الآيات.

ثم إنه رأى رسول الله ﷺ في الصلاة، فنكص على عقبيه، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً شديداً.

التفسير والبيان:

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) أي اقرأ مبتدئاً باسم ربك، أو مستعيناً باسم ربك، الذي أوجد وخلق كل شيء. وقد وصف الله لنا نفسه بأنه الخالق للتذكير بأول النعم وأعظمها. والمراد: الأمر من الله لنبهه بأن يصير قارئاً، بقدرة الله الذي خلقه وإرادته، وإن لم يكن من قبل قارئاً ولا كاتباً، فمن خلق الكون قادر على أن يوجد فيه القراءة، وإن لم يتعلمها سابقاً.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) أوجد بني آدم من قطعة دم جامد وهي العلقة، التي هي طور من أطوار خلق الجنين، فإنه يبدأ نطفة، ثم يتحول بقدرة الله إلى علقة: وهي كأنها قطعة من الدم الجامد، ثم يكون مضغة: وهي كأنها قطعة لحم، ثم يظهر فيها بقية التخليق من عظام، فلهم، فإنسان كامل الخلقة.

ويلاحظ أنه تعالى أطلق الخلق أولاً ليتناول كل المخلوقات، ثم خصّ الإنسان بالذكر لشرفه، أو لعجيب فطرته، أو لأن الآية سبقت من أجله.

وإنما قال: باسم ربّك، ولم يقل: باسم الله كما في التسمية المعروفة: (بسم الله الرحمن الرحيم) لأن الربّ: من صفات الفعل، والله: من أسماء الذات، وبما أنه أمره بالعبادة، وصفات الذات لا تستوجب شيئاً، وإنما يستوجب العبادة صفات الفعل، فكان ذلك أبلغ في الحثّ على الطاعة، والخلاصة: أنه لم يأت بلفظ الجلالة، لما في لفظ الربّ من معنى الذي ربّك، ونظر في مصلحتك، وجاء الخطاب ليدل على التأنيس والاختصاص، أي ليس لك ربّ غيره.

وإنما أضاف ذاته إلى رسوله، فقال: ﴿يَاسِيَّ رَبِّكَ﴾ للدلالة على أنه له، تصل إليه منفعتة، أما طاعة العبد فلا تحقق منفعة لله، فإذا أتى بما طلبه منه من طاعة أو توبة، أضافه إلى نفسه بوصف العبودية، فقال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٦/١].

وإنما ذكر قوله ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بعد قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ للاستدلال على أنه ربّه، وهو الذي أوجده، فصار موجوداً بعد أن كان معدوماً، والخلق والإيجاد تربية، وكذلك جاء بصفة الخالق، أي المنشئ للعالم، للإتيان بصفة لا يمكن للأصنام شركة فيها، فيكون ردّاً على العرب التي كانت تسمي الأصنام أرباباً.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي افعل ما أمرت به من القراءة، وربّك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم من كل كريم، ومن كرمه: تمكينك من القراءة وأنت أمي. وإنما كرر كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ للتأكيد، ولأن القراءة لا تتحقق إلا بالتكرار والإعادة. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ لإزاحة المانع، وإزالة العذر الذي اعتذر به النبي ﷺ لجبريل حين طلب منه بقوله: ﴿اقْرَأْ﴾، فقال: ما أنا بقارئ.

والأوجه: أن يراد بقوله الأول: ﴿اقْرَأْ﴾: أوجد القراءة، وبالثاني: استعن باسم ربّك.

ثم قرن القراءة بالكتابة، فقال:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي علّم الإنسان الكتابة بالقلم، فهو نعمة عظيمة من الله عزّ وجلّ، وواسطة للتفاهم بين الناس كالتعبير باللسان، ولولا الكتابة لزالّت العلوم، ولم يبق أثر لدين، ولم يصلح عيش، ولم يستقر نظام، فالكتابة قيد العلوم والمعارف، ووسيلة ضبط أخبار الأولين ومقالاتهم، وأداة انتقال العلوم بين الأمم والشعوب، فتبقى المعلومات، ثم يبنى عليها ويزاد إلى ما شاء الله، فنتمو الحضارات، وتسمو الأفكار، وتحفظ الأديان، وتنشر الهداية. جاء في الأثر: «قيدوا العلم بالكتابة»^(١).

لهذا بدأت دعوة الإسلام بالترغيب في القراءة والكتابة، وبيان أنها من آيات الله في خلقه، ومن رحمته بهم، وكانت معجزة محمد ﷺ الخالدة، وهو العربي الأمي، قرآنًا يتلى، وكتابًا يكتب، وأنه بذلك نقل أمته من حال الأمية والجهل إلى أفق النور والعلم، كما قال تعالى ممتنًا بذلك: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢/٢٢].

ثم أبان عموم فضله وكثرة نعمه، فقال:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي علّم الله الإنسان بالقلم كثيراً من الأمور ما لم يعلم بها، فلا عجب أن يعلمك الله أيها النبي القراءة، وكثيراً من العلوم، لنفع أمتك. ورد في الأثر: «من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يكن يعلم»^(٢).

ثم ردع الإنسان على طغيانه حال الغنى، فقال:

(١) أخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن عمرو، وهو صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٢٨/٤

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفِرَ ﴿٧﴾﴾ أي ارتدع وانزعج أيتها الإنسان، عن كفرك بنعمة الله عليك، وتجاوزك الحد في العصيان، لأن رأيت نفسك مستغنياً بالمال والقوة والأعوان.

وقيل: المراد بالآية: حقاً إن أمر الإنسان عجيب، يستذل ويضعف حال الفقر، ويطغى ويتجاوز الحد في المعاصي ويتكبر ويتمرد حتى أحس بنفسه القدرة والثروة. وأكثر المفسرين على أن المراد بالإنسان هنا أبو جهل وأمثاله. ثم أنذر بالعقاب في الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾﴾ أي إن الرجوع والمصير إلى الله وحده، لا إلى غيره، فهو الذي يحاسب كل إنسان على ماله من أين جمعه، وأين صرفه. ويلاحظ أن هذا الكلام جاء على طريقة الالتفات إلى خطاب الإنسان، تهديداً له، وتحذيراً من عاقبة الطغيان.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود: منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن، وأما صاحب الدنيا، فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ ﴿٦﴾﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا».

فقه الحياة لو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - بيان قدرة الله تعالى بالخلق، فهو الخالق، والتنبيه على ابتداء خلق

الإنسان من علفة: قطعة دم جامد رطب غير جاف. وهذه الآيات الكريمات أول شيء نزل من القرآن، وهن أول رحمة من الله لعباده، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم.

٢ - أمر الله سبحانه الرسول ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربّه الذي خلق، واسم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم.

٣ - أمر الله تعالى أيضاً بتعلم القراءة والكتابة؛ لأنهما أداة معرفة علوم الدين والوحي، وإثبات العلوم السمعية ونقلها بين الناس، وأساس تقدم العلوم والمعارف والآداب والثقافات، ونمو الحضارة والمدنية.

٤ - من كرم الله تعالى وفضله: أن علم الإنسان ما لم يكن يعلمه، لينقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فقد شرفه وكرّمه بالعلم، وبه امتاز أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم إما بالفكر والذهن، وإما باللسان، وإما بالكتابة بالبنان. قال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين، ولم يصلح عيش.

وفضائل الكتابة والخط كثيرة، فحيث منّ الله على الإنسان بالخط والتعليم، مدح ذاته بالأكرمية، فقال: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (١) أي علّم الإنسان بواسطة القلم، أو علّمه الكتابة بالقلم.

مع أنه سبحانه حين عدد على الإنسان نعمة الخلق والتسوية وتعديل الأعضاء الظاهرة والباطنة، وصف نفسه بالكرم قائلاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ أَفَكَبَرِ﴾ (٢) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٣) [الانفطار: ٨٢/٦-٧].

جاء في الحديث الصحيح: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذّكر فوق عرشه» (١).

وكانت أمية الرسول ﷺ ثم تعليمه من الله أثبت لمعجزته بين العرب
الأمين، وأقوى في حجته.

هـ - أخبر الله تعالى عن طبع ذميم في الإنسان وهو أنه ذو فرح وأشر،
وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله.

لذا هدده الله وتوعده ووعظه ليضبط طغيانه ويوقف تهوره بإخباره بأنه إلى
الله المصير والرجع، وسيحاسب كل إنسان على ماله، من أين جمعه، وفيه
صرفه وأنفقه.

وأصل نزول الآية في أبي جهل عند أكثر المفسرين، والعبرة بعموم اللفظ
لا بخصوص السبب.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل
فقال: يا محمد، تزعم أنه من استغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً،
لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا وتتبع دينك، فأتاه جبريل عليه السلام
فقال: «يا محمد خيرهم في ذلك، فإن شاؤوا فعلنا بهم ما أرادوه، فإن لم
يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة». فعلم رسول الله ﷺ أن القوم
لا يقبلون ذلك؛ فكف عنهم إبقاء عليهم^(١).

٦ - أول السورة يدل على مدح العلم، وآخرها يدل على مذمة المال،
وكفى بذلك مرغباً في الدين، ومنفراً عن الدنيا والمال^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/١٢٣

(٢) تفسير الرازي: ٩/٣٢

صور أخرى من الطغيان وتهديد الطغاة ووعيدهم

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ
بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا
بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا
تُطْعَمُهُ وَاَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿أَرَأَيْتَ﴾:

وقرأ الكسائي: (أريت).

الإعراب:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾﴾: يقرأ بالهمز على الأصل، وبالتخفيف يجعل الهمزة بين الهمزة والألف؛ لأن حركة الهمزة فتحة، وتخفيف الهمزة: أن تجعل بين الهمزة والحرف الذي حركتها منه. وتقرأ بالإبدال: يجعل الهمزة ألفاً تشبيهاً لها بما إذا كانت ساكنة، مفتوحاً ما قبلها، وليس لقياس. و﴿الَّذِي يَنْهَى﴾: مفعول أول لـ ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الأول، و ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الثاني مكرر للتأكيد ولطول الكلام. وقوله: ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ مع ما عطف عليه مفعول ثان له. وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب الشرط الثاني وهو قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾. ويجوز أن يكون ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الثالث أيضاً مكرراً. وجواب الشرط بالحقيقة هو ما تدل عليه هذه الجملة الاستفهامية وهي: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾﴾ كأنه قيل: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أو كذب وتولى، فإن الله مجازيه.

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ﴿١٦﴾﴾ نون (نسفعن) نون التوكيد

الخفيفة، وتكتب بالألف عند البصريين كالتتوين، وبالنون عند الكوفيين، وهي مكتوبة في المصحف بالألف، كمذهب البصريين، مثل: ﴿وَلَيْكُونَا مِنَّا الصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ٣٢/١٢] وليس في القرآن لهما نظير. ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ﴾: بدل من الناصية، وهذا بدل النكرة من المعرفة.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) أي أهل مجلسه، أهل ناديه، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

البلاغة:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ (٩) عَبْدًا؟ كناية، كنى بالعبد عن رسول الله ﷺ، ولم يقل: ينهك؟ تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره. و﴿أَرَأَيْتَ﴾ استفهام للإنكار والتعجب، وهي بمعنى أخبرني.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ (٩) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ (١١)؟ استفهام للتعجب من حال الناهي الذي ينهى.

﴿نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ خَاطِئَةٌ﴾ (١٦) مجاز عقلي، أسند الكذب والخطأ إلى الناصية مجازاً، والمراد صاحبها؛ لأنه السبب.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) مجاز مرسل علاقته المحلية، أي أهل ناديه، بإطلاق المحل وإرادة الحال.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَأَيْتَ﴾؟ أي أخبرني، وهي في المواضع الثلاثة للتعجب، والمراد من الاستخبار: إنكار الحال المستخبر عنها وتقييدها، مثل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ﴾ (١) [الماعون: ١/١٠٧]. ﴿الَّذِي يَنْهَىٰ، عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (١٠) الناهي: هو أبو جهل، والعبد: هو النبي ﷺ. والمعنى: أخبرني عن من ينهى

بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن؟!

وقيل: أرأيت إن كان المنهي على الهدى أو أمر بالتقوى؟ و(أو): للتقسيم. ﴿أَوَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ الناهي النبي؟ ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الإيمان. ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾؟ أي ألم يدرك بأن الله يرى ويشاهد ما يصدر منه، فيجازيه عليه؟ أي اغضب منه يا مخاطب من حيث نبيه عن الصلاة، ومن حيث إن المنهي عن الهدى أمر بالتقوى، ومن حيث إن الناهي مكذب متول عن الإيمان؟!

والخطاب في قوله: ﴿أَوَيْتَ الَّذِي يَتَعَفَّى﴾ للرسول ﷺ على وجه التعجب. وفيه أنه ﷺ كان يقول: «اللهم أعز الإسلام بعمر، أو بأبي جهل بن هشام» وكأنه تعالى قال له: يا محمد، كنت تظن أنه يعز به الإسلام، وهو ينهى عن الصلاة التي هي أول أركان الإسلام. وكان يلقب بأبي الحكم، فقليل له: كيف يليق به هذا اللقب، وهو ينهى العبد عن خدمة ربه، ويأمره بعبادة الجماد؟!

وجواب شرط: ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ محذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، ألم يعلم بأن الله يرى، أي فإن الله مجازيه.

﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي. ﴿لَنْ نُرَبِّتَهُ﴾ عما هو فيه أو عليه من الكفر، واللام: لام القسم. ﴿لَنَنْفَعَهُ بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذن بناصيته، ولنسحبته بها إلى النار. والسفع: الجذب بشدة، والناصية: شعر الجبهة. والمراد بذلك: القهر والإذلال بأنواع العذاب. ﴿كَذِبَ خَطَئُو﴾ وصفها بالكذب والخطأ، والمراد صاحبها، بالإسناد المجازي للمبالغة. ﴿نَادِيَهُ﴾ أي أهل ناديه، والنادي: المجلس أو مكان اجتماع القوم للتحدث فيه، ولا يسمى نادياً حتى يكون فيه أهله.

﴿سَدَّ الزَّيْبَةَ﴾ ١٨) ليجروه إلى النار، و﴿الزَّيْبَةَ﴾ الملائكة الغلاظ الشداد جمع زبينة وزبني، قال ابن عباس فيما ذكره أحمد: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً». ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي أيضاً. ﴿لَا تُطْعَمُ﴾ يا محمد في ترك الصلاة، واثبت أنت على طاعتك. ﴿وَأَسْجُدْ﴾ ودم على سجودك، وصلَّ الله. ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ تقرب إلى ربك بطاعته.

سبب النزول:

نزل الآية (٩):

﴿أَرَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ ٩): أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فنهاه، فأنزل الله: ﴿أَرَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ ٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ إلى قوله: ﴿كَذِبَ حَاطِقَةً﴾.

نزل الآية (١٧):

﴿فَلْيَنْعُ نَادِيَهُ﴾ ١٧): أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فقال: ألم أنك عن هذا؟ فزجره النبي ﷺ، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَنْعُ نَادِيَهُ﴾ ١٧) سَدَّ الزَّيْبَةَ ﴿١٨﴾ وهو حسن صحيح كما قال الترمذي.

للناسبة:

بعد أن أبان سبحانه في مطلع السورة مظاهر القدرة الإلهية، وعدد نعمه ومنته العظمى على الإنسان بتعليمه القراءة والكتابة وما لم يعلم، ذكر السبب الحقيقي لكفر الإنسان وطغيانه وبغيه، وهو حب الدنيا والثروة والأغترار بها؛ مما شغله عن النظر في آيات الله وشكر نعمه.

ثم ذكر صوراً أخرى من طغيان الإنسان، وهي النهي عن الصلاة

والعبادة، وهل يأمر بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان؟ وتكذيبه بالحق والتولي عن الدين والإيمان.

وناسب بعد هذا تهديده ووعيده بالعقاب الشديد والنكال الأليم يوم العرض والحساب، من غير أن يجد نصيراً ينصره أو معيناً يمنعه من العذاب. وختمت السورة بأمر النبي ﷺ بعدم طاعة هذا الطاغية، والإقبال على عبادة ربه، والتقرب إليه بالطاعة.

التفسير والبيان:

أخبر الله تعالى عن حالات قبيحة جداً من أحوال الطغاة وهي:

أ - ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑩﴾ ؟ أي أخبرني عن حال هذا الطاغية المغرور وهو أبو جهل وأمثاله، كيف يجزؤ على أن ينهى عبداً هو محمد رسول الله ﷺ وأتباعه عن أداء الصلاة والعبادة لله رب العالمين، ويريد طاعته في عبادة الأوثان، وترك عبادة الخالق الرزاق؟ وتنكير كلمة ﴿عَبْدًا﴾ يدل على كونه كاملاً في العبودية. والمراد بالآية: ما أجهل من ينهى أشد الخلق عبودية عن الصلاة، وذلك مذموم عند العقلاء.

روي أن علياً رضي الله عنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيتم رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقليل له: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑩﴾ فلم يصرح بالنهي عن الصلاة. وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال أبو يوسف: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهم اغفر لي؟ فقال: يقول: ربنا لك الحمد، ويسجد، ولم يصرح بالنهي عن الدعاء^(١).

(١) تفسير الرازي: ٢١/٣٢، غرائب القرآن: ١٣٦/٣٠

٢ - ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي أخبرني أيضاً عن حال هذا الطاغية الناهي، إن كان على طريق سديد فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى، أو هل هو أمر بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، كما يعتقد؟

والأكثر على أن الخطاب للنبي ﷺ أيضاً، ليكون الكلام على نسق واحد. وقيل: الخطاب للكافر، والمعنى: أرايت يا كافر إن كانت صلاة هذا العبد المنهي هدى، ودعاؤه إلى الدين أمراً بالتقوى، أتناهى مع ذلك؟ والتقوى: الإخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تُتقى به النار. ويتصور هذا كأن الظالم والمظلوم حضرا عند الحاكم، أحدهما المدعى، والآخر المدعى عليه، ثم خاطب هذا مرة، أي في الكلام الأول: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي بَنَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وهذا مرة أي في الكلام الثاني: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾﴾.

٣ - ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال هذا الكافر أبي جهل إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة، ومظاهر القدرة الباهرة، وبما جاء به رسول الله، وأعرض عن الإيمان بدعوتك؟ والجواب فيما دل عليه ما يأتي: ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القيحة، وأنه سيجازيه ويحاسبه على جرائمه؟

وهذا على رأي الأكثرين في أن الخطاب في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ في المواضع الثلاثة للنبي ﷺ. فإن كان الخطاب للكافر فالمراد بالآية الثالثة: إن كان محمد كاذباً أو متولياً عن الحق، ألا يعلم أن خالقه يراه حتى ينتهي، فلا يحتاج إلى نهيك؟ قال العلماء: هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل، إلا أن كل من ينهى عن طاعة الله فهو شريك في وعيد أبي جهل.

ثم جاء الزجر والتهديد والوعيد بصيغ مختلفة مبالغ فيها، وبعضها أشد من بعض:

١ - ﴿الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه ويطلع على أحواله، وسيجزيه بها أتم الجزاء، فكيف اجتراً على ما اجتراً عليه؟!

٢ - ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١١﴾ أي ليرتدع ويتزجر هذا الناهي عن البرِّ والعبادة لله تعالى، فوالله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر عن الشقاق والعناد، لتأخذن بناصيته، ولنجرته إلى النار. والناصية: شعر مقدم الرأس، وصاحبها كاذب خاطئ مستهتر بفعل الخطايا والذنوب.

وفي هذا توعّد شديد، وتهديد أكيد عن طغيان هذا الطاغية.

٣ - ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ سَدْعُ الزَّبَانَةِ ﴿١٢﴾ أي فليدع هذا الناهي أهل نادية أي قومه وعشيرته، ليستنصر بهم ويعينوه، والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم أو الأهل والعشيرة، فإنه إن دعاهم لنصرته، تعرض لسخط ربه وعقابه الأشد، وسندعو له حيثذ الزبانية، أي الملائكة الغلاظ الشداد، ليأخذوه ويلقوه في نار جهنم. وفي هذا تحدُّ بالخط.

روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتهدني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزلت، كما تقدم.

وروى البخاري والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة».

٤ - ﴿كَلَّا لَا تُطِيعُوهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ﴿١٣﴾ أي إياك يا محمد أن تجامل هذا الطاغية في شيء، أو تطيعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة كما قال: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨/٦٨]، وصلّى الله غير مكترث به، ولا مبال بتهديده

أو نبيه، وتقرب إلى الله سبحانه بالطاعة والعبادة، فذلك يكسبك قوة وعزة، ومنعة وهيبة في قلوب الأعداء، والعبادة هي الحصن والوقاية، وطريق النجاة والنجاح والنصر.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن قبائح أحواله وأفعاله. والمراد بنهي النبي ﷺ عن طاعة أبي جهل: قطع كل الصلات والعلاقات معه، والمراد بالأمر بالسجود: أن يزداد غيظ الكافر.

وهذا تهكم بهذا الطاغية، واستخفاف به، وتعريض بأن الله سبحانه وتعالى عاصم نبيه وحافظه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - وصف الله تعالى أبا جهل وأمثاله من الطغاة المتمردين المتكبرين بأنه ينهى الرسول ﷺ وأتباعه عن عبادة الله تعالى، وأنه فيما يأمر به من عبادة الأوثان ليس على طريق سديدة، ولا على منهج الهدى، ولا من الأمرين بالتقوى، أي التوحيد والإيمان والعمل الصالح، وأنه في الحقيقة مكذب بكتاب الله عز وجل، ومعرض عن الإيمان.

أ - هدد الله تعالى هذا الطاغية بالحشر والنشر، فإن الله تعالى عالم بجميع المعلومات، حكيم لا يهمل، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فلا بد أن يجازي كل أحد بما عمل. وفي هذا تحذير شديد للعصاة، وترغيب قوي لأهل الطاعة.

وهذه الآية، وإن نزلت في حق أبي جهل، فكل من نهى عن طاعة الله، فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد، كما تقدم.

ولا يعترض عليه بالمنع من الصلاة في الدار المغصوبة، والأوقات المكروهة؛ لأن المنهي عنه غير الصلاة، وهو المعصية.

كذلك لا يعترض عليه بمنع الزوجة عن صوم التطوع وعن الاعتكاف؛ لأن ذلك لاستيفاء مصلحة الزوج بإذن الله، لا بغضاً بعبادة ربه.

٣ - زاد الله تعالى في الزجر والوعيد لذلك الطاغية أبي جهل وأمثاله: بأنه إن لم ينته عن أذى محمد ليأخذن الله بناصيته (مقدم شعر رأسه) وليذلته ويمجّره إلى نار السعير؛ لأن ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها، والخاطئ معاقب مأخوذ، والمخطئ^(١) غير مؤاخذ. والمراد أن صاحب تلك الناصية كاذب خاطئ، كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم، أي هو صائم في نهاره، قائم في ليله.

٤ - تحدى الله تعالى هذا الطاغية مع التهكم والتوبيخ بأن يطلب أهل مجلسه وعشيرته، ليستنصر بهم، فإنه إذا فعل أحضر الله الزبانية الملائكة الغلاظ الشداد لإلقائه في نار السعير.

٥ - بالغ الله تعالى في زجر هذا الكافر عن كبريائه، ونفى قدرته على تحقيق تهديده، وحقره وأبان صغر شأنه وعجز نفسه، فليس الأمر كما يظنه أبو جهل، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، وصلّ لله، وتقرب إلى جنبه بالطاعة والتعبد.

وإنما عبّر عن الصلاة لله بقوله ﴿وَأَسْجُدْ﴾ لما روى عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جبهته في الأرض، ساجداً لله». وعند مسلم عن أبي هريرة: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء».

(١) الخاطئ: الآثم القاصد للذنب. والمخطئ: من أراد الصواب، فصار إلى غيره.

وإنما كان ذلك؛ لأن السجود على الأرض نهاية العبودية والذلة، ولله غاية العزة، وله العزة التي لا مقدار لها، فكلما بعدت من صفته، قربت من جنته، ودنوت من جواره في داره. جاء في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب. وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قَمِينٌ^(١) أن يستجاب لكم»^(٢).

(١) قَمِينٌ: خَلِيقٌ وَجَدِيرٌ.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢٨/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَلَدَرِ

مكية، وهي خمس آيات

تسميتها:

سميت سورة القدر، أي العظمة والشرف تسمية لها بصفة ليلة القدر الذي أنزل الله فيها القرآن، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ ۝﴾ أي في ليلة عظيمة القدر والشرف.

مناسبتها لما قبلها:

أمر الله تعالى في سورة العلق نبيه ﷺ بقراءة القرآن باسم ربه الذي خلق، واسم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، ثم أبان في هذه السورة زمن البدء في نزول القرآن، وهو ليلة القدر ذات الشرف الرفيع والقدر العالي بسبب نزول القرآن فيها.

ما اشتملت عليه السورة:

تحدثت هذه السورة المكية عن تاريخ بدء نزول القرآن الكريم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والليالي والشهور، لنزول الملائكة وجبريل فيها بالأنوار والأفضال والبركات والخيرات على عباد الله المؤمنين الصالحين، من لدن أرحم الراحمين الذي يفيض بها على من يشاء.

معنى نزول القرآن في ليلة القدر:

معنى نزول القرآن في ليلة القدر، مع العلم بأنه نزل منجماً مقسّطاً على مدى ثلاث وعشرين سنة: أنه ابتداء إنزاله ليلة القدر؛ لأن بعثة النبي ﷺ كانت في رمضان.

وذلك لأن الله تعالى قال في هذه السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ﴾ وقال في سورة الدخان: ﴿حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [الدخان: ٤٤/٦-١].

وأما قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥/٢] فمعناه أنه ابتداء نزول القرآن في شهر رمضان المبارك.

وأما آية الأنفال: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْأَجْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٤١/٨] فلا تعني تحديد موعد نزول القرآن، وإنما تذكر المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ يوم بدر في السابع عشر من رمضان من الآيات المتعلقة بأحكام القتال، والملائكة، والنصر. وسمي يوم بدر يوم الفرقان لأنه فرق فيه بين الحق والباطل.

بدء نزول القرآن وفضائل ليلة القدر

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۚ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ۚ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾

القراءات:

﴿مَطْلَعٌ﴾:

وقرأ الكسائي (مطلع).

الإعراب:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يراد بالهاء القرآن، وأضمره وإن لم يجر له ذكر، للعلم به.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ﴿٢﴾ فيه صفة محذوفة، تقديره: خير من ألف شهر، لا ليلة قدر فيه، فحذف الصفة.

﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ ﴿هِيَ﴾: مبتدأ، و﴿سَلَّمَ﴾: خبره المقدم.

﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي إلى مطلع الفجر. ويقرأ أيضاً ﴿مَطْلَعٍ﴾ بكسر اللام، والقياس هو الفتح؛ لأنه من طَلَعَ يَطْلُعُ، بضم عين المضارع، والكسر على خلاف القياس.

البلاغة:

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ إطناب لذكرها ثلاث مرات، للتفخيم وزيادة العناية بها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ ﴿٢﴾ استفهام بقصد التفخيم والتعظيم.

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَحْيَ﴾ ذكر الخاص بعد العام، ذكر جبريل بعد الملائكة، للتنويه بقدره.

﴿الْقَدْرِ﴾، ﴿شَهْرٍ﴾، ﴿أَمْرٍ﴾، ﴿الْفَجْرِ﴾ سجع مرصع: وهو توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ القرآن، أضمره من غير سابقة ذكر له، للعلم به، والشهادة

بأنه غني عن التصريح والتعريف، وقد عظمه بإسناد إنزاله إليه، وعظم الوقت الذي نزل فيه بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (٢).

﴿أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي ابتداء إنزاله فيها، أو أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا على السفرة الكرام البررة، ثم كان جبريل ينزل به على رسول الله ﷺ منجماً مقسطاً على التدرج في ثلاث وعشرين سنة. قال ابن العربي: وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (٢) أي ما أعلمك يا محمد ما هذه الليلة؟ والاستفهام لتعظيم شأنها، وسميت بذلك لشرفها، أو لتقدير الأمور فيها، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (١) [الدخان: ٤/٤٤].

﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة قدر، فالعمل الصالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها. ﴿نَزَّلُ﴾ أي تنزل إلى الأرض أو السماء الدنيا، أو تقرّبهم إلى المؤمنين. ﴿وَالرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام. ﴿فِيهَا﴾ في الليلة. ﴿يَاذُنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمره. ﴿مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي كل أمر قضاه الله فيها لتلك السنة إلى قابل، وقوله: ﴿مِّنْ﴾ سببية، بمعنى الباء، أي من أجل كل أمر قدر في تلك السنة. والآية: ﴿نَزَّلُ﴾ لبيان سبب تفضيلها على ألف شهر.

﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أي ما هي إلا سلامة، والمعنى: لا يقدر الله فيها إلا السلامة، وأما في غيرها فيقضي بالسلامة والبلاء، أو لكثرة سلام الملائكة فيها على كل مؤمن ومؤمنة. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي إلى وقت مطلعته أو طلوعه.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي أن ليلة القدر خير

من ألف شهر، ونزول السورة هي بسبب ما ساءه من حكم بني أمية الذي دام ألف شهر، ولكنه حديث غريب ومنكر جداً.

وأخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن مجاهد: أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح فيها في سبيل الله.

نزل الآية (٣):

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، فعمل ذلك ألف شهر، فأنزل الله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ عملها ذلك الرجل.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ أي إنما نحن الله بدأنا إنزال القرآن في ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٣/٤٤] وهي في شهر رمضان؛ لقول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥/٢]. ثم أتممنا إنزاله بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الحاجة وما تقتضيه الوقائع والحوادث، تبياناً للحكم الإلهي فيها. قال الزمخشري رحمه الله: عظم الله القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها - أن أسند إنزاله إليه، وجعله مختصاً به دون غيره، والثاني - أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث - الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه^(١).

(١) الكشف: ٣٥١/٣

ثم ذكر الله تعالى فضائل تلك الليلة، فقال :

١ - ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۚ﴾^(١)
أي وما أعلمك ما ليلة القدر؟ وهذا لتفخيم شأنها وتعظيم قدرها، وبيان مدى شرفها، وسميت بذلك؛ لأن الله تعالى يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة، أو لعظيم قدرها وشرفها. قال الزمخشري: معنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها، من قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٢) [الدخان: ٤٤/٤].

وقدرها أيضاً: أن العمل فيها، وهي ليلة واحدة، خير من العمل في ألف شهر.

أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم».

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه».

٢ - ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ۚ﴾^(٣) أي تهبط الملائكة وجبريل من السماوات إلى الأرض بكل أمر ومن أجل كل أمر قدّر في تلك الليلة إلى قابل، قال النبي ﷺ: «إن الله يقدر المقدر في ليلة البراءة، فإذا كان ليلة القدر يسلمها إلى أربابها». ولا يفعلون شيئاً إلا بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤/١٩]. والروح: هو جبريل عليه السلام، خصّ بالذكر لزيادة شرفه، فيكون من باب عطف الخاص على العام.

ومن فوائد نزول الملائكة: أنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات ما لم

يروه في سكان السماوات، ويسمعون أنين العصاة الذي هو أحب إلى الله من زجل المسبّحين، فيقولون: تعالوا نسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من تسييحنا.

ولعلّ للطاعة في الأرض خاصية في هذه الليلة، فالملائكة أيضاً يطلبونها طمعاً في مزيد الثواب، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعاته هناك أكثر ثواباً.

٣ - ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾ أي هذه الليلة المحفوفة بالخير بنزول القرآن وشهود الملائكة، ما هي إلا سلامة وأمن وخير وبركة كلها، لا شرّ فيها، من غروب الشمس حتى وقت طلوع الفجر، يستمر فيها نزول الخير والبركة، ونزول الملائكة بالرحمة فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ - بدأ نزول القرآن العظيم في ليلة القدر من ليالي رمضان المبارك.

٢ - ليلة القدر هي ليلة الشرف والتعظيم، وليلة الحكم والتقدير، يقدر الله فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلّمه إلى مدبّرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبرائيل عليهم السلام.

٣ - العمل في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر.

٤ - تهبط الملائكة من كل سماء، ومن سيّدة المستهى، وجبريل حيث مسكنه على وسطها إلى الأرض، ويؤمنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر. وهم ينزلون في ليلة القدر بأمر ربهم من أجل كل أمر قدّره الله وقضاه في تلك

السنة إلى قابل، كما قال ابن عباس: وهذه الآية دالة على عصمة الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤/١٩] وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْفِقُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ﴾ (٧٧) [الأنبياء: ٢٧/٢١] .

ة - تلك الليلة ليلة أمن وسلام، وخير وبركة من الله تعالى، فلا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة، وهي ليلة ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة. وليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى. وهي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر. والخلاصة: اشتملت هذه الليلة على الخيرات والبركات وتقدير الأرزاق، والمنافع الدينية والدنيوية.

يؤيد هذا ما أخرجه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهن، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر: تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو آخر ليلة» .

تعيين ليلة القدر:

الذي عليه أكثر العلماء أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان، كل عام؛ لحديث زرّ بن حبيش الذي أخرجه مسلم والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، قال: قلت لأبي بن كعب: إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول: من يقيم الحول يصب ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن! لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس، ثم حلف لا يستثني^(١): أنها ليلة سبع وعشرين. قال: قلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، أو بالعلامة: أن الشمس تطلع يومئذ لا شعاع لها.

(١) أي جزم في حلفه بلا استثناء فيه، بأن يقول عقب عيمته: إن شاء الله..

والجمهور على أن هذه الليلة باقية في كل عام، ومختصة برمضان.

أماراتها أو علاماتها:

من علاماتها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة شُمُحَة طَلْقَة، لا حارّة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء». وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت ليلة القدر، فأنسيها، وهي في العشر الأواخر من لياليها، وهي طَلْقَة بَلْجَة، لا حارّة ولا باردة، كأن فيها قمرًا، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها».

وروي أن النبي ﷺ خرج ليخبر عن ليلة القدر، فوجد رجلين يتنازعان، فنسي الخبر.

الحكمة في إخفائها بين الليالي:

الحكمة في إخفاء ليلة القدر كالحكمة في إخفاء وقت الوفاة، ويوم القيامة، حتى يرغب المكلف في الطاعات، ويزيد في الاجتهاد، ولا يتغافل، ولا يتكاسل، ولا يتكل. ومن الإشفاق أيضاً ألا يعرفها المكلف بعينها لئلا يكون بالمعصية فيها خاطئاً متعمداً. وإذا اجتهد العبد في طلب ليلة القدر بإحياء الليالي المظنونة، باهى الله تعالى ملائكته، ويقول: كتّم تقولون فيهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠/٢] فهذا جُدُّهم في الأمر المظنون، فكيف لو جعلتها معلومة لهم؟ فهناك يظهر سرّ قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فضائلها:

أوجز الله تعالى كما تقدم بيان فضائلها بقوله سبحانه: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ

أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣٠﴾ وقوله تعالى: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾. والآية الأولى فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم، أما البشارة: فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير، ولم يبين قدر الخيرية. وأما التهديد: فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار، وأن إحياء مئة ليلة من القدر، لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق، بتطيف حبة واحدة، فدل ذلك على تعظيم حال الذنب والمعصية^(١). وفي الصحيحين عن أبي هريرة كما تقدم: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وقال الشعبي: وليلها كيومها، ويومها كليلها. وقال الفراء: لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويقدر في غيرها البلاء والنقم. وقال سعيد بن المسيب في الموطأ: من شهد العشاء من ليلة القدر، فقد أخذ بحظه منها. ومثله ومثل ما تقدمه لا يُذكر بالرأي.

(١) تفسير الرازي: ٣٢/٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

مكية، وهي ثمان آيات

تسميتها:

سميت سورة البينة؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ أي مفارقين ما هم عليه من الكفر، متهمين زائلين عن الشرك، حتى تأتيتهم الحجة الواضحة، وهي ذلك المُنزَّل الذي يتلوه رسول الله ﷺ، وتسمى أيضاً سورة: ﴿الْبَرِيَّةُ﴾، أو: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة كالعلة لما قبلها، فكأنه لما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ﴾ قيل: لم أنزل القرآن؟ فقل: لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم، حتى تأتيتهم البينة، فهي كالعلة لإنزال القرآن، المشار إليه في سورة القدر المتقدمة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المدنية تحدثت عن الأمور الثلاثة التالية:

١ - بيان علاقة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركون برسالة النبي ﷺ، وموقفهم منها، وإقلاعهم عن كفرهم بسببها: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝﴾ [الآيات: ١-٤] .

٢ - تحديد الهدف الجوهرى من الدين والإيمان، وهو إخلاص العبادة لله عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۝﴾ [الآية: ٥] .

٣ - توضيح مصير كل من الكفار المجرمين الأشقياء شر البرية، والمؤمنين الاتقياء السعداء خير البرية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [الآيات: ٦-٨] .

فضله:

أخرج الإمام أحمد عن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: «لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: يا رسول الله! إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيتاً، فقال النبي ﷺ لأبي: إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة، قال أبي: وقد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: نعم، قال: فبكى أبي» .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: وسماي لك؟ قال: نعم، فبكى» .

وأخرج أحمد والترمذي عن أبي بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، فقرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فقرأ فيها: ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب

الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفة غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفره» وقال الترمذي: حسن صحيح.

لا تكليف بلا بيان ولا عقوبة دون إنذار

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ۝﴾

الإعراب:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾: معطوف على ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ و﴿مُنْفَكِينَ﴾: خبر كان.

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو﴾: ﴿رَسُولٌ﴾: بدل مرفوع من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ قبله، أو على تقدير مبتدأ محذوف، تقديره هي رسول، وقرئ: (رسولاً) بالنصب على الحال.

﴿دِينُ الْقِيمَةِ﴾ أي الملة القيمة، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، ولولا هذا التقدير، لكان ذلك يؤدي إلى أن يكون ذلك إضافة الشيء إلى نفسه، وذلك لا يجوز.

﴿مُخْلِصِينَ﴾ منصوب على الحال.

للبلاغة:

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ثم قال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ﴾ إجمال ثم تفصيل.

﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ استعارة تصريحية في لفظ ﴿مُطَهَّرَةً﴾ حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الأنجاس.

﴿الْبَيْتَةُ﴾، ﴿الْقِيَمَةُ﴾، ﴿حَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، ﴿مَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ توافق الفواصل، وهو من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿مِنْ﴾ للبيان. ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأوثان والأصنام. ﴿مُنْفَكِينَ﴾ متهمين عن كفرهم، زائلين عما هم عليه، مفارقين له. ﴿الْبَيْتَةُ﴾ الحجة الواضحة التي يتميز بها الحق من الباطل، مأخوذة من البيان: وهو الظهور، والمراد هنا: الرسول أو القرآن، فإنه مبين للحق. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة: وهي ما يكتب فيه. ﴿مُطَهَّرَةً﴾ خالية من الباطل، مبرأة من الضلال والزور.

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ ﴿٢﴾ في الصحف مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق، أي إن الرسول يتلو مضمون الكتب، وهو القرآن. ﴿وَمَا لَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عما كانوا عليه، بأن آمن بعضهم بالقرآن، وكفر به بعضهم. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ الدليل الواضح الدال على الحق، وهو الرسول ﷺ أو القرآن الجائي به معجزة له.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ في كتبهم كالتوراة والإنجيل. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي إلا أن يعبدوه، فحذفت (أن) وزيدت اللام. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ جاعلين الدين له وحده نقياً من الشرك، لا يشركون به. والإخلاص: الإتيان بالعمل خالصاً لله تعالى دون إشراك به. والدين: العبادة. ﴿حُفَاءً﴾ مائلين عن الباطل والعقائد الزائغة، جمع حنيف: وهو في الأصل المائل المنحرف عن الشيء إلى غيره، والمراد هنا: المستقيمين على دين إبراهيم ودين محمد حين مجيئه. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ دين الملة المستقيمة.

التفسير والبيان:

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ لجميع العالمين من الإنس والجن، ولجميع الأمم والشعوب في عصره والعصور التالية له، ولكل أهل الملل والأديان، حتى أهل الكتاب والمشركين الذين بعدوا عن الدين الصحيح، لذا قال تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ (١) أي لم يكن الذين جحدوا رسالة النبي ﷺ وأنكروا نبوته، من اليهود والنصارى وعبداء الأصنام والأوثان من مشركي العرب وغيرهم، متتهين عما هم عليه من الكفر، مفارقين لكفرهم الموروث، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي رسول الله ﷺ أو القرآن الكريم.

والمراد إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن يتنهوا عن كفرهم وشركهم بالله، حتى يأتيهم الرسول ﷺ وما جاء به من القرآن، فإنه بين لهم ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان.

ثم أوضح المراد بالبيئة فقال:

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۖ﴾ (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ أي تلك البيئة هي محمد ﷺ الذي أرسله رحمة للعالمين، يقرأ عليهم ما تتضمنه صحف القرآن، المطهرة من الخلط والكذب، والشبهات والكفر، والتحريف واللبس، بل فيها الحق الصريح الذي يبين لأهل الكتاب والمشركين كل ما يشبه عليهم من أمور الدين، وفيها الآيات والأحكام المكتوبة المستقيمة المستوية المحكمة، دون زيف عن الحق، وإنما هي صلاح ورشاد، وهدى وحكمة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤) [فصلت: ٤٢/٤١] وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عِوَجًا ۖ قِيمًا لِّسُنْدَرٍ بَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٥) [الكهف: ١٨/٢].

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ [عبس: ١٢/٨٠-١٦].

ثم أبان تفرُّق الكتّابين، فقال:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) أي لا تتأسف يا محمد على الكتّابين، فإن تفرقهم واختلافهم لم يكن لاشتباه الأمر عليهم، بل كان بعد وضوح الحق، وظهور الصواب، ومجيء الدليل المرشد إلى الدين الحق والبينة الواضحة وهو محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته ووصفه، فلما بعث الله محمداً، تفرقوا في الدين، فأمن به بعضهم، وكفر آخرون، وكان عليهم أن يتفقوا على طريقة واحدة، من اتباع دين الله، ومتابعة الرسول الذي جاءهم من عند الله، مصدقاً لما معهم.

ونظير الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) [آل عمران: ١٠٥/٣]. وقد أعذر من أنذر، كما قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢/٨].

وجاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

ثم ونجّهم على انحرافهم عن الهدف الجوهرى من الدين، وهو إخلاص العبادة لله، فقال:

(١) تفسير ابن كثير: ٥٣٧/٤

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾ أي إنهم تفرقوا واختلفوا، مع أنهم لم يؤمروا في التوراة والإنجيل أو في القرآن الذي جاءهم من عند الله إلا بعبادة الله وحده، وتكون عبادتهم خالصة لا يشركون به شيئاً، ويخلصون العبادة لله عز وجل، مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، ويفعلون الصلوات على الوجه الذي يريده الله في أوقاتها، ويعطون الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس عند حلول وقتها. وهذا الذي أمروا به يقتضي الاتحاد والاتفاق، لا الشقاق والافتراق، ولم يحى محمد ﷺ إلا بمثل ما أمر به الرسل من ذلك، ومنهجه اتباع ملة إبراهيم عليه السلام الذي مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله كما قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣/١٦] .

وذلك الدين: وهو إخلاص العبادة، وترك كل ما يعبد من دونه، وأداء الصلوات لله في أوقاتها، وبذل الزكاة للمحتاجين، هو دين الملة المستقيمة.

وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي، أي إن المشروع في حقهم مشروع في حقنا. والأولى أن يكون المراد كما ذكر الرازي: وما أمر أهل الكتاب في القرآن أو على لسان محمد ﷺ إلا بهذه الأشياء، لأن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً، وحل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى، ولقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي محمد ﷺ، ولأن الله تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ وهو شرع محمد ﷺ.

وهذه الآية دالة على أن التفرق والكفر فعلهم بدليل قوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾. والمقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ، أي لا يحزنك أو لا يغمئك تفرقهم، فليس ذلك لقصور في الحجة، بل لعنادهم، وهكذا كان

سلفهم، تفرقوا في السبت وعبادة العجل بعد قيام البيعة عليهم، فهي عادة قديمة لهم.

وقوله: ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ اللام في موضع (أن) أي إلا أن يعبدوا، والعرب تجعل اللام في موضع (أن) في الأمر والإرادة كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦/٤] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ [الصف: ٨/٦١] وقال في الأمر: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ﴾ [الأنعام: ٧١/٦].

وبما أن الإخلاص: عبارة عن النية الخالصة، والنية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به، فلا بد وأن يكون متوياً. قالت الشافعية: بما أن الوضوء مأمور به في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦/٥] ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون متوياً، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء متوياً. وعلى هذا لا بد في المأمورات من النية: بأن يقصد الشخص بعمله وجه الله. أما المنهيات فإن تركها بدون نية لم يؤجر في تركها، وإن تركها ابتغاء وجه الله، كان مأجوراً على تركها، وأما المباحات كالأكل والنوم، فإن فعلها بغير نية لم يؤجر، وإن فعلها بقصد وجه الله والتقوي بها على الطاعة، كان له فيها أجر.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا: العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبد، وهو رب، فلو لم يكن هناك ثواب ولا عقاب ألبتة، ثم أمرك بالعبادة، وجبت لمحض العبودية. وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب، فالحق واسطة.

والعبادة هي التذلل، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ؛ لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام، وما أطاعوهم. والعبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً في ذاته وصفاته الذاتية والفعلية.

والإخلاص: هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل. وقوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص: هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، فيأتي بالفعل مخلصاً لربه، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر، بل قالوا: لا يجعل طلب الجنة مقصوداً، ولا النجاة من النار مطلوباً، وإن كان لا بدّ من ذلك. وقالوا أيضاً: من الإخلاص: ألا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير، مثل الواجب من الأضحية شاة، فإذا ذبحت اثنتين: واحدة لله، واحدة للأمير، لم يجز؛ لأنه شرك.

ثم إن هذه الآية: ﴿وَمَا أُمَرُوا﴾ دليل على أن الإيمان عبارة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل؛ لأن الله تعالى ذكر العبادة المقرونة بالإخلاص وهو التوحيد، ثم عطف عليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم أشار إلى المجموع بقوله: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾^(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - للإسلام وشارعه فضل على جميع الأمم والخلائق، فلولاه لما عرف إيمان صحيح، ولا دين حق.

٢ - من هذه الفضائل والمزايا: أن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين عبدة الأوثان والأصنام لم يصيروا متبهين عن كفرهم، مائلين أو زائلين عنه إلا بمجيء البينة وهي الحجة الواضحة، وهي محمد ﷺ بما جاء به من القرآن العظيم، حجة الله على عباده، ومعجزة رسوله مدى الحياة، وهو

(١) تفسير الرازي: ٤٣/٣٢ - ٤٨

الذي يتلو منه على أسماع البشر صحفاً مطهرة من الزور والشك والنفاق والضلالة، كما قال ابن عباس، وفي تلك الصحف مكتوبات مستقيمة مستوية محكمة، مستقلة بالدلائل.

والصحف: القراطيس التي يكتب فيها القرآن، المطهر من النقائص، ومسّ المحدث إياه. ومعنى تلاوة الصحف: إملاؤه إياها. عن جعفر الصادق رضي الله عنه: أنه ﷺ كان يقرأ من الكتاب، وإن كان لا يكتب، ولعلّ هذا من معجزاته.

٣ - تقتضي الآية الأولى: ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ أن أهل الكتاب منهم كافر، ومنهم مؤمن ليس بكافر. أما المشركون فلا يتقسمون هذه القسمة، وكلهم كفار؛ لأن كلمة ﴿مِنْ﴾ هنا ليست للتبعض، بل للتبيين، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَبِئُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠/٢٢] فقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ بيان للذين كفروا، والمراد أن الكفار فريقان: بعضهم أهل الكتاب ومن يجري مجراهم كالمجوس، وبعضهم مشركون. وكلمة ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وصف لأهل الكتاب؛ لأن النصارى مثلية، وعامة اليهود مشبهة، وهذا كله شرك.

٤ - في الآية الأولى أحكام شرعية هي:

أولاً - أنه تعالى فسر قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأهل الكتاب وبالمشركين، وهذا يقتضي كون الكل واحداً في الكفر، لذا قال العلماء: الكفر كله ملة واحدة، فالمشرك يرث اليهودي وبالعكس.

ثانياً - أن العطف أوجب المغايرة، فلذلك نقول: الذمي ليس بمشرك. وقال ﷺ عن المجوس فيما أخرجه الشافعي عن عبد الرحمن بن عوف: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم» فأثبت التفرقة بين الكتابي والمشرك. لكن قوله: «غير ناكحي» إلخ، زيادة ضعيفة.

ثالثاً - نبّه بذكر الكتاب على أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم؛ إذ قد حدث في أهل القرآن مثلما حدث في الأمم الماضية^(١).

٥ - خصّ الله تعالى أهل الكتاب بظهور التفرق فيهم دون غيرهم، وإن اشتركوا مع بقية الكفار في الكفر؛ لأنه مظنون بهم علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

٦ - حدثت ظاهرة تفرق أهل الكتاب بعد البعثة النبوية، وذلك أنهم كانوا مجتمعين متفقين على نبوته، فلما بعث محمد ﷺ، جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر بغياً وحسداً، ومنهم من آمن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤/٤٢].

٧ - ما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل والقرآن إلا أن يوحدوا الله تعالى، ويخلصوا له العبادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١/٣٩] وأن يكونوا حنفاء، أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام المرضي وحده عند الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩/٣] وأن يقيموا الصلاة بمحدودها في أوقاتها، ويعطوا الزكاة عند حلول أجلها، وذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة، أي الدين المستقيم، أو دين الملة القيمة، أو دين الأمة القيمة القائمة بالحق.

٨ - قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ دليل على وجوب النية في العبادات؛ فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى، لا غيره.

٩ - الإخلاص لبّ العبادة، جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، تركته وشركه».

وعيد الكفار ووعد الأبرار وجزاء الفريقين

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ⑥ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ⑦ ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ⑧

القراءات:

﴿الْبَرِيَّةِ﴾:

وقرأ نافع، وابن ذكوان (البرية).

الإعراب:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ «خَالِدِينَ» منصوب على الحال من ضمير مقدر، تقديره: يجزونها خالدين فيها. و﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان مستقبل يتعلق بـ ﴿خَالِدِينَ﴾ وأما (قط) فللماضي، تقول: والله لا أكلمه أبداً، وما كلمته قط.

البلاغة:

﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ و﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية، و﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية فيهما مقابلة بين عذاب الكفار الفجار، وبين نعيم المؤمنين الأبرار.

المفردات اللغوية:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها يوم القيامة على الدوام، بتقدير الله تعالى، ويلاحظ أن اشتراك أهل الكتاب والمشركون في جنس العذاب لا يوجب

اشتراكهما في نوعه، فربما اختلف لتفاوت كفرهما. ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ الخليفة أو الخلق، ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾ إقامة. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته، وهو زيادة على جزائهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه وفضله، وهو أقصى أمانهم. ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الجزاء والرضوان. ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ خاف عقابه، فانتهى عن معصية الله تعالى، فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير.

قال البيضاوي عن وعد المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه مبالغات: تقديم المدح، وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به، والحكم عليه بأنه من عند ربهم، وجمع جنات، وتقبيدها إضافة ووصفاً بما يزداد لها نعيماً، وتأكيده الخلود بالتأييد^(١).

المناسبة:

بعد بيان موقف الكفار والمشركين من دعوة النبي ﷺ، ذكر الله تعالى وعيد الكفار، ووعد الأبرار، وجزاء الفريقين، وقدم وعيد أهل الكتاب على المشركين؛ لأنه ﷺ كان يقدم حق الله على حق نفسه، ولهذا حين كسروا رباعيته في غزوة أحد قال: «اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون» وحيث فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال: «ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً» فقال الله تعالى: كما قدّمت حقي على حقك، فأنا أيضاً أقدم حقك على حقي. فمن ترك الصلاة طول عمره لم يكفر، ومن طعن فيك بوجه يكفر، ثم إن أهل الكتاب طعنوا فيك، فقدّمتهم في الوعيد على المشركين الذين طعنوا في. ثم إن أهل الكتاب أولى بالإيمان بالرسول محمد ﷺ، فهم في الجملة يؤمنون بدين، ويقرون بنبي آخر الزمان، وعلاماته في كتبهم، فطعنهم به في غير محله، فاستحقوا التقديم في الوعيد لذلك^(٢).

(١) تفسير البيضاوي: ص ٨٠٦

(٢) غرائب القرآن: ١٥٣/٣٠، تفسير الرازي: ٤٩/٣٢

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن مآل الفجار الكفار فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ أي إن الذين خالفوا كتب الله المنزل، وأنبياء الله المرسل، من اليهود والنصارى وعبدوا الأصنام، مآلهم يوم القيامة في نار جهنم المستعرة، يصيرون إليها، ماكثين فيها على الدوام، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، وهم حالاً شر الخليقة التي برأها الله وذراها؛ لأنهم تركوا الحق حسداً وبغياً، فيكونون شر الخليقة مصيراً. والسبب في أنه لم يقل هنا خالدين فيها أبداً، كما فعل في الأبرار؛ لأن رحمته أزيد من غضبه. وقوله: ﴿هُم شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لإفادة النفي والإثبات، أي هم دون غيرهم.

ثم أخبر الله تعالى عن حال الأبرار، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ أي إن الذين آمنوا بقلوبهم وبربهم وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات بأبدانهم، هم أفضل الخلق حالاً ومآلاً.

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين الأبرار على الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

ثم ذكر جزاءهم فقال:

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۖ﴾ أي جزاؤهم يوم القيامة عند خالقهم ومالكهم على الإيمان والعمل الصالح جنات، أو بساتين إقامة دائمة تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، لا يخرجون منها، ولا يرحلون عنها، ولا يموتون، بل هم دائمون في نعيمها،

مستمرون في لذاتها إلى الأبد، لا نهاية لتعيمهم. وكلمة الجزاء تفيد معنيين: أحدهما - أن يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص، والثاني - أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية؛ لأن الجزاء اسم لما يقع به الكفاية، فلا يبقى في نفسه شيء إلا ويحققه له، كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١/٤١]. وقوله: ﴿تَجْرَى﴾ إشارة إلى أن الماء الجاري ألطف من الراكد.

رضي الله عنهم؛ لأنهم أطاعوا أمره، وقبلوا شرائعه، ورضوا عنه، بما منحهم من الثواب والفضل العميم، وتحقيق المطالب مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهذا الجزاء والرضوان حاصل لمن خاف الله واتقاه حق تقواه، وعبدته كأنه يراه، وانتهى عن معاصيه بسبب ذلك الخوف.

وفي ذلك تحذير من خشية غير الله، وتنفير من إشراك غيره به في جميع الأعمال، وترغيب في تقوى الله ورهبته، حتى يصبح العمل خالصاً لله وحده. كما أن فيه إيماء إلى أن شرط أداء العبادة كالصوم والصلاة: خشية الله والخشوع له.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هَيْعَة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: رجل في ثُلَّة من غنمه، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بخير البرية؟ قالوا: بلى، قال: الذي يسأل بالله ولا يعطى به».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - استحق أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركون عبدة الأصنام

بسبب كفرهم بالإسلام ثلاث عقوبات: دخول نار جهنم، والخلود فيها، ووصفهم بأنهم دون غيرهم هم شر البرية وشر خلق الله.

وقوله في وعيدهم: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ وفي آية الرعد: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إشارة كما تقدم إلى كمال كرمه وسعة رحمته، كما قال في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «سبقت رحمتي غضبي».

٢ - قال العلماء: آية الوعيد هذه مخصوصة في صورتين:

إحداها - أن من تاب منهم وأسلم، خرج من الوعيد.

والثانية - أن من مضى من الكفرة يجوز ألا يدخل فيها؛ لأن فرعون كان شراً منهم.

٣ - استحق الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح أربعة أنواع من الجزاء: وصفهم بأنهم خير البرية، ودخول جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، والخلود فيها أبداً، ورضوان الله عليهم، أي رضا أعمالهم، ورضاهم عن الله، أي رضاهم بثواب الله تعالى.

٤ - وعملوا الصالحات: والخلود في الجنة خير من الجنة، ورضا الله خير من الجنة. إما من مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً، أو مقابلة الفرد بالفرد، فلا مكلف يأتي بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ، فحظ الغني الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ، كما لو قال لامرأته: إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا، فيحمل على أن يدخل كل واحدة منهما داراً على حدة.

٥ - احتج بعضهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ﴾ أي الخليفة، ويؤيده قراءة الهمز، على تفضيل البشر على الملائكة، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «أتعجبون من منزلة الملائكة من الله، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة، أعظم من ذلك، وقرأ هذه الآية».

والجواب بأن الملائكة أيضاً داخلون في الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو المراد بالبرية: بنو آدم؛ لأن اشتقاقها من البرى: وهو التراب، لا من برأ الله الخلق، فلا يدخل الملائكة في الآية البتة.

٦ - قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ مع قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [فاطر: ٢٨/٣٥] ظاهر في أن العلماء بالله هم خير البرية، اللهم اجعلنا منهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مدنية، وهي ثمان آيات

تسميتها

سميت سورة الزلزلة أو الزلزال؛ لافتتاحها بالإخبار عن حدوث الزلزال العنيف قبيل يوم القيامة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. وهي سورة مدنية، وقال ابن كثير: هي مكية.

مناسبتها لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى في آخر سورة البينة وعيد الكافر ووعد المؤمن، وأن جزاء الكافرين نار جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، بين هنا وقت ذلك الجزاء وبعض أماراته، وهو الزلزلة وإخراج الأرض أثقالها، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي يكون يوم زلزلة الأرض. ثم إنه تعالى أراد أن يزيد في وعيد الكافر، فقال: أجازيه حينما تزلزل الأرض، مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٦]. ثم ذكر ما للطافتين، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٦]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٧]. ثم جمع بينهما هنا في آخر السورة بذكر الذرة من الخير والشر.

ما اشتملت عليه السورة:

أسلوب هذه السورة المدنية وموضوعها يشبه أسلوب وموضوع السور المكية، لإخبارها عن أهوال القيامة وشدائدها.

وقد اشتملت على مقصدين:

١ - بيان حدوث الزلزال والاضطراب الشديد للأرض يوم القيامة، فينهار كل ما عليها، ويخرج الناس الموتى من بطنها من قبورهم، وتشهد حينئذ على كل إنسان بما عمل على ظهرها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الآيات: ١-٥).

٢ - الحديث عن ذهاب الخلائق لموقف العرض والحساب، ثم مجازاتهم على أعمالهم، وقسمتهم فريقين: سعيد إلى الجنة، وشقي إلى النار: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّسِرِّهِمْ أَعْمَلْتُمْ﴾ (الآيات: ٦-٨).

سبب نزولها:

كان الكفار يسألون كثيراً عن الساعة ويوم الحساب، فيقولون: ﴿إِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة: ٦/٧٥). ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الملك: ٢٥/٦٧). ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾^(١) [السجدة: ٢٨/٣٢] ونحو ذلك، فأبان لهم في هذه السورة علامات القيامة فحسب، ليعلموا أن علم ذلك عند الله، ولا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم للعرض والحساب والجزاء.

فضلها:

أخرج الترمذي وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: «أتى رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: اقرأ ثلاثاً من ذوات

(١) أي متى الفتح الذي تعدوننا به، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده؟

الراء، فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني، قال: فاقراً من ذوات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبحات، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: ولكن أقرئي يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى إذا فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق نبياً، لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويحل، أفلح الرويحل، ثم قال: عليّ به، فجاءه، فقال له:

أمرت بيوم الأضحى، جعله الله عيداً لهذه الأمة، فقال له الرجل: أرايت إن لم أجد إلا منيحة أنثى، فأضحّي بها؟ قال: لا^(١)، ولكنك تأخذ من شعرك، وتقلّم أظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فذاك تمام أضحيتك عند الله عز وجل.

وأخرج الترمذي - وقال: هذا حديث حسن - عن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج!! قال: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، تزوج».

(١) هذا في بداية الأمر، ثم أبيح التضحية بالأنثى، واتفقت المذاهب على جواز ذلك، إلا أن الفحل أفضل من الأنثى.

أمارات القيامة والجزاء على الخير والشر

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّسُرُورِ أَعْمَلَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

القراءات:

﴿يَصْدُرُ﴾:

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بإشمام الصاد الزاي، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ «إِذَا» ظرف، والعامل فيه إما «فَمَنْ يَعْمَلُ» أو «تُحَدِّثُ» ويكون «يَوْمَئِذٍ» تكراراً وبدلاً من «إِذَا»، وتقديره: إذا زلزلت الأرض تحدث أخبارها. و«زِلْزَالَهَا»: منصوب على المصدر، بكسر الزاي الأولى، ولو فتح لكان اسماً، وقيل: هو بالفتح أيضاً مصدر. «أَشْتَاتًا» منصوب على الحال من «النَّاسُ» جمع (شَتَّ) وهو المتفرق. «فَمَنْ يَعْمَلُ» «وَمَنْ يَعْمَلُ» (من) في الموضعين: شرطية في موضع رفع بالابتداء. و«يَرَهُ»: خبره.

البلاغة:

«زِلْزَالَهَا» الإضافة للتحويل. و«زُلْزِلَتِ» «زِلْزَالَهَا» بينهما جناس الاشتقاق.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتوكيد.
 ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ﴿٤﴾؟ استفهام للتعجب والاستغراب أو الاستهجان.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٦﴾ بينهما مقابلة.

﴿زَلَزَلَاهَا﴾، ﴿أَنفَالَهَا﴾، ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ﴿أَخْبَارَهَا﴾، ﴿مَا لَهَا﴾ سجع مرصع من المحسنات البديعية.

﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ تضمين، ضمن ذلك معنى الإذن والأمر لها.

المفردات اللغوية:

﴿زَلَزَلَتْ﴾ الزلزال: التحريك والاضطراب الشديدان، وذلك يحصل عند النفخة الأولى أو الثانية أو الممكن لها في الحكمة الإلهية. ﴿أَنفَالَهَا﴾ الأثقال في الأصل: أمتعة البيت، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفَالَكُمْ﴾ [النحل: ١٦/ ٧] جمع ثقل: متاع البيت، والمراد هنا: ما في جوف الأرض من الكنوز والدفائن والأموات، وتخرج أنفالها: تلقئها على ظهرها. ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ﴿٤﴾ يتساءل الإنسان عما يبهره من الأمر الفظيع وإنكاراً لتلك الحالة، وقيل: المراد بالإنسان: الكافر بالبعث، فإن المؤمن يعلم ما لها. ﴿تَحَدَّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تخبر بما عمل عليها من خير وشر. وهي تحدث الخلق إما بلسان الحال وهو ما لأجله زلزالها وإخراجها، أو ينطقها الله فتخبر بما عمل عليها. وهو جواب ﴿إِذَا﴾ جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن أبي هريرة: «تشهد على كل عبد أو أمة بكل ما عمل على ظهرها».

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ أي تحدث بسبب أن ربك ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أمرها بذلك، والوحي: الإلهام بخفاء، يقال: أوحى له وإليه، ووحى له وإليه: كلمه خفية

أو ألهمه ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يرجعون وينصرفون من موقف الحساب. ﴿أَشْنَاءُ﴾ متفرقين متمايزين بحسب مراتبهم وأعمالهم. ﴿لِيرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ يروا جزاء أعمالهم من الجنة أو النار. ﴿ذَرَّةٌ﴾ الذرة: الهباء الذي يرى في ضوء الشمس الداخل من نافذة، أو النملة الصغيرة، و﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ زنة غلة أو هباء، وهو مثل في الصغر. ﴿خَيْرًا يَرَوْهُ﴾ يرى ثوابه. ﴿شَرًّا يَرَوْهُ﴾ يرى جزاءه. وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ تفصيل ﴿لِيرَوْا﴾.

سبب الخزول:

نزول الآية (٧، ٨):

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ﴾ الآية، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجرون على الشيء القليل، إذا أعطوه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة، والنظرة، والغيبة، وأشياء ذلك، ويقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فأنزل الله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ (٨).

وقد سُمي رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الجامعة الفأدة، حين سئل عن زكاة الحُمُر، فقال فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفأدة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾» (١).

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في رجلين، وذلك أنه لما نزل: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ﴾ كان أحدهما يأتيه السائل، فيسأل أن يعطيه التمرة والكسرة

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

والجوزة، ويقول: ما هذا بشيء، وإنما نؤجر على ما نعطي. وكان أحدهما يتهاون بالذنب الصغير، ويقول: لا شيء عليّ من هذا، فرغب الله تعالى في القليل من الخير؛ لأنه يوشك أن يكثر، وحذر من الذنب اليسير، فإنه يوشك أن يعظم، فلماذا قال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم: «اتقوا النار ولو بشقّ تمر، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

التفسير والبيان:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا تحركت الأرض من أسفلها حركة شديدة، واضطربت اضطراباً هائلاً حتى يتكسر كل شيء عليها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١/٢٢] وقال سبحانه: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ [الواقعة: ٤/٥٦].

﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا﴾ أُلْقَتْ ما في جوفها من الأموات والدفائن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [٢] وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ [٣] [الانشقاق: ٤-٣/٨٤]. وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قَطَعْتُ رَحْمِي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يَدِي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً».

وتخرج الأرض الأموات في النفخة الثانية.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ أي قال كل فرد من أفراد الإنسان لما يبهره أمرها ويذهله خطبها: ما لهذه الأرض؟ ولأي شيء زلزلت، وأخرجت أنقالها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي في ذلك الوقت المضطرب، وقت الزلزلة، تخبر الأرض بأخبارها، وتحدث بما عمل عليها من خير وشر، ينطقها الله سبحانه، لتشهد على العباد. قال ابن عباس في الآية: قال لها ربها: قولي، فقالت.

أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي - واللفظ له - عن أبي هريرة قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها؛ أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»^(١). وقال الطبري: إن هذا تمثيل، والمراد أنها تنطق بلسان الحال، لا بلسان المقال.

ثم أبان الله تعالى مصدر هذه الواقعة: فقال:

﴿يَأْنْ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي تحدث أخبارها بوحى الله وإذنه لها بأن تحدث وتشهد. فقوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أذن لها وأمرها، أو أوحى إليها، أي ألهمها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّسِرِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي في هذا اليوم المضطرب، وفي يوم الخراب المدمر، يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب، مختلفي الأحوال، فبعضهم آمن، وبعضهم خائف، وبعضهم بلون أهل الجنة، وبعضهم بلون أهل النار، ليربهم الله أعمالهم معروضة عليهم. هذا ما يراه بعض المفسرين كالشوكاني. فالصدر على هذا الرأي: هو قيامهم للبعث بعد أن كانوا مدفونين في الأرض، و﴿أَشْتَاتًا﴾ فرقا: مؤمن وكافر وعاص، سائرون إلى العرض، ليروا أعمالهم.

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال آخرون كابن كثير: يرجعون عن موقف الحساب أشثناً، أي أنواعاً وأصنافاً، ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار، ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر، فيكون المراد بقوله: ﴿لِيَسْرُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ ليروا جزاء أعمالهم، وهو الجنة والنار، ولهذا قال:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ (٨) أي فمن يعمل في الدنيا وزن غلة صغيرة أو هباء لا يرى إلا في ضوء الشمس، والمراد أي عمل مهما كان صغيراً، فإنه يجده يوم القيامة في كتابه، ويلقى جزاءه، فيفرح به، أو يراه بعينه معروضاً عليه. وكذلك من يعمل في الدنيا أي شيء من الشر ولو كان حقيراً أو قليلاً، يجد جزاءه يوم القيامة، فيسوؤه. والذَرَّةُ كما تقدم: ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، أو هو النملة الصغيرة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء: ٤٧/٢١] وقوله سبحانه: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١٩) [الكهف: ٤٩/١٨] .

وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة» وفي الصحيح له أيضاً: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من ذلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منبسط» وفي الصحيح أيضاً: «يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فرسن شاة» يعني ظلفها. وفي الحديث الآخر الذي أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ والنسائي عن حوَّاء بنت السكن: «ردُّوا السائل، ولو بظلف محرق» .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة استتري من النار، ولو بشق تمر، فإنها تسد من الجائع مسدّها من الشبعان» .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال: «كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) فرفع أبو بكر يده، وقال: يا رسول الله ﷺ إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال: يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذرّ الخير، حتى تُوفاه يوم القيامة» .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١) وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون، فيغفر لهم» .

حسنات الكافر: قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله تعالى إياه، فأما المؤمن فيغفر له سيئاته، ويثاب بحسناته. وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته.

وعلى هذا يعاقب الكافر بسبب كفره، وأما حسناته فتنتفعه في الدنيا، كدفع شر أو ضرر عنه، وأما في الآخرة فلا تفيده، ولا تنجيه من عذاب الكفر الذي يخلد به في النار، قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٣٣) [الفرقان: ٢٥/٢٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - من أمارات الساعة: الزلزلة الشديدة للأرض، وإخراج الأرض أثقالها، أي ما في جوفها من الدفائن والأموات. قالوا: إنها عند النفخة الأولى تنزل، فتلفظ بالكنوز والدفائن، وعند النفخة الثانية ترجف فتخرج الأموات أحياء، كالأم تلد حياً.

٢ - لا شك بأن الإنسان في وقت الزلازل والبراكين يرتجف ويخاف ويتساءل: ما للأرض زلزلت؟ ما لها أخرجت أثقالها؟ وهي كلمة تعجيب.

٣ - إذا زلزلت الأرض تخبر يومئذ بما عمل عليها من خير أو شر، ومعنى تحديث الأرض عند أبي مسلم الأصفهاني: يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله، فكأنها حدثت بذلك، كقولك: الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة، فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت، وأن الآخرة قد أقبلت. وقال الطبري: تُبين أخبارها بالرجة والزلزلة وإخراج الموق.

وقال الجمهور: المعنى أن الله تعالى يجعل الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً، ويعرفها جميع ما عمل أهلها، فحينئذ تشهد لمن أطاع، وعلى من عصى، قال عليه السلام في حديث الترمذي عن أبي هريرة: «إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها» ثم تلا هذه الآية^(١).

٤ - الذي تخبر به الأرض: إما أعمال العباد على ظهرها، كما جاء في حديث الترمذي عن أبي هريرة المتقدم: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها».

أو أنها تخبر بما أخرجت من أثقالها، كما جاء في حديث ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كان أجل العبد بأرض أو ثبته الحاجة

(١) تفسير الرازي: ٥٩/٣٢، تفسير القرطبي: ١٤٩/٢٠، غرائب القرآن: ١٥٧/٣٠

إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره، قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: رب هذا ما استودعني» .

أو أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان: ما لها؟ وهذا قول ابن مسعود، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن^(١).

٥ - في يوم الزلزلة يذهب الناس من مخارج قبورهم إلى الموقف، بعضهم إثر بعض، أو يرجعون وينصرفون من موقف الحساب إلى موضع الثواب والعقاب فرقاً فرقاً، ليروا صحائف أعمالهم، أو جزاء أعمالهم، وهو الجنة أو النار، وما يناسب كلاً منهما.

ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه، فإن كان محسناً فيقول: لم لا ازددت إحساناً؟ وإن كان غير ذلك يقول: لم لا نزعنت عن المعاصي»^(٢)؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب.

٦ - كل من يعمل في الدنيا عملاً خيراً صغيراً أو كبيراً، يره بعينه، أو يره الله إياه يوم القيامة، وكل من يعمل في الدنيا عملاً شراً مهماً كان قليلاً، يره بنفسه، أو يره الله إياه يوم القيامة. أو أن المراد: يجذ جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أما الكافر كما تقدم فحسنته في الآخرة محبطة بكفره، وترد في وجهه، ويجذ عقاب ما فعل من كفر أو شر، فيعذب بسيئاته، أي إن عموم الآية قائم، ولكن لا تقبل حسنات الكفار.

قال ابن مسعود عن آية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ : هذه أحكم آية في القرآن. وقد

(١) تفسير القرطبي: ١٤٨/٢٠ - ١٤٩

(٢) تفسير القرطبي: ١٥٠/٢٠

اتفق العلماء على عموم هذه الآية. قال كعب الأحبار: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصُحف: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) وكان النبي ﷺ - كما تقدم - يسمي هذه الآية الجامعة الفأدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

مكية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة العاديات؛ لأن الله افتتحها بالقسم بالعاديات: وهي خيل المجاهدين المسرعة في لقاء العدو.
مناسبتها لما قبلها:

تظهر المناسبة بين السورتين من وجهين:

أ - هناك تناسب وعلاقة واضحة بين قوله تعالى في الزلزلة: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢/٩٩] وقوله في هذه السورة: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

ب - لما ختمت السورة السابقة ببيان الجزاء على الخير والشر، وبأن الله تعالى الإنسان على جحوده نعم ربه، وإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة، وترك استعداده للحساب في الآخرة بفعل الخير والعمل الصالح، وترك الشر والعصيان.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية مقاصد ثلاثة:

أ - القسم الإلهي بخيل المجاهدين على أن الإنسان كفور جحود لنعم ربه عليه، وأنه مقرر شاهد على ذلك: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ صَبَحًا ①﴾ [الآيات: ٧-١].

٢ - التحدث عن غريزة الإنسان في حبه الشديد للثروة والمال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ②﴾ [الآية: ٨].

٣ - الحض على فعل الخير والعمل الصالح الذي ينفع الإنسان حين رجوع الخلاق إلى الله للحساب والجزاء، والتهديد بالعقاب الشديد يوم القيامة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ③﴾ [الآيات: ٩-١١].

جحود النعم والبخل لحب الخير

واهمال الاستعداد للآخرة

﴿وَالْعَدِيدَاتِ صَبَحًا ①﴾ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدَحًا ② فَأَلْمُورِيَّتِ صَبَحًا ③ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ⑤ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ⑨ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ⑩ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑪﴾

الإعراب:

﴿وَالْعَدِيدَاتِ صَبَحًا ①﴾ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدَحًا ②: ﴿صَبَحًا﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال، وهو صوت أنفاس الخيل حين عذوها، و﴿قَدَحًا﴾: مصدر مؤكد؛ لأن الموريات بمعنى القادحات.

﴿فَأَلْمُورِيَّتِ صَبَحًا ③﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④: ﴿صَبَحًا﴾: منصوب على الظرف، وأثرن: عطف على قوله: ﴿فَأَلْمُورِيَّتِ﴾ لأن المعنى: اللاتي أغرن صبحاً، فأثرن به نقعاً، أي جاز عطف الفعل على الاسم لأنه في تأويل الفعل. وهاء ﴿بِهِ﴾ تعود إلى المكان، وقد دلَّ الحال عليه.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (١) جواب القسم، ولام ﴿لِرَبِّهِ﴾ يتعلق بـ (كنود) أي إن الإنسان لكنود لربه. وقد حسن دخول لام الجر تقديمه على اسم الفاعل، كما مع الفعل الذي يشبهه في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤/٧] وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّعْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣/١٢].

﴿وَإِنَّكُمْ لِحَبِّ الْحَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨) أي، وإنه لأجل حب المال لبخيل، واللام تتعلق بـ (شديد) أي وإنه لشديد لأجل حب المال، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (٩) العامل في ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: ما دل عليه: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١). ولا يجوز أن يعمل فيه (خير) لأنه لا يجوز أن يعمل ما بعد (إن) فيما قبلها، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿يَعْلَمُ﴾ لأن الإنسان لا يطلب منه العلم في الآخرة، وإنما في الدنيا. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف عمل فيه ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ وجاز أن يعمل فيما قبله؛ لأن اللام في تقدير التقديم، بخلاف (إن).

البلاغة:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (١) ﴿وَإِنَّكُمْ لِحَبِّ الْحَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨) ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١) التأكيد بأن واللام لزيادة التقرير والبيان. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ ﴿لَشَدِيدٌ﴾ بينهما جناس ناقص، وكذلك بين ﴿صَبَحًا﴾ و﴿صَبَحًا﴾.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (٩) استفهام إنكاري للتهديد والوعيد.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١) تضمين، ضمن لفظ ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ معنى المجازاة، أي يجازيهم على أعمالهم.

﴿لَشَهِيدٌ﴾، ﴿لَشَدِيدٌ﴾، ﴿الضُّدُورُ﴾، ﴿الْقُبُورُ﴾ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿وَالْعَدِيدِ صَبَحًا ①﴾ أقسم بخيل المجاهدين تَعْدُو، فتصبح ضَبْحًا، قال أبو حيان: والظاهر أن المقسم به هو جنس العاديات، ﴿وَالْعَدِيدِ﴾ الخيل التي تعدو وتسرع في العدو أي الجري، جمع عادية. والضُّبْحُ: صوت أنفاس الخيل حين العدو أو الجري. ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾ الخيل القادحات التي توري النار، أي تخرجها، جمع مورية، والإبراء: إخراج النار بَرْنَد ونحوه. ﴿قَدَحًا﴾ القدح: إخراج النار، ويلاحظ أن الخيل إذا ركضت أو سارت في أرض ذات حجارة بالليل تقدح شرارة من النار بجوافرها. ﴿فَالْمُعِيرَاتِ صَبَحًا ②﴾ الخيل التي تغير أو تهجم على العدو بإغارة أصحابها، وقت الصبح، جمع مغيرة.

﴿فَأَتَرَنَ يَهُءَ﴾ هيجن بمكان عَدُوهُنَّ، أو بذلك الوقت وهو الصبح. ﴿نَقَعًا﴾ غبارًا، بشدة حركتهن. ﴿فَوَسَطَنَ يَهُءَ جَمْعًا ③﴾ توسطن بذلك الوقت أو بالعدو أو بالنقع جمعًا من جموع الأعداء، أي صرن وسط الجمع.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ④﴾ أي لكفور جحود نعمة الله تعالى عليه، والمراد به جنس الإنسان المتحدث عنه، وقيل: المراد به هنا: الكافر. ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑤﴾ أي وإنه على كنوده لشاهد، يشهد على نفسه بصنعه، لظهور أثره عليه. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ أَلْمَالُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكْ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠/٢]. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيل، أو لشديد الحب له، فيبخل به.

﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أثير وأخرج ما في القبور من الموتى، أي بعثوا. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الضُّدُورِ ⑥﴾ جمع محصلًا وأظهر ويُنَّ ما في القلوب من الكفر والإيمان، والشر والخير، والعزائم والنوايا، وتخصيص ذلك؛ لأن القلوب هي الأصل. ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑦﴾ لعالم، فيجازيهم على كفرهم. ويلاحظ أنه أعيد الضمير: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ جمعًا، نظرًا لمعنى الإنسان.

وهذه الجملة: دلت على مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾، أي إنا نجازيه حيثئذ. وتعلق (خبير) بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مع أنه تعالى خبير دائماً بكل شيء؛ لأنه يوم المجازاة.

سبب الغزول:

نزل الآية (١):

أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً، ولبثت شهراً، لا يأتيه منها خبر، فنزلت: ﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْحًا﴾ ①.

التفسير والبيان:

﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْحًا﴾ ① فَاَلْمُؤَيَّتِ قَنَحًا ② فَاَلْمُعِيَّتِ ③ أي قسماً بالخيـل التي تجري وتعدو بفرسانها المجاهدين في سبيل الله إلى العدو، ويسمع لها حيثئذ صوت زفيرها الشديد وأنفاسها المتصاعدة، بسبب شدة الجري. وتخرج شرر النار بجوافرها أثناء الجري بسبب اصطكاك نعالها بالصخر أو الحجر؛ وتغير أو تهجم على العدو وقت الصباح.

﴿فَاَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ④ فَوْسَطَنَ بِهِ جَمْعًا ⑤ فهيجن في الصباح أو مكان معترك الخيول غباراً يعلأ الجو، ثم توسطن بعُدوهم جمعاً من الأعداء، اجتمعوا في مكان، ففرقته أشتاتاً.

وإنما أقسم الله تعالى بالخيـل؛ لأن لها في الركض (العُدُو) من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، ولأن الخيل في نواصيها الخير^(١) إلى يوم القيامة، ولأنها وسيلة الغزو عند العرب، ولا تكاد تخلو في الأغلب من

(١) قال النبي ﷺ: «الخيـل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» رواه أحمد والشيخان والنسائي

الخطور بياهم. والمراد إعلاء شأنها في نفوس المؤمنين، لِيُغْنُوا بِتَرْبِيَّتِهَا، وليتدربوا عليها من أجل الجهاد في سبيل الله، وليعتادوا على معالي الأمور، وظواهر الجد والعمل.

وفي هذا القسم ترغيب باقتناء الخيل لهذه الأغراض النبيلة، لا للسمعة والمفاخرة والرياء.

وعلى هذا فاللام في العاديات للعهد، ويحتمل وهو الظاهر كما تقدم عن أبي حيان أن تكون للجنس، وليست أل فيه للعهد، ويدخل فيها خيل الجهاد والسرية دخولاً أولياً.

وجواب القسم المحلوف عليه هو:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي إن الإنسان كفور بطبعه للنعمة، كثير الجحد لها، وعدم الإقرار بمقتضاها الموجب لشكر الخالق المنعم، والخضوع لشرعه وأحكامه، إلا من جاهد نفسه، وعقل أمر الدنيا والآخرة، فأقبل على الطاعة والفضيلة، وأحجم عن المعصية والرذيلة.

والظاهر أن المراد بالإنسان هو الجنس، والأكثر على أن الإنسان هو الكافر؛ لقوله بعد ذلك: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾. لكنهم قالوا أيضاً: ويحتمل أن يراد أن جنس الإنس مفطور على ذلك، إلا من عصمه الله بلطفه وتوفيقه، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ يجوز أن يكون توبيخاً على أنه لا يعمل بعلمه.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وإن الإنسان على كونه كنوداً جحوداً شهيد، يشهد على نفسه بالجحد والكفران، أي بلسان حاله، وظهور أثر ذلك عليه في أقواله وأفعاله بعصيان ربه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧/٩].

وقال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ أي وإن الإنسان بسبب حبه للمال لبخيل به، أو إن حبه للمال قوي، فتراه مجداً في طلبه وتحصيله، متهاكاً عليه. فصار هناك رأيان في المعنى: أحدهما - وإنه لشديد المحبة للمال، والثاني - وإنه لحريص بخيل بسبب محبة المال، قال ابن كثير: وكلاهما صحيح.

ثم هدد الإنسان وتوعده إذا ظلَّ بهذه الصفات، فقال:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ أي أفلا يدري الجاحد إذا أخرج أو نثر ما في القبور من الأموات، وأبرز وأظهر ما يُسرُّ الناس في نفوسهم من النوايا والعزائم، والخير والشر، إن رب هؤلاء المبعوثين لخبير بهم، مطلع على جميع أحوالهم، لا تخفى عليه منهم خافية في ذلك اليوم وفي غيره، ومجازيهم في ذلك اليوم على جميع أعمالهم أوفر الجزاء، ولا يظلمون مثقال ذرة. فإذا علموا ذلك ووعوه، فعليهم ألا يشغلهم حب المال عن شكر ربهم وعبادته والعمل للآخرة.

وخص أعمال القلوب بالذكر؛ لأن أعمال الأعضاء الأخرى تابعة لأعمال القلب؛ فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب، لما حصلت أفعال الجوارح.

وأعاد التضمير في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝١﴾ [العصر: ٢/١٠٣] ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ٣/١٢٣].

ولمّا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مع أنه تعالى عالم بأحوال الناس في كل وقت، للتأكيد على أنه عالم بذلك يوم المجازاة.

وعبّر عن المجازاة بالخبرة والعلم المحيط بهم وبأعمالهم؛ لأن القصد هو التهديد، كما قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١/٣] مع أن كتابة

أقوالهم وأفعالهم حاصلة فعلاً، وإنما أراد أننا سنجازيهم بما قالوا الجزاء المناسب. فيكون قوله تعالى: ﴿لَخَبِيرٌ﴾ وهو تعالى خير دائماً فيه تضمين (خبير) معنى مجاز لهم في ذلك اليوم^(١).

وهذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات الزمانية؛ لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم، فيكون منكر ذلك كافراً.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - أقسم سبحانه بالخليل التي تشغل بها أذهان العرب عادة على رداءة جبلة الإنسان؛ من قلة الشكر والصبر، والحرص على المال، بحيث يكاد يشغله عن تحصيل الكمال الحقيقي، وعن العمل للمعاد الذي إليه مآل العباد.

فقد طبع الإنسان على كفران النعمة، وحب المال وبخله به، وعليه أن يروض نفسه على ما يكون له به النجاة والسعادة.

٢ - ثم ويخ الله تعالى بمقتضى العلم التام الأزلي الأبدي الشامل لأحوال مبدأ الإنسان ومعاده، والتوبيخ أو التهديد مدعاة للعقلاء إلى التأمل في المصير المحتوم، والاستعداد للأخرة بزيادة التقوى والفضيلة، والبعد عن العصيان والمخالفة والرذيلة.

ولا يختلف العلم وقت المجازاة بالأعمال والأقوال والأحوال عن العلم الأزلي لله تعالى بذلك، وإنما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتأكيد على شمول العلم في الماضي والحاضر والمستقبل، ولأن الجزاء منوط بالعمل السابق، فيكون تخصيصه دالاً على التذكر وعدم النسيان، وعلى التزام العدل وتوافر العلم وقت الجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقُلُوعِ

مكية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة القارعة لبدء السورة بها تهويلاً وتخويفاً، كابتداء سورة الحاقة، والقارعة من أسماء يوم القيامة؛ كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية ونحو ذلك. وسميت بهذا؛ لأنها تفرع القلوب بهولها.

مناسبتها لما قبلها:

ختمت السورة السابقة بوصف يوم القيامة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۚ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١) وأعقبها هذه السورة برمتها بالحديث عن القيامة، ووصفها الرهيب، وأهوالها المخيفة.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة المكية التخويف بأهوال القيامة، وهي كلها تدور حول الموضوع نفسه.

فقد بدأت بالحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، وانتشار الناس فيها من

قبورهم كالفراس المتطاير: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ [الآيات: ١-٤].

ثم أشارت إلى بعض أمارات الساعة، وهو نسف الجبال وجعلها كالصوف المندوف، مما يوجد الذعر والهلع والتأثر الشديد في قلوب الناس: ﴿وَتَكُونُ ٣﴾ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٤﴾ [الآية: ٥].

وكانت خاتمتها الإخبار عن نصب موازين الحساب التي توزن بها أعمال الناس، فتقيل الميزان بالحسنات إلى الجنة، وخفيف الميزان بالسيئات إلى النار: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٥﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٦﴾ [الآيات: ٦-١١].

أهوال القيامة وأماراتها وميزان الحساب فيها

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٤﴾ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٥﴾ وَتَكُونُ ٦﴾ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٧﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٨﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ١٠﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ١١﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا هِيَ ١٢﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ١٣﴾

الإعراب:

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ ﴿الْقَارِعَةُ ٣﴾: مبتدأ. و﴿مَا﴾: مبتدأ ثان، وما بعده خبره.

﴿وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾: الأولى: مبتدأ، وما بعدها خبره. و﴿وَمَا﴾ الثانية: المبتدأ، وخبرها في محل المفعول الثاني لـ (أدراك).

﴿يَوْمَ﴾ ظرف عامله تفرع، دلّ عليه القارعة.

﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ في موضع نصب؛ لأنه خبر ﴿يَكُونُ﴾. وكذلك
﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ في موضع نصب؛ لأنه خبر ﴿يَكُونُ﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ الفاء: جواب (أما) التي فيها معنى الشرط. وهو: مبتدأ، و﴿فِي عِيشَةٍ﴾: ظرف في موضع رفع؛ لأنه خبر المبتدأ. و﴿رَاضِيَةٍ﴾: أي مرضي بها، وهو مما جاء على وزن فاعل، ويراد به مفعول.

البلاغة:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾؟ الاستفهام للتفخيم والتزهيل، وكذلك:
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾؟

﴿الْقَارِعَةُ﴾ ١) مَا الْقَارِعَةُ ٢) وضع الظاهر موضع الضمير للتخويف والإرهاب، والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ٣) تشبيه مرسل مجمل، ذكر فيه أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه، وهو: في الكثرة والانتشار، والضعف والهوان. ومثله: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي في تطايرها وخفة تناثرها.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٤) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٥) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٦) فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ ٧) بينهما مقابلة.

﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ مجاز عقلي إذا أريد بالراضية اسم الفاعل، أي راض بها صاحبها.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ﴾ ٨) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ ٩) فيهما احتباك: وهو أن يحذف في كلّ نظير ما أثبتته في الآخر، حذف من الأول (فأمة الجنة) وذكر فيها ﴿عِيشَةٍ

رَاضِيَةً» وحذف من الثاني (فهو في عيشة ساخطة) وذكر «فَأُمُّ هَاوِيَةَ» ﴿١﴾.

﴿أَلْقَارِعُ﴾ ﴿١﴾، «رَاضِيَةً»، «هَآوِيَةً»، «مَا هِيَةَ»، «حَآيِيَةً» سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿أَلْقَارِعُ﴾ ﴿١﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تفرع القلوب والأسماع بأهوالها وأفزعها الشديدة، من القرع: الضرب بشدة. «وَمَا أَدْرَنَكَ مَا أَلْقَارِعُ» ﴿٢﴾ ما أعلمك؟ وهو زيادة تهويل لها. «كَأَلْفَرَّاشِ الْمَيْتُوثِ» أي كالفرش المنتشر المتفرق في الكثرة والانتشار، والذلة والاضطراب، يمحج بعضهم في بعض للحيرة، إلى أن يُدْعَوْا للحساب. والفرش: طائر معروف أحق يتهافت على النار.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ﴿٥﴾ كالصوف المندوف في خفة سيرها وتبديدها، حتى تستوي مع الأرض. «ثَقُلْتُ مَوَازِينُهُ» بأن رجحت حسناته على سيئاته. «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» ﴿٧﴾ ذات رضا، أو مرضية لصاحبها في الجنة. «خَفَّتْ مَوَازِينُهُ» بأن رجحت سيئاته على حسناته. «فَأُمُّ هَآوِيَةٍ» ﴿٩﴾ فمسكنه أو مأواه الذي يأوي إليه نار جهنم. «مَا هِيَةَ» ما هي النار؟ وهاء (هيه) للسكت تثبت وصلأ ووقفأ. والهاوية: من أسماء جهنم. «نَارُ حَآيِيَةٍ» ﴿١١﴾ أي هي نار شديدة الحرارة.

التفسير والبيان:

﴿أَلْقَارِعُ﴾ ﴿١﴾ مَا أَلْقَارِعُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَنَكَ مَا أَلْقَارِعُ ﴿٣﴾؟ ﴿أَلْقَارِعُ﴾ ﴿١﴾ من أسماء القيامة؛ لأنها تفرع القلوب بالفرع، وأي شيء هي، وما أعلمك ما شأن القارعة؟ وقوله: «مَا أَلْقَارِعُ» ﴿٢﴾ لتعظيم شأنها

وتفخيمه، وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۚ﴾ تأكيد لشدة هولها، وتعظيم أمرها، وتهويل شأنها.

ثم فسر ذلك وأبان زمانها وأماراتها، فقال:

أ - ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۖ﴾ أي يوم يخرج الناس من القبور، يسرون على غير هدى في كل اتجاه، شأنهم في ذلك، كالحشرة الطائرة المعروفة المنتشرة المتفرقة، أو كجميع الحشرات الطائرة، كالبعوض والجراد، فهم في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم بسبب حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث، أي متفرق منتشر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٥٤/٧]. قال الزمخشري: شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والدلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار.

٢ - ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۖ﴾ أي وتصير الجبال كالصوف ذي الألوان المختلفة، المندوف الذي نُفِش بالندف؛ لأنها تفتت وتتطاير، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۖ﴾ [التكوير: ٨١/٣] وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيَابٍ مُّهِيلًا﴾ [الزلزل: ٧٣/١٤].

وفي ذكر هاتين الأمارتين تخويف للناس وتحذير شديد.

ثم ذكر الجزاء على الأعمال وأحوال الناس وتفرقهم فريقين إجمالاً، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ﴾ ١ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ﴾ ٢ أي أما من ثقلت موازينه بأن رجحت حسناته أو أعماله الصالحة على سيئاته، فهو في عيشة مرضية يرضاها صاحبها في الجنة. والعيشة: كلمة تجمع النعم التي في الجنة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ﴾ ٣ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۖ﴾ ٤ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ

﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ أي وأما من رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات يعتد بها، فمسكره أو مأواه جهنم. وسماها أمه؛ لأنه يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه، وسميت جهنم هاوية وهي الهالكة؛ لأنه يهوي فيها مع عمق قعرها، ولأنها نار عتيقة.

ونحن نؤمن بالميزان كما ورد في القرآن، دون أن ندري كيفية وزنه وتقديره.

وما أعلمك ما هذه النار؟ والاستفهام للتهويل والتخويف، ببيان أنها خارجة عن المعهود، بحيث لا يُدري كنهها. قال الزمخشري: ﴿هَيْةٌ﴾ ضمير الداهية التي دلَّ عليها قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أو ضمير هاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها.

هي نار شديدة الحرارة، انتهى حرّها وبلغ في الشدة إلى الغاية، فهي حارة شديدة الحرارة، قوية اللهب والسعير. وهذا دليل على قوتها التي تفوق جميع النيران.

أخرج مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم».

وأخرج أحمد أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهون أهل النار عذاباً: من له نعلان، يغلي منهما دماغه».

وثبت في الصحيحين: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - القيامة ذات أهوال وشدائد ومخاوف تهمز القلوب وتقرع الأسماع، لا يعلم أحد بكنهها؛ لأنها في الشدة بحيث لا يتصورها عقل أحد، وكيفما قدرت فهو أعظم من تقديرك، كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار.

وفي هذا تحذير شديد وإرهاب لا مثيل له. قال مقاتل: إنها تقرع أعداء الله بالعذاب، وأما أولياؤه فهم من الفرع آمنون.

آ - وصف الله يوم القيامة بأمرين:

الأول - كون الناس فيه كالفراش المتفرق المنتشر، وهو الحيوان الذي يتهافت في النار.

الثاني - صيرورة الجبال فيه كالصوف ذي الألوان، المندوف، الذي ينفش بعضه عن بعضه.

ويلاحظ أنه تعالى وصف تغير الأحوال على الجبال من وجوه أربعة:

أولها - أن تصير قطعاً، كما قال: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤/٦٩].

وثانيها - أن تصير كثيباً مهيلاً، كما قال: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨/٢٧].

وثالثها - ثم تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذر الداخل من النافذة.

ورابعها - تصوير سرايا، كما قال: ﴿وَشِيزَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿٢٠﴾
[النبأ: ٢٠/٧٨]^(١).

٤ - يقسم الناس يوم القيامة إلى قسمين بحسب ثقل موازين أعمالهم وخفتها، فأما من رجحت حسناته على سيئاته فهو في الجنة في عيشة مرضية، وأما من رجحت سيئاته على حسناته فهو في نار حامية شديدة الحرارة. وقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿١١﴾ إشارة إلى أن سائر النيران بالنسبة إلى نار الآخرة غير حامية. وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها.

والموازين جمع ميزان، فيؤق بحسنات المطيع في أحسن صورة، فإذا رجح، فله الجنة، ويؤق بسيئات الكافر في أقبح صورة، فيخف وزنه، فيدخل النار. وقال المتكلمون: إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنهما، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن، أو يجعل النور علامة الحسنات، والظلمة علامة السيئات.

قال أبو بكر رضي الله عنه: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقیلاً، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

وقال مقاتل: إنما كان كذلك؛ لأن الحق ثقيل، والباطل خفيف^(٢).

(١) تفسير الرازي: ٧٢/٣٢

(٢) تفسير الرازي: ٧٣/٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية، وآياتها ثمان

تسميتها:

سميت سورة التكاثر؛ لقوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم التفاخر بالأموال والأولاد والأعوان.

مناسبتها لما قبلها:

أخبرت سورة القارعة عن بعض أهوال القيامة، وجزاء السعداء والأشقياء، ثم ذكر في هذه السورة علة استحقاق النار، وهو الانشغال بالدنيا عن الدين، واقتراف الآثام، وهددت بالمسؤولية في الآخرة عن أعمال الدنيا.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة المكية ذم العمل للدنيا فقط، والتحذير من ترك الاستعداد للآخرة. لذا تناولت مقاصد ثلاثة:

أ - بيان انشغال الناس بملذات الحياة ومغرياتها، والغفلة حتى يأتي الموت: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) [الآيات: ١-٢].

٢ - الإنذار بالسؤال عن جميع الأعمال في القيامة: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) [الآيات: ٣-٤] .

٣ - التهديد برؤية الجحيم يقيناً، ومجابهة أهوال النار، والسؤال عن نعيم الدنيا: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ (٣) ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٥) ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٦) [الآيات: ٥-٨] .

سبب نزول السورة:

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن بُرَيْدَةَ في قوله: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١)، قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبور، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل.

التفاخر في الدنيا والسؤال عن الأعمال

﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٥) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٦) ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٧)

القراءات:

﴿لَتَرَوُنَّ﴾:

وقرأ ابن عامر، والكسائي (لَتَرَوُنَّ).

الإعراب:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ④ ﴿كَلَّا﴾ : حرف معناه الزجر والردع، وليس اسماً للفعل، لتضمنه معنى ارتدع، كما أن (صه) اسم فعل لدلالته على السكوت.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ⑤ ﴿لَوْ﴾ : حرف يمتنع به الشيء لامتناع غيره، وجوابه محذوف، وتقديره: لو علمتم لما أهلكم، و﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ : منصوب على المصدر.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ⑥ بفتح التاء، فهو فعل ثلاثي، عُذِّي إلى مفعول واحد وهو ﴿الْجَحِيمَ﴾. وقرئ بضم التاء، فتكون الواو نائب فاعل، و﴿الْجَحِيمَ﴾ : مفعول به ثانٍ، وهو فعل رباعي، عُذِّي بالهمزة إلى مفعولين، وهو في الأصل يتعدى إلى مفعول واحد؛ لأنه من رؤية العين. و﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ مصدر؛ لأن رأى وعاین بمعنى واحد.

﴿لَتُسْفَلَنَّ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات، وواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين.

البلاغة:

﴿الْهَنَكُمُ النَّكَارُ﴾ ⑦ خبر أريد به التذكير والتوبيخ واللوم.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑧ ثُمَّ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑨ التكرار للتهديد والإنذار، وعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل والتفخيم، أي لرأيتم ما يدهش ويفزع.

﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ إطناب بتكرار الفعل، لبيان شدة الهول.

﴿حَتَّىٰ ذُرُّهُمُ الْمَقَابِرَ ۝١٢﴾ كناية، كُنِيَ بزيارة القبور عن الموت، أي حتى مُتُّم.

﴿النَّعِيمِ﴾ ﴿الْجَحِيمِ﴾ طباق.

﴿تَعْلَمُونَ﴾، ﴿الْيَقِينِ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وكذا بين ﴿الْجَحِيمِ﴾ و﴿النَّعِيمِ﴾.

للفردات اللغوية:

﴿أَلْهَنَكُمْ﴾ شغلكم، واللهو: الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى.
﴿التَّكَاثُرُ﴾ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال. ﴿حَتَّىٰ ذُرُّهُمُ الْمَقَابِرَ ۝١٢﴾ أي حتى مُتُّم ودفنتم في القبور. ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة تفاخركم عند النزاع وفي القبر وفي الآخرة. ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ علم الأمر المتيقن، أي لو علمتم يقيناً عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به. والعلم اليقيني: ما نشأ عن اعتقاد مطابق للواقع عن عيان أو دليل قطعي ثابت، دلَّ عليه العقل الصحيح أو النقل الثابت عن النبي ﷺ.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝١٣﴾ النار، جواب قسم محذوف أكد به الوعيد، للتفخيم. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تأكيد. ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي عياناً هي اليقين نفسه. ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم رؤية الجحيم. ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ ما يلتذ به في الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والطعام والشراب وغير ذلك.

سبب النزول:

تقدم سبب نزول السورة عن ابن أبي حاتم. وأخرج ابن جرير عن علي قال: كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۝١٢﴾ إلى ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ في عذاب القبر.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن الشَّخِير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يقول: «**أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ**» ① يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» .

وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب، وتاركه للناس» .

التفسير والبيان:

«**أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ**» ② **حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** ③ أي شغلكم التفاخر والتباهي بالأموال والأولاد والأعوان، والاعتناء بكثرتها وتحصيلها، شغلكم عن طاعة الله والعمل للآخرة، حتى أدرككم الموت، وأنتم على تلك الحال.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فِيرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فِيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ» .

وأخرج أحمد وصاحب الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم، ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل» .

أما زيارة القبور فمباحة بالآداب الشرعية، بأن يبدأ الزائر السلام على صاحب القبر عند رأسه، ثم يتجه إلى القبلة ويدعو الله عز وجل بالرحمة والمغفرة للميت ولنفسه وللمسلمين، أخرج ابن ماجه عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تَرْهَقُ فِي الدُّنْيَا، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ» وهو صحيح، وأخرج الحاكم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا

فزوروها، فإنها تُرَقِّق القلب، وتُدْمِع العين، وتُذَكِّر الآخرة، ولا تقولوا مُعْجَرًا. وهذا دليل على أنها تُنَمِّع إذا كانت مصحوبة بمنكرات، كالاختلاط والفتن والنواح.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ أي ردعاً وزجراً لكم عن هذا التكاثر المقيت الذي يؤدي إلى التقاطع والتدابير والأحقاد والضغائن، وإهمال العمل للآخرة، وخير الأمة، وتصحيح السلوك والأخلاق. وستعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة. قال الزمخشري: ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبية على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع هم، ولا يهتم بدينه.

والجملة الثانية كررت للتأكيد والتغليظ والوعيد والزجر.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝﴾ أي ارتدعوا عن هذا اللهو بالدنيا، فإنكم لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقيناً، لانشغلتم عن التكاثر والتفاخر، ولبادرتم إلى صالح الأعمال، ولما ألهاكم التباهي عن أمر الآخرة العظيم والإعداد لها. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي لو علمتم لما ألهاكم.

وهذا زيادة في الزجر واللوم عن الانهماك في الدنيا، والاغترار بمظاهر الحياة الفارغة الزائلة. وليس الكلام مجرد وعظ، وإنما الخطر الداهم يقتضي عمق التأمل والتفكير في مستقبل الآخرة، وذلك لا يتوافر عادة بغير إيمان قوي، وقلب واع سليم. وتكرار لفظ ﴿كَلَّا﴾ المفيدة للزجر، للدلالة على استحقاق ضرر آخر غير العذاب. وقال الحسن: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقاً كأنه قيل: حقاً لو تعلمون علم اليقين.

ثم فسر الوعيد فقال:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي لتشهدن النار في الآخرة، والمراد ذوق عذابها، وهذا جواب قسم محذوف. وهو توعده بحال رؤية النار التي إذا زفرت زفرة واحدة، خر كل ملك مقرَّب، ونبي مُرْسَل، على ركبتيه من المهابة، والعظمة، ومعاينة الأهوال الجسام.

ثم أكد ذلك بقوله:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والرؤية بأعينكم، فإياكم الوقوع فيما يؤدي إلى النار من اقتراف المعاصي والسيئات، وارتكاب الموبقات والمنكرات.

ثم أكد السؤال عن الأعمال للتحذير فقال:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي إنكم سوف تسألون عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، وتسالون عن أنواع نعيم الدنيا من أمن وصحة وفراغ ومأكول ومشروب ومسكن وغير ذلك من النعم، قال الزمخشري: ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ عن اللغو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. وقال الرازي: والأظهر أن الذي يسأل عن النعيم هم الكفار، وفي قول آخر: إنه عام في حق المؤمن والكافر، واحتجوا بأحاديث منها: روي عن عمر أنه قال: «أي نعيم نسأل عنه يا رسول الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا؟ فقال ﷺ: ظلال المساكن والأشجار والأخية التي تقيكم من الحر والبرد، والماء البارد في اليوم الحار».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن محمود بن لبيد قال: «لما نزلت ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿١﴾ فقرأها النبي ﷺ حتى بلغ ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ قالوا: يا رسول الله، أي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان: الماء والتمر، وشيؤنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: أما إن ذلك سيكون».

وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». أي إنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون. وعن النبي ﷺ فيما رواه الترمذي عن أبي برزة: «لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به».

وأخرج البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه عن عبيد الله بن مَحْصِن: أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وأخرج ابن جرير ومسلم وأهل السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبي ﷺ، فقال: ما أجلسكما ههنا؟ قالا: والذي بعثك بالحق، ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، قال: والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار^(١)، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: أين فلان؟ فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قُرْبَتَهُ، فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلق قُرْبَتَهُ بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: ألا كنت اجتنتيت؟ فقال: أحبيت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال له النبي ﷺ: إياك والحلوب، فذبح لهم يومئذ فأكلوا، فقال لهما النبي ﷺ: لتسألن عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم».

والظاهر أن السؤال عن النعيم للعموم؛ لأجل لام الجنس، إلا أن سؤال

(١) هو مالك بن النِّهَان الأنصاري، أبو الهيثم.

الكافر للتوبيخ؛ لأنه عصى وكفر، وسؤال المؤمن للتشريف، فإنه أطاع وشكر. والظاهر أن هذا السؤال في موقف الحساب، وهو متقدم على مشاهدة جهنم، ومعنى «ثُمَّ» الترتيب في الأخبار، ثم أخبركم أنكم تسألون.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - يحذر الله تعالى من ترك العمل الصالح والاستعداد للآخرة، ويوبخ الذين تشغلهم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى يموتوا ويدفنون في المقابر.

والتوبيخ عام يشمل التفاخر بكل شيء من الأموال والأولاد، والقبائل والعشائر، والسلطة والجاه، والرجال والأعوان، فهو يتضمن التفاخر بالنفس، وهي العلوم والأخلاق الفاضلة، والتفاخر بالبدن، وهو الصحة والجمال، والتفاخر بالأمور الخارجية، وهي المال والجاه والأعوان والأقرباء والأصدقاء.

٢ - لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، كما تقدم في الأحاديث الثابتة. وجاء في الترمذي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور. ورأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رُخِّص دخل في رخصته الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء، لقلة صبرهن، وكثرة جَزَعهن.

والخلاصة: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، يختلف فيه للنساء، أما الشوَاب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد الكبيرة فمباح

لهن ذلك. وجائز لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال. وإذا حدثت فتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز.

٣ - قال العلماء: ينبغي لعلاج القلب ثلاثة أمور: طاعة الله، والإكثار من ذكر الموت (هازم اللذات) وزيارة قبور أموات المسلمين.

٤ - كرر الله تعالى في هذه السورة الوعيد بعد الوعيد، للتأكيد والتغليظ على ثبوت عذاب القبر وعذاب الآخرة، وأن ما وعدنا به من البعث وتوابعه حق وصدق. ثم أعاد تعالى الزجر والتنبيه على أنه إن لم يفعل الناس العمل الصالح، وترك التفاخر بالأموال والأولاد والرجال، يندموا، ويستوجبوا العقاب.

٥ - أتى الله تعالى بوعيد آخر بقسم محذوف: والله لترون الجحيم في الآخرة، وهذا خطاب للكفار الذين وجهت لهم النار، وقيل: الخطاب عام، كما قال تعالى: ﴿وَلَن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مریم: ٧١/١٩] فهي للكفار مقر، وللمؤمنين ممر. ثم أخبر تعالى عن رؤية الجحيم رؤية مشاهدة بالأعين، وبعيون القلوب والأفتدة.

٦ - يُسأل الناس يوم القيامة عن ألوان النعيم في الدنيا، من ظلال المساكن والأشجار، وطيب الحياة والرفاهية، والصحة والفراغ، والأمن والستر ونحو ذلك. والكل يسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ؛ لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف؛ لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة. ويكون السؤال في موقف الحساب، وقيل: بعد الدخول في النار؛ توبيخاً لهم، والأول هو الظاهر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَصْرِ

مكية، وهي ثلاث آيات

تسميتها:

سميت سورة (العصر) لقسم الله به في مطلعها بقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾: الدهر، لاشتماله على الأعاجيب، من سراء وضراء، وصحة وسقم، وغنى وفقر، وعز وذل، وانقسامه إلى أجزاء: سنة وشهر ويوم وساعة ودقيقة وثانية.

مناسبتها لما قبلها:

لما بين في السورة المتقدمة أن الاشتغال بأمور الدنيا والتهالك عليها مذموم، أراد أن يبين في هذه السورة ما يجب الاشتغال به من الإيمان والأعمال الصالحات، وهو ما يعود إلى النفس، ومن التواصي بالخيرات وكف النفس عن المناهي أو المعاصي، وهو ما يعود إلى المجتمع. والخلاصة: بعد أن قال: ﴿أَلْهَكُمُ الْكَاثِرُ ۝١﴾ وهدد بتكرار: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢﴾ بين حال المؤمن والكافر.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية الموجزة توضح أصول الإسلام الكبرى، ودستور الحياة الإنسانية.

فقد أقسم الله تعالى بالعصر الذي هو الدهر أو الزمان المشتمل على العجائب والدال على قدرة الله وحكمته البالغة على خسارة الإنسان إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي مع الآخرين بالحق، والتواصي بالصبر والمصابرة.

فضلها:

ذكر الرواة أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ، وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟! فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ ففكر مسيلمة هنيهة، ثم قال: وقد أنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال:

يا وبر يا وبر^(١)، وإنما أنت أذنان وصدر، وسائرَكَ حفر نقر.

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

وذكر الطبراني عن عبيد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا، إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وأخرجه البيهقي عن أبي حذيفة.

وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

(١) الوبر: دوية تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدرة، وباقيه دميم، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان (تفسير ابن كثير ٥٤٧/٤).

رسالة الحياة أو حال المؤمن والكافر

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾

الإعراب:

﴿وَالْعَصْرِ ①﴾ قسم، وجوابه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ②﴾ والمراد بالإنسان: الجنس، ولهذا استثنى منه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أصله (تواصوا) إلا أنه تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فانقلبت ألفاً، فاجتمع ساكنان: الألف والواو بعدها، فحذفوا الألف لالتقاء الساكنين.

البلاغة:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء، فهو إطلاق البعض وإرادة الكل.

﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ التنكير للتعظيم، أي في خسر عظيم.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إطناب بتكرار الفعل، لزيادة العناية به.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ بعد قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ خاص بعد عام، فإن الصبر داخل في عموم الحق، إلا أنه خصصه بالذكر للاهتمام به بعينه.

﴿وَالْعَصْرِ ①﴾، ﴿بِالصَّبْرِ﴾، ﴿خُسْرٍ﴾ سجع عفوي غير متكلف، وهو من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ والدهر، أقسم الله به لاشتماله على الأعاجيب، وقيل: صلاة العصر، أو وقت العصر من بعد الزوال إلى الغروب. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ جنس الإنسان؛ فالتعريف للجنس. ﴿خُسِرَ﴾ خسارة أو خسران في تجارته، والتذكير للتعظيم. والخسارة: النقصان وضياع رأس المال. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة الدائمة، فليسوا في خسران.

﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو الشيء الثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل، أو هو ما أرشد إليه دليل قاطع، أو عيان ومشاهدة، أو شرع صحيح جاء به نبي معصوم.

والتواصي بالحق: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً بما لا مجال لإنكاره من إيمان وخير وفضيلة. ﴿بِالصَّبْرِ﴾ قوة في النفس تدعو إلى احتمال المشقة في العمل. والتواصي بالصبر: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً به، ويحث الواحد غيره عليه.

وقد اكتفى سبحانه ببيان سبب الربح دون الخسران لأنه المقصود، وما عداه يؤدي إلى الخسران والنقص.

التفسير والبيان:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ أي قسماً بالعصر، وهو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس؛ لما فيه من العبر وتقلبات الليل والنهار، وتعاقب الظلام والضياء، وتبدل الأحداث والدول، والأحوال والمصالح، مما يدل على وجود الصانع عزّ وجلّ، وعلى توحيده وكمال قدرته، أقسم بذلك على أن الإنسان في خسارة وهلاك ونقص وضلال عن الحق، في المتاجر

والمساعي، وصرف الأعمار في أعمال الدنيا، إلا من استثناهم الله فيما يأتي. وإقسام الله بالدهر دليل على شرفه وأهميته، لذا قال ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر». والآية كما ذكر الرازي كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة.

وقيل: المراد بالعصر: صلاة العصر، أو وقتها؛ تعظيماً لها، ولشرفها وفضلها، ولهذا فُتِر بها الصلاة الوسطى عند كثير من العلماء. وفيه إشارة إلى أن عمر الدنيا الباقي هو ما بين العصر إلى المغرب، فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارة لا خسران فيها، فإن الوقت قد ضاق، وقد لا يمكن تدارك ما فات.

والمراد بالإنسان: الجنس، واللام لام الجنس، وهو الراجح. وقيل: اللام في الإنسان لمعهود معين، كما روي عن ابن عباس أنه أراد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب. قال أبو حيان: والعصر، والإنسان: اسم جنس يعم، ولذلك صح الاستثناء منه.

ثم استثنى من جنس الإنسان عن الخسران ما يأتي:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَاَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾
أي إن الإنسان لفي خسارة وضياح ونقصان وهلاك، إلا الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنهم في ربح، لا في خسر؛ لأنهم عملوا للأخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، فأمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم (أعضائهم).

وإلا الذين وصَّى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره: وهو الإيمان بالله والتوحيد، والقيام بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه. والحق خلاف الباطل، ويشمل جميع الخيرات وما يلزم فعله، أو هو أداء الطاعات، وترك المحرمات. قال الزمخشري: وهو الخير كله، من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

والأ الذين أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على فرائض الله، وعن معاصي الله، وعلى أقداره وبلاياه. والصبر يشمل احتمال الطاعات، واجتناب المنكرات، وتحمل المصائب والأقدار، وأذى الذين يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على ما يأتي:

١ - الإنسان وإن ربح الثروة الكبيرة والمال الوفير، فهو في خسارة محققة، إن لم يعمل للآخرة عملاً طيباً صحيحاً.

٢ - أقسم الله تعالى على هذا الحكم بأي عصر أو زمان، لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته ومزيد حكمته التي تظهر أحياناً بعد مرور الزمان.

والعصر في الحلف بالآيمان مختلف في تقديره عند الفقهاء، فقال مالك: من حلف ألا يكلم رجلاً عصرًا، يحمل على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الآيمان.

وقال الشافعي: يبرّ ساعة، إلا أن تكون له نية، أو يفسره بما يحتمله، وذلك حملاً على الأقل المتيقن المراد بالعصر.

٣ - حكم الله تعالى بالوعيد الشديد؛ لأنه حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان آتياً بأشياء أربعة أو متصفاً بصفات أربع، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فدلّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وعناصر الإيمان ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر

خيره وشره. والعمل الصالح: أداء الفرائض واجتناب المعاصي، وفعل الخير. والتواصي بالحق: أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر الثابت، ويحث بعضهم بعضاً على توحيد الله، والعمل بالقرآن، والدعوة إلى الدين والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه. قال عمر رضي الله عنه: رحم الله من أهدى إلى عيوبي.

والتواصي بالصبر: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً بطاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه، والرضا بالقضاء والقدر في المصائب والحزن.

٤ - قال الإمام الرازي رحمه الله: دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن الحزن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

مكية، وهي تسع آيات

تسميتها:

سميت سورة (الهُمَزَة) لبدئها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ والهمزة: الذي يغتاب الناس ويطعن بهم بقول أو فعل أو إشارة، واللمزة: الذي يعيب الناس بإشارة الحاجب والعين. قال ابن عباس: (الهمزة): المغتتاب، و(اللمزة): العياب.

مناسبتها لما قبلها:

بعد أن ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة أن جنس الإنسان في خسران ونقص وهلكة، أبان في هذه السورة حال الخاسر، وأراد به تبيان الخسران بمثال واحد.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية في علاج مشكلة خلقية مستعصية بين الناس، وهي الطعن في الآخرين بالغيبة في أثناء غيابهم، أو بالعيب حال حضورهم.

وقد بدأت بالإخبار عن العذاب الشديد لكل عيَّاب طعَّان للناس،

يَتَقَصُّ الْآخِرِينَ وَيُزِدُّهُمْ وَيَسْخَرُ بِهِمْ: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزٍ لُحْمَهُ﴾ [الآية: ١].

ثم ذمَّت السورة الذين يحرصون على جمع الأموال في الدنيا، كأنهم غلدون فيها: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوهُ﴾ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الآيات: ٣-٢].

وختمت برّد الفريقيين السابقين، وأنبأهم بمصيرهم الأسود، وهو النبذ في الحطمة: نار جهنم [الآيات: ٤-٩].

سبب نزولها:

قال عطاء والكلبي والسدي: نزلت في الأخنس بن شريق، كان يلزم الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ.

وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه. وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك.

وقال محمد بن إسحاق والسهيلي: ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف^(١). وقد روى ذلك ابن جرير عن عثمان وابن عمر.

قال أبو حيان: ونزلت في الأخنس بن شريق، أو العاص بن وائل، أو جميل بن معمر، أو الوليد بن المغيرة، أو أمية ابن خلف: أقوال، ويمكن أن تكون نزلت في الجميع، وهي مع ذلك عامة فيمن اتصف بهذه الأوصاف^(٢).

وعلى هذا فاللفظ عام، وإن كان في الأصل يشير إلى شخص معين، وكذلك قوله تعالى في سورة (ن): ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِّهِينٍ﴾ ﴿هَازٍ مَسْأَمٍ﴾

(١) تفسير الرازي: ٣٢/٩١

(٢) البحر المحيط: ٨/٥١٠

يَنْمِيهِ ⑪ مَنَعَ الْخَيْرَ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ⑫ عُنِيَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ ⑬ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ⑭ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑮ [الْقلم: ٦٨ / ١٠-١٥]، فإنه سبحانه تابع في سرد الصفات حتى علم أنه يريد في الأصل إنساناً بعينه.

والقاعدة العامة عند المحققين والأصوليين: أن خصوص السبب لا ينافي عموم اللفظ. وهذه السورة تشتمل على سدس مقاصد القرآن، وهو حكاية أقوال الجاحدين.

الطقان العيَّاب للناس وجزاؤه

﴿وَبَلَّ لِكُلِّ هُمْزٍ لُحْمًا ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخَطْمَةِ ④ وَمَا أَزْدَكَ مَا الْخَطْمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨﴾

القراءات:

﴿جَمَعَ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمة، والكسائي، وخلف (جَمَعَ).

﴿يَحْسَبُ﴾:

قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمة (يَحْسَبُ) وقرأ الباقون (يَحْسِب).

﴿مُّوَصَّدَةٌ﴾:

قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمة، وخلف (مُّوَصَّدَةٌ) وقرأ الباقون (موصدة).

﴿عَمَدٌ﴾:

قرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عُمَد) وقرأ الباقون (عَمَد).

الإعراب:

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ ﴿الَّذِي﴾: إما في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: وهو الذي، أو في موضع نصب بفعل مقدر، أي أعني، أو في موضع على البدل من (كل).

﴿لَيُبَدَنَّ﴾ بفتح الدال، أراد به: الذي جمع، ويبني الفعل المضارع على الفتح إذا اتصلت به نون التوكيد الثقيلة أو الخفيفة، مثل: ليذهبنَّ وليشتريَنَّ. ومن قرأ بضم الدال، أراد به: المال والهمزة واللمزة. وقرئ: (لينبذان) بآلف التشية، وأراد به المال وصاحبه. وهو جواب قسم محذوف، أي ليطرحن.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ ﴿عَمَدٍ﴾: بفتح العين والدال، أراد به اسم الجمع، وقرئ (عُمَد) بضميتين، وأراد به جمع عمود، كرَسُول ورُسُل.

البلاغة:

﴿هُمَزٌ لَمَزٌ﴾ من صيغ المبالغة، على وزن: فُعْلَةٌ، كنُومة وعُيبة وسُحرة وضحكة.

﴿جَمَعَ مَالًا﴾ تنكير ﴿مَالًا﴾ للتفخيم، أي جمع مالاً كثيراً.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا أَخْطَمَهُ﴾ الاستفهام للتفخيم والتهويل لنار جهنم، و﴿أَخْطَمَهُ﴾: من صيغ المبالغة.

﴿هُمَزٌ﴾، ﴿لَمَزٌ﴾ جناس ناقص أو غير تام.

﴿وَعَدَدٌ﴾، ﴿أَخْلَدٌ﴾، ﴿الْمَوْقَدَةُ﴾، ﴿مُمَدَّدٌ﴾ سجع مرصع، لتوافق

الفواصل.

للفردات اللغوية:

﴿وَيْلٌ﴾ خزي وعذاب شديد، ويراد به الندم والتقييح. ﴿هُمَزٌ﴾ مغتاب طعان في أعراض الناس وكراماتهم. ﴿لُمَزٌ﴾ عِيَاب يعيب عادة بالحاجب أو العين أو اليد أو الرأس تحقيراً للناس وترفعاً عليهم. ﴿وَعَدَدٌ﴾ عَدَه مرة بعد أخرى تلذذاً به، أو جعله عُدَّةً للنوازل وحوادث الدهر.

﴿يَحْسَبُ﴾ يظن لجهله. ﴿أَنَّ مَالَهُ أَطْلَدَ﴾ جعله خالداً في الدنيا، لا يموت. ﴿كَلًّا﴾ ردع وزجر. ﴿لَيْبَدَنَ﴾ ليطرحن وليرمين بإهانة وتحقير، وهو جواب قسم محذوف. ﴿فِي الْخَطْمَةِ﴾ نار جهنم، سميت لذلك؛ لأنها تحطم كل ما ألقى فيها، من الحطيم: وهو الكسر. ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ المسعرة. ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ تعلو أوساط القلوب، وتحيط بها، وخصت الأفئدة بالذكر؛ لأنها محل العقائد الزائغة ومنشأ الأعمال الفاسدة القبيحة. ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ مطبقة مغلقة عليهم، من أوصدت الباب: إذا أغلقته. ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ ﴿٩﴾ في أعمدة طويلة، فتكون النار داخل العمدة، جمع عمود.

التفسير والبيان:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزٍ لُمَزَةٍ﴾ ﴿١﴾ أي خزي وعذاب شديد لكل من يغتاب الناس ويظعن بهم، أو يعيبهم في حضورهم، قال مقاتل: إن الهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة: الذي يغتاب في الوجه. وقال ابن عباس: ﴿هُمَزٌ لُمَزَةٌ﴾ طعان معياب.

ثم ذكر أوصافاً أخرى له:

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ﴿٢﴾ أي إن ذلك الهمزة اللمزة الذي يزدرى الناس ويحتقرهم ويرفع عليهم بسبب إعجابه بما جمع من المال وأحصاه، وظن أن له به الفضل على غيره، كقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ ﴿٣﴾ [المارج:

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن أن ماله يضمن له الخلود ويتركه حياً مخلداً لا يموت؛ لشدة إعجابه بما يجمعه من المال، فلا يعود يفكر بما بعد الموت.

ثم رد الله عليه أوهامه وزجره على مزاعمه، فقال:

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي زجراً له وردعاً، فليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، بل ليلقن ويطحن هذا الذي جمع ماله هو وماله في النار التي تحطم أو تهشم كل ما يلقي فيها.

ثم هوّل عليه شأن النار وعرفها له، فقال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ أي وما أعلمك ما هذه النار، وأي شيء هي؟ فكأنها لا تدركها العقول، هي نار الله الموقدة المستعرة بأمر الله سبحانه، التي لا تخمد أبداً.

وفائدة وصف جهنم بالحطمة مناسبتها لحال المتكبر المتجبر بماله، المترفع على غيره، فهي تكسر كسراً كل ما يلقي فيها، لا تبقي ولا تذر. وإضافة ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ للتفخيم، أي هي نار، لا كسائر النيران.

ثم وصف النار بأوصاف ثلاثة هي:

﴿أَلَّنِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْنَةِ﴾ ٧ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ ٨ ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ ٩ أي التي تطلع القلوب وتغشاها بجرها الشديد، وتحرقهم وهم أحياء. والقلوب أشد أجزاء البدن تألماً، وخُصت بالذكر لأنها محل العقائد الزائفة، والنيات الخبيثة، وسوء الأخلاق من الكبر واحتقار الناس، والأعمال القبيحة.

وهي عليهم مطبقة، مغلقة عليهم أبوابها جميعاً، فلا منافذ، ولا يستطيعون الخروج منها، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [البقرة: ٢٠/٩٠] ،

وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢/٢٢].

وهي أيضاً كائنة في أعمدة ممددة طويلة موثقة. قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شددت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم رُوح.

والآية تفيد المبالغة في العذاب بقوله: ﴿لَيُبَدِّلَنَّهُ﴾ أي إنه موضع له قعر عميق جداً كالبر، وإن أبوابها لا تفتح؛ ليزيد في حسرتهم، وتغلق إغلاقاً محكماً للتئيس من الخروج منها، وممددة في أعمدة دائمة اللهب، فلا أمل في إطفائها أو تخفيف شدة حرارتها.

فقه الحياة لو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - الحزى والعذاب والهلكة لكل مغتاب عيَّاب طعان للناس. قال النبي ﷺ: «شرار عباد الله تعالى المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب»^(١).

٢ - كأن سبب الهمز واللمز والترفع على الناس وازدرائهم هو المال وطول الأمل، لأن الغنى يورث الإعجاب والكبر، وعدّ المال من غير ضرورة دليل على المتعة النفسية والزخرفة الدنية، والانشغال عن السعادة الباقية، ولأن المال يطول الأمل، ويميّ بالأماني البعيدة، حتى أصبح لفرط غفلة صاحب المال يحسب أن ماله يتركه خالداً في الدنيا.

٣ - ردع الله تعالى عن كل هذه المزاغم والتحسبات، فالمال لا يرفع

(١) تفسير القرطبي: ١٨١/٢٠

القدر، ولا يقتضي الطعن بالآخرين، وليس المال كما يظن مخلدًا في الدنيا، بل المخلد هو العلم والعمل، كما قال علي رضي الله عنه: مات خُرَّانُ المال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر.

٤ - حدد الله تعالى عقاب الهمة اللمزة جامع المال حبًا فيه لذاته، وهو الطرح أو الإلقاء في نار جهنم التي تحطم كل ما يلقي فيها، وهي نار الله الموقدة غير الخامدة، التي أعدها الله للعصاة، والتي تأكل جميع ما في الأجساد، حتى تبلغ الفؤاد، ثم يخلقون خلقًا جديدًا، فترجع تأكلهم.

وهي مغلقة الأبواب، مطبقة عليهم، حال كونهم موثقين بأعمدة، وهي في أعمدة طوال تلتف بهم من كل جانب.

روى خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ: «أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم - أي تعلوها وتغلبها - انتهت، ثم إذا صَدَرُوا تعود، فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۖ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ (٧)».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَتْحَةِ

مكية، وهي خمس آيات

تسميتها:

سميت سورة (الفيل) لافتتاحها بالذكر بقصة أصحاب الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ﴾؟ أي ألم تعلم علم اليقين ماذا صنع ربك العظيم القدير بأبرهة الحبشي قائد اليمن وأتباعه الذين أرادوا هدم البيت الحرام؟! الجرام!

مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في السورة السابقة (الهُمَزَة) حال الهمزة اللزمة الذي جمع مالا، وتعزز بماله، وأفاد تعالى أن المال لا يغني من الله شيئا، ثم ذكر في هذه السورة الدليل على ذلك، بإيراد قصة أصحاب الفيل الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر مالا، وأعظم عتوا، وقد أهلكهم الله بأصغر الطير وأضعفه، ولم يغن عنهم ما لهم ولا عددهم ولا قوتهم شيئا.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية مقصورة على بيان قصة أصحاب الفيل الذين اعتمدوا على قوتهم وما لهم وقدرتهم على البطش بجيش جرار لا يقهر، ثم أبادهم الله

عن بكرة أبيهم، حينما أرادوا هدم الكعبة، بقصف من الحجارة الربانية المعلقة بأرجل طير صغار، وجعلهم كعصف مأكول، أي كبقايا الزرع بعد الحصاد الذي تأكله الماشية، وتعصف به الريح في كل مكان.

أضواء من التاريخ على قصة أصحاب الفيل:

كان على اليمن قائد من قَبْل النجاشي (ملك الحبشة) واسمه أبرهة بن الصباح الأشرم جدّ أصحمة النجاشي الذي عاصر النبي ﷺ قد بنى كنيسة عظيمة سماها «الْقُلَيْس» ليصرف إليها حج العرب، فقام رجل من كنانة وتغوط فيها ليلاً، فأغضبه ذلك، وأقسم ليهدم الكعبة، مستغلاً هذا الحادث، ومريداً في الواقع فتح مكة لربط اليمن ببلاد الشام، وتوسيع بلاد النصرانية.

فجهز جيشاً عظيماً، مصحوباً بفيلة كثيرة قيل: اثنا عشر، وقيل: ألف، زيادة في الإرهاب والتخويف، وسار حتى وصل إلى «المغمّس» موضع قرب مكة، فأرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم، وإنما جاء لهدم الكعبة، فاستعظموا الأمر، وفرّعوا له، وأرادوا محاربتة، فرأوا ألا طاقة لهم بأبرهة وجنوده، واعتصموا بالجبال ينظرون ماذا يحدث، واثقين بأن للبيت رباً يحميه.

ولما اقترب الجيش من مكة أمر أبرهة بنهب أموال العرب، وكان فيها إبل لعبد المطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ، فاستاقها الجند، وكان عددها مئتي بعير، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يحج لقتالكم إلا أن تصدّوه عن البيت، فجاء حناطة، فدلوه على عبد المطلب بن هاشم، وبلّغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن نخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجّله، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر، فنزل أبرهة عن

سريره، وأجلسه معه على البساط، وسأله عن حاجته، فقال: حاجتي أن يرد عليَّ الملك مئتي بعير أصابها لي.

فتعجب أبرهة، وقال: أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟!!

فقال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه عنك، قال: ما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك^(١). وكان قد عرض عبد المطلب ومن معه من أشرف العرب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، وردّ أبرهة على عبد المطلب إبله، ثم رجع وأتى باب البيت ومعه نفر من قريش، وأخذوا بحلقة باب الكعبة يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

ثم زحف الجيش نحو البيت ودخلوا مكة، وكان معه فيل عظيم اسمه «محمود» كلما وجهوه إلى جهة الحرم، برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هروا.

وفي اليوم التالي وبينما عبد المطلب يدعو، التفت، فإذا هو بطير من نحو اليمن جهة البحر، فقال: والله إنها لطير غريبة، ما هي بنجدية ولا تهامية. وكان مع كل طائر أحجار تحملها بمناقيرها وأرجلها، فألقته عليهم، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وفرّ الجيش هاربين نحو اليمن، يتساقطون في الطريق، وأصيب أبرهة في جسده، وبدأت أنامله تسقط أنملة أنملة، ولحمه يتساقط، حتى قدموا به «صنعاء» فمات شراً ميتة^(٢).

وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في التاريخ وبين العرب، فأعظموا قريشاً،

(١) سيرة ابن هشام: ٤٩/١ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق: ٤٣/١ - ٥٧

وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم العدو، وازدادوا تعظيماً للبيت، وإيماناً بمكانه عند الله^(١).

وأراد الله بهذا الحادث تعظيم بيته، وإعلاء شأنه، وتمهئة أمة العرب لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله.

وكان ذلك الحدث التاريخي المهم في عام ميلاد النبي ﷺ، سنة ٥٧٠ م، أي كان بين عام الفيل ومبعث النبي ﷺ أربعون سنة. وكان قد بقي بمكة بجمع شاهدوا تلك الواقعة، وقد بلغت حدّ التواتر حينئذٍ، فما ذاك إلا إرهاب للرسول ﷺ.

قصة أصحاب الفيل

﴿الَّذِينَ تَرَىٰ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ۚ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾

الإعراب:

﴿الَّذِينَ تَرَىٰ﴾ معناه الإيجاب، أي قد علمت؛ لأن همزة الاستفهام لما دخلت على (لم) وهي حرف نفي، والاستفهام كالنفي، اجتمع نفيان، فلما دخل النفي على النفي، انقلبت إيجاباً.

و ﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب بفعل بعده، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿تَرَىٰ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإنما يعمل فيه ما بعده. وجملة ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ سدت مسدّ مفعولي (ترى) لأنها من رؤية القلب بمعنى العلم، نحو: رأيت الله غالباً. و﴿رَبُّكَ﴾: فاعل ﴿فَعَلَ﴾.

﴿طَيْرًا أَبَايَل﴾ إما جمع لا واحد له من لفظه على وزن أساطير، أو واحد «إيّل» أو إيّول، كعجاجيل واحدها عَجَّول.

﴿كَعَصَفٍ﴾ في موضع نصب، على أنه مفعول ثانٍ لـ ﴿فَعَلَهُمْ﴾ أي صيرهم.

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الاستفهام للتقرير والتعجيب، أي اعجب.

﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إشادة بقدرة الله تعالى، والخطاب للنبي ﷺ بقوله ﴿رَبُّكَ﴾ تشريف له.

﴿فَعَلَهُمْ كَعَصَفٍ مَأْكُولٍ﴾ تشبيه مرسل مجمل، ذكرت الأداة، وحذف وجه الشبه.

﴿أَلْفِيلٍ﴾، ﴿تَضَلِيلٍ﴾، ﴿أَبَايَلٍ﴾، ﴿سِجِيلٍ﴾، ﴿مَأْكُولٍ﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي تعلم، والخطاب للرسول ﷺ، وهو إن لم يشهد تلك الواقعة، لكنه شاهد آثارها، وسمع بالتواتر أخبارها، فكأنه رآها، فإنها من الإرهاصات؛ لأنها وقعت في السنة التي ولد فيها الرسول ﷺ. ﴿بِأَحْصَبِ أَلْفِيلٍ﴾ أصحاب الفيل العظيم الذي كان اسمه «محمود». وهم أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل النجاشي، وجيشه الذين أرادوا هدم الكعبة لصرف الحجاج العرب عن مكة إلى كنيسة بناها أبرهة بصنعاء، وسماها «القليس». فحين توجهوا لهدم الكعبة، أرسل الله عليهم ما قصه في هذه السورة.

﴿الَّذِي يَجْعَلُ﴾ أي جعل ﴿كَيْدَهُمْ﴾ مكرهم وتديبرهم بتخريب الكعبة وتعطيلها. ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ تضييع وإبطال وهلاك وخسارة. ﴿طَيْرًا﴾ ما طار في الهواء، صغيراً أو كبيراً. ﴿أَبَائِلَ﴾ جماعات متفرقة. ﴿سَجِيلٍ﴾ طين متحجر. ﴿كَمَصْفٍ مَّاكُولٍ﴾ كورق زرع يبقى بعد الحصاد، أكلته الدواب وداسته وأفنته، أو كتبن أكلته الدواب وراثته.

التفسير والبيان:

﴿الَّذِي تَرَىٰ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ❶ ألم تعلم علم اليقين، وكأنك شاهدت الواقعة، بما صنع ربك العظيم القدير بأصحاب الفيل، حيث دمرهم الله، وحمل بيته الحرام، أفلا يجدر بقومك أن يؤمنوا بالله، وقد شاهد أناس منهم الواقعة، حيث أقبل قوم من النصارى الأحباش الذين ملكوا اليمن، إلى الحجاز، يريدون تخريب الكعبة، فلما قربوا من مكة، وأرادوا دخولها، أرسل الله عليهم جماعات من الطيور محملة بحجارة، ألقتها عليهم، فأهلكتهم؟

﴿الَّذِي يَجْعَلُ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ❷ أي أفسد خطتهم ومؤامرتهم، والمعنى: ألم تر أن ربك جعل مكرهم وتديبرهم وسعيهم في تخريب الكعبة، واستباحة أهلها، في تضليل عما قصدوا إليه، وفي ضياع وإبطال، حتى لم يصلوا إلى البيت، ولا إلى ما أرادوا بكيدهم، بل أهلكهم الله تعالى. والكيد: هو إرادة مضرة بالغير على الخفية.

وإذا علم قومك هذا الأمر، فليخافوا أن يعاقبهم الله بعقوبة مماثلة، ما داموا يصرون على الكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ وكتابه الكريم، ويصدون الناس عن سبيل الإيمان الحق بالله عز وجل.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَائِلَ﴾ ❸ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ ❹ أي وبعث الله عليهم جماعات متفرقة من الطيور السود، جاءت من قبل البحر

فوجاً فوجاً، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجله، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا دمره وهشمه.

وهي حجارة صغيرة من طين متحجر، كالحمصة وفوق العدسة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها، خرج به الجذري أو الخصب، حتى هلكوا.

﴿جَمَعَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُوِيَ﴾ أي فجعلهم فضلات وبقايا مثل ورق الزرع أو الشجر إذا أكلته الدواب، ثم رائته، فأهلكهم جميعاً.

أخرج البخاري أنه: «لما أطل رسول الله ﷺ يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، أي حرنت، فقال رسول الله ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خُطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أجبتهم إليها، ثم زجرها، فقامت».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فيبلغ الشاهد الغائب».

فقه الحياة لو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - هذا الخطاب، وإن كان للنبي ﷺ، ولكنه عام، أي ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل؟ أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع مني عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟!

٢ - دلت الواقعة على قدرة الله الصانع وعلمه وحكمته، وعلى شرف محمد ﷺ؛ لأنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة، تأسيساً لنبوتهم، وإرهاصاً

لها، ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله^(١). قال أبو حيان: كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد ﷺ إرهاباً بنبوته؛ إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات، والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد ضلل (أحبط) كيدهم، وأهلكهم بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل^(٢).

٣ - دلت القصة أيضاً على تكريم الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم المبادرة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وعبادة الله، وشكره على نعمائه.

٤ - كان إرسال الطير عليهم إرهاباً للنبي ﷺ، وأما بعد تقرير نبوته فلم يكن هناك حاجة إلى الإرهاب، لذا لم يعذب الحجاج بتخريب البيت، ولأنه لم يكن قاصداً للتخريب، وإنما أراد شيئاً آخر، وهو قتل ابن الزبير.

٥ - شبه تدميرهم وإهلاكهم وصيرورتهم بعد قصف الطير بالحجارة بصورة قبيحة حقيرة، تدل على حقارة كفرهم، وصغار نفوسهم، وهوانهم على الله، وتلك الصورة ورق يابس أو تبين تعصف به الريح، أكلته الدواب وراثته، أي كفضلات البهائم، وذلك يدل أيضاً على فنائهم التام؛ لأنه أراد تشبيه تقطيع أوصالهم بتفريق أجزاء الروث.

إلا أن هذا التشبيه جاء على منهج القرآن في أدبه الرفيع، مثل قوله تعالى في تشبيه عيسى وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥/٥].

وإنما سلط الله العذاب على أصحاب الفيل، ولم يسلطه على كفار قريش الذين ملؤوا الكعبة أوثاناً؛ لأن أصحاب الفيل قصدوا التخريب، وهذا تعدُّ

(١) تفسير الرازي: ٩٧/٣٢

(٢) البحر المحيط: ٥١٢/٨

على حق العباد، ووضع الأوثان فيها قصدوا به التقرب إلى الله، وهو مع ذلك تعدّ على حق الله تعالى، وحق العباد مقدّم على حق الله تعالى.

٦ - قال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً، فضربت الحجارة فزادتها شدة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِنْدَةَ، فقال:

فإنك لو رأيت ولم تَرِهْ خَشِيتُ الله إذ قد بث طيراً
وباتت كُلُّها تدعو بحق لَدَى جنب المَعَمَّس ما لَقِينَا
وظَلَّ سحابة مرّت علينا كأن لها على الحُبْشَان دَيْنَا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدم في القصة التاريخية أن أميرهم أبرهة رجع وشُرْذمة قليلة معه، فلما أُخْبِرُوا بما رأوا هلكوا. وذلك للعبرة والعظة.

٧ - قال ابن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظُمَت العرب قريشاً وقالوا: أَهْلُ الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية، وهي أربع آيات

تسميتها:

سميت سورة قريش تذكيراً لهم بنعم الله عليهم في مطلع السورة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا قُرَيْشٌ﴾

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين:

١ - كلتا السورتين تذكير بنعم الله على أهل مكة، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجدهم وعزهم، وهذه السورة تذكر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية، حيث حقق الله بينهم الألفة واجتماع الكلمة، وأكرمهم بنعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار والإمساك بزمام الاقتصاد التجاري في الحجاز، بالقيام برحلتين صيفاً إلى الشام وشتاء إلى اليمن.

٢ - هذه السورة شديدة الاتصال بما قبلها، لتعلق الجار والمجرور في أولها بآخر السورة المقدمة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا قُرَيْشٌ﴾ أي لإلف قريش، أي أهلك الله أصحاب الفيل، لتبقى قريش، ولذا كانتا في مصحف أبي سورة واحدة.

ولكن في المصحف الإمام فصلت هذه السورة عن التي قبلها، وكتب بينهما:
(بسم الله الرحمن الرحيم).

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية تعداد نعم الله العظمى على قريش أهل مكة، حيث جمع الله كلمتهم، وحقق الألفة والتشامش بينهم: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ﴾ (١) ﴿وَمَكَّنَهُمْ مِنَ التَّنَقُّلِ وَحَرِيَّةِ التِّجَارَةِ إِلَى الْيَمَنِ شَتَاءً، وَإِلَى الشَّامِ صَيْفًا، لِتَوْفِيرِ الثَّرْوَةِ وَالْغِنَى: ﴿إِلَّا إِلَهُهُمْ رِحْلَةَ الْيَمَنِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢).

وهيأ لهم في البلد الآمن الحرام نعمة الأمن والاطمئنان والاستقرار دون نزاع من أحد: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤).

فضلها:

روى البيهقي في كتاب الخلافات عن أم هانئ بنت أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خلال: أي منهم، وأن النبوة فيهم، والحجاجة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبد غيره، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن، ثم تلا رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ﴾ (١) ﴿رِحْلَةَ الْيَمَنِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤)». قال ابن كثير: وهو حديث غريب.

التذكير بنعم الله على قريش

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ﴾ (١) ﴿إِلَّا إِلَهُهُمْ رِحْلَةَ الْيَمَنِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤)

القراءات:

﴿لَا يَلْفُ﴾:

وقرأ ابن عامر (الإلاف).

الإعراب:

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ اللام في (إيلاف) إما متعلقة بفعل مقدر، تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، أو متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ أي لأجل هذا، أو متعلقة بقوله تعالى: ﴿فَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ ۝٥﴾ آخر سورة الفيل. و﴿إِذْ لَفِيهِمْ﴾: مجرور على البدل من (إيلاف) الأولى، و (إيلاف) مصدر رباعي، وهو آلف يؤلف إيلافاً. وقرئ (الإفهم) على أنه مصدر فعل ثلاثي، وهو (ألف يألف إلفاً). و﴿قُرَيْشٍ﴾ إن أردت به الحي صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه.

و ﴿رِحْلَةَ﴾ منصوب؛ لأنه معمول المصدر المضاف، وهو إيلافهم، مثل ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥١] و [الحج: ٢٢/٤٠].

البلاغة:

﴿الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ بينهما طباق، وكذلك بين ﴿جُوعٍ﴾ و﴿خَوْفٍ﴾.

﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف.

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١﴾ وقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾

تقديم ما حقه التأخير، والأصل: ليعبدوا رب هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فقدم الإيلاف تذكيراً بالنعمة.

﴿جُوعٍ﴾ ﴿خَوْفٍ﴾ التكرير لبيان شدتهما، أي جوع وخوف شديدين.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ ① يقال: ألف الشيء إيلافاً، وألف إلفاً وإلفاً، أي لزمه وعكف عليه، مع الأنس به وعدم النفور منه، قال الزمخشري: متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، ودخلت الفاء على ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط؛ إذ المعنى: أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لأجله. و﴿قُرَيْشٌ﴾ مجموعة القبائل من ولد النضر بن كنانة. منقول من تصغير قرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن، شبهوا بها؛ لأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعل، وصغر الاسم للتعظيم. وقال أبو حيان: سمو بذلك لتجمعهم بعد التفرق، جمعهم قصي بن كلاب في الحرم، والتقریش: التجمع والالتام.

﴿إِلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ② أي بسبب إلفهم الارتحال إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف كل عام، يستعينون بالرحلتين للتجارة على المقام بمكة، لخدمة البيت الذي هو فخرهم ومجدهم. والرحلة: ارتحال القوم؛ بشد الرحال للمسير. ﴿الْبَيْتِ﴾ الكعبة. ﴿أَطْعَمَهُمْ﴾ وسع لهم في الرزق. ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾ أي من أجل جوع وخوف. ﴿وَأَمْنَهُمْ﴾ جعلهم في أمن وسلامة في الأموال والأنفس. ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾ خوف أصحاب الفيل. أو التخطف في بلدهم ومسايرهم. وكان يصيبهم الجوع لعدم الزرع بمكة، وخافوا جيش الفيل.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

أخرج الحاكم وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال» الحديث المتقدم، وفيه: نزلت فيه سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ ①.

التفسير والبيان:

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ أي فلتعبد قريش ربها، شكراً له، لأجل إيلافهم (أي جعلهم يألفون، ويشتر لهم ذلك) رحلتين: رحلة إلى اليمن شتاء لجلب العطور والبهارات الآتية من الهند والخليج، وكونها في الشتاء؛ لأنها بلاد حارة، ورحلة إلى الشام في الصيف، لجلب الحبوب الزراعية، وكونها في الصيف؛ لأنها بلاد باردة، وكانت قريش في مكة تعيش بالتجارة، ولولا هاتان الرحلتان لم يتمكنوا من المقام بها، ولولا الأمن بجوار البيت، لم يقدروا على التصرف، وكانوا لا يُغار عليهم؛ لأن العرب يقولون: قريش أهل بيت الله عز وجل. وكل هذا الاحترام والإجلال لقريش أهل مكة من الله عز وجل الذي هياه لهم بواسطة البيت الحرام، فكان عليهم الإقرار بهذه النعمة، وإفراد الله بالعبادة والتعظيم.

وصرح محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن هذه السورة متعلقة بما قبلها؛ لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله لإيلاف قريش، أي لاتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.

وعلى كل حال فهاتان نعمتان: نعمة صد أصحاب الفيل، ونعمة جوار البيت الحرام والاتلاف فيه، فإن لم يعبدوا الله لسائر نعمه، فليعبدوه لهاتين النعمتين. وقد عرّفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت، بالرغم من أوثانهم التي يعبدونها حول الكعبة، فميّز نفسه عنها، وبالبیت تشرفوا على سائر العرب، وهم يدركون هذا ويقرون به. وكانت الإشارة إلى البيت في السورة لإفادة التعظيم.

قال الرازي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾: اعلم أن الإنعام على قسمين: أحدهما - دفع الضرر، والثاني - جلب النفع،

والأول أهم وأقدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفس واجب، أما جلب النفع، فإنه غير واجب، فلهذا السبب بين الله تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل، ونعمة جلب النفع في هذه السورة، ونظراً لهاتين النعمتين العظيمتين أمرهم ربهم بعبادته والعبودية له وأداء الشكر على ذلك: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (١).

والعبادة: هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون، وهي تحقق معنى العبودية.

ثم ذكر الله تعالى نعماً أخرى على قريش، وصف بهما رب هذا البيت، فقال:

- ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ﴾ أي هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع، ووسّع لهم في الرزق، ويشرّ لهم سبيله، بسبب هاتين الرحلتين، فخلصهم من جوع شديد كانوا فيه قبلهما.

- ﴿وَأَمَّنَّهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي وتفضل عليهم بالأمن والاستقرار، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندأ ولا وثناً، قال ابن كثير: ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل: ١١٢-١١٣) (٣).

(١) تفسير الرازي: ١٠٧/٣٢

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٥٣/٤

وكانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش كما تقدم من ذلك لمكان الحرم، كما آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٧] .

فقه الحياة أو الاحكام:

أمر الله تعالى في هذه السورة قريشاً -وهم أولاد النضر بن كنانة- بعبادة وتوحيد ربهم الذي أنعم عليهم بهذه النعم الكثيرة ومنها:

١ - إهلاك أصحاب الفيل وصدّهم عن مكة، كما أهلكوا أيضاً لأجل كفرهم، وفي هذا دفع لضرر عظيم مؤكد الحصول لولا عناية الله وحايته، وتوفير أيضاً للأمن والسلامة والاطمئنان بجوار البيت الحرام.

٢ - نعمة الرزق وتوفير الحاجة والكفاية بسبب ارتحالمهم إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفاً لجلب مختلف أنواع التجارات من الأطعمة والثياب، مع أمنهم من إغارة العرب عليهم؛ لأنهم أهل بيت الله وجيرانه.

٣ - نعمة الأمن من المخاوف، سواء في داخل مكة حيث جعل الله لهم مكة بلداً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم، أو في خارجها عندما يتنقلون للتجارة والكسب.

٤ - نعمة وجود البيت الحرام أو الكعبة المشرفة محل التعظيم والتقديس من العرب، وأساس مجدهم وعزهم، فإنهم شرفوا بالبيت على سائر العرب، فذكّرهم الله بهذه النعمة.

والخلاصة: أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة وهي إيلافهم رحلتين.

روى ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن أم سلمة الأنصارية، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل لكم قریش: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾». وروى عنها أيضاً: قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قریش ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾» ويحكم يا معشر قریش، اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف».

واستدل الإمام مالك بالسورة على أن الزمان قسمان: شتاء وصيف، ولم يجعل لهما ثالثاً، فالشتاء نصف السنة، والصيف نصفها.

واستدل العلماء بهذا أيضاً على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محليين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ أدوات التبريد صيفاً، ووسائل الدفء شتاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَاعُونِ

مكية، وهي سبع آيات

مكيّتها أو مدنيّتها:

هذه السورة مكية في قول الجمهور، مدنية في قول ابن عباس وقتادة، وقال هبة الله المفسر الضرير: نزل نصفها بمكة في العاصي بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق.

تسميتها:

سميت سورة الماعون، لأن الله تعالى ذم في نهايتها المدنية الذين يمنعون الماعون: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧) كالمساهين عن الصلاة، والمنافقين. والماعون: ما يستعيره الجار من جاره من أدوات الطبخ، كالقدر والملح والماء، وآلات الحراثة والزرع، كالفأس والدلو، ووسائل الخياطة كالإبرة والخيط ونحو ذلك من كل ما يستعان ويتفجع به من المنافع السريعة. وتسمى أيضاً سورة الدين؛ للنعي في مطلعها المكي على الذي يكذب بالدين، أي الجزء الآخر.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

١ - ذم الله في السورة السابقة (سورة قريش) الجاحدين لنعمة الله الذين ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ وذم في هذه السورة من لم يحض على طعام المسكين.

٢ - أمر الله في السورة المتقدمة بعبادته وحده وتوحيده: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ وذم في هذه السورة الذين هم عن صلاتهم ساهون، وينهون عن الصلاة.

٣ - عدّد الله تعالى في السورة الأولى نعمه على قريش، وهم مع ذلك ينكرون البعث، ويحجدون الجزاء في الآخرة، وأتبعه هنا بتهديدهم وتخويفهم من عذابه لإنكار الدين، أي الجزاء الأخروي.

ما اشتملت عليه السورة:

تحدثت هذه السورة المكية في مطلعها عن الكافر، وفي نهايتها المدنية عن المنافق.

أما مطلعها فهو في ذم الكافر المكذب بيوم الحساب والجزاء: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ﴾ ووصفته بصفتين: الأولى - انتهاره وزجره وطرده اليتيم، والثانية - عدم الحض أو الحث على إطعام المسكين، فلم يحسن في عبادة ربه، ولم يفعل الخير لغيره.

وأما خاتمها فهي في ذم المنافق الذي أظهر الإسلام وأخفى الكفر، ووصفته بصفات ثلاث: الأولى - الغفلة عن الصلاة، والثانية - مراعاته الناس بعمله، والثالثة - منعه الماعون الذي يستعان ويتنفع به بين الجزان، فهو لا يعمل لله، بل يراي في عمله وصلاته.

وتوعدت الفريقين بالخزي والعذاب والهلاك، ولفتت الأنظار إليهم بأسلوب الاستهجان والاستغراب والتعجيب من صنيعهم.

الكافر المنكر الجزاء الأخروي والمنافق المرائي بعمله وعقاب كل منهما

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ۚ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۚ ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿أَرَأَيْتَ﴾:

وقرأ الكسائي (أريت).

الإعراب:

﴿أَرَأَيْتَ﴾ بالهمزة على الأصل، وهو في الأظهر عند ابن الأنباري من
رؤية العين، لا من رؤية القلب، فيتعدى إلى مفعول واحد، وليس في الآية
إلا مفعول واحد. وقرئ ﴿أَرَأَيْتَ﴾ بتخفيف الهمزة، يجعلها بين الهمزة
والألف؛ لأن حركتها الفتح. وقرئ (أريت) بحذف الهمزة الأولى للتخفيف،
كما حذف في المضارع، نحو (يرى). وقال أبو حيان: الظاهر أن ﴿أَرَأَيْتَ﴾
هنا هي التي بمعنى أخبرني، فتتعدى لاثنتين، أحدهما ﴿الَّذِي﴾ والآخر
محذوف تقديره: أليس مستحقاً عذاب الله؟ أو: من هو؟

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ ﴿٥﴾﴾ ﴿فَوَيْلٌ﴾
مبتدأ: و ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ خبره، و ﴿الَّذِينَ﴾ صفة الخبر، و ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ۚ ﴿٥﴾﴾ صلته. ولم تحصل الفائدة بالخبر، بل بما وقع صلة الصفة، وهو
قوله ﴿سَاهُونَ﴾ وهذا يسمى الخبر الموطئ: وهو أن معتمد الفائدة إنما كان

بصفة الخبر، لا بالخبر. مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَجَاهُلْتُمْ﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٥] فإن قوله: ﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿قَوْمٌ﴾ خبره، ومعتمد الفائدة على صفة الخبر، لا عليه، لأن قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ﴾ لم تحصل به الفائدة، للعلم بأنهم قوم، وإنما حصلت الفائدة بقوله: ﴿تَجَاهُلْتُمْ﴾.

البلاغة:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ ۖ﴾ استفهام يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجب منه.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ﴾ إيجاز بالحذف، حذف منه الشرط، أي إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُ اليتيم.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ذم وتوبيخ، ووضع الظاهر موضع الضمير، والأصل (فويل لهم) زيادة في التقيح؛ لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.

﴿وَيَسْتَعِزُّونَ الْمَاعُونَ﴾ جناس ناقص.

﴿سَاهُونَ﴾ ﴿بُرْءَاؤُكَ﴾ ﴿الْمَاعُونَ﴾: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات، وكذلك ﴿بِالذِّبِّ﴾ ﴿الْمُسْكِينِ﴾ ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي هل عرفت وعلمت؟ وهو استفهام معناه التعجب وتشويق السامع إلى معرفة ما يذكر بعده. ﴿بِالذِّبِّ﴾ بالجزاء والحساب. والمعنى العام للدين: هو النظام الإلهي للحياة المشتغل على الخضوع لما وراء المحسوس بآثار الكون الدالة على وجود الله ووحدانيته، وبعثة الرسل، والتصديق بعالم الآخرة. ﴿يَدْعُ أَلَيْسَ﴾ أي يدفعه بعنف عن حقه، ويزجره زجراً عنيفاً، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ٥٢/ ١٣].

﴿وَلَا يَحْضُ﴾ لا يبحث نفسه وأهله وغيرهم من الناس. ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ إطعام. ﴿فَوَيْلٌ﴾ خزي وعذاب وهلاك. ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن الصلاة، يؤخرونها عن وقتها. ﴿يُرَاءُونَ﴾ في الصلاة وغيرها، يُرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها، والرياء: المصانعة وفعل الشيء لغير وجه الله، إرضاء للناس. ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ٧ كل ما يستعان ويستفاد به كالإبرة والفأس والقدر والقصة.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿أَرَأَيْتَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقال السدي: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل، كان وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه. وقال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جزوراً، فطلب منه يتيم شيئاً، فقرعه بعصاه؛ فأنزل الله هذه السورة.

نزول الآية (٤):

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤: أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤ قال: نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارية، أي الشيء المستعار.

التفسير والبيان:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ﴾ ١١ أي أبصرت يا محمد الذي يكذب بالحساب والجزاء؟ أو بالمعاد والجزاء والثواب. وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وإن كان في صورة استفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب. وهذا مثال آخر لكون الإنسان في خسر.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝﴾ أي هو الذي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً، ويزجره زجراً عنيفاً، ويظلمه حقه ولا يحسن إليه، وقد كان عرب الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان.

ولا يحث نفسه ولا أهله ولا غيرهم على إطعام المسكين المحتاج، بخلاً بالمال، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝﴾ [الفجر: ١٧/١٨-١٧/٨٩] أي الفقير الذي لا يملك شيئاً، أو لا يجد كفايته.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ أي فعزي وعذاب للمنافقين الذين يؤدون الصلاة أحياناً تظاهراً، والذين هم غافلون عنها، غير مباليين بها، لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا.

ولم يقل: في صلاتهم ساهون؛ لأن السهو في أثناء الصلاة مغتفر معفو عنه لأنه غير اختياري، وإنما قال: عن صلاتهم ساهون بتأخيرها عن وقتها رأساً، أو فعلها مع قلة مبالاة بها، كقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢/٤]. ويجوز أن يطلق لفظ (المصلين) على تاركي الصلاة، بناء على أنهم من جملة المكلفين بالصلاة.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝﴾ أي إن أولئك الساهين عن صلاتهم هم الذين يراؤون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراؤون الناس بكل ما عملوا من أعمال البر، ليشنوا عليهم. قال الزمخشري: المراءة: هي مفاعلة من الإراءة؛ لأن المرائي يُري الناس عمله، وهم يُروونه الثناء عليه، والإعجاب به.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سَمِعَ الناس بعمله، سَمِعَ الله به سامع خلقه، وحقَّره، وصغَّره».

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي يمنعون العارية وفعل الخير، و﴿الْمَاعُونَ﴾ اسم لكل ما يتعاوره الناس بينهم، من الدُّلُو والفأس والقُدُوم والقِدْر ومتاع البيت، وما لا يمنع عادة، كالماء والملح، مما ينسب مانعه إلى الخسة ولؤم الطبع وسوء الخلق.

فهؤلاء المنافقون لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه، ورجوعه إليهم، وهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى.

روى النسائي وغيره عن عبد الله بن مسعود قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدُّلُو والقِدْر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - ذم المكذب بالجزاء والحساب في الآخرة، واللفظ عام لا يقتصر على من كان سبب نزول الآية.

٢ - من صفات المكذب بالجزاء الأخروي وقبائحه: زجر البيتيم وطرده ودفعه عن حقه وظلمه وقهره، وترك الخير وعدم الحث أو عدم الأمر على إطعام الفقير والمسكين، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وليس الذم عاماً، حتى يتناول من تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يخلون مع الغنى، ويعتذرون لأنفسهم.

٣ - الويل، أي العذاب والتهديد العظيم لمن فعل ثلاثة أمور: أحدها - السهو عن الصلاة، وثانيها - فعل المراءاة، وثالثها - منع الماعون.

وقد جمع المنافقون الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال.

والسهو عن الصلاة: تركها رأساً، أو فعلها مع قلة المبالاة بها كما تقدم.
أما السهو في الصلاة فهو أمر غير اختياري، فلا يدخل تحت التكليف.
وقد ثبت أنه ﷺ سها في الصلاة، وشرع سجود السهو لمن سها. وكذلك سها الصحابة.

وحقيقة الرياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وطلب المنزلة في قلوب الناس، وللرياء أنواع، وأولها: تحسين السمات (الهيئة) مع إرادة الجاه وثناء الناس. وثانيها: لبس الثياب القصار أو الخشن، ليأخذ بذلك هيبة الزهد في الدنيا. وثالثها: الرياء بالقول بإظهار السخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوته من فعل الخير والطاعة.

ورابعها: إظهار الصلاة والصدقة، أو تحسين الصلاة لأجل رؤية الناس له^(١).

والفرق بين المنافق والمرائي: أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر، والمرائي: المظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين^(٢).

وقال العلماء: لا بأس بالإراءة إذا كان الغرض الاقتداء، أو نفي التهمة. واجتناب الرياء صعب إلا على من راض نفسه، وحملها على الإخلاص. ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «الرياء أخفى من ديب النملة السوداء، في الليلة المظلمة، على المسح الأسود»^(٣) أي البلاس المصنوع من الشعر.

والماعون عند أكثر المفسرين: اسم جامع لما لا يمنع في العادة، ويسأله

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ١٩٧٢/٤، تفسير القرطبي: ٢١٢/٢٠ - ٢١٣

(٢) تفسير الرازي: ١١٥/٣٢

(٣) تفسير الكشاف: ٣٦٢/٣

الفقير والغني في أغلب الأحوال، ولا ينسب سائله إلى لؤم، بل ينسب مانعه إلى اللؤم والبخل، كالفأس والقدر والدُّلْو والمقدحة والغربال والقُدوم، ويدخل فيه الماء والملح والنار، لما روى ابن ماجه عن أبي هريرة: «ثلاثة لا يمنعن: الماء والنار والملح». ومن ذلك أن يلتبس جارك الخبز من تتورك، أو أن يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم^(١). وقيل: منع الماعون: منع زكاة أموالهم.

وبالرغم من أن هذه الأوصاف واضحة في المنافقين، فإن بعضها قد يوجد في المسلم الصادق الإسلام، وحينئذ يلحقه جزء من التوبيخ، كالصلاة إذا تركها، ومنع الماعون إذا تعين، ويكون منعاً قبيحاً مخلاً بالمرءة في غير حال الضرورة.

٤ - في الآيتين حول السهو عن الصلاة ومنع الماعون إشارة إلى أن الصلاة لله عز وجل، والماعون للخلق أو للناس، فمن ترك الصلاة لم يراع جانب تعظيم أمر الله، ومن منع الماعون لم يراع جانب الشفقة على خلق الله، وهذا كمال الشقاوة، نعوذ بالله منها.

والخلاصة: وصف الله الكفار والمنافقين في هذه السورة بأربع صفات: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة والخير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مكية، وهي ثلاث آيات

مكيتها لو مدنيتهما:

هذه السورة مكية في المشهور وقول الجمهور، وقال الحسن وعكرمة وقتادة: مدنية، وهو رأي ابن كثير.

تسميتها:

سميت سورة البقرة لافتتاحها بقول الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومنه: نهر الكوثر في الجنة.

مناسبتها لما قبلها:

وصف الله الكفار والمنافقين الذين يكذبون بالدين أي بالجزاء الآخروي بأربع صفات: البخل في قوله: ﴿يَدْعُ الْبَلِيَّةَ﴾، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿٢﴾ وترك الصلاة في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ٣. والرياء أو المراءاة في الصلاة في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ بِرِئَاءَتِكِ﴾ ومنع الخير والزكاة في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ٧.

وذكر الله تعالى في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعاً للنبي ﷺ، فذكر أنه أعطاه الكوثر في مقابلة البخل في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ أي الخير الكثير الدائم، فأعطى أنت الكثير ولا تبخل، وأمره بالمواظبة على الصلاة: ﴿فَصَلِّ ۝٢﴾ أي دُم على الصلاة في مقابلة ترك الصلاة، وأمره بالإخلاص في الصلاة في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ ۝٣﴾ أي لرضا ربك، لا لمراءاة الناس، في مقابلة المراءاة في الصلاة، وأمره بالتصدق بلحم الأضاحي على الفقراء، في مقابلة منع الماعون^(١).

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية الحديث عن مقاصد ثلاثة هي:

- ١ - بيان فضل الله الكريم وامتنانه على نبيه الرحيم بإعطائه الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه نهر الكوثر في الجنة.
- ٢ - أمر النبي وكذا أمته بالمواظبة على الصلاة، والإخلاص فيها، ونحر الأضاحي شكراً لله تعالى.
- ٣ - بشارة الرسول ﷺ بنصره على أعدائه، وبخزيهم وإذلالهم وحقارتهم، بسبب انقطاعهم عن كل خير في الدنيا والآخرة.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه أنزلت علي آناً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ حتى ختمها، فقال: أتدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله

ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمي يوم القيامة، آتيته عدد الكواكب، يخرج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وأخرج مسلم - واللفظ له - وأبو داود والنسائي عن أنس قال: «بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاء، ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: لقد أنزلت علي آتفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة، آتيته عدد النجوم في السماء، فَيُخْتَلَجُ^(١) العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك».

سبب نزول السورة:

أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى هذا المنصب المنبر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة! قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحى إلى النبي ﷺ قالت قريش: بتر محمد منا، فنزلت: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور

(١) أي بترع ويقطع.

الرجل: بئر فلان، فلما مات ولد النبي ﷺ، قال العاص بن وائل: بئر محمد، فنزلت. وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي، وسمى الولد: القاسم، وأخرج عن مجاهد قال: نزلت في العاصي بن وائل، وذلك أنه قال: أنا شاني محمد.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ (١) قالت: نزلت يوم الحديبية، أتاه جبريل، فقال: انحر واركع، فقام، وخطب خطبة الفطر والنحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البدن، فنحراها. لكن فيه غرابة شديدة كما قال السيوطي.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: بلغني أن إبراهيم ولد النبي ﷺ لما مات، قالت قريش: أصبح محمداً بترأ، فغاضه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (٢) تعزية له.

والخلاصة: كان سبب نزول هذه السورة هو استضعاف النبي ﷺ، واستصغار أتباعه، والشمانة بموت أولاده الذكور، ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، والفرح بوقوع شدة أو محنة بالمؤمنين، فنزلت هذه السورة إعلاماً بأن الرسول ﷺ قوي منتصر، وأتباعه هم الغالبون، وأن موت أبناء الرسول ﷺ لا يضعف من شأنه، وأن مبغضيه هم المنقطعون الذين لن يبقى لهم ذكر وسمعة، البعيدون عن كل خير.

المنح المعطاة للنبي ﷺ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ (٢) ﴿إِن شِئْنَا﴾ (٣) ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (٤)

الإعراب:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) ﴿إِنَّا﴾ أصله: إنا، فحذفت إحدى

النونات استقلاً لاجتماع الأمثال، وذهب الأكثرون إلى أن المحذوفة هي الوسطى.

والكوثر: فوعل من الكثرة، والواو فيه زائدة، وهو نهر في الجنة، وسمي كوثراً لكثرة مائه، ورجل كوثر: كثير العطايا والخير.

﴿إِنَّكَ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (٣) ﴿هُوَ﴾ إما ضمير فصل لا موضع له من الإعراب، و﴿الْأَبْتَرُ﴾ خبر ﴿إِنَّكَ﴾، أو مبتدأ، و﴿الْأَبْتَرُ﴾ خبره، والمبتدأ والخبر: خبر ﴿إِنَّكَ﴾.

للبلاغة:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ ﴿إِنَّا﴾ بصيغة الجمع الدالة على التعظيم. وفيه تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم؛ لأن أصلها: إن ونحن. وعبر بصيغة الماضي المفيدة للوقوع. ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك، للدلالة على تحقق وقوع الوعد مبالغة، كأنه حدث ووقع.

﴿الْكُوثَرُ﴾: مبالغة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ الإضافة للتكريم والتشريف.

﴿إِنَّكَ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (٣) إفادة الحصر.

﴿الْكُوثَرُ﴾ ﴿الْأَبْتَرُ﴾ مطابقة أو طباق؛ لأن ﴿الْكُوثَرُ﴾ الخبر الكثير، و﴿الْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا محمد وقرئ (أنطيناك) ﴿الْكُوثَرُ﴾ المفرط في كثرة الخير من العلم والعمل وشرف الدارين بالنبوة والقرآن والدين الحق والشفاعة

ونحوها، ومنه نهر في الجنة كما روي عنه ﷺ فيما رواه الإمام أحمد ومسلم ومن معهما في الحديث المتقدم عن أنس أنه: «نهر في الجنة، وعدنيه ربي، فيه خير كثير، أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضة، لا يظما من شرب منه» وقيل: حوض في الجنة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي داوم على الصلاة، خالصاً لوجه الله، شكراً لإنعامه، وقيل: المراد صلاة عيد النحر. ﴿وَأَنْحَرْ﴾ الشُّكُّ أو الهدى أو الأضحية، وتصدق على المحاويع (المحتاجين). ﴿شَانِئَكَ﴾ مبغضك. ﴿هُوَ الْأَبَرُّ﴾ المنقطع عن كل خير، أو المنقطع العقب، أي الذي لا عقب له، إذ لا يبقى له نسل، ولا حسن ذُكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يوصف.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي منحناك الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى النهاية أو الغاية، ومنه نهر في الجنة، جعله الله كرامة لرسول الله ﷺ ولأمته. وهذا ردّ على الأعداء الذين استخفوا به واستقلوه، ووصف منافض لما عليه أهل الكفر والنفاق من البخل.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك نهر الكوثر، فداوم على صلاتك المفروضة والنافلة، وأدّها خالصة لوجه ربك، وانحر ذبيحتك وأضحيتك وما هو نُسُكُك لك وهو الهدى (شاة أو بعير مقدّم للحرم) وغير ذلك من الذبائح لله تعالى وعلى اسم الله وحده لا شريك له، فإنه هو الذي تعهدك بالتربية وأسبغ عليك نعمه دون سواه، كما جاء في آية أخرى أمراً له: ﴿قُلْ إِنِّي صَلَّيْتُ وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له. ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وهذا على نقيض فعل المشركين الذين كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فأمر نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له، وهو أيضاً نقيض فعل المنافقين المرائين.

وقال قتادة وعطاء وعكرمة: المراد صلاة العيد، ونحر الأضحية.

قال ابن كثير: الصحيح أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا جاء في حديث البراء بن عازب عند البخاري ومسلم: «كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول: من صلى صلاتنا، ونسك نُسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له» فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم قال: شاتك شاة لحم، قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك.

وقال ابن جرير في تفسير الآية: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك، خالصاً دون ما سواه، من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك، اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له، وخصك به.

﴿إِنَّ شَاتَيْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتَر الأقل الأذل المنقطع عن خيري الدنيا والآخرة، والذي لا يبقى ذكره بعد موته. وهذا ردّ على ما قال بعض المشركين وهو العاص بن وائل عن النبي ﷺ لما مات ابنه عبد الله من خديجة: إنه أبتَر، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير. والأبتَر من الرجال: الذي لا ولد له. وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وهذا يعم جميع من اتصف بعبادة النبي ﷺ ممن ذكر في سبب النزول وغيرهم. قال الحسن البصري رحمه الله: عني المشركون بكونه

أبتر: أنه يتقطع عن المقصود قبل بلوغه، والله يبين أن خصمه هو الذي يكون كذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على ما يأتي:

١ - أعطى الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ مناقب كثيرة، وخيراً كثيراً عظيماً بالغاً حدّ النهاية، ومنه نهر في الجنة، كما روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس.

وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافته من ذهب، ومجره على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج» وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وقيل: إنه حوض النبي ﷺ في الموقف، كما جاء في حديث مسلم المتقدم عن أنس.

وهذان القولان هما أصح الأقوال، فيكون الكوثر شاملاً نهراً في الجنة، وحوضاً ترد عليه أمة النبي ﷺ يوم القيامة.

٢ - أمر الله تعالى نبيه ﷺ وأمته بأداء الصلوات المفروضة والنوافل خالصة لوجه الله تعالى، دون مشاركة أحد سواه، وأمرهم أيضاً بذبج المناسك مما يهdy إلى الحرم والأضاحي وجميع الذبائح لله تعالى، وعلى اسم الله وحده لا شريك له.

٣ - إن مبغضي النبي ﷺ وما جاء به من شرع ربه هم المنقطعون عن خيري الدنيا والآخرة، والذين لا يبقى لهم ذكر مسموع بعد موتهم؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة الحق، ولم يعملوا من أجل الحق والخير المحض لله سبحانه وتعالى.

هذا.. وقد ذكر الرازي رحمه الله أن هذه السورة كالتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور، وأورد ما شرف الله به نبيه محمداً ﷺ وأتمته من الفضائل والمزايا والمناقب في سورة الضحى والانشراح والتين والعلق والقدر والبينة والزلال والعاديات والقارعة والتكاثر والعصر والهمزة والفيل وقريش، ثم الكوثر، فليرجع إليه، فإنه كلام رائع^(١).

وروي عن علي رضي الله عنه فيما خرَّجه الدارقطني في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة. وقد اختلف المالكية في هذه الهيئة، والصحيح كما قال القرطبي أن المصلي يفعل ذلك في الفريضة والنافلة؛ لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى، من حديث وائل بن حجر وغيره. وبه قال مالك وأحمد وإسحاق والشافعي وأصحاب الرأي. واستحب جماعة إرسال اليد^(٢).

والموضع الذي توضع عليه اليد يختلف فيه، فروي عن علي بن أبي طالب أنه وضعهما على الصدر. وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل: فوق الشرة، وقال: لا بأس إن كانت تحت السرة.

وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فمختلف فيه أيضاً. والصواب ما في الصحيحين من حديث ابن عمر، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه، حتى تكونا حذو منكبيه، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع، ويقول: سمع الله لمن حمده، ولا يفعل ذلك حين يرفع

(١) تفسير الرازي: ١١٨/٣٢ - ١١٩

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/٢٢٠ وما بعدها.

رأسه من السجود». قال ابن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور، وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول، وبه أقول؛ لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي^(١).

(١) المرجع والمكان السابق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

مكية، وهي ست آيات

تسميتها:

سميت سورة (الكافرون) لأن الله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ بأن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾. وتسمى أيضاً سورة المناظرة، وسورة الإخلاص، والمقشقة.

مناسبتها لما قبلها:

أمر الله نبيه في السورة السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وفي هذه السورة سورة التوحيد والبراءة من الشرك تصريح باستقلال عبادة عن عبادة الكفار، فهو لا يعبد إلا ربه، ولا يعبد ما يعبدون من الأوثان والأصنام، وبالع في ذلك فكرهه وأكّده، وانتهى إلى أن له دينه، ولهم دينهم.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المكية - سورة البراءة من عمل المشركين والإخلاص في العمل لله تعالى - وضعت الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر، وبين أهل الإيمان وعبد الأوثان، فحينما طلب المشركون المهادنة من رسول الله ﷺ، وأن يعبد

أهتتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، نزلت السورة تقطع أطماع الكفار الرخيصة، وتفصل النزاع بين فريقَي المؤمنين والكافرين إلى الأبد.

فضلها:

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف.

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر. وروي هذا أيضاً عند أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد تقدم في سورة الزلزال في حديث ابن عباس عند الترمذي أنها تعدل ربع القرآن، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن.

وروى أبو القاسم الطبراني عن جبلة بن حارثة - وهو أخو زيد بن حارثة - أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرا: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ (١)، حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك». وروى الإمام أحمد مثل ذلك عن الحارث بن جبلة. والخلاصة: ثبت أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) في ركعتي الطواف، وفي ركعتي الفجر، والركعتين بعد المغرب، ويوتر بـ ﴿سَجَّ﴾، و﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ (١)، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١).

سبب نزولها:

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس: «أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وتكفت عن شتم أهتنا، ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آهتنا سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فأنزل الله:

﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ عِبَادَئِهَا الْجَاهِلُونَ ۝٢﴾ [الزمر: ٦٤/٣٩] .

وأخرج عبد الرزاق عن وهب قال: قالت كفار قريش للنبي ﷺ: إن سرّك أن تتبنا عاماً، ونرجع إلى دينك عاماً، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هلّمّ فلنعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكٰفِرُونَ ۝١﴾.

ويؤيد هذا ما ذكره النيسابوري: أنها نزلت في رهط من قريش، قالوا: يا محمد، هلّمّ، اتبع ديننا وتتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما في أيدينا قد شرّكناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، قد شركت في أمرنا، وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملاء من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك^(١).

وذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس: أن سبب نزولها «أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمّية بن خلف؛ لقوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هلّمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا،

(١) أسباب النزول للنيسابوري الواحدي: ص ٢٦١

كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝﴾^(١).

سورة البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين

﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

القراءات:

﴿وَلِيَ دِينِ﴾:

قرأ نافع، وحفص (ولي دين) وقرأ باقون (ولي دين).

الإعراب:

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى الذي في موضع نصب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ و﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة (الذي) والعائد محذوف، تقديره: ما تعبدونه. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، فلا تفتقر إلى عائد.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٣﴾ قال: ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ ولم يقل (من) لمطابقة ما قبله وما بعده. وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى (من).

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ ﴿مَا﴾ في الوضعين في موضع نصب؛ لأنها مفعول ما قبلها، وهما إما موصولة أو مصدرية مثل ﴿مَا﴾ الأولى.

البلاغة:

﴿يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ خطاب بالوصف للتوبيخ والتشنيع.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) طباق السلب، فالأول نفي والثاني إثبات.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) و﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) مقابلة بين الجملتين في الاستقبال.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) و﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) مقابلة بين الجملتين في الحال أو الماضي.

وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال.

﴿يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ﴾ يعني كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون، وهم زعماء الشرك في مكة. ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) أي في المستقبل، فإن (لا) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال، كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال، أي لا أعبد في المستقبل ما تعبدون من الأصنام في الحال.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) أي ولا تعبدون في المستقبل ما أعبد في الحال، وهو الله تعالى وحده. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) أي ولست أنا عابداً في الحال أو في الماضي ما عبدتم فيما سلف. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢) أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده، ويجوز أن تكون الجملتان تأكيديتين على طريقة أبلغ. والأدق أن يقال: إن الآيتين (٢، ٣) تدلان على الاختلاف

في المعبود الذي يعبد، فالنبي ﷺ يعبد الله، وهم يعبدون الأصنام والأوثان. والآيتان (٤، ٥) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها، فعبادة النبي عليه الصلاة والسلام عبادة خالصة لله لا يشوبها شرك ولا غفلة من المعبود، وعبادتهم كلها شرك وإشراك، فلا يلتقيان.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ وهو الشرك الذي أنتم عليه. ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وهو التوحيد أو الإسلام الذي أنا عليه، لا أرفضه، قال البيضاوي: فليس فيه إذن في الكفر، ولا منع عن الجهاد، ليكون منسوخاً بآية القتال. وقال الزمخشري: والمعنى أي نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني، ولم تتبعوني، فدعوني كفافاً، ولا تدعوني إلى الشرك.

التفسير والبيان:

هذه سورة البراءة من عمل المشركين، وهي أمرة بالإخلاص في العبادة، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ أي قل أيها النبي لكفار قريش: يا أيها الكافرون، لا أعبد على الإطلاق ما تعبدون من الأصنام والأوثان، فلست أعبد آلهتكم بأية حال. والآية تشمل كل كافر على وجه الأرض. وفائدة كلمة ﴿قُلْ﴾: أنه ﷺ كان مأموراً بالرفق واللين في جميع الأمور، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن، فلما كان الخطاب هنا غليظاً أراد الله رفع الحرج عنه، وبيان أنه مأمور بهذا الكلام، لا أنه ذكره من عند نفسه.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ أي ولستم أنتم ما دتم على شرككم وكفركم عابدين الله الذي أعبد، فهو الله وحده لا شريك له.

وهاتان الآيتان (٢، ٣) تدلان على الاختلاف في المعبود، فالنبي ﷺ يعبد الله وحده، وهم يعبدون الأصنام والأوثان أو الأنداد والشفعاء، أو أن المعنى

دفعاً للتكرار كما ذكر الزمخشري: لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال، وعلامته (لا) التي هي للاستقبال، بدليل أن (لن) للاستقبال على سبيل التوكيد أو التأييد، وأصله في رأي الخليل: لا أن. وما: للحال^(١)، وخلاصة المعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ۚ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأنتم لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، فعبادة الرسول ﷺ وأتباعه خالصة لله لا شرك فيها ولا غفلة عن المعبود، وهم يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» أي لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه في العبادة إلا بما جاء به الرسول ﷺ.

والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها، فكلها شرك وإشراك، ووسائلها من صنع الهوى والشيطان.

فالآيتان (٤، ٥) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها. ويرى بعضهم كالزمخشري: وما كنت قط في الحال أو في الماضي عابداً ما عبدتم، يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام؟! وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

وقيل: في الآيات تكرار، والغرض التأكيد، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم.

(١) قد فهم بعضهم خطأ ما أراد الزمخشري هنا وفي الآيتين بعدهما، فقلب الوضع، وجعل الاستقبال محل الحال وبالعكس.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم أو كفركم، ولي ديني وهو التوحيد والإخلاص أو الإسلام، فدينكم الذي هو الإشراك، لكم لا يتجاوزكم إلي، وديني الذي هو التوحيد مقصور علي لا يتجاوزني، فيحصل لكم. وقيل: الدين: الجزاء، والمضاف محذوف، أي لكم جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وقيل: الدين: العبادة.

وليس السورة منسوخة بآية القتال، والمحققون على أنه لا نسخ، بل المراد التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/٤٠].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْفُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْفٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/٤١] وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٢٨/٥٥]. والمراد بذلك كله التهديد، لا الرضا بدين الآخرين.

وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة، فورث اليهود من النصراني وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان.

وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصراني من اليهود وبالعكس، لحديث أحمد وأبي داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى».

قال الرازي: جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ عند المئاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه^(١).

(١) تفسير الرازي: ١٤٨/٣٢

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على اختلاف المعبود واختلاف العبادة بين المسلمين وغيرهم، وعلى أن الكفر ملة واحدة في مواجهة الإسلام، وهذه العوامل الثلاثة تدل على أنه لا لقاء بين الكفر والإيمان، ولا بين أصحاب العداوة الدينية الحاقدة المتأصلة في النفس مع الإسلام وأهله.

أما اختلاف المعبود بين النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين وبين الكفار: فهو أن الفريق الأول يعبد الله وحده لا شريك له، والفريق الثاني يعبد غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد والشفعاء من البشر أو الملائكة أو الكواكب أو غير ذلك من أباطيل الملل والنحل.

وأما اختلاف العبادة فالمؤمنون يعبدون الله بإخلاص لا شرك فيه ولا غفلة عن المعبود، وبما شرع الله لعباده من كيفية العبادة المرضية له، وأما الكفار والمشركون فيعبدون معبوداتهم بكيفيات فيها الشرك والإشراك وينحوا اخترعوه لأنفسهم، لا يرضى عنه ربهم.

وأما الكفر فكله ملة واحدة في مواجهة الإسلام؛ لأن الدين الحق المقبول عند الله هو الإسلام، وهو الإخلاص لله والتوحيد. وأما أنواع الكفر المعارضة لمبدأ التوحيد فتشترك في صلب الاعتقاد المنحرف عن أصل التوحيد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية، وهي ثلاث آيات

تسميتها:

سميت سورة النصر؛ لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي الفتح الأكبر والنصر المؤزر الذي سمي فتح الفتوح، وهو فتح مكة المكرمة. وتسمى أيضاً سورة (التوديع).

مناسبتها لما قبلها:

لما أخبر الله تعالى في آخر السورة المتقدمة باختلاف دين الإسلام الذي يدعو إليه الرسول عن دين الكفار، أنبأه هنا بأن دينهم سيضمحل ويزول، ودينه سيعلو ويتصير وقت مجيء الفتح والنصر، حيث يصبح دين الأكثرين. وفي ذلك بيان فضل الله تعالى على نبيه ﷺ بالنصر والفتح، وانتشار الإسلام، وإقبال الناس أفواجا إلى دينه: دين الله، كما أن فيه إشارة إلى دنو أجله ﷺ.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المدنية بالإجماع تشير إلى فتح مكة، وانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، وانحسار ظلمة الشرك والوثنية، والإخبار بدنو أجل النبي ﷺ، وأمره بتسبيح ربه وحمده واستغفاره.

فضلها:

تقدم في تفسير سورة الزلزال أنها في حديث الترمذي عن أنس بن مالك تعدل ربع القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ تعدل ربع القرآن.

وأخرج النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت.

وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر بإراخلته القصواء فرحلت، ثم قام، فخطب الناس، فذكر خطبته المشهورة، أي خطبة حجة الوداع.

سبب نزولها:

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فدعاهم ذات يوم، فأدخلني معهم. قال ابن عباس: فما رُئيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول».

وقت نزول هذه السورة:

هناك قولان في ذلك:

أحدهما - أن فتح مكة كان سنة ثمان في رمضان، ونزلت هذه السورة سنة عشر، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً، وتوفي في ربيع الأول سنة عشر، ولذلك سميت سورة التوديع.

والقول الثاني - أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على أهل مكة، وأن يفتحها عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [الفصص: ٢٨/٨٥]. وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) يقتضي الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع: إذا جاء، وإذا وقع.

وعلى هذا القول يكون الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخباراً بالغيب معجزاً، فهو من أعلام النبوة^(١).

والظاهر القول الأول، بدليل ما قال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمبى في حجة الوداع، ثم نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣/٥] فعاش بعدها النبي ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكلاله (آخر سورة النساء)، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١/٢] فعاش أحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: سبعة أيام^(٢).

لكن قال الرازي: الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة^(٣).

(١) تفسير الرازي: ١٥٥/٣٢

(٢) تفسير القرطبي: ٢٣٣/٢٠

(٣) تفسير الرازي: ١٦٤/٣٢

فتح مكة

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّكُمْ كَانَتْ قَوَّامًا ۝﴾

الإعراب:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ تقديره: إذا جاءك نصر الله، فحذف الكاف التي هي المفعول. وجواب ﴿إِذَا﴾ إما قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ والفاء غير مانعة من هذا على ما عليه الجمهور، أو محذوف تقديره: إذا جاءك نصر الله والفتح، جاء أجلك، وهو العامل في ﴿إِذَا﴾.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ﴾ يدخلون: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿النَّاسَ﴾ وأفواجاً: منصوب على الحال من واو ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

البلاغة:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾ خاص بعد عام، فإن نصر الله يشمل جميع الفتوحات، قال الرازي: وهو الغلبة على قريش، أو على جميع العرب، فعطف عليه فتح مكة تعظيماً لشأنه.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ عام أريد به الخاص، فلفظ الناس عام، والمراد به العرب.

﴿دِينِ اللَّهِ﴾ هو الإسلام، وأضافه تعالى إليه تشريفاً وتعظيماً، مثل: بيت الله، وناقة الله. ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ قَوَّامًا﴾ تواب: صيغة مبالغة على وزن (فَعَّال).

للفردات اللغوية:

﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ النصر: العون أو الإعانة على تحصيل المطلوب. ﴿وَالْفَتْحُ﴾ تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً أو موقوفاً، أو الفصل بين الفريقين المتحاربين بانتصار أحدهما على الآخر، والمراد به هنا فتح مكة، فالفرق بين النصر والفتح: أن النصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، وعطف الفتح عليه.

﴿دِينِ اللَّهِ﴾ أي الإسلام. ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات كثيفة، كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، جمع فوج: وهو الجماعة والطائفة. وقد دخلت الجماعات في الإسلام بعدما كان الدخول فيه فردياً واحداً بعد الآخر، وذلك بعد فتح مكة، جاءه العرب من مختلف الأنحاء طائعين. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزه الله، وصل له حامداً على نعمه، روي: أنه عليه السلام لما دخل مكة بدأ بالمسجد، فدخل الكعبة، وصلى ثماني ركعات. ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ أسأله المغفرة لك ولمن اتبعك، وطلب الاستغفار من النبي كان لترك الأولى، وليقتدي به غيره، ولم يكن بسبب ارتكاب معصية أو ذنب. وكان ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه». وعلم بذلك أنه قد اقترب أجله، فتوفي بعد فتح مكة بعامين سنة عشر.

التفسير والبيان:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي إذا تحقق لك يا محمد نصر الله وعونه وتأييده على من عاداك وهم قريش، وفتح عليك مكة، وتحققت لك الغلبة، وإعزاز أمرك، فسبح الله تعالى، أي نزهه حامداً له جلّ وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك. وفائدة قوله: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ مع أن النصر لا يكون إلا من الله: هو أنه نصر لا يليق إلا بالله، ولا يليق أن يفعله إلا الله، أو لا يليق إلا بحكمته. والمراد تعظيم هذا النصر. وقوله: ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ مجاز، أي وقع نصر الله.

روى الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «نُعِيْتُ إِلَى نَفْسِي» فإنه مقبوض في تلك السنة.

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «لما نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها فقال: الناس حَيَزَ، وأنا وأصحابي حَيَزَ، والحَيَزُ: الجهة أو الناحية». وقال فيما رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن ابن عباس: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية». وأخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به، جماعات، فوجاً بعد فوج، بعد أن كانوا في بادئ الأمر يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي إذا فتحت مكة وانتشر الإسلام، فاشكر الله على نعمه، بالصلاة له، وبتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وعن أن يخلف وعده الذي وعدك به بالنصر، واقرن الحمد بالتسبيح، أي اجمع بينهما، فإن ذلك النصر والفتح يقتضي الحمد لله على عظيم منته وفضله، وما منحك من الخير.

واطلب أيضاً من الله المغفرة لك تواضعاً لله، واستقصاراً لعملك، وتعلماً لأمتك، وكذا اسأله المغفرة لمن تبعك من المؤمنين ما كان منهم من القلق والخوف لتأخر النصر، فإن الله سبحانه من شأنه التوبة على المستغفرين له، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم، وهو كثير القبول لتوبة عباده، حتى لا يأسوا ويرجعوا بعد الخطأ.

روى الأئمة - واللفظ للبخاري - عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ١ إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي». وعنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم، ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي. يتأول القرآن».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت السورة على ما يأتي:

أ - كل نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله بما هو أهل له، ومن أجل النعم على نبي الله وأمته تحقيق النصر والغلبة على الأعداء، وفتح مكة عاصمة العرب والإسلام، ومقر البيت الحرام أو الكعبة المشرفة قبله المسلمين.

وتوج الله سبحانه هذه النعمة العظمى بنعمة كبرى أخرى هي دخول العرب وغيرهم في دين الإسلام جماعات، فوجاً بعد فوج. وذلك لما فُتحت مكة، قالت العرب: أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، أي طاقة. فكانوا يسلمون أفواجاً: أمة أمة.

٢ - لهذا ختم الله هذه السورة بأمر الله نبيه بالإكثار من الصلاة، والتسبيح لله، أي تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ولا يجوز عليه، والحمد لله على ما آتاه من الظفر والفتح، وسؤال الله الغفران مع مداومة الذكر، والله كثير القبول للتوبة على المسبّحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم.

والأمة أولى بذلك، فإذا كان ﷺ، وهو معصوم، يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟

روى مسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه؟ فقال: خبّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتهَا أَكثَرْتُ من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ - فتح مكة - ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَابًا﴾ ﴿٣﴾».

٣ - دين الله هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩/٣] وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥/٣].

٤ - قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين: إن إيمان المقلد صحيح؛ لأنه تعالى حكم بصحة وإيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المن على محمد ﷺ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً، لما ذكره في هذا المجال.

٥ - أمر الله تعالى بالتسبيح أولاً ثم بالحمد ثم بالاستغفار؛ لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس. وقدم الأمر بالتسبيح حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر سنين لإهمال مثلاً، فالله يُزَيِّرُهُ وَيُقَدِّسُ عَنْ إِهْمَالِ الْحَقِّ. وأتى بالاستغفار حتى لا يفكر النبي ﷺ بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.

٦ - الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافياً في أداء ما وجب على النبي ﷺ وأتمته من شكر نعمة النصر والفتح.

٧ - اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله ﷺ.

روي أنه لما نزلت هذه السورة خطب ﷺ وقال: «إن عبداً خيره الله بين الدنيا، وبين لقائه والآخرة، فاختر لقاء الله»^(١). وقد عرفوا ذلك؛ لأن الأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً دليل على أن أمر تبليغ الدعوة قد تمّ وكمل، وذلك يوجب الموت؛ لأنه لو بقي بعد ذلك، لكان كالمعزول عن الرسالة، وهو غير جائز. ثم إن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل.

(١) تفسير الكشاف: ٣/٣٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَسَدِ

مكية، وهي خمس آيات

تسميتها:

سميت سورة المسد؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي في عنق أم جميل زوجة أبي لهب حبل مفتول من ليف. وسميت أيضاً سورة ﴿تَبَّتْ﴾ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلكت وخسرت يدا أبي لهب، كما سميت سورة أبي لهب، أو سورة اللهب.

مناسبتها لما قبلها:

هناك تقابل بين هذه السورة والسورة التي قبلها، ففي السورة السابقة (النصر) ذكر الله تعالى أن جزاء المطيع حصول النصر والفتح في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، وفي هذه السورة ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة أو العقابي.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة المكية بالإجماع الكلام عن مصير أبي لهب عبد العزري ابن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، ومصير زوجته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان، وهو هلاك أبي لهب عدو الله تعالى ورسوله ﷺ في

الدنيا، ودخوله نار جهنم؛ لشدة إيدائه النبي ﷺ ومعاداته له، وصده الناس عن الإيمان به.

وكذلك زوجته شريكة معه في هذا العقاب؛ لأنها كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فتكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم.

سبب نزول السورة:

ثبت في الصحيحين وغيرهما - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤/٢٦] وَرَهْطُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصَّفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب! فاجتمعوا إليه، فقال:

«أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتَكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قالوا: ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً، قال: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فقال أبو لهب: تَبَّ لَكَ! أَمَا جَعَلْتَنَا إِلَّا لِهَذَا! ^(١) ثم قام، فنزلت هذه السورة: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ، وَتَبَّ» كَذَا قَرَأَ الْأَعْمَشُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَأَبِي إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وقراءة حفص: ﴿وَتَبَّ﴾ أي الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه.

وعن طارق المحاربي قال: «بينما أنا بسوق ذي المجاز، إذ أنا بشاب حديث السن يقول: أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه - مؤخر القدم - ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب ^(٢)».

(١) وفي رواية البخاري: ألهذا جمعنا؟

(٢) تفسير القرطبي: ٢٣٦/٢٠

جزاء أبي لهب وامراته

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾

القراءات:

﴿أَبِي لَهَبٍ﴾:

وقرأ ابن كثير (لهب).

﴿حَمَّالَةَ﴾:

قرأ عاصم (حمالة) وقرأ الباقون (حمالة).

الإعراب:

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾: ﴿مَآ﴾: إما استفهامية في موضع نصب بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾ أو نافية، ومفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوف، وتقديره: ما أغنى عنه ماله شيئاً.

﴿وَمَا كَسَبَ﴾: ﴿وَمَا﴾: إما مصدرية، أي وكسبه، أو اسم موصول، أي الذي كسبه، فحذف العائد تخفيفاً.

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾: إما معطوف على ضمير ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ أي سيصلى هو وامراته، وجاز العطف على الضمير المرفوع؛ لوجود الفصل؛ لأنه يقوم مقام التأكيد في جواز العطف. وإما أنه مبتدأ مرفوع، و(حمالة الحطب) خبره، على قراءة الرفع. ومن قرأ بالنصب ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ فهو منصوب على الذم، وتقديره: أذم حالة الحطب.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ۝﴾ ﴿فِي جِيدِهَا﴾: حال من ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أو خبر مبتدأ مقدر.

البلاغة:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ مجاز مرسل، أطلق الجزء وأراد الكل، أي هلك. ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ بينهما جناس، فالأول كنية له، والثاني وصف للنار. والجناس: أن يتشابه اللفظان في النطق، ويختلفا في المعنى، وهو نوعان: تام، وغير تام.

﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ كنية للتصغير والتحقير، كأبي جهل.

﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ استعارة، استعير هذا التعبير للنميمة بين الناس.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝﴾ منصوب على الذم، أي أخص بالذم همالة الحطب.

﴿وَتَبَّتْ﴾، ﴿كَسَبَ﴾، ﴿لَهَبٍ﴾، ﴿الْحَطَبِ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلك وخسر، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧/٤٠] وهذه الجملة دعاء عليه، وأبو لهب: أحد أعمام النبي ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته: أبو عتبة، وإنما كني أبا لهب لحمرة وجهه. ﴿وَتَبَّتْ﴾ أي قد خسر، وهذا خبر بعد الدعاء عليه، كقولهم: أهلكه الله وقد هلك، والتعبير بالماضي لتحقيق وقوعه. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي وكسبه أو مكسوبه بماله من النتائج والأرباح، وقوله: ﴿مَا أَغْنَى﴾ أي يغني.

﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ سيجد حرها ويذوق وبها. ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ لهب النار: ما يسطع منها عند اشتعالها، وذات لهب: أي تلهب وتوقد، وهي مناسبة لكنيته بأبي لهب: أي تلهب وجهه إشراقاً وحرمة. ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ هي من سادات قريش، وكنتها: أم جميل، واسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أي تحمل حقيقه، فتحمل حزمة الشوك والحسك، وتثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. أو تحمل حطب جهنم؛ لأنها تحمل الأوزار بمعاداة الرسول ﷺ، وتحمل زوجها على إيذائه. أو أن التعبير كناية عن النيمة التي توقد الخصومة بين الناس.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ في عنقها. ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ﴾ حبل مفتول من ليف، أي مما مسد، أي قتل وربط الحبل على هذه الصورة: تصوير لها بصورة الخطابة التي تحمل الحزمة، وتربطها في عنقها، تحقيراً لشأنها، أو بياناً لحالها في نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع، وفي جيدها سلسلة من النار.

التفسير والبيان:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) أي هلكت يده وخسرت وخابت، وهو مجاز عن جملته، أي هلك وخسر، وهذا دعاء عليه بالهلاك والخسران. ثم قال: ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد وقع فعلاً هلاكه، وهذا خبر من الله عنه، فقد خسر الدنيا والآخرة. وأبو لهب: عم النبي ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وقد كان كثير الأذى والبغض والازدراء لرسول الله ﷺ ولدينه.

ثم أخبر الله تعالى عن حال أبي لهب في الماضي، فقال:

(١) لم يقل في أول هذه السورة: قل - كما في سورة (الكافرون)، حتى لا يشافه عمه بما يزيد في غضبه، رعاية للحرمة، وتحقيقاً لمبدأ الرحمة.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (١) أي لم يدفع عنه يوم القيامة ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح والجاه والولد، ولم يفده ذلك في دفع ما يحل به من الهلاك، وما ينزل به من عذاب الله، بسبب شدة معاداته لرسول الله ﷺ، وصده الناس عن الإيمان به، فإنه كان يسير وراء النبي ﷺ، فإذا قال شيئاً كذبه.

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عبّاد بن بني الدّيل، وكان جاهلياً فأسلم، قال: «رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا. والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب». والفرق بين المال والكسب: أن الأول رأس المال، والثاني هو الربح.

ثم ذكر الله تعالى عقابه في المستقبل، فقال:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٢) أي سيدوق حرّ نار جهنم ذات اللهب المشتعل المتوقد، أو سوف يعذب في النار الملهبة التي تحرق جلده، وهي نار جهنم. قال أبو حيان: والسين للاستقبال، وإن تراخى الزمان، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة، وإن تراخى وقته^(١).

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٣) أي وتصل امرأته أيضاً ناراً ذات لهب، وهي أم جميل، أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان، كانت تحمل الشوك والغصن، وتطرّحه بالليل على طريق النبي ﷺ. وقيل: المراد أنها كانت تمشي بالنسيمة، فيقال للمشاة بالنمائم، المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي يوقد بينهم النائرة، ويورث الشر، وهذا رأي الكثيرين.

قال أبو حيان: والظاهر أنها كانت تحمل الحطب، أي ما فيه شوك،

لتؤذي بإلقائه في طريق الرسول ﷺ وأصحابه، لتعقرهم، فذمت بذلك، وسميت حمالة الخطب.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ۝﴾ أي في عنقها حبل مفتول من الليف، من مسد النار، أي مما مسد من حبالها، أي فتل من سلاسل النار. وقد صورها الله في حالة العذاب بنار جهنم بصورة حالتها في الدنيا عند النسيمة، وحينما كانت تحمل حزمة الشوك وتربطها في جيدها، ثم تلقيها في طريق النبي ﷺ؛ لأن كل مجرم يعذب بما يجانس حاله في جرمه. وقيل: صورها الله في الدنيا بصورة حظابة ممتهنة احتقاراً لها، وإيذاء لها ولزوجها.

ولما سمعت أم جميل هذه السورة أتت أبا بكر، وهو مع رسول الله ﷺ في المسجد، ويدها فيهر (حجر) فقالت: بلغني أن صاحبك هجاني، ولأفعلن وأفعلن، وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله ﷺ، فروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لها: هل ترين معي أحداً؟ فقالت: أتهزأ بي؟ لا أرى غيرك^(١).

والظاهر هو المعنى الأول؛ قال سعيد بن المسيب: كانت لأم جميل قلادة فاخرة، فقالت: والللات والعزى لأنفقتهما في عداوة محمد، فأعقبها الله حبلاً في جيدها من مسد النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

أ - أوضحت السورة نوع عذاب أبي لهب وزوجته أم جميل، ومآلهما في الدارين؛ لشدة عداوتهما لرسول الله ﷺ.

أما الآيات الأولى في أبي لهب فقد تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه:

(١) البحر المحيط: ٥٢٦/٨ وما بعدها، تفسير ابن كثير: ٥٦٤/٤ وما بعدها.

أحدها - الإخبار عنه بالتياب والخسار، وبوقوع ذلك فعلاً.
 وثانيها - الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وبوقوع ذلك فعلاً.
 وثالثها - الإخبار عنه بأنه من أهل النار، وقد كان كذلك؛ لأنه مات على الكفر.

وتكليف أبي هب بالإيمان في حد ذاته لا مانع منه، وإن كان الله قد علم أنه لا يؤمن، وأخبر أيضاً أنه لا يؤمن، وأنه من أهل النار، قال الآمدي: أجمع الكل على جواز التكليف بما علم الله أنه لا يكون عقلاً، وعلى وقوعه شرعاً، كالتكليف بالإيمان لمن علم الله أنه لا يؤمن كأبي جهل^(١). وأيد ذلك الرازي في تفسيره^(٢). والخلاصة: أنه كلف بتصديق الرسول ﷺ فقط، لا تصديقه وعدم تصديقه، حتى يجتمع النقيضان^(٣).

وأما الآيتان الأخيرتان: فتصفان عذاب أم جميل بأنها مع زوجها تصلى نار جهنم، وتذوق حرها وتتلظى بلهبها، وأنها هالكة في الدنيا، ومعذبة في الآخرة بحبل من نار، وسلاسل من نار جهنم تطوقها، لإيذائها النبي ﷺ، فإنها كانت في غاية العداوة له، ولإفسادها بين الناس بالنميمة وتأجيج نار العداوة بينهم.

قال الضحاك وغيره: كانت تُعَيِّر النبي ﷺ بالفقر، وهي تحتطب في حبل، تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله جلَّ وعزَّ به في الدنيا، فأهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار.

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ٧٣/١

(٢) تفسير الرازي: ١٧١/٣٢

(٣) غرائب القرآن: ٢١٤/٣٠

٢ - قال العلماء: في هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣﴾ وَأَمْرًاكُمْ حَمَّالَةَ ٤ الْحَطَبِ ٥ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ ٦ فَأَخْبَرَ عَنْهُمَا بِالشَّقَاءِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ، لَمْ يَقْبِضْ لَهَا أَنْ يُؤْمِنَا، وَلَا وَاحِدَ مِنْهُمَا، لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، وَلَا سِرًّا وَلَا عَلَنًا، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدْلَةِ الْبَاهِرَةِ الْبَاطِنَةِ عَلَى النَّبَوَةِ الظَّاهِرَةِ^(١).

(١) تفسير ابن كثير: ٥٦٥/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْاِخْلَاصِ

مكية، وهي أربع آيات

تسميتها:

سميت بأسماء كثيرة أشهرها سورة الإخلاص؛ لأنها تتحدث عن التوحيد الخالص لله عز وجل، المنزه عن كل نقص، المبرأ من كل شرك، ولأنها تخلّص العبد من الشرك، أو من النار. وسميت أيضاً سورة التفريد أو التجريد أو التوحيد أو النجاة أو الولاية؛ لأن من قرأها صار من أولياء الله، أو المعرفة، وتسمى كذلك سورة الأساس؛ لاشتمالها على أصول الدين.

مناسبتها لما قبلها:

المناسبة بينها وبين ما قبلها واضحة، فسورة الكافرين للتبرؤ من جميع أنواع الكفر والشرك، وهذه السورة لإثبات التوحيد لله تعالى، المتميز بصفات الكمال، المقصود على الدوام، المنزه عن الشريك والشبيه، ولذا قرن بينهما في القراءة في صلوات كثيرة، كركعتي الفجر والطواف، والضحى، وسنة المغرب، وصلاة المسافر.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة أهم أركان العقيدة والشريعة الإسلامية، وهي توحيد

الله وتنزيهه، واتصافه بصفات الكمال، ونفي الشركاء، وفي هذا الرد على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى.

فضلها:

وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه السورة، وأنها تعدل في ثواب قراءتها ثلث القرآن؛ لأن كل ما جاء في القرآن بيان لما أجمل فيها؛ ولأن الأصول العامة للشريعة ثلاثة: التوحيد، وتقرير الحدود والأحكام، وبيان الأعمال، وقد تكفلت ببيان التوحيد والتقديس. أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري: «أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١ يردددها، فلما أصبح، جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالتها، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن».

وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: إني قلت: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن».

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ٢ في ليلة، فقد قرأ ليلته ثلث القرآن».

سبب نزول السورة:

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾. ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾. ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾.

زاد ابن جرير والترمذي قال: ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ ولم يكن له شبه ولا عدل^(١)، وليس كمثل شيء.

وقال قتادة والضحاك ومقاتل: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: صِفْ لنا ربك، فإن الله أنزل نعتة في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو؟ ومن أي جنس هو؟ أذهب هو أم نحاس أم فضة؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممن ورث الدنيا ومن يورثها؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة، وهي نسبة الله خاصة^(٢).

سورة التوحيد والتنزيه لله عز وجل

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾
﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

(١) قال الأخفش: العَدْلُ بالكسر المثل، وقال الفراء: العَدْلُ بالفتح: ما عَدَلَ الشيء من غير جنسه، والعَدْلُ بالكسر المثل.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٦٢

القراءات:

﴿كُفُّوْا﴾:

قرأ حفص (كُفُّوْا) وقرأ الباقر (كُفُّوْا).

الإعراب:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن والحديث، مبتدأ، و﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ثانٍ، و﴿أَحَدٌ﴾: خبر المبتدأ الثاني، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول، ولا حاجة لعائد يعود على المبتدأ الأول؛ لأن ضمير الشأن إذا وقع مبتدأ، لم يعد من الجملة التي وقعت خبراً عنه ضمير؛ لأن الجملة بعده وقعت مفسرة له، بدليل أنه لا يجوز تقديمها عليه.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر.

﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ ﴿لَمْ يَكِلْهُ﴾: أصله (يُولَد) فحذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة، كيعد، ويزن، والأصل: يؤعد ويوزن، ولهذا لم تحذف في ﴿يُولَدُ﴾ لوقوعها بين ياء وفتحة. و﴿أَحَدٌ﴾: اسم ﴿يَكُنْ﴾، و﴿كُفُوًا﴾: خبرها. و﴿لَمْ يَكُنْ﴾: متعلق بـ ﴿كُفُوًا﴾ وقدم عليه للاهتمام به؛ إذ فيه ضمير الباري تعالى، والتقدير: ولم يكن أحد كفواً له، أي مكافئه، فهو في معنى المفعول، متعلق بـ ﴿كُفُوًا﴾. وآخر ﴿أَحَدٌ﴾ رعاية للفاصلة.

البلاغة:

﴿قُلْ هُوَ﴾ ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن للتعظيم والإجلال.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ تعريف كل منهما لإفادة التخصيص.

﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ جناس ناقص، لتغير الشَّكْل وبعض الحروف.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① يقتضي نفى الكفاء والولد، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ② هو تخصيص بعد تعميم، زيادة في الإيضاح والبيان، وتقرير ما يسمى التجريد أو التفريد.

﴿أَحَدٌ﴾، ﴿الْضَمَدُ﴾، ﴿وَلَمْ يُؤَلَدْ﴾، ﴿أَحَدٌ﴾ سجع مرصع.

المفردات اللغوية:

﴿أَحَدٌ﴾ أي واحد في ذاته، لم يتركب من جواهر مادية، ولا من أصول غير مادية، وهو أيضاً وصف بالوحدانية ونفى الشركاء. ﴿الْضَمَدُ﴾ المقصود في جميع الحوائج على الدوام. ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ لأنه لم يفتقر إلى ما يعينه، ولأنه لا مجانسة بينه وبين غيره، فهذا نفى للشبه والمجانسة. ﴿وَلَمْ يُؤَلَدْ﴾ لأنه قديم أولي غير محدث، انتفى الحدوث عنه، فهو وصف بالقدم والأولية. ﴿كُفُوًا﴾ أي مكافئاً ومماثلاً. والكفاء والمكافئ: النظير والمثيل، والمراد أنه لم يكن أحد يكافئه، أي يماثله من صاحبة وغيرها.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① أي قل أيها الرسول لمن سألك عن صفة ربك ونسبته: هو الله أحد، أي واحد في ذاته وصفاته، لا شريك له، ولا نظير ولا عدل. وهذا وصف بالوحدانية ونفى الشركاء. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السماوات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحد بالألوهية، لا يشارك فيها. وهذا نفى لتعدد الذات.

﴿اللَّهُ الضَّمَدُ﴾ ② أي الذي يُضَمَدُ إليه في الحاجات، أي يقصد، فهو المقصود في جميع الحاجات؛ لأنه القادر على تحقيقها، والمعنى: هو الله الذي يقصد إليه كل مخلوق، لا يستغني عنه أحد، وهو الغني عنهم. وهذا إبطال لاعتقاد مشركي العرب وأمثالهم بوجود الوسائط والشفعاء.

قال ابن عباس في تفسير الصمد: يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفاء، وليس كمثله شيء، سبحانه الله الواحد القهار.

﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدٌ﴾ أي لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء؛ لأنه لا يجانس شيء، ولأنه قديم غير محدث، لا أول لوجوده، وليس بجسم، وهذا نفي للشبه والمجانسة، ووصف بالقدم والأولية، ونفي الحدوث. وفي الجملة الأولى نفي لوجود الولد لله، وردّ على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وعلى اليهود القائلين: عزيز ابن الله، وعلى النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وفي الجملة الثانية نفي لوجود الوالد، وسبق العدم. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ليس لله أحد يساويه، ولا يماثله، ولا يشاركه في شيء. وهذا نفي لوجود الصاحبة، وإبطال لما يعتقد به المشركون العرب من أن الله ندّاً في أفعاله، حيث جعلوا الملائكة شركاء لله، والأصنام والأوثان أنداداً لله تعالى.

وللسورة نظائر في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿يَدْبِغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١/٦] أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف له من خلقه نظير؟، وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [٩٢] إن كُفُوًا مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَنِّي الرَّحْمَنُ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِندِي يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مریم: ١٩/٩٢-٩٥] وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١١﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦/٢١-٢٧] .

جاء في صحيح البخاري: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم». وروى البخاري أيضاً وعبد الرزاق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بداني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد».

فقه الحياة أو الأحكام:

أ - تضمنت هذه السورة الموجزة إثباتاً ونفيّاً في آن واحد.

فقد أبانت أن الله تعالى واحد في ذاته وحقيقته، منزّه عن جميع أنحاء التركيب، ونفت عنه كل أنواع الكثرة بقوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وأوضحت أن الله غني بذاته كريم رحيم، تحتاج إليه جميع الخلائق في قضاء الحوائج، متصف بجميع صفات الكمال، ونعوت الجلال، ونفت عنه كل أنواع الاحتياج إلى الآخرين بقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ①﴾.

وقررت أن الله أحد فرد، ليس له شيء من جنسه، ولم يلد أحداً، وليس له لاحق يماثله، ونفت عن نفسه المجانسة والمشابهة بقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ﴾.

وكذلك هو قديم أولي أزلي غير مسبوق بالعدم، فلا والد له، ولا سابق له، ونفت عنه الخدوث والأولية بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾.

وهو سبحانه أيضاً لا مقارن له في الوجود، ولا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة ولا نديد، ونفى عن ذاته العلية الأنداد والأشباه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ②﴾.

وكل إثبات تقرير لعقيدة الإسلام القائمة على التوحيد والتنزيه والتقديس،

وكل نفي ردّ على أصحاب العقائد الباطلة كالثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين للعالم وهما النور والظلمة، والنصارى القائلين بالتثليث، والصابئة القائلين بعبادة الأفلاك والنجوم، واليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، والمشركون القائلين بأن الملائكة بنات الله.

فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ يبطل مذهب الثنوية، وقوله: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ (١) يبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله؛ لأنه لو وجد خالق آخر، لما كان الحق مضموداً إليه في طلب جميع الحاجات، وقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدٌ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) يبطل مذهب اليهود في عزير، والنصارى في المسيح، والمشركون في أن الملائكة بنات الله. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٣) يبطل مذهب المشركون حيث جعلوا الأصنام أكفاء لله وشركاء.

٢ - قال العلماء: هذه السورة في حق الله تعالى، مثل سورة الكوثر في حق الرسول ﷺ، لكن الطعن في حق الرسول ﷺ كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر لا ولد له، وهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً؛ لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب، ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، ولهذا السبب قال هنا: ﴿قُلْ﴾ ليدفع عن الله، وفي سورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ لم يقل (قل) وإنما قال الله ذلك مباشرة، حتى يدفع بنفسه عن الرسول ﷺ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَلَقِ

مكية، وهي خمس آيات

مكيّتها أو مدنيّتها:

هذه السورة وسورة الناس مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر، وهو رأي الأكثرين، ومدنية في رواية عن ابن عباس وقتادة وجماعة، قيل: وهو الصحيح.

تسميتها:

سميت هذه السورة سورة الفلق، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) و﴿الْفَلَقِ﴾ الشق وفصل الشيء عن بعضه، وهو يشمل كل ما انفلق من حب ونوى ونبات عن الأرض، وعيون ماء عن الجبال، ومطر عن السحاب، وولد عن الأرحام، ومنه: ﴿قَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦/٦]، و﴿قَالِقُ اللَّيْلِ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥/٦].

مناسبتها لما قبلها:

لما أبان الله تعالى أمر الألوهية في سورة الإخلاص لتنزيه الله عما لا يليق به في ذاته وصفاته، أبان في هذه السورة وما بعدها وهما المعوذتان ما يستعاذ منه بالله من الشر الذي في العالم، ومراتب مخلوقاته الذين يصدون عن توحيد الله،

كالمشركين وسائر شياطين الإنس والجن، وقد ابتدأ في هذه السورة بالاستعاذة من شر المخلوقات، وظلمة الليل، والسحرة، والحسّاد، ثم ذكر في سورة الناس الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن؛ لذا سميت السور الثلاث (الإخلاص وما بعدها) في الحديث بالمعوذات. وقدمت الفلق على الناس لمناسبة الوزن في اللفظ لفواصل (الإخلاص) مع مقطع ﴿تَبَّتْ﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت السورة الاستعاذة من شر المخلوقات، وبخاصة ظلمة الليل، والسواحر والنمامين، والحسّدة، وهي درس بليغ وتعليم نافع عظيم لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس، وحمايتهم من شر ذوات السموم، وشر الليل إذا أظلم، لما فيه من مخاوف ومفاجآت، وبخاصة في البراري والكهوف.

فضل المعوذتين:

روى مسلم في صحيحه وأحمد والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿٢﴾».

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دُبر كل صلاة».

وروى أحمد وأبو داود والنسائي عن عقبة بن عامر قال: «بينما أنا أقود برسول الله ﷺ في نعب من تلك النقاب إذ قال لي: يا عقبة ألا تركب! قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب، ثم قال: يا عُقْبُ^(١)، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟

(١) عقب: منادى مرخم من عقب، مثل أفاطم من فاطمة.

قلت: بلى، يا رسول الله، فأقرأني ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ❶ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ❷ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ، فقرأ بهما، ثم مر بي، فقال: كيف رأيت يا عُقْب؟ اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت.

وروى النسائي عن أبي عبد الله بن عابس الجهني: أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عابس ألا أدلك - أو ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، هاتان السورتان».

وأورد ابن كثير أحاديث كثيرة في معناها ثم قال: فهذه طرق عن عقبه كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث.

وفي حديث صُدَيِّ بن عجلان: «ألا أعلمك ثلاث سور، لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلهن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ❶ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ❷ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ❸».

وروى البخاري وأهل السنن في الاستشفاء بهذه السور الثلاث (المعوذات) عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ❶، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ❷، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ❸، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

سبب نزول المعوذتين:

السبب: قصة سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين عن عائشة، فإنه سحره في جُفَت (قشر الطلع) فيه مشاطة رأسه

ﷺ، وأسنان مشطه، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عُقْدَة مغروز بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد ﷺ في نفسه خِقة، حتى انحلت العُقْدَة الأخيرة، فقام، كأنما نشط من عقال^(١). وجعل جبريل يَرْقِي رسول الله ﷺ، فيقول: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعَيْن، والله يشفيك».

الاستعاذة من شر المخلوقات

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾

الإعراب:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾ «أَعُوذُ»: فعل معتل، ويسمى (أجوف) وأصله: أَعُوذُ على وزن أفعل، إلا أنه استقلّت الضمة على الواو لأنه حرف علة، فنقلت من العين التي هي الواو إلى ما قبلها.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ②﴾ «شَرِّ» بغير تنوين على الإضافة في القراءة المشهورة، و﴿مَا﴾: مصدرية، وتقديره: من شر خلقه. وقرئ «من شر ما خلق» بتنوين «شَرِّ» وهي قراءة مروية عن أبي حنيفة، و﴿مَا﴾: فيها أيضاً مصدرية، في موضع جر على البدل من «شَرِّ» أي من خلقه.

البلاغة:

﴿الْفَلَقِ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾، ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ تكرر كلمة ﴿شَرِّ﴾ مرات إطناب، للتنبيه على قبح وشناعة هذه الأوصاف.

﴿شَرِّ غَاسِقٍ﴾، ﴿شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾، ﴿شَرِّ حَاسِدٍ﴾ خاص بعد عام وهو ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ①.

﴿حَاسِدٍ﴾ و﴿حَسَدَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿الْفَلَقِ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿الْمُعَدِّ﴾، ﴿حَسَدَ﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿أَعُوذُ﴾ أُلْجَأُ. ﴿الْفَلَقِ﴾ شق الشيء وفصل بعضه عن بعض، ومنه ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦/٦]. و﴿فَالِقُ الْخَيِّْ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥/٦]، و﴿الْفَلَقِ﴾ يشمل كل ما يفلقه الله عن غيره، كفلق ظلمة الليل بالصبح، وفلق العيون والأمطار والنبات والأولاد، ويخص الفلق عرفاً بالصبح، ولذلك فتر به، وتخصيصه لما فيه من تغير الحال، وتبدل وحشة الليل بسرور النور، والإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن العائد إليه ما يحافه. ولفظ (الرَّب) هنا أوقع من سائر أسمائه؛ لأن الإعاذة من المضارّ تربية وعناية.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ② من شرّ المخلوقات كلها، وخصّ عالم الخلق بالاستعاذة منه لانهصار الشرّ فيه، وهو يشمل الحيوان والإنسان والجماد كالسم وغيره. ﴿غَاسِقٍ﴾ ليل اشتد ظلامه. ﴿وَقَبَ﴾ دخل ظلامه، وتخصيصه لأن المضارّ تكثر فيه ويعسر الدفع. ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ السواحر من النفوس أو النساء تنفث. ﴿فِي الْمُعَدِّ﴾ التي تعقدها في الخيط، والنفث: النفخ مع ريق يخرج من الفم، و﴿الْمُعَدِّ﴾ جمع عقدة: وهي ما يعقد من حبل أو خيط

ونحوهما. ﴿حَاسِدٌ﴾ هو الذي يتمنى زوال نعمة المحسود. وخصَّ الحاسد بالذكر؛ لأنه العمدة في الظاهر والسبب في إضرار الإنسان والحيوان وغيرهما. وذكر هذه الأصناف الثلاثة بعد التعميم الشامل لها ﴿مَا خَلَقَ﴾ لشدة شرِّها.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ أي قل أيها النبي: ألبأ إلى الله، وأستعِذ بربِّ الصبح؛ لأن الليل يتفلق عنه، أو بربِّ كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله، من الحيوان، والصبح، والحَبِّ، والنوى، وكل شيء من نبات وغيره، أعوذ بالله خالق الكائنات من شرِّ كل ما خلقه الله سبحانه من جميع مخلوقاته. وفيه إشارة إلى أن القادر على إزالة الظلمة عن وجه الأرض قادر على دفع ظلمة الشرور والآفات عن العبد.

أخرج الترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري، قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان، ومن عين الإنسان، فلما نزلت سورتا المعوذتين، أخذ بهما، وترك ما سوى ذلك».

وأخرج مالك في الموطأ عن عائشة: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه، كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتهما».

وبعد أن عجم الاستعاذة من جميع المخلوقات، خصص بالذكر ثلاثة أصناف تنبهاً على أنها أعظم الشرور، وأهم شيء يستعاذ منه، وهي:

١ - ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ أي وأعوذ بالله من شرِّ الليل إذا أقبل؛ لأن في الليل مخاوف ومخاطر من سباع البهائم، وهوام الأرض، وأهل الشرِّ والفسق والفساد.

٢ - ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ أي وأعوذ بالله من شرِّ

النفوس أو النساء الساحرات؛ لأنهن كنَّ ينفثن (أي ينفخن مع ريق الفم) في عُقَد الخيوط، حين يسحرن بها. والنَّفث: النفخ بريق، وقيل: النفخ فقط. قال أبو عبيدة: إنهن بنات لبيد بن الأعصم اليهودي اللاتي سحرن النبي ﷺ.

٣ - ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي وأعوذ بالله من شر كل حاسد إذا حسد: وهو الذي يتمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود.

فقه الحياة أو الأحكام:

أ - دلت السورة الكريمة على تعليم الناس كيفية الاستعاذة من كل شر في الدنيا والآخرة، من شر الإنس والجن والشياطين وشر السباع والهومام وشر النار وشر الذنوب، والهوى، وشر العمل، وغير ذلك من سائر المخلوقات، حتى المستعيز نفسه.

٢ - لا مانع يمنع من نزول السورة ليستعيز بها رسول الله ﷺ، والحديث صحيح، ولا يتنافى مع النص القرآني، واقتصر فعل السحر بالنبي ﷺ على مجرد كونه قد صار في بعض أمور الدنيا في حالة صدام خفيف، وهو معنى التخيل في الحديث، وقد يحدث تخيل في اليقظة كالمنام، ولم يؤثر في ملكاته العقلية على الإطلاق، كما لم يؤثر فيما يتعلق بالوحي والرسالة؛ لأن الله عصمه من أي سوء، أو اختلاط فكري، أو اضطراب عصبي، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧/٥]^(١).

٣ - خصص الله تعالى في إرشادنا وتعليمنا الاستعاذة من أصناف ثلاثة: هي أولاً- الليل إذا عظم ظلامه؛ لأن في الليل كما ذكر الرازي تخرج السباع من آجامها، والهومام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث، وينبث أهل الشر على الفساد.

(١) انظر تفسير الألوسي: ٢٨٣/٣٠.

وثانياً - الساحرات اللاتي ينفثن (ينفخن) في عُقْد الحيط حين يَرْقِين عليها، شبه النفخ كما يعمل من يرقى.

وثالثاً - الحاسد الذي يحسد غيره، أي يتمنى زوال نعمة المحسود، وإن لم يَصِرْ للحاسد مثلها. وهذا مذموم، أما الغبطة أو المنافسة فهي مباحة؛ لأنها تمنى مثل النعمة وإن لم تزل عن صاحبها؛ روي أن النبي ﷺ قال: «المؤمن يَغِطُ، والمنافق يحسد»^(١). وفي الصحيحين: «لا حسد إلا في اثنتين» أي لا غبطة.

قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود، فيَتَّبِع مساوئته، ويطلب عثراته. والحسد أول ذنب عُصِي الله به في السماء، وأول ذنب عُصِي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قاييل هابيل. والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون.

وقال العلماء أيضاً: لا يضرّ السحر والعين والحسد ونحو ذلك بذاته، وإنما بفعل الله وتأثيره، وينسب الأثر إلى هذه الأشياء في الظاهر فقط، قال الله تعالى عن السحر: «وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» [البقرة: ١٠٢/٢]، وبالرغم من انعدام تأثير هذه الأشياء في الحقيقة، ومنها الأمراض المعدية كالطاعون والسل، فإنه يطلب شرعاً الحذر والاحتياط وتجنب هذه الأسباب الظاهرية بقدر الإمكان، عملاً بفعل عمر والصحابه في طاعون عمواس، والأمر باتقاء العين، والفرار من المجدوم.

٤ - أجاز أكثر العلماء الاستعانة بالرق أو الرقية؛ لأن النبي ﷺ اشتكى، فرقاه جبريل عليه السلام، وقال: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، والله يشفيك» كما تقدم. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلمنا من

الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء: «بسم الله الكريم، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار، ومن شر حر النار» .

وقال ﷺ: «من دخل على مريض لم يحضر أجله، فقال: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك - سبع مرات، شفي» .

وعن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل على مريض قال: «أذهب الباس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» .

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي قال: قدمت على رسول الله ﷺ، وبي جمع قد كاد يبطني، فقال رسول الله ﷺ: «اجعل يدك اليمنى عليه، وقل: بسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد» سبع مرات، ففعلت ذلك، فشفاني الله.

وروي أنه ﷺ كان إذا سافر، فنزل منزلاً يقول: «يا أرض، ربّي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما يخرج منك، وشر ما يدب عليك، وأعوذ بالله من أسد وأسود، وحية وعقرب، ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد» .

وقالت عائشة في الحديث المتقدم: كان رسول الله ﷺ، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) والمعوذتين، في كفه اليمنى، ومسح بها المكان الذي يشتكى (١).

(١) انظر هذه الأحاديث والأدلة الثمانية في تفسير الرازي: ١٨٩/٣٢ - ١٩٠

والأصح جواز النَّقْثِ عند الرُّقِّ، بدليل ما روى الأئمة عن عائشة: أن النَّبِيَّ ﷺ كان يَنْقُثُ في الرُّقِّية. وأجاز الإمام الباقر تعليق التعويد على الصبيان.

وأما النهي عن الرُّقِّ فهو وارد على الرُّقِّ المجهولة التي لا يفهم معناها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّاسِ

مكية، وهي ست آيات

تسميتها:

سميت سورة (الناس)؛ لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وتكررت كلمة ﴿النَّاسِ﴾ فيها خمس مرات. وقد نزلت مع ما قبلها، وهي مكية عند الأكثر، وقيل: مدنية كما تقدم. وعرفنا وجه مناسبتها لما سبقها.

وهي آخر سورة في القرآن، وقد بدئ بالفاتحة التي هي استعانة بالله وحمد له، وختم بالمعوذتين للاستعانة بالله أيضاً.

ما اشتملت عليه السورة:

اشتملت هذه السورة، وهي ثاني المعوذتين، على الاستعاذة بالله تعالى، والالتجاء إلى رب الناس الملك الإله الحق من شر إبليس وجنوده الذين يغوون الناس بوسوستهم.

وقد عرفنا أن هذه السورة وسورة الفلق والإخلاص تعوذ بهن رسول الله ﷺ من سحر اليهود. وقيل: إن المعوذتين كان يقال لهما المقشِقِستان، أي تبرئان من النفاق.

روى الترمذي كما تقدم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «لقد أنزل الله علي آيات لم ير مثلهن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) إلى آخر السورة، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) إلى آخر السورة». وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه مسلم أيضاً.

الاستعاذة من شر الشياطين

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

الإعراب:

﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (٦) إما بدل من ﴿شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ وتقديره: أعوذ برَبِّ الناس من شرِّ الجنَّة والناس، وإما متعلق بمحذوف تقديره: الكائن من الجنة والناس، الذي يوسوس في صدور الناس. وفي ﴿يُوَسْوِسُ﴾ ضمير الجنَّة، وذكره؛ لأنه بمعنى الجنِّ، وكفى عنه مع التأخير؛ لأنه في تقدير التقديم، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ (٦٧) [طه: ٦٧/٢٠] فتقدم الضمير؛ لأن موسى في تقدير التقديم، والضمير في تقدير التأخير.

البلاغة:

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وما بعدها: الإضافة للتشريف والتكريم والاستعانة، فقد أضيف الرَّبُّ إلى الناس؛ لأن الاستعاذة من شرِّ الموسوس في صدورهم، استعاذوا برَّبِّهم مالِكهم وإلههم، كما يستعيز العبد بمولاه إذا دهمه أمر. قال أبو حيان: والظاهر أن ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢)، ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣) صفتان. وقال الزمخشري: عطف بيان للرَّبِّ، فإن الرَّبَّ قد لا يكون ملكاً، والملك قد لا يكون إلهاً.

﴿يَرْبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ﴿١﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾ إطناب بتكرار الاسم، زيادة في التكريم والعون، ومزيد البيان، والإشعار بشرف الإنسان.

﴿الْحَيَّةُ وَالنَّاسِ﴾ بينهما طباق.

﴿يُوسُوسُ﴾ و﴿الْوَسْوَاسِ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

ويلاحظ أن الفواصل منتهية بالسین الذي فيه جَرَسٌ خافت ومهيب وله وقع في النفوس.

المفردات اللغوية:

﴿أَعُوذُ﴾ ألتجئ وأحتمي. ﴿يَرْبِّ النَّاسِ﴾ مربِّيهم ومعنني بشؤونهم، قال البيضاوي: لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار البدنية، وهي تعم الإنسان وغيره، والاستعاذة في هذه السورة من المضار التي تعرض للنفوس البشرية، وتخصها، وعمم الإضافة ثمة، وخصصها بالناس ههنا، فكانه قيل: أعوذ من شرِّ الموسوس إلى الناس برَّبِّهم الذي يملك أمورهم، ويستحق عبادتهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ ﴿١﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾ صفتان تدلان على أنه تعالى حقيق بالإعادة، قادر عليها، غير ممنوع عنها. ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ الموسوس الذي يلقي في النفوس خواطر الشرِّ والسوء. ويصح أن يراد به المصدر أي الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة. ﴿الْحَنَاسِ﴾ صيغة مبالغة، أي من عادته أن يخنس، أي يتأخر بذكر الله، والخنوس: الرجوع والتأخر. ﴿مِنَ الْحَيَّةِ﴾ بيان للموسواس، جمع جني كناسي وإنس، والجن: خلق مستتر لا يعلم به أحد إلا الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾ أي

قل أيها الرسول: ألقأ وأستعين بالله مربي الناس ومتعهدهم بعنائه ورعايته، وخالقهم ومدبر أمرهم ومصلح أحوالهم، وله الملك التام والسلطان القاهر، وهو الإله المعبود الذي يعبد الناس، واسم الإله خاص بالله لا يشاركه فيه أحد، أما الملك فقد يكون إلهاً وقد لا يكون.

وهذه صفات ثلاث لله عز وجل: الربوبية، والملك، والألوهية، فهو رب كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة، عبيد له. وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعانة، فهي تتضمن نعمة الصون والحماية والرعاية، ثم ذكر الملكية؛ لأن المستعبد لا يجد عوناً له ولا غوثاً إلا ماله، ثم ذكر الألوهية؛ لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه.

والسبب في تكرار لفظ «النَّاسِ» هو مزيد البيان والإظهار، والتنويه بشرف الناس مخلوقات الله تعالى، وقال: «رب الناس» مع أنه رب جميع المخلوقات، فخص الناس بالذكر للتشريف، ولأن الاستعانة لأجلهم.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ أي ألقأ إلى الله وأحتمي من شرّ الشيطان ذي الوسوسة، الكثير الخنوس أي الاختفاء والتأخر، بذكر الله، فإذا ذكر الإنسان الله تعالى خنس الشيطان وانقبض، وإذا لم يذكر الله انبسط على القلب. قال ابن عباس في هذه الآية: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقد سلط الله الشيطان على الناس إلا من عصمه الله، للمجاهدة والفتنة والاختبار، ثبت في الصحيح أنه «ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ، وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً، ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار،

فلما رأى النبي ﷺ أسرعاً، فقال رسول الله ﷺ: «على رسلكما، إنها صفة بنت حُتَيٍّ، فقالا: سبحان الله، يا رسول الله. فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال: شراً». وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واصل خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس». وروى الإمام أحمد عن أبي تيمية يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: «عثر بالنبي ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب.

ثم أبان موضع وسوسته، فقال:

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۖ﴾ أي الذي يلقي خواطر السوء والشر في القلوب، وإنما ذكر الصدر لأنها تحتوي على القلوب، والخواطر محلها القلب، كما هو المعهود في كلام العرب.

ثم بين الله تعالى أن الذي يوسوس نوعان: جني وإنسي، فقال:

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۖ﴾ أي إن ذلك الموسوس إما شيطان الجن، فيوسوس في صدور الناس، كما تقدم، وإما شيطان الإنس، ووسوسته في صدور الناس: أنه يُري نفسه كالتناصح المشفق، فيوقع في الصدر كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة، فيجعله فريسة وسوسة الشيطان الجني. وهذا يدل على أن الوسواس قد يكون من الجن، وقد يكون من الناس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢/٦] أي ليست العداوة قهرية جبرية،

وإنما بما أودع الله فيهم من قدرة الاختيار، فمنهم من يختار الإصغاء لوسوسة الشياطين، ومنهم من يحذر عداوتهم ووسوستهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

علّمنا الله تعالى في هذه السورة رحمةً بنا كيفية الاستعاذة من شياطين الإنس والجن، وعرفنا أنه بصفاته الثلاث: الربوبية، والملك، والألوهية، يحمي المستعذ من شرور الشيطان وأضراره في الدين والدنيا والآخرة. ومعنى الربوبية يدل على مزيد العناية وحرص المربي.

وإنما ذكر أنه ﴿يَرْبِّي النَّاسَ﴾ وإن كان ربّاً لجميع الخلق، لأمرين:

أحدهما - لأن الناس معظّمون، فأعلم بذكرهم أنه ربّ لهم، وإن عظموا.

الثاني - لأنه أمر بالاستعاذة من شرّ الناس؛ فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم^(١). ثم ذكر صفتي الملك والألوهية ليبين للناس أنه ملكهم الحقيقي، وإن كان لهم ملوك، وأنه إلههم ومعبودهم، لا معبود لهم سواه، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن، وإما شيطان الإنس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن.

ويلاحظ أن المستعاذ به في سورة (الفلق) مذكور بصفة واحدة وهي أنه «ربّ الفلق»، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي «الغاسق» و«النفّاث» و«الحاسد». وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/٢٦٠

ثلاث: وهي الرب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، وسبب التفرقة: أن المطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في هذه السورة سلامة الدين، ومضرة الدين، وإن قلت، أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت^(١).



وبعد، فقد سجدت شكراً لله تبارك وتعالى على ما أولاني وأسبغ علي من كمال وفيض النعمة ونظام المنة، بانتهاء هذا التفسير الشامل للمأثور والمعقول، والجامع لأنواع البيان وأحكام القرآن، وهو تفسير العصر، وذلك في تمام الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاثنين المبارك الواقع ١٣ من ذي القعدة ١٤٠٨ هـ، الموافق ٢٧/٦/١٩٨٨ م، وكان العمر حينذاك ٥٦ عاماً. وقد تفرغت لهذه المهمة خلال سنوات طوال، هاجرت فيها إلى دولة الإمارات - العين، تاركاً الأهل والولد، مستغرقاً في عظمة كلام ربّي عزّ وجلّ، فازددت إيماناً على إيمان.

وكان أول مؤلف لي في بلدتي (دير عطية) من نواحي دمشق الفيحاء، التي ولدت فيها سنة ١٩٣٢ م، وهو آثار الحرب في عام ١٩٦٢ م، ثم تابعت التأليف والبحث وكتبت أغلب مؤلفاتي وبحوثي التي أربت على الثلاثين في رياض دمشق والعين، فاللهم لك الحمد والشكر، اجعل كل حرف من كتابك وتفسيره وجميع ما صنفته خالصاً لوجهك الكريم، وحقق به النفع والخير، وأعتق به من نارك في الآخرة كل جزء من جسمي وروحي، وشعري وبشري، وعظمي ولحمي، وسمعي وبصري، ونخي ودمي، وأدخلني الجنة بستر وسلام.

سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم يا
لطيفاً فوق كل لطيف، أطفئ بي في أموري كلها كما أحب، ورضني في
دنياي وآخرتي، واغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات.



الخاتمة

من أحكام الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، أي بالبدهة أن إنزال القرآن المجيد على نبي هذه الأمة الإسلامية قصد به العمل بكل ما جاء فيه من الأحكام والشرائع والعقائد والآداب والأخلاق والمواظ، وأنه لا يكفي المسلم أو المسلمة مجرد قراءته أو تلاوته للتعبد والبركة، وإنما للاستفادة بما جاء فيه، فهو دستور الأمة، ونظام حياة الفرد والجماعة، والرعية والدولة.

والسائد في الوسط العلمي أنه لا يُستغنى بتفسير قديم عن تفسير آخر، لاختلاف مناهج المفسرين، وامتياز كل تفسير بميزة لا تتوافر في الآخر، فهذا في العقيدة، وهذا في الأحكام، وذاك في الآثار والروايات الكثيرة، وآخر في التأويل بالمعقول أو في العلوم الكونية، والكل يكمل بعضه بعضاً، أما في العصر الحديث فيصعب على كل مسلم أو بيت اقتناء جميع التفاسير المطولة والمتوسطة والمختصرة، فضلاً عن عسر فهمها أحياناً، وإطالتها، واستطرادها في كثير من الأحوال لأمور بعيدة أو قريبة عن التفسير، وينقصها جميعها التفسير الشامل الموضوعي للآيات، لفهمها جملة واحدة، بسبب عنايتها بالجزئيات والفرعيات، دون وجود تصور متكامل أو عام فيها للآية أو لطائفة من الآيات، وصعوبة إدراك مشتملات السورة وارتباط أجزائها ببعضها، أو التعرف على موضوعها المقصود.

وكذلك يكثر السؤال في وقتنا عادة عن أحسن تفسير يعتمد عليه لمتوسط الثقافة، فلا يكاد المرء يجد جواباً شافياً؛ لأن القديم وُغِر المسالك، والجديد فيه هنات وسقطات، أو جنوح لتأييد بعض الآراء المذهبية، أو تطرف وُبُعد في التأويل وإغراب في بعض الأحيان لإرضاء أذواق العصر.

لذا وجب وضع تفسير شامل معتدل غير متطرف، يجمع بين مزايا التفاسير

المختلفة ويسر على القارئ والتالي فهم الآيات الكريمة بدقة ووعي، ويحيط بكل ما هو ضروري يحقق مقاصد القرآن العظيم في العقيدة والعبادة والتشريع والآداب والأخلاق والسلوك القويم في الحياة، ويفسر القرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة والسيرة الثابتة، وهذا ما أوردته في هذا الكتاب، كما أردت بيان ما يستنبط من الآيات من أحكام شرعية مختلفة.

وذلك بعد أن ألح علي بعض إخواني لتحقيق هذه الغاية، فتوقفت أولاً، ثم شرح الله صدري للعمل الذي يحتاج لجهود مكثفة ووقت طويل الأمد، فوضعت هذا التفسير الشامل لطريقتي أهل المأثور والمعقول، والجامع لأحكام القرآن الذي أنار الطريق أمام كل تالٍ للقرآن، بعبارة سهلة واضحة، وأسلوب سلس بّين، ومنهج منظم متدرج من المفردات إلى الكليات، وكان بحمد الله تعالى جامعاً بين طريقة الوجيز والوسيط والمبسوط، فبيان المفردات اللغوية والإعراب والبلاغة يحقق الإيجاز لمن يكتفي به؛ والتعرف على أسباب النزول والمناسبة بين الآيات والسور وقصص القرآن والبيان لكل طائفة من الآيات، يلبي مطلب التوسط في المعرفة والعلم؛ والانتقال إلى بيان فقه الحياة بمعنى (الفقه الأكبر) الشامل للعقيدة والأخلاق والأعمال والأحكام العملية المستنبطة من الآيات، يتجاوب مع رغبة من أراد التوسط والإطالة والاستيعاب.

ومن أجل السير في هذه المراتب الثلاث المتدرجة، قد يوجد تكرار بينها بقصد تلبية الحاجة، وتيسير المطلب دون حاجة للرجوع إلى ما سبق. ومع ذلك تم تفسير القرآن برتبتين آخرين، وهما التفسير الوجيز والتفسير الوسيط، والناشر دار الفكر.

أما المصادر:

فقد نُبّهت عليها في المقدمة، وأكرر القول بأنني اعتمدت على أغلب ما

كتب في التفسير قديماً وحديثاً، مبتدئاً بتفسير إمام المفسرين ابن جرير الطبري في الآثار والمعقول معاً وأسباب النزول وبعض التصويبات والترجيحات، ثم اعتمدت على تفسير الكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيّان النحوي الأندلسي، وغرائب القرآن للنظام الأعرج وغيرها كالبيضاوي والنسفي وأبي السعود والجلالين في اللغويات والمعاني الدقيقة، والمناسبات، وعلى تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير) في العقائد والإلهيات والكونيات والأخلاق وبعض الأحكام ومناسبات الآيات والسور، وأسباب النزول، مع الرجوع في بيان الأسباب أيضاً إلى (أسباب النزول) للواحدي النيسابوري، و (أسباب النزول) للسيوطي.

كما اعتمدت على تفسير الإمام القرطبي، وأحكام القرآن لابن العربي، وأحكام القرآن للجصاص الرازي في معرفة الأحكام الفقهية، ورجعت في ذلك وغيره أيضاً إلى تفسير الحافظ ابن كثير وفتح القدير للشوكاني والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَيّ، لبيان معاني الآيات وتأَييدها بالأحاديث والأخبار الصحاح، كما استقيت بعض المعلومات من تفسيري الخازن والبغوي.

واستأنست أحياناً بعبارات بعض المفسرين الجدد الجميلة والمفيدة، كتفسير المنار للشيخ رشيد رضا، ومحاسن التأويل للقاسمي، وتفسير المراغي، وفي ظلال القرآن، رحم الله الجميع وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء.

وقد تجنّبت الأخذ في أسباب النزول وغيرها بالأحاديث والروايات الضعيفة والإسرائيليات الدخيلة التي لا تتفق مع عصمة الأنبياء، وضمان سلامة الوحي.

وأما الإعراب فمرجعي الأصلي كتاب (البيان في إعراب القرآن) لأبي البركات بن الأنباري، وأما البلاغة فمرجعي في الغالب كتاب (صفوة التفاسير) للشيخ محمد علي الصابوني، وأما قصص الأنبياء فكنت أرجع مع

الحذر لكتاب (قصص الأنبياء) للأستاذ عبد الوهاب النجار، وأما أحداث ووقائع الغزوات والسيرة فعمدتي فيها كتب السيرة الشهيرة كسيرة ابن هشام، وابن إسحاق، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها مما كتب قديماً وحديثاً.

وأستطيع أن أقول عن خبرة وتجربة ويعد أن عانيت التأليف في رحاب الجامعات مدة ربع قرن فأكثر في الفقه الإسلامي وأصوله وفي الحديث النبوي، وتفسير كتاب الله وغير ذلك: إنه لا تصح العقيدة، ولا تُشرق في النفس معانيها إلا بالقرآن، ولا يستقيم سلوك مسلم إلا بفهم كتاب الله، ولا تلين النفس بعد القرآن إلا بالحديث النبوي وروحانيته الفياضة، ولا يصح عمل المسلم إلا بالأحكام الشرعية المقررة في الفقه، ولا يُعصم العقل والفهم عن الخطأ، ولا تنضبط أحكام الشريعة إلا بأصول الفقه.

ولا أجد الآن خيراً من إهداء شيء للمسلمين في كل مكان، حكماً ومحكومين، غير هذا الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه الترمذي والذاري من علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه مرفوعاً: «كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفضل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشع منه العلماء، ولا يملكه الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا تفي غرائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ من عليم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه، هدي إلى صراط مستقيم».

وكلمتي الأخيرة: إنني في نفسي بالذات كلما فشرت آية أو سورة من كتاب الله، ازدادت إيماناً بصحة تنزيل هذا الكتاب المجيد على محمد رسول الله ﷺ،

وبأنه الكتاب الوحيد المنقذ للبشرية من تخبطها في دياجير الظلمة والضلال، كما ازدادت انبهاراً وثقة و يقيناً بإعجاز القرآن وعظمته، فمهما حاولت إحصاء المعاني والأحكام، يظل كلام الله عز وجل البحر الزاخر والفيض العارم الذي لا يمكن الإحاطة بمراده ومشتملاته، ولكن عملي جُهد المقلِّ والعبد الضعيف الخاضع لله وحده، والعاجز عن إدراك جميع معاني القرآن، والذي يكفيني إعلانه هو القول بأن القرآن العظيم هو الكتاب الفدّ الأول الذي أثر في فكري وسلوكي وتكوين شخصيتي، فاللهم وفقنا جميعاً للعمل به.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الأستاذ الدكتور / وهبة مصطفى الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه

بجامعة دمشق

فهرس المجلد الخامس عشر

فهرس الجزء التاسع والعشرون

الصفحة	الموضوع
٥	تفسير سورة الملك:
٥	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٦	ما اشتملت عليه السورة
٧	فضل السورة
٨	بعض أدلة القدرة الإلهية
١٤	تعذيب الكفار العصاة
٢٠	وعد المؤمنين بالمغفرة وتهديد الكافرين مرة أخرى
٢٥	أنواع من الوعيد والتهديد والعبرة بالأمم السابقة
٣١	توبيخ المشركين على عبادة الأصنام وإثبات قدرة الله واختصاصه بعلم البعث
٣٩	دعاء كفار مكة على النبي ﷺ والمؤمنين بالهلاك
٤٤	تفسير سورة القلم:
٤٤	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٤٥	ما اشتملت عليه السورة
٤٦	كمال الدين والخلق عند النبي ﷺ
٥٢	الأخلاق الذميمة عند الكفار
٦٠	قصة أصحاب الجنة
٦٩	جزاء المتقين وإنكار التسوية بين المطيع والعاصي
٧٦	تخويف الكفار من قدرة الله تعالى وأمر النبي ﷺ بالصبر والتذكير العالمي بالقرآن
٨٤	تفسير سورة الحاقة:
٨٤	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٨٥	ما اشتملت عليه السورة
٨٦	تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به
٩٣	بعض أهوال القيامة

الموضوع	الصفحة
حال الأبرار الناجين بعد الحساب	٩٨
حال الأشقياء يوم القيامة	١٠٢
تعظيم القرآن وإثبات نزوله بالوحي	١٠٧
تفسير سورة المعارج:	١١٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	١١٦
تهديد المشركين بعذاب القيامة وتأكيد وقوعه	١١٨
الخصال العشر التي تعالج طبع الإنسان	١٢٨
أحوال الكفار المكذبين بالرسول ﷺ في الدنيا والآخرة	١٣٥
تفسير سورة نوح:	١٤٣
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	١٤٣
إرسال نوح عليه السلام إلى قومه	١٤٥
مناجاة نوح ربه وشكواه إليه	١٤٩
أنواع من قبائح قوم نوح وأقوالهم وأفعالهم	١٥٩
تفسير سورة الجن:	١٦٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	١٦٧
ما اشتملت عليه السورة	١٦٨
إيمان الجن بالقرآن وبالله تعالى	١٦٩
حكاية أشياء أخرى عن الجن	١٧٩
أنواع أخرى من الموحى به إلى النبي ﷺ وبين أصول رسالته	١٨٧
علم تعيين الساعة مختص بالله عالم الغيب	١٩٤
تفسير سورة المزمل:	٢٠٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٢٠٢
إرشاد النبي ﷺ في بدء الدعوة	٢٠٣
تهديد الكفار وتوعدهم	٢١٦
تذكير وإرشاد بأنواع الهداية	٢٢٢
تفسير سورة المدثر:	٢٣١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٢٣١
فضلها	٢٣٢
سبب نزولها	٢٣٢
إرشادات للنبي ﷺ في بدء الدعوة	٢٣٤
تهديد زعماء الشرك	٢٣٩

الصفحة	الموضوع
٢٤٨	الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم التسعة عشر
٢٥٧	الحوار بين أصحاب اليمين وبين المحرمين
٢٦٧	تفسير سورة القيامة:
٢٦٧	تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة
٢٦٩	إثبات البعث والمعاد وعلائمه
٢٨٠	حرص النبي ﷺ على حفظ القرآن وحال الناس في الآخرة
٢٨٩	تفريط الكافر في الدنيا وإثبات البعث
٢٩٩	تفسير سورة الإنسان:
٢٩٩	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٣٠٠	ما اشتملت عليه السورة
٣٠١	خلق الله الإنسان وهدايته السبيل
٣٠٦	جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة
٣١٥	مساكن أهل الجنة وأشرقتهم وخدمهم وأليستهم
٣٢٥	أحوال الطائعين والمتبردين المشركين في الدنيا
٣٣٤	تفسير سورة المرسلات:
٣٣٤	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٣٣٥	ما اشتملت عليه السورة
٣٣٦	فضلها
٣٣٧	وقوع يوم القيامة حتماً ووقته وعلاماته
٣٤٣	تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر
٣٥٠	أنواع ثلاثة أخرى من وجوه تخويف الكفار - كيفية عذابهم في الآخرة
٣٥٧	الأنواع الباقية من تهديد الكفار وتعذيبهم

فهرس الجزء الثلاثين

الصفحة	الموضوع
٣٦٧	سورة النبأ:
٣٦٧	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٣٦٨	ما اشتملت عليه السورة
٣٦٩	الإخبار عن البعث وأدلة إثباته
٣٧٧	أوصاف يوم القيامة وأماراته ونوع عذابه
٣٨٦	أحوال السعداء
٣٨٩	عظمة الله ورحمته وتأكيد وقوع يوم القيامة وتهديد الكافرين المعاندين
٣٩٥	سورة النازعات:
٣٩٥	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٣٩٦	ما اشتملت عليه السورة
٣٩٧	الحلف على وقوع البحث وأحوال المشركين فيه والرد على إنكارهم إياه
٤٠٣	التهديد بقصة موسى عليه السلام مع فرعون
٤٠٩	إثبات البعث بخلق السماوات والأرض والجبال
٤١٥	جزاء فريقي الناس في الآخرة وتفويض علم الساعة لله تعالى وقصر مدة الدنيا
٤٢٣	سورة عبس:
٤٢٣	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٤٢٤	ما اشتملت عليه السورة وسبب نزول السورة
٤٢٦	المساواة في الإسلام
٤٣١	القرآن موعظة وتذكرة ونعم الله في نفس الإنسان
٤٣٨	نعم الله فيما يحتاج إليه الإنسان
٤٤١	أحوال القيامة
٤٤٧	سورة التكويد:
٤٤٧	تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة
٤٤٨	فضلها
٤٤٨	أحوال القيامة وأحوالها

الصفحة	الموضوع
٤٥٥	الحلف لإثبات صدق الرحي القرآني ونبوة الرسول ﷺ
٤٦٥	سورة الانفطار:
٤٦٥	تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة
٤٦٦	فضلها
٤٦٧	أمارات القيامة والجزاء على العمل وتوبيخ الإنسان على جحود النعم
٤٧٢	علة الجحود وكتابة الملائكة وانقسام الناس فريقين
٤٨٠	سورة المطففين:
٤٨٠	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٤٨١	ما اشتملت عليه السورة
٤٨٢	وعيد المطففين
٤٨٩	ديوان الشر وقصة الفجار
٤٩٦	ديوان الخير وقصة الأبرار
٥٠٣	سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا ومقابلتهم بالمثل في الآخرة
٥١٠	سورة الانشقاق:
٥١٠	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٥١١	ما اشتملت عليه السورة
٥١١	فضلها
٥١٢	أهوال يوم القيامة وانقسام الناس فريقين
٥١٩	تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال
٥٢٦	سورة البروج:
٥٢٦	تسميتها ومناسبتها لما قبلها
٥٢٦	ما اشتملت عليه السورة وفضلها
٥٢٨	سبب نزولها والحكمة منها
٥٢٨	تفصيل القصة - قصة الساحر والرهب والغلام
٥٣٠	القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأعدود
٥٣٧	عقاب الكفار وثواب المؤمنين
٥٤٠	كمال القدرة الإلهية لتأكيد الوعد والوعيد والاعتبار بإهلاك الأمم الكافرة
	السالفة
٥٤٨	سورة الطارق:

الموضوع	الصفحة
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٥٤٨
فضلها	٥٤٩
القسم على أن لكل نفس حافظاً من الملائكة يراقبها وإثبات إمكان البعث	٥٥٠
القسم على صدق القرآن والرسالة وتهديد الكافرين لهما	٥٥٧
سورة الأعلى:	٥٦٢
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٥٦٢
فضلها	٥٦٣
تنزيه الله تعالى وقدرته وتحفيظه القرآن لنبيه	٥٦٤
التذكير وتركية النفس والعمل للآخرة	٥٧١
سورة الفاشية:	٥٨٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٥٨٠
فضلها	٥٨١
حول يوم القيامة وأحوال أهل النار	٥٨١
أحوال المؤمنين المخلصين أهل الجنة	٥٨٦
إثبات قدرة الله تعالى على البعث وغيره والتذكير بأدلة ذلك	٥٩١
سورة الفجر:	٥٩٩
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٥٩٩
ما اشتملت عليه السورة	٦٠٠
فضلها	٦٠١
حتمية عذاب الكفار وجزاء بعضهم في الدنيا	٦٠١
توبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بالآخرة وفرط تمحديه في الدنيا	٦١٠
حال الإنسان المريض على الدنيا والمترفع عنها يوم القيامة	٦١٧
سورة البلد:	٦٢٤
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٦٢٤
ما اشتملت عليه السورة	٦٢٥
ابتلاء الإنسان بالتعب واغتراره بقوته وماله	٦٢٦
مبدأ الاختيار وطريق النجاة في الآخرة	٦٣١
سورة الشمس:	٦٣٩
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٦٣٩

الموضوع	الصفحة
ما اشتملت عليه السورة	٦٤٠
جزاء إصلاح النفس وإهمالها	٦٤٠
العظة بقصة ثمود	٦٤٦
سورة الليل:	٦٥١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٦٥١
فضلها	٦٥٢
اختلاف معنى الناس	٦٥٣
قد أعذر من أنذر	٦٥٨
سورة الضحى:	٦٦٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٦٦٥
فضلها	٦٦٦
نعم الله تعالى على النبي محمد ﷺ	٦٦٧
سورة الشرح:	٦٧٨
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٦٧٨
نعم الله على نبيه وما أمره به	٦٧٩
سورة التين:	٦٨٨
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٦٨٨
فضلها	٦٨٩
حال النوع الإنساني خلقاً وعملاً	٦٨٩
سورة العلق:	٦٩٩
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٦٩٩
كيفية نزول هذه السورة - حديث بدء نزول الوحي	٧٠٠
الحكمة في خلق الإنسان وتعليمه القراءة والكتابة	٧٠٢
صور أخرى من الطفيان وتهديد الطغاة ووعيدهم	٧١٠
سورة القدر:	٧٢٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٧٢٠
معنى نزول القرآن في ليلة القدر	٧٢١
بدء نزول القرآن وفضائل ليلة القدر	٧٢٧
تعيين ليلة القدر	٧٢٧

الموضوع	الصفحة
أماراتها وعلاماتها	٧٢٨
الحكمة في إخفائها بين الليالي وفضائلها	٧٢٨
سورة البينة:	٧٣٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٧٣٠
فضلها	٧٣١
لا تكليف بلا بيان ولا عقوبة دون إنذار	٧٣٢
وعيد الكفار ووعيد الأبرار وجزاء الفريقين	٧٤١
سورة الزلزلة:	٧٤٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٧٤٧
ما اشتملت عليه السورة	٧٤٨
سبب نزولها وفضلها	٧٤٨
أماراة القيامة والجزاء على الخير والشر	٧٥٠
سورة العاديات:	٧٦٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٧٦٠
جحود النعم والبخل لحب الخير وإهمال الاستعداد للآخرة	٧٦١
سورة القارعة:	٧٦٨
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٧٦٨
أهوال القيامة وأماراتها وميزان الحساب فيها	٧٦٩
سورة التكاثر:	٧٧٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٧٧٦
سبب نزول السورة	٧٧٧
التفاخر في الدنيا والسؤال عن الأعمال	٧٧٧
سورة العصر:	٧٨٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٧٨٦
فضلها	٧٨٧
رسالة الحياة أو حال المؤمن والكافر	٧٨٨
سورة الهمزة:	٧٩٣
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٧٩٣
سبب نزولها	٧٩٤

الموضوع	الصفحة
الطَّعَّانَ والعيَّاب للناس وجزاؤه	٧٩٥
سورة الفيل:	٨٠١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٨٠١
أضواء من التاريخ على قصة أصحاب الفيل	٨٠٢
قصة أصحاب الفيل	٨٠٤
سورة قريش:	٨١٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٨١٠
ما اشتملت عليه السورة وفضلها	٨١١
التذكير بنعم الله على قريش	٨١١
سورة الماعون:	٨١٨
مكيثها أو مدنيثها، تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٨١٨
ما اشتملت عليه السورة	٨١٩
الكافر النكر الجزاء الأخروي والمناق المراتي بعمله وعقاب كل منهما	٨٢٠
سورة الكوثر:	٨٢٧
مكيثها أو مدنيثها، تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٨٢٧
ما اشتملت عليه السورة وفضلها	٨٢٨
سبب نزول السورة	٨٢٩
المنح المعطاة للنبي ﷺ	٨٣٠
سورة الكافرون:	٨٣٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٨٣٧
فضلها وسبب نزولها	٨٣٨
سورة البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين	٨٤٠
سورة النصر:	٨٤٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٨٤٦
فضلها وسبب نزولها	٨٤٧
وقت نزول هذه السورة	٨٤٧
فتح مكة	٨٤٩
سورة المسد:	٨٥٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٨٥٥

الموضوع	الصفحة
سبب نزول السورة	٨٥٦
جزاء أبي لهب وامراته	٨٥٧
سورة الإخلاص:	٨٦٤
١ تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٨٦٤
فضلها	٨٦٥
سبب نزول السورة	٨٦٦
سورة التوحيد والتنزيه لله عز وجل	٨٦٦
سورة الفلق:	٨٧٢
مكيته أو مدنيته، وتسميتها ومناسبتها لما قبلها	٨٧٢
ما اشتملت عليه السورة	٨٧٣
فضل الموعدين	٨٧٣
الاستعاذه من شرّ المخلوقات	٨٧٥
سورة الناس:	٨٨٢
تسميتها وما اشتملت عليه السورة	٨٨٢
الاستعاذه من شرّ الشياطين	٨٨٣
الخاتمة	٨٩٠
فهرس الجزء التاسع والعشرون والجزء الثلاثين	٨٩٥

